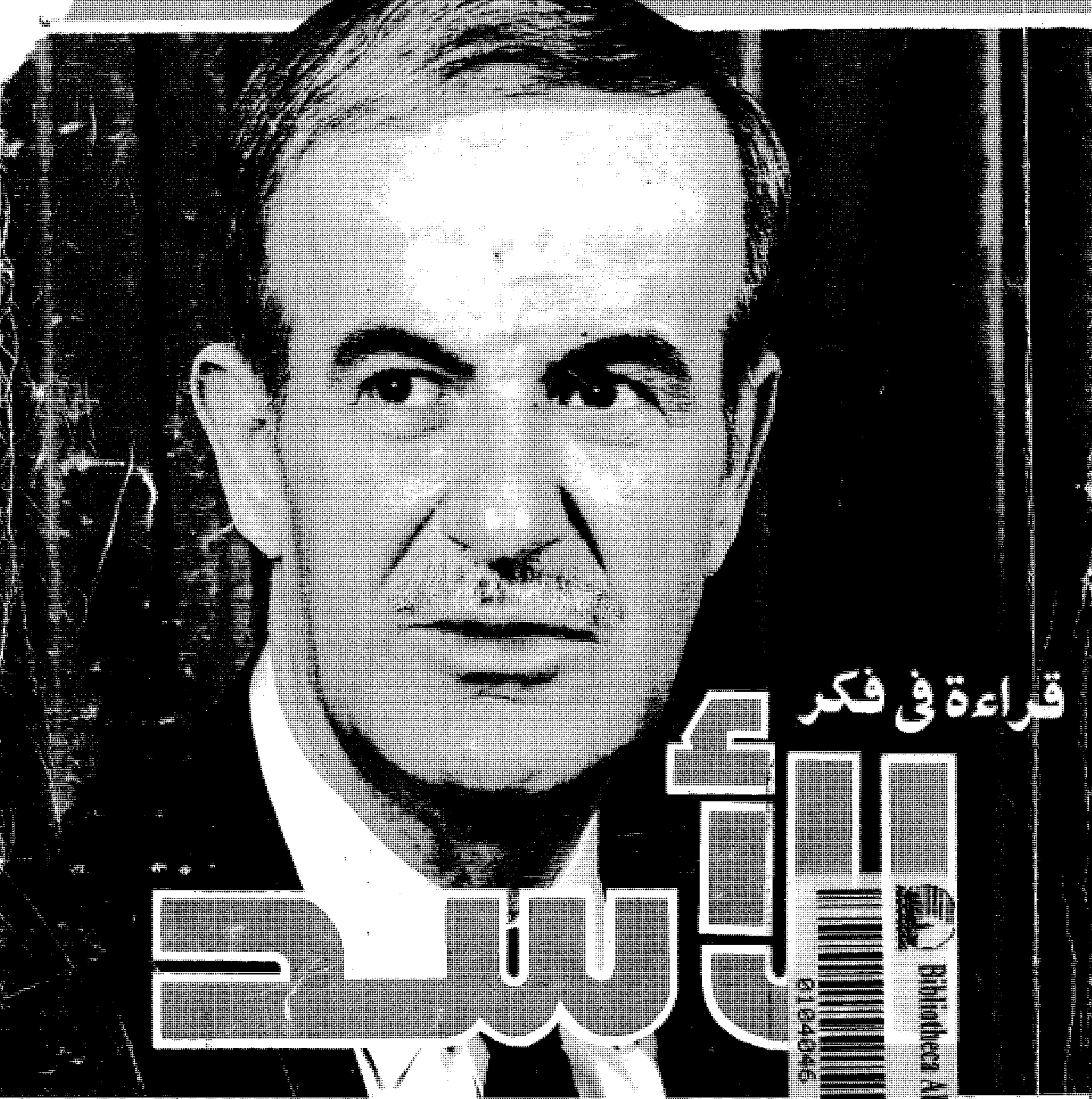
١٩٨٤

التاريخ لا تحركه الصد...

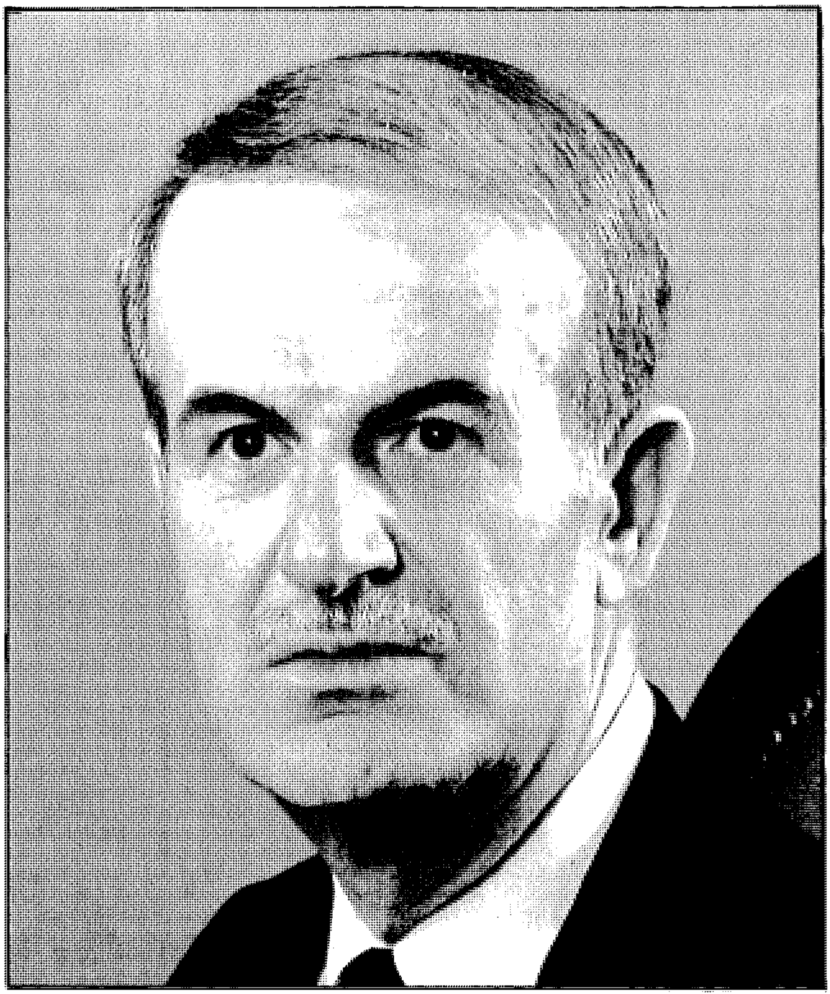


قراءة فى فكر الأسد

تقد...
ابراهيم سعده

تأليف
عادل رضا

التاريخ لا تحركه الصدفة



قراءة فى فكر الأسد

عادل رضا

تصميم الغلاف والاخراج الفنى

أحمد السعيد

■■ الإهـــداء ■■

□□ إلى الشعب العربى الشقيق فى سورية الحبيبة ، الصامدة ، فى وجه التحدى .. أقدم هذه الاطلالة فى فكر قائد عربى كبير ، له تجربته الخصبة ، الثرية فى مجالات العمل الوطنى والقومى ، وهى تجربة جديرة بالرصد ، والتحليل المتعمق ، لأنها تجربة القائد المفكر ، والمناضل الشجاع ، المؤمن بربه ، وبأمته ، وبأنه لا وجود لمستحيلات .. لم ترهبه الظروف ، ولم يخضع للعواصف ، ولم يرض فى حال من الأحوال أن يجاوز ثوابته ومبادئه ، التقط فيض ضمير شعبه ، وحرك تاريخ أمته ، ووضع شعبه فى المسار المحقق للتطور المنشود والمأمول دون اخلال بالمبادىء ، ودون خروج على المفاهيم القومية ، وبقى فى كل الأحوال رائد مدرسة الوضوح السياسى ، وصاحب الفكر الواضح الذى تنعدم فيه المسافة الفاصلة بين الوسيلة ، والهدف ، فما تستر على هدفه إلا بالوضوح ، ولا استعان على تحقيقه إلا بالعلانية ، والتى تجرده من احتمالات التأويل والتفسير ، وبالوضوح وبالعلانية صنع لوطنه تاريخه الحديث وهو تاريخ مترابط الأواصر مع الماضى المشرق ، المجيد حتى أصبحت سورية فى الطليعة بين الأشقاء العرب ، وبين دول العالم الثالث دون اخلال بالمبادىء أو خروج على المفاهيم الوطنية ، وبغير تحد للأفكار التى حملها الشعب السورى فى تاريخه النضالى الحافل ، ولهذا استقطب محبة الجماهير وقلوبها لأنه خاطب الضمائر ، وقدم براهين صدقه وشرف حمله للمسئولية .

تحية للرجل الذى يجعل كل أيامه بصمات فى تاريخ وطنه وأمته العربية .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾

صدق الله العظيم

هـــذا

الكتـــاب



بقلم : ابراهيم سعده

اختلفت **مع الرئيس حافظ الأسد أكثر من مرة** . كنت ـ مثل كل جيلى من المصريين ـ مبهورا بالرئيس السورى الذى تولى الحكم فى دمشق ، وأعاد الأمن والاستقرار بعد أن عاشت سورية الشقيقة سلسلة من الانقلابات العسكرية الفاشلة ، الواحد بعد الآخر ، مما دفع ضابط الطيران الشاب حافظ الأسد إلى أن يقوم بحركته التى عبر بها عن رغبة شعبه فى أن يعود للبلاد أمنها واستقرارها ، بعد أن أرهقها صراع « الجنرالات » الذى لا ينتهى إلا ليبدأ من جديد !

وبنفس الانبهار .. تابعنا ـ فى مصر ـ ما قام ويقوم به الطيار الشاب حافظ الأسد لإعادة بناء بلاده اجتماعيا ، واقتصاديا ، وعسكريا . رأينا فيه الشاب الوطنى الذى يشتعل قلبه بحتمية الوحدة العربية ، كأساس لابد منه لإعادة الصحوة العربية المفقودة ، ليكون للأمة العربية ـ من المحيط إلى الخليج ـ مكانها المرموق تحت الشمس . ورأينا فيه ـ أيضا ـ البطل

الشجاع الذى يحرص فى كل خطبه ، وكل تصريحاته ، وكل اتصالاته ، على ضرورة التصدى للخطر الاسرائيلى الذى لن يكتفى بالتهام دولة فلسطين ورفع اسمها وحدودها من فوق خريطة الشرق الأوسط ، وإنما يخطط لالتهام باقى أراضى أمتنا العربية القريبة منه والبعيدة عنه تحت سمع وبصر الدول الكبرى وبتأييدها المعلن ، مرة ، والمستتر ، مرة أخرى !

وكان الرئيس حافظ الأسد عند حسن ظننا عندما خطط مع الرئيس المصرى الراحل أنور السادات لمعركة الثأر، حرب استرداد الأراضى العربية المحتلة التى اغتصبها الصهاينة فى حروبنا السابقة معهم.

ونشبت الحرب فى العاشر من رمضان سنة ١٩٧٣.

وكانت ملحمة وطنية ، وعسكرية ، وبكل المقاييس المتعارف عليها . **التحم المقاتل السورى مع شقيقه المقاتل المصرى وقدما معا أروع وأعظم انتصار عسكرى حققه العرب فى العصر الحديث** . قبل هذه الحرب الخالدة كنا ـ كعرب ـ لا نستطيع النظر فى عيون الآخرين خجلا وألما وحسرة بعد هزيمتنا فى حرب الأيام الستة ـ من عام ١٩٦٧ ـ والتى اختطف العدو الاسرائيلى نصرها وثمارها بعد أن دفعنا ـ بواسطة الدول العظمى ـ الى خوضها قبل أن نحسن الاستعداد لها !

فى تلك الحرب الخاطفة فقدت مصر أرضها فى سيناء ، وفقدت سورية أرضها فى مرتفعات الجولان ، وأعلنت اسرائيل ـ بكل صفاقتها ـ ضم الضفة الغربية العربية الى أراضيها !

هذا كله حدث فى ستة أيام من بداية شهر يونيو الحزين ، والذى سيظل كذلك ـ فى قلوبنا ـ لأجيال طويلة قادمة .

ومما ساعد على زيادة « الهول » فى عقولنا وقلوبنا ما قامت به أجهزة الاعلام الغربية من دعاية للمغتصب المنتصر الاسرائيلى ، وأظهرته أمام الدنيا كلها فى صورة « الشعب الذى لا يقهر !» ، كما هللت للجيش الاسرائيلى « الذى لا يهزم ! » .

ويخطىء من يظن أن الشعب العربى ـ من المحيط إلى الخليج ـ لم يتأثر بتلك الدعاية الصهيونية التى نجحت ـ وربما لأول مرة ـ فى إقناع الرأى العام العالمى « بوحشية » المجنى عليه ، و« ببراءة » الجانى والمعتدى !

سنوات وسنوات مرت على حرب ١٩٦٧ ، ولم نستطع ـ كشعب عربى ـ أن ننساها أو أن نتسامح مع من أوقعونا فيها . والأهم من هذا .. **أننا فقدنا الثقة . وربما لأول مرة . فى قدراتنا السياسية وإمكاناتنا العسكرية فى نفس الوقت** ! لم نعد نصدق أى تصريح من قادتنا يبشرنا فيه باقتراب معركة الثأر من العدو المغتصب ! لم نعد نتحمس لما يذاع وينشر عن عملية إعادة بناء القوة العسكرية العربية من الصفر ، ولم نعد نهلل لتدفق الأسلحة المتطورة على

قواتنا المسلحة ، ولسان حالنا يتساءل بسخرية مؤلمة : « وهذه الأسلحة ستتحطم هي الأخرى في أول معركة قادمة ! » .

زعيمان عربيان فقط هما اللذان كانا يتألمان من عدم تصديق الشعب العربي لما يقال ويتردد عن حتمية معركة الثأر المنتظرة . **الزعيمان هما : الرئيس الراحل أنور السادات ، والرئيس السوري حافظ الأسد** . لم يحدث أن اهتزت ثقة الزعيمين العربيين ـ السوري والمصري ـ في قدرات المقاتل العربي . على العكس من ذلك كانا يؤمنان بشجاعة وبطولة المقاتل العربي ، وبشرط أن تتاح له الفرصة الكاملة للتدريب ، والاستيعاب ، والأهم من ذلك أن تخطط له المعركة القادمة تخطيطا سليما ودقيقا ، حتى يمكنه أن يثبت ذاته ويفزع عدوه .

كان التفاهم كاملا بين الزعيمين العربيين حول ضرورة توفير كافة الاستعدادات والضمانات من أجل معركة الثأر التي لا بديل عن النصر فيها ! وهذا ما تحقق ـ بالفعل ـ في حرب العاشر من رمضان التي انتصر فيها السوريون والمصريون على جيش الغدر الذي زعموا ـ ذات يوم ـ أنه الجيش الذي لا يهزم ! لم يكن الشعب العربي وحده الذي أدهشه هذا الانتصار العربي الكبير ـ واليتيم في نفس الوقت ـ وإنما العالم كله شاركنا في تلك الدهشة !

لقد أجبرت هذه الهزيمة الرأي العام العالمي على أن يعيد النظر في أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يهزم ! فلقد ظهر هذا الجيش ـ الذي كان يتباهى بأنه يسمع « دبيب النمل » في قاعات وغرف نوم القادة العرب (!) في صورة الزوج الذي هو آخر من يعلم عندما حانت ساعة الصفر وبدأ الجيشان العربيان ـ السوري والمصري ـ يزحفان لدك واقتلاع التواجد الاسرائيلي المسلح من الأراضي العربية المحتلة !

كانت تلك الحرب بمثابة مفاجأة أذهلت العدو والصديق في نفس الوقت ، كما أكدت ثقة ـ الأسد والسادات ـ في المقاتل العربي الذي ظلم ، وتحمل أخطاء وخطايا الآخرين في صمت وألم عميقين .

لقد كان الشعب المصري فخورا بالأبطال السوريين بنفس فخره بالأبطال المصريين ، كما أن شعبية الرئيس حافظ الأسد ـ بين المصريين ـ ارتفعت وتوهجت باعتباره الشريك في تحقيق أمل الأمة العربية في الثأر من العدو ، والذي استغل نقاط ضعفنا وحقق نصرا لم يكن من الممكن تحقيقه لو اختلفت الظروف ، واختلف الأشخاص . إن حب الشعب المصري لشقيقه الشعب السوري ليس بالجديد ، ولكنه ـ أي هذا الحب ـ تضاعف بعد أن اختلط الدم السوري بالدم المصري في أشرف معركة وأقدس حرب .

وعشنا ـ سورية ومصر ـ أزهى وأحلى فترة فى تاريخنا .

وكان يمكن أن تستمر تلك الفترة حتى هذه اللحظة لولا الجديد الذى طرأ على الساحة السياسية ، واختلفنا حوله !

ذات يوم .. فاجأ الرئيس الراحل أنور السادات العالم كله بعزمه الذهاب الى تل أبيب ومواجهة العدو فى عقر داره ! كان القرار مذهلا ، وصاعقا ، وانقسمنا حوله ـ فى مصر ذاتها ـ بين مصدق مذعور ، ومكذب مفزوع ، يرددان معا سؤالا واحدا يقول :

« هل يجرؤ مواطن عربى ـ وليس رئيسا لأكبر دولة عربية ـ أن يذهب الى عاصمة « الدولة » المحظور **عربيا وقوميا الاعتراف بها أو السلام معها ؟!** وهل يمكن أن تتبدد شعاراتنا ومواقفنا وأهدافنا التى تجمع كلها على حتمية الحرب المقدسة ضد العدو وإنهاء دولته واسترداد أرضنا وكرامتنا وحقوقنا منه ، بمثل هذه البساطة وبقرار لا يمكن أن يمر مرور الكرام على فكر أو خيال أى مواطن عربى ؟! » .

قبل ان يعلن الرئيس السادات هذا القرار المذهل ، حرص على أن يطير للتشاور مع الملوك والرؤساء العرب ويطرح عليهم مبادرته وليؤكد لهم أنه وحده الذى يتحمل نتائجها فى حالة فشلها . **وكان الرئيس حافظ الأسد على رأس قائمة هؤلاء الملوك والرؤساء العرب الذين رأى الرئيس المصرى أن من واجبه القومى تجاههم أن يحاطوا علما بمبادرته وبأهدافها .**

وكلنا نعرف ماذا حدث بعد ذلك .

رفض الملوك والرؤساء العرب تلك المبادرة **وحاول الرئيس حافظ الأسد إقناع الرئيس السادات بعدم القيام** بها لأنه « لا جدوى من وراء أى اتصال مع العدو الاسرائيلى الذى لا يريد سلاما إلا على أنقاض الأمة العربية » . ولم يقتنع الرئيس الراحل السادات بهذه الاعتراضات كلها وغيرها ، بل صمم على المضى فى تنفيذ قراره التاريخى ، فى نفس الوقت الذى تفهم وجهة نظر الملوك والرؤساء العرب وبالذات الرئيس السورى حافظ الأسد الذى يكن له أطيب وأصدق المشاعر والمودة .

ومن المبالغة أن نقول : أن الشعب المصرى « كله » ـ من الاسكندرية حتى أسوان ـ كان مؤيدا لمبادرة السادات أو موافقا على توقيع اتفاقية سلام مع عدونا اللدود قبل أن تعود دولة فلسطين ، وتعود الحقوق المغتصبة للفلسطينيين . **كان هناك من بين المصريين من يرفض تلك المبادرة** ، ويرفض قرار الرئيس المصرى بزيارة العدو فى عقر داره ، ويندد أكثر بتوقيع اتفاقية السلام مع اسرائيل .

الذين رفضوا السلام مع اسرائيل ـ من المصريين ـ لم يتعرض أحد لهم ، فهذا حقهم لأن الخلاف فى الرأى ـ وبالذات بالنسبة للقضايا الكبرى والمصيرية ـ هو ألف باء الديمقراطية كما نفهمها ونطبقها . والذين أيدوا المبادرة وهللوا لاتفاقية تعيد كل شبر من الأراضى المصرية المحتلة ، كانوا على ثقة فى أن الزمن وحده هو الذى يمكنه أن يحكم لصالحهم أو لصالح الجانب الآخر الذى رفض ، وندد ، بالمبادرة وبنتائجها .

وعلى الصعيد العربى .. كانت الصورة قاتمة ومؤسفة خاصة بعد قمة بغداد ! التى أصدرت عدة قرارات أخطرها قطع جميع العلاقات مع مصر عقابا لها على توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل والتى بمقتضاها استردت مصر كل شبر كان تحت الاحتلال .

واستمرت المقاطعة سنوات وسنوات ، كما شهدنا فترة أليمة تحول فيها الخلاف فى الرأى الى عداء شخصى استخدم فيه الطرفان كل ما يخطر وكل ما لا يخطر على البال من أسلحة الكلام الذى تهاوى وتدنى بشكل لم نعهده منذ زمن بعيد !

ولست هنا فى مجال تحديد من الذى بدأ ، أو من الذى أخطأ .. وإنما الذى يهمنى هو أنه آن الأوان ـ ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ـ أن نعيد النظر فى تعاملنا مع من يخالفنا فى الرأى .

اننى أعترف بأن مبادرة الرئيس السادات وقراره بالسفر إلى عاصمة العدو ، كانا بمثابة صدمة كبرى للجميع .. وبلا استثناء ، ومازلت أذكر اننى كنت مذهولا فور سماعى بهذا الخبر الجلل ! كنت متشائما الى أبعد حدود التشاؤم .. لا لأننى ضد حل القضايا السياسية والدولية المعلقة حول مائدة المفاوضات ، ولكن لثقتى فى أن هذا التفاوض يمكن أن ينجح مع أى بلد ومع أى شعب ما عدا اسرائيل ويهود اسرائيل . فتجاربنا المريرة مع الاسرائيليين ـ على مدى عقود الصراع والحروب معها ـ أكدت وأثبتت أنه لا فائدة ولا جدوى من وراء أى تفاوض معهم .

وسرعان ما تغير رأيى عندما أكدت الأيام نجاح تلك المبادرة ، وكم كان من الممكن جدا أن يتضاعف حجم المكاسب التى حصل عليها العرب بدلا من أن تعود تلك المكاسب على مصر وحدها التى استردت أرضها المحتلة دون إراقة قطرة دم واحدة .

جميع الرؤساء والملوك والشيوخ العرب هاجموا اتفاقية كامب ديفيد ونددوا بعملية السلام بين مصر واسرائيل . وهذا حقهم بالقطع . **وكم كنت أتمنى أن تشارك سورية شقيقتها مصر فى عملية السلام بعد أن شاركتها فى معارك الحرب . كنت أتمنى لو أن بطل حرب أكتوبر ـ الرئيس حافظ الأسد ـ شارك فى تلك المفاوضات بنفس البسالة التى خاض بها الحرب .**

لو حدث هذا لأمكن زيادة الحصار حول اسرائيل لننتزع منها المزيد والمزيد من حقوقنا المغتصبة .

لهذا السبب وحده اختلفت مع الرئيس حافظ الأسد وقتذاك . لم اهتم بمعارضة الآخرين الذين لم يشاركوا فى حرب ولم يفقدوا أرضا ، وبالتالى لا يضيرهم أن تظل « القضية » معلقة ومجمدة الى أجل غير مسمى ! ولكن الأمر يختلف بالنسبة للرئيس حافظ الأسد الذى حرمنا من ثقله الدولى الكبير ، ومن حنكته السياسية المميزة ، ومن شفافيته المعروفة عنه فى استطلاع مستقبل الأحداث ، ووجدنا انفسنا نواجه عدوا جشعا يحتمى بقوى عظمى هائلة ! ولا أذيع سرا إذا قلت إن هذا كان نفس رأى الرئيس الراحل أنور السادات فى شخص الرئيس حافظ الأسد . فبعد سنوات من المقاطعة الشاملة بين العرب ومصر ، ظل الرئيس الراحل يذكر الرئيس الأسد بكل الحب وبكل الأسف لأنه لم يشاركه فى معركة السلام التى لم تكن سهلة مع خصم يقبل باستقطاع لحمه بدلا من التفريط فيما يعتقد أنها أرضه !

وما كان السادات يقوله عن الرئيس الأسد .. قال مثله وأكثر منه الرئيس محمد حسنى مبارك . فالصداقة بين الأسد ومبارك قديمة ، وطيدة ، ولم تتأثر أو تتوقف الاتصالات بينهما حتى خلال سنوات القطيعة التى لا أعادها الله مرة أخرى . لقد جمعت العسكرية بينهما ، كما اشتركا فى تخطيط وتنفيذ حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ وتحملا فى ذلك مسئولية هائلة لا يقدر على تحملها غير الرجال ..وأى رجال .. مازلت أذكر الزيارة الأولى التى قام بها الرئيس حسنى مبارك لدمشق بعد عودة العرب الى مصر وعودة مصر الى العرب . كانت السعادة بادية وواضحة على وجهى الزعيمين العربيين الشقيقين ، وهى السعادة التى انتقلت بدورها إلى كل الوجوه التى أتيحت لها فرصة مشاهده هذا اللقاء الحار الذى أسعد الشعبين الشقيقين سعادة كانت مفتقدة لسنوات وسنوات .

وبعد انتهاء المباحثات بين الزعيمين العربيين الكبيرين ، وافق الرئيس حافظ الاسد على لقاء رؤساء تحرير الصحف المصرية المرافقين للرئيس حسنى مبارك . كانت هذه هى أول مرة أرى فيها الرئيس الأسد وأستمع اليه . بساطته المتناهية لفتت نظرى على الفور . كما شدنى اليه حديثه الهادىء ، السلس ، والصريح لأبعد حدود الصراحة . حدثنا عن القضايا العربية بكل أبعادها . صارحنا برأيه وتوقعاته لمستقبل الاتحاد السوفيتى وكان جورباتشوف مايزال ـ وقتذاك ـ رئيسا لهذه الدولة العظمى التى تمزقت وتفتت بعد ذلك ! ولم يكتف الرئيس حافظ الاسد بذلك ، وإنما تحدث عن العالم الجديد الذى بدأ الحديث يتردد عنه

هنا وهناك . توقعات الرئيس الأسد لهذا العالم الذى لم تكن معالمه واضحة حتى تلك اللحظة ، كانت دقيقة ومحددة بلا مبالغات أو تحفظات .

ومضى الوقت سريعا ، ونحن نستمع لى الرئيس حافظ الأسد وهو يستعرض أحوال الدنيا القريبة منا والبعيدة عنا ، بأكبر كم من المعلومات ، وبأكبر حجم من الصراحة والوضوح . وبعدها فتح لنا الرئيس الأسد صدره ليجيب عن أسئلتنا . ولم يكن من المعقول أن تتاح لنا هذه الفرصة الكبيرة للقاء الزعيم العربى الكبير دون أن نسأله عن موقفه من زيارة الرئيس الراحل السادات لتل أبيب ، وموقفه - أيضا - مما حدث بعد تلك الزيارة انتهاء باتفاقية كامب ديفيد بين مصر واسرائيل والتى شاركتهما فيها الولايات المتحدة الأمريكية .

وبنفس البساطة ، وبنفس الوضوح ، أعاد الرئيس الأسد الى أذهاننا تفاصيل ما دار بينه وبين السادات قبل أن يقوم بزيارته لاسرائيل . كان حريصا على أن ينسب إلى السادات كل ما قاله له فى محاولة إقناعه بالموافقة على مبادرته ، دون إهمال جزئية أو تجاهل نص عبارة قالها الرئيس المصرى ، ثم انتقل الرئيس الأسد - بعد ذلك - ليكشف لنا نص ما قاله للسادات ردا على ما سمعه منه ، وهو الرد الذى حمل رفض سورية لتلك المبادرة لأسباب عديدة لم يتردد الرئيس الأسد فى مصارحتنا بها .

لقد أعجبنى أن الرئيس الأسد - طوال الفترة التى تحدث فيها عن أسرار العلاقات السورية المصرية فى تلك الفترة - التى لا تنسى - أنه لم يقل كلمة واحدة يفهم منها من بعيد أو قريب أنه ينتقد الرئيس المصرى الراحل أو يشكك فى وطنيته وعروبته . كان أمينا كل الأمانة وهو يستعرض وجهة نظر السادات ، كما كان واضحا كل الوضوح وهو يعدد لنا الأسباب التى جعلته يرفض تلك المبادرة . **وهذا الموقف النبيل من الرئيس حافظ الأسد ضاعف من احترامى له كرجل دولة لا يقبل أن يتحول الخلاف فى الرأى إلى عداء شخصى !**

لقد انتهى اللقاء الطويل مع الرئيس الأسد ، وتوجهنا بعده لنلحق بطائرة الرئيس مبارك فى طريق عودتنا إلى القاهرة ، ولا حديث لنا - طوال رحلة العودة - إلا حول ما دار فى هذا اللقاء ، من جهة ، والإجماع على انبهارنا واحترامنا للزعيم العربى الكبير .

■ ■ ■

وتوطدت العلاقات بين دمشق والقاهرة ، كما تعددت الزيارات المتبادلة بين الزعيمين العربيين الكبيرين : الأسد ومبارك . ومع تعدد هذه الزيارات ، ومع تكرار الفرصة امامنا للقاء الرئيس السورى والاستماع الى إجاباته عن أسئلتنا ، ازددت اقتناعا بضرورة أن نقدم للقارىء المصرى - بصفة خاصة - وللقارىء العربى - بصفة عامة - كتابا يروى السيرة

الذاتية للرئيس الأسد ، ويكشف من خلالها ما لا يعرفه القارىء العادى عن هذه الشخصية القيادية الفذة فى عالمنا العربى .

لقد طلبت من زميلى وصديقى الأستاذ عادل رضا أن يتولى مسئولية هذا الكتاب ، لما أعرفه عن حماسه وإعجابه الشديدين بشخص الرئيس حافظ الأسد ، من جهة ، وخبرته الطويلة فى الشئون العربية - بصفة عامة والشئون السورية بصفة خاصة - وكما توقعت .. كان عادل رضا سعيدا بهذا التكليف ، وسعيدا - أكثر - بتلك الفرصة التى أتيحت له ليكتب كتابا عن الزعيم العربى الكبير .

لقد رأى المؤلف أن يتفرغ تماما لهذا العمل الكبير الذى تحمس له ، واقتنع بأهميته وضرورته ، ولولا هذا الاقتناع لما نجح الأستاذ عادل رضا فى أن ينتهى من هذا الكتاب فى أسرع وقت مستطاع ، ولما خرج الكتاب فى صورته النهائية التى تفخر دار « أخبار اليوم » بصدوره عنها .

إبراهيم سعده

□□ بـــداية □□

(١)

□□ **فى البداية** لابد من الاشارة إلى أن صاحب الفضل فى إصدار هذا الكتاب هو كاتبنا الكبير **الأستاذ إبراهيم سعده رئيس مجلس الادارة ورئيس تحرير « أخبار اليوم »**، الذى تفضل ذات صباح بدعوتى إلى مكتبه ليشرح فكرة هذا الكتاب والهدف منه ، والذى لخصه فى ضرورة توثيق الصلة بين شعوب بلداننا العربية من خلال عرض قصص كفاح هذه الشعوب ، وتاريخ قادتها الحافل ، والملىء بالعظات والعبر ، وأيضا من خلال تتبع العلاقات الوثيقة التى ربطت مصر مع شقيقاتها الدول العربية .

وفى عبارات رشيقة ، سريعة الايقاع تلطف الأستاذ إبراهيم سعده مُعربا عن أمله ـ وهو يُسند إلىّ مهمة اعداد هذا الكتاب ـ فى أن يجىء على النحو المأمول وفى زمن وجيز تاركا لى مهمة التنقيب والبحث والدراسة فيما يتعلق بفصول هذا المؤلف .

ولقد شاءت المصادفة أن يتزامن هذا التكليف مع انشغالى بكتاب كنت قد بدأت العمل فيه حول قضايا مصرية سورية ، شديدة الشبه مع فكرة الكتاب المقترح ، وكان الموعد المحدد لإصدار هذا الكتاب فى ذكرى قيام الوحدة السورية المصرية فى فبراير المقبل ، وكان عنوان هذا الكتاب « مهددات الأمن القومى العربى فى التسعينات » .

ولقد وافقت على الفور على فكرة هذا الكتاب ، وكان لدىّ من الأسباب والشواهد والمسوغات ما يجعلنى أرحب ترحيبا شديداً بإعداده .. **فالرئيس حافظ الأسد فى مقدمة**

الزعماء العرب الذين أعتز بمعرفتهم اعتزازا شديدا، ولقد أتاحت لى ظروف عملى الصحفى أن ألتقى به مرات عدة قبل انتخابه رئيسا للجمهورية وأيضا بعد انتخابه، وأن أتعرف على أفكاره وآرائه عن قرب، وعبر حوارات اتصلت لوقت غير قصير، وعلى الرغم من كثرة اللقاءات الخاصة والعامة مع الرئيس حافظ الأسد، **فإن ذكريات أول لقاء معه مازالت ماثلة أمام مخيلتى بكل تفاصيلها**، وكأنها وقعت بالأمس القريب.

كان اللقاء الأول مع الرئيس الأسد ضمن وفد صحفى سورى محدود للغاية، وكنت الصحفى الوحيد غير السورى الموجود ضمن الوفد، وكانت الزيارة لمنطقة الجولان.. خلال هذه الزيارة أتيح لى أن أعرف الكثير عن أفكاره وعن تصوراته وعلى الرغم من أن موقعه وقتئذ كوزير للدفاع كان يفرض المقدمات بحثا عن الشكل المناسب للسؤال المناسب، إلا أن وضوحه وبساطته، وصراحته، وعمق تحليله، واقتحامه فوراً إلى لُبِّ الحديث، تعالياً على المقدمات، اصرارا على النتائج، دفعنى إلى طرح عشرات الأسئلة عليه. وقد ظل الرجل بصبره الطويل مستمعا لأسئلتى العديدة والمتنوعة، وبصوته العميق بدأ يجيب، ويحلل ويستزيد.

وعندما عدت إلى أوراقى القديمة **عن ذكريات هذا اللقاء الأول لى مع الرئيس حافظ الأسد** وجدت الكثير مما يمكن أن يُروى عنه، ووجدت أيضا أنه كان كمن يستشف بعمق تحليله لما سيحدث..

حدثنا الرئيس الأسد فى هذا اللقاء عن الجيش العربى السورى، ونشأته، وعاد بنا إلى تاريخ هذه النشأة فى اغسطس ـ آب ١٩٤٦، مؤكدا أن ولادة هذا الجيش كان نصراً اكيداً حققه الشعب السورى لانتصار ارادته وفى تحقيق مطلبه فى أن يكون الجيش، جيش الشعب المؤمن بقضايا الشعب، والمدافع عن أرض الوطن، وإرادة الشعب، ولقد روى لنا الكثير عن ولادة الجيش العربى السورى مع الاستقلال، وجلاء القوات الأجنبية، باعتباره، الثمرة الأولى لنضال قاس وطويل خاضه الشعب السورى مدة تزيد على ربع القرن، كان طابعه المميز التضحيات الكبيرة والبطولات الرائعة مما وضع الشعب السورى فى مكانه الطبيعى كجزء من الأمة العربية، وفى مكانه اللائق وسط الأسرة الدولية.

روى لنا الرئيس الأسد كيف كان قيام جيش عربى التكوين، والفكر والعقيدة مطلبا يُعبر عن إرادة الشعب، ولكنه فى الوقت نفسه كان أمراً مفزعاً للاستعمار إلى أبعد الحدود، حتى إذا ادرك الاستعمار أن ارادة الشعب لابد أن تنتصر حاول بشتى السبل والأساليب أن يحتفظ بسيطرته على الجيش العربى السورى، كما حاول فى كل قطر عربى آخر مثل هذه المحاولة عن طريق تطعيم أية قوة عربية مسلحة ناشئة بالقيادات والعناصر الأجنبية، وبالأفكار والاتجاهات الغريبة عن أمتنا العربية، ولكن الشعب

العربي السورى قاوم تلك المحاولات وانتصر عليها ، ومضى الرئيس الأسد فى كلمات صدق نطق بها لسانه ، وعبرت عنها عيناه مؤكدا أن فترة تأسيس الجيش العربى السورى كانت حافلة بالأحداث الجسام ، فقبل انقضاء عامين على نشوء الجيش العربى السورى داهمته الهجمة الصهيونية لاغتصاب فلسطين ، ووجد نفسه يخوض معركة فلسطين عام ١٩٤٨ قبل أن يكمل استعداده وتسليحه وفى جو مشحون بالتآمر والتنافس بين مَنْ كان بيدهم الامر فى الوطن العربى ، ومع ذلك فقد أبلى بلاءً حسنا ، وكانت حرب فلسطين التى خاضها الجيش السورى مع بقية الجيوش العربية عام ١٩٤٨ والتى كان مُقدراً لها أن تحقق هدفها الكبير ، هدف التحرير الكامل ، تحولت بفعل التآمر الاستعمارى الصهيونى إلى معركة أولى فى حرب طويلة ما تزال مستمرة .

لقد واجهت الجيوش العربية حربا كان ظاهرها صراعا مع اسرائيل فقط ، وحقيقتها صراع مع قوى عالمية رهيبة أيضا.

وما زلت أتذكر أن الرئيس الأسد فى هذا اللقاء ، والذى تواصل لعدة ساعات حدثنا عن بطولات هذا الجيش.. حدثنا عن معركة التوافيق فى مارس ـ آذار عام ١٩٥٨ ، ومعركة التوافيق الكبرى التى استمرت أربعة أيام فى كانون الثانى (يناير) عام ١٩٦٠ ، والاشتباك البرى والجوى فى منطقة النخيلة فى تشرين الثانى ـ نوفمبر عام ١٩٦٤ والمعركة الجوية فوق بحيرة طبرية ومنشآت تحويل الأردن فى يوليو ـ تموز ١٩٦٦ ، ومعارك نيسان الجوية فى السابع من نيسان ـ ابريل عام ١٩٦٧ .

وفى خلال عدوان يونيو ـ حزيران عام ١٩٦٧ كان للجيش السورى مواقفه البطولية التى ستبقى مسجلة بكل الاعتزاز مثل معركة تل الفخار ، ومعركة الجليبينة ، وهى معارك استمرت باستمرار أيام العدوان فكان منها بطولات النسور الشجعان فى صد الهجوم الجوى على ميسلون ، والهامة فى فبراير ـ شباط ١٩٦٩ ، وفى قذف مواقع العدو على جبل الشيخ وموقعه فى القنيطرة فى نهاية يوليو ـ تموز من العام نفسه واختراق حاجز الصوت فوق حيفا فى ٢٩ كانون الثانى ـ يناير ١٩٧٠ والمعارك الجوية فى الثانى من شباط ـ فبراير ١٩٧٠ وعبور القوات السورية خط وقف اطلاق النار لتدمير مواقع العدو فى ١٣ و ٢٤ مارس ـ آذار عام ١٩٧٠ ، وتدمير المنشآت والتحصينات الهندسية للعدو فى ٢٨ مارس ـ آذار ١٩٧٠ ، وكذلك فى الاشتباكات العنيفة على طول الجبهة فى الثانى من نيسان ١٩٧٠ ، وفى معارك حزيران عام ١٩٧٠ .. إلخ .

ولقد مضى الأسد مؤكداً أن النصر على إسرائيل لابد أن يتحقق وهو ما حدث بالفعل عام ١٩٧٣ .

وأذكر أننى همست فى أذن العماد مصطفى طلاس وقتها وكان رئيسا للأركان ـ وهو

أول من قدمني للرئيس الأسد ـ بأن شواهد الحال تؤكد أن وزير الدفاع حافظ الأسد هو فيما يبدو لنا القادر على إنقاذ السفينة السورية ، والوصول بها إلى بر الأمان ، أذكر أنه أيدني بشدة ، وعندما قلت له مبتسما : إن هذه ـ على أية حال ـ مجرد تحليلات فابتسم مؤكدا أن التحليل الجيد هو معلومات مؤكدة ، ومنذ ذلك الوقت توثقت علاقتي بالعماد طلاس ، ولم تمض أشهر قليلة حتى قامت الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس الأسد .

(٢)

□□ **وكان لقائي الثاني بالرئيس حافظ الأسد في الرياض** ، وكنت قد سافرت إليها موفداً من مؤسسة « أخبار اليوم » لتغطية مؤتمر القمة السداسي الذي انعقد بشأن الأزمة اللبنانية ، ولقد نشر هذا الحديث في جريدة الأخبار في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٧٦ ، ولقد تم في ظروف أعتز بها حيث لم يكن أمام الرئيس حافظ الأسد كما كتبت وقتئذ سوى نصف الساعة ليتجه إلى الطائرة التي ستقله إلى بلاده عندما نقل له المرحوم أحمد اسكندر وزير الاعلام السوري وقتئذ رغبتي في مقابلته ، وعلى الفور جاء الوزير ليصحبني فوراً لمقابلة الرئيس الأسد ، **وفور أن رآني بادرني قائلا : أعرف أنك تريد حديثا طويلا ـ كما قيل لي ـ وليس أمامنا سوى نصف الساعة الباقية وهي لك ، وبسرعة بدأت أدون ما قاله لي عن نتائج مقابلته للرئيس السادات** كما طلب إليّ وقتئذ أن أنقل عبر صحيفة الأخبار تحياته للشعب المصري الشقيق الذي ارتبط مع الشعب السوري منذ فجر التاريخ بعلاقات وثيقة ثم عمدتها حرب أكتوبر بالدماء الغالية التي سقطت دفاعاً عن أشرف الأهداف ، ثم حدثني الرئيس الأسد عن تقويمه لنتائج مؤتمر القمة السداسي ، وكيفية تنفيذ قراراته ، وشمل الحديث أيضا رأيه بصراحة عن سبب تدخل الجيش السوري في لبنان ، **وكان مما قاله لي :**

« أود أن أؤكد لك أننا لو كنا ننظر إلى مصلحتنا القطرية السورية فقط لكان من المفروض ألا نتدخل لأن هذا التدخل ضد مصلحتنا ، ولقد كنا نتمنى لو اشترك معنا كل الأشقاء العرب ، ولقد كان قرارنا في التدخل السريع لمواجهة الأخطار التي قدرنا أنها تحيط بالأمة العربية ، وتحملنا تضحيات كثيرة لمجابهة الخطر الذي يصيبنا جميعا .. جميعا ..

لقد كانت هناك مؤامرة ضخمة تنتظر لبنان .. حاولت اسرائيل أن تُظهر أنها تحمي بعض الطوائف لتقيم دويلات طائفية في لبنان وتدخلنا لندافع عن القيم العربية والاسلامية ، وكانت أحداث لبنان تهدد بكارثة أخطر من كارثة اسرائيل .. إلخ .. إلخ .. إلخ .

ولقد أثبتت الأيام صحة كل ما قاله الرئيس حافظ الأسد .

□□ ثم كان لقائى الثالث بالرئيس حافظ الأسد عندما كلفتنى مؤسسة « أخبار اليوم » أيضا بتغطية المباحثات التاريخية التى جرت بين الرئيسين مبارك والأسد فى ٣ مايو ١٩٩٠ ، وأذكر أننى طلبت فى أعقاب لقاء شارك فيه رؤساء تحرير الصحف المصرية ، طلبت اللقاء المنفرد بالرئيس الأسد وعندما تفضل بالموافقة أجريت معه حديثا بالغ الأهمية حول الخطوات المرتقبة بعد عودة العلاقات المصرية ـ السورية إلى وضعها الطبيعى ، **ولقد نُشر هذا الحديث فى صحيفة « أخبار اليوم » فى عددها الصادر بتاريخ ٥ مايو ١٩٩٠ ،** وكان حديثا بالغ الأهمية حيث أكد فيه أن لقاءه بالرئيس مبارك ستكون له أهميته القصوى سواء فى الوقت الراهن أو المستقبل ، وأنه ـ أى الرئيس الأسد ـ مع الذين يرون فى عودة العلاقات المصرية ـ السورية إلى قديم عهدها وإلى وضعها الطبيعى بشائر لأحداث عظيمة ومقدمة لتحولات على طريق تحقيق التضامن العربى المطلوب والمأمول .

وأكد لى الرئيس الأسد انه اتفق مع الرئيس حسنى مبارك على الاسراع فى تعميق العلاقات المصرية السورية لمجابهة الأخطار المحدقة بالأمة العربية ؛ ولتعويض ما فات وبأقصى سرعة ممكنة ، وكان بالغ الوضوح والصراحة عندما قال لى إن السذج وحدهم هم الذين يتصورون أن مردود ما اتفقنا عليه سوف يقتصر على مصر وسورية ، وإنما سوف يمتد تأثيره الايجابى لمصلحة كل العرب .

وقال أيضا : إننا فى مصر وسوريا ندرك ما وراء المتغيرات الدولية ، ونعطيها الأهمية الأولى ، وندرك ما وراء خطر الهجرة المفتوحة على مصراعيها لليهود السوفييت إلى فلسطين ، ولقد تضاعف حجم هذا الخطر برغم إبداء الجانب العربى حسن النوايا لاقامة السلام فى المنطقة .

وأذكر أنه قبل هذا اللقاء بيوم واحد كنت قد سألت الرئيس حافظ الأسد فى لقاء جمعه مع رؤساء تحرير الصحف المصرية الذين رافقوا الرئيس مبارك فى زيارته لسورية وقتئذ **سألته عما إذا كان سيشارك فى مؤتمر القمة العربى الذى سيُعقد فى بغداد ، وهو المؤتمر الذى سبق الغزو العراقى للكويت بأسابيع قليلة ، وهل سيستجيب للوساطة العربية لحضور هذا المؤتمر ، فأجابنى بالحسم أنه لن يشارك فى هذه المؤتمر** لأنه يعرف أن حكومة بغداد غير صادقة فى إقامة علاقات حسن الجوار ، وغير صادقة فى دعم التضامن العربى ، وإن للرئيس صدام حسين أهدافه الخاصة من وراء انعقاد المؤتمر .

والغريب أن الأيام أثبتت أن الرئيس حافظ الأسد كان الأسبق فى فهم مقصد صدام حسين من وراء عقد هذا المؤتمر إذ لم تمض أشهر قليلة حتى وقع الغزو العراقى للكويت ، ولاشك أننا لتفسير هذه الرؤية المستقبلية للرئيس الأسد بالنسبة لعدم مشاركته

فى مؤتمر القمة العربى الذى عُقد فى بغداد فى شهر مايو / ١٩٩٠ ، لابد أن نعود قليلاً إلى الوراء لنقول أن الموقف السورى كان منبعثا من أن القيادة العراقية ليست مخلصة فى موقفها وفى فكرها القومى العربى بالرغم من ادعائها ذلك ، والرئيس الأسد كان يعرف ويدرك أن فكر الرئيس صدام حسين لم يكن قط قوميا فى صلبه وفى جوهره ، وإنما كان يتلبس اللباس القومى دون أن يكون مؤمنا به ، ومن هنا رفضت سورية الاشتراك فى مؤتمر لا تتوافر فى قيادته المسئولية القومية ، أو الفكر القومى السليم الذى ينظر إلى القضايا القومية بمنظار قومى ، وليس بمنظار قطرى ضيق أو بالأصح بمنظار شخصى ، وذى مطامع شخصية ضيقة ، منافية لمبادىء القومية العربية وللقضايا العربية ، ولمصلحة الجماهير العربية .

ولقد تعددت اللقاءات مع الرئيس حافظ الأسد وتنوعت، وهى على تعددها وتنوعها كانت تعمق اقتناعى بأن الرئيس حافظ الأسد كواحد من أبرز رجال الاستراتيجية الشاملة له من بعد النظر وعمق التحليل فى القضايا السياسية والقضايا القومية ما يجعله فى مقدمة الاستراتيجيين العرب فى الوقت الحاضر .. **ينظر دائما إلى الأمور نظرة تحليلية عميقة** يأخذها بالهدوء والحكمة والصبر على التعمق فى التحليل حتى يشمل فى تحليله جميع عناصر القضية التى يحللها ثم يرتب بعد ذلك العناصر التى حللها ليخرج منها برؤية مستقبلية لهذه القضية أو تلك .

(٣)

□□ **ربما يتساءل الكثيرون عن السبب أو الأسباب التى تدعو القائمين على مؤسسة « أخبار اليوم » إلى إصدار هذا الكتاب**، وهذا التساؤل له أسبابه ودواعيه ، وللإجابة يمكن أن نطرح الحقائق التالية والتى قد تشكل فى مجملها محاولة للاجابة عليه :

أولاً : أن الرئيس حافظ الأسد هو أحد القادة العظام الذين غيروا فعلاً الكثير ، وصنعوا تاريخا جديداً لسورية ، تاريخاً ليس منبت الأواصر مع ماضيها ، ولكنه يجاوز بها مراحل التخلف التى كانت تتخبط فيها .

قبل الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ كانت سورية تعانى من المشكلات والأزمات الداخلية التى تجسدت فى بعض الأحيان فى انقلابات عسكرية أو فى اختلافات سياسية عميقة بين مختلف القوى السياسية أو فى الاختلافات بين اتجاهات متضاربة داخل مؤسسة حزبية واحدة ، وهذه الاختلافات والاضطرابات أدت إلى ضعف الوضع السورى

العام سواء من حيث دور سورية القومى المعروف تاريخيا أو من حيث الوضع الاقتصادى الداخلى ، وأقصد بذلك التنمية ومشاريع التنمية وخططها .

ولقد تعرضت سورية لمؤامرات استعمارية ، وكان للقوى الوطنية والتقدمية بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى دور أساسى فى النضال ضد المؤامرات الاستعمارية والتفت ، الجماهير السورية حول الحزب وسائر القوى الوطنية ، والتقدمية الاخرى ، والتى ساهمت جميعها فى قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، وكان مقدرا لهذه الوحدة الاستمرار والتقدم ، إلا أن التآمر عليها كان كبيرا من أعداء الأمة العربية من الداخل والخارج ، والتى نجحت فى فك عرى الوحدة بين سورية ومصر فى ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٦١ ، ولكن ثورة ٨ (آذار) مارس ١٩٦٣ ، أعادت إلى سورية وجهها الوحدوى العربى الأصيل بادئة فى ذلك عهداً جديداً فى تاريخ سورية المعاصر ، ولقد تحققت خلال تلك الفترة منجزات اقتصادية واجتماعية شاملة .

وتجدر الاشارة إلى أنه خلال المرحلة الممتدة من عام ١٩٦٣ وقيام ثورة الثامن من آذار فى العام نفسه وحتى قيام الحركة التصحيحية فى عام ١٩٧٠ مرت سورية بفترة عصيبة للغاية حيث انعكس الخلاف بين الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والبعث على سورية داخليا وعربيا ودوليا ، الأمر الذى أثر على الجبهة الداخلية فى سورية ، وأدى إلى أن تنصرف سورية عن الاهتمام بتحسين البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية ، والبنية التنظيمية ، وشهدت الساحة السورية صراعات هامشية بين قوى وطنية وتقدمية عديدة حيث كانت الصراعات بين الأحزاب القومية كالقوميين العرب أو الناصريين الذين تشكلت حركتهم أثناء الانفصال وبعده أو بين الأحزاب العقائدية كالحزب الشيوعى السورى .

وقد تفاقمت الصراعات الداخلية داخل حزب البعث بصورة لافتة للنظر الأمر الذى دفع الرئيس حافظ الأسد إلى المشاركة بحركة تصحيح أولية فى الثالث والعشرين من فبراير شباط ١٩٦٦ وكان الرئيس الأسد آنذاك وزيراً للدفاع ، وفى عام ١٩٦٧ شنت إسرائيل عدوانها ، وهو العدوان الذى ساندتها فيه القوى الامبريالية وانتهى باحتلال سيناء والقسم الأكبر من مرتفعات الجولان والجزء الباقى من فلسطين .

فى هذه الفترة قامت سورية بعدة محاولات للتقارب مع مصر ، ولكن للأسف الشديد كان هناك رأى فى قيادة الحزب يعارض كل صور التقارب مع مصر ، وهو عقل مناور كاد أن يحرف الحزب والثورة عن خطيهما الرئيسيين فافتعل معارك مع الأردن ومعارك مع لبنان ومعارك مع الدول العربية ، ومعارك مع الدول الأوربية ، إلى جانب ذلك كله فقد كانت هناك علاقة مد وجزر بين سورية والاتحاد السوفيتى ، وهذا الوضع الداخلى والعربى والدولى إلى جانب آثار عدوان ١٩٦٧ **دفع بالرئيس حافظ الأسد إلى القيام**

بالحركة التصحيحية التى قادها فى ١٦ تشرين ثاني نوفمبر ١٩٧٠ . وهى الحركة التى أعادت لحزب البعث وجهه الجماهيرى الأصيل وأعادت بناء الجسور المهدمة بين الحزب وجماهيره ، وخلقت الثقة بين الحاكم والشعب ، وأعادت سورية من جديد إلى موقعها الريادى فى حركة التحرر العربى ، ومكنتها من القيام بدورها القيادى فى الوطن العربى ، وقبل ذلك كله كان للحركة التصحيحية الدور الرئيسى فى الاعداد لحرب أكتوبر .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت سورية تمضى فى طريق البناء والتنمية بتطوير الاقتصاد الوطنى والقفز به خطوات واسعة إلى الأمام فى ظل أوضاع سياسية مستقرة وديمقراطية حيث عملت الحركة التصحيحية على إصدار الدستور الدائم ، وتشكيل الجبهة الوطنية التقدمية ، وانتخاب مجلس الشعب ، وإرساء قواعد نظام ديمقراطى رئاسى متطور .

وعلى الصعيد العربى سعت الحركة التصحيحية لتحقيق التضامن العربى ودفعه إلى الأمام .

وعلى الصعيد الدولى قامت سورية بدور بارز فى إظهار عنصرية إسرائيل وعدوانيتها، وهو الدور الذى برز بشكل خاص عبر مقررات مؤتمرات عدم الانحياز وغيرها ، مما جعل لسورية مكانة مرموقة ووزنا سياسيا معتبرا . وكان لشخصية الرئيس حافظ الأسد الحكيمة والشجاعة أثرها الحاسم فى تحقيق المرونة والانفتاح والتحرك الايجابى لصالح القضية العربية ، وخاصة قضية العرب المركزية ـ قضية فلسطين .

حينما قام الرئيس حافظ الأسد بحركته التصحيحية ، فإنه قصد أن يجنب وأن يزيل جميع الأسباب التى كانت متوافرة على الساحة السياسية الداخلية ويركز دعائم الاستقرار من خلال تأسيس مؤسسات الدولة لكى تقوم بدورها فيما يتعلق بالتنمية والتطور وتأمين وتوفير عوامل وعناصر الدفاع القومى عن سورية ، ومن هذين الخطين ، خط تجسيد الآمال والمطامح للشعب العربى فى سورية ومن خلال ترسيخ مؤسسات الدولة عمل الرئيس حافظ الأسد على نشر الاستقرار ، وبالتالى على تجميع القوى الوطنية ، فى الجبهة الوطنية التقدمية التى تجمع مختلف العناصر العاملة فى الميدان القومى فى سورية سياسيا واقتصاديا وتنمويا .

وهذان الخطان اللذان بدأ مع قيام الحركة التصحيحية لايزالان مستمرين بالحسم نفسه، والقوة ذاتها وخاصة فى التعامل الراهن مع المستجدات الدولية الجديدة .

والذين يراجعون البيان التاريخى الذى صدر فى أعقاب حركة السادس عشر من تشرين الثانى من نوفمبر ١٩٧٠ وهو بيان هام عالج الأوضاع الداخلية والعربية والدولية ، يجدون أن الرئيس حافظ الأسد انطلق بسورية من الناحية النظرية الغوغائية

الفوقية الى الناحية العقلانية التنظيمية والتى قربت سياسة سورية ، وسياسة الحزب من التطبيق الواقعى أو اقتران النظرية بالممارسة .

فى عام ١٩٧٠ دعا البيان إلى إعادة بناء الحزب وفعلا أعيد بناء الحزب ، وأعيدت اللحمة ، والاتصال بين الحزب وقواعده الجماهيرية ، لأن أى حزب من غير جماهير ليس سوى تسلط فئة حاكمة مهما ادعت غير ذلك .. وفرق كبير بين التسلط على الجماهير وقيادة الجماهير نحو أهدافها ، فكرت الحركة التصحيحية أيضا فى وسائل دعم الجبهة الداخلية فشكلت جبهة وطنية تقدمية تمثل تحالفا فى أروع صورة بين جميع الشرفاء فى الوطن لبناء مرحلة من مراحل التطور الضرورى سواء على الصعيد الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى او الدفاعى .

ولقد وضعت الحركة التصحيحية دستورا دائما لسورية بعد أن كانت تعيش فى ظل دساتير مؤقتة ، وحددت فى هذا الدستور العلاقة بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وحددت أيضا دور الحزب باعتباره الحزب القائد فى المجتمع والدولة من خلال جبهة وطنية تقدمية ، اى أن الحزب انتقل من مجال الحزب الواحد إلى الحزب القائد الذى يقود من خلال تحالف جبهوى .

وهذه أول مرة ينص فيها على التعددية السياسية فى سورية وفى هذا كانت سورية سابقة للدول الشيوعية أو الدول التى تدور فى الفلك الشيوعى والتى تأخرت سنوات عديدة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، واقتربت من الانهيار أو انهارت لأنها لم تقم بفهم الواقع وتحليله تحليلاً يؤدى إلى تدارك الأخطاء وإلى الوقاية منها .

من ناحية ثانية صار هناك بعد الحركة التصحيحية بناء شعبى ، بمعنى آخر برلمان منتخب ومجالس شعبية منتخبة فى كل قرية، وفى كل مدينة ، وهذه المجالس الشعبية تمثل أيضا تحالفا للشعب وتحالفا وطنيا عريضا تشارك فيه جميع الجهات فى تجربة الحكم المحلى .

ومجلس الشعب أو البرلمان أو السلطة التشريعية لا يعكس سلطة حزب واحد فقط ، وإنما هو تحالف يوجد فيه الحزب الذى يقود ، وأحزاب الجبهة الوطنية التقدمية جميعها ، وعدد من المستقلين فى البرلمان الحالى يقترب من نصف عدد الأعضاء جميعا والباقى يتوزعون على الحزب وباقى أحزاب الجبهة .

من الناحية الاقتصادية جاءت الحركة التصحيحية بمنهج اقتصادى جديد .. هذا المنهج يعتمد على فلسفة تعتبر الأولى بالنسبة للعالم الثالث وهى التعددية الاقتصادية أى انه لابد من تجسيد لارادة الجماهير أن يكون هناك قطاع عام قوى ، وهذا القطاع العام القوى ليس فى معناه القطاع المهيمن والمسيطر على كل شىء ، وانما القطاع المنتج الذى

يساعد القطاعات الأخرى فى تنشيط العمليات الأخرى وفى تطورها أيضا ، بمعنى أن هناك عمودا فقريا للاقتصاد ولابد أن تقوم الدولة بالاشراف عليه باعتبار أن القطاع الخاص فى العالم الثالث لا يستطيع أن يعبىء مدخرات قادرة على أن تؤدى الى تراكمات معينة للانطلاق الى مرحلة النمو الاقتصادى وتحقيق العدالة الاجتماعية أيضا لأنه لا يمكن اطلاقا أن يكون هناك نمو اقتصادى على حساب الجماهير ومعيشتها ، وأيضا لابد أن يراعى تعليمها وثقافتها وتربيتها التربية التى تليق بمجتمع نام يسعى نحو التحرر والانطلاق والتقدم نحو الأفضل ، فكان هناك القطاع العام والقطاع المختلط الذى يمثل المساهمة بين الرأسمال الوطنى والرأسمال الحكومى والذى تساهم الدولة فيه بـ ٢٥٪ والقطاع الخاص بـ ٧٥٪ لكى تساعد الدولة على خلق قطاع مختلط قوى يقف بين القطاعين العام والخاص ، وهناك قطاع خاص له حرية كاملة فى القطاعات المختلفة .

وعلى سبيل المثال فإن القطاع الزراعى ٩٧,٩٪ منه فى يد القطاع الخاص .. الدولة لم تقم إلا بانشاء مزارع نموذجية للمساعدة فى تقديم الخدمات للمزارعين والفلاحين ، أما الملكية فهى ملكية خاصة للمواطن لم تدخل الدولة فى قطاع تجارة التجزئة بل تركت القسم الأكبر من التجارة الداخلية فى يد القطاع الخاص .. الدولة لم تقم إلا ببناء بعض المجمعات الاستهلاكية للطبقات الشعبية: الفقيرة لكى تستطيع أن تجد حاجتها فيما يلزمها ولكى تستطيع أن تقوم بدور مثبت ومراقب للأسعار بالنسبة للتجارة الداخلية ، الملكية العقارية بقيت فى يد القطاع الخاص .

ولقد استطاعت سورية بفضل التعددية الاقتصادية أن تصمد فى وجه الأزمات الاقتصادية .. وهذا الوضع الداخلى رتب على سورية أن تنطلق فى النطاق الخارجى منطلقا يؤدى الى التحاور .. حوار بين الدول العربية الشقيقة نحو المصالحة العربية العليا ممثلة فى بيت العرب فى الجامعة العربية ، ومحاولة الاتفاق حول الحد الادنى فى القضايا العربية ونزع فتيل أى تفجر فى العلاقات العربية ـ العربية ـ ايضا التعاون فى جميع المنظمات المنبثقة عن الجامعة العربية ومحاولة بناء سوق عربية مشتركة ، وتعزيز الموارد الاقتصادية العربية ، وتعزيز ميثاق الدفاع العربى المشترك ، وما الى ذلك .

وفى النطاق العربى كانت سورية كدولة تعمل ضمن ثلاث دوائر : الدائرة العربية وقد أشرنا اليها ، والدائرة الاسلامية باعتبارها عضوا فعالا فى منظمة المؤتمر الاسلامى ، وفى المجال الدولى كانت سورية تعمل فى كتلة عدم الانحياز باعتبارها عضوا مؤسسا ونشطا فى مجموعة دول عدم الانحياز ، وأيضا تقيم علاقات جيدة مع جميع دول العالم .

لم يكن لسورية بقيادة الرئيس الأسد هدف إلا الرغبة فى بناء علاقات قائمة على الوحدة والاحترام وعدم التدخل فى الشئون الداخلية لأى بلد ، ولكن كان هناك اصرار وتصميم

سورى على أن تعكس السياسة المصالح من جهة وتعكس الحق من جهة ثانية باعتبار أن مصلحة سورية ومصلحة العرب يجب أن تكون مصونة فى الدرجة الأولى فى العلاقات الدولية .. حاولت سورية أن تقيم علاقاتها مع الدول الأكثر اقترابا من المصالح العربية، ولذلك كان لها علاقات مع مجموعة الكتلة الاشتراكية ، ومجموعة عدم الانحياز ، ومع مجموعة الدول الاسلامية ، ولكن سورية لم تطلب ولم تغال فى طلبها فى الاقتراب من المصالح أن يكون على حساب حقوق الآخرين ، بالعكس انطلقت من ايمانها بميثاق الأمم المتحدة وبمبادىء القانون الدولى ، وبمبادىء الشرعية الدولية ، ودعت ومازالت تدعو منذ الخامس من يونيو حزيران ١٩٦٧ وحتى يومنا هذا إلى تطبيق القرار ٢٤٢ الذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة وتطبيق قرارات الامم المتحدة على القضية الفلسطينية ، ولذلك كانت علاقاتها ، وحتى خلافاتها تنطلق من الحفاظ على المصالح العربية من جهة ، ومن مدى اقتراب هذه الدول أو تلك من الاعتراف بالحق العربى .

هذه السياسة جعلت سورية تحتل مكانة كبيرة على خارطة الشرق الأوسط لانها انتهجت سياسة تتميز بالفاعلية والواقعية ، واصبح الرئيس الأسد مميزا بسياسة اقليمية بعيدة عن التهور والمغالاة وتنطلق من الحفاظ على المصالح الوطنية لسورية وللأمة العربية من جهة ، والى الاقتراب والحفاظ على الحق الذى أقرته الشرائع الدولية سواء كان فى الأمم المتحدة أو فى مواد القانون الدولى لكى لا تظلم أحداً ولا ترضى بالظلم ، وهذا ماجعل الكثير من الشهادات لصالح هذه الواقعية التى امتازت بها السياسة السورية فى ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ، ولقد اعترف زعماء العالم بهذه الحقيقة ويكفى أن نعود الى ما قاله الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون عندما أعرب عن اعجابه الشديد بجهود الرئيس حافظ الأسد فى سبيل تحقيق السلام. **وقول سيروس فانس** وزير خارجية امريكا الأسبق: (**بأن الرئيس الأسد هو من أوائل القادة فى العالم، وأن سورية شغلت دوراً بناء فى الشرق الأوسط) وقول الرئيس الفرنسى الأسبق فاليرى جيسكار ديستان: « الرئيس الأسد شخصية قوية دوليا وله سمعة عظيمة »، وقول الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر: « الرئيس حافظ الأسد رجل قوى وحازم وذكى ولا يخاف .. الخ »**

ولقد ظل الرئيس حافظ الأسد محتفظا باستقلالية القرار السورى، وكانت القضايا العربية هى محور العمل الدبلوماسى والعلاقات الخارجية السورية مع مختلف الكتل التى كانت قائمة وقتذاك وبخاصة قبل التطورات التى حدثت فى دول الكتلة الشرقية ، وبقيت سورية محافظة على مسيرتها فى عدم الانحياز ، وفية ، محافظة على علاقاتها مع مختلف الكتل الدولية. وحينما ظهرت المتغيرات العاصفة على الساحة العالمية

بقيت سورية محافظة على علاقاتها الودية مع الجميع بالرغم من تغيير أشكال التكتلات وبخاصة بعد اختفاء الكتلة الشرقية .

ثانيا : كان الرئيس حافظ الأسد هو الأسبق فى فهم متغيرات الصراع الدولى ، وفى التعامل الذكى مع هذه المتغيرات محافظا فى الوقت نفسه على استقلال القرار الوطنى ، لقد ادرك حافظ الأسد خلال تجربته السياسية منذ مطلع شبابه ونشأته مع جيله الذى نما وعيه بعد الحرب الكونية الثانية ، وبعد نشوب الحرب الباردة ، وفى وطن كان محتلاً من قبل الاستعمار الفرنسى واستقل عام ١٩٤٦ ليواجه بعد سنتين من استقلاله احتلال اسرائيل لفلسطين ، بينما يخضع قسم كبير من الوطن العربى للاستعمار ، وأن الحلفاء الذين انتصروا فى الحرب الكونية الثانية والذين تحالف العرب معهم ضد النازية كثفوا جهودهم ولم يحققوا الاستقلال كما وعدوا به ، وبالأسلوب نفسه الذى اتبعوه للتحلل من وعودهم بعد الحرب الكونية الأولى وبعد اتفاقيات سايكس - بيكو ، هذا الرجل الذى عاش مشاكل الامة كلها ، ووجد أن وطنه يقع فريسة استعمار غاشم وأن الحرب الباردة بعد الحرب الكونية الثانية أفرزت قوتين كبيرتين هما الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أو المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى ، أدرك أن هذا الصراع الذى يدور بين الدول الكبيرة يشد بين رياحه الدول الصغيرة ، وأدرك - أيضا - انه لا مصلحة لبلد كسورية أن تكون طرفا فى حرب باردة بين نظامين يتصارعان لفرض السيطرة على العالم ، ووجد أن مصلحة سورية ، ومصلحة الأقطار العربية الشقيقة الأخرى أن تقف على الحياد فى ظل هذا الصراع ، ولكن مع اشتداد الصراع الصهيونى ضد الأمة العربية ، والدعم الأمريكى والغربى لاسرائيل ومؤامرة حلف بغداد ثم العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ثم عدوان ١٩٦٧ ، كل هذا جعل الرئيس حافظ الأسد يدرك أنه لابد من التفرقة بين العدو والصديق .. ولذلك انطلقت سورية فى سياستها من احترام جميع الدول والأمم ضمن مبادىء السيادة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية ، وبقى الاقتراب مع المعسكر الاشتراكى الذى كان المعسكر الوحيد الذى يقدم الدعم السياسى والاقتصادى والعسكرى اقترابا لا يجعل سورية دولة تابعة أو دائرة فى فلك المعسكر الشيوعى ، وظل قرارها قرارا وطنيا مستقلا ، بل ظلت تدعو الى ضرورة تحقيق الاستقلال لكل الدول وبناء الشخصية القومية والتخلص من التبعية الأجنبية وهى الشعارات التى طرحتها الدول المستقلة حديثا أو ما يسمى بدول عدم الانحياز ، أو بلدان العالم الثالث ، كانت تقترب السياسة السورية مع الأهداف المعلنة للدول الاشتراكية فى مقاومة الاستعمار ومساندة حركات التحرر الوطنى ، ولكن دون التخلى عن شخصيتها الوطنية ، أو القيادة الوطنية .. كانت تقول بأن لها طريقها الخاص فى بناء الاقتصاد وهو طريق يختلف عن الطريق الشيوعى ، وكانت تقول بأن لها طريقتها فى بناء الوحدة الوطنية وهى

طريقة تتعارض مع النظرية الشيوعية ، وكانت لها خياراتها الوطنية المتباينة مع خيارات الاتحاد السوفيتى .

ولقد أرادت سورية فى المرحلة التاريخية التى كانت تطرح فيها الدول الاشتراكية شعارات الاستقلال الوطنى والتحرر من الاستعمار والتقدم الاجتماعى والاقتصادى والعدالة الاجتماعية .. الخ ، أرادت أن توظف هذه الشعارات التى تلتقى مع سياستها دون أن تدور فى فلك الإتحاد السوفيتى ودون أن تكون تابعة لدول المنظومة الاشتراكية ، ولذلك فقد بقيت سوريا فترة طويلة بعيدة عن توقيع أى معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى .

وكان الرئيس حافظ الأسد يقول : « **ليس المهم أن نوقع اتفاقا على الورق ، ولكن يجب أن يكون لدينا اقتناع مشترك بأننا متفقون فيما نقوم به ، ولدينا أهداف مشتركة نسعى اليها** » ولكن عندما اشتد الدعم الأمريكى لاسرائيل ، وبدأ التحالف الاستراتيجى معها ، ونقل الأسلحة المتقدمة الى اسرائيل ، وجدت سورية انه لابد من تحقيق التوازن الاستراتيجى ، فكان توقيع معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى دون أن تتخلى عن خياراتها الوطنية المستقلة أو عن عقيدتها القومية أو عن الطريق الذى رسمته فى توجهها العربى ، وتوجهها كدولة من دول عدم الانحياز .

ولقد ظل الغرب ينظر الى سورية فى البداية على انها دولة منحازة وكان يعتبر أن أى حزب يطرح قضايا التحرر الوطنى لابد أن يصبح فى يوم من الأيام حزبا شيوعيا ، ولكن عندما تسلم الرئيس الأسد قيادة سورية ووجد أن هناك تصرفات تعكس الارادة المستقلة والتى تتعارض فى معظم الأحيان مع تصرفات الدولة السوفيتية ، **أدرك الغرب ان سورية بقيادة الأسد لها قرارها الوطنى المستقل .. والأمثلة على ذلك كثيرة**. يكفى أن نشير الى أنه عندما طلب لبنان من سورية التدخل عام ١٩٧٦ لانقاذه من الحرب الأهلية لم يوافق الاتحاد السوفيتى على دخول سورية ولم يوافق على التصدى لمجموعة أحزاب يسارية كانت تحاول السيطرة على القرار اللبنانى متحالفة مع منظمة التحرير الفلسطينية لأن سورية كانت تعرف أن لبنان البلد المستقل العضو فى الجامعة العربية يجب أن يكون له خياره الشعبى وليس الخيار الذى يفرض عليه بقوة السلاح سواء كان مدعوما من الفلسطينيين أو من أحزاب أخرى لمجرد أن الوضع جعلها تحمل السلاح فى هذا الجزء من الوطن العربى ، كانت سورية تؤمن بالقرار اللبنانى وباحترام القرار اللبنانى ، وبعد ذلك أدرك الاتحاد السوفيتى أن سورية كانت على حق .

مثال آخر : الأردن كدولة كانت محسوبة على الغرب ، اقتربت منها سورية وحاولت أن تقيم وحدة على الرغم من أنها دولة ملكية ، وهذا يخالف الأدبيات الشيوعية إذ كيف لدولة

جمهورية يحكمها حزب تقدمي ، وجبهة تضم أحزابا وطنية واشتراكية وفيها حزب شيوعي أن تقيم تحالفا مع دولة يصفونها بأنها دولة رجعية .

كانت سورية تقول نحن عندما نسلك طريق الوحدة العربية لا نسلكها حسب المفهوم الماركسي ومفهوم البروليتاريا ، وانما كانت النظرة انه يجب الارتقاء بالعمل الوحدوي مع اى دولة عربية تتوافر فيها المقومات اللازمة لاقامة وحدة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو عسكرية ، علينا أن نقدم دون أن نجعل الفلسفة الماركسية هي المعيار .

هناك مواقف سياسية ثابتة تحدد جوهر ومسار القرار القومي لسورية الذي يحظى بالاحترام لأن قرارها ينبع دائما من المصلحة الوطنية ، ولمصلحة الأمة العربية وبالممارسة لم تتعهد سورية بأى شيء إلا كان هذا الشيء محترما ومُحقاً .

على سبيل المثال،عندما وقفت تستنكر الحرب بين العراق وإيران .. العراق دولة تقيم معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي وتعتبر من الدول التقدمية ، ووفقا للمفهوم الماركسي ، فإن إيران دولة إسلامية والدين يعتبره الماركسيون موقفا رجعيا ، ومع ذلك فقد وقفت سورية ضد حرب العراق مع ايران ، وهذا القرار لم يؤثر على علاقتها مع الاتحاد السوفيتي كما لم يؤثر أيضا انتقادها لمشكلة الرهائن في لبنان ، ومحاولتها الجادة لتحرير هؤلاء الرهائن على صداقتها مع إيران ، بالعكس كانت تطالب دائما بأن يُترك هؤلاء الرهائن وكانت تنتقد الحركات التي تُقدم على مثل هذه المواقف ، بل عندما تطلب الأمر أن تقاوم عسكرة بعض المنظمات التي كانت تقدم على هذه المسالك ، لم تراع الدول التي تقف خلف هذه المنظمات وإنما كانت تريد أن تثبت للعالم أن القرار السوري هو قرار لُكل العرب ، وضد العدوان على الآخرين ، وضد احتلال أراضي الغير بالقوة ، وهذا ما جعل سورية تُبادر الى نصرة شعب الكويت ، والدفاع عن المملكة العربية السعودية الشقيقة مع مصر عندما وقع الغزو العراقي على الكويت وائتلفت مع دول الائتلاف الدولي تطبيقا لقرارات الشرعية الدولية لأن هذا الشيء هو ما تقوم به سورية في ظل قيادة الرئيس الأسد الآن وما أكدته هذه السياسة في جميع المحافل الدولية من عام ١٩٧٠ حتى يومنا هذا لأنها تقف مع مبادىء الشرعية .. مع قواعد القانون الدولي .. مع احترام سيادة الدول على أراضيها .. مع حق تقرير المصير .. مع نبذ الارهاب .. ومع كل المبادىء التي يدافع عنها المجتمع المتحضر .

هذا الموقف في حد ذاته يستند إلى أساسين هما : أساس قومي ، وأساس فكري ينبع من العقيدة الفكرية التي تتبناها سورية في ظل قيادة الرئيس الاسد وهو انسجام الواقع التطبيقي مع الفكر النظري ، أى عندما تقول شيئا تجسده واقعيا ، وهذا ما جعل سورية موضع احترام الآخرين .

ثالثا : كانت سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد أيضا هى الأسبق فى فهم حقيقة أن الحرب الباردة فى طريقها إلى الانتهاء بعد التقارب الكبير الذى جرى من خلال لقاءات القمة بين الدولتين العظميين ، أدركت سورية بقيادة الرئيس الأسد أن العالم يتجه نحو الحوار والتفاهم ، واقتسام المصالح ، اى بتعبير آخر أصبح يسود هذا العالم ما يُسمى بدبلوماسية المنافع المتبادلة .. فى فترة من الفترات طرحت سورية توازنا استراتيجيا مع العدو الاسرائيلى الذى يحتل الأرض ، وكانت تعرف تمام المعرفة أن اسرائيل يستحيل أن تتنازل عن الأراضى المحتلة إلا مرغمة بالقوة ، وكانت تدرك أن اسرائيل بعقيدتها العدوانية لا ترمى فقط إلى احتلال الأراضى التى فى حوزتها وإنما تستعد لاحتلال أراض أخرى ، وكان لهذا أكثر من شاهد عليه سواء بالنسبة لتكتل الليكود بقيادة بيجين وشامير ، أو سياسة حزب العمل فى المرحلة السابقة لحرب يونيو ١٩٦٧ عندما كان بن جوريون يردد باستمرار أن حدود اسرائيل حيث يقف الجيش الاسرائيلى ، وبالاضافة للعقيدة الدينية التوراتية التى تقول أن إسرائيل يجب أن تمتد من النيل للفرات .

بعد إدراك سورية لهذه المتغيرات وجدت أنها يجب أن تستعد لمواجهة التطورات الجديدة فى العالم ، وهذه التطورات الجديدة فى العالم استبقتها سورية منذ سنوات عديدة وقد سبق أن اشرنا إلى انه قبل أن يتحول العالم إلى التكتلات الاقتصادية والتحدث عن الحافز الفردى واقتصاد السوق والانتاجية والديمقراطية والعدالة ، وما إلى ذلك ، وضعت سورية خططا للسير فى هذا الاتجاه قبل وقوع الأزمة فى دول المعسكر الشيوعى بسنوات عديدة .. فيما يتعلق بأثر هذه المتغيرات على القرار السورى ، ادركت سورية أن هذا الاتجاه إلى عالم جديد يُعطى أو يُغير فى الأشياء وإعطاء الاولوية للقانون وللمصالح وللمنافع المتبادلة بدلاً من الصراع والقوة العسكرية والوصول إلى حافة الحرب أو شفا الهاوية .

.. عندما ادركت سورية هذه المتغيرات انسجمت مع الواقع السياسى الدولى والذى يقول : إن الأمم المتحدة يجب تشغل دوراً فى إنهاء الصراعات العالمية للوصول إلى مجتمع عالمى يسوده الحوار والسلام ، وكانت تقول دائما : ان الديمقراطية بين دول العالم ليست مطبقة .. فى الماضى كان هناك احتكار ثنائى للعلاقات السياسية الدولية يتمحور بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، وكان هناك مجموعة من الدول الصغيرة لا تستطيع أن تفرض رأيا على مجلس الأمن ، وكان مجلس الامن فى أغلب الأوقات يعطل قرارات بعض الدول وفى الحقبة الممتدة من الحرب الكورية وحتى مرحلة احتلال اسرائيل للاراضى العربية عام ١٩٦٧ لم يستطع مجلس الامن أن يقدم قرارات إلزامية يستطيع أن ينفذها فى حفظ السلام والأمن الدولى على غرار ما حدث فى حرب الخليج مثلا ..

وفقا للتوجه العالمى الجديد اتجهت سورية على أساس مساندة اعطاء الدور للأمم

المتحدة ، وعلى أساس إحترام الشرعية الدولية وعلى أساس حق تقرير المصير واحترام حقوق الانسان اتجهت متخلية عن فكرة ما كانت تقول به في الماضي إلى توازن جديد يقوم على قوة القانون الدولي ، وقوة الشرعية الدولية ، شاركت في الدفاع عن المملكة العربية السعودية ضد التهديد بالعدوان ووقفت من أجل تحرير الكويت انسجاما مع قرارات الشرعية العربية والشرعية الدولية ، وفي الوقت نفسه طالبت بأن تطبق قرارات مجلس الأمن بالمعيار نفسه والمكيال نفسه الذي طبقت في حرب الخليج على الصراع العربي الاسرائيلي ، مؤكدة انه يجب أن ينتهي وفق مبادىء القانون الدولي ، ووفق قرارات الأمم المتحدة التي طبقت على الغزو العراقي .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : عندما طالبت بهذا الأمر ، لم يكن هناك شيء جديد فهي - أي سورية - تطالب منذ عام ١٩٦٧ بعقد مؤتمر دولي للأمم المتحدة تشارك فيه الدول دائمة العضوية مع أطراف الصراع بالاضافة إلى مشاركة الأمم المتحدة لانهاء هذا الصراع ، ولكن عندما أرادت الادارة الأمريكية أن تكون هي رائدة هذا المؤتمر مع الاتحاد السوفيتي - روسيا الآن - فهي أيضا دعت إلى ضرورة أن يطبق هذا التغيير على مشكلة الشرق الأوسط بحيث ينتهي هذا الصراع الذي مضى عليه أكثر من أربعين عاما بطريقة عادلة ووفق مبادىء القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة .

أدركت سورية أن انتهاء الحرب الباردة لابد أن يؤدي إلى خلق واقع جديد في السياسة الدولية واستعدت لهذا تمام الاستعداد ، وهي مع استعدادها لتقبل هذا الواقع لم ولن تتنازل عن حقوقها المشروعة في الأرض والسياسة .

النقطة الثالثة : ان هذا التغيير الجديد لم يشكل أمراً طارئا على السياسة السورية المحبة للعدالة والسلم وإنما كان تتمة لها ، وكما أشرنا فقد طرحت فكرة المؤتمر الدولي منذ البداية وطلبت تطبيق قرارات الشرعية الدولية على الصراع العربي الاسرائيلي وعلى قضية فلسطين ، ومع إيمان سورية بهذه المتغيرات واستعدادها للتعامل معها لمعرفة مدى مصداقيتها في حل المشاكل دون أن يكون هذا الشيء على حساب مصالحها وحقوقها والحقوق العربية .

إن النظام الدولي الجديد وإنْ كان قد أفرز افرازات معينة فإن سورية ترى أن هذه الافرازات شيء عابر ، ومصلحة الشعوب لابد أن تفرض ذاتها ، طال الزمن أم قصر لأن ارادة الشعوب لا يمكن أن تقهر ، ولابد للشعوب المظلومة والمقهورة أن تعبر عن ذاتها في يوم من الايام ، وأن تنتهي القوى المتعسفة الظالمة . وقد شهد التاريخ انهيار الكثير من الامبراطوريات ، والكثير من الدول التي مارستْ الاستبداد وقهر الشعوب .

باختصار ، فإن سورية تتعامل بنظرة واقعية للوضع الراهن ، وتتطلع أيضا بنظرة متفائلة مستقبليا بإمكانْ تحقيق السلم والعدالة الدوليين ، وهي ترقب محادثات السلام

الجارية الآن ، وتأمل في التغلب على جميع المصاعب من منطلق إيمانها بحقها ، وعدم التخلى عنه من جهة ، ومن جهة ثانية من خلال إيمانها بالسلام الدائم والعادل الذى آمنت به . وستظل تسعى من أجل الوصول إليه .

رابعاً : إن جوانب الشموخ في شخصية حافظ الأسد كثيرة ، ومتعددة ، شموخه كقائد ، وكمفكر استراتيجى ، وكمناضل ، وكرئيس دولة ، استطاع أن يجعل من كل أيامه صفحات مشرقة في تاريخ بلاده منذ كان طالبا ، كان يمتلك الشخصية القيادية ، وكان استعداده القيادى متوافرا ، وهو مازال طالبا في الثانوى ، وهو قارىء جيد جدا ومثقف لا بديل عن الاستماع لوجهات نظره ، وهو يعد - من وجهة نظر محايدة - شخصية لها مكانتها ، ولقد كانت المرحلة التى شبَّ فيها حافظ الأسد تُمثل زخما بالنسبة لسورية ، وهى مرحلة الأربعينات حيث التطلع إلى الاستقلال والتحرر من فرنسا ، وحيث تشكل الشخصية الوطنية لأول مرة بعد أكثر من أربعمائة عام من الاستبداد العثمانى والاستعمار الفرنسى .

كل هذه الأمور وغيرها ، رتبت فكر حافظ الأسد ترتيبا قياديا مُعَيَّناً بالاضافة إلى البيئة التى عاش فيها في قريته وبين أهله ، وهو ينتمى إلى أسرة وطنية تمتد إلى أعرق القبائل العربية نسبا ، ولذلك كان من الطبيعى أن تتجسد في هذا الرجل الشخصية القومية في عنفوانها وفى تطلعها إلى الحرية ، وإلى المجد ، وإلى البناء .

ولقد تحمل حافظ الأسد الكثير من المصاعب من أجل تغيير الواقع الذى رأى بلاده فيه ، تحمل الغربة ، وتحمل البرد ، وتحمل الألم وكان مُبشراً بأفكار كبيرة لها قيمتها في التاريخ الانسانى .

عندما انتسب حافظ الأسد إلى حزب البعث أصبح خلية فاعلة ، وعندما انتسب إلى الجيش أصبح شخصية قيادية فيه .

ولقد روى لى بعض زملاء الرئيس حافظ الأسد المصريين أنه عندما كان ضابطا طيارا في جيش الجمهورية العربية المتحدة في زمن الوحدة ، كان دوره قياديا بين زملائه بالرغم من أن رتبته كانت صغيرة ، وبعد الانفصال عندما عاد إلى سورية سُرح من الخدمة ، وحُول إلى وظيفة مدنية بسيطة ، ومع ذلك استطاع أن ينظم ثورة الثامن من آذار التى أنهت حكم الانفصال في سورية ، عندما عاد إلى الجيش والقوات المسلحة وأسندت إليه قيادة سلاح الطيران استطاع أن يعيد تنظيمه واستطاع أن يساهم مساهمة كبيرة في بناء الحزب وبناء فكره سواء في التنظيم أو في الاعداد أو في الممارسة الفكرية .

هذه الخلفية النضالية ، والخلفية التاريخية ، والخلفية الفكرية لحافظ الأسد جعلت منه قائداً مفكراً ، لأنه لم يكن قائدا مفروضا ، وإنما تدرج في سلم القيادة منذ كان طالبا في

المرحلة الثانوية ، وحتى أصبح رئيسا للجمهورية العربية السورية وأمينا عاما للحزب ، تدرج فى العضوية الحزبية ، من عضو فى خلية ، إلى عضو فى فرع ، إلى عضو فى قيادة قطرية ، إلى عضو فى قيادة قومية ، إلى أمين عام الحزب ، واستطاع بنضاله وتمرسه وقدرته على أن يجسد فكرة المثل الأعلى ، والقدوة لرفاقه أن يُختار قائداً لهم .

الجوانب الانسانية فى شخصية الرئيس حافظ الأسد أكبر من أن تُعد ، لأنه لا يمكن لمن يريد أن يتحدث عن هذه الجوانب أن يلم بكل المشاعر النبيلة والانسانية التى يمتلكها الرئيس حافظ الأسد تجاه شعبه ، وتجاه زملائه ، لازال يحفظ أسماء جميع زملاء الدراسة الذين كان معهم ، ويسأل عليهم ، ويتصل بهم ، ويقف منهم موقف الأخ مع أخيه ، وكذلك الحال مع زملاء الدراسة فى الكلية الجوية ، والضباط الذين درس معهم فى الاتحاد السوفيتى أثناء البعثة العسكرية ، وجميع رفاق السلاح فى مصر الذين وقفوا معه أو حوله لا يهمل رسالة من أى مواطن ، أبٌ لكل ابن شهيد من خلال مدارس الشهداء التى أنشأها فى سورية ، يُقيم لهم الولائم السنوية ويسأل عنهم ، ويرعاهم ، لا يدع مناسبة تمر إلا ويجتمع مع العلماء ، ويبحث معهم الامكانات المبدعة فى الوطن ، ويناقش رجال الدين ، ويُلبى مطالبهم .. اللمسات الانسانية فى شخصية حافظ الأسد كبيرة جدا .. إنه يضرب المثل فى احترامه لأهله ، ولذويه ، ولإخوته .

المثل العليا موجودة فى شخصية الرئيس حافظ الأسد سواء فى الممارسة الطلابية أو فى الممارسة العسكرية أو فى الممارسة الحزبية أو فى الممارسة السياسية أو فى الممارسة الانسانية .

كان ولايزال هو القائد القدوة، هو المثال. فى سورية يتبارون بشأن من يحفظ أكثر من فكر الرئيس ، ومن يقترب فى سلوكه من الرئيس ومن يستطيع أن يجسد فكر الرئيس فى الواقع .

لقد استطاع حافظ الأسد بالصفات التى يمتلكها أن يكسب ثقة شعبه ، وهذا الكلام ليس من الكلام الذى يطلق على عواهنه ، وإنما الأحداث دلت عليه ، فقلما يوجد رئيس أو قائد يتظاهر مليون إنسان ويحملونه إلى مسافات كبيرة دون ضغط أو إكراه ودون حراسة أو تنظيم وكأنه أصبح هو الشعب ، والشعب هو .

وقد روى لى أفراد حرس الرئيس أنه فى فترة من الفترات كان حراس الرئيس يخافون عليه ، وكانوا كلما اقتربوا منه يقول لهم اذهبوا فإن الشعب بعد الله هو حارسى .. ثقة فى الشعب لا مثيل لها .

وكما سيلى فإن حافظ الأسد كمفكر استراتيجى يقوم فكره على معطيات أساسية ، **أولا** قراءة التاريخ ، ومن يقرأ التاريخ يستطيع أن يرى لمسافة زمنية كبيرة جدا ، **والشئ الثانى** أن الرئيس حافظ الأسد درس الاستراتيجيات كلها بكونه عسكريا أيضا ، وتكوين

الرئيس الأسد القومي جعل نظرته للأمور نظرة استراتيجية .. **هذه العوامل الثلاثة : التاريخ ، والسياسة التي مارسها ، والفكر العسكري الذي امتهنه** ، والنظرة القومية والبعد القومي ذو الأبعاد العالمية باعتبار أن الوطن العربي في وضعه الراهن لم ولن ينفصل عن الاستراتيجيات العالمية التي وضعت في الماضي والحاضر .. **كل هذه الأشياء جعلت من الرئيس الأسد مفكرا استراتيجيا عالميا** ، يزن الأمور بموازينها ، يدرس ما بين النقلة والنقلة وما بين الخطوة والخطوة ، يعرف طبيعة الأشياء التي يمكن أن تكون تكتيكية في خدمة الاستراتيجية العامة ، ويضع دائما نصب عينيه انه لا يجوز اطلاقا الانغلاق على الذات الى موقف قطري أو موقف تراجعي ، لم يكن هناك في سياسة الرئيس حافظ الأسد موقفا انتهازيا يجعله يفضل ذاته على المجموع ، **بل ان من يستقرىء بدراسة سياسية موضوعية فكر الرئيس حافظ الأسد وممارسته العملية يرى أن جميع هذه الخطوات كانت تنطلق من منطلق استراتيجي قومي أي ارتكاز هذا الفكر على الناحية الاستراتيجية القومية للأمة العربية .. ونستطيع أن نضرب أمثلة على ذلك :** هو لم يقف موقف العدو من الذين حاولوا التصدي للجيش السوري في لبنان بل بالعكس حاول أن يكون أخا كبيرا للجميع ، لأنه يدرك ان لبنان لجميع أبنائه وأن أبناء لبنان هم للأمة العربية ، وفي النهاية فإن سورية ولبنان هما شعب واحد من شعوب هذه الأمة العظيمة ، لم يؤثر خلافه مع صدام حسين عليه عندما أرسل له رسالة قبل بدء العمليات القتالية يدعوه فيها أن يسحب جيشه من الكويت حرصا على العراق ، وعلى شعب العراق ، وعلى جيش العراق لأنه يعرف بنظرته الاستراتيجية ان خسارة جيش العراق هي خسارة للأمة العربية .. لم يقف موقفا من الذين حاولوا أن يقفوا ضده في المؤتمرات العربية أو الدولية شامتين أو منتقدين وانما حاورهم الحوار الاخوي ، وجعلهم يقرون في النهاية أن رأيه هو الرأي الحكيم ، وهو الرأي الحصيف لأنه لم ينطلق من مصلحة قطرية ذاتية ، وانما ينطلق من مصلحة قومية رائدها الحرص على الأمة وعلى الشعب العربي ..

عندما قامت الحرب العراقية الايرانية مثلا كان يدرك انه لا يجوز أن يكون هناك تناقض بين العروبة والاسلام ، وكان يرى أن الدول الاسلامية هي عمق استراتيجي للبلاد العربية ، **وكان يرى أن مقولة « ان العرب يحاربون المسلمين ، والمسلمون يحاربون العرب » .. هذا شيء خاطىء وخطير ، فالعرب هم العمق الاستراتيجي للمسلمين وهم حملة الرسالة الاسلامية ، والمسلمون هم العمق الاستراتيجي للعرب** .. ولذلك اكتشف منتقدو الرئيس الأسد في موقفه من الحرب العراقية الايرانية بعد نظره وصدق نظريته بأن هذه الحرب لن تحقق اي منفعة لأي طرف وستعود بالضرر على كافة الأطراف .. كان هناك كثير من القضايا التي حاول الرئيس حافظ الأسد أن

يعالجها بحكمته وبسرعة لأنه رأى ان استمرارها فيه ضرر على مصالح العرب وعلى مصالح دول عدم الانحياز ، ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك بمحاولته تحسين العلاقة المتوترة بين باكستان والهند أو بين الهند والصين ، ... الخ . كانت نظرته دائما هى النظرة الفاحصة التى تأخذ بالحق وتدافع عنه .

خامسا : لقد التقت الجماهير السورية مع الرئيس حافظ الأسد وأيدته لأنها شعرت انه يعبر عن أفكارها ومشاعرها ويعطيها الصيغة الأمثل لرجل دولة يستطيع أن يحقق على أرض الواقع ما كان يبدو خيالا ، ولقد أثبتت تجربة حافظ الأسد على امتداد اثنين وعشرين عاما انها تجربة المفكر الشجاع والمناضل الذى لا يهاب ، والمؤمن بشعبه وبأنه لا وجود لمستحيلات ، وأن بامكانه أن يجتاز بشعبه الكثير من الصعاب والعقبات ، وأن يحقق على المدى الطويل وبالنفس الطويل العديد من الطموحات التى كان يطمح اليها الشعب ، وقد حمل الأمانة وأدى الرسالة بصبر وبقوة وبعزيمة ، ولم ترهبه الظروف ، ولم يخضع للعواصف ، ولم يرض بأى حال من الأحوال أن يتجاوز ثوابته ومبادئه .

استطاع الرئيس حافظ الأسد منذ بداية عهده أن يستقطب محبة الناس وقلوب الناس لأنه خاطب الضمائر وقدم البراهين على صدقه وعلى شرف حمله للمسئولية وعلى أنه يحمى المبادىء التي يؤمن بها ، تعامل مع الناس بكثير من المحبة .. أحب الناس فأحبوه ، وكان الاستفتاء لولاية دستورية رابعة مقياسا شعبيا لتجربته على امتداد اثنين وعشرين عاما .. كان استفتاء شعبيا عفويا وطبيعيا خرج الناس نساء ورجالا وأطفالا من بيوتهم ليعلنوا تأييدهم بشتى الأساليب ، بعد سنوات حكمه اطمأنت القلوب الى أن ما يفعله هو الأمر السليم والرأى الصائب ،والقرار الحكيم. فالاسد لا يساوم ، يعيش حياة الشعب ، ويهتم به .. حياته فى بيته وبين أسرته مثالية للغاية .. البساطة .. التواضع .. الصدق ، الحياة الطبيعية جدا .. الخلق الرفيع .. واذا كان الرجال العظام يحركون التاريخ ، وتكمن عظمتهم دوما حين يلتقطون فيض ضمائر الشعب الذى يعيشون بينه فإن هذا هو ما فعله حافظ الأسد بالشعب السورى ، وبعض القيادات التاريخية ، تحرك أيضا التاريخ ولكن ليس فى الاتجاه السليم الذى يريده الشعب .. الانسان الذى يستطيع أن يحرك التاريخ حقا هو الذى يستطيع أن يسير بشعبه فى المسار الصحيح المحقق للتطور الذى ينتقل به نقلة نوعية كبيرة كما فعل ويفعل الرئيس حافظ الأسد فى سورية .

سادسا : بين القضايا التى أثارت وتثير دائما دهشة عدد كبير من المراقبين انه بينما يحكم سورية حزب البعث ، فإن العراق أيضا يحكمه حزب يحمل الاسم نفسه ويعلن الأهداف نفسها ويرفع الشعارات نفسها ، إلا أن العلاقة بين الحزبين ليست على الصورة المتوقعة .

وواقع الأمر أن الرد على هذا السؤال يثير تساؤلا هاما .. أين هى عقيدة حزب البعث فى العراق ؟ اذا أردنا أن نستقرىء ذلك من عام ١٩٦٨ ، وحتى أيامنا هذه نرى أن الفكر

فى العراق يصنعه انسان واحد ، فما يقوله هذا الزعيم هو الذى ينفذ ، وهذا سبب التخبط الفكرى فى فكر البعث فى العراق ، ليس هو الفكر البعثى المعروف .

القومية العربية مثلا هى قومية انسانية ، وهى ليست قومية «شوفينية» ، متعصبة لأن الفكر الانسانى يقول : بأنه لا ضرر اطلاقا من رؤية زهور متعددة الألوان فى حديقة معينة لأن هذه الزهور باختلاف ألوانها تعطى جمالا من حيث المنظر ، وتعطى شذى من كأمة عربية حيث الرائحة ، ولذلك نحن لا نرى أنفسنا مستعلين أو شوفينيين متعصبين ، للأسف الشديد نحا فكر صدام حسين فى العراق منحى شوفينيا ، فهو تارة يعلن الحرب على الأكراد بدعوى العرقية والعنصرية ، وتارة على الفرس بدعوى أنهم أعداء العرب التاريخيين **ومن المعروف أن فكر البعث يقوم على الاقناع الجماهيرى فى مسألة الوحدة** وينبذ فكرة الضم والالحاق بالقوة كما حدث فى غزو العراق للكويت .

البعث يقول : ان الوحدة عمل جماهيرى يتم عبر الممارسة الديمقراطية وعلى إدراك أى قطر بأن مصلحته أن يتحد مع القطر الآخر دون إكراه أو اجبار وفى نطاق المصلحة المتبادلة ، ولكننا رأينا أن فكر البعث العراقى فكر استعلائى يقوم على الضم والالحاق .

من الامثلة الصارخة على تناقض الفكر البعثى فى العراق أنه يقول دائما ان فكره اشتراكى يقوم على التقارب مع المعسكر الاشتراكى بينما هو يذبح الشيوعيين ، وينصب لهم المشانق فى العراق ، ويدير ظهره غالبا للمعسكر الاشتراكى ويشترى كل أسلحته من الغرب ..

يقول انه يؤمن بالقضية الفلسطينية ثم نراه ينسحب من الأراضى الأردنية بعد عام ١٩٦٧ ويترك المقاومة الفلسطينية مكشوفة لجيش الملك حسين لكى تقوم مذبحة ايلول الكبرى آنذاك .. نراه يقول انه يريد أن يقيم وحدة عربية ، ثم ينقض على ميثاق ١٧ نيسان ١٩٦٣ ثم يبدأ هجومه بعد عام ١٩٦٨ على عبدالناصر ويتهمه بالخيانة ، وبعد وفاة عبدالناصر يتمسح فى الناصرية وجمال عبدالناصر ، وبعد حرب ١٩٧٣ ، يحاول أن يرسل جيشا للمساعدة بعد أن حقق الجيش المصرى انجازه فى عبور القناة وحقق الجيش السورى اجتياحه للجولان ، وعندما رأى بعد مساعدة أمريكا أن الكفة بدأت تميل لغير صالح العرب أعلن الانسحاب قبل وقف اطلاق النار وترك سورية فى حرب استنزاف دامت أربعة أشهر بعد وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية ..

يتحدث البعث العراقى عن ضرورة التعاون العربى ثم يغلق مضخات النفط مع سورية ، ويمد خطوط النفط العراقى إلى الاراضى السورية المغتصبة من قبل تركيا . إذن ففكر البعث العراقى فكر متناقض مع التوجه القومى .. **فكر البعث الأصيل لا يقوم على الاغتيال أو على القتل ، لأن الاغتيال ليس من أخلاق أو أفكار البعث ، ولكن البعث فى** العراق يعتمد على تصفية خصومه فى الداخل والخارج بالاغتيال ، ولقد كان احتضان

النظام العراقى للقيادة اليمينية للحزب والتى برزت فى فترة الخمسينيات ، مثار استياء القواعد البعثية الحقيقية ، لأن هذه القيادات ساهمت فى حكم الانفصال ، ومعروف أن أفكار البعث تقوم على الوحدة ، وعلى الحوار لتصحيح الأخطاء ، لقد دافعت القيادة اليمينية ممثلة فى ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحورانى عن الانفصال ، وأعطته مسوغاته، الأمر الذى شكل أثرا كبيرا على القواعد الحزبية فى سوريا ، وعندما قامت ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ فى سورية وجاء ميشيل عفلق أمينا عاما للحزب وصلاح البيطار رئيسا للوزراء حاولا أن ينقضا على المكاسب الجماهيرية وأن يلغيا التأميم والتنكر لكل ما جاء فى دستور البعث ومنطلقاته حول العدالة الاجتماعية ، وعندما استلم الحزب الحكم فى العراق عام ١٩٦٨ لم يصحح هذه الأفكار بل زادها انحرافا ، وعندما حاول البعثيون فى سورية اجراء حوار مع العراق لخلق فكر وحدوى أصيل متطور يستوعب التجربة فى القطرين الشقيقين رأينا كيف كان النظام العراقى يفتعل الأزمات داخل العراق ، وخارج العراق ، ليس مع سورية فحسب ولكن مع الكويت فى السبعينات بالاعتداء الذى وقع على مخفر الصامته على الحدود ، وهو الحادث الذى أسفر عن قتل عدد كبير من الجنود ، ثم كان هناك الخلاف مع منظمة التحرير والاغتيالات المتبادلة ، ثم كان هناك الخلاف مع اليمن الجنوبى والذى أسفر عن اغتيالات عديدة لمناضلين عرب داخل اليمن الجنوبى وخارجه ، وأيضا مع المعارضة العراقية ، ثم رأيناه ينقض أحيانا على الفكر نفسه الذى يؤمن به ، كان يقول بأن بعض الأحزاب فى لبنان تعاملت مع اسرائيل ، وتحاول أن تفصل لبنان عن الكيان العربى ، ولكن بانتهازية واضحة وجدنا هذه الفئات تتلقى الدعم من العراق كما حدث مع المنشق ميشيل عون وعصابات الاخوان المسلمين التى نفذت جرائم بشعة كجريمة الأزبكية فى دمشق .

باختصار، فإن النتائج التى تمخضت عن الوضع فى العراق دليل على الانحرافات الحزبية لأنها انتقلت من فكر الجماهير الى فكر الفرد أو الزعيم ، كما حدث فى النازية وفى أحزاب فاشستية كثيرة ولذلك لا يمكن للفرد أن يكون نائبا عن الشعب فى الفكر لأن الفكر حصيلة تفاعل الجماهير مع الحزب ، والحزب مع الجماهير ، وهو حصيلة جميع الآراء ، ولذلك فإن البعث الذى وجد فى العراق لا يمثل حقيقة البعث وأصالته بوجهه الوحدوى الأصيل .

الفروق شديدة جداً بين حزب البعث العربى الاشتراكى وبين ما يُسمى بحزب البعث فى العراق ، لأن حزب البعث فى سورية ملتزم بالنشأة ومستمر على الأصول الحزبية التى كانت متوازنة من تأسيس الحزب فى المؤتمر القومى الأول التأسيسى عام ١٩٤٧ ، وقد سلك حزب البعث فى العراق سلوكا مغايرا لما نصت عليه أسس حزب البعث من حيث الممارسة داخل الحزب ، ومن حيث انعدام الديمقراطية ، ومن حيث التصفيات الجسدية

لأغلب الذين يُبدون رأيهم داخل الحزب .. والتصفيات التى حدثت معروفة فأغلب الذين ناصروا قضية الوحدة العربية ، وناصروا الاتفاق مع سورية قُضى عليهم ، وبالنسبة للقضية الفلسطينية وهى محور النضال بالنسبة لحزب البعث العربى الاشتراكى ظل الالتزام العراقى بها محدودا ، وكانت مجرد شعارات وألفاظ فقط ، وعلى صعيد الممارسة لا يوجد أى شىء قدموه لهذه القضية ، وكل المعارك التى خاضوها منذ عام ١٩٧٠ ، وحتى الآن أضرت بهذه القضية مثل الحرب العراقية الايرانية ، والغزو العراقى للكويت .

حقيقة أن هناك محاولات كثيرة جرت للتصالح بين الحزبين وبين الدولتين وكانت الخطوات الايجابية تأتى دائما من سورية ، وكان الشعار الذى أطلقه الرئيس حافظ الأسد « أنه لا شرط لنا على قيام الوحدة إلا قيامها » .

كانت المحاولات السورية مع العراق إيجابية إلى أبعد الحدود ، والاتفاق الذى حدث قبل الحرب العراقية الايرانية حيث كان هناك ما يُسمى بميثاق العمل القومى ، وافق النظام العراقى عليه فى البداية ثم انقلب عليه ، ولم يكتف النظام العراقى بالانقلاب على هذا الميثاق ، وإنما راح حاكم العراق يُصفى جسديا كل من تحمس للوحدة ولميثاق العمل القومى مع سورية ، **ومن المعروف** أنه أعدم كل زملائه الذين عملوا معه فى القيادة والذين وصل عددهم ـ كما ذكرت ـ إلى أكثر من ٢٢ عضوا لأنهم كانوا متحمسين لتطبيق هذا الميثاق ولخلق معادلة فى الشرق العربى .. معادلة قادرة على الفعل والتأثير فى الصراع العربى الاسرائيلى .

سابعاً : يرى الرئيس حافظ الأسد أن تاريخ العرب فى قديمه وحديثه كان مرتهنا بالتعاون المصرى السورى ، وهو يرى أن الأمن القومى العربى لا يكتمل إلا بجناحيه فى مصر وسورية وأن مصر وسورية هما رافعة العمل العربى أو هما جناحا الأمة العربية التى لا يمكن للأمة العربية أن تُحلق بغيرهما ..

الرئيس الأسد ينظر فى التاريخ بعمق ويرى أن أمن مصر يبقى منقوصا بدون سورية ، وأن أمن سورية يبقى منقوصا بدون أمن مصر ، وأن الأمة العربية أو الاسلامية لم تتعرض لأى خطر من الأخطار إلا تصدت له مصر وسورية ، وأجهزت عليه ، وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعى **لننظر مثلا إلى الحروب الصليبية** .. لقد دام الاحتلال الصليبى لبيت المقدس عشرات السنين ، وكانت غزواته مستمرة لسواحل شرق المتوسط ، وكانت مصر وسورية تنهضان بمسئولية الدفاع عن البلاد العربية والاسلامية آنذاك حتى جاء صلاح الدين الأيوبى ، ووحد مصر وسورية ، وأنهى الغزو الصليبى للبلاد العربية بعد أن دام هذه الفترة الطويلة .. **ثم نرى أنه عندما جاء المغول بقيادة هولاكو ودمروا بغداد ثم اجتاحوا أجزاء كبيرة من بلاد الشام كان أن تصدت له مصر**

وسورية بقيادة الظاهر بيبرس ، وكان توحيد مصر وسورية سبب هزيمة المغول فى معركة عين جالوت ، وحجب الخطر المغولى عن بقية أجزاء الوطن العربى وعن شعوب حوض البحر المتوسط جميعا .

إذا نظرنا للتاريخ الحديث ، كان محمد على يرى أنه لا يمكن أن يقيم دولة عربية لها وجود فى المنطقة وهى قوة كبرى إلا إذا كانت مصر وبلاد الشام موحدة ، ولذلك ذهب إبراهيم باشا إلى سورية ، وحاول أن يُنهى الاحتلال العثمانى لبلاد الشام ومصر لكى تقوم هذه الدولة العربية ، ومع ذلك تكالبت القوى الاستعمارية على هذه الدولة ، ولم يسمح لها بالاستمرار .

فى العصر الحديث عندما كان هناك احتلال بريطانى لمصر ، وكانت مصر تحت الحماية البريطانية ، ثم بعد الحرب العالمية الأولى ، واتفاقية « سايكس بيكو » واحتلال الانجليز لفلسطين ، واحتلال فرنسا لسورية ولبنان كان فى الوثائق البريطانية آنذاك ما يؤكد أنه لكى تستمر سيطرة بريطانيا على شرق قناة السويس لابد من السيطرة على قناة السويس ولكى لا تكون هناك دولة عربية قوية تشمل مصر وبلاد الشام يجب أن يُخلق كيان يحول دون لقاء بلاد الشام مع مصر ويؤمن مصالح الامبراطورية شرق السويس ، ولذلك أقيم الكيان الاسرائيلى على وعد بلفور ١٩١٧ .

وعندما نقول أن الرئيس حافظ الأسد يقرأ التاريخ جيداً نقول أيضا أنه يعرف صلات القربى .. يعرف حركة الشعبين المصرى والسورى ، يعرف مقدار العبء النضالى الذى تحمله الشعبان فى سبيل الأمة العربية والاسلامية ، وكجندى فى القوات المسلحة السورية عاش الأحداث الكبرى فى العصر الحديث ، فمصر وسورية قاتلتا عام ١٩٤٨ جنبا إلى جنب وقاتلتا عام ١٩٥٦ حيث وقفت سورية إلى جانب مصر ، وذهب أحد ضباط البحرية (جول جمال) شهيدا فى إحدى المعارك دفاعا عن مصر وهو من محافظة اللاذقية المدينة التى ينتمى إليها الرئيس الأسد ، كما أن مصر وسورية قاتلتا فى حرب ١٩٦٧ ، وفى حرب ١٩٧٣ .

ولذلك طبيعى جداً أن تكون العلاقة مع مصر لها مساحة كبيرة فى قلب الرئيس حافظ الأسد وفكره وهو ما يتجلى بوضوح فى اللقاءات التى تتم بين الرئيسين مبارك والأسد، وفى الحركة المستمرة بين الشعبين ، لتحقيق الحلم الوحدوى .

ومثل هذه المساحة الكبيرة موجودة فى قلب الرئيس مبارك الذى وصف علاقته مع الرئيس الأسد بقوله : إن الرئيس حافظ الأسد هو أخى وزميل وصديقى ، وقد عشنا فى سلاح واحد وتربطنا ذكريات الأخوة والزمالة والصداقة .

وإذا أردنا أن نتحدث عن العلاقة بين الرئيس حسني مبارك وأخيه الرئيس حافظ الأسد، لابد أن نعود إلى البدايات الأولى لنشوء هذه العلاقة ، حيث تعود إلى زمن **الوحدة المصرية السورية** ، والتي كان يعمل بها كل من الرئيس حسني مبارك والرئيس حافظ الأسد .. **كانا طيارين في سلاح الجو العربي في الجمهورية العربية المتحدة ..** كان الرئيس الأسد في المقاتلات الليلية ، وكان الرئيس مبارك في القاذفات ، **وكان أحدهما في** مطار « المانظة » والآخر في مطار انشاص ، **واستطاعت رفقة السلاح أن تقرب كلا منهما من الآخر.. وتعرف كلا منهما على الفكر الوطني والقومي للآخر..**

المرحلة الثانية بدأت عندما كان الرئيس حسني مبارك في **بعثة عسكرية للاتحاد** السوفيتي ـ سابقا ـ وكان في نفس الدورة ضباط من سلاح الجو السوري ، وكان هؤلاء الضباط على اتصال دائم مع الرئيس حسني مبارك ونظرا لان الرئيس **حافظ الأسد كان** له دور كبير جدا منذ عام ١٩٦٣ في قيادة سلاح الجو السوري ، **فقد كان في مقدمة** الضباط الذين ظلوا على اتصال مستمر مع الرئيس مبارك ، ولقد تعززت **الصلات بين القائدين الكبيرين في مرحلتها الثالثة ، وتعمقت عندما كان الرئيس حسني مبارك قائدا لسلاح الجو في جمهورية مصر العربية إبان التحضير لحرب أكتوبر تشرين المجيدة ، حيث كان التنسيق بين القيادتين السياسيتين في سورية ومصر في أعلى صوره ، وعندما تولى الرئيس حافظ الأسد قيادة سورية منذ عام ١٩٧٠ وكان كثير الاجتماع مع الرئيس الراحل أنور السادات للتحضير لحرب أكتوبر**، فقد ظلت الاجتماعات مستمرة بين القيادات العسكرية في البلدين ، ومن المعروف أن الرئيس مبارك كان له دور كبير في الحرب الجوية في أكتوبر ومن خلال الزيارات المتبادلة للتحضير للحرب زاد قرب الرئيس مبارك مع الرئيس حافظ الأسد ، وشاءت الأقدار بعد عام ١٩٧٣ أن يتولى الرئيس مبارك منصب نائب رئيس الجمهورية ، وكان كثير الزيارات لسورية موفدا من الرئيس السادات لمقابلة الرئيس الأسد ، وكان هذا أيضا من العوامل التي زادتهما معرفة ، **وبعد تولى الرئيس حسني مبارك قيادة مصر** ؛ ورغم ظروف فترة القطيعة بين سورية ومصر ، فإن الشيء الذي لا تعرفه الجماهير ان **الرئيس حسني مبارك كان يثني بشكل كبير على زميل السلاح أخيه وصديقه الرئيس حافظ الأسد، وكان الرئيس الأسد يشيد بشعب مصر، ورئيس مصر، وتاريخ مصر، ودور مصر القومي في جميع المعارك القومية** التي دارت بين العرب وأعدائهم عبر التاريخ من « حطين » « وعين جالوت » ، وفي ظل وجود ابراهيم باشا في سورية ، وبعد ذلك في الحروب التي خاضتها مصر بعد عام ١٩٤٨ ، وحتى أكتوبر العظيم ، **وكان الرئيس حافظ الأسد في كل مناسبة حريصا على أن يعطى لأخيه الرئيس مبارك مايستحقه من تقدير**

واحترام ، يثنى على أخلاقياته وعروبته ، ووطنيته كما كان الرئيس مبارك يشيد دوما بصديقه القديم الرئيس حافظ الأسد ، وقد روى عن الرئيس مبارك أنه رغم ظروف القطيعة ، وعندما سمع فى احدى المرات أن الرئيس حافظ الأسد قد مرض ، وكان ذلك فى عام ١٩٨٤ حيث لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين مصر وسورية هَمَّ أكثر من مرة فى أن يذهب إلى دمشق ليطمئن بنفسه على صحة أخيه ، وكان حريصا على أن يتابع أخباره متمنيا له الشفاء ، ويروى عن **الرئيس مبارك** أيضا أنه عندما التقى **بالرئيس حافظ الأسد** فى المؤتمر الاسلامى فى الكويت بادره بالتحية ، وطلب منه أن يزوره ، ورد الرئيس الأسد بنفس التحية .

ويروى عن الرئيس حافظ الأسد أنه خلال دورة البحر الأبيض المتوسط فى اللاذقية والتى عقدت عام ١٩٨٧ عندما كان شباب مصر يمر أمام المنصة الرئيسية وقف الرئيس حافظ الأسد يحيى علم مصر ، وشعب مصر وقائد مصر ، **ولقد وقفت الجماهير التى كانت تزيد على الخمسين ألف مواطن آنذاك مع الرئيس حافظ الأسد والدموع فى مآقيها لأنها استذكرت من خلال قائدها الرئيس الأسد ، وعلاقته الحميمة مع الرئيس مبارك ، وشعب مصر ، استذكرت جميع البطولات ، والمعارك المشرفة التى خاضها الشعبان فى التاريخ من أجل العروبة** ، ومن أجل رفع راية الأمة العربية عالية خفاقة ، وعندما زار دمشق وفد المحامين المصريين المشارك فى اتحاد المحامين العرب فى عام ١٩٨٩ وقبل استئناف العلاقات الدبلوماسية أصر الرئيس الأسد أن يعود الوفد المصرى على طائرة الرئاسة تحية لشعب مصر ، ولقائد مصر الرئيس حسنى مبارك .. ولقد ظل الاتصال بين الزعيمين قائما وقويا .. **وأذكر اننى عندما رافقت الرئيس مبارك الى سورية فى أول زيارة له بعد عودة العلاقات الدبلوماسية كنت أرى الفرحة فى عيون الرئيس الأسد ولدى الشعب السورى ، وكانت الهتافات والأغانى والأهازيج تعبر فعلا عن حقيقة المحبة القائمة بين الشعبين .**

ومن المؤكد أن العلاقة بين الرئيسين مبارك والأسد هى تجسيد للعلاقة بين الشعبين عبر التاريخ ، واذا كان من الصعوبة بمكان أن نوجز أبعاد هذه العلاقة فاننا نؤكد أن فى كل زيارة من الزيارات التى قام بها الزعيمان للقاهرة أو دمشق أو اللقاءات التى كانت تتم بينهما ؛ كنا نكتشف شيئا جديدا حتى فى العلاقات ذات الطابع الخصوصى .. التى يحمل منها الرئيس مبارك الشىء الكثير كما يحمل الرئيس الأسد من هذه الخصوصية فى العلاقات بينه وبين أخيه الرئيس مبارك أشياء كثيرة ..

الرئيس الأسد يرى أن الرئيس مبارك يمتلك الحكمة والشجاعة فى آن واحد ، والرئيس حسنى مبارك يثنى دوما على حكمة الرئيس الأسد وقدرته على اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب بحكمة وروية ودراسة وتأمل تستطيع أن تصل إلى الهدف بدون أن يكون أى رأى من الآراء متسرعا أو اتخذ بغير دراسة أو ادراك لمدى

الآثار التى يمكن أن تؤثر فى هذا القرار .. **الرئيس الأسد** يرى فى القرارات التى يتخذها الرئيس مبارك المصلحة العربية القومية ، **والرئيس مبارك** يرى أن المتعامل مع الرئيس الأسد يرتاح لما يتعهد به؛ لأن الأسد .. لم يتعهد بشىء فى تاريخه إلا واحترم هذا التعهد سواء كان الأمر متصلا بقضية عربية أو قضية دولية .

الرئيس الأسد يرى فى الرئيس مبارك انه يحرص أشد الحرص على أن يقدم كل ما يمكن أن يكون فى سبيل المصلحة القومية العربية العليا ، ولم الشمل العربى ، **والرئيس مبارك** يرى فى الرئيس الأسد انه واسع الاطلاع عميق الثقافة فضلا عن انه عامل استقرار وأمن فى المنطقة العربية واستطاع أن يجعل لسورية دورا كبيرا ومؤثرا فى المجالين العربى والدولى ، والشىء الأهم من هذا كله أن الرئيس الأسد يرى فى الرئيس مبارك صديقا وأخا لسورية ولشعب سورية ، وأيضا يرى فيه احتراما لدور سورية ، وذلك انطلاقا من الاحترام البالغ من قبل الرئيس مبارك للعلاقة المصرية السورية ، ودورها فى عملية النهوض القومى للأمة العربية **والرئيس مبارك** يرى أن ثمة ضرورة وطنية قومية لوجود علاقة مميزة بين سورية ومصر لبناء نهضة عربية قومية شاملة كما يؤمن بقدرة الشعبين فى سورية ومصر على تحدى المحن التى يمكن أن تكون موضوعة أو مفروضة ليس على الشعبين الشقيقين وانما على الأمة العربية .

ثامناً : إن الرئيس حافظ الأسد فى مقدمة القادة العرب الذين يرون امكانية لحل قضايا العرب فى ظل الشرعية الدولية ، ومن هنا فقد دخل فى مبادرة السلام ، واستجاب لمسعى إحلال السلام ، ويمكن القول إن موقف سورية من مسعى السلام لا يعود إلى عام ١٩٩١ وإنما يعود إلى عام ١٩٧٣ أى بعد حرب أكتوبر المجيدة ، فلقد اعترفت سورية بالقرار ٢٤٢ وقبلت به ، وفسرته التفسير المستند إلى مبادىء ميثاق الأمم المتحدة ، وإلى نص القرار نفسه وهو الانسحاب الكلى والشامل للقوات الاسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، والحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطينى، وبالرغم من كل التطورات والمتغيرات الدولية ، وخاصة زوال الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى ومعه الكتلة الاشتراكية ، بالرغم من كل هذه المتغيرات وخاصة حرب الكويت ، وما نتج عنها فقد بقيت سورية محتفظة بهذا الموقف الذى عبرت عنه فى عام ١٩٧٣ ، ومن يقرأ ما كتب فى المذكرة السورية التى قُدمت إلى الوفد الاسرائيلى فى أواخر الجولة السادسة من المفاوضات الثنائية يدرك أن موقف سورية بقى مستمرا وواحداً وثابتا منذ عام ١٩٧٣ حتى اليوم ، جوهره واحد ، والسبب فى هذا الاستمرار والثبات هو أن سورية قرأت القرار ٢٤٢ بناء على نتائج حرب ١٩٧٣ ، واستنادا إلى ميثاق الأمم المتحدة ، وإلى مضمون

ونصوص وروح القرار نفسه ، هذه الاستمرارية متولدة من هذه العوامل ، ومن هذه المسوغات أيضا ، ولا تزال سورية متمسكة بهذا الموقف ، وبالربط بتقدم المفاوضات على سائر الجبهات بحيث لا تتقدم جبهة بشكل وتسير الأخرى بشكل آخر.

تاسعاً : ولعل صفحات هذا الكتاب كما سيلى تدحض المقولة الظالمة التى راحت تصور حزب البعث وعلمانيته وكأنها رديف لعدم الايمان.

ومن المعروف أن بعض الجهات المعادية تفترى على حزب البعث العربى الاشتراكى بهذه الفرية ، فرية أن علمانية الحزب منافية لكلمة الايمان ، والواقع أنه سواء فى حزب البعث أو فى غيره من الأحزاب الوطنية السورية الأخرى لا يوجد أحد ملحد وإنما يعتزون كل الاعتزاز بالديانات السماوية ويعتبرون أن الاسلام والعروبة صنوان ، وأن العلاقات الأخوية التى تربط بين العرب المسلمين ، والعرب المسيحيين هى فى أوج حالتها صحة وعافية ، وحسن أخوة وتعاون ، فالعلمانية هنا تعنى العلم ، ولا تعنى الالحاد كما اصطلح على تسميتها بعض المشككين وبعض الذين يريدون سوءاً بالأحزاب الوطنية التى تعتز بالتراث الروحى وتؤمن إيمانا مطلقا بالديانات السماوية وكل ما جاءت به من خير وبركة لصالح الأمة العربية والعالم كله ، وهم يعتزون بأنهم أحفاد أولئك العظماء الذين حملوا الراية وقاتلوا من أجلها ، ونشروا الاسلام الحنيف فى مختلف بقاع الأرض ، ولم تشهد سورية أى حادثة فى هذا الاتجاه ، **فالشعب كله يرفض الالحاد ، ويرفض أيضا التعصب الذى يعطل العقل ، فالمقصود بالعلمانية التعامل مع العلم وليس التعامل مع الالحاد** ، والالحاد أمر مرفوض فى حزب البعث ، ومرفوض أيضا فى كل الأحزاب الوطنية ، وهو من صنع مَنْ يحاولون أن يفتروا على هذه الأحزاب الوطنية القومية والتقدمية.

عاشراً : لقد ظهر الرئيس حافظ الأسد فى مرحلة تاريخية جعلت منه قائداً ملهما ومنقذاً لشعبه ، فمنحه الشعب حبه الجارف ، كما منحه السلطة اللازمة لقيادة عملية التحول الاجتماعى ، وكما يقول المفكر العربى الدكتور هيثم الكيلانى « فإن هذه المرحلة التاريخية التى تمر بها الأمة العربية كلها هى مرحلة انتقالية خاصة فيما يتعلق بالصراع العربى الاسرائيلى ، والأمن القومى العربى ، والتحديات التى تواجه هذا الأمن ، وفى يقينى ـ والكلام على لسان الدكتور الكيلانى ـ أن ما يتعلق بالأمن القومى العربى هو ما يشغل بال الرئيس حافظ الأسد وفكره ويركز عليه جهوده لكى يضمن لهذا الأمن كل ما يوفر له القدرة على مقاومة التحديدات والمخاطر ، ولكن إنْ لم تكن الظروف قد سنحت أو تسنح فهو دائم الانشغال فى هذا الموضوع الذى يشكل محور اهتمامه.

وبعد :

لقد أثمرت جهود الرئيس حافظ الأسد فى ترسيخ الاستقرار والأمن والأمان للشعب

العربى فى سورية ، وهذا الاستقرار هو الذى أدى إلى مضى خطة التنمية فى مَسارها السليم والذى أعطى الدعامة القوية لقيام اقتصاد سورى قادر على الوقوف بشموخ وقوة ، وقادر على أن يتحدى الصعاب والمشكلات التى قد تهز اقتصاديات دول عديدة .

كذلك فقد أثمرت جهود الرئيس الأسد على الصعيد العربى نتائج إيجابية حافظت على كيان هذه الأمة وتوجهاتها القومية ، وعلى الصعيد الدولى كان للرئيس حافظ الأسد تلك السمعة المشهود بها ، والتى جعلت قادة الدول الكبرى يقررون بعد اجتماعهم به أنهم يلتقون مع قائد حكيم ومتزن ذى نظرة عميقة فى التحليل السياسى لمختلف القضايا ونظرة شمولية فى السياسة الدولية .

وإذا كان يحلو لبعضهم المقارنة بين صلاح الدين الأيوبى، وحافظ الأسد ـ كما سيلى ـ فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، فإن هذه المقارنة تجىء بالقياس ، إلى أن صلاح الدين الأيوبى كان شخصية إسلامية عظيمة وكان له دوره العظيم فى إنهاء الغزو الصليبى وتحرير بيت المقدس ، ووضع حد وخاتمة لحروب الصليبيين ، كذلك فإن الرئيس حافظ الأسد شخصية لها أثرها الكبير فى تاريخ العرب ، وفى تاريخ سورية ، وكما كان صلاح الدين الأيوبى قدوة بين الرجال الذين حاولوا أن يتصدوا لهذا الغزو فإن الرئيس حافظ الأسد هو كذلك بالنسبة لشعبه الذى يتصدى بكل الشجاعة والبسالة للمؤامرات المستهدفة سورية ويسعى لدحر الصهيونية وتحرير فلسطين بالسياسة والسلاح وبكل وسيلة مجدية وممكنة .

وجه المقارنة يأتى أيضا من أن صلاح الدين الأيوبى كان فى فترة البلدان الاسلامية المجزاة يدرك انه لا يستطيع قطر إسلامى بمفرده أن يضع حداً للغزو الصليبى ولذلك كان يحاول دائما أن يُقيم الأحلاف ويستنهض الأمم ، ويُزكى الايمان فى النفوس بأن التحرير قادم لا محالة .. وعندما يقترب الانسان من الدعوة التى يدعو إليها الرئيس حافظ الأسد نحو تضامن عربى ينبذ الأحقاد ويعبىء الطاقات ضد العدو المتربص بالعرب ، الذى احتل أراضينا ولابد أن يتركها ، يستطيع مَنْ يقترب من هذه الدعوة أن يلمس مدى التشابه بين شخصيتى صلاح الدين الأيوبى ، وحافظ الأسد .. والرئيس حافظ الأسد يستشهد دائما بالمرحلة التاريخية التى نشأ فيها صلاح الدين الأيوبى ، فالصليبيون عاشوا قرابة المائة عام فى بيت المقدس وقرابة قرنين فى أرض الشام ومع ذلك أرغمهم الشعب فى نضاله على الرحيل ، ولذلك فإن الرئيس الأسد يقول: إنه قد لا تكون القوة لصالح العرب الآن بالنسبة لتحرير أراضيهم من الاحتلال الإسرائيلى ولكن باعتبار أن إسرائيل قامت على العدوان باحتلال الأراضى العربية، وسلب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ،فلابدلشعب يقاوم الاحتلال وشعب يصر على حقه أن ينال هذا الحق ، فما ضاع حق وراءه مناضل ، والعبرة ليست فقط فى المرحلة الزمنية التى يمكن أن يبقى فيها

أين هى هذه الامبراطوريات الآن ؟!

إذن هذه الشخصية العظيمة التى تستوعب التاريخ من جهة ، وتؤمن بحيوية وقدرة الأمة على تجاوز الصعاب ، من جهة أخرى ، على إسطوع الحق ، ووضوحه لأن هذا الحق لا يمكن أن يموت ووراءه من يطالب به .. يجعل الرئيس حافظ الأسد متماثلا كل التماثل شخصية صلاح الدين الأيوبى .

□ □ □

□□ ويتبقى بعد ذلك أن أشير إلى الملاحظات التالية :

● **أولا :** أن شمول تجربة الرئيس حافظ الأسد لا يتيح لجهد منفرد مهما أخلص أن يلم بكل جوانبها ، وإن استطاع فإن قدرته على العرض والتحليل تظل مقصورة على ربط المقدمات بالنتائج ، والمسببات بالأسباب لأن حجم التغيير الذى تحقق فى سورية حتى الآن لا يمكن قياسه بانجازات تحققت أو مشروعات أقيمت أو سياسات تبدلت أو ارتباطات دولية أو اقليمية اتخذت شكلا جديدا .. التغيير الذى حدث فى سورية منذ فجر الحركة التصحيحية وحتى الآن استهدف هذا كله كوسائل وليس غايات ، وما جرى منذ الحركة التصحيحية حتى الآن كان فى حقيقته ثورة حضارية أكثر منها ثورة لها أبعادها التقليدية المعروفة فى مجالات السياسة والاقتصاد ، وكلى أمل فى لقاء قريب مع القارىء ، وفى قراءة أخرى فى فكر هذا الزعيم العربى الكبير ، أكثر عمقا ، وأكثر شمولا ، نستكمل بها تقديم الصورة الكاملة لفكر هذا القائد الذى يقصر كل جهد منفرد مهما كبر عن ايفائه حقه من البيان .

● **ثانيا :** لست أزعم بأننى فى هذا الكتاب قد جئت بالقول الفصل أو أننى قمت بالبحث العلمى المستقصى عن فكر الرئيس حافظ الأسد والذى ليس بعده زيادة لمستزيد ، كما أننى لا أزعم أننى وُفقت للاحاطة الشاملة بهذا الفكر من كل جوانبه ، حيث لم أنفق لهذا الكتاب من الوقت إلا ما قضت به الحاجة لاعداده ، ولذلك فلشد ما يبهجنى لو مهد هذا الكتاب أيضاً لبحوث أخرى أقرب إلى الدقة فى تقديم هذا الفكر .

● **ثالثا :** بقيت كلمات شكر أراها واجبة ، ومن الحق أن أقدم عرفانى بالفضل لكثيرين لولاهم ما أمكن أن يصدر هذا الكتاب فى هذا الزمن القياسى .

أقدم الشكر أولا لصاحب الفكرة الكاتب الصحفى الكبير إبراهيم سعده وآمل أن يكون هذا الكتاب قد حقق الهدف الذى توخاه منه ، ولئن أصبت فيما قدمت ، فذلك من فضل ربى ، وإذا ما قصر جهدى دون غاية فتلك حدود اجتهادى ، وما توفيقى إلا بالله .

كما أقدم شكرى وتقديرى **للأستاذ محمود الزعبى رئيس وزراء سورية** على صادق تعاونه معى وكذلك **العماد مصطفى طلاس** .. كما أن عرفانى بغير حدود لوزير الاعلام

الدكتور محمد سلمان الذى احتضن فكرة الكتاب منذ اللحظة الأولى وقدم وأشرف على ترتيب الوثائق التى طلبتها بحرص شديد وكفاءة عالية . وأعطى بحيويته وحماسته لفكرة الكتاب الكثير من المعلومات ومن الوقت .

كذلك فإننى أقدم عميق التقدير لفخامة الرئيس اللبنانى الأستاذ إلياس الهراوى الذى منحنى من وقته الكثير فى رحلة اعداد هذا الكتاب ، **وكذلك دولة رئيس المجلس النيابى الأستاذ نبيه برى ، ودولة الأستاذ حسين الحسينى رئيس مجلس النواب السابق ، ودولة الأستاذ رشيد الصلح رئيس وزراء لبنان السابق ، وقادة الفكر السياسى والعمل الحزبى والصحفى.**

والحقيقة اننى لا أعرف كيف اشكر كل من قبلوا برضى ومحبة معاونتى فى اعداد هذا الكتاب وبينهم أطراف الجبهة الوطنية التقدمية **وخاصة الأساتذة خالد بكداش وصفوان قدسى وأحمد الأسعد ، كما أخص بالشكر المؤرخ السورى الدكتور سهيل زكار** ولابد أن أشير إلى جهد كبير قدمه كل العاملين فى مؤسسات وزارة الاعلام **وأخص بالذكر الأستاذين مازن صباغ ويوسف مقدسى مستشارى وزير الاعلام** ، كما أتقدم بالشكر لرئيس جبهة الانقاذ الفلسطينية السيد **خالد الفاهوم ، وزعماء المعارضة العراقية .**

وأشكر أيضا هؤلاء الذين جعلوا كتابة هذا المؤلف ممكنة بالنسبة لى عن طريق عملهم على جمع أوراقى المتناثرة **وخاصة الأخوة فى مركز الميكروفيلم بمؤسستى الأهرام وأخبار اليوم ، كما أشكر الدكتور سمير عبدالرازق مدير عام مؤسسة أخبار اليوم** الذى تابع صدور هذا الكتاب على الرغم من شواغله العديدة .

ومن الحق أن أنوه بجهد كبير بذله الفنان أحمد السعيد سكرتير تحرير أخبار اليوم الذى أعد هذا المخطوط للطبع فى هذا الشكل الفنى.

وأخيرا فإننى أقدم هذه الصفحات والذاكرة تعود بى إلى عبارة صادقة للعلامة القاضى الفاضل **عبدالرحمن البيساني** إذ يقول : « لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده لو غُير هذا لكان يستحسن ، ولو قُدم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

عادل رضا

١

فارس بنى يعرب

- □□ المولد.. النسب والنشأة
- □□ التاريخ لا تحركه الصدفة
- □□ التلازم بين القوة والوحدة فى فكر الأسد

□□ الذين يعتقدون ـ وبحق ـ أن ثمة ملامح عديدة تتشابه فيها **شخصيتا الناصر صلاح الدين الأيوبى « ٥٣٢ هجرية » ، والرئيس حافظ الأسد « ١٩٣٠ ميلادية »** يملكون شواهد ، ومسوغات ، وأدلة تدعم هذا الاعتقاد وتؤكده ..

فكلاهما ولد فى مناخ ساعد على تكوين ملامح شخصيته فى وقت مبكر ، وكلاهما نشأ نشأة صالحة تميزت بالفطنة والذكاء ، وكلاهما شب على الشجاعة وحصافة الرأى .. **وكانت قيادة كل منهما مثالا يحتذى للحكمة والمرونة والشجاعة ونكران الذات كما سيلى ..**

وكما أن صلاح الدين الأيوبى لم يأت من فراغ ، ولم ينشأ فى أمة ميتة فأحياها ، فكذلك الحال بالنسبة للرئيس حافظ الأسد ، **فهو سليل الأمة التى صدرت للعالمين العربى والاسلامى أبرز قياداتهما فى شتى المجالات** ، وهى قيادات صنعت لهذا العالم أعظم انجازاته الحضارية والانسانية والعسكرية والفكرية .

وإذا كان الدور الذى قام به صلاح الدين الأيوبى ، امتدادا واستمرارا لدور القائد المسلم الفذ ، الذى غرس نواة تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة ، لمجابهة العدو الصليبى ، ونعنى به عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، ثم دور ابنه نورالدين محمود الذى

سقى هذه البذرة ، فنبتت واخضر عودها ، واستقر فى عهده ، حتى اذا تولى صلاح الدين الأيوبى القيادة .. أينعت وأزهرت وأعطت ثمارها بفضل عبقريته السياسية والعسكرية وشخصيته الفذة وعقليته المدبرة ، **فكذلك الحال بالنسبة للرئيس حافظ الأسد الذى أصبح امتدادا للقائد العظيم صلاح الدين الأيوبى** حيث أوقف عبقريته السياسية والعسكرية **على خدمة** أهداف أمته التى كانت تنتظر الظروف المواتية لتحقيق هذه الأهداف وتتطلع بشوق للقائد الذى يقود خطاها .

والذين تابعوا ويتابعون ـ بنظرة محايدة ـ مسيرة حافظ الأسد يرون أنه **واحد من أبرز قادة التاريخ العربى المعاصر ، فهو الذى صنع تاريخا جديدا لسورية** ، تاريخا ليس منبت الأواصر مع ماضيها ، ولكنه يجاوز بها مراحل التخلف التى كانت تتخبط فيها . يكفى للدلالة على ذلك أن نستعرض الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى ـ فى سورية قبل حكم الرئيس الأسد وبعده ، لنعرف أبعاد الثورة الحضارية الكبرى التى حققها فى بلاده ، وهى بكل تأكيد أضافت قدرة وقوة للوطن العربى بأسره ... **استطاع حافظ الأسد أن يكون المناضل والمقاتل ورجل السلام ورجل الفكر والثقافة ، أن يجعل من سورية مثالا يحتذى به فى مجال البناء الداخلى السياسى والاقتصادى وفى مجال تعميق التضامن العربى، وفى مجال التعامل الدولى وفق مبادىء الأمم المتحدة واحترام السيادة، خدمة للحقوق العربية بوجه التحديات القائمة وفى مقدمتها الاطماع الصهيونية .**

والذين يقارنون بين صلاح الدين الأيوبى وحافظ الأسد ، يجدون أن الصفات نفسها والسجايا الشخصية تبدو وكأنها واحدة ، الأمر الذى جعل كلا منهما زعيما مثاليا للأمة التى يقودها .

كان صلاح الدين الأيوبى تجسيدا حيا لأمانى المسلمين وآمالهم ، وكان نبراسا يحتذى به فى قوة العزيمة وصلابة العزم على الجهاد لتخليص ديار المسلمين من أيدى الفرنجة ، وقد ساعده على ذلك ، تحرره من الوهم ، إلى جانب احساسه الداخلى بأنه يمتلك القدرة دائما على الاستمرار فى الجهاد وتحمل المصاعب والمشاق ، حتى يعيد للأمة الاسلامية ما فقدته من مجد وكرامة بعدما سلبت منها بعض أراضيها ، وخاصة بيت المقدس . .. **وبإسقاطة تاريخية تبدو مواقف الرئيس الأسد وكأنها امتداد لمسيرة الناصر صلاح الدين الأيوبى** ، ولقد برهنت هذه المواقف على أن التصميم والإيمان بعدالة الهدف ووضوح الرؤية يكونان دائما الرؤية التى يمكن بها التغلب على جميع الصعوبات ، وتخطى جميع العقبات .. وإلى جانب ذلك ، **فقد امتلك الرئيس حافظ الأسد صفات أخرى تغذى هذه العناصر ..** أهمها استقامته وفق ما ينبغى أن تكون عليه سلوكيات الفرد المؤمن الذى يتحلى بالايمان والشجاعة وحسن السياسة

والصبر والحلم والعفة والمروءة مما جعل أعماله تجيء على مستوى أخلاقه ، وإذا كانت المصادر التاريخية المحايدة التى أرخت لحياة صلاح الدين الأيوبى القيادية ولجهاده قد أكدت أنه كان حازما بقدر ما كان محبا للتواضع فإن القريبين من الرئيس حافظ الأسد .. يؤكدون أنه دوما يعطى القدوة والمثل للجندى الصالح المتفانى فى أداء الواجب والمتمسك بإيمانه وعقيدته والمثالى فى التواضع، كما سيلى فى مواقع عديدة من هذا الكتاب .

وإذا كانت الروايات التاريخية .. قد بينت لنا أن صلاح الدين الأيوبى كان يتقدم جنده فى حمل الحجارة على ظهره والأخشاب على كتفيه من أجل بناء المتاريس والحصون للاحتماء فيها تفاديا لضربات الأعداء التى ربما تأتى مباغتة ، الأمر الذى جعله يحقق انتصارات شهيرة فى تاريخ الاسلام ، وهى انتصارات لاتزال تشهد على شهامته وشجاعته فى سبيل نصرة الاسلام وحماية مكاسبه وخلف بعد وفاته تراثا تاريخيا .. ومواقف مشرفة تذكرها الأجيال المسلمة عبر أطوار التاريخ بالفخر والاعزاز ، **فإن الذين تابعوا وعاصروا نشأة الرئيس حافظ الأسد يشهدون له بصفات الشجاعة والاقتحام ، وهنا لابد أن نشير الى أن الرئيس الأسد نشأ فى بيئة عربية تقدس الشهامة والرجولة والفروسية العربية** ، والمعروف فى الريف وفى القرية التى نشأ فيها الرئيس الأسد وهى على مقربة من منبت أول ابجدية فى العالم . إن هناك تقاليد تعطى للانسان الفارس والشجاع والمقدام قيمة كبرى على صعيد الفرد ، وعلى صعيد الجماعة ، وهذا التراث مستمد من البيئة العربية الأصيلة والتقاليد العربية الاصيلة .. لأن الانسان العربى ربى على المثل العليا التى جاء الاسلام فأكدها كالوفاء بالعهد والتضحية والكرم والعطاء والبذل والمروءة والنجدة والشرف والحفاظ على العرض إلى آخر ذلك من مثل وقيم عليا لازالت مختزنة فى النفس العربية، **هذه القيم والمبادىء التى أكدها الاسلام تربى عليها الرئيس الأسد** ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ **وقول عمر بن الخطاب** « علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل » **كل هذه المثل الاسلامية كانت فى ذهن الفتى حافظ الأسد.**

وفى جميع المراحل التى عاشها كان دائما فى المقدمة ، وهذه الحقيقة يؤكدها ويرويها عنه الكثير من الطلاب الذين زاملوه فى الدراسة الثانوية ، فهو الذى كان يقود المظاهرات ، ويتصدى لرصاص المستعمر ، ورصاص الأنظمة الديكتاتورية ، وعندما كان ضابطا مبتدئا فى سلاح الجو السورى كان يعرض نفسه لكل المهمات القتالية فى دوريات الطيران ، وعندما تم تحديث القوات السورية فى الخمسينات .. وارسل مع غيره فى بعثة تدريبية للاتحاد السوفيتى .. اختار أصعب ظروف الطيران وهو القتال الليلى ، ومن المعروف أنه فى الخمسينات لم تكن التكنولوجيا متوافرة كما هى الآن .. **اختار القتال الليلى ليكون فى مقدمة من يقاتل ويذود عن وطنه لأنه تربى على حب الوطن،**

وحب الفداء ، وحب التضحية فى سبيل الوطن ، ويروى الطيارون الذين زاملوه فى جمهورية مصر العربية عن اقدامه وشجاعته فى دوريات الطيران فوق سماء الاقليم الجنوبى الكثير .

كان يتطوع ليكون فى دوريات قتالية وكان يسعى لأن يأخذ دوريات اضافية ، وفى حرب الاستنزاف التى تلت حرب ١٩٧٣ كان موجودا بصفة مستمرة فى بعض الخنادق الامامية . **لقد تجلت شجاعته فى ادارة حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣** عندما استطاع العدو أن يخترق بعض القطاعات فى القطاع الشمالى ذهب الى مقر القيادة التعبوية للجيش وظل يشرف على المعركة ، حتى تمكن الجيش السورى من ايقاف تقدم العدو فى القطاع الشمالى ، ويضرب الطيارون أيضا المثل بشجاعته ورباطة جأشه وهدوئه ، واتخاذه القرار الحكيم فى الساعة المناسبة والحاسمة .

المولد ... والنشأة

ولد الرئيس حافظ الأسد فى يوم السادس من شهر (تشرين) أكتوبر ١٩٣٠ لأبوين عربيين اصيلين ، فقد انتمى والده إلى قبيلة كلاب (وبعضهم يقول لكلب) التى عدت من اعرق القبائل العربية وأكثرها أصالة ، وأعظمها جهادا ضد الروم ، ولتخليد هذا الجهاد كتب العلماء العرب ملحمة ذات الهمة التى تعد على رأس الملاحم العربية الشعبية ومن أقدمها وأشهرها .

ولد فى بيئة ريفية كادحة تعمل فى الزراعة وذلك فى قرية (القرداحة) التابعة لمحافظة « اللاذقية » وقرية القرداحة تقع فى السلسلة الجبلية السورية المتاخمة للبحر المتوسط ، وهى تتربع على ربوة كبيرة مكسوة بالغابات ، وللقرداحه تاريخ قديم وحديث ، كان أبناؤها يتصدون بكل شجاعة لكل عدو ، واشتهرت بأنها كانت ملجأ للفارين من الاضطهاد والظلم حيث يجدون فيها الأمن والامان ، وفى قرية القرداحة ترعرع الرئيس الأسد فى كنف والده ، وتعلم فى كتاتيب القرية وحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم على يد فضيلة الشيخ كامل حبيب ، **وما أن اختتم القرآن فى سن السابعة من عمره حتى التحق بمدرسة القرداحة الابتدائية ، وكان متميزا بين زملائه بالولع الشديد بالمطالعة** ، وكان يقرأ لوالده وضيوفه الشعر وكتب التاريخ ، وفى الأربعينات انتقل إلى اللاذقية مع والده **حيث أكمل دراسته حتى المرحلة الثانوية** ، وحيث تبلور وعيه السياسى وقدساهم فى المظاهرات الطلابية المعادية للاحتلال الفرنسى ، وفى النشاطات السياسية من أجل تحقيق الجلاء ، كان يتمتع بذكاء سخره للتعمق فى العلم ، الأمر الذى جعله يبرز فى دراسته وخاصة فى مادتى الرياضيات والتاريخ .

وقد انتخب فى لجنة طلاب محافظة اللاذقية ، وقاد هذه الحركة من أجل قضية فلسطين وغيرها من قضايا العرب النضالية . **وتخرج فى ثانوية تجهيز البنين** (ثانوية جول جمال حاليا) . **وكان الطالب حافظ الأسد ذا بصيرة نافذة وفكر متقد**

وشخصية قوية جعلت رفاقه ينتخبونه عضوا في اللجنة الطلابية حيث شق طريقه النضالى بإصرار وتحد .. راح يقود المظاهرات ضد السلطة الرجعية غير مكترث بما يمكن أن يصيبه ، ولأنه كان صاحب رأى ، وكان متسما بالقدرة الفائقة على التنظيم وحمل المسئولية . فقد ترأس اللجنة الطلابية ، وكانت له اتصالاته باللجان الطلابية فى سورية عامة لتوحيد العمل الطلابى ، **وفى عام ١٩٤٦ انتسب إلى حزب البعث العربى الاشتراكى** ليبدأ النضال لتحقيق الأهداف القومية للوحدة العربية الشاملة وتحرير أجزاء الوطن العربى المحتل ، **واستطاع الطالب حافظ الأسد أن يجمع بين الدراسة والسياسة فى وقت واحد** ، وكان بارزا فى كلتيهما ، وقد لفت حافظ الأسد الانتباه إليه بلباقته وذكائه وخبرته الفائقة على اقناع الآخرين بوجهة نظره .. واحترامه للرأى الآخر .

كان حافظ الأسد الطالب الثائر يقوم بتوزيع المنشورات السرية فى الليل والنهار ، وكان يتولى كتابة الشعارات الوطنية على جدران أحياء المدينة .. يشرح أهداف الحزب ، **ولقد وصلت شجاعته وقتئذ منتهاها عندما تولى توقيع العريضة الشهيرة من فلاحى محافظة اللاذقية للمطالبة بتأميم ادارة حصر التبغ والتنباك** ، وقد قام خلال جولاته فى القرى بنشر مبادىء الحزب وأهدافه وترتيب مؤتمرات للطلاب على مستوى سورية ، وكان يحرص على أن تصدر عقب كل مؤتمر طلابى قرارات يغلب عليها الطابع القومى والوطنى ، **وكانت أهم هذه القرارات وأبعدها أثرا** ذلك القرار الذى كان وراء صدوره فى المؤتمر الثلاثى (حلب ـ حمص ـ اللاذقية) والذى طالب فيه بإدخال التدريب العسكرى الى المدارس الثانوية فى أعقاب نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وهى النكبة التى حاول مع رفاقه التطوع للتصدى بها ، ولكن السلطة القائمة رفضت ارسالهم الى الجبهة .

وتبدو الشجاعة الفائقة للطالب حافظ الأسد عندما قاد احدى المظاهرات فى مدرسته الثانوية احتجاجا على تعديل الدستور وحاول بعض الطلاب الحزبيين مرافقته الى منزله لحمايته من أى اعتداء ، كانت تجمع كل المؤشرات على وقوعه ، ولكنه رفض وأصر على الذهاب بمفرده .

كان حافظ الأسد طالبا عقائديا شجاعا لا يتردد فى الدفاع عن اى مظلوم أو عن حق مهضوم وكان شجاعا ثابتا على عقيدته مهما لاقى من صعاب ، لقد أحب حافظ الأسد وطنه حبا عميقا واتجه بكل طاقته لخدمة هذا الوطن ، وكم تعرض للأخطار ، وعرض حياته للازهاق فداء لواجب آمن به .

إن الذين زاملوا الطالب حافظ الأسد فى عامى ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ **يسجلون له بالتقدير ، انه كان يتميز بالعقلانية لا ينساق وراء العاطفة** ، لا يخشى التهديد ، كان رمزا للشاب الثائر ، وتوافرت له صفات القيادة المبكرة ، لم يعرف شبابه ما يعرفه الآخرون من

الشباب ، وفى ثانوية جول جمال باللاذقية (التجهيز سابقا) التقى بالكثير من اصدقائه فى الحزب، وعن هذه الفترة يتحدث الرئيس حافظ الأسد فيقول :

« كنت فى سنواتى الأولى فى ثانوية جول جمال فى اللاذقية جادا ومجدا فى دراستى ، ولكننى تراجعت بعد ذلك حينما كرست نفسى للسياسة والحزب ، وكنا نتعلم الفرنسية منذ المرحلة الابتدائية ، وقد بلغنا فيها مبلغا حسنا إلا أنه لم يتح لنا فيما بعد أن نمارس هذه اللغة » .

« لقد اكتسبنا نحن الشباب بعض النفوذ فى أثناء الحملات الانتخابية ، كانت المنافسة على مقدار من الأهمية مع الأحزاب الأخرى ـ الحزب الشيوعى السورى، والحزب القومى السورى الاجتماعى ولم يكن لهما تأثير كبير ، أما الحزب الوطنى وحزب الشعب والاخوان المسلمون فكانت تجمعات أفراد همها الحفاظ على مصالحها اكثر من السعى فى سبيل الشعب ، كانت السلطة تؤول اليهم احيانا ولكنهم لا يتمتعون بالشعبية ولذلك كنا نناضل » .

ما الذى دفعنى إلى النضال قبل عام ١٩٥٢ ؟

إنه الوقوف على واقع ، واقع أمة عربية تعانى من الحرب ومن المتاعب الداخلية ، وهناك جزء من أرض أمتنا العربية ـ فلسطين ـ محتل، وكنت قد رغبت وانا فى الثامنة عشرة، التطوع فى الجيش فى الفترة التى نشبت فيها المعركة ولكنهم قابلونى بالرفض فتابعت عند ذلك الكفاح السياسى مع رفاقى .

كان يبدو لنا ولمن شاطرونا اراءنا أن المسألة السياسية العسكرية الأولى هى المسألة الفلسطينية ، كنا نرى أنها النتيجة المباشرة للوضع الداخلى المفجع الذى كنا نرزح تحته ، وكل الأمراض التى تصيب الوطن العربى من ذلك الواقع قد اتاح للصهاينة غزو فلسطين .

كان من عادتى القول يوم كنت طالبا : ان المريض بالسل أو السرطان لا يمكنه أن يكون مصارعا ، فلن يقوى على القتال إن تناقصت امكاناته الجسدية وعلينا أن نعالجه أولا ، تلك كانت حالنا ، كنا ضعفاء ، ولابد أن نكون اقوياء لننتصر » .

« لم تحل هذه المشاهدات دون أن نبذل قصارى الجهد ، وان نمارس الضغوط على الحكومة السورية لتزداد التزاما بالقضية الفلسطينية ولذلك جهدنا فى تحريك الجماهير للتأثير على السلطة ، وحقيقة الأمر أن الحكم السورى لم يكن قد سعى إلى مواجهة الصهاينة ، لم يكن يشعر أنه يوازى خصمه على صعيد التكنولوجيا ، كان سلاحنا بسيطا ولكن عدد المقاتلين ربما عوض نوعية العتاد .

كان البعثيون على أية حال يلجأون دوما إلى المظاهرات فى الشوارع وهى إذ ذاك هامة ، كانت قوى حفظ النظام تلقى علينا القبض أحيانا ثم تخلى سبيلنا بالطبع ، ولكننا كنا نجتذب وراءنا جمهورا كبيرا من مواطنينا ليسوا جميعهم طلابا أو بعثيين » .

« **لم يكن فى تلك الحقبة منظمات شعبية** ، ثمة نقابات للعمال ولكن لا شىء على صعيد الفلاحين ونقابات مهنية وحرفية ولكنها خلو من أى مضمون سياسى ، لذلك أصبح الطلبة بعد ما تمت تعبئتهم المحرك والدافع للمظاهرات الشعبية ، أما قطاعات الفعاليات الأخرى فقد كانت تتعاطف معنا ومع شعاراتنا فإن دعونا التجار أو العمال إلى الاضراب لبوا النداء ، كان ثمة بالطبع بعض المناوئين الذين يمنعون التجار من اغلاق محالهم أو يشيعون الاضطراب فى مسيراتنا أو يعتدون علينا ، وكانت الاشتباكات كثيرة ولا سيما مع بعض الازلام أو السوقة الذين تجمعهم الأحزاب المناهضة لأفكارنا » .

« **أذكر مرة فى اللاذقية** ، فيما كنا نسير فى مظاهرة انطلقت من مدرسة جول جمال إلى دار المحافظ ، وبينما نحن فى منتصف المسافة رأينا شخصا ينطلق نحونا وشهر مسدسه وهددنا بإطلاق النار علينا إذا لم نوقف مظاهرتنا ولم يكن يعى ما يقول ويفعل ، لأننا كثيرون . فلو لجأ إلى سلاحه لقتل أو جرح البعض منا ولكن كان بالامكان الامساك به بسرعة وتسليمه الى الشرطة ، لم نكن نحمل سلاحا ولكننا لم نمتثل لتهديده فولى الأدبار » .

« **لازلت أتساءل** حول الأسباب التى دفعته الى هذا التصرف والى الامتناع عن اطلاق النار .. لعله خاف من نتائج فعلته .

ولكنها كانت لحظة مزعجة ولا سيما لأننا كنا فى النسق الأول من المسيرة بوصفنا منتخبى رابطة الطلبة .

ولكن المظاهرات لم تكن سوى جانب واحد من أنشطة الطلبة البعثيين السياسية . كنا نناقش بوجه خاص التوجهات الممكن اتباعها ....»

هذه المرحلة التى تحدث عنها حافظ الأسد... كانت من الناحية الاقتصادية مرحلة صعبة جدا وخطيرة ، لقد كان الفلاحون يعملون فى أراض لا يمتلكونها بأبخس الأجور وكذلك كان حال العمال وغيرهم من فئات الشعب ، ولم يكن من رادع انسانى أو أخلاقى يردع صاحب الأرض أو المصنع أو المشغل ، فقد كان الملاك من أصحاب النفوذ أو قريبين من النفوذ والسلطة ومازالوا كذلك حتى أصبح السكان فى حالة فقيرة ومرهقة **وحول هذه المرحلة تحدث الرئيس حافظ الأسد قائلا :**

« كانت الأمور الاقتصادية خطيرة بما تحمل من افقار للسكان وهم من قبل ضحايا

الاستغلال ، والفلاحون بؤساء يعملون فى الأرض ولا يملكونها وأجورهم غير كافية ، غالبية الأطفال لا يدخلون المدارس ، كان ثمة طلبة حتى فى ثانوية جول جمال لا يملكون ثمن شراء كتبهم فيطردون من المدرسة، والضمان الاجتماعى لا وجود له . ذات مرة رأيت رجلا من أشد رجال قريتنا بأسا وكان جارا لنا يسقط فريسة المرض ، كان أشبه بقوى الطبيعة العاتية لكنه حينما شرع يبصق الدم لم يتمكن من علاج نفسه، لأنه لا يملك عشر ليرات سورية يمضى بها إلى الطبيب .

إنه مثال أثر فى كثيرا ، ما كان لرجل بهذا الجسم المدهش أن يموت ولكنه فقير ولم يساعده انسان أو أية دائرة اجتماعية .

كانت الادارة بيد الاقطاعيين والذين احتكروا أيضا الوظائف ، وقد بلغ الأمر أن انيطت بعض الوظائف كوظيفة دركى مثلا بالعائلات الاقطاعية، فإذا كان الأمر يتطلب تجنيد مائة دركى لمحافظة اللاذقية وزع هذا العدد على عدة شخصيات من طبقة اجتماعية رفيعة المستوى تتولى بدورها اختيار المرشحين لوظيفة الدّركى الذى هو فى نظر الفلاحين سلطة مع مرتب مضمون وحلم عندما يكون المرء فقيرا ، بيد أنه لابد من شراء وظيفة الدركى هذه بدفع ٢٠٠ ليرة سورية للشخصية المومأ إليها ، تلك التى فوض إليها احيانا اختيار عشرة من الدركيين ، حينذاك كان الفلاح يسعى لايجاد ٢٠٠ ليرة سورية فهو يعتقد أن ذلك استثمار وانه سيستعيد المبلغ من رواتب ولده مستقبلا فكان يقترض المبلغ أو يرهن بعض الأملاك ، ولما كانت هذه الوظيفة (ملكا) للبائع فربما اتفق أن يسرح الدركى بعد شهر أو شهرين من الخدمة ، لهذا السبب او ذلك ثم يبيع هذه الوظيفة إلى فلاح آخر ، ليس ثمة قاعدة مطلقة ولا تشريع يحكم هذا المجال ، والأمر واحد فى الحياة السياسية ، فالانتخابات لا تعبر بحرية عن رغبات المواطنين ، فالمنتخبون هم المالكون ، ومن المبادىء المتعارف عليها آنذاك شراء البطاقات مقابل ١٠٠ ليرة سورية من أجل صناديق الاقتراع ، والمنتخب الجديد بدروه يستعيد ماله بإرغام ناخبيه على أن يدفعوا له مقابل الخدمات التى يطلبونها منه ، كان يستعيد بذلك اكثر مما انفق من المال » .

وعلى الصعيد القومى كان الطالب حافظ الأسد ورفاقه يشعرون بأن الوطن العربى والأمة العربية مفتتة وضعيفة ، وكان لابد من تصحيح هذا الوضع السيىء ولابد من ايجاد قيادات جديدة تحمل على عاتقها عملية تحريض الجماهير للخلاص من هذا الوضع .

ويصف الرئيس حافظ الأسد حال الوطن العربى آنذاك فيقول :

« أما الوطن العربى فقد كنا نعى تماما ضعفه بسبب تجزئته وتفتته مما كان يدفعنا

إلى الوحدة لأننا واثقون أن العرب يؤلفون أمة واحدة وانه لا يمكن معالجة أية مشكلة فى جزء من العالم العربى بمعزل عن غيره .

كنا نحس أيضا أن الوضع فى الأقطار العربية الأخرى لم يكن أفضل من الوضع الذى كان سائدا فى سورية بل كان أسوأ لدى غالبية هذه الأقطار اذ كان الكثير منها لا يزال تحت نير الاستعمار .

كنا نعى أن بلدنا ينبغى له الاضطلاع بمسئوليات كبيرة ، ولكن كان يعز علينا أن نشهد العالم العربى مجزأ حتى سورية قسمت أربعة أجزاء ، وكان من العسير الاعتقاد أن هذا التقطيع يرمى إلى « خير الناس » مثل هذا الوضع وهو سيىء فى ذاته إنما يفضى الى استبقاء نفوذ الدول المستعمرة ونفوذ الطبقة الرجعية المتصاعدة داخل البلاد ، وكان يمكن لهذا الأمر أن يعرض سورية للمآسى نفسها التى تعصف بفلسطين آنذاك والتى أدت إلى تسلط الصهاينة عليها » .

« كل هذه الأسباب استدعت تصحيحا ضروريا اختط توجهنا المستقبلى ، ولكن قبل نهاية المرحلة الثانوية لم يستقر لى رأى على ما افعله بعد الشهادة الثانوية ، كنت أنوى المتابعة فى حقل الطب لا أن أحترف المهنة العسكرية ولا سيما أنه ليس من السهل على بعثى مثلى دخول الكلية العسكرية ، ولذلك أعددت نفسى لدراسة الطب بعد حصولى على الشهادة الثانوية ولكن لم اتابع السير فى هذه الطريق لأكثر من سبب ، وتقدمت بطلب انتساب الى الكلية العسكرية بحمص » .

لم يجد الطالب حافظ الأسد بدا من خدمة الوطن والقضية الفلسطينية **فما كان منه إلا أن التحق بصفوف الجيش متطوعا .**

وقد أخذ حزب البعث يكبر وينمو ، ولكنه لم يستطع الدخول فى التشكيل البرلمانى بسبب تحكم الاقطاعيين الكبار فى هذا التشكيل ، وفى نوفمبر « تشرين الثانى » عام ١٩٥١ حل أديب الشيشكلى المجلس التأسيسى وتسلم الجيش المسئوليات فى البلاد ، وأصبح العمل السياسى للحزب محظورا فى العلن ، ولكنه بقى يمارس دوره فى الخفاء ، وفى عام ١٩٥٢ التحق حافظ الأسد بالكلية العسكرية الجوية ، وتخرج منها برتبة ملازم عام ١٩٥٥ ثم أكمل دوراته العسكرية (طيار قتال ليلى - نهارى) ثم أوفد فى بعثات خارج القطر السورى واجتاز بدرجة امتياز دورة قائد سرب عام ١٩٥٩ ودورة أركان حرب عام ١٩٦٤ .

يقول الرئيس حافظ الأسد فى وصف حبه العميق وشوقه البالغ لرؤية الطائرة وقيادتها :

« انني من دورة الطيارين الأولى فى هذه الكلية التى أنشئت حديثا ، كان ثمة بالطبع طيارون سوريون قبلنا ولكنهم لم يدرسوا فى هذه الكلية الحديثة وهى مختلفة فى مستواها عما سبقها .

كنا منذ وصولنا إلى حلب عند المساء ننتظر بفارغ الصبر رؤية الطائرات عن قرب وانا أعنى بذلك اننا كنا نكتشف الطائرات فى تلك الفترة فلم استقل طائرة من قبل ، كانت أولى ساعات الطيران خلف القائد استكشافا لعالم آخر بالنسبة إلى ، ثم إن الشعور بالسيطرة على الطائرة فى الجو انما يولى المرء بعدا آخر ، فإذا تراكمت ساعات الطيران أضحت القيادة عادة وتم اكتساب الخبرة .

باشرت الطيران على طائرات بريطانية وايطالية وكانت من طراز ـ تشيب مانك وسبيتفاير وفيات ـ هـ ٥٥/٥٩ ومن النوع المروحى ، فى مصر ابان دورتى الأولى خارج سورية .

قدت أيضا طائرات فانبير وأول طائرة نفاثة من طراز متيور ١١ ـ كان التغيير كبيرا ، ما كان أروعها طائرة ، جميع تلك الطائرات كانت مطاردة » .

ويضيف الرئيس حافظ الأسد :

« عندما ذهبت إلى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٨ لدورة تأهيلية ، تعلمت قيادة طائرة ـ الميج ١٥ والميج ١٧ ـ مكثت أحد عشر شهرا فى الاتحاد السوفيتى وكان لابد لى من تعلم القليل من اللغة الروسية بغرض المحادثات العادية والمصطلحات التقنية .

كانت دورات كلية الطيران فى الواقع مقررة بادىء الامر فى بريطانيا ولذلك تم تعليمنا اللغة الانجليزية فى دورات مكثفة وسريعة ، ولكن الحكومة السورية بدلت فى تلك الفترة اتجاهها وعقدت اتفاقا مع مصر .

وهكذا وجدتنى بادىء الأمر فى القاهرة ، وفى حلب فزت على مدى سنتين متتاليتين بالجائزة الأولى فى الحركات البهلوانية الجوية ، اما فى الاتحاد السوفيتى وكان ذلك عام ١٩٥٨ وكنت نقيبا لم يكن ثمة ترتيب خلال هذه الدورة بل تقديرات فحسب ، امتياز ـ جيد جدا ـ جيد ، **وكان تقدير السوريين على الدوام امتياز** » .

وفى الكلية كان حافظ الأسد الطالب المستجد يواجه الصعاب والمشاكل فقط لأنه بعثى ، ولكنه كان ينفذ الأوامر ويحترم التسلسل إنما لم يكن يتوانى عن اتخاذ موقف ينبع من الاعتزاز بالنفس حتى أن أحدهم قد استغرب قبول شخص مثل حافظ الأسد فى الكلية ، فى حين أن هناك تقارير تفيد بأنه بعثى .

« الواقع أن كل من كان يقول بضرورة وضع حد للاستغلال وضمان المساواة بين المواطنين كان يعد محرضا أو مشاغبا فى نظر السلطات العسكرية ».

أما البعثى مصطفى طلاس فإنه تخرج ضابطا فى سلاح المدرعات بالاضافة لكونه تدرب على الفروسية ليمثلها ويشترك ببعض البطولات باسمها ، ومن المعروف أن العماد مصطفى طلاس ترك الكلية الجوية ليلتحق بالكلية العسكرية فى حمص وذلك لعصبية مزاجه على حد قوله وهذا ما لا يتناسب مع مهنة ووضع الطيار فكان أن تخرج فى سلاح المدرعات عام ١٩٥٤ وفى عام ١٩٥٥ اجتاز دورة فى الهندسة العسكرية فى « قطنا » .

وفى العام ١٩٥٥ أيضا ، تخرج الطيار حافظ الأسد ... فى الكلية الجوية برتبة ملازم فى سلاح الجو ، وقد أخذ مكانه كطيار مقاتل فى مطار « المزة » القريب من دمشق ، وأخذ صديقه مصطفى طلاس مكانه كقائد فصيلة فى الكتيبة المدرعة الثانية .

وكان حافظ الأسد ومصطفى طلاس ورفاقهما البعثيون العسكريون يعقدون اللقاءات فى نادى ضباط دمشق.

وقد انتدب الرئيس حافظ الأسد للخدمة فى أحد أسراب القتال الليلى فى القاهرة خلال الوحدة بين مصر وسوريا ، **وفى عام ١٩٥٨ تزوج النقيب حافظ الأسد من ابنة عمته السيدة أنيسة مخلوف وهى من قرية بستان الباشا** ، وقد تلقت دراستها فى مدرسة « القلب الأقدس » فى «بانياس» وقد أثمر هذا الزواج خمسة أولاد ، هم :

بشرى (١٩٦٠) خريجة الصيدلة ، **باسل** (١٩٦٢) أصبح مهندسا مدنيا ومن ثم ضابطا ، **وبشار** (١٩٦٥) أصبح طبيبا ، **مجد** (١٩٦٧) خريج تجارة ، **ماهر** (١٩٦٨) مهندس ميكانيكى ، **وفى مصر التى كانت تشكل الاقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة التقى النقيب حافظ الأسد بالنقيب مصطفى طلاس مرة أخرى** حيث كانا ضمن المجموعة التى اختارها المقدم مصطفى حمدون ، **وقد قام حافظ الأسد مع بعض الضباط السوريين بتشكيل لجنة عسكرية كان لها دورها البارز فى الاعداد وتنفيذ ثورة آذار مارس عام ١٩٦٣.** ذلك أنهم على إثر الانقلاب العسكرى ، الذى استهدف فض الوحدة بين مصر وسوريا فى ٢٨ (ايلول) سبتمبر ١٩٦١ **رفضوا تفويض الوحدة**، وطلبوا من القيادة المصرية العودة إلى سوريا ليعيدوا هذه الوحدة من جديد ، **ولكن هذا الطلب أجيب بالرفض ، واعتقل الضباط البعثيون ، وكان من بينهم الرئيس حافظ الأسد** الذى اعتقل فى سجن أبى زعبل لمدة ٤٤ يوما ، وكان يشغل منصب المسئول عن مطار القاهرة العسكرى على طريق الاسماعيلية ، وكان العماد مصطفى طلاس رئيسا لأركان كتيبة مدرعة فى الاسماعيلية والقاهرة ثم فى سيناء .

على **الجانب الآخر** وبعد الانفصال قامت السلطة الانفصالية بتسريح مجموعة من الضباط من بينهم الضباط السوريون البعثيون الذين كانوا موجودين فى مصر أثناء وبعد الانفصال **بتهمة الناصرية** ونقل هؤلاء الضباط إلى وظائف مدنية ، **والرئيس حافظ الأسد نقل إلى ادارة النقل بوزارة الاقتصاد** والعماد طلاس عين مفتشا فى وزارة التموين .

ويتحدث العماد مصطفى طلاس عن هذه المرحلة التى تلت وجودهم فى وظائف مدنية وحول حركة ٢٨ مارس آذار عام ١٩٦٢ **فيقول**: لم يترأس حافظ الأسد هذه الحركة احتراما منه للتسلسل العسكرى ، ومن المعروف أن هذه الحركة قام بها عسكريون بعثيون ، وناصريون بهدف قلب نظام الحكم ، وقد شارك فيها الرئيس حافظ الأسد والعماد مصطفى طلاس ، وكانت هذه الحركة بقيادة العميد لؤى الأتاسى والعقيد جاسم علوان والمقدم محمد عمران ، ولكن هذه الحركة فشلت ... **الأمر الذى دفع حافظ الأسد وصلاح جديد إلى السفر إلى طرطوس ثم إلى لبنان**، ولكنهما اعتقلا وسجنا ٩ أيام فى بيروت ثم انتقلا إلى سجن المزة حيث التقيا بالعماد طلاس وغيره ، وبعد اطلاق سراحه قامت ثورة الثامن من آذار (مارس) عام ١٩٦٣ ويعود أولئك الضباط الذين التحقوا بوظائف مدنية والذين سرحوا من الجيش ، **ويصبح حافظ الأسد برتبة مقدم طيار**، ويعهد إليه بقيادة اللواء الجوى السابع فى مطار « الضمير » ، ويعود مصطفى طلاس برتبة رائد الى صفوف الجيش ، ولم تكن ثورة آذار لتتم بسهولة فقد كانت ثمرة تخطيط دقيق حتى وصلت إلى مرحلة التنفيذ وتثبيت الثورة وقد وضع الأسد كل امكانياته من أجل نجاح هذه الثورة ، **وبذل عندما كان عضواً فى القيادة القطرية ، والقيادة القومية جهدا كبيرا لتحقيق الوحدة الوطنية** .

تجدر الاشارة أيضا إلى أنه بعد اقصاء ميشيل عفلق الذى كان من مؤسسى حزب البعث عن الأمانة العامة شغل أمين الحافظ منصب الأمين العام وشغل اللواء صلاح جديد منصب الأمين العام المساعد .

وقد أوقف أمين الحافظ كل جهده على احتكار السلطة ضاربا عرض الحائط بكل مبادىء البعث ، الأمر الذى انعكس على كل الأمور الداخلية والخارجية ، **ومن أجل تغيير هذا المسار والوصول إلى مسار صحيح قامت مجموعة مؤلفة من حافظ الأسد وعبد الكريم الجندى ومصطفى طلاس وصلاح جديد وسليم حاطوم بعزل القيادة اليمينية**، وغادر ميشيل عفلق البلاد . **وتمت حركة ٢٣ فبراير شباط ١٩٦٦ بنجاح** .

وكان طبيعيا بعد نجاح هذه الحركة أن يبذل القائمون عليها جهودا ضخمة من أجل استقطاب الجماهير والمضى فى بناء مجتمع جديد يغيرون به وجه المجتمع الاقطاعى

البرجوازى ووضعت حركة ٢٣ فبراير شباط عام ١٩٦٦ على رأس أهدافها تسخير كل الامكانيات ووضعها فى خدمة القضية الفلسطينية ، ولقد لقيت هذه الحركة تأييدا واسعا من مختلف هيئات الحزب والشعب طلابا وعمالا وفلاحين ومثقفين وحرفيين .

وتجدر الاشارة إلى أن بعض المدنيين وفى مقدمتهم المحامى عبدالحليم خدام (الذى اصبح نائبا لرئيس الجمهورية) والمدرس عبدالله الأحمر كان لهم دور فى حركة شباط ، وقبل أن تبدأ مرحلة السير الجديد والبعيد عن النزاعات والخلافات قام سليم حاطوم يساعده أعضاء قدامى فى حزب البعث بعملية انقلابية خطط لها على أساس دعوة الرئيس نور الدين الأتاسى ، وصلاح جديد لمأدبة غذاء فى السويداء ، **ولكن الرئيس حافظ الأسد وبالتعاون مع العماد مصطفى طلاس أحبطا هذه المؤامرة** وبدأت مرحلة جديدة كما سيلى ، وفى ١٦ نوفمبر تشرين الثانى عام ١٩٧٠ **قاد الرئيس حافظ الأسد الحركة التصحيحية، وفى ١٢** مارس آذار عام ١٩٧١ **انتخب رئيسا للجمهورية** ، وفى ١٤ مايو (أيار) ١٩٧١ اجتمعت القيادة القطرية **وانتخبت الرئيس الأسد رئيسا وأمينا قطريا** ، وفى النصف الثانى من شهر (آب) أغسطس ١٩٧١ **انتخب أمينا عاما لحزب البعث العربى الاشتراكى** ، وفى ٦ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ **قادحـرب التحرير المجيدة** وهى الحرب التى قضت على أسطورة التفوق الاسرائيلى والجيش الذى لايقهر وأعادت للأمة العربية كرامتها وعزتها ، وقد تجدد اختياره رئيسا للبلاد .

عوامل النصر

□□ الذين تابعوا وعاصروا خطوات الرئيس حافظ الأسد ومواقفه منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية الرسمية باللاذقية مع مطلع الاربعينات ثم عاصروه خلال الحرب العالمية الثانية وتابعوا مراحل نضاله ضد الاستعمار الفرنسى لسورية، حيث قاد وشارك فى المظاهرات المناهضة للاحتلال بكل الشجاعة والاقدام ، وفى كل النشاطات التى أدت لجلاء الاحتلال عام ١٩٤٥ ، **هؤلاء يؤكدون أن الطالب حافظ الأسد وهو يقود هذه المظاهرات لم يكن يملك أى سلاح سوى الايمان بعدالة القضايا العربية** واستعداده الدائم للتضحية بحياته فى سبيلها، وفى عام ١٩٤٦ عندما انضم إلى حزب البعث العربى الاشتراكى وخاض نضالا فى صفوف هذا الحزب معارضا الأنظمة السياسية القديمة .. **لم يكن يملك سوى حصافة الرأى والشجاعة على الجهر به والعمل من أجل تحقيقه** ، والذين عايشوا مشوار دراسته حتى حصوله على شهادة البكالوريا (القسم العلمى من ثانوية اللاذقية) الى أن اصبح طالبا فى الأكاديمية العسكرية عام ١٩٥٢ (الأكاديمية الجوية) **يؤكدون أن ترقيته السريعة تعود إلى قدرته النادرة على الاستيعاب والفهم والمشاركة بالرأى ، الأمر الذى جعله يحصل على الجائزة الممتازة فى الطيران الليلى خلال العامين**

التاليين لترقيته الى رتبة الملازم للطيران فى بداية عام ١٩٥٥ وهما العامان اللذان قضاهما فى الأكاديمية الجوية حتى حصل على ترقية فى الأكروبات الجوية ، وكان تفانى الطالب حافظ الأسد فى العمل والتدريب والتحاقه بالدورات العسكرية ، وطيران الهجوم وراء ايفاده فى بعثات دراسية الى الخارج حتى حصل على تقدير الشرف فى قيادة السرب عام ١٩٥٩ ودبلوم القيادة فى مجال الطيران عام ١٩٦٤ .

الأســرة ...

والرئيس حافظ الأسد هو خامس أبناء السيد على الأسد، وكان شأن أخوته وأخواته متعطشا للمعرفة ، وحفظ ربع سور القرآن الكريم وهو فى السادسة من عمره ، وقد ترشح والده المرحوم على سليمان الأسد للانتخابات فى الثلاثينات ، ويعتز أبناؤه بأنه غرس فيهم الفروسية وحب التضحية والتعطش للمعرفة ، **أما والدته فهى السيدة ناعسة** وقد توفيت فى شهر يوليو / تموز عام ١٩٩٢ وقد كان لها فضل كبير على الرئيس حافظ الأسد ، **وقد كان لوفاة المرحومة السيدة ناعسة والدة الرئيس الأسد أثر كبير عند الرئيس حافظ الأسد لأنها كانت النبع القومى الذى نهل منه** ـ على حد تعبير الصحفى الكبير وليد عوض ـ رحيق العزة والشموخ والعنفوان ، واستمد منه معانى الشجاعة والبأس والبطولة ، والأم التى تنجب عظيما مخلدة بين العظيمات ، ويكللها شعر أبى الطيب المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة الحمدانى :

ولو كان النساء كمن فقدن　　　لفضلت النساء على الرجال

وكان لدى والد الرئيس الأسد بعض الأملاك فى قريته ، **وكان حافظ الأسد هو الوحيد من بين ذويه الذى تنازل عن حصته فى الميراث للشعب بعد أن أضحى رجل دولة** ، اما أخوه الأكبر والملقب أبو توفيق والذى هو اسن من الرئيس الأسد بسبعة عشر عاما فمازال يستثمر أرضه ، ومازال العمل فى الحقول يؤلف جوهر حياته ، ومازال يعيش على النمط نفسه وهو يفضل البقاء فى الحقل على الانتقال إلى العاصمة ، ولا تستهويه السياسة .

أوجه أخرى للتشابه

□□ وكما اشتهر صلاح الدين الأيوبى فى تفانيه فى اصلاح أحوال المسلمين ، والدفاع عن بلادهم ، إلى جانب شهرته فى فعل الخير ، والاحسان إلى الفقراء ، كذلك كان حافظ الأسد يوم أجبر على الابتعاد عن الجيش فى ٢ ديسمبر كانون الأول ١٩٦١ إلى وظيفة مدنية فى أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ بسبب موقفه الرافض للانفصال البغيض ، ولأنه

المدافع عن وحدة مصر وسوريا كخطوة ومقدمة لعمل وحدوى أكبر وأشمل ، **خلال هذه الفترة ساهم حافظ الأسد بدور لازالت تفاصيله فى طي الكتمان** ، من أجل الدفاع عن أحوال الوحدويين وأسرهم من ذوى الدخل المحدود ، ومساندتهم وخاصة من تعرضوا لظروف القهر ، بسبب مواقفهم الوحدوية الأصيلة ، **كما أن الدور الذى قام به الرئيس حافظ الأسد فى النضال لقلب نظام الحكم الانفصالى كان دورا رئيسيا** وكان فى مقدمة من سعوا إلى تسلم احدى القيادات الأساسية للمنظمة السرية التى قادت ثورة ٨ آذار (مارس)١٩٦٣ وكان عضوا فى اللجنة العسكرية التى تولت قيادة القوات المسلحة على مستوى الحزب والجيش .

وكان من المتقدمين البارزين فى قيادة حركة شباط (فبراير) عام ١٩٦٦ التى أبعدت عن الحزب الاتجاه اليمينى ، ولقد شغل الرئيس حافظ الأسد العديد من المناصب التى صعد اليها بكفاءته وخبرته النادرة من بينها **قائد سرب جوى ثم قائد فرقة جوية ، وقائد قاعدة جوية** ، وفى ١ **تموز (يوليو) ١٩٦٨ رقى لمنصب فريق وقلد منصب قائد القوات الجوية والدفاع الجوى** ، وفى ٢٣ شباط (فبراير) تولى منصب وزير الدفاع بالاضافة لمهامه كقائد للقوات الجوية ، **ثم تقلد ـ كما أسلفت الاشارة ـ منصب فريق فى الجيش فى** أول تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، وفى ٢١ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٠ **شكل الرئيس حافظ الأسد وزارة التلافية** واحتفظ بوزارة الدفاع ، وفى ٢١ آذار (مارس) ١٩٧١ **انتخب رئيسا للدولة بعد استفتاء شعبى وفى ١٤ آيار (مايو) ١٩٧١ انتخب بالاجماع أمينا عاما قطريا للحزب** ، وفى النصف الثانى من آب (أغسطس) عام ١٩٧١ **انتخب أمينا عاما للحزب فى فترة أعمال المؤتمر القومى الحادى عشر .**

□ □ □

□□ واذا جئنا إلى الحقائق التاريخية والموضوعية ، فانها تقول أنه منذ انتهاء الدولة الأموية فى الشام ، وقيام الدولة العباسية ، **لم تعرف دمشق ، مجدها وعزها السابق ، كما عرفته فى عهد الرئيس حافظ الأسد** ، بل ولا نبالغ إذا قلنا أنه منذ قرابة الف عام لم يحكم دمشق إنسان من أصل عربى سوى حافظ الأسد ... حقيقة ان الحكام الذين سبقوه كانوا سوريين ولكنهم كانوا من أصول مختلفة .. **وعندما نقول أن الرئيس حافظ الأسد هو فارس بني يعرب** ، فلانه يعرف أبعاد هذا التاريخ باعتباره تاريخا قوميا لا أثر فيه للأجنبى على الاطلاق ، وكان ذا أبعاد حضارية ، بحيث أن هذه الدولة القومية التى كانت دمشق منطلقها قد جعلت من الخلافة الاسلامية أرضا ممتدة من الصين إلى الأندلس ، وسلموها فيما بعد إلى العباسيين لكى يستطيعوا أن ينعموا بنعمة التفاعل الثقافى الإسلامى ، وتأتى فى مرحلة العباسيين مرحلة الابداع الثقافى والحضارى الذى تمثل فى عهد الخليفة المامون ، ولكن بكل أسف بعد تفتت الدولة العباسية وقيام

حكم الامارات والدويلات وما إلى ذلك .. **فإن دمشق لم تعرف تواصلا بين تاريخها الحديث وتاريخها القديم إلا فى عهد الرئيس حافظ الأسد.**

ومواقف حافظ الأسد كما سيلى استمرار للتاريخ الأموى بكل ما فيه من فروسية وشجاعة واقدام . واذا كانت « حطين » هى موقعة الشرف فى فلسطين تحت قيادة صلاح الدين ، فإن حطين فى السياسة الآن هى قضية فلسطين التى لأوراقها فى مفاوضات السلام صليل السيوف ، والعين السورية فى منتهى اليقظة ، ضد أى استفراد أو صلح منفرد ، وعند مكتب الرئيس حافظ الأسد داخل قصر الرئاسة فى حى المهاجرين لوحة تحمل رسم القائد التاريخى البطل صلاح الدين الأيوبى ومعركة حطين فى قلب فلسطين . **وتشاء الأقدار أن يكون الرئيس الأسد فى هذه المرحلة من تاريخ العرب فارس يوم حطين**، حيث للقضية الفلسطينية كل الأوراق وكل الاهتمام .

التاريخ لاتحركه الصدفة

□□ **التاريخ لا تصنعه الصدفة**، وهو ـ أى التاريخ ـ حكمة الأجيال ، وذاكرة الأمم ، ومعلمها ، ومرشدها ، وفى سباق التطور الانسانى هناك لحظات تاريخية ، تسمح عادة بتجميع عناصر كثيرة ، وبلورة موقف معين ، حتى بغض النظر ، عن مدى توافر العناصر الموضوعية .. اذ تتجمع امكانيات وعناصر قوة خاصة **تتجلى فيها عبقريات الأمم وقواها الكامنة وأصالتها العريقة**، لتحدث تحولا معينا ، وهذا ما حدث فى تاريخ الأمة العربية فى موقعة حطين عام (٥٨٤ هـ) وفى موقعة عين جالوت (١٢٦٠ م) وفى حرب أكتوبر العظيمة (١٩٧٣)، وكلها ومضات مشرقة فى تاريخ الأمة العربية .

لقد كانت موقعة حطين معركة التحرير الكبرى للأرض العربية كلها ، وجاءت تلك المعركة كراية على طريق فتح القدس ، ولقد تم الفتح ، وفى هذا يقول المؤرخ (ستينلي بول) « لو أن الاستيلاء على القدس كان الحقيقة الوحيدة التى نعرفها عن صلاح الدين لكانت حقيقة تكفى للدلالة على أن هذا السلطان كان أنبل الفاتحين وأكرمهم فى عصره وربما فى أى عصر آخر » .

ودخل العرب مدينتهم القدس وهم يكبرون ويهللون ، واندفعوا إلى المسجد الأقصى يطهرونه ويغسلون بلاطه بماء الورد ، واقاموا صلاة الجمعة فكانت صلاة الفتح ، ثم جاء ملوك الصليبيين وركعوا أمام البطل صلاح الدين .

ان الخارطة العربية التى رسمها صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن السادس للهجرة ـ النصف الثانى من القرن الثانى عشر للميلاد ـ تؤكد تلك الحقيقة التى لم يمل الرئيس حافظ الأسد من تكرارها، والتى تقول على الرغم من مرور ما يقرب من ثمانية

قرون « ان وحدة الامة العربية ، ووحدة النضال العربى هما وحدهما الطريق الى تحرير الأرض العربية من الحملة الصليبية الجديدة ممثلة بالاستعمار الاستيطانى الصهيونى » ، وتلك الخارطة الواحدة للأمة العربية التى رسمها القائد العربى بحد سيفه تؤكد للمرة الثانية الدور التاريخى الذى شغله الجيش العربى الموحد فى دحر الهجمة الصليبية الباغية ، **وهو ما يؤكد عليه الرئيس حافظ الأسد عندما يقول** : « ان وحدة الجيوش العربية هى وحدها طريق الخلاص ، وهذه الحقيقة تضع المسئوليات التاريخية الكبرى على عاتق الذين يتصدون للعمل العربى الموحد » .

ان مفاتيح القدس لن يقوم الصهاينة بتسليمها ، ولن يلقوا بها فوق الأسوار ، ان الأمة العربية المجيدة التى أعطت يوم الفتح ويوم حطين تستطيع ان تعطى يوما جديدا تحت راية العمل العربى الموحد .

وإذا كنا نستعيد من حين لآخر ذكرى حطين المجيدة وانتصارات القائد الكبير صلاح الدين على الطغمة الصليبية المتعصبة فلابد أن نعتمد الوحدة العسكرية **كما يقول الرئيس الأسد** ، إذ لا قيمة لأى انجازات ما لم تحرسها قوة عسكرية رادعة ، ولقد أكدت التجارب التى مر بها الوطن العربى صدق مقولة الرئيس الأسد بأن أول ما يلزمنا هو توفير الوسائل للدفاع عن أنفسنا ضد الخطر الصهيونى ، ذلك أنه رغم أن هذا الخطر الصهيونى ليس هو الخطر الوحيد ، إلا أنه الخطر المباشر الذى سيستمر فى تهديد الأمة العربية حتى نتمكن من مجابهته ، ولذلك فإن الانطلاق من وضع الأسس السليمة لدرء هذا الخطر فى ظروف عجز البلاد العربية منفردة عن مواجهته ، قد يكون المقدمة الصحيحة للاقتراب من تحقيق الوحدة العربية .

استيعاب عميق لحقائق التاريخ

ولعل إيمان الرئيس حافظ الأسد العميق ، بأهمية دراسة التاريخ ومجرياته وما أسفرت عنه الأحداث المختلفة من نتائج أثرت فى كيان المجتمع العربى ، ساعده كثيرا على فهم واستشراف ما يمكن أن يكون عليه الحال فى المستقبل ، ولم يمل الرئيس حافظ الأسد منذ أن تولى قيادة الشقيقة سورية من التنبيه ـ خاصة إذا كان حديثه إلى الشباب ـ إلى ضرورة استقراء التاريخ وتفهم الأحداث من حيث أسبابها ونتائجها واستخلاص العظات والعبر منها ، **وهو يؤكد دائما أنه** « قد آن لكل عربى أن يعرف تاريخ وطنه الكبير الذى يعيش فيه وينتسب اليه ، وأن يلم بكل ما يتعلق به حتى يتسنى لنا جميعا معالجة الأوضاع الفاسدة وازالة رواسب الماضى الضارة ، ونرسم سياسة واحدة موحدة لمستقبل كريم نرضاه لأنفسنا حتى نلحق بركب الحضارة ونجابه الأحداث ونمشى فى ركاب الزمن مع المجتمعات الأخرى على قدم المساواة ، فلا تبعية ولا استعمار .

الذين تابعوا الأيام الأولى التى تلت الحركة التصحيحية لاحظوا أن كل خطابات الرئيس الأسد كانت تركز دائما على ضرورة أن يعرف شباب الأمة العربية ـ وهم رجالها فى الغد وعدتها فى المستقبل ومعقد رجائها ومستقر آمالها ـ تاريخ أمتهم ، وكل ظروفها وأحوالها فى حقب التاريخ المختلفة حتى يستبين ما كانت عليه وما آلت اليه ، ويقفوا على أسباب امجادها القديمة ، ويدركوا العلة فى زوال هذه الأمجاد وتفكك الامة وانهيارها ، ويشهدوا ويسهموا فى البعث العربى الجديد ، والوثبة العظيمة نحو استعادة أمجاد الماضى ودفع الأمة قدما إلى الأمام لكى تصل إلى ما سبقنا إليه الآخرون ، وتتبوأ أمتنا العربية مكانها الذى يليق بها وبعراقتها بين الأمم الأخرى المتحضرة .

كان الرئيس الأسد يرى بنظرته الحكيمة ان العصر الذى نعيش فيه يجرى مسرعا فى سباق الأجيال وتحقيق الآمال الى المثل العليا للانسانية حسبما يتصور تلك المثل ، وانه اذا تأخرت أمة من الأمم جيلا عن العالم فإنها تصل الى مصير اليم ويصعب عليها اللحاق بالآخرين .

وكان أكثر ما يلح عليه الرئيس حافظ الأسد فى بداية توليه المسئولية ضرورة التحرر من روح التشاؤم واليأس فى نفوس الأمة ، وهى الروح التى عمل الاستعمار الذى جثم على صدر المنطقة على اشاعتها ، لأن اليأس اذا سيطر وشاع فى النفوس وتكونت عقليات الشباب وعواطفهم ، وهم على هذا الوضع فإنهم يشبون مرضى النفوس ، مفككى العزائم تقعد بهم هممهم عن أن يكونوا جندا صالحين لخير الوطن ، وإذا فقد الوطن فيلقا من فيالق الشباب ، فهو يفقد فى الواقع جيلا من أجيال العمر .

وكان الرئيس حافظ الأسد ولايزال يبشر بأهمية التفاؤل المرتبط بالعزم والتصميم ، انطلاقا من اقتناع له ما يسوغه ، بأنه ليس هناك اقتل من التشاؤم اذا شاع فى نفس شعب ناهض وهو يبعث على اليأس ، ويفتك بالرجاء ، واذا سيطر اليأس وتسلط فترت الهمة وخمدت نار الحماسة المشبوبة ، وتخاذل الشباب وتناثر عقدهم كأنما حلت بهم الهزيمة فى معترك الحياة ، فيجب إذن على الشباب ـ كما يرى الرئيس الاسد ـ أن يقاوم ويكافح روح التشاؤم وأن يعمل على تخليص وطنه من عوامل تأخره وأسباب ضعفه ولا يكون ذلك **كما يقول الرئيس الأسد : « إلا بالعلم واستكناه حقائق التاريخ والاستفادة من التجارب التى مرت بنا »** .

واذ كان الرئيس الأسد قد أدرك وفى وقت مبكر حقيقة الأسباب التى باعدت بين أبناء الأمة العربية وبين رسالتهم وقوميتهم وخنقت امكانياتهم الهائلة ، فلقد كان أول ما ركز عليه ولا يزال التأكيد بأن طاقة الأمة العربية التى انطلقت منذ قرون لتحقق ذاتها وتؤدى رسالاتها وتستخدم امكانياتها ، هذه الطاقة لم تفقد حيويتها وروحها ولم تنطفىء

شعلتها ، ومن هنا كان إيمانه العميق وكانت دعوته التى بشر بها بأن القومية العربية ستظل دائما الطريق الصاعد بالمجتمع العربى نحو الرفاهية والرخاء والتحرر من ربقة الاستعمار ، وهي الصخرة العاتية التى ستتحطم عليها الصهيونية التى اغتصبت واغتالت أجزاء غالية من الوطن العربى وتعمل على ابتلاع المزيد .

التلازم بين القوة والوحدة

ولقد كان إيمان الرئيس القائد حافظ الأسد ولا يزال ـ كما يستفاد من تأمل خطاباته وأحاديثه ـ أن التلازم بين القوة والوحدة أبرز معالم التاريخ العربى قديمه ووسيطه وحديثه ، فما من مرة تحققت الوحدة فى هذه المنطقة التى نعيش فيها الا تبعتها القوة ، وما من مرة توافرت فيها القوة إلا وكانت الوحدة نتيجة طبيعية لها . **وفى هذا يقول الرئيس الأسد : (ولقد كان الكفاح على مر السنين من أجل القوة هو بذاته الكفاح من أجل الوحدة ومن أجل الحياة) .**

ومن خلال فهم عميق لواقع الحال وإيمان غير محدود بالمستقبل **يردد الرئيس الأسد دائما : (إن الركب رغم كل الصعاب يسير ، ورغم العوائق والعثرات لابد أن يحقق الهدف ويؤدى الرسالة) .**

ولا تقتصر أوجه الشبه بين الناصر صلاح الدين والقائد حافظ الأسد على النواحى التى أشرنا إليها ، **وإنما تمتد لتشمل نواحى أخرى عديدة** يأتى فى مقدمتها تفانيهما فى العطف على جميع الناس بدون استثناء وبغير اعتبار للجنس أو الدين أو اللون ، يكفى أن نسوق بعض الروايات من تاريخ كل منهما الحافل بجلائل الأعمال وجليل السجايا والخصال .

كان البطل صلاح الدين الأيوبى جالسا يوما فى خيمته وهو ببلاد الشام يحكم بين الناس ، فوقفت بباب الخيمة سيدة مسيحية تصيح والحزن يخنق صوتها ، حتى ارتمت على الأرض فأبعدها الحراس عن باب الخيمة التى يوجد داخلها صلاح الدين ، وما أن سمع صوتها حتى أمر على الفور بإدخالها ، ولما مثلت بين يديه سألها : ماذا أصابك ايتها السيدة ؟

فأجابت وهى حزينة باكية .. لقد اختطف اللصوص ابنتى ، وأسر زوجى من طرف الجيش الاسلامى وهو الذى ينفق علينا ، فتألم صلاح الدين لحالها وأمر فى الحال بإطلاق سراح زوجها من بين الأسرى الموجودين فى قبضة المسلمين ، ثم أشار على جنوده بالبحث عن الابنة المسروقة، واحضروها إلى امها وفرحت بها وتحولت من حزن وتعاسة الى حبور ومسرة ولم تخف هذه السيدة شدة فرحتها وانطلقت تمتدح هذا القائد المسلم الذى لا يعرف التمييز بين الناس بسبب اختلاف اديانهم ، وأخذت تدعو له بصالح الدعاء ،

فقال صلاح الدين : نحن لم نفعل أيتها السيدة إلا ما أمرنا به ديننا الاسلامى الحنيف ، فالاسلام رحمة للناس جميعاً .

هذا النموذج ، نموذج حرص القائد على عدم التمييز بين الناس بسبب اختلافاتهم الدينية

وقد أوضحه الرئيس حافظ الأسد فى سياق خطاب ألقاه فى ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٧٦ : (لقد رأيت كل قناع قد سقط ، فالأمر ليس كما كان يقال لنا .. الأمر ليس بين يمين ويسار .. بين تقدمى ورجعى .. بين مسلم ومسيحى ، المسألة هى مسألة ثأر وانتقام ، تعود إلى ١٤٠ سنة ، وأنا ضد هذا التوجه ، لأن الاسلام محبة وعدل وليس كراهية وبغضاء ، وإذا كنت سأنطلق من كونى ثائرا ، فالثورة عدل للجميع ... الثورة ضد الظلم ، الثورة اصلاح وتصليح .. الثائر لا يرفع الظلم عن نفسه ليوقع به الآخرين وانما يرفع الظلم عنه وعن الآخرين ، هكذا الثائر ، وهكذا المسلم ، والمسلم الحقيقى هو الثائر الحقيقى ، والاسلام هو الثورة الكبرى فى تاريخ أمتنا العربية ، وفى تاريخ البشرية .

مثال آخر **يؤكد** الفهم الحقيقى لرسالة الاسلام وقيمه ومبادئه عندما جاء مندوب البابا **يقول للرئيس حافظ الأسد : إن المسيحيين فى لبنان يجب أن يكونوا تحت الوصاية البابوية ، أوضح له الرئيس حافظ الأسد فى بساطة هى أقوى من كل فلسفة وحذلقة وتعقيد : إن المسيحيين هم عرب من أقدم العصور ، حتى السيد المسيح عاش هنا ومعظم السوريين كانوا يدينون بالمسيحية حتى جاء الاسلام ، ولقد استقبل المسيحيون المسلمين كأولاد عمومة وفضلوهم على الرومان أبناء دينهم ، والمسيحى العربى لا يقبل وصايتكم ، ونحن نؤكد بالقول وبالفعل أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولذلك فنحن لا نقبل أن تحدثونا وكأننا فى موقف التعارض مع المسيحية ، بالعكس نحن نرى أن العرب المسيحيين ساهموا فى صنع الحضارة العربية جنبا إلى جنب مع اخوانهم المسلمين** ، وبعد نقاش طويل اقتنع مندوب البابا بصراحة وموضوعية الرئيس الأسد ، ووجد البابا مصداقية كلام الرئيس الأسد على الواقع .

وإذا كانت معركة حطين قد أظهرت صلاح الدين الأيوبى كقائد مسلم يتعامل مع الأديان الأخرى بسماحة وعدل ورحمة . فلقد اكتشف صلاح الدين فى وقت مبكر أن الغزو الصليبى هو غزو أستعمارى ظاهره دينى وباطنه استعمارى ، ولقد ساعده هذا الفهم العميق على تحرير بيت المقدس ، ثم انطلق بعد ذلك بعدالته وحكمته للمفاوضة مع أعدائه ، وهى المفاوضات التى تمت مع ريتشارد قلب الأسد بعد تحرير بيت المقدس ، **وبالمنطق نفسه فهم الرئيس حافظ الأسد طبيعة المعركة مع اسرائيل وتصدى لدعايتها المضللة مؤكدا بأننا (لسنا ضد اليهودية كدين على الاطلاق بل إننا نحترم**

الديانة اليهودية ، لأن اليهود عاشوا معنا منذ القدم سواء قبل الاسلام أو بعده ، وكان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولكننا ضد الصهيونية ، وضد العدوان الاسرائيلى الذى تمارسه السياسة الاسرائيلية والصهيونية على الأرض العربية بمنطق يجافى العصر وهو منطق التوراة الذى يقول : يجب أن تحقق دولة اسرائيل وفقا للمنطق التوراتى وعلى أساس دينى تعصبى ، وهو أمر لا يقره حتى الدين اليهودى الذى جاء به موسى ، والذى حرفه الحاخامات ، وفى سورية مكتشفات أثرية تخالف الوقائع التى يزعم اليهود أنها صحيحة لأن هذه المكتشفات موجودة قبل التاريخ اليهودى ...

وعندما يشبه الكثيرون الرئيس حافظ الأسد بالناصر صلاح الدين فإن مرجع هذا التشبيه يعود أيضا إلى أن كلا منهما يمثل القيم الانسانية فى عدالة القضايا التى يؤمن بها ، **ويعتقد الرئيس حافظ الأسد تماما أن الاسلام هو الذى يجعلنا نحافظ على وجودنا دون ممارسة التعصب والاستعلاء** ، وكما كان يعتقد صلاح الدين الأيوبى بأن الحروب الصليبية كانت حروبا استعمارية .. **فإن الرئيس الأسد يؤمن بأن الاحتلال الاسرائيلى هو مصدر من مصادر الاستعمار فى الأراضى العربية** ، جاء ليقوم بدور الحارس للمصالح الغربية ، وخاصة بعد ظهور البترول ، **ويؤمن الرئيس حافظ الأسد بأن الحق لا يمكن أن يهزم ، ولو طال أمد النضال فى سبيل استرداد هذا الحق .**

لقد عاش الصليبيون بيننا عشرات السنين ومع ذلك استطاع العرب أن يقضوا عليهم لأن هذا منطق الحق ، وكذلك فإن الصهيونية لا يمكن أن تبقى قوية إلى ما لا نهاية لأن الأقوياء فى التاريخ والذين لم يساندوا قوتهم بالحق قد زالوا ولم يبق غير منطق الحق .

وكثيرا ما أشار الرئيس حافظ الأسد إلى أن الجنرال غورو ، عندما احتل سورية أسرع إلى ضريح صلاح الدين الأيوبى وقال : (لقد عدنا ياصلاح الدين) ومعنى ذلك أن الغرب الاستعمارى ما زال ينظر إلى منطقتنا بنظرة الحروب الصليبية ، وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نقنع الآخرين .**كما يقول الرئيس الأسد: إننا لا نريد للمجتمعات الأخرى الأذى ، وانما نريد أن يشعر الآخرون بأننا جزء من الانسانية التى تطالب بالسلام القائم على الحق .**

فارس بنى يعرب

وإذا كانت الدولة الأموية ، دولة عربية صميمة ، اعتزت بالعروبة ، وعملت من أجلها ، وكانت غالبية الساسة والقادة وجنود الجيش الأموى من أصل عربى ، فدولة بنى أمية أرساها العرب وحكمها العرب وسادتها نظم عربية فى مختلف المجالات واصطبغ كل شىء فيها بالصبغة العربية ، شهدت هذه الفترة اصلاحات مالية وادارية ، وقامت منشآت وآثار معمارية ، لايزال بعضها قائما إلى وقتنا الحاضر ، كذلك فإن هذه الدولة نظمت

الجيوش والأساطيل وازالت الحواجز التى كانت تفصل بين العرب وغير العرب ، واستمرت روح دولة بنى أمية تقدم الفرسان الشجعان الذين حققوا نهضة شملت مختلف جوانب الحياة ، **ومنهم الرئيس حافظ الأسد ، وهو بحق فارس بنى يعرب .**

ويبقى ان نشـــير ايضـــا إلى أن الرئيس حافظ الأسد بتكوينه وثقافته وتربيته ينتمى إلى التيار القومى والعربى ، ولذلك فإنه لم يفصل فى وقت من الأوقات بين المصالح الوطنية السورية العليا وبين المصالح القومية العربية العليا ..

لقد نجح حافظ الأسد فى أن يحول سورية إلى دولة إقليمية كبرى بمعنى انها اصبحت دولة قادرة على الفعل والتأثير وبدون سورية لا يمكن عمل أى شىء لأن سورية لها دور فاعل ومؤثر فى تقرير مصير المنطقة ، وقبل حافظ الأسد ـ كما يقول أحد الكتاب البريطانيين ـ كانت سورية أرضا يجرى عليها الصراع ، مع حافظ الأسد أصبحت سورية دولة تشارك فى هذا الصراع ، **وحافظ الأسد لا يفصل بين ما هو وطنى ، وبين ما هو قومى** وهو يعتبر سورية جزءا لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير الذى يمتد من المحيط إلى الخليج ، ويعتبر الشعب السورى جزءا لا يتجزأ من أمة عربية واحدة تحمل خصائص واحدة : تاريخا واحدا .. تتكلم لغة واحدة ولها ثقافة واحدة وبالتالى تملك من مقومات الوحدة ما لاتملكه أية أمة على وجه الأرض ، ولقد تحدث الرئيس حافظ الأسد مرارا حول ما يجمع الأمة العربية من روابط الثقافة واللغة والتاريخ ، **لذلك نلحظ دائما بأن الأسد فى تعامله مع المسألة الوطنية السورية يعلى من شأن المسألة القومية العربية ، لقد رفض ومازال يرفض الحلول الجزئية فى الصراع العربى الاسرائيلى** انطلاقا من هذه الرؤية القومية وهو يرى دائما بأن المصير العربى مصير واحد ، وبالتالى يجب أن يكون هناك قرار واحد ولا يجوز لدولة واحدة أن تنفرد بالقرار الذى يؤثر على مصير الأمة العربية كلها .

وإذا كانت معركة حطين قد أكدت بالدرجة الأولى خطأ الاستسلام للصليبيين وكان صلاح الدين يقول دائما : أن التخاذل لا يمكن أن يتم ، فإن ما جرى فى حرب أكتوبر « تشرين » أكد أن الانتصار وارد ومؤكد ، وكما يقول الرئيس الأسد (الأمة لا تموت ، تموت حين تستسلم ، حين تخضع وتخنع وتنسى أنها صاحبة قضية وصاحبة حق) .

وتحليل مواقف الرجلين صلاح الدين الأيوبى ، وحافظ الأسد يظهر بوضوح أن التشابه بين الرجلين كبير ، كلاهما صاحب قضية ، وكلاهما يحمل شعلة لا تنطفىء من الايمان بأن الحق هو الحق ، وبأن التراجع عن الأهداف خطأ وخطر وباطل ولا ينبغى أن يكون ، وبأن انهاء أى قضية بشكل بائس أمر مرفوض تاريخيا ومرفوض منطقيا ، ان احاسيس البطولة عند صلاح الدين الأيوبى وعند حافظ الأسد واحدة .. كلاهما شجاع ، وكلاهما مضح ، وكلاهما يضع قلبه على راحته لأنه لا يعنيه أن تستمر الحياة

ما لم تستمر المبادىء التي يحيا من أجلها ، ويناضل ، ويحمل أمانة المسئولية التاريخية فيها .

هذا النوع من العظمة النادرة كان فى شخصية صلاح الدين الأيوبى وأيضا فى شخصية حافظ الأسد الذى يحق أن ندعوه باسم (الفارس العربى) لأنه يسير بشعبه فى الدرب الصحيح ويسعى وراء الحلم الأكبر الذى يريده ، والنصر دائما للأمة المؤمنة مهما طال الزمن .

قارىء جيد للتاريخ

□□ المكونات التى جعلت من الرئيس حافظ الأسد قائدا تاريخيا متميزا .. هل تعود إلى الوعى الفكرى المبكر .. أم إلى المدرسة الحزبية التى نشأ فيها أم إلى التحديات الخارجية التى قابلها فى حياته ؟..

قلنا فى الصفحات المتقدمة أن وعيه الفكرى المبكر ، هو الذى جعله رائدا للطلاب منذ أن كان على مقعد الدراسة ، وهو الذى جعله بعد ذلك من ابرز الوجوه فى الحزب حين انتسب إليه ، وكان دائما المسئول عن زملائه الطلاب ، وكان المخطط الأول للاضرابات والحركات الطلابية وكان من الذين شغلوا فى سن مبكرة دورا فى النضال ضد الاستعمار لصالح الفلاحين والعمال والطبقات الكادحة ..

صحيح أن هذه المفاهيم طرحها قبله حزب البعث ، ولكن الصحيح أيضا أن كل هذه المفاهيم ، هو الذى استوعبها ، وهو الذى تبناها ، ودافع عنها ، منذ أن كان شابا إلى أن صار ضابطا فى الجيش ، وما تراجع فى لحظة من اللحظات ، اختيار حافظ الأسد لأن يكون ضابطا طيارا ، يعنى أن فى شخصيته الكثير من التميز ، اقتحام الجو بهذا الشكل فى بيئة كانت بسيطة كان يعنى توافر حس المغامرة لديه .. رصيد الشجاعة الذى توافر لديه جعله يقبل على الطيران ويكون متفوقا فيه ، ويمارس تطوير فكره السياسى ووعيه النضالى ، مما جعله وهو فى هذه المرحلة المبكرة من العمر أحد القادة الطليعيين ، حين نذكر ثورة الثامن من آذار ذات المضمون والبعد الوحدوى ، سنجد أن فكره الناضج آنذاك أهله لأن يشغل دورا كبيرا فى مقاومة الانفصال ، وفى ثورة ٨ مارس آذار ثم فى حركة التصحيح التى قادها ضد العقلية المتسلطة التى انحرفت عن مبادىء الحزب وأهدافه . لو جابهته هذه التحديات دون أن يكون لديه هذا المستوى من الوعى الفكرى ، ودون هذا المستوى من الحس النضالى ، ودون هذا المستوى من الإيمان بالقضية التى يدافع عنها كإنسان عقائدى وصاحب قرار ، لو جابهته هذه التحديات دون أن تتوافر له هذه الأمور لكان يمكن أن تؤدى به إلى الكثير من التنازلات .

لماذا لم يقبل حافظ الأسد بالتنازلات ؟

لأنه يمتلك الوعى ويمتلك القضية ، وهو يريد أن يدافع عن قضية ، ولقد زادته التحديات قوة واصرارا ومتابعة ليكون أكثر قدرة على مواجهة كل هذه التحديات ، فى صميمه . وهو رجل قضية ومبادىء ، ولا يمكن أن يساوم على ذلك ، ومن أجل هذا حاول ، ولايزال يحاول ، أن يتسلح بكل ما يستطيع كى يتمكن من مجابهة كل التحديات ، لا يهتم أحيانا بموقف المتعنتين مادام يرى عدالة موقفه ويثق فى صلابة مبدئه ، **والأمثلة على ذلك كثيرة فى القضية الفلسطينية** مثلا لم يكن يهمه ، من يعاديه أو من يصادقه ، مادام مؤمنا بالقضية وواثقا فى سعيه لحلها ولذلك ظل يعمل من أجلها على الرغم من كل المحاولات التى احاطت بهذا الطرف أو ذاك ، **لم يهتم ولم يتراجع وكان يردد دائما : موقف بعض أصحاب هذه القضية شىء ، والموقف من القضية شىء آخر ، لم يسقط فى حصار العواطف الشخصية الصغيرة** ، وانما ظل أكبر منها لأنه صاحب قضية وربما كان هذا سر من أسرار نجاحه ، **وكان يردد دائما : أن القائد اذا لم يكن لديه قضية يؤمن بها ويدافع عنها لا يستطيع أن يكون قائدا فى كل المراحل** .. قد يكون بطل ساعة ، لكنه لا يمكن أن يبقى بطل كل ساعة ، كان يملك فهما عميقا لدروس التاريخ وعبره ، ولقد شكل له هذا الفهم وعيا مكنه من أن يسير فى الطريق الصحيح دون أن يصاب بأية هزات ، بهذا الوعى نجح حافظ الأسد فى بناء دولة يمكن أن نقول عنها بغير مبالغة انها الدولة النموذج ..

حقيقة أن الأمور تظل نسبية ، ونحن لا نتحدث هنا بشكل مطلق .. لأن سورية لم تبلغ الكمال حتى الآن **والرئيس حافظ الأسد هو الذى تحدث فى خطابه الأخير أمام مجلس الشعب عن هذه المسألة عندما قال : « اننا ننشد الكمال ولكننا نعترف أننا لم نبلغ هذا الكمال ، ولكن سوف يظل هذا الكمال رايتنا التى ننشدها ونبحث عنها »** ، ومع ذلك فإن السياسات التى انتهجها حافظ الأسد عبر اثنين وعشرين عاما اثبتت أهميتها وجدارتها .. لقد تعامل الرئيس حافظ الأسد مع الواقع تعاملا سليما وتعامل مع المستقبل تعاملا مكنه من أن يرى المستقبل حتى قبل وقوعه ، لقد أجاد الرئيس الأسد التعامل مع الواقع تماما مثلما أجاد التعامل مع المستقبل .

والرئيس حافظ الأسد يمتلك خصالا قيادية ، وسجايا نضالية ، ومواهب استثنائية وقدرات غير عادية ، ويمتلك فى الوقت نفسه بصيرة ثاقبة ورؤية استراتيجية شاملة .. كل هذه العوامل مكنته فى النهاية أن يجعل سورية الموئل والملاذ والمثابة للكثرة من المناضلين العرب ، وأن يجعل من سورية الدولة التى يمكن أن يستفاد من تجربتها استفادة حقيقية . نحن لا نقول ان التجربة السورية فى هذا المجال يمكن أن تنتقل أو تستعار .

الكسالى وحدهم هم الذين يستعيرون أفكار الآخرين وينقلون تجارب الآخرين ، ولكن التجربة السورية فى هذا المجال تستحق أن تولى عناية خاصة واهتماما كبيرا لأن فى هذه العناية وهذا الاهتمام ما يمكن أن يكون مفيدا .

هناك من يقول أن حافظ الأسد كزعيم وطنى استمد براعته من طاقته القصوى على التحدى وعلى الوقوف بثبات فى أصعب المواقف ، وهذا صحيح ..

ولقد تمكن حافظ الأسد ، من هذه القدرة على التحدى ، من مواهبه غير العادية وقدرته على التحدى نعنى بها التحدى العاقل .. التحدى الموزون بموازين الذهب لأنه ليس كل حد مفيدا فى كل الأوقات .. التحدى المفيد هو التحدى المحسوب .. هو التحدى الذى يأخذ بعين الاعتبار معطيات الواقع ، هو التحدى الذى يصغى جيدا لنبض الواقع ، والتحدى الذى لا يتجاهل المتغيرات التى تجرى فى العالم من حوله .. **حافظ الأسد يملك كل هذه الخصال التى تمكنه من أن يرى الأمور بشكل استراتيجى** ، لا يتوقف كثيرا عند ما هو طارىء وعارض ومؤقت ، وإنما يهتم دائما بما هو ثابت وراسخ ومستمر ، **هذا لا يعنى أن حافظ الأسد يهمل التكتيك** ، فالتكتيك فى كل عمل سياسى مسألة ضرورية، ولكنه لا يعطى الأولوية للتكتيك العابر والمؤقت ، وإنما يعلى دائما من شأن الاستراتيجية ، والاستراتيجية العظمى والتكتيك عنده يجب أن يوضع دائما فى خدمة الاستراتيجية ، وعندما لا يوضع فى هذا الاتجاه فإنه يصبح تكتيكا يسير فى الاتجاه الخاطىء .

والقدرة التى يمتلكها حافظ الأسد على التحدى هى قدرة نابعة من قدرة مماثلة على رؤية المستقبل وعلى قراءة المستقبل قراءة صحيحة وهى نابعة من القدرة على رؤية ما هو ثابت ودائم ومستمر ، وعدم التوقف عند ما هو مؤقت وعارض وغير مستمر .

هل هو رجل التوازنات الدقيقة فى المنطقة ؟

هناك من يقول فى الغرب ، أن الرئيس حافظ الأسد هو رجل التوازنات الدقيقة فى منطقة الشرق الأوسط ، والواقع أن هذا التعبير السياسى لا يمكن التسليم به .. لأنه يجب دائما أن نفرق بين الأيدولوجى والفلسفى ، وعندما نقول فى الأيديولوجية أن فكر القائد الأسد هو فكر قومى عربى اشتراكى .. معنى ذلك انه درس معطيات العصر ، وهذه الدراسة لم تكن دراسة ذاتية شخصية من قبل فرد وإنما هى استقراءلنبض الجماهير العربية من خليجها الى محيطها ..

ماذا يريد العرب بعد ؟ العرب وقعوا تحت التجزئة بفعل القسر .. بفعل الاستعمار ، بفعل الضغوط العالمية القوية سواء بعد الحرب العالمية الأولى (سايكس بيكو وتقسيم

البلاد العربية) أو النتائج التى تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية .. وذلك على الرغم من أن العرب أيدوا الدول الديمقراطية ضد النازية إلا أنهم وبكل أسف عوقبوا على ذلك كما عوقبوا من قبل بـ (سايكس ـ بيكو) وبزرع إسرائيل فى الجسد العربى ..

اذن عندما يستخلص الرئيس الأسد بأن الأصل فى العرب انهم أمة واحدة ، فمن باب أولى أن يعبر عن هذا بالحرص على اقامة وحدة عربية ، تشمل أكثر من قطر عربى ، لأن فى الوحدة القوة وفى التفرق الضعف ، وعندما يكون مضمون هذا الفكر مفهوما تحاوريا فلابد للوطن العربى أن يتحرر اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، ولابد أن يحصل الإنسان على الحرية داخل مجتمعه من خلال العدالة الاجتماعية .

والعدالة الاجتماعية فى فكر الرئيس الأسد لم تكن ايديولوجيا تابعة لخط جامد ، وبالتالى لم تغير العبارات والاصطلاحات حافظ الأسد ، بل بالعكس خلق تطويرا فكريا فى الفكر العربى من خلال نقل الواقع فى سورية من فكرة الحزب الواحد الذى يتمتع بكل شىء بالنسبة لقيادة البلد الى الحزب القائد الذى يقود من خلال جبهة وطنية تقدمية ومن خلال منظمات شعبية ومن خلال تفاعل ديمقراطى من القاعدة الى القمة ، وبالعكس .. لذلك هذا الموضوع بالذات هو موضوع يمكن أن نسميه موضوعا ايديولوجيا ولكن له صفات الخصوصية العربية ، وهذا الموضوع بالذات تنبع عنه مصالح .. اذن عندما نتوخى عقيدة قومية سياسية فلابد لهذه العقيدة أن يكون لها أهداف ، **والأهداف التى كانت فى ذهن الرئيس الأسد ومازالت هى فكرة تقدم الوطن العربى نحو شكل من أشكال الوحدة .. والتضامن وتحرر الوطن العربى وتحقيق العدالة الاجتماعية وما إلى ذلك** .. ولذلك لابد أن يصطدم هذا ، بقوى معادية أو قوى مضادة سواء أكانت هذه القوى اقليمية أم عالمية .

وعندما كان الرئيس الأسد يصطدم بهذه القوى كان يجد الوسيلة لينتقل نقلة ثانية ليخلق قوة جماهيرية داخل القطر وخارجه لمواجهة هذا الخطر المتعدد، من ناحية ثانية فإن الرئيس حافظ الأسد دارس متعمق للتاريخ وخاصة فى فلسفة التاريخ .

الرئيس الأسد ليس مجرد انسان استطاعت الايديولوجية أن تتحكم فى مساراته ، فالفلسفة هى التى تطور الايدلوجية، وهى التى تنضجها، وهى التى تدل على العوامل الذاتية والموضوعية فى كل زمن وفقا للتبدلات النوعية والكمية ، ووفقا للتبدلات الاقليمية والعالمية ، وحسب الضرورات أيضا لأن الانسان الفيلسوف الذى ينظر الى التاريخ نظرة موضوعية لا يمكن أن يقع فى الأخطاء لأنه يمكنه أن ينتقل من نقطة الى نقطة ضمن دراسة علمية موضوعية للظروف المحيطة ،والاصطلاح السياسى الذى وصف به الرئيس الأسد بأنه رجل التوازنات الدقيقة قد يبدو للوهلة الأولى ، ان هذا موقف برجماتى أو

موقف تكتيكي ينطلق من مصلحة او اغراض معينة .. ولكن هذا بعيد كل البعد عن موقف الرئيس الأسد لأنه يؤمن بأن هناك عوامل موضوعية لابد من الأخذ بها ، وأي وقفة من الوقفات التي كان يقفها ويتأملها هي نقطة للانطلاق الى الامام لامكانية أجدر للوصول الى الهدف ، ولا يعيب ابدا الفيلسوف او القائد أن يلجأ الى التكتيك ويضعه في خدمة الاستراتيجية ، ولكن عندما نستقرىء الواقع لا نجد وقفة واحدة تسيء الى الاستراتيجية أو الخط القومي التقدمي الوحدوي الذي يؤمن بفلسفته الرئيس الأسد .

هناك من يقول أن حافظ الأسد هو البديل لعبدالناصر، وكثيرا ما نوقشت هذه المسألة في ملتقيات فكرية سياسية.

واقع الأمر انه لا يمكن لأحد أن يكون بديلا عن الآخر ، نعم هناك قواسم مشتركة بين تجربة جمال عبدالناصر وبين تجربة حافظ الأسد ، ولكن يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أيضا المتغيرات أو اللحظة التاريخية التي ظهر فيها عبدالناصر ، والحقبة الزمنية التي عبر عنها عبدالناصر ، واللحظة التي نهض فيها حافظ الأسد الى تحمل مسئولياته الوطنية والقومية، والحقبة التاريخية التي يعبر عنها الآن الرئيس الأسد .

هناك من يرى ومنهم صفوان قدسي، الأمين العام لحزب الاتحاد الاشتراكي العربي السوري أن تجربة حافظ الأسد هي استكمال لتجربة جمال عبدالناصر وإنضاج لها، ويضيف أنصار هذا الرأي انهم لا يتحدثون عن الاستكمال فقط وانما يركزون أيضا على مسألة الانضاج في تجربة جمال عبدالناصر .

هناك ثوابت ومتغيرات، نتمسك بالثوابت ونهمل المتغيرات ، ولو عدنا الى ميثاق العمل الوطني الذي وضعه جمال عبدالناصر من عام ١٩٦٢ لوجدنا في هذا الميثاق مثل هذه الثوابت ومثل هذه المتغيرات ، وجمال عبدالناصر هو الذي دعا الى التفكير والى الاجتهاد ودعا الى عدم الاعلاء من شأن النظرية على حساب الممارسة والحياة .

وهناك من يرى وبينهم أحمد الأسعد الأمين العام للحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي ومؤلف كتاب « التكامل بين مرحلتين » انه لم يقصد المقارنة بين القائدين العربيين العظيمين ، وإنما كان الكتاب محاولة لرصد مسيرة القائد الراحل عبدالناصر في مصر ومسيرة القائد الرئيس الأسد في سورية وأوجه التشابه بين هاتين المرحلتين حيث أن كلا منهما ينهل من النضال الثوري والتراث الحضاري لأمتنا العربية ويرفع أهدافا قومية ويناضل من أجل وحدة الوطن العربي ، ويضيف لقد قلت في كتابي (التكامل بين مرحلتين) انه لو قدر للقائدين العربيين جمال عبدالناصر وحافظ الأسد أن يلتقيا لتغير وجه التاريخ العربي لما بينهما من تشابه في المواقف والرؤى ، والمعين الذي ينهلان منه والذي يشكل التراث الحضاري والأصالة القومية

لأمتنا العربية ، ولو وقفنا مع مسيرة القائد الراحل عبدالناصر ، ومسيرة القائد الأسد لوجدنا تشابها كبيرا سواء فى النظرية أو فى التطبيق أو المقومات القيادية أو النظرة الشمولية أو الفكر الاستراتيجى السياسى ..

ويضيف أحمد الأسعد نحن كناصريين حينما وقفنا بالحب والاخلاص مع القائد الراحل عبدالناصر وقفنا لأسباب قومية ومبدئية ، وللأسباب نفسها نقف مع الرئيس حافظ الأسد ، وكما ساندنا بكل الحب والاخلاص مسيرة القائد الراحل عبدالناصر نساند اليوم بكل الحب والاخلاص مسيرة القائد الأسد .

وهناك من يستخدم تعبير الأسدية ويقصد به البعث المتجدد والمتطور باعتبار أن قيادة الأسد هى التى أسهمت فى تطوير مفاهيم البعث عن الوحدة والحرية والاشتراكية ونقلت البعث من دولة الحزب إلى مجال بناء المؤسسات .

وهناك من يقول أن تسمية الأسدية لم تطلق فى حزب البعث العربى الاشتراكى وانما أطلقتها بعض كتابات لأفراد من الجبهة الوطنية التقدمية. ولكن نحن ننهج نهج التصحيح الذى يقول إن الرئيس حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربى الاشتراكى، وقائد الجبهة الوطنية التقدمية، ونهج التصحيح يقوم على التعددية السياسية والتعددية الاقتصادية وعلى قيام التنظيمات النقابية والمهنية والشعبية فى مختلف قطاعات الشعب ، وهذه التنظيمات سواء كانت تنظيمات للشبيبة أو الطلائع أو الطلاب أو العمال أو الفلاحين أو الحرفيين وصغار الكسبة هى عمليا تضم جميع قطاعات الشعب ، وهذا النهج نسميه نهج التصحيح فى سورية .

وهناك من يرى ان الرئيس حافظ الأسد قد أثر تأثيرا ايجابيا على فكر البعث ولكنه بتواضعه المعروف لا يوافق على استخدام هذا التعبير، لأن الرئيس دائما يقول إنه بمقدار ما يؤثر فكر القائد على الجماعة تبقى فى النهاية حقيقة هامة وهى أن فكر القائد هو استلهام لروح الجماعة وتحقيق للتفاعل معها ، وأى فكر لا يجسد الارادة فكر غير قابل للحياة .. ويمضى أصحاب هذا الرأى فيقولون إن حزب البعث حقق انجازات كبيرة فى ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ، وأعطى مفاهيم متعمقة لحقيقة البعث كما هو فى ضمير الأمة ، وأتمنى مخلصا أن يعكف الكُتاب والمفكرون على دراسة هذه الحقائق وخاصة من حيث علاقة البعث بروح الامة، واعنى بروح الأمة العربية الشخصية القومية الحضارية والانسانية للأمة العربية لأن الرئيس الأسد قارىء جيد للتاريخ ، فهم تاريخ أمته ، وفهم استيعابها للحضارة ، وقدرة هذه الأمة على تمثلها ، وأيضا السير فيها لخدمة الانسانية فى عصر النهضة العربية التى كانت فيه جسرا بين النهضة الاغريقية والرومانية والحضارة

الحديثة فى أوربا . والسيد الرئيس يصر على أن فكرة البعث ليست عنوانا لحزب بمقدار ما هى عنوان لبعث الروح فى أمة عظيمة قادرة على أن تقوم بأشياء كثيرة جدا لنفسها وللانسانية اذا ما أعطيت الامكانيات ، وفجرت امكانياتها الكامنة والذاتية فى نفسها .

والرئيس تواضعا منه لا يريد اطلاقا أن يقال بعث الأسد وما إلى ذلك على غرار الناصرية لأن الحزب موجود والرئيس حافظ الأسد عاش فيه وطوره وتطور من خلاله، ولذلك يمكن اعطاء عنوان آخر هو « **البعث العربى تحت قيادة الرئيس الأسد فى المرحلة التاريخية الممتدة بين كذا وكذا** » .

وقد يكون فى هذا العنوان انصاف للقائد ودوره التاريخى ، وقد يكون فيه أيضا انصاف للتاريخ لأن فكر القائد ليس بمعزل عن نضال الأمة ولا عن حركة الجماهير التى كانت تلهمه كل الالهام لكى يستطيع أن يعبر عن ارادتها نحو الحرية ونحو التقدم ونحو العدالة .

البيئة التى عاش فيها

□□ **يسمونه أحيانا فارسا عربيا ويسمونه أحيانا أبا أو أخا ، فيه كل صفات الفروسية .. فيه الحنان ، فيه المحبة والحرص على الناس وعواطفهم ومحاولة مساعدة كل المحتاجين ، فيه صفات من الحنو نادرة المثال قد تدمع عيناه لمشهد طفل جريح** ، أشرف بنفسه على بناء مدارس أبناء وبنات الشهداء ، وأوجد فيها الوسيلة التى تمكن الصغار من الاتصال به فى كل وقت وأى وقت، يجدون عنده المحبة والحنان والعطف الأبوى ، لا يقصده انسان فى حاجة إلا ويساعده ، ولا يقصده مريض إلا ويقدم له كل ما يريد .. يسعى بنفسه لمقابلة الناس الذين يحتاجون الى لقائه ويتحدث اليهم ويرأف بهم ، شجاعته مبهرة ، جرأته فى مواقع الجرأة مفرطة ، لا يتهيب ولا يخاف ، تاريخه السياسى شاهد على ذلك فى الحروب التى خاضها سواء انتهت هذه الحرب الى ما كان يطمح اليها أم تعثرت ، ولكن لم يحدث فى يوم من الأيام أن تساهل أو تعب أو تراجع أو تخلى عما أعتقد انه الأمر الذى ينبغى ألا يتخلى عنه ، حين تجلس اليه تجده انسانا متواضعا الى أبعد حدود التواضع .. يبتسم دائما ويتفهم ، يقتنع أو يقنع ، تراه يصغى للحديث بقلبه ويسمعه وربما يكون أدرى به من المتحدث ، ولكن يأبى أن ، يجرح مشاعر الآخرين .. فيه كل صفات الشهامة حين تطلب منه مساعدة يقدمها دون تردد .. يقف الى جانب الحق مهما كان صعبا ، « **حين تأتيه تراه متهللا .. كأنك تعطيه الذى أنت سائله** » .

تعلم منذ طفولته قيم الوفاء ، عواطفه زاخرة بالحب فى علاقته مع أسرته والمحيط الذى نشأ فيه ، لأنه بحكم صغر المجتمع هناك الكثير من الترابط ، العائلة كلها تجتمع على

مائدة واحدة ، الجيران يتبادلون الزيارات فى المناسبات المختلفة ، محب منذ صغره للقرآن الكريم وربما هذا كان السبب وراء قدرته على التحدث لساعات دون خطأ لغوى ، ولديه ذخيرة واسعة من اللغة والأدب والشعر ، درس الأدب العربى ودرس التراث ، الذين عاصروه وهو طالب فى اللاذقية يروون عنه الكثير ،كان كالابن لمن يسكن عندهم ، وكالأخ لمن يتعامل معه سواء فى الصف أو فى الحى ، كل الذين مروا فى حياته وزاملوه وهو طالب استمروا فى صداقتهم له حتى يومنا هذا ، لم يتركهم ولم يتركوه ويسأل عنهم باستمرار ويتفقدهم ، الذين عاصروه فى الكلية الجوية وفى القطاعات العسكرية يبادر بالسؤال عنهم وبالاتصال بهم للسؤال عما يحتاجونه ، عندما كان يقول « الشهداء أكرم من فى الدنيا وأعز بنى البشر » كان يجسد بهذا الكلام حقيقة مشاعره .

وبعيدا عن الأضواء يأخذ أولاد الشهداء الى مدارس داخلية يتعلم فيها الطفل ويأكل ويكتسى حتى يصبح عضوا نافعا ، أقام نفسه مقام الأب بالنسبة لأبناء الشهداء ، وفى عيد الشهداء وهو أحب مناسبة الى قلبه يقيم مأدبة يقضى فيها وقتا كبيرا ليلتقى بأبناء الشهداء ويسلم عليهم فردا فردا ويسألهم عن أحوالهم وأحوال معيشتهم ، أقام من نفسه أخا لكل من أصيب فى العمليات الحربية للدفاع عن وطنه وأرضه ، والى جانب هذا كله فإنه يقدم صورا مفعمة بالعمل الانسانى .. وفى مكتبه فى مكان بارز وفى منزله يضع صورة يقبل فيها يدى والدته الكريمة رمزا للحنان ورمزا للوفاء ، ورمزا للقيم العربية والاسلامية وتجسيدا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (الجنة تحت أقدام الأمهات) .

بكل تأكيد نعم فإن البيئة التى عاش فيها الأسد طفولته هى بيئة عربية تؤمن ـ كما سبق أن بينا ـ بالمثل العربية العليا ، وهى ممتدة لها جذور فى التاريخ لأن قبيلة الرئيس الأسد هى من أعرق القبائل العربية شرفا ونبلا ، وهذه القبيلة تمتد إلى قبيلة كلاب والمنطقة تسمى الكلبية ، والكلابيون من أعرق القبائل العربية **ويذكرنا الشاعر جرير عندما يقول للفرزدق بهذه الحقيقة عندما يقول:**

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وهذا الشعور بالانتماء العربى هو انتماء للجذور وللأمة العربية كلها .

الناحية الثانية يتميز تاريخ بيئة الرئيس الأسد بأنه تاريخ نضالى، حتى فى أيام الاستبداد العثمانى بسورية، وفى أيام الاستعمار الفرنسى.. كانت هذه المنطقة تعج بالنضال ضد المحتل، والظلم الذى وقع على المنطقة خلال طغيان الأتراك الذين كانوا يقتادون الشباب إلى جبال القرم ، والى اليمن مشيا على الأقدام لكى يقاتلوا دفاعا عن الامبراطورية العثمانية . والظلم الذى كان موجودا أيام الفرنسيين الذين كانوا يقتلون ويذبحون ويحرقون ، كل

هذا فتح أعين الشباب على الظلم المحيط ببلده وأمته ، وعندما أدرك الشاب حافظ الأسد ، ان الظلم الذى يقع على منطقته هو ظلم جماعى يشمل محافظته وغيرها من المحافظات ، أصبح لديه حافز لأن يكون قائدا طلابيا فى بداية حياته ، وعندما تطلع الى الأمة العربية ، وجد أن هذا الظلم جماعى ضد العرب، ظلم من قبل الفرنسيين فى المشرق والمغرب العربى بأكمله ، ظلم من الانجليز نتيجة للمعاهدات وعدم الانسحاب من مصر بعد المعاهدة ، ظلم من خلال الكيان الذى زرع فى جسد الأمة العربية فى فلسطين ، والدعم الذى تلقاه الكيان الصهيونى على حساب العرب ، ظلم من الاستعمار الانجليزى الذى كان يسيطر على اليمن والخليج العربى .. الانقسام .. التجزئة .. الأمية .. المرض .. الفقر .. **كل هذا جعل الشاب حافظ الأسد يحمل على منكبيه هم الأمة** ، ولذلك كان سعيه أيام الشباب أن يعمق ثقافته وخاصة ثقافته التاريخية لكى يعرف تاريخ أمته وكل ظروفها وأحوالها فى حقب التاريخ المختلفة حتى يعرف ما كانت عليه ، وما آلت اليه ، ويقف على سبب الأمجاد القديمة ، ويدرك العلة فى زوال هذه الأمجاد ، وتفكك الأمة وانهيارها ، ويشهد ، ويسهم مع غيره فى الوثبة نحو استعادة أمجاد الماضى ، ودفع الأمة قدما الى الأمام لتتبوأ مكانها الذى يليق بها وبعراقتها بين الأمم الأخرى المتحضرة .

والواقع ان الثقافة الدينية والتاريخية والقومية هى التى ثبتت القيم النضالية لدى الرئيس الأسد لأنها حمته من الانزلاق الى الماركسية ، وحمته ايضا من الانزلاق الى التقوقع القومى والجمود الفكرى عند نقطة معينة، وفى الوقت نفسه جعلت أمامه فسحة من التفكير نحو المستقبل باعتبار الاسلام رسالة تخص العرب والناس جميعا ، **وهذه نقطة مهمة جدا** لأن الرسالة العربية التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رسالة انسانية وان العربى المسيحى يعتز بهذه الرسالة كما يعتز بها العربى المسلم ، والرئيس حافظ الأسد له فضل كبير فى تثبيت الانتماء القومى .

نحن عرب فى الأول وعرب فى الأخير ، ولذلك لا يجوز لأى فئة طائفية أو اقليمية أن تحرفنا أو تلهينا عن فكرة الانتماء القومى لأن الحضارة العربية صنعها جميع ابناء العروبة أيا كانت أديانهم ، ولكن فى بوتقة اسلامية لأن الحضارة العربية الاسلامية .. قادها الاسلام وارسى دعائمها .

وفى هذه النقطة بالذات فإن الرئيس حافظ الأسد حمل فكرا مميزا يقوم على انخراط جميع أبناء الأمة فى هذا النضال لاحياء ماضيها ، ولكن بأسلوب علمى وعصرى بعيد عن التعصب، وبعيد عن التقوقع والجمود، ولم يمل الرئيس من تكرار اهمية الانفتاح على العالم وتعلم كل ما يفيدنا ولكن دون التخلى عن قيمنا الروحية التى تعززت فى تراثنا الروحى بالاسلام ، وهذه الرسالة موجهة للعربى أيا كان مسيحيا أو مسلما بل ولليهودى العربى الذى يعيش عربيا وليس اسرائيليا أو صهيونيا .

وهنا لابد من الاشارة مجددا إلى نقطة هامة تتصل بما يحاول بعض خصوم حزب البعث أن يصوره كالادعاء بأن علمانية هذا الحزب رديف لعدم الايمان ، والواقع أن الرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب هو انسان شديد الايمان كما سيلى فى فصل قادم ، ولكن فيما يتصل باقامة المجتمع المدنى فإنه لا يحب أن يخلط بين الأشياء ، وكذلك حزب البعث وهذه نقطة هامة ، الرئيس الأسد يفهم الاسلام فهما مختلفا عن فهم الذين انطلقوا فى هذا الفهم من اعتبارات طائفية ، وحاولوا أن يغزو بها بعض الأقطار العربية ، وحين بدأت فى سورية بعض الحركات الارهابية التى استخدمت الدين غطاء لتحقيق أهدافها السياسية لم يخلط الرئيس بين الأمور ، ظلت المساجد مفتوحة وكذلك المعاهد الدينية وظلت كلية الشريعة تتلقى الطلاب ، وظل الرئيس الأسد كما كان دائما يؤدى صلواته ، ويقوم بكل واجبات العبادة ، ويدعم كل الأشياء السليمة التى لا تخالطها السياسة، فهو مؤمن بقلبه ويتعامل مع الناس ضمن هذه الحقيقة ، ويحاول أن يبنى الجسور مع المجتمع الاسلامى فى كل البلدان الاسلامية .. لم يأل جهدا فى ذلك ، ولكنه رفض اثارة النعرات الطائفية تحت أى اسم من الأسماء ، ولقد طوقت مختلف فئات الشعب وبكل الاقتناع الحركات المتطرفة الارهابية والمشبوهة التى بدأت وانهزمت بسرعة البرق ، المجتمع السورى مجتمع متجانس .. فيه المتدينون وهم الغالبية العظمى ، وفيه العلمانيون **لكن ليس لدى السوريين الاحساس الطائفى** ، ويتعامل الجميع على أساس المواطنة والتضامن .

والواقع أن المرء لا يعرف مجتمعا آخر حتى من تلك المجتمعات التى كانت تحاول فى بعض الاحيان اتهام سورية.. يعيش فيها المتدينون ضمن جو الصفاء الذى يعيش فيه المتدينون فى سورية ، ويمارسون حقهم فى الحياة وفى العبادة وفى التعليم وفى اتباع التقاليد التى يريدون كما يجرى الأمر فى سورية، لكن دون عدوانية ... **العدوان مرفوض ..** الاسلام يحمل روح التسامح ، والايمان العميق بالمقدسات الاسلامية أمر لا غنى عنه ، والرئيس حافظ الأسد مثال لهذا الطهر الدينى والنقاء ، ولهذا الاسلام الذى يرفض ظواهر الاعتداء على الآخرين ، فلا للتشدد ، ولا للتعصب ، ولا للخروج عن حياة العصر ، وإنما هو فهم عميق للإسلام ، يجل الإسلام ويعتبره العقيدة لعامة الناس ، وحزب البعث ليس حزبا ملحدا ، ولم يكن كذلك فى يوم من الأيام ، وهو لا يجد أى مسوغ لطرح هذه المسألة ، **والرئيس الأسد يرعى للإسلام حرمته ، وهو صادق فى إيمانه ، وهو يؤمن بثراء الفكر الاسلامى وعطائه الغنى المتدفق المتواصل** ، وهذا الإيمان الذى يجسده الواقع يرد طعنات المضللين الى نحورهم ، فالاسلام هو الدين الخاتم ، وهو الدين

الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والشريعة الاسلامية شريعة من عند الله سبحانه وتعالى ، لذلك لا يستطيع بشر أو مجموعة أفراد أو أمم أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

هذه هى الحقائق التى استوعبها وفى وقت مبكر الرئيس حافظ الأسد ، عندما أكد أنه تحت مظلة الاسلام هنأت الشعوب التى كانت تشكل الأمة الاسلامية ، لا فرق بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم وغير مسلم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكانت الأمة الاسلامية ملاذ المعذبين فى الأرض ففروا إليها ينعمون بخيراتها ويسعدون تحت لواء امنها دونما ارغام على التحول إلى الاسلام ، فالمبدأ القرآنى يؤكد (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .

وعندما تمنى المصطفى عليه الصلاة والسلام ان يسلم عمه أبو طالب .. جاءه العتاب الرقيق من الله سبحانه وتعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ وفى سورة الكهف تتجلى حرية العبادة بأوسع معانيها ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ **فهل توجد حرية أعظم من هذه الحرية القادمة من الله سبحانه وتعالى ؟ وهل هناك ليبرالية أكثر من هذه إن صح التعبير ؟**

والذين يتأملون فكر الرئيس حافظ الأسد .. يلاحظون تأكيده على أن الشريعة الاسلامية تتفوق على أى فكر وضعى آخر .. لأنه فكر من لدن العزيز الحكيم ، وان المجتمع الاسلامى لن ينهض إلا على العقيدة وان إيمان المسلمين لن يتأكد إلا بادراكهم أن أحكام الله هى التى يجب أن تحكمهم وتنظمهم .. لأنها أحكام تدعوهم إلى الامتثال والبعد عن الاحتيال عليها .

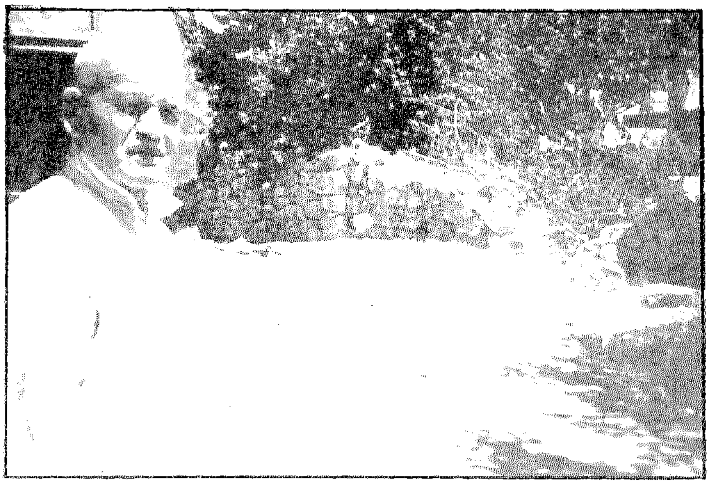
ولقد كان الرئيس الأسد ، وراء مقاومة التعصب الذى ظهر من حركات أطلق عليها اسم الأصوليين ، وهى حركات موجودة فى الوطن العربى والعالم الاسلامى ، وأيضا فى العالم المسيحى ، وكثيرا ما أكد أن هذا اللون من التعصب لا يمكن أن يكون على ارتباط صحيح بأى عقيدة وبالعقيدة الاسلامية تخصيصا ، فالتسامح هو جزء أساسى فى الحياة ، وأن تكون مسلما لا يعنى أن تقتل من تتصور أنه مختلف مع معتقداتك ، والاسلام هو دين الاجتهادات قد يختلف بعض الناس فى قناعاتهم مع بعضهم الآخر ، ولكن لا يمكن لأحد أن ينفى عن المجتهدين صفتهم الاسلامية ، لم يحدث هذا فى عز الدعوة الاسلامية ، وفى صدر الاسلام ، لم يفعل أجدادنا ذلك .

ومن المؤكد أن التيارات المتعصبة لها أهدافها السياسية التى تحاول استغلال بساطة

الاسلام ، من أجل ذلك .. فإن الرئيس الأسد يعتقد أن إنماء الوعى والفهم ونشر الثقافة سيشغل دورا فى انهاء مثل هذه الحركات حتى ضمن الأصوليات المسيحية واليهودية الموجودة التى تعشعش فى المستنقعات الجاهلة ، والجهل يمتد أحيانا إلى عواصم متقدمة .. فى فرنسا ستة ملايين أمى ، وفى الولايات المتحدة عشرة ملايين ، وهناك أطفال تنتهك طفولتهم بشتى الأساليب لا يذهبون إلى المدارس وانما يسخرون لأعمال تبتعد عن الشرف ، ولقد نشرت مؤخرا احصائية تقول إن فى الولايات المتحدة ٦٠٠ ألف طفل يستخدمون فى البغاء ، وفى فرنسا بلغ عددهم مائة ألف ، وهناك ظاهرة فى سورية يلحظها أى زائر لها قد يعيش الانسان سنوات عديدة ولا يعرف لأى طائفة ينتمى جاره مسلم ـ مسيحى .. الخ ، ولذلك عندما حاولوا اثارة هذه النعرات لم تعش فى سورية، وكانت صفة المحبة هى الغالبة ، فالطوائف المختلفة تتعايش وتؤمن بأن العلاقة مع الله سبحانه وتعالى هى علاقة سامية جدا لا يمكن أن تدنسها أى نعرات طائفية .





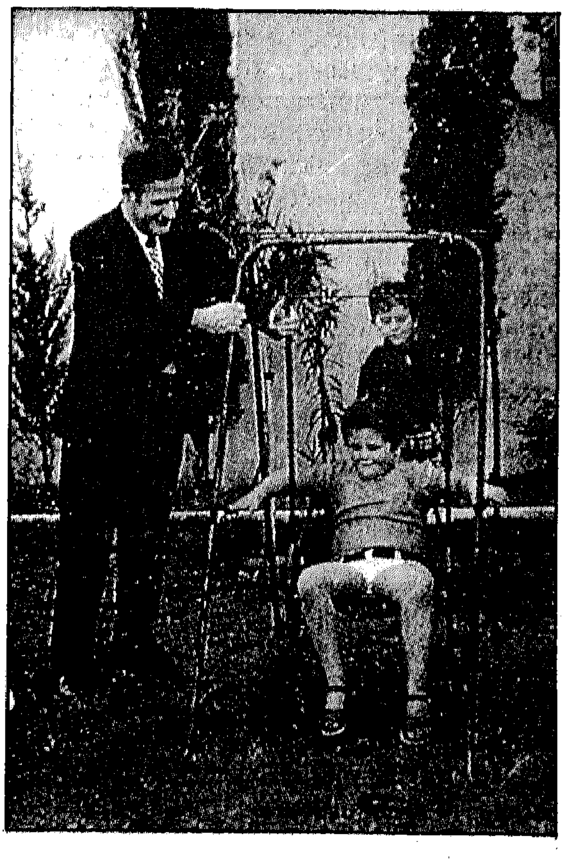


□□ الصورة الى اليسار : السيد على سليمان الاسد ، والد الرئيس حافظ الاسد ، وقد ترشح للانتخابات فى الثلاثينات . .

الى اليمين : السيدة الفاضلة ناعسة ، زوجة على سليمان الاسد ، ولدت له خمسة اطفال : بيات الذى توفى فى الثامنة عشرة وحافظ وجميل ورفعت وبهيجة .

□□ الصورة فى الاسفل : السيد اسماعيل الاسد الملقب بأبى توفيق ، وهو الشقيق الاكبر للرئيس ، يقف امام ماتبقى من البيت الأبوى فى القرداحة .





□□ الصورة فى الاعلى : عائلة الاسد بكامل افرادها فى بداية السبعينات ، من اليسار الى اليمين : ماهر ، مجد ، الرئيس ، باسل ، السيدة الاولى حرم الرئيس الاسد ، بشرى ، بشار .

□□ الصورة فى الاسفل : الرئيس حافظ الاسد مع مجد على الأرجوحة وماهر







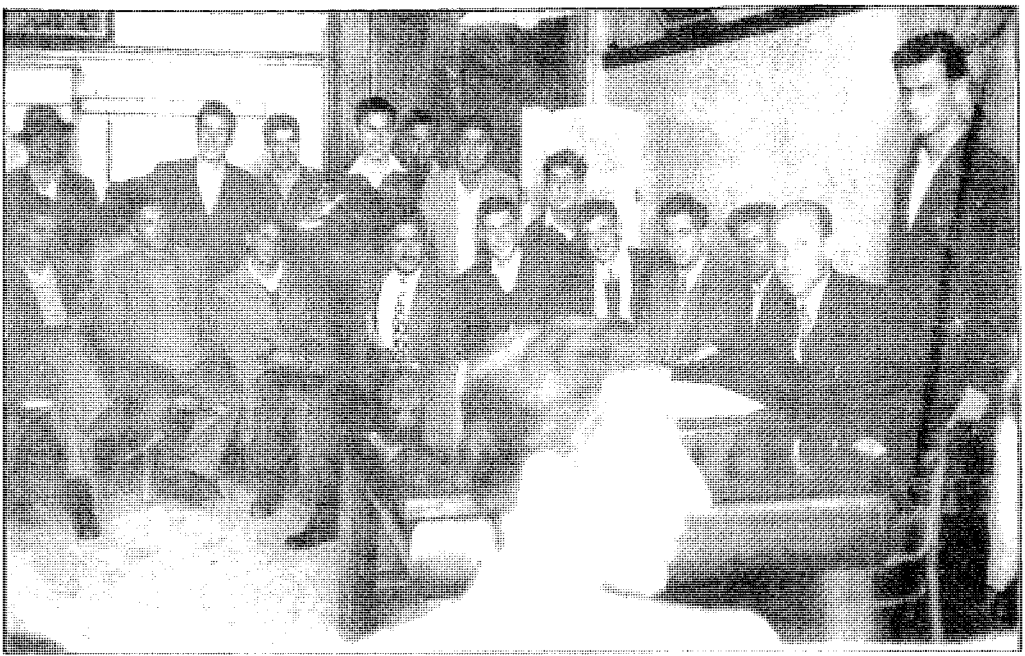
□□ الصورة فى الاسفل : عائلة الرئيس الاسد بكامل افرادها عام ١٩٨٥ : من اليسار الى اليمين : مجد وماهر وبشرى وبشار وباسل يقفون خلف والديهم .

□□ الصورة فى الاعلى : الى اليمين : حافظ الاسد فى الصيد فى الفترة التى كان لايزال لديه بعض الوقت الحر . .





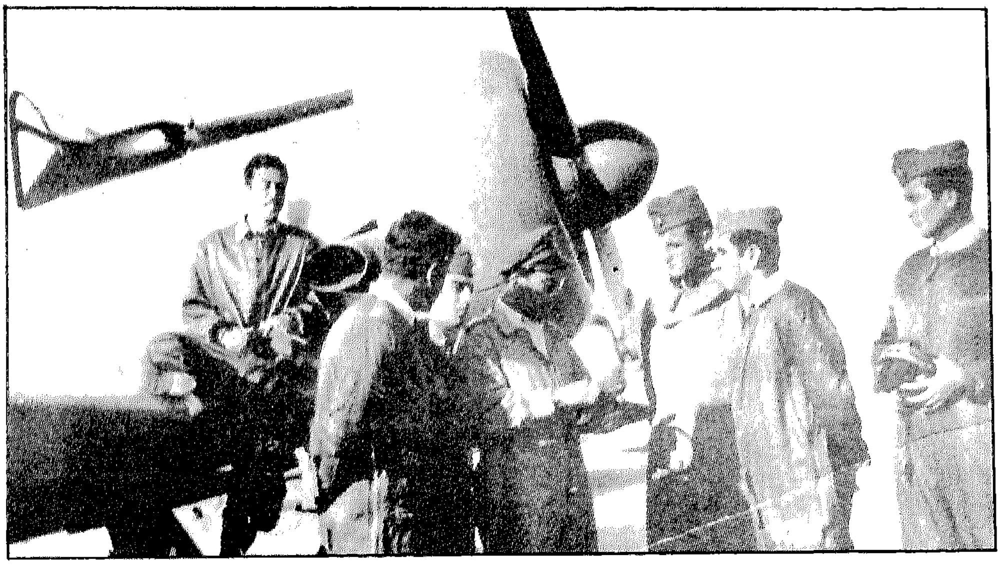
□□ الصورة فى الاعلى : اقوال الشاب حافظ الاسد تحظى بموافقة رفاقه ، قبل مباشرة احدى مظاهرات اللاذقية ..
الصورة فى الاسفل : حافظ الاسد يرأس اجتماعا لاتحاد طلبة سورية ..





□□ كان بعض المدرسين يعلمون القومية لطلابهم الشباب قبل استقلال سورية عام ١٩٤٦ احد هؤلاء الطلاب الواقف الى يمين الصورة وهو حافظ الاسد ، سوف يدخل صفوف البعث عام ١٩٤٦ ، وفى تجهيز اللاذقية الرسمى الذى سيطلق عليه فيما بعد اسم «جول جمال» يتابع حافظ الاسد دروس المرحلة الثانوية . وسرعان مايصبح مناضلا نشطا ومسئولا عن اتحاد طلبة سورية . .





□□ الطالب الضابط حافظ الاسد فى مدرسة حلب الجوية

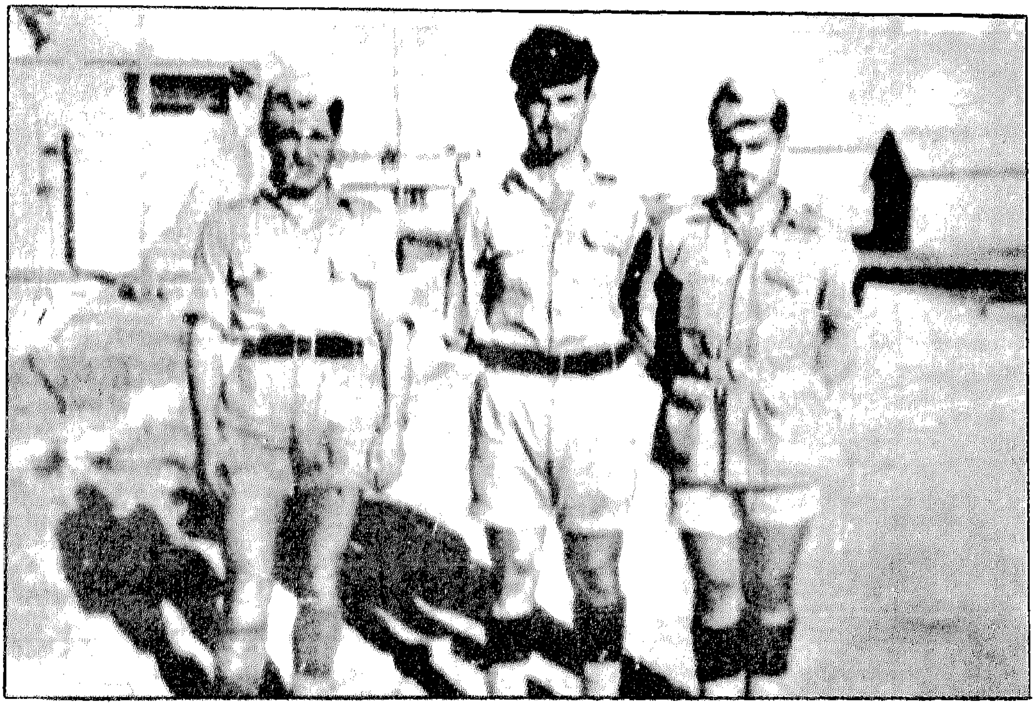




□□ تابع النقيب حافظ الاسد طوال احد عشر شهرا دورات تدريبية فى الاتحاد السوفيتى على طائرات الميج ١٥ ، ١٧ وكان تقديره جيدا جدا . .



□□ حافظ الاسد وزير الدفاع وقائد القوات الجوية فى مكتبه بعد حركة ٢٣ فبراير شباط ١٩٦٦ .



□□ صورة تذكارية لحافظ الاسد ورفاقه والسيجارة بين شفتيه . قبل ان يقرر الاقلاع عن التدخين بعد حرب اكتوبر « تشرين اول »

■ التاريخ لا تحركه الصدفة ■

٣

قراءة فى فكر الأسد

عِبَرُ التاريخ ودروسه فى فكـر الأسـد

□□ حكم فيصل بن الحسين لسورية بعد تحرير دمشق من الحكم العثمانى .

□□ سورية فى ظل الانتداب الفرنسى وحتى الاستقلال .

□□ بداية اليقظة العربية الحديثة ومولد حزب البعث عام ١٩٤٧ ، بعد الاستقلال بعام واحد .

□□ الاستقلال ومولد الحزب وكيف أسهما فى استيقاظ مخيلة الأسد ؟

□□ دور البعث فى وضع سورية على طريق التقدم والوحدة .

□□ كيف تحققت قيادة الأسد الريادية فى حركة البعث .

□□ **يؤمن الرئيس حافظ الأسد ـ وبحق ـ بأن المقوم الأساسى الذى ساهم خلال كل الأزمان فى صنع الحضارة والانتصار، هو استيعاب عبر التاريخ وعظاته**، لأن دراسة التاريخ تؤهل الاحساس لدى أى قارىء له، وتعمق من تفكيره وتجعله متحكما بالفنون المختلفة. **والتاريخ فى نظر الرئيس حافظ الأسد هو العلم الذى ينبغى على المرء أن يستقى منه على الدوام**، فلا يقرأه ليتعلم سرد القصص بل يقرأه ليتعلم السياسة والأخلاق والقيم الفاضلة، ولقد صدق المارشال « دوبل أيسل » عندما قال بصدق فى رسالته المشهورة « لكىْ تغذى دفاع أى شعبٌ عن حريته وتجعله يتجه باستمرار للدفاع عنها .. فليس هناك كتاب أخصب من كتاب التاريخ ».

ولقد اهتم المسلمون بعلم التاريخ منذ القرن الأول الهجرى، وذلك نتيجة حرصهم على معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واخبار الفتوح، واتبع المؤرخون فى بادىء الأمر طريقة المحدثين فأوردوا الخبر مسبوقا بسلسلة اسناده .. ثم رتبوا الحوادث حسب السنين كما فعل « ابن الأثير »، ثم ارخوا لكل دولة على حدة كما فعل « ابن خلدون » وتلميذه « المقريزى » المصرى، ولقد اهتم المؤرخون المسلمون بأخبار الخلفاء والملوك والأمراء والحروب والفتن، ولم يهتموا بوصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ولم يتتبعوا تاريخ الحكام إلا نادرا ولكنهم امتازوا بتحرى الصدق.

ولعل ما جرى لبعض اقطارنا العربية ، من تراجعات ونكسات متتالية ، مرجعها عدم اعطاء النظريات المفسرة للتاريخ العام ما تستحقه من اهتمام ، وتشهد كتب التاريخ أن أكثر المدافعين عن التثقيف بواسطة التاريخ ، هم قادة كبار لم يخفوا قط ما يدينون به فى دراستهم له ، وكان (سوفو روف) أول قائد روسى دافع عن التثقيف العسكرى بواسطة التاريخ فى روسيا ، مطالبا ضباطه بالانكباب على دراسة هذا العلم الذى يتجاوز كل الأنظمة ، وكان يقول (ان التكتيك بدون تاريخ ظلمات .. انه فوق كل الأنظمة) . وفى المانيا يعدّ التاريخ أساسا لتدريب الضباط منذ أيام (فريدريك الثانى) (الذى يعدّ التاريخ تجربة ناجحة بصورة مبكرة روعيا بالعلاقات القائمة بين الأحداث الحاضرة وأحداث الماضى وتحسنا نحو الكمال بفضل المقارنات) .

وقد كان الفرنسيون بصورة خاصة للرجع الرئيسى فى الاعتماد على التاريخ ودراسته فى أوربا أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر ، عندما ظهر « الشوفالية فولا » والمارشال « ساكس والكونت جيبير » ولا يتمتع « بونابرت » بأية ثقافة عسكرية غير الثقافة التى كسبها من تأمل مؤلفات القادة لأنه كان يقضى ثلاثة أرباع وقته (حتى حصار طولون) فى إجازات يدرس خلالها المؤلفات ، حتى أن المؤلف الذى كتبه جيبير كان يرافق القائد العام لجيش ايطاليا ، ولا يخفى بونابرت الفائدة التى جناها من قراءته لهذه الكتب إذ يقول :

« من الممكن تعلم التكتيك والتطورات وعمل المهندسين والمدفعية من الأنظمة والمذكرات كما تتعلم الهندسة تقريبا ، إلا ان معرفة الأجزاء العليا من الحرب لا تكتسب إلا بالتجربة وبدراسة تاريخ الحروب ومعارك كبار القادة ، أعد قراءة تاريخ معاركهم الثمانى والتسعين وأحذو حذوهم . تلك هى الوسيلة الوحيدة لتغدو قائدا عظيما » .

ولعل هذه الأمثلة وغيرها ، تعلمنا كيف نبنى تفكيرنا من خلال التاريخ ... فالتاريخ ليس فقط معلما للأفراد ، بل هو معلم للشعوب بما يحمل فى طياته من عظات وعبر ومبادىء وقيم وفضائل ومثل . هذا بالطبع إذا ما توافر لكتاب التاريخ الحيدة والنزاهة ، والمؤرخ الأصيل .. هو الذى يكتب التاريخ ، ليجه التاريخ بعيدا عن الزيف والتضليل ، الذى يبحث فى كل صغيرة وكبيرة بتأمل وواقعية واضعا المنطق ورؤية العالم المتجردة نصب عينيه ، وقد أثبتت الأحداث وهى مازالت تؤكد كل يوم ان العبث فى كتابة التاريخ مآله إلى الزوال ولا تبقى إلا الكتابات المجردة التى يدرك كاتبها أن بوابة التاريخ محراب مقدس ومعبد للتبتل .

ولقد ساعد الوعى المبكر للرئيس حافظ الأسد على بلورة وبروز شخصيته القيادية ، وقد قاده هذا الوعى إلى قراءة التاريخ ، للوقوف على مكانة بلاده عبر التاريخ ، **ومن قراءة هذا التاريخ عرف أن بلاده تحتل مكانة فريدة فى تاريخ العالم**،وأدرك ان

فضلها على رقى البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية أجل شأنا من فضل أى بلد آخر خصوصا انها كانت تضم لبنان وفلسطين والاردن ومناطق أخرى ، عرف أن بلاده باعتبارها مهد اليهودية ومكان مولد المسيحية أعطت العالم المتمدن ديانتين توحيديتين وكانت لها صلة وثيقة بظهور الديانة التوحيدية الثالثة ونشوئها ونعنى الديانة الاسلامية ، وأنظار المسيحيين والمسلمين واليهود ، حيثما وجدوا تتجه إلى إحدى البقاع المقدسة فى سورية ليستوحوا منها ، كما أن أقدامهم تسوقهم إليها ليهتدوا بهديها .

ولقد كان الشعب السورى ، أول من ساهم فى نشر القيم الروحية ، ولقد اتحف السوريون القدماء العالم بأبدع الأفكار وأرفعها وليس من اختراع يعادل أهمية اختراع الأبجدية ، التى ولدت على شاطىء اللاذقية فى اوغاريت ، واليونان فى الغرب إنما نقلوا حروفهم عن الفينيقيين أو الكنعانيين كما كانوا يسمون أنفسهم ثم أعطوها إلى الرومان وبالتالى إلى شعوب أوربا الحديثة ، كما أن الآراميين فى الشرق استعاروا حروفهم من المصدر نفسه ونقلوها إلى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا ، **ولو أن هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم أية خدمة أخرى لكان ذلك كافيا بأن يتميزوا كأعظم المحسنيين للبشرية** وازدحمت الأراضى السورية بالأحداث التاريخية والثقافية والتى جعلت تاريخها تاريخ معظم العالم المتحضر بصورة مصغرة ، **ففى الفترتين الهلنستية والرومانية** اتحف أبناء هذه البلاد العالم الكلاسيكى بمجموعة من ابرز مفكريه ومعلميه ومؤرخيه ، وكان بعض مؤسسى الفلسفة الرواقية والافلاطونية المحدثة من السوريين ، وازدهرت فى بيروت مدرسة من أعظم مدارس الحقوق الرومانية وادخلت الآراء القانونية لبعض أساتذتها فى مجموعة قوانين يوستنيان التى عدت بحق أعظم ما قدمته العبقرية الرومانية للأجيال .

وبعد انتشار الاسلام بمدة وجيزة أصبحت دمشق قاعدة الدولة الأموية الشهيرة التى توسع خلفاؤها بفتوحاتهم إلى أسبانيا وفرنسا من جهة والهند وحدود الصين من جهة أخرى ، وكانت كلمة الخليفة المقيم فى دمشق هى القانون ، وكانت الدولة الأموية دولة عربية صميمة تعتز بالعروبة وتعمل من أجلها ، وكانت غالبية الساسة والقادة وجنود الجيش الأموى من أصول عربية ، فدولة بنى أمية أوجدها العرب ، وحكمها العرب ، وسادتها نظم عربية فى مختلف المجالات ، واصطبغ كل شىء فيها بالصبغة العربية فى عهد عبدالملك ثم الوليد وحدثت اصلاحات مالية وادارية كثيرة فى هذه الفترة ، وقامت منشآت وآثار معمارية لا يزال بعضها قائما للوقت الحاضر ، وفى العصر الأموى تم تنظيم الجيش والأسطول واستفادت الدولة الأموية من الحضارات التى كانت معاصرة لها ، وانهارت الحواجز التى كانت تفصل بين العرب وغير العرب عندما أخذت جموع الفرس مع بقية شعوب البلدان المفتوحة تهرع إلى اعتناق الإسلام

وتتزاوج مع العرب ، وفى العصر الأموى تحددت معالم الوطن العربى ، واستقرت حدوده تقريبا .

وفى **العصور الوسطى الاسلامية** تعرضت سورية للعديد من الغزوات والحروب ، فتعاقب عليها الصليبيون عام ١٠٩٧ ، فالمغول عام ١٢٦٠ ، فتيمور لنك (أى تيمور الأعرج) عام ١٤٠٠ فالعثمانيون الذين قضوا على المماليك بقيادة السلطان العثمانى سليم الأول فى موقعة « مرج دابق » بالقرب من حلب سنة ١٥١٦ ، بعد أن قتل سلطانهم الأشرف قانصوه الغورى ، ومنذ ذلك التاريخ فتحت أمام العثمانيين أبواب سورية ومصر واصبح الحكم فيهما للحكام الجدد ، وما كادت بلاد الشام ومصر تدخل تحت الحكم العثمانى حتى أمست فى وضع مؤسف من الركود والخمول ، فقد كان بقايا العثمانيين المتمسكين بعنصريتهم يمعنون فى خنق الأفكار ومكافحة الطابع العربى واللغة العربية واحلال اللغة التركية محلها ، ولقد أهمل العثمانيون كل شىء فى البلاد العربية فتدهورت الزراعة وانهارت الصناعة وساءت الحالة الصحية وانتشرت الأمراض ، وتسببوا فى تأخير التعليم باغلاقهم المدارس وتعويق الثقافة .

سورية تحت الحكم العثمانى

□□ **فى نهاية العصر المغولى ظهرت خلافة جديدة ودولة كبيرة هى دولة العثمانيين** ، وتنسب هذه الدولة الى مؤسسها الأول (السلطان عثمان) وقد قامت هذه الدولة ـ فى البداية ـ فى آسيا الصغرى ، وبدأت فى التوسع والامتداد على حساب الامارات التركية المختلفة ، وكذلك على حساب الامبراطورية البيزنطية وإتجه سلاطين هذه الدولة بفتوحاتهم إلى أوربا وخاصة فى منطقة البلقان .. فالدولة العثمانية نشأت وترعرعت بعيدا عن البلاد العربية ، ولم تحتك بها فى البداية لان العثمانيين كانوا يجدون حرجا كبيرا فى الاشتباك مع قوات اسلامية ، ولم تشرع الدولة العثمانية فى الاستيلاء على أجزاء الوطن العربى إلا بعد أن مضى على تأسيسها قرابة قرنين من الزمان ، وبعد أن تعاقب على عرشها ثمانية من السلاطين ، فقد أصبحت الدولة العثمانية متاخمة للبلاد العربية التابعة لدولة المماليك ـ حينئذ ـ ولم يبدأ هجومها على الوطن العربى إلا فى أواخر القرن الخامس عشر فى عهد سلطانها الثامن بايزيد الثانى ، وكان العرب قبل الاجتياح العثمانى ، يخضعون لدولتين اسلاميتين كبيرتين (ولكنهما غير عربيتين) اذ خضعت مصر والشام والحجاز لدولة المماليك ، وخضعت العراق للدولة الصفوية الايرانية ، وقد تمكن السلطان سليم الأول (وهو تاسع سلاطين الدولة العثمانية) من القضاء على دولة المماليك والاستيلاء على سورية ومصر والحجاز ، ثم أعقبه السلطان سليمان القانونى الذى اتم الاستيلاء على سائر البلاد العربية فسيطر على العراق واليمن وكانت بلدان الشمال الافريقى باستثناء المغرب الأقصى قد قبلت بالحكم العثمانى خلال صراعها الطويل مع أسبانيا والبرتغال .

وتجدر الاشارة إلى ان العثمانيين لم يتجهوا إلى الاستيلاء على البلاد العربية ، إلا عندما قاربت دولتهم ذروة مجدها ، وكادت تصل إلى أقصى حدود اتساعها .

وتجدر الاشارة أيضا إلى أن مرحلة التوسع والفتح فى الدولة العثمانية بلغت غايتها تقريبا وانتهت بانتهاء عهد السلطان سليمان القانونى (السلطان العاشر للدولة) ، ففى ذلك العهد امتدت حدود الدولة فى أوربا فشملت شبه جزيرة مورة وجميع بلاد البلقان ، الصرب والقرم ، كما ضمت معظم اقسام البحر الأسود، ووصلت إلى أسوار فيينا، وبعد ذلك العهد لم تمتد حدود الدولة امتدادا يذكر ، بل على العكس من ذلك بدأت تتقلص وتتراجع شيئا فشيئا .

ويمكن القول بأن البلاد العربية خضعت للحكم العثمانى ، بعد أن تجاوزت دولة العثمانيين عهد الشباب ودخلت فى طور الكهولة المكتملة وبلغت قمة مجدها سواء من الناحيتين المادية أو المعنوية .

وقد استمر الحكم العثمانى للوطن العربى ، أربعة قرون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين (١٥١٦ ـ ١٩١٨) اذ انهارت الامبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى التى اندلعت نيرانها فى سنة ١٩١٤ ، وانتهت بانتصار الحلفاء (الانجليز واعوانهم) وقد ورثت واقتسمت دول الحلفاء ممتلكات الامبراطورية المتهارة المهزومة .

ونلاحظ أن بعض البلاد العربية خرج عن نطاق الحكم العثمانى فى القرن التاسع عشر فى تواريخ مختلفة وبطرق متعددة ، فقد استولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، كما استولت بريطانيا على عدن عام ١٨٣٩ ، ثم احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ ، وبعد فترة وجيزة استولت ايطاليا على ليبيا عام ١٩١٢ . ثم حدث بعد ذلك أن خرجت بقية البلاد العربية من يد الدولة العثمانية بعد نهاية الحرب الكونية الأولى وخضعت لنفوذ جديد (نفوذ الدولتين الاستعماريتين انجلترا وفرنسا) .

وهكذا نرى أن مدة خضوع الوطن العربى للحكم العثمانى تتراوح ما بين ثلاثة قرون بالنسبة لبعض أجزائه وأربعة قرون بالنسبة للأجزاء الأخرى.

وكما أشرنا من قبل فإنه بالرغم من ان الحكم العثمانى كان حكما اسلاميا ، الا انه كان يختلف كثيرا عما سبق من حكم العرب والمسلمين فى العصور السالفة ، ذلك ان العثمانيين اهملوا تماما كل اصلاح اجتماعى واقتصادى أو ثقافى ، ولم يعيروا أى اهتمام لاصلاح المرافق بل تسببوا فى القضاء على الكثير من الصناعات المزدهرة فى البلاد العربية ، ووقف قادة الأتراك فى ذلك الوقت حائلا دون أى تقدم فى أى مرفق من المرافق الحيوية اللازمة لتقدم الشعوب ، وقد ادت هذه الحالة الأليمة الى انتشار الجهل ورواج الخرافات ، واضطراب الأمن ، بل والقضاء على بعض مظاهر الحضارة العربية

الأصيلة ، وصبر ابناء البلاد العربية على هذه المكاره ، ولكنهم باتوا يتربصون بهذا الوضع وينتظرون الخلاص من الحكم العثمانى بأى سبيل ، ومن يمعن النظر فى تاريخ الحكم العثمانى يجد انه لم يترك بصمات ايجابية فى اى منحى من مناحى الحياة ، بل لقد أسدلت الدولة العثمانية أستار الجهل حول البلاد العربية بقصد تعويق تقدمها ومنعها من الوصول إلى عصر النهضة .. فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه عصر النهضة فى أوروبا ، وقد كانت سياسة العثمانيين فى الوطن العربى تسير على أساس عدم التدخل فى حياة أبناء ذلك الوطن الا فى حدود ضيقة ، فمادام العرب موالين للاتراك خاضعين لسلطان الدولة ، ويؤدون مايطلب منهم من أموال فإنهم فى مأمن من تدخل الدولة فى شئونهم .

وهذه السياسة هى التى أدت الى جمود الوطن العربى وركوده خلال الحكم التركى وكانت السبب فى أن العرب وصلوا فى ظل الحكم العثمانى الى القرن العشرين وهم يحيون حياة القرون الوسطى ، وفى اطار حرص الحكم التركى على عدم امتداد اطماع أوروبا الى الوطن العربى فقد وضعوا الحواجز والفواصل بين العرب ودول أوروبا ، ربما كان من ثمار عدم تدخل الاتراك فى شئون العرب ، انهم ظلوا محافظين على قوميتهم ، وعلى كيانهم وعلى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ..

ويلاحظ المتتبع لتاريخ الدولة العثمانية ان الاتراك كانوا أقل استعداداللأخذ بوسائل المدنية من العرب وغيرهم من الشعوب التى خضعت لحكمهم ودخلت فى تكوين دولتهم ، وقد أدى هذا الوضع الى عدم استطاعة العثمانيين (تتريك) العرب بالقوة ، ولم يتمكن الأتراك من فرض لغتهم على العرب ، ونشر ثقافاتهم بينهم ، ولكن حدث فى اواخر عهد الدولة العثمانية وتحديدا فى عام ١٩٠٨ انقلاب ظهرت على أثره (جمعية الاتحاد والترقى) التى حاول رجالها اتباع سياسة العنف تجاه الأقطار التى كانت خاضعة للدولة وعملوا على (تسويد الأتراك) علىسائر شعوب الدولة العثمانية ، وهذا أدى إلى تأجج الروح القومية والنضال للتحرر من الهيمنة والاستبداد فى وقت كانت الامبراطورية العثمانية تعانى سكرات الاحتضار ، وكان لزاما على الشعوب العربية أن تنتهز هذه الفرصة المواتية ، وتعمل من جانبها على التخلص من سيطرة هذه الدولة .

ولقد شاءت الظروف ان تتلاحق الأحداث ، وتندفع على غير مايهوى الاتراك ، اذ قامت الحرب الكونية الأولى ١٩١٤ ـ واستمرت أربع سنوات وانتهت بتحطيم الامبراطورية العثمانية والقضاء على سلطانها وخروج الاقطار والشعوب العربية من دائرة نفوذها بعد ان انتصر الحلفاء (انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا) على الدولة العثمانية ، وساعدتهم الشعوب الخاضعة لها بسبب ماكانت تعانيه من تصرفات حكام الدولة العثمانية فمكنتهم من التغلب والنصر على أمل الاستقلال والتحرر وفقا للوعود التى سمعتها من دول التحالف ، ولكن ما كادت الحرب تنتهى وينعقد لواء النصر للحلفاء حتى ظهرت نواياهم

على حقيقتها وبانت دخائل نفوسهم وماكانوا يضمرونه من عداوة ويبيتونه من غدر للعرب .

لقد تآمر الحلفاء على الدولة العثمانية ، وعلى اقتسام أراضيها وجرت مشاورات بينهم قبل الحرب وأثناء الحرب ، وعقدت اتفاقيات سرية بهذا الصدد ، ولجأ الحلفاء الى الحيلة والخداع والتلويح بتحقيق الأماني ، وبذل الوعود للعرب ليتخذوا منهم فى الحرب اداة للنصر ، وتدميرا للامبراطورية العثمانية ، وقد انخدع العرب بهذه الأمانى وتلك الوعود ، وكانواحريصين على التخلص من الحكم التركى ومن مظاهر الدولة العثمانية ، وماجرته عليهم من أسباب التأخر وعوامل التدهور والانهيار ، ومن اجل ذلك اتفق الحسين بن على شريف مكة مع الانجليز على الثورة ضد الدولة العثمانية ، ومساعدة الحلفاء مقابل استقلال الدولة العربية عندما يتم النصر للحلفاء واقامة دولة عربية اسلامية بعد هزيمة تركيا بزعامة الحسين ، والذى حدث ان الحسين نفذ وعده ووفى بالتزاماته ، ولكن الانجليز والفرنسيين وفى اطار اتفاق سايكس ـ بيكو نقضوا وعودهم وتنكروا لعهودهم ، وتقاسموا البلاد العربية فيما بينهم قسمة الغنائم والأسلاب .

لقد تفككت أوصال الوطن العربى وتقطعت اجزاؤه ووزعت مناطقه بين انجلترا وفرنسا تحت اسم الانتداب وذلك الاصطلاح الذى ابتكرته عصبة الامم وبحجة العمل على ترقية هذه الاقاليم بماتضمه من بشر، ثم تركها بعد أن يتم تمدنها وتحضرها ، واستقر رأى الحلفاء على تمزيق الوطن العربى وجعله مناطق نفوذ لهم ، وماكادت الحرب تضع أوزارها حتى وضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، ووضعت فلسطين والعراق وإمارة شرق الاردن تحت الانتداب البريطانى ، وكانت مصر من قبل تحت الحماية البريطانية وشمال افريقيا تحت الحماية الفرنسية ، وكذلك كانت امارات الخليج العربى تحت الحماية البريطانية .

وكان ماخرج به حافظ الأسد من دراسة وتأمل لهذا التاريخ ان الوطن العربى خرج من محنة أليمة ليقع فى محنة أشد ايلاما منها، فقد وقع فى براثن الاستعمار وأصبح فريسة للمستعمرين الغادرين الذين حاكوا خيوط المؤامرة ضد البلاد العربية فى الظلام ، وتظاهروا بأنهم المنقذون ، ورسل الخلاص للعرب من الحكم العثمانى.

صدمة قاسية ورؤية جديدة

لقد صدم السوريون ، كما صدم العرب بهذا الموقف ، وتلك النتيجة ، صدمة دامية ، وخابت آمالهم وتبددت احلامهم ، وكانوا محطمين منهارين فلم يستطيعوا حينئذ ان يدفعوا الاعداءويردوا الهوان ، الذى حاق بهم ، لان الاتراك فى فترة سيطرتهم الطويلة على العرب حطموا معنوياتهم ودمروا اقتصادياتهم وافسدوا كل مظاهر حياتهم ، وتركوهم فى نهاية الأمر ، فى حالة ضعف بين ، مكن للاستعمار الجديد من السيطرة

عليهم والحلول محل الاتراك واقتسام هذه التركة والثروة العريضة التى ينطوى عليها الوطن العربى .

ولقد توقف الرئيس حافظ الأسد فى دراسته لتاريخ الحكم العثمانى ، طويلا حول الدروس المستفادة من هذا التاريخ ولفت انتباهه عدة أمور.. لفت انتباهه ان العصر العثمانى الذى جثم على صدر بلاده فرض اشكالا من التحرك السياسى كانت تتسم بين المطالبة الخجولة بالمساواة مع العنصر التركى ضمن الامبراطورية العثمانية ، ووفقا لتعاليم الاسلام ، وبين الدعوة الى استقلال سورية عن الدولة العثمانية ، ولقد وقف طويلا امام صور البطولة السورية التى تجلت فى أروع مظاهرها فى أعقاب وصول (جمعية الاتحاد والترقى) الى الحكم سنة ١٩٠٨ وهى الجمعية التى تبنت قومية طورانية هدفت الى تتريك العرب ، الأمر الذى أدى الى انتشار جمعيات سورية فى القاهرة ودمشق وفى بيروت ، بل وفى باريس ، للتصدى لمحاولة الغاء الوجود القومى التى حاولها الاتراك .

لفت انتباه الرئيس الأسد أيضا وهو مادعاه الى التعمق فى قراءة كل مايتصل بسيرهم ، بروز مجموعة من المصلحين ، الذين ساهمت أفكارهم فى الحفاظ على عروبة بلاده وغيرها ، واذا كان جمال الدين الافغانى ، قد دعا الى قيام الجامعة الاسلامية والتى تبنى فكرتها السلطان عبدالحميد الثانى ، وجعلها محور سياسة الدولة العثمانية ، فإن عبدالرحمن الكواكبى ، وهو عربى من أصل سورى تقدم أكثر نحو الامام فى كتابه (أم القرى) حيث دعا الى عودة الخلافة الى العرب بدلا من العثمانيين .

ولقد لفت انتباه الأسد أيضا ان مطلع القرن العشرين والذى شهد ظهور صحف مصرية عديدة ، قد أدى الى تأثر سورية بالافكار ، التى كانت تطرح فى هذه الصحف عن الامجاد العربية ، وتجدر الاشارة الى انه عام ١٩٠٦ تألفت جمعية (النهضة العربية) برئاسة صلاح الدين القاسمى وكانت اهداف هذه الجمعية رفعة العرب ، ومجدهم ، ونشر اللغة العربية ، وكان لهذه الجمعية دور كبير فى ارساء القواعد الأولى للفكرة العربية فى ظل الحكم العثمانى .

وتجدر الاشارة ايضا الى انه فى أعقاب اعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ انشئت فى الاستانة (جمعية الاخاء العربى العثمانى) وقد شكل السوريون فى تلك الجمعية العدد الغالب ، وكانت هذه الجمعية تهدف الى الحفاظ على الدولة العثمانية وعدم تجزئتها مع الرغبة فى أن يكون للعرب والسوريين تحديدا دور ما فى تلك الدولة ، والى هذه الجمعية يرجع عدد من الكتاب بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة .

وتتفق المصادر التاريخية على ان هذه الحركةلم تحاول حتى عام ١٩١٠ تبنى سياسة مستقلة عن الدولة العثمانية ، وبالتالى اقامة كيانات عربية مستقلة .. غير ان الاتجاه الوطنى نحو الاستقلال وبناء الدولة السورية قد تطور بعد ذلك ، وكانت جمعية

(العربية الفتاة) هى التى قادت هذا الاتجاه، ولقد قاد رجال جمعية العربية الفتاة الحكم الوطنى فى عهد فيصل ، وبعده خلال الانتداب الفرنسى تحت اسماء وصيغ مختلفة ، وكان فيصل بن الحسين قد انتسب الى هذه الجمعية عندما كان فى دمشق عام ١٩١٥ ، ولقد ظهرت بعد ذلك أحزاب أخرى مثل حزب (الاتحاد السورى) وحزب (اللا مركزية) ، وغيرهما أدت الى نمو الاتجاه العربى والمطالبة باستقلال سورية بحدودها الطبيعية .. يلفت الانتباه ايضا هنا .. ان حوارا هاما دار خلال تلك الفترة حول محاولة جماعة الاتحاد والترقى فى اطار سعيها لتعميق فكرة القومية التركية على حساب غيرها ، العودة بتاريخ الاتراك الى ماقبل الاسلام .. فى حين يجمع العرب على أن التراث الاسلامى هو نتاج الحضارة العربية، وعلى الرغم من أن جماعة الاتحاد والترقى رفعت شعارات براقة مثل الحرية والعدل والمساواة فإن ثمة شكوكا احاطت برجالها واتهمتهم بأنهم « ماسونيون »

وفى كتاب حافظ الأسد (قائد ورسالة) نشر مؤلفه فؤاد العشا الرسالة التى بعث بها السير ج. لوثر سفير بريطانيا فى استنابول إلى الخارجية البريطانية أشار فيها إلى مواقع الماسونيين واليهود فى الحكومة الاتحادية ويقول : (بعد أن أزيح السلطان عبدالحميد الخصم الدائم للصهيونية بدأ اليهود يلعبون دورا فى العاصمة وأخذت الدولة تعرف بدولة اليهود وأخذت لجنة الاتحاد والترقى تستفيد من جماعة الماسونية العالمية، واليهود يعملون للحصول على حكم ذاتى فى فلسطين) .

وفى كتاب سوريا لمؤلفه على سلطان انه ، فى هذا السياق اكد السلطان عبدالحميد فى رسالة كتبها بخط يده عام ١٩١١ وارسلها الى احد اصدقائه فى دمشق .. بأن سبب خلعه من قبل جماعة الاتحاد والترقى كان رفضه لطلبات اليهود الملحة والسماح لهم بالهجرة الى فلسطين .

ولقد أخذت التطورات تتسارع حتى عقد العرب السوريون عام ١٩١٣ مؤتمرا فى باريس ضم جمعية العربية الفتاة وحزب اللامركزية واللجنة الاصلاحية ، وقد عقد هذا المؤتمر فى باريس ، ولكن مطالب هذا المؤتمر لم تخرج عن المطالبة بمساواة جميع رعايا الدولة العثمانية فى الحقوق والواجبات ، ولم ترق أهداف المؤتمر إلى المطالبة بالانفصال عن الدولة العثمانية ، ولكن هذا المؤتمر جذب الاهتمام الأوربى لأهمية موقع الشرق الأدنى وسوريا ، ومن الواضح أن الصراع العربى مع الدولة العثمانية أثار مطامع انجلترا وفرنسا فى وراثة تركة الرجل المريض على النحو الذى سيلى فيما بعد ، **ولقد وضحت أهمية سورية الاستراتيجية بعد دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا** لأنها أصبحت الممر الوحيد بين الأناضول وباقى أجزاء المنطقة العربية وخاصة مصر حيث رغبت تركيا منذ بدء الحرب فى احتلال قناة السويس والسيطرة على مصر لحرمان الأنجليز

من موقعها الاستراتيجى الحساس ، ونظرا لأهمية سورية فقد عينت الدولة التركية أحد قادتها الكبار وهو جمال باشا حاكما عسكريا عليها ، وهو الذى اشتهر بلقب السفاح بسبب الاعدامات التى نفذها ضد الوطنيين بهدف تدعيم سلطته وادخال الرعب فى قلب من يقاومونه .

نعود فنقول أنه بعد ان خابت آمال الوطن العربى ، وخرج من محنة اليمة ليقع فى محنة أشد ايلاما منها ، وضع الاستعمار سياسة تقطيع أوصال المنطقة العربية ، وقتل وسائل المقاومة فى الأمة واضعاف روح التماسك فيها بحيث تخضع لارادته وتذل لسلطانه وتستكين لجبروته ، **وكما يقول الرئيس حافظ الأسد : « فقد عبث الاستعمار بكل معنى كريم وكل وضع صالح فى الوطن العربى وأرهق الأمة العربية بالفقر والبؤس والحرمان وساقها الى متاوه الجهل ، وهكذا انفرط عقد الوطن العربى بفعل الاستعمار وشاعت فى جنباته عوامل الهدم والتدمير ، ولكن العرب كالعهد بهم لم يستكينوا لهذا الحال ، ولم يرضخوا للمذلة والهوان** ، فهم أبناء أمة عريقة فى المدنية ، ضاربة فى أعماق المجد ، أمة كتبت الفصول الأولى فى تاريخ الانسانية ، فضلا عن أن هذه الأمة العربية تنطوى على أكرم العناصر وأطيب المنابت ، تغذت من ينابيع الحكمة والمعرفة وتمكنت منها فكرة الحق والهدى والعدل ، فقدمت للانسانية أطيب ثمار هذه الفكرة ، وساهمت فى إسعاد الانسانية ، ولقد بدأ الركب يسير إلى غاياته نحو صبح مشرق ، وبدات المشاعر العديدة الكريمة تنتظم هذا العالم الكبير ، فتهز الطيب من أعراقه والأصيل من صفاته وغرائزه والدفين من ماضيه لتجعل منه كما كان أمة واحدة تعيش على هدى فكرة واحدة هى العدل والحق وتعمل كالعهد بها على نصرة الخير وإسعاد البشر .. لقد اندلعت الثورات فى أرجاء الوطن العربى ضد الاستعمار تعمل على دك معاقله وتدمير حصونه وانزال الضربة القاضية به ، والقضاء المبرم عليه حتى تتخلص من مآسيه وتتطهر من آثامه ، وشروره » .

حكم فيصل بن الحسين لسورية

□□ **بعد تحرير دمشق من الحكم التركى عين الجنرال اللنبى القائد العام لجيوش الحلفاء فى منطقة الشرق الأوسط الأمير فيصل بن الحسين حاكما على الجزء الداخلى من سورية فقط** ، فى حين رفض منحه صلاحية الاشراف على أى جزء من الساحل السورى واللبنانى والفلسطينى ، وقد اذعن فيصل لأوامر اللنبى فى حين أنه كان قد أعلن فى ٥ اكتوبر تشرين ١٩١٨ تأليف حكومة عربية تشمل جميع البلاد السورية (أى لبنان وفلسطين وشرق الأردن بالاضافة إلى سورية) ولكن هذه الدولة العربية التى أسسها فيصل وجعل عاصمتها دمشق لم تمكث طويلا فقد تلاحقت الأحداث الخارجية التى عجلت بالقضاء عليها وهى فى مهدها ، ذلك أن هذه الدولة الجديدة كانت تضم

المناطق التى تقرر اعطاؤها لفرنسا طبقا لاتفاقية « سايكس بيكو » السرية المبرمة بين الحلفاء عام ١٩١٦ ، وقد أصرت فرنسا على تنفيذ هذه الاتفاقية وترتب على هذا الاصرار من جانب فرنسا اخفاق الأمير فيصل فى الحصول على موافقة مؤتمر الصلح (الذى عقد فى فرنسا عام ١٩١٩ على انشاء الاتحاد أو الحلف العربى الذى سبق أن وعد الحلفاء والده به اثناء الحرب ، وجاء ذكره فى المراسلات المتبادلة بين الحسين ومكماهون .

ولكن الحلفاء كانوا يظهرون شيئا ويضمرون شيئا آخر، فقد دبروا مؤامرة فى الخفاء تهدف إلى تقطيع أوصال الوطن العربى وتقاسمه فيما بينهم قسمة الغنائم والاسلاب ، ولكنهم ظهروا خلال الحرب بمظهر الأصدقاء المخلصين للعرب وأنهم يعملون لانقاذهم من ظلم الأتراك ومساعدتهم فى معركة التحرير والاستقلال ، وهم بهذا المظهر الكاذب والشعور المصطنع كانوا يخدمون أنفسهم ويحاولون كسب ود العرب ومساعدتهم ليكسبوا الحرب ضد تركيا وألمانيا .

ان أطماعهم ومصالحهم الخاصة هى التى توجههم فى رسم سياستهم دون أن يحفلوا بمبادىء الشرف فى تعاملهم مع الغير .

ان سياسة الحلفاء رسمت على أساس انتزاع الوطن العربى من تركيا ثم احتلاله بعد ذلك بأى وسيلة، وتنفيذا لهذه السياسة أصدر مؤتمر الصلح فى ٣٠ يناير كانون الثانى عام ١٩١٩ قرارا بفصل البلاد العربية عن تركيا ثم أصدر المؤتمر قرارا آخر فى ٢١ مارس بايفاد لجنة تحقيق دولية لدراسة أحوال تلك البلاد العربية وتبين رغبات أهلها .

وفى ٢٨ ابريل من العام نفسه صدق المؤتمر على ميثاق عصبة الأمم ، وقد ابتكر الميثاق فى المادة ٢٢ منه نظام الانتداب .

ونذكر بخصوص اللجنة التى أوفدها المؤتمر لدراسة وبحث الوضع فى البلاد العربية أن هذه اللجنة (هى لجنة أمريكية قامت بمهمتها فى سورية ثم عادت إلى باريس فى سبتمبر عام ١٩١٩ لتقدم تقريرها إلى المؤتمر) .

ولكن حدثت مفاجأة غيرت مجرى الأمور، ذلك أن الشعب الأمريكى تخلى عن رئيسه (ولسن) فاضطرت اللجنة الى العودة فورا إلى أمريكا حيث قدمت تقريرها الى حكومة واشنطن وقد تضمن التقرير توصية من اللجنة برفض مطالب الصهيونيين ، واقتراحا بضم فلسطين لسورية وأقسامها الأخرى ، وكانت اللجنة ترى أيضا ضم لبنان إلى سورية على أن يتمتع باستقلال ادارى واسع .

ولم يؤخذ بتقرير هذه اللجنة بعد انسحاب أمريكا من مؤتمر الصلح وبذلك خلا الجو لانجلترا وفرنسا .

وفى ١٢ سبتمبر أيلول عام ١٩١٩ أرسل لويد جورج إلى الأمير فيصل والحكومة الفرنسية مذكرة تضمنت عدة بنود مفادها :

١ـ انسحاب الجيوش الانجليزية من سورية فى أول نوفمبر تشرين الثانى عام ١٩١٩ .

٢ـ حلول الجنود الفرنسيين محل الحاميات البريطانية .

٣ـ بقاء الجنود الانجليز فى العراق وفلسطين .

ومعنى هذه البنود أن انجلترا نفضت يدها من سورية تماما وأطلقت يد فرنسا فيها .

وما كاد الأمير فيصل يتلقى هذه المذكرة حتى رد عليها بمذكرة وجهها إلى (لويد جورج) وقد ضمن هذه المذكرة احتجاجه على ما ورد بالمذكرة الانجليزية التى تهدف إلى تقسيم البلاد والعمل على تجزئتها ، وذكر أن تصرف الانجليز فيه خروج صارخ على مبادىء العدالة وليس هذا هو الموقف الذى كان يتوقعه العرب من الحلفاء بعد وعودهم ومواثيقهم خلال الحرب .

وذكر فيصل أنه فى حالة انسحاب الجيش البريطانى من سورية فيجب أن تنسحب أيضا سائر الجيوش الأجنبية، وتترك المسئولية للجيش العربى ، وأشار فيصل إلى أن تصرف انجلترا المستند إلى اتفاقية سايكس بيكو السرية لا يلزم العرب ولذلك فإنهم يرفضون تجزئة بلادهم ولا يعترفون بأى اتفاق لم يكن لهم به علم .

وفى يناير كانون الثانى عام (١٩٢٠) استطاع الأمير فيصل أن يعقد اتفاقا مع (كليمنصو) رئيس وزراء الحكومة الفرنسية .. تقرر **بمقتضاه الاعتراف باستقلال سورية مع خضوعها لنوع من النفوذ والاشراف الفرنسى** ، ولكن سرعان ما اعتزلت حكومة كليمنصو الحكم وترتب على ذلك سقوط الاتفاق المعقود مع فيصل لأن الحكومة الجديدة لم تعترف به .

والواقع أن من يطلع على هذا الاتفاق يجده وثيقة للحماية ، وليس وثيقة للاستقلال ويجده مليئا بالشروط والقيود التى تسلب سورية سيادتها الداخلية والخارجية ويجعلها تحت حماية فرنسا إذ لم يعترف الاتفاق بحق سورية فى التمثيل الخارجى وانما سلبها هذا الحق ، وجعل ممثل فرنسا فى سورية يدعى مفوضا ساميا وليس وزيرا مفوضا أو سفيرا ، ووصف ممثل فرنسا بهذا الوصف يتنافى مع فكرة الاستقلال ، ونص الاتفاق على اشتراك فرنسا مع سورية فى تنظيم جبل الدروز وجعله مستقلا استقلالا داخليا ، وهذا الاشتراك مناف أيضا للاستقلال ، كما نص الاتفاق على وجوب تدريس اللغة الفرنسية فى المدارس والمعاهد السورية اجباريا وجعلها متميزة على غيرها ، ولم يرد بالاتفاق شىء عن الاعتراف

بضم سواحل سورية إليها ، وكانت تلك السواحل خاضعة للادارة الفرنسية ، وكانت نية فرنسا واضحة فى هذه المسألة إذ كانت متجهة إلى فصلها عن الداخل.

وجملة القول أن فرنسا كانت تعمل على تفتيت وحدة البلاد حتى يسهل عليها حكم البلاد عبر سياسة « فرق تسد ».

ونذكر أن الانجليز هم الذين مهدوا لهذا الاتفاق، وأبلغوا الأمير فيصل ضرورة التفاهم مع فرنسا لتسوية الوضع الخاص بسورية ، وقد كان فيصل نظرا لقلة خبرته حذرا بخصوص هذا الاتفاق فاحتاط للأمر ، وجعل موافقته النهائية عليه مرهونة بقبول الشعب السورى له ، ولما عاد الى دمشق فى يناير كانون الثانى عام ١٩٢٠ عرض مشروع الاتفاق على رجال السياسة والوطنيين فقرروا رفضه نهائيا نظرا لما يتضمنه من اهدار لسيادة سورية فى الداخل والخارج فضلا عن تفتيت وحدة البلاد.

وفى ٨ مارس آذار عام ١٩٢٠ اجتمع مؤتمر سورى وأعلن استقلال سورية بما فيها فلسطين، وأصدر عدة قرارات هامة تعبر عن رأى أهل البلاد وتترجم شعورهم وتبين أمانيهم وخلاصة هذه القرارات هى :

- **استقلال البلاد السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالا تاما.**
- **الاعتراف بالأمير فيصل ملكا دستوريا على سورية.**
- **مراعاة أماني اللبنانيين الوطنيين فى ادارة شئون لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب على أن يكون فى معزل عن كل تأثير أجنبى فيه.**
- **رفض مزاعم الصهيونية فى جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود أو محل هجرة لهم.**
- **وفيما يتعلق بالعراق نظرا لما بينه وبين الشام من صلات وروابط لغوية وتاريخية وجنسية واقتصادية وجغرافية مما يجعل القطرين لا يستغنى أحدهما عن الآخر طالب بيان المؤتمر باستقلال العراق استقلالا تاما على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسى اقتصادى.**

ولما كانت قرارات المؤتمر السورى منافية لمطامع فرنسا فى سورية ولبنان ، ومتعارضة مع مطامع انجلترا فى فلسطين وشرق الأردن والعراق **فإن الدولتين (انجلترا وفرنسا) قررتا عدم الاعتراف بها**، وأبلغتا « فيصل » بهذا القرار.

وفى ابريل نيسان عام ١٩٢٠ عقد مؤتمر (سان ريمو) (مجلس الصلح الأعلى) وأبرمت اتفاقات بين انجلترا وفرنسا تقضى بتقاسم الانتداب فى الشرق الأدنى ، وأسفر المؤتمر عن وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، وفلسطين وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب الانجليزى ، ومما قرره المؤتمر أيضا أن تتنازل فرنسا عن ولاية الموصل لانجلترا فتتبع هذه الولاية العراق بدلا من سورية ، وأخذت فرنسا مقابل ذلك حصة من نفط الموصل تساوى ٢٣,٧٥٪ من ناتج النفط ، ولما كسبت انجلترا هذه الصفقة اعترفت

بانتداب فرنسا على سورية ، وبذلك باعت انجلترا سورية وصداقة العرب بنفط الموصل .

وبناء على قرارات مؤتمر (سان ريمو) بدأت فرنسا تنفذ سياستها وتستخدم قوتها لوضع الانتداب موضع التنفيذ العملي فأرسل الجنرال (جورو) انذارا الى فيصل فى ١٤ يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ وطلب منه الاعتراف بالانتداب الفرنسى ، وانقاص عدد الجيش السورى ، والغاء الخدمة العسكرية والتعامل بالعملة الفرنسية فى سورية ، والسماح باحتلال القوات الفرنسية لحلب .

وقد قبلت حكومة فيصل الانذار الفرنسى بشروطه القاسية وارسلت كذلك برقية للجنرال الفرنسى « جورو » تسلم فيها بقبول الانذار وانها شرعت فى تنفيذه ولم ينتظر الجنرال جورو بعد ارسال الانذار ، وأمر قواته بالزحف على دمشق لينهى الحكم العربى فى سورية ، وادعى كاذبا أن تفاصيل قبول الانذار لم تصل اليه فى الساعة المحددة .

وواقع الأمر ، وهذا ما تجمع عليه معظم المصادر التاريخية ان اذعان الأمير فيصل لأوامر اللنبى القائد العام لجيوش الحلفاء فى منطقة الشرق الأوسط ثم استمراره فى سياسة الخضوع للسياسة البريطانية ، وهى السياسة التى أكدها فى خطابه الذى القاه فى مدينة حلب والذى قال فيه أن للحكومات الغربية وخاصة انجلترا وفرنسا اليد البيضاء فى مساعدتنا وشد أزرنا ، ولم ينس العرب ماداموا على وجه البسيطة فضل معاونتهم ، ونسى فيصل أو تناسى ان هذه الايادى هى التى اقتطعت بلاد العرب وتقاسمتها واجهضت مشروع أول دولة موحدة فى تاريخ العرب الحديث .

والواقع ان الأحزاب السياسية شغلت دورا غير حازم فى تلك الأونة فهى وقد رات فيصل يقدم التنازل تلو التنازل عن الطموحات العربية فى الحرية والاستقلال فإن هذه الاحزاب لم تتخذ من الناحية العملية أى اجراء أو أى موقف حازم تجاه سياسة التفريط التى انتهجها فيصل فى حق الأمة العربية وأراضيها ، غير أن الشعب فى سورية كان له رأى مغاير ، وفور وصول أنباء توصل فيصل وكليمنصو الى الاتفاقية التى تخلى فيها فيصل عن الوحدة العربية ، واعترف بوضع لبنان تحت الانتداب الفرنسى الصريح واعترف بانفصال فلسطين عن سورية قرر الزعماء الوطنيون المتحمسون وسط هياج الشعب ضد فيصل ـ الذى اتهم بالتآمر ـ مقاومة الاتفاقية ، وأخذت الاحداث مسارا عنيفا جديدا عندما حاول الملك فيصل وهو بين نارين .. نار الشعب السورى الثائر لكرامته ، ونار الجيش الفرنسى المندفع إلى المرتفعات خارج دمشق بكل قوته وغطرسته ، رأى أن يجمع الوزارة ويبحث معها انذار الجنرال (جورو) الذى لم يعد يقبل ببقاء جيشه فى منطقة (عين جديدة) ولا فى محطة (التكية) وهما موقعان مهمان قريبان من العاصمة السورية ورأى أن تعسكر قواته فى (ميسلون) ريثما يتفق على موضع آخر تحل فيه

القوات الفرنسية ، وميسلون تقع على مسافة قريبة من غربى دمشق وهى مكان استراتيجى ممتاز ، وتعد مفتاح العاصمة .

وعندما ازداد صلف وغرور الجنرال جورو تصدى له السوريون بقيادة يوسف العظمة وزير الدفاع للقوات الفرنسية ، وحدثت بين الفريقين معركة بالقرب من دمشق التى كانت تغلى كالمرجل فى ٢٤ يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ تعرف بمعركة « ميسلون » ، واستشهد فى المعركة يوسف العظمة .

وارتد السوريون عندما نفدت ذخيرتهم ، وفى ٢٥ يولية دخل الجيش الفرنسى دمشق ، وغادرها فيصل فى ٢٨ يوليو (وتولى عرش العراق فيما بعد) .

وعندما انتهى عهد حكومة فيصل فى سورية بدخول الفرنسيين دمشق ، بدأ عهد جديد ، هو عهد الانتداب والاحتلال ، وهو عهد مظلم ضاع فيه استقلال البلاد ، وتزعزعت آمال ابنائها فى اعادة مجد الأمة العربية .

وبدأت فرنسا فى تنفيذ خططها الاستعمارية فى المنطقة ، وهذه الخطط كانت تستهدف تقسيم سوريا وتقطيع أوصالها ولذلك أصدر (جورو) قرارا بتقسيم المنطقة الى أربع دويلات منفصلة عن بعضها بعضا وهى لبنان وقد عملت فرنسا على توسيع هذه المنطقة فأضافت اليها بيروت وطرابلس وصور وصيدا والأراضى الممتدة الى الحدود الفلسطينية ، ودولة دمشق (ويدخل فيها جبل الدروز) ودولة حلب (ويدخل فيها لواء الاسكندرونة) ودولة العلويين (وتشمل لواء اللاذقية) .

ولكن هذا التقسيم لم يثبت على هذا الوضع وانما طرأت عليه تغييرات عديدة ، وكان الفرنسيون يدعون أن سكان المقاطعات السورية هم الذين يريدون أن ينفصل بعضهم عن بعضهم الآخر على الشكل المذكور ، ولكن هذا الادعاء ـ من قبل فرنسا ـ باطل لا يستند الى أى أساس سليم مشروع ، وانما هذه التجزئة والتفرقة ترجع الى سياسة استعمارية اتبعتها فرنسا فى بلاد الشام لتسيطر وتسود فيها .

وظلت البلاد مقطعة الأوصال بهذه الصورة البشعة الى عام ١٩٣٦ حيث تم الاتفاق فى معاهدة على ضم مقاطعتى جبل الدروز والعلويين الى الدولة السورية (دمشق ـ حلب) وتم هذا الضم بناء على قرارين أصدرهما المندوب السامى فى ديسمبر كانون الأول عام ١٩٣٦ وعاشت سورية فى ظل حكومة وطنية لمدة عامين (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨) ذاقت خلالهما طعم الوحدة الوطنية .

ولكن الفرنسيين عادوا الى سالف عهدهم وسابق سياستهم الاستعمارية الهدامة فنكثوا بمعاهدة ١٩٣٦ وأخذوا يتآمرون على الحكومة الوطنية ويكيدون لها ويضعون العراقيل فى طريقها حتى انتهى الامر باستقالة رئيس الجمهورية السورية عام ١٩٣٩ وفى هذا الجو الارهابى الفاسد اسرفت فرنسا الاستعمارية فى تدخلها بشئون البلاد ،

وتطرفت فى تصرفاتها الشاذة ، ولما رفض الوطنيون قبول الحكم عادت فرنسا الى مباشرة جميع الشئون علنا واصدر المندوب السامى قرارات بتوسيع الاستقلال الداخلى فى جبل الدروز والعلويين

تلك هى سياسة فرنسا فى انتدابها على سورية ، وهى سياسة مدمرة تعمل على هدم كيان البلاد واذلال أبنائها وتحطيم معنوياتهم والاستيلاء على خيرات بلادهم وحرمانهم منها ، وطيلة مدة الانتداب وفرنسا تعمل فى سورية على التفريق بين المقاطعات والعناصر والطوائف حتى تظل مسلطة على الجميع .

ولا جدال فى أن هذه السياسة كانت على عكس ما تدعيه فرنسا من انها جاءت الى سورية منتدبة من قبل عصبة الامم لكى تهيىء السوريين للاستقلال التام ، وانما كانت تبذل كل ما فى وسعها لاطالة مدة سيطرتها المطلقة على البلاد، وبلغ تهوس فرنسا فى سورية درجة شنيعة لا يقرها العقل بتاتا اذ أطلقت ضباط مخابراتها لتحريض نصارى الجزيرة على مقاومة سلطة الحكومة السورية ، حتى يقيموا فيها حكما لا مركزيا ومحافظا فرنسيا ، وقد تمكنوا من تعيين محافظ فرنسى للجزيرة عام ١٩٣٩ وعملوا على فصلها عن الدولة السورية ، ولكن الحرب الكونية الثانية ادركتهم فأوقفت سياستهم ، ولم تمكنهم من تحقيق اغراضهم .

ونسجل هنا أن فرنسا سلمت منطقة لواء الاسكندرونه. وكانت تابعة للدولة السورية الى تركيا متبعة فى هذه المسألة أحط السبل (وكان ذلك فى عام ١٩٣٩) ومن قبيل التنكيل بالسوريين الذين ثاروا عليهم ، نذكر ايضا ان المندوب السامى أوقف الدستور السورى (الذى كان قد صدر بقرار من المندوب السامى عام ١٩٣٠) وعين مجلسا من المديرين يتولى ادارة البلاد تحت اشرافه ، وعلى العموم كان المندوب السامى الفرنسـى يسيطر سـيطرة تامة على شـئون سورية الداخلية بحيث لا يبرم أمـر فى الداخل أو الخارج إلا عن طريقه وبموافقته ، وعلى ذلك فإن الدستور لم يكن شيئا ذا اهمية كبيرة بالنسبة للبلاد لان مرد الأمور فى الواقع كان فى جميع الأوضاع فى يد الفرنسيين .

كان هذا هو الوضع فى سورية عندما قامت الحرب العالمية الثانية، ولما انهارت فرنسا وتولت حكومة (فيشى) مقاليد الأمور فيها (حكومة المارشال بيتان) كادت سورية ولبنان تخضعان للسيطرة الألمانية لأن المندوب السامى حينئذ (وهو الجنرال دنتز) أعلن ولاءه لحكومة فيشى ولكن بعض القوات البريطانية والفرنسية (من قوات فرنسا الحرة) استطاعت فى صيف عام ١٩٤١ دخول سورية واحتلالها احتلالا مشتركا ، وفى يونية ١٩٤١ أعلن الجنرال كاترو ممثل فرنسا باسم حكومة فرنسا الحرة انهاء الانتداب واستقلال سورية (وكذلك لبنان) وأعلن قيام الجمهورية السورية المستقلة ، وبرغم هذا

الاعلان وقيام حكومة وطنية فى سورية فقد تلكأ الفرنسيون فى تسليمها السلطة الفعلية وحاولوا فرض معاهدة على سورية تربطها بفرنسا ربطا مؤبدا ، ولكن الشعب السورى أصر على الرفض الامر الذى أثار أحقاد الفرنسيين فأطلقت قواتهم مدافعها على المدن السورية الرئيسية وقذفتها الطائرات بقنابلها ، وهدمت دار المجلس النيابى فى دمشق ، ولكن القوات البريطانية تدخلت فى المعركة التى تعتبر من طرف واحد (وكان هذا التدخل بناء على تعليمات تشرشل رئيس الوزراء البريطانى وأوقفت الفرنسيين عند حدهم ، ولكن الوضع - على الرغم من ذلك - لم يتغير إذ ظل الاحتلال الفرنسى رابضا فى سورية ولبنان .

وازاء هذا الموقف لم تجد الحكومة السورية بدا من عرض قضيتها على الامم المتحدة للمطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها جلاء تاما نافذا ، وقد دافعت سورية عن حقوقها أمام الامم المتحدة ، وكان دفاعها قويا لأنها كانت تطالب بحق أصيل هضمه المستعمر ظلما وعدوانا ، وبالمحصلة قررت الحكومة الفرنسية الجلاء عن سورية ، وبعد جلاء المستعمر وخروج أخر جندى فرنسى من سورية فى ١٧ نيسان ابريل عام ١٩٤٦ اهتمت الحكومة الوطنية بأمر الجيش وتقويته ، وقد خاض الجيش السورى حرب فلسطين مع بقية الجيوش العربية ضد الدولة الصهيونية ، ولكن الحرب انتهت بهزيمة الجيوش العربية ، **وكانت هذه الهزيمة الحربية من الأسباب المباشرة فى حدوث انقلاب فى سورية فى ٣٠ مارس عام ١٩٤٩ على يد حسنى الزعيم رئيس أركان حرب الجيش** ، وكان الجميع متأثرا باخفاق العرب فى حرب فلسطين ، ويدعو إلى تقوية الجيش فى ظل النظام الجديد والثأر للهزيمة واسترداد حقوق العرب المسلوبة فى فلسطين ، ولكن مدة حكم حسنى الزعيم لم تطل ، **وحدث انقلاب جديد برئاسة سامى الحناوى** استمر فترة وجيزة ، ثم حدث انقلاب بزعامة أديب الشيشكلى ، وهكذا توالت الانقلابات العسكرية فى سورية وتعرضت البلاد لهزات عنيفة، وانتاب الشعب السورى القلق على مصير البلاد من هذه الإنقلابات غير الهادفة لصالح الشعب ، والتى كانت تهدد الكيان السورى وتفتح الباب أمام العدو الخارجى ، وقد عزم الشعب على انهاء هذا الوضع الخطر فقامت ثورة ضد أديب الشيشكلى وقضت عليه ، ثم تولى رئاسة الدولة هاشم الاتاسى لفترة وجيزة ريثما تجرى انتخابات فى البلاد **وانتهى الأمر بتولى شكرى القواتلى رئاسة الجمهورية** ، وقد انتهج سياسة عربية قومية وعمل على التقريب بين سورية وجيرانها العرب وساعد على اذكاء مبدأ القومية العربية ونشره بأنه سبيل العرب الى التوحد والقوة والاستقلال ، وقد تم فى عهده اتحاد سورية مع مصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، وبذلك دخلت سورية فى مرحلة تاريخية جديدة وتوجت جهادها الطويل الرائع بخطوة جديدة ثم تتابعت الاحداث على النحو الذى سنعرض له فى فصل قادم .

الأسد : الجلاء الأصغر والجلاء الأكبر

□□ **شكل السابع عشر من ابريل نيسان ١٩٤٦ ، يوم جلال المحتلين عن أرض سورية، تتويجا لمرحلة كفاحية طويلة ،** خاضها الشعب العربى السورى للتخلص من الانتداب الفرنسى ، ومواجهة المخططات الاستعمارية والصهيونية الرامية الى اقتطاع فلسطين وجعلها (وطنا قوميا) للصهاينة .

لقد كان السابع عشر من ابريل نسيان ١٩٤٦ نهاية أو تتويجا للجهاد الأصغر الذى خاضه الشعب السورى، وبداية للجهاد الأكبر، المتمثل فى الكفاح من اجل تحقيق أهداف الأمة العربية التى أعلنها حزب البعث العربى الاشتراكى عند تأسيسه فى السابع من ابريل نيسان سنة ١٩٤٧ كأهداف له ، وتبنى حركة القومية العربية المعاصرة ، وهى الوحدة والحرية والاشتراكية .. كان الجلاء عن سورية ايذانا ببدء الجهاد الأكبر ، لأن سورية كانت أول دولة عربية تحقق انجاز طرد المستعمرين ، والتخلص من احتلالهم دون شروط . أو اتفاقيات تكبل حريتها ، أو تحد من سيادتها ..

سورية لم تنظر الى تحقيق الجلاء كإنجاز قطرى ، ولم تكتف به ، ولكنها اعتبرته خطوة على طريق تحرر باقى الاقطار العربية واستقلالها ، وعلى طريق مواجهة الخطر الصهيونى ، وتحرير فلسطين ، فى انهاء التجزئة التى فرضها المستعمرون ، وبناء دولة الوحدة العربية ، كانت رؤية سورية هذه امتدادا لرؤيتها التى عبرت عنها ، وسعت اليها بوضوح منذ مطلع هذا القرن ، فقد كانت سورية وماتزال منبعا للفكر ، والعمل القومى العربى بكل صيغه وأشكاله ، فالفكر القومى العربى نشأ ، وترعرع ، وتبلور فى سورية ، ولذلك كرس المستعمرون خططهم وجهودهم من أجل تمزيق الوطن العربى ، فكانت التجزئة التى فرضها المستعمرون على سورية ، وكان الوعد الاستعمارى (وعد بلفور) للصهاينة بإقامة (وطن قومى لهم) فى فلسطين ليكون حارسا لهذه التجزئة ، ومانعا لوحدة العرب ، ومعرقلا لتقدمهم .

ولم يكن هذا كله داعيا للاستسلام أو التقاعس ، بل كان باعثا لمزيد من الكفاح ، ففى الوقت الذى كان فيه الشعب السورى يخوض غمار الكفاح ضد المحتلين الفرنسيين ، كان يشارك بكل مايستطيع فى دعم كفاح الشعب العربى الفلسطينى ضد المحتلين البريطانيين وضد العصابات الصهيونية ، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك هو الدعم الذى قدمته سورية لثورة الشعب الفلسطينى عام ١٩٣٦ .

مع جلاء المحتل الفرنسى ، بدأت سورية العمل فى الساحة العربية لتنبيه العرب الى

المخاطر التى ستنجم عن احتلال الصهاينة لفلسطين والأهداف العدوانية ، والتوسعية التى يسعى الصهاينة الى تحقيقها عند اقامة كيانهم فيها . وقد أفلحت جهود سورية آنذاك ، وفى اطار تحقيق ماهو ممكن فى ظل الأوضاع الدولية والاقليمية السائدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فى اتفاق الدول العربية المستقلة وقتئذ على تأسيس جامعة الدول العربية كاطار عربى يمكن من خلاله توحيد الصف والجهد العربى لمجابهة الأخطار والتحديات الاستعمارية والصهيونية .

ومنذ ذلك الحين تمكنت سورية من جعل القضية الفلسطينية القضية القومية العربية الأولى ، والبند الأول والرئيسى على جدول أعمال الدول العربية باعتبار ان الخطر الصهيونى فى فلسطين خطر على كل العرب يهدد حاضرهم ومستقبلهم جميعا .

وكان من نتيجة ذلك عام ١٩٤٨ ، وبعد اعلان الصهاينة عن اقامة كيانهم فى فلسطين اشتراك الجيوش العربية فى الحرب ضد هذا الكيان دفاعا عن عروبة فلسطين ، وتشكيل جيش الانقاذ الشعبى العربى الذى كان قوامه الأساسى من أبناء الشعب العربى السورى .

وعلى الرغم من الظروف التى احاطت بتلك الحرب، والنتائج العسكرية التى انتهت إليها نتيجة للاختلال الكبير فى ميزان القوى لغير صالح العرب ، فقد ساهمت سورية بنصيب وافر فى قيادة الموقف القومى العربى ، والذى تمثل فى رفض الاستسلام لتلك النتائج ورفض الاعتراف بالكيان الصهيونى ، ورفض تحويل خطوط الهدنة الى حدود معترف بها ، والتمسك بالحقوق العربية فى فلسطين ، وفرض اجراءات المقاطعة العربية على الكيان الصهيونى .

وتعرضت سورية نتيجة ذلك لحملة مكثفة ومركزة من جانب القوى الاستعمارية استهدفت أضعاف مكانتها القومية وادخالها فى دوامة من الانقلابات العسكرية للحيلولة دون استقرار الأوضاع فيها ، ودون تمكينها بالتالى من الاستمرار فى اداء دورها القومى الريادى المتميز .

وكما كان حال سورية دوما ، تزداد قوة وصلابة كلما ازدادت التحديات والأخطار التى تواجهها ، فقد ردت ردا استراتيجيا كبيرا على هذه التحديات باعلانها الوحدة مع مصر فى الثانى والعشرين من شباط (فبراير) عام ١٩٥٨ ، وصنعت بذلك أول وحدة عربية فى تاريخ العرب المعاصر ، وأول رد استراتيجى عربى فى المعركة الاستراتيجية الكبرى التى فرضت على الأمة العربية منذ مطلع هذا القرن .

وما ان وجهت القوى الاستعمارية ضربتها لدولة الوحدة الفتية من خلال الانفصاليين

فى الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ حتى بادرت سورية بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى الى الرد على هذه التحديات وفى اطار المعركة ذاتها ، الى تفجير ثورة الثامن من آذار (مارس) عام ١٩٦٣ التى شكلت بداية مرحلة جديدة تركت ومازالت تترك انعكاساتها ومضامينها الايجابية على مجمل الوضع العربى .

ومع انطلاقة ثورة الثامن من آذار فى سورية، ومع تحسين الأوضاع العربية إثر حصول معظم الأقطار العربية على استقلالها وبخاصة انتصار الثورة الجزائرية ، والتحسن الذى طرأ فى المناخ الدولى وفى علاقات العرب الدولية ، وبخاصة مع الاتحاد السوفيتى ، **فقد استعادت سورية دروها القومى** ، وبادرت بنشاط الى العمل من أجل تمتين الجهد القومى وتوحيد الصف العربى فى مواجهة الخطر الصهيونى ، ومن أجل العمل على استرجاع الحقوق العربية المغتصبة فى فلسطين فكان قرار القمة العربية عام ١٩٦٣ بتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان قرار القمة بتشكيل جيش التحرير الفلسطينى .

ولم تكتف سورية بذلك بل هيأت كل ما استطاعت من أجل دعم انطلاقة الثورة الفلسطينية المسلحة فى مطلع عام ١٩٦٥ ، وكانت الأرض التى انطلقت منها هذه الثورة فى كفاحها من أجل تحرير فلسطين واستعادة الحقوق الوطنية الفلسطينية المغتصبة .

وقد ردت القوى المعادية على ذلك بالعدوان الذى شنته اسرائيل فى الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، على مصر وسورية والأردن مستهدفة تحقيق أطماعها التوسعية باحتلال المزيد من الأراضى العربية ، واعادة طمس القضية الفلسطينية والشخصية الوطنية الفلسطينية وفرض الحلول الصهيونية لتصفية القضية الفلسطينية وفرض الاستسلام على العرب واجهاض التطلعات التى عبرت عنها مؤتمرات القمة العربية نحو المزيد من وحدة الموقف والعمل القومى العربى .

لقد ردت سورية على ذلك برفض الاستسلام أيا تكن النتائج ومتابعة درب الكفاح أيا تكن التضحيات ، وبالعمل على أكثر من محور وقد تمثل ذلك فى النقاط التالية .

١ـ تعزيز القوة العسكرية السورية والعربية.

٢ـ تقديم المزيد من الدعم لفصائل الثورة الفلسطينية

٣ـ العمل على ادماج الفصائل الفلسطينية فى اطار منظمة التحرير الفلسطينية لتوحيد الجهد الفلسطينى وبلورة صورة الشخصية الوطنية الفلسطينية المناضلة .

٤ـ الحيلولة دون رضوخ العرب لمشيئة اسرائيل ، وقد تمثل ذلك فى قرارات قمة الخرطوم الشهيرة.

٥ـ اعادة النظر فى علاقات سورية والعرب الدولية ، والعمل على تعزيز العلاقات وتنميتها مع الاتحاد السوفيتى والدول الأخرى المؤيدة والمساندة للحقوق العربية فى مواجهة العدوان الاسرائيلى.

وتمثل رد سورية الاكبر على هذه التحديات فى قيام الحركة التصحيحية التى قادها الرئيس الأسد فى السادس عشر من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٧٠ .

فقد أعطت الحركة التصحيحية مضامين أقوى وأكثر فاعلية للجهد الكفاحى السورى والعربى، ونقلت هذا الجهد الى حيز العمل الجاد والدءوب من أجل تحقيق اهداف الأمة العربية .

وقد لخص الرئيس حافظ الأسد بعد سنوات معركة العرب القومية بقوله : « نحن الآن امام عمليتى عدوان : عملية استراتيجية وعملية تكتيكية . العدوان الاستراتيجى هو الذى أنتج التجزئة ، والعدوان الاستعمارى الاستراتيجى هو الذى انتج احتلال الأرض وتشريد مزيد من شعبنا العربى فى عام ١٩٦٧ . وكما علينا أن نناضل من أجل ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ ، علينا أيضا أن نناضل من أجل ازالة آثار ذلك العدوان الاستراتيجى الكبير الذى أنتج التجزئة .

ولو قدر لنا أن ننجح فى ازالة التجزئة ، فى ازالة آثار العدوان الاستراتيجى لاستطعنا بشكل آلى أن نزيل آثار العدوان التكتيكى لعام ١٩٦٧ » . بهذا الفهم العميق للصراع فى المنطقة قاد الرئيس حافظ الأسد الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ التى لم يقتصر عملها على تصحيح مسار ثورة البعث على الصعيد الداخلى السورى ، وإنما انطلقت لتصحيح الكثير من المفاهيم والأوضاع التى تعرقل العمل العربى من أجل الرد على العدوانين : الاستراتيجى والتكتيكى ، ردا قوميا فاعلا . فكان تأسيس اتحاد الجمهوريات العربية الذى ضم كلا من مصر وسورية وليبيا وكان انطلاقة جديدة للقمة العربية ودورا أكثر فاعلية لها ، وكان الاهم وهو حرب تشرين (أكتوبر) التحريرية فى السادس من تشرين الاول عام ١٩٧٣ تلك الحرب التى خاضتها سورية ومصر معا . وأسهمت فيها قوات عسكرية من عدد كبير من الاقطار العربية تأكيدا على التضامن العربى والمصير العربى فى مواجهة الخطر الاسرائيلى .

لقد حقق العرب فى تلك الحرب نتائج ايجابية كبيرة تمثلت فى انها شكلت ردا عربيا استراتيجيا كبيرا على التحديات والاخطار التى يمثلها استمرار العدوان الصهيونى على الأرض العربية . فقد رافق هذا الفعل العسكرى العربى الكبير الذى خاضته مصر وسورية تضامن عربى كفاحى اذهل اسرائيل ، وكل القوى المعادية التى سارعت الى الرد بمحاولة تفكيك الموقف العربى الواحد واحداث اختراقات فيه تفتح المجال واسعا لأشكال عدة من الصراعات والخلافات العربية ، وتتيح بالتالى استمرار العدوان الاستراتيجى واستمرار العدوان التكتيكى ، ولتحقيق ذلك عملت القوى المعادية على دفع القوى الانعزالية فى لبنان الى التحرك والعمل ضد القوى الوطنية اللبنانية وضد قوات الثورة

الفلسطينية بهدف تحويل لبنان الى محمية اسرائيلية تتيح لاسرائيل الفرصة لمزيد من التوسع فى الأرض العربية ولتهديد أمن سورية .

وكانت سورية أول من تنبه ، ونبه لهذه المخططات ولأهدافها العدوانية ، وبادرت الى التحرك فى الساحة العربية لتأمين الرد القومى المناسب وتمكنت من :

١ ـ تشكيل جبهة الصمود والتصدى العربية واعادة تنشيط الموقف العربى الرسمى والشعبى سواء من خلال مؤتمرات القمة أو من خلال المؤتمرات الشعبية للرد على المؤامرة الصهيونية الهادفة الى الاستفراد بمصر وعزلها عن الأمة العربية ، ولكن عودة مصر الى جامعة الدول العربية واستئناف علاقاتها مع الأقطار العربية . أحبط هذه المؤامرة .

٢ ـ الحفاظ على وحدة وعروبة لبنان من خلال المبادرة السورية فى لبنان ومن خلال قوات الردع العربية السورية التى قدمتها، ولاتزال تقدم التضحيات الكبيرة من أجل عودة السلام والاستقرار والوفاق الى ربوعه .

وسورية التى قدمت وتقدم مختلف أشكال الدعم لانتفاضة الشعب الفلسطينى ترى فى هذه الانتفاضة العامل الأكثر اشراقا فى الوضع العربى الراهن ، فى مقاومة الاحتلال الاسرائيلى ، وفى بناء موقف عربى قادر على الرد بقوة على التهديدات والمخططات الاسرائيلية العدوانية ، وهو ما تسعى سورية الى تحقيقه ، وما تدعو العرب اليه وتنبههم الى الأخطار المترتبة على استمرار تغييبه .

فاسرائيل ترى فى التطورات الجديدة على الساحة الدولية فرصة مواتية لمواصلة نهجها العدوانى التوسعى على حساب الأرض العربية تمكنها من تحقيق حلمها بإقامة اسرائيل الكبرى الممتدة من الفرات الى النيل . وهذا ما يحرص الرئيس الأسد منذ فترة على تنبيه العرب اليه وتحذيرهم من أخطاره .

وقد أكد الرئيس الأسد فى خطابه فى ١٩٨٩/٣/٨ ان « اسرائيل لا تريد السلام بل هى عدوة السلام العادل لأنها لا ترى فيه مصلحتها » وقال : « اسرائيل اغتصبت فلسطين وتريد أن تحتل أوسع أجزاء من الوطن العربى ليتم لها تحقيق هدف اسرائيل الكبرى الممتدة من النيل الى الفرات .

ان هذه حقيقة يجب أن تبقى ماثلة فى أذهاننا » .

ويفخر العرب الآن بما قدمته سورية من تضحيات فى لبنان فى مجابهة الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على أراضيه والتى كان اخطرها العدوان الاسرائيلى فى

مارس آذار ١٩٧٨ على مناطق واسعة فى الجنوب ، والغزو الاسرائيلى للبنان فى حزيران/ يونيو ١٩٨٢ حيث خاضت القوات العربية السورية معارك مشهودة فى بيروت والبقاع والجبل ضد القوات الاسرائيلية الغازية .

وهذه الحقيقة ، وحقيقة الخطر الاسرائيلى الذى يتهدد الوجود العربى ، هى التى جعلت الرئيس الأسد يقرع ناقوس الخطر فى خطابه .

لقد وقفت سورية الى جانب القوى الوطنية اللبنانية ، وقوات الثورة الفلسطينية تدافع عن عروبة لبنان فى مواجهة الغزاة الصهاينة ، وفى مواجهة قوات حلف الأطلسى التى تم انزالها على الأراضى اللبنانية لتجعل من لبنان محمية صهيونية . وقد أسفرت تلك المواجهات عن اجبار قوات المارينز وقوات الأطلسى وحاملة الطائرات « فورستال » وبوارجها على الانسحاب من أرض لبنان ، وهى تجر أذيال هزيمتها ، كما أسفرت عن اضطرار الاسرائيليين الى الانسحاب من معظم الأراضى التى احتلوها اثناء غزوهم للبنان ، وتوجت هزائم الغزاة العسكرية تلك بهزيمة مخططاتهم فى لبنان والتى تمثلت فى الغاء اتفاق السابع عشر من مايو أيار ١٩٨٣ وذلك بعد اقل من عام

وقد كان الغاء ذلك الاتفاق انتصارا كبيرا لسورية وللبنان وكل العرب ، والى جانب ذلك فقد عملت سورية على إقامة « جبهة » عربية ثالثة تمثلت فى سعيها الدؤوب من أجل تصليب الموقف الوطنى الفلسطينى وتدعيمه فى مواجهة المخططات ، والمؤامرات الهادفة الى تصفية القضية والحقوق الوطنية الفلسطينية ، وتمكنت بالفعل من كشف مرامى هذه السياسة وأبعادها الخطرة . وكانت مواقفها القومية هذه عاملا أساسيا فى تنمية وتعزيز روح المقاومة الفلسطينية للاحتلال والتى توجت بانطلاقة الانتفاضة الفلسطينية الباسلة فى الوطن المحتل فى نهاية ١٩٨٧ والمستمرة بقوة متصاعدة حتى تتحقق أهداف النضال الوطنى الفلسطينى فى التخلص من الاحتلال وبناء الدولة الفلسطينية المستقلة .

وهذه الحقيقة تشكل فى المرحلة الراهنة بؤرة استقطاب للجهد السورى العسكرى والسياسى والاقتصادى كى تمضى قدما فى طريق الجهاد الأكبر الذى تسير فيه منذ يوم الجلاء فى السابع عشر من نيسان/ ابريل ١٩٤٦ دون كلل أو ملل وقد عاهدت أمتها العربية على مواصلة السير فيه أيا تكن المخاطر والتحديات وأيا كانت جبهة الأعداء ، فلا خيار سوى هذا الخيار ، **وهو ما أكد عليه الرئيس الأسد فى خطابه فى آذار مارس ١٩٨٩ حين قال : « ان جهادنا يجب أن يكون بطول الزمن ، وإننا مازلنا فى بداية هذا الزمن ، ومن المهم أن نؤمن أن الزمن زمننا والجهاد جهادنا ولايستطيع أحد انتزاعهما منا ، فهما أسلحة فى أيدينا نستخدمها كيفما نشاء وطوال مانشاء » .**

سـورية قبل عهد الأسـد

كما أشرنا من قبل فقد بدأ حافظ الأسد فى طفولته ونتيجة تربيته العربية الاسلامية ، تلميذا موهوبا جدا فى المدرسة الابتدائية حيث اكتشف أساتذته بسرعة ذكاء هذا الفتى ، لقد شغله التاريخ والجغرافيا بصورة غير عادية ، وسرعان ما وجد نفسه معنيا بالسياسة .. السياسة بمعناها الرفيع كاحساس وطنى ، ورغبة فى خدمة الوطن ، تفتحت أعين الشاب حافظ الأسد على بلاده وهى خاضعة لقوة أجنبية ، ولجيش غير عربى وكثيرا ما استمع الى والده وأساتذته وهم يحدثونه عن تاريخ أمته العربية ووطنه مؤكدين له ان من يمعن النظر فى أحوال الوطن العربى اليوم لابد أن يتحطم قلبه ألما لما يراه من انقسام وتمزق فى الوضع العربى رغم ان التحديات المصيرية التى يجابهها العرب تفترض توحدهم لرد الأخطار عنهم وبخاصة بعد أن حققت الأقطار العربية الاستقلال الوطنى بعد الحرب الكونية الثانية .

فى بداية العصور الحديثة كانت الاقطار العربية تشكل وحدة واحدة تربط بين أهلها جميعا روابط قوية متينة سواء كانت تخضع لحكومة واحدة أو لحكومات متعددة ، لأن الروابط بين الشعب العربى حيثما يكون تظل أقوى من أن تتأثر بالعوامل الخارجية ، لقد ظل الشعب العربى ينعم بالوحدة بين أقاليمه المختلفة ، الوحدة التى قامت دون أى مسعى من جانب السلطات الحاكمة ، ودون بيانات وتصريحات جوفاء كالطبل ، ثم أصاب البلاد العربية الجمود فى ظل الاستبداد العثمانى ، ومع ذلك فقد ظل الترابط العربى قائما ، كان العربى ينتقل من قطر لآخر ويمارس ما يشاء من نشاط اقتصادى وثقافى وسياسى دون أن تقف فى وجهه حوادث مصطنعة الى أن نكب بالاستعمار وأعوانه .

وعندما كان حافظ الأسد يدرس فى ثانوية اللاذقية شهدت تلك الفترة دخول قوات فرنسا، والقوات الانجليزية إلى سورية لقمع حكومة فيشى الفرنسية الموالية للألمان وشهد مظاهرات الوطنيين السوريين المطالبة بالاستقلال ، **وبدأ يوقف نفسه على الدراسة والسياسة فى ان واحد**، والرئيس حافظ الأسد ينتمى الى الجيل الذى تشكل وعيه فى الأربعينات والخمسينات ولذلك فقد شهد فى شبابه الكثير من الأحداث الهامة .. الاحتلال الفرنسى ، محاولات مستمرة لتأليب الوطنيين بعضهم على بعض فى أحزاب وكتل سياسية تعكس مصالح الفئات والطبقات المستفيدة ومصالح المحتل ، شعب ثائر لم تهدأ ثوراته منذ وطئت قدم الاستعمار الفرنسى فى يناير عام ١٩٢٠ وحتى الاستقلال عام ١٩٤٦ ، ويكفى للدلالة على تمسك فرنسا باحتلال سورية أن نقرأ ما قاله (موريس برنو) تعبيرا عن سياسة بلاده تجاه سورية (أنا من الذين يرون أن الاستغناء عن باريس أسهل من

الاستغناء عن سورية، لأن الاستغناء عن سورية معناه الجلاء عن افريقيا الشمالية وعن الشرق الأقصى وترك الكرامة والنفوذ الفرنسى) .

ومن الأمور الجديرة بالانتباه أن توقعات موريس برنو قد تحققت فيما بعد ومنيت فرنسا بهزائم متلاحقة في مستعمراتها فى آسيا وافريقيا .

وكانت معظم صادرات فرنسا تنصب بغزارة وبلا انقطاع على المستعمرات التى تحكمها فى أفريقيا الشمالية ، وعلى البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسى ، ففى سنة ١٩٣٣ باعت فرنسا للدول المشمولة بانتدابها خمسة أضعاف ما اشترت منها ، وقد بلغت هذه الزيادة فى التبادل ١١٤ مليون فرنك وهو مبلغ كان يـعد كبيرا قبل تسع وخمسين سنة .

المتتبع لتاريخ سورية يرى أن الثورات لم تهدأ ، وشعبها يرى جحافل الجيش الفرنسى تحتل السواحل والسهول والمرتفعات ، وكان من الطبيعى أن يتصدى الثوار للغزاة الطامعين ، وكان الشيخ صالح العَلى أول الثوار ، ثار فى وجه العثمانيين ، وطارد فلولهم الهاربة من وجه الحلفاء .

وعندما أظهرت فرنسا نيتها فى احتلال سورية هاجم فرنسا برجاله الشجعان ، لقد روعت هذه الثورة قادة فرنسا مثلما روعتها ثورة إبراهيم هنانو فى «جبل الزاوية» عام ١٩٢٣، والثورة السورية الكبرى التى قادها سلطان باشا الأطرش عام ١٩٢٥ ، والثورات والانتفاضات التى عمت المدن السورية فى حماة ، ودير الزور ، وحمص ، والجولان ، وغوطة دمشق ، والتى عرفت نضالا دؤوبا بذل فيه الشعب السورى تضحيات كبيرة فى سبيل الاستقلال، وحتى عام ١٩٣٩ وبدء الحرب الكونية الثانية وجيوش فرنسا وبريطانيا فى الشرق الأوسط وفى سورية ، كانت هناك الوعود بالاستقلال ولكن عندما انتهت الحرب الكونية الثانية تمسكت فرنسا بسورية ورفضت الانسحاب الذى وعدت به فى المجلس التأسيسى الذى تشكل فى الثلاثينات ، كما وعدت الحكومة السورية فيما اذا انضمت سورية إلى الحلفاء فى الحرب الكونية الثانية فى قتال المحور فإن الحلفاء سيحققون الاستقلال فى كل البلاد المستعمرة وأن عهدا جديدا من حقوق الانسان ومن الاستقلال وما إلى ذلك سيبدأ ، لكن الفرنسيين نكثوا هذا الوعد وشنوا الهجوم الشهير على البرلمان ، وقصفوا دمشق على النحو الذى اشرنا إليه من قبل .

كان هذا الوعى فى ذهن الشاب حافظ الأسد وهو طالب ، وهو الذى قاده إلى أن يتصدر الحركة الطلابية ، وهو فى المرحلة الثانوية ، ويرأس اتحاد طلاب محافظة اللاذقية ، ويصبح عضوا فى الاتحاد الطلابى العام .

فى الوقت نفسه كانت التطلعات الوحدوية والإيمان بالعروبة والأمة العربية الواحدة

تداعب مخيلة الشباب وعقولهم من جيل الرئيس الأسد ، ولذلك كان من الطبيعى أن ينضم حافظ الأسد إلى صفوف حزب البعث العربى الاشتراكى وهو فى سن مبكرة جدا ، ولقد ساعدت البيئة التى عاش فيها الرئيس الأسد على أن يكون عضوا فعالا فى صفوف الحزب ، فالبيئة الفلاحية ، **والوضع الذى كانت تعيشه سورية فى ذلك الوقت جعل حافظ الأسد يسارع فى الانضمام إلى صفوف الحزب منذ أواخر الأربعينات وعندما كان يدرس فى ثانوية (جول جمال) فى اللاذقية** ، فكان من النشطاء بين أقرانه الطلاب حيث برز مباشرة كمناضل طلابى فى الثانوية ، وكان بين مجموعة الطلبة الذين تمثلوا فكر الحزب وقيمه ، وكانت تضغط على أفكارهم ووعيهم القضايا العامة وخاصة القضايا القومية ومن أبرزها قضية فلسطين ، كانوا يناضلون فى اتجاه أن تكون السلطة سلطة وطنية لكى تقدم الى القضية القومية ما يمكن أن تقدمه من تضحيات ومواقف لمناصرة هذه القضية ، ولذلك كانت نداءاتهم منذ النشأة الأولى فى سبيل القضية الفلسطينية فضلا عن الاهتمامات الاجتماعية والوطنية التى كان يعانى منها الشعب العربى السورى فى ذلك الوقت ، **فالمحطة الأولى والهامة كانت فى وجود حافظ الأسد فى اتحاد الطلاب فى ثانوية جول جمال** حيث انضم الرئيس الأسد فى صفوف الحزب وبرز كعضو نشيط بين الطلبة فى محافظة اللاذقية ثم على مستوى سورية باعتبار أنه شارك فى المؤتمرات الطلابية العليا ، ونتيجة ايمان حافظ الأسد بضرورة الدفاع عن القضايا الوطنية والقومية وجد أن الطريق الذى يمكن أن يترجم به التزامه بهذه القضايا هو طريق القوات المسلحة **فانتسب إلى الكلية الحربية ثم إلى الكلية الجوية فأصبح ضابطا طيارا** ، ولم يمنعه هذا من الالتزام فى صفوف الحزب والعمل الحزبى داخل القوات المسلحة ، **وهكذا كانت المرحلة الثانية فى حياة الرئيس هى مساهمته من خلال القوات المسلحة فى العمل الحزبى** ، ومشاركته فى صياغة التنظيم الحزبى فى القوات المسلحة فى وقت مبكر ، وأهم نقطة هى اشتراكه فى اللجنة الحزبية العسكرية والتى كانت لها نشاطات واسعة خاصة فى مصر ، **وقد كان للرئيس الأسد الفضل الأول فى تنظيم وترتيب العمل الحزبى داخل القوات المسلحة ، وفى انجاح ثورة الثامن من آذار التى خططت لها ونفذتها اللجنة العسكرية التى كان عضوا بارزا فيها ، وبالاضافة الى** التعاون والتنسيق بين التنظيم الحزبى العسكرى ، والتنظيم الحزبى المدنى ، وكما سيلى فقد كان للرئيس الأسد الدور الابرز والأهم فى صياغة العمل الحزبى داخل القوات المسلحة ، وفى إنجاح ثورة الثامن من آذار واحباط محاولات اغتصابها لأن الرئيس الأسد كان مازال مؤمنا إيمانا كبيرا بالوحدة العربية .

كان يعمل مع رفاقه الحزبيين على التصدى لجريمة الانفصال ، وكانت كل جهوده منصبة لعمل يسقط الانفصال ، فكانت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ ، ومنذ عام

١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٠ شارك مشاركة واسعة وأساسية فى الحكم إلى أن فجر الحركة التصحيحية التى هيأ لها والتفت حوله جماهير الحزب المدنية والعسكرية

ولعل هذه المحطة فى حياة الرئيس الأسد أعطت رؤية استراتيجية لما يفكر فيه الرئيس بالنسبة لبناء سورية الحديثة ، وفى مسألة النضال القومى عموما ، وهنا تجدر الاشارة إلى أنه اختلف مع القيادة السابقة فى نظرته لكثير من المسائل .فالقيادة السابقة كانت ترفض التعامل مع الاحزاب السياسية ولا تعترف بوجودها ، وحصرت تعاملها مع اشخاص وعناصر سياسية ،فى حين كان الرئيس الاسد يؤكد أهمية التعامل مع الأحزاب الوطنية والقومية ويدعو إلى الائتلاف معها فى جبهة واحدة .

وفى المؤتمر القومى العاشر الاستثنائى عام ١٩٦٩ أكد على قيام الجبهة الوطنية التقدمية ، وطرح أفكاره فى هذا المؤتمر حول بناء سورية الحديثة وصياغة العمل السياسى، بحيث تكون هناك انتخابات مجلس الشعب وتنظيمات نقابية وشعبية تشمل جميع القطاعات الشعبية ، وفعلا عندما قامت الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ صدر بيان القيادة القطرية المؤقتة وبه برنامج الرئيس الأسد الوطنى والقومى ، وشهدت السنوات الأولى من الحركة التصحيحة تنفيذ مقولات الرئيس حول قيام الجبهة الوطنية التقدمية تحقيق الديمقراطية الشعبية فى سورية ، وجرت انتخابات مجلس الشعب لأول مرة فى تاريخ سورية ، ثم صدر الدستور الدائم عام ١٩٧٣ متضمنا مقولات راسخة حول الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى سورية .

مولد حزب البعث العربى الاشتراكى وانضمام الرئيس الأسد له

كانت التطلعات الوحدوية ، والايمان بالعروبة والأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة تشكل حافزا نضاليا لذلك الجيل من الشباب الذى تفتح وعيه على التمزق العربى .

فالوطن العربى فى نظر الفتى حافظ الأسد واحد لا يتجزأ ، وسورية وفلسطين تؤلفان كفاحا واحدا ، وفكرة القومية العربية هى الملاذ ، والأمل فى ميلاد عربى جديد ، وكان من الطبيعى أن تلتقى افكار حزب البعث العربى التى تهدف إلى قيام (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) مع أفكار الشاب حافظ الأسد ، وتسفر عن انتماء حقيقى لحركة البعث لاسيما وأن المبادىء العامة التى وضعها مؤسسو الحزب زكى الأرسوذى (الذى ابتعد عن العمل السياسى عام ١٩٤٣) وميشيل عفلق ، وصلاح الدين البيطار تؤكد أن هذا الحزب عربى شامل ، ولا ينظر إلى السياسة القطرية إلا من منظار القضية العربية وأنه يؤمن بأن القومية واقع حى ، وأن الفكرة القومية التى ينادى بها الحزب هى إرادة الشعب العربى التى تنزع إلى التحرر والوحدة ، وأن حزب البعث العربى حزب اشتراكى

يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة نابعة من أعماق القومية العربية ، وأنه حزب شعبى يؤمن أن السيادة ملك للشعب الذى يؤلف وحده مصدر كل سلطة ، ويؤمن أن قيمة الدولة تأتى من ارادة الجماهير ، ولأنه حزب ثورى فإنه يقرر النضال لجمع شمل العرب كافة فى دولة واحدة مستقلة ، والوطن العربى هو هذا الجزء من الكرة الأرضية الذى تقطنه الأمة العربية والذى يشغل المساحة الواقعة بين جبال طوروس ، وجبال أثيوبيا والصحراء والمحيط الأطلسى ، والبحر المتوسط .

كانت حركة البعث تستهوى الشباب فى سورية كلها ، ولهذا فقد انضوى الشاب حافظ الأسد فى هذه الحركة وآمن بها ، ولقد شهدت حقبة الأربعينات أحداثا بالغة الأهمية مثل مشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ثم حرب ١٩٤٨ ، وما نتج عنها من هزيمة للجيوش العربية ومن تمكن اسرائيل فى فلسطين ثم حركة الاحباط واليأس التى أصابت الجماهير العربية فى هذه المرحلة .

كان الشاب المتحمس المتوثب يقود المظاهرات لاسقاط الحكومات الرجعية المتآمرة على القضية الفلسطينية ، ويرى فى هذه القضية عاملا أساسيا فى استقطاب الشباب إلى المظاهرات ، ولكى يأخذ مكانه فى القتال على ساحة الشرف وكانت هزيمة ١٩٤٨ والتآمر الاستعمارى على العرب عاملا أساسيا فى استقطاب الشباب إلى القوات المسلحة ، وفى السابعة عشرة من عمره انتسب حافظ الأسد لحزب البعث العربى الاشتراكى ، ومنذ تلك اللحظة بدأت مسيرته النضالية الطويلة والشاقة فى أن واحد .

وفى ظل هذا الايمان انتسب حافظ الأسد إلى القوات المسلحة طالبا فى الكلية الحربية فى فترة الخمسينات ثم جاءت الانقلابات العسكرية المتتالية ، انقلاب حسنى الزعيم عام ١٩٤٩ ، (والذى كان أول تدخل للجيش فى السياسة فى منطقة الشرق الأوسط حيث دشن قاعدة اجتذبت الكثيرين فيما بعد) .

حقيقة أن دوافع حسنى الزعيم كانت زائفة ولكنه كشف عن امكانية تغيير المجتمع التقليدى القديم وتحطيم الشكل الدستورى الغربى ، ثم جاء بعد ذلك انقلاب سامى الحناوى بعد ستة أشهر من انقلاب حسنى الزعيم ، ثم أعقبه انقلاب أديب الشيشكلى الذى مارس أشد صور الديكتاتورية من عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٥٤ ، ويجمع بين هذه الانقلابات هدف واحد ، وهو الحفاظ على مصالح الغرب الاستعمارى فى سورية والمنطقة العربية ، وتهديد الأنظمة المجاورة بانقلابات مماثلة فى حال خروجها عن الطاعة ، ومن الطبيعى أن مصالح الغرب كانت تتمثل فى الاستثمارات البترولية الكبيرة فى السعودية والعراق ودول الخليج ، وكانت سورية طريقا حيويا لكثير من خطوط أنابيب النفط التى تصل إلى الشواطىء السورية لتحمل منها الذهب الأسود إلى الغرب .

هذه الأحداث وغيرها فجرت لدى حافظ الأسد الكثير من التساؤلات الحائرة .. ما هى الطريقة التى تجعل الأمة العربية تحتل مكانتها الطبيعية فى العالم ؟.. كيف يمكن ازاحة العوائق التى تحد من بلوغ هذا الهدف ؟.. إلخ ... إلخ .

وكانت محاولة الحصول على الأجوبة الشافية وراء سعى حافظ الأسد للمزيد من قراءة التاريخ وتعميق ثقافته السياسية ، وكان من الطبيعى أن يتواصل الجهاد والنضال الشعبى ، وأن تتصاعد المظاهرات بين الطلاب والعمال وأن يسود التذمر وسط الجيش لأن الجيش كان مكلفا بقمع الحركة الشعبية فى الجامعات وفى المدارس وفى المصانع وفى الشوارع ، وفى عام ١٩٥٤ انهار حكم الشيشكلى ، واطل حكم وطنى ديمقراطى برلمانى نشطت فيه الأحزاب من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٨ ، وكان من الطبيعى كما قلنا لحزب يمتلك افكارا ثورية كالتى طرحها حزب البعث عام ١٩٤٧ ان تنضم إليه جماهير المثقفين وطليعة من الكادحين الذين كانوا على تماس بشكل ما مع المثقفين من الطبقات الوسطى والفقيرة .

وهنا تجدر الاشارة إلى أنه كان للطبقة المتوسطة فى سورية فضل كبير فى إيصال أفكار البعث إلى القرى والحقول والمصانع والمدارس عبر الموظفين والمعلمين والمحامين والأطباء ، وبدأت أفكار البعث بالانتشار، وبدأ ذلك واضحا فى مهاجمة عناصر البعث للاقطاع والبرجوازية وقيام السلطة بالتردد والضعف والعمالة ، مع أن قيادة الحزب المتمثلة فى ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وزكى الأرسوزى كانت قيادة ذات نهج أكاديمى بعيد عن معايشة جماهير الفلاحين والعمال .

ويتحدث الرئيس حافظ الأسد عن دور الحزب بالنسبة لوعى الجيل الذى جاء بعد حرب عام ١٩٤٨ مباشرة بقوله : (ان ولادة البعث الحقيقية جاءت من ضمير الأمة العربية ، حركة تتفاعل مع الشعب تتحسس آماله ، وتستوعب هذه الآمال ، تزكى فيه روح التمرد على واقع الفساد والتخلف الموروث من عهود الانحطاط والحكم الأجنبى ، وتنير له طريق التحرر ، وتفجر طاقاته الوفيرة لبناء مستقبله وتقود خطاه على طريق الوحدة العربية ، أما الأحزاب والحركات السياسية التى سبقت حركة البعث العربى ورافقت ظهورها ، فإنها بحكم نشأتها وطبيعة تكوينها وبعدها عن أهداف الشعب وتطلعاته ، كانت عاجزة عن قيادة الكفاح الشعبى فى مرحلة ما بعد الاستقلال) وهذا الكلام يكشف أهمية دور البعث فى وضع سورية على طريق التقدم والوحدة ويؤكد عجز القوى السياسية التى سبقت البعث عن قيادة تطلعات الجماهير نحو التقدم والوحدة ، وهذا ما أوقع سورية فى سلسلة الانقلابات العسكرية التى اشرنا اليها ، وهى الانقلابات التى مارست الديكتاتورية (من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥٤) .

وكما قلنا فإن الشعب أنهى حكم الشيشكلى فى عام ١٩٥٤ ، وأطل حكم وطنى ديمقراطى برلمانى نشطت فيه الأحزاب السياسية من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٨ وفى هذه الفترة والتى كان الرئيس حافظ الأسد خلالها ضابطا فى القوات المسلحة جرت انتخابات ديمقراطية أسفرت عن نجاح عدد من النواب ،. ولكن لم تتمكن أى كتلة نيابية من أن تستأثر بالأغلبية لتشكل حكومة ، غير أن حزب البعث الاشتراكى بعد توحيده مع الحزب الاشتراكى وهو التوحيد الذى تم فى أوائل الخمسينات استطاع أن يدفع الى البرلمان بحوالى ١٧ أو ١٨ نائبا ، وكانت هذه الكتلة كتلة مؤثرة لأن عدد النواب فى تلك الأثناء لم يتجاوز ١٤٠ نائبا، واستطاع الحزب مع الأنصار المستقلين وعددهم حوالى عشرة نواب كانـوا يلتقـون مع حـزب البعـث فى أفكـاره ، أن يشـكل كتلـة كبيـرة فى البرلمان ، وتعتبر هذه الفترة من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٨ عهدا ذهبيا بالنسبة للنضال الوطنى داخل القوات المسلحة ، كما هى بالنسبة للشعب أيضا .

وكان هناك تأثير متبادل بين أفكار ثورة ٢٣ يوليو والطرح الموجود فى سورية سياسيا وجماهيريا من قبل حزب البعث وقد ظهرت نتائج هذا التبادل فى عام ١٩٥٦ عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ حيث قام الشعب السورى بتفجير أنابيب شركة (أى. بى. سى) ، التى كانت تمر من العراق الى مصب بانياس ، **(وكان تفجير هذه الأنابيب تضامنا مع الشعب المصرى ، وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها سلاح البترول للضغط على المعتدين واجبارهم على الانسحاب)** وكان الجيش السورى يتأهب لدخول معركة ١٩٥٦ إلى جانب مصر ولكن التدخلات الدولية أجبرت اسرائيل على وقف إطلاق النار والانسحاب ، وعمّق النصر الذى حققته مصر من إلهاب المشاعر الوطنية فى الشارع المصرى الذى كان يتابع أيضا بكل الحماس قيام الثورة الجزائرية ويناضل ضد مشروع ايزنهاور ، بملء الفراغ المزعوم فى الشرق الأوسط ، الذى يشتعل ضد الأحلاف العسكرية ، كل هذه الأمور أدت إلى مزيد من ا لتقارب والالتقاء بين القيادتين المصرية والسورية وهو اللقاء الذى توج فى وحدة مصر وسورية عام ١٩٥٨ ، وكان تكوين هذه الجمهورية الفتية فى دولة واحدة لأول مرة فى التاريخ العربى المعاصر استجابة لداعى الوعى القومى العربى فى البلدين وتسجيلا لتيار جارف انبعث من جموع الشعبين اللذين آمنا بالقومية العربية وضرورة الوحدة بينهما كخطوة أولى فى سبيل الوحدة الكبرى التى تضم شمل الأمة العربية فى دولة كبرى موحدة .

كان نشوء هذه الدولة الجديدة فى فبراير عام ١٠٥٨ ثمرة من ثمار القومية العربية التى تعتبر روحا لتاريخ طويل ساد العرب فى مختلف أقطارهم ولحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادها .

الرئيس حافظ الأسد كان ضابطا فى القوات المسلحة ، والقوات الجوية فى هذه

ناء ، وشارك فى كل المآثر المجيدة لشعبه وجيشه وحزبه ، وعندما قامت الوحدة عام ١٩ قدم الى القاهرة فى عام ١٩٥٩ وبقى فى مصر حتى الانفصال عام ١٩٦١ (طيارا فى ات المسلحة فى الجمهورية العربية المتحدة) كان يعدّ قيام الجمهورية العربية عدة بداية موفقة لمشرق فجر جديد على الأمة العربية يحمل فى طياته الاستقلال رية والعزة والقوة والأمل الكبير فى بناء مجتمع عربى جديد ،كان يرى أن وحدة بين فى جمهورية عربية واحدة تستند الى ماض من الكفاح طويل ، والى تاريخ ترك ، قد يختلف فى بعض تفصيلاته ولكنه متحد فى خطوطه العريضة ومعالمه البارزة ، ه الوحدة ليست من قبيل المصادفات ، وانما ترجع الى أسباب وعوامل كثيرة عميقة ور ، أصيلة ونبيلة وهذه الأسباب والعوامل تكمن فى طبيعة المنطقة ، وفى تريخها ـ ، ووحدة الدم بين أبنائها واللغة الواحدة التى يتكلمونها والأديان التى يدينون بها قائد التى يعتقدونها والسلامة المشتركة التى يحرصون عليها ، ويبتغونها ولحرية ينشدونها ويحرصون على صيانتها .

ن مصر فى كل عصورها كانت تؤمن حدودها ضد الغارات المغولية والعثمانية والغزوات لفة من آسيا وأوربا باتحادها مع الشام ووقوفهما أمام الخطر الدائم يناضلان عن هما وكيان الامة العربية التى أخذت تنوشها السهام من كل مكان وخاصة فى أيام نها وانحلالها ، وقد تعرضت هذه المنطقة كما سبق القول لغزو الصليبيين فى أواخر ن الحادى عشر الميلادى ، وخلال القرن الثانى عشر ولكن صلاح الدين الأيوبى ان الشام ومصر دحرهم فى معركة حطين وردهم على أعقابهم خاسرين مجللين بعار يمة ، ثم جاءت جموع المغول إلى الشام تريد احتلاله فتصدى لها القائد بيبرس ت مصرية شامية واستطاع فى معركة عين جالوت أن يهزم جحافل الغزاة وينتصر ا انتصارا عظيما .

هكذا فإن ثرى أرض الشام قد خضب من أثر هذه المعارك بدماء مصرية غالية أريقت وهى تدافع عن القضية المشتركة وعن الأهداف العربية الموحدة .

مبـــارك والأســد

ن الرئيس حافظ الأسد قدم إلى مصر ـ كما قلنا ـ فى عام ١٩٥٩ وبقى فيها حتى صال عام ١٩٦١ طيارا فى القوات المسلحة ، فى هذه الأثناء تعرف على الكثير من ط القوات المسلحة فى مصر ، وفى مقدمتهم الرئيس حسنى مبارك (الرئيس نى مبارك فى القاذفات ، والرئيس الأسد فى سرب المقاتلات الليلية ، الرئيس مبارك بيس والرئيس الأسد فى ألماظة) ، بعد الانفصال كان الرئيس الأسد كغيره من باط الموجودين فى مصر مصيره التسريح من القوات المسلحة ، لأن المعلومات التى

وصلت الى قادة الانفصال أن حافظ الأسد من الضباط المؤمنين بالوحدة وفى نفسه نقمة شديدة على الانفصال ، ولهذا كان تسريحه مع عدد من رفاقه فى الجيش ، تجاوز عددهم سبعين ضابطا من المنتمين الى حزب البعث العربى الاشتراكى فى القوات المسلحة ، وبدأ نشاط لا يكل فى سوريا من أجل اسقاط الانفصال وكان للرئيس الأسد دور كبير وبارز فيه ، ولازالت تفاصيل هذا الدور مجهولة .

صحيح أن الرئيس الأسد حول لوظيفة مدنية فى الجيش (فى النقل البحرى) ، ولكن الحقيقة كان خلال وجوده فى الحياة المدنية دائم التحرك فى سورية ومع رفاقه العسكريين الذين كانوا لايزالون فى القوات المسلحة ، وعقدت مؤتمرات واجتماعات سرية منها مؤتمر حمص ، ثم كانت هناك انتفاضة فى حلب لم يكتب لها النجاح عام ١٩٦٢ وقد سجن الكثيرون من الذين ساهموا فى هذه الحركة .. الأمر الذى اضطر الرئيس الأسد الى التخفى من سطوة الانفصال وبدأ نضالا مع زملائه أدى فى النهاية الى القيام بثورة الثامن من آذار مارس عام ١٩٦٣ .

وقفة لها أهميتها

فى عام ١٩٦٣ أعيد الرئيس حافظ الأسد إلى الجيش وكلف بقيادة قاعدة جوية تعدّ من اكبر القواعد فى سورية ، وفى هذا العام انتخب عضوا فى القيادة القطرية ، وفى القيادة القومية فى الحزب ، وكان أصغر مناضل حزبى يستطيع أن يصل إلى القيادة القطرية والنيادة القومية فى آن واحد ، وهذا يعنى اعترافا بتاريخه ونضاله المشرف ودوره الكبير فى قيام ثورة الثامن من آذار ، وفى تطوير فكر الحزب .

ثانيا : بعد استلام الحزب للحكم سعى الرئيس حافظ الأسد وغيره من الشباب المتحمس لاعادة الوحدة المصرية السورية ، وبدأ النقاش عام ١٩٦٣ للوصول إلى مايسمى بميثاق ١٧ ابريل عام ١٩٦٣ الذى شارك فيه العراقيون لأن الحزب كان قد وصل أيضا الى الحكم ، وكان حلم كل عربى أن يكون هناك اتحاد يضم مصر وسورية والعراق فى جمهورية عربية متحدة ، أو اتحاد جمهوريات عربية ، ولكن بكل أسف فإن القيادة اليمينية المنحرفة التى كان يمثلها ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار ، ومن ينضوى فى فكرهما كان لها رأى آخر وكانوا يحاولون أن يبتعدوا عن مصر متأثرين بالمناخ الذى عاشوه فى تجربة عام ١٩٥٨ والحساسية التى نشأت بين عبد الناصر وقيادة البعث ممثلة فى ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحورانى ، وكان الرئيس الأسد يرى مع زملائه فى هذا التحول لدى القيادة وكأنه اجهاض لثورة الثامن من آذار ولدورها فى احياء حركة التحرر الوطنى ، ومرة أخرى بدأت القيادة اليمينية تتآمر . حتى كانت

المواجهة التى لابد منها ، وكانت هذه المواجهة أولا حزبية عن طريق مؤتمر الحزب ، ولم تقتنع القيادة اليمينية بنتائج الانتخابات الحزبية والتى اكدت أن الرأى العام الحزبى سواء فى القطاع المدنى أو القطاع العسكرى يؤيد الوحدة وإصلاح أخطاء الانفصال واخطاء الحزب ، وبناء ديمقراطية صحيحة تعتمد على تحالف القوى الوطنية والتقدمية فى سورية وفى البلاد العربية كلها ، وفجأة قفزوا على نتائج المؤتمر الحزبى وعينوا قيادة من انصارهم ، فاضطر الجهازان المدنى والعسكرى الى القيام بحركة فى ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ وأن يزيحوا القيادة اليمينية ..

وفى عام ١٩٦٦ عندما تسلم الرئيس الأسد مع زملائه فى ٢٣ شباط قيادة البلاد ، كان الرئيس الأسد بالاضافة الى عضويته فى القيادة القومية والقطرية وزيرا للدفاع ، وبسبب نشاطه الحزبى والعسكرى تمت ترقيته الى رتبة اللواء ، وانتقل من القاعدة الجوية التى كان فيها عام ١٩٦٤ لكى يصبح وزيرا للدفاع ، وقائدا للقوات الجوية عام ١٩٦٥ ، أى انه فى عام ١٩٦٦ عندما قامت حركة ٢٣ شباط كان الرئيس الأسد وزيرا للدفاع وقائدا للقوات الجوية .

ومن هذا المنظور فإنه يمكن التأكيد بأنه لولا اسهامات الرئيس الأسد فى تصحيح مسار الحزب لسيطرت القيادة اليمينية ولم يكن بالامكان ازاحة هذه القيادة عن جسد الحزب، ومعروف ما فعلته هذه القيادة عندما مارست دورا قياديا فى العراق منذ عام ١٩٦٨ وحتى الغزو العراقى لدولة الكويت .. الرئيس الأسد فى حركة ٢٣ فبراير ـ شباط وبعد انتصار جناح الشباب المؤمن بعروبته وبوحدته وبإصلاح الأخطاء .. **بدأ يتطلع الى اللقاء مع مصر**، وبالفعل تمت لقاءات واتصالات عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ .

وليس سرا ان حرب الخامس من يونيو / حزيران عام ١٩٦٧ كانت ضربة إجهاضية خطط لها الاستعمار والامبريالية للحيلولة دون عودة الوحدة المصرية السورية لأنها ستكون وحدة تتلافى كل الأخطاء وكل السلبيات وستشكل استقطابا فى المنطقة يمكن أن يؤثر على مسيرة النضال العربى ، وعلى مصالح القوى المعادية للعرب فى المنطقة ، ولذلك استعجلوا هذه الضربة الاجهاضية التى شكل فيها الخداع والتضليل والعمليات السرية وغير السرية دورا كبيرا فى هزيمة العرب عام ١٩٦٧ .

وبعد عام ١٩٦٧ قام الرئيس حافظ الأسد عندما كان وزيرا للدفاع باعادة بناء الجيش والقوات المسلحة السورية ، وكان له الفضل الأكبر فى اعادة الجيش الى قوته وزيادة هذه القوة عددا وعدة، ولقد شهدت هذه الفترة ـ أى بعد عام ١٩٦٧ ـ أحداثا بالغة الاهمية .. وعلى سبيل المثال : الصدام الذى حدث بين الحكم الأردنى والمقاومة

الفلسطينية ، والأحداث التى كانت تحدث فى لبنان من خلال التدخل الاسرائيلى المباشر بحجة القضاء على الفلسطينيين حتى كان اتفاق القاهرة ١٩٦٨ وهو الاتفاق الذى رعاه الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بشأن تنظيم الوجود الفلسطينى فى لبنان ، ولقد تحمل الرئيس الأسد الى جانب جهوده الكبيرة فى اعادة بناء القوات المسلحة جهودا مماثلة لتمتين الوضع الداخلى بعد حالة الغضب على الأحداث التى حدثت بعد عام ١٩٦٧ من محاولات الانقضاض على الحكم فى سورية بحجة أن القيادة مهزومة ، وكانت القوى التى تسعى للسيطرة على الحكم هى قوة مشبوهة ومدفوعة من عناصر خارجية ، يمكن على سبيل المثال أن نشير الى العصيان الذى قام به الضابط سليم حاطوم الذى سافر الى الأردن حيث كان يتبناه فى هذه الأثناء الملك حسين ، كما نشير أيضا الى محاولات اليمين متمثلة فى أكرم الحورانى للانقضاض على الحكم بدعم من العراق وما إلى ذلك .

تحمل الرئيس الأسد عبئا كبيرا فى حماية الثورة، وفى حماية الوضع الداخلى ، وفى وضع القوات المسلحة، وفى دعم الثورة الفلسطينية ، ومن الطبيعى ان هذه الأمور لا تخلو من مشاكل بين القياديين أنفسهم .. كان هناك تيار متسلط مناور يحاول دائما أن يبحث عن ذرائع للانتقال من الجوهرى الى الثانوى ومن الموضوعى الى الشخصى ومن العام الى الخاص ، وكان لابد لهذا التيار ان يبتعد لكى تظل المسيرة متجهة نحو الأهداف الصحيحة ، ولذلك قام **الرئيس الأسد مرة أخرى بالتعاون مع رفاقه فى الجهازين المدنى والعسكرى فى القوات المسلحة بحركة التصحيح فى ١٦ تشرين الثانى « نوفمبر » عام ١٩٧٠** ، وكانت حركة بيضاء تعبر عن آراء بالاجماع للفروع المدنية والعسكرية ، لم ترق خلالها قطرة دم واحدة لان الاجماع كان منعقدا على ان هذا التيار يجب الا يسيطر على القيادة ، وفعلا عقد مؤتمر بعد ذلك بستة أشهر قرر المنهج الحزبى وحدد منطلقات السادس عشر من تشرين الثانى « نوفمبر » **وانتقل الرئيس حافظ الاسد بعد ذلك من رئاسة الوزراء الى رئاسة الجمهورية فى استفتاء شعبى أكد وحدة الشعب خلف قيادته** ، وكان هذا الاستفتاء تتويجا للمظاهرات الشعبية التى انطلقت عام ١٩٧٠ والتى يقال عنها ، وهذه حقيقة ، بأن سورية عرفت ثلاثة مهرجانات كبيرة وضخمة فى تاريخها الحديث .. **أولها** عندما تحررت من الحكم العثمانى ، ودخول فيصل الأول ملكا على سوريا ، **والثانية** فى عام ١٩٥٨ عندما وصلها الزعيم الخالد جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، واستقبله الشعب السورى كقائد تاريخى لانجاز تاريخى ، **والاستقبال الثالث** هو استقبال الجماهير السورية للرئيس الأسد عام ١٩٧٠ فى السادس عشر من تشرين الثانى « نوفمبر » حيث كان فى هذا الاستقبال يستقبل آماله ومستقبله ،

وحاول أن يتخلص من كل مالحق به من حيف وظلم فى عهود ماضية ، ولذلك **نستطيع أن نقول ان البداية فى عام ١٩٧٠ كانت عهدا لسورية الحديثة..**

واذا حكمنا تاريخيا على مرحلة ماقبل عام ١٩٧٠ نقول: أن هذه المرحلة تميزت بعدم الاستقرار وكثرة الانقلابات العسكرية والتشتت السياسى وضياع الهدف الواحد بالانقسام بين الجماهير حيث لم تعرف سورية الوحدة الوطنية وانخفض معدل التنمية الاقتصادية الى درجة كبيرة لانه لم يكن هناك قبل ذلك سوى خطة خمسية من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٠ شابها الكثير من الاخفاقات بسبب التردد وعدم الوضوح والخلافات ، وبالاضافة الى ذلك كله فقد كانت سورية معزولة عن العرب تماما .. لم تكن هنالك دولة واحدة على وفاق مع سورية ، حتى دول الجوار (لبنان ـ الأردن ـ العراق) بالاضافة الى مصر التى كانت تسمى نفسها بالجمهورية العربية المتحدة ، **ولذلك نستطيع أن نقول إن عام ١٩٧٠ هو عام نهضة سورية الحديثة بقيادة الرئيس الأسد.**

■ التأريخ لحركة المسلحة ■

٣

قراءة فى فكر الأسد

ثورة آذار

□□ الثورة بين النظرية والتطبيق عند حافظ الأسد.
□□ دور الأسد فى الاعداد لثورة آذار.
□□ الأسد يشرح ضرورة حركة شباط.
□□ الأسد ومستلزمات المعركة.

الثورة هى القضاء على عوائق التطور والنمو بقدر ماهى تفجير خلاق لطاقات الجماهير ، واستشفاف لمناحى الخير التى يجب ان تتجه وفقها هذه الطاقات لتكون فى خدمة الجماهير .

فى اطار هذا الفهم ادرك حافظ الأسد أن طريق الثورة ليس الطريق السهل ، انه طريق الجهد والتعب والتضحية ، واذا كانت ثورة ٨ آذار قد عانت الكثير منذ قيامها فلأنها منذ البداية واجهت رواسب الماضى ، ومخلفاته وصارعت الظروف والمصاعب التى تحكمت طويلا فى عهود ماقبل الثورة ، وكان من خصائص تكوينها التاريخى ان تشكل عوامل أساسية لخنق بذور الثورة ، ولقد أدت هذه الظروف الى اجهاض أكثر من انطلاقة ثورية فى تاريخ سورية، وفى تاريخ الوطن العربى . تلك الظروف والمصاعب ، بعضها انتقل الى مرحلة ما بعد الثورة وانسحب عليها ، وكانت كلما اصطدمت بالظروف الذاتية للثورة تبرز فى فترات متعددة وبأشكال مختلفة مستغلة كل ثغرة تستطيع ان تنفذ منها لكى تعاود تأثيرها على الثورة ومجتمعها ، وتعود بها الى الوراء أو تحد من مسيرة التقدم .

ويظل مطلبا جماهيريا ملحا أن يؤرخ الرئيس حافظ الأسد بنفسه للعقبات التى صادفتها ثورة الثامن من آذار، والعوامل التى اصطدمت بها والصدمات التى

واجهتها ، لقد بدت الثورة وكأنها فى صراع مع نفسها . مع أنها فى الحقيقة كانت تصارع تلك العوامل التى احتجبت داخل المجتمع واختبأت فى انتظار الظروف المواتية لظهورها من جديد وحاولت دائما ان تتسلل وتستقر فى صفوف الثورة ذاتها .

وكما يقول الرئيس حافظ الأسد : فإنه خلال هذا الصراع كان لابد للثورة من الدفاع عن مسيرتها، وتحصين نفسها ضد بؤر الرواسب والمخلفات مماخلق صعوبات عديدة واقتضى اجراءات معاكسة لهذه الصعوبات ، ومع ذلك فإن العناصر الموضوعية للثورة ظلت هى السائدة أبدا ، وكانت لها الغلبة فى النهاية فتخلصت الثورة الى أبعد الحدود من الشوائب وحررت نفسها بنفسها من صعاب الماضى فى حركتى الثالث والعشرين من شباط « فبراير » ١٩٦٦ والسادس عشر من تشرين الثانى « نوفمبر » عام ١٩٧٠ وخرجت من مراحل المعاناة سليمة معافاة لتنطلق على طريق البناء والانجاز.

أين كانت سورية قبل حركتى الثالث والعشرين من شباط « فبراير » ١٩٦٦ والسادس عشر من تشرين الثانى « أكتوبر » ١٩٧٠ وأين صارت هى الآن ؟ والى أين تتجه وكيف ؟

فى البداية لابد أن نشير الى ماشهده الوطن العربى فى اواخر الخمسينيات ـ كما قلنا من قبل ـ فقد كان حافظ الأسد وغيره من الشباب القوميين يجدون فى عقيدة حزب البعث الوليدة أسبابا تغريهم بالانضواء فى الحزب ، وتعزز ايمانهم بأنه سيأتى اليوم الذى يردون فيه على نكبة ١٩٤٨ ، وماجرته من ويلات ، وكان حزب البعث قد ذاع صيته فى ذلك الوقت ، وكان عدد اعضائه يتزايد باستمرار ، ولكن دون أن يفرض نفسه فى النطاق البرلمانى لأن قانون الانتخابات كان الى جانب تقسيم البلاد لدوائر اقليمية بحيث يفرض الاقطاعيون الكبار قانونهم الخاص . مما حدا برئيس الأركان العامة حسنى الزعيم فى عام ١٩٤٩ .. لأن يقوم بانقلاب معتقدا ان هذا سيمكنه من وضع حد لحكم الموسرين الذين اعتبرهم مسئولين عن الوضع المزرى فى سورية ، الا ان هذه التجربة لم تنجح ، ثم أعقب انقلاب حسنى الزعيم انقلاب آخر على يد اللواء سامى الحناوى من سلاح المدرعات ، ولكن التجربة بدورها اخفقت ولم تدم سوى فترة قصيرة أتهم بعدها الحناوى بموالاته للأجانب ومحاولته الاتحاد مع المملكة العراقية التى كان ينادى بها الانجليز ، واطيح به على يد العقيد أديب الشيشكلى الذى أعلن فى ٥ سبتمبر ايلول ١٩٥٠ عن قيام دستور جديد ينص على أن سورية جزء لا يتجزأ من الأمة العربية .

وفى عام ١٩٥١ قام أديب الشيشكلى بحل المجلس التأسيسى وتسلم الجيش المسئوليات فى البلاد ، وفى عام ١٩٥٢ نودى بالحظر على جميع الأحزاب والصحافة والمعارضة وبرزت الى الوجود حركة التحرر العربى ، وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة

المصرية حيث أرغم الملك فاروق على التخلي عن العرش ، وفى ١٤ تشرين الثانى نوفمبر ١٩٥٣ نحى رئيس مجلس الثورة وهو اللواء محمد نجيب عن الساحة السياسية وحل مكانه جمال عبدالناصر الذى تقلد جميع السلطات وانتخب رئيسا لجمهورية مصر فى استفتاء شعبى عام ١٩٥٦ ، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره .

كيف ولماذا برز الأسد ؟

وقبل أن نمضى فى متابعة التطورات السياسية التى شهدتها سورية والوطن العربى فى تلك الفترة نتوقف قليلا لنستمع إلى العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى ، **وهو يروى لنا عن العوامل التى أسهمت فى بروز شخصية حافظ الأسد فى المؤسسة العسكرية وفى بلورة الطريق الثورى الذى اختطه لنفسه .**

يقول العماد طلاس : الرئيس الأسد كان بارزا منذ كان طالبا فى كلية الطيران .. دخلنا كلية الطيران معا . ولكن عصبيتى كما ذكرت جعلتنى أغادر سلاح الطيران إلى سلاح المدرعات بالاضافة إلى أن أصابعى كانت قوية فقالوا لى أن استخدامها فى الدبابات أفضل من الطائرات ، لكنى شاركت الرئيس الأسد فى الكلية الحربية ٣ شهور ، ثم فى كلية الطيران خمسة شهور وعشرين يوما ، كنا زملاء نطير ونتدرب معا ، والرئيس الأسد كان ذا مناقبية عالية فى الطيران ، على سبيل المثال عندما يكون لديه واجب طيران فى اليوم الثانى لم يكن يقبل السهر فى اليوم الذى يسبق طيرانه ، وكان ينام فى تمام الساعة التاسعة ليستيقظ نشيطا فى تمام الساعة السابعة ، وبالتالى يكون لديه صفاء ذهنى لكى يتحكم فى الطائرة بشكل سليم ، وقد أحرز الدرجة الأولى فى الكلية الجوية ، وحصل على الدرجة الممتازة فى الطيران ، وكان ترتيبه الأول فى الدورة ، وعندما تخرج كان ترتيبه أيضا الأول ، والرئيس الأسد قبل أن ينجذب إلى سلاح الطيران كان رئيسا لاتحاد الطلبة فى سورية وقد أعطاه هذا الموقع بريقا فى سلاح الطيران ، وكان اتحاد الطلبة أقوى من اتحاد العمال واتحاد الفلاحين لأنه كان يضم صفوة العناصر المستنيرة فى المجتمع السورى .

فى حياته العسكرية بدأ يلمع ابان حصار « قطنا » الذى تم عام ١٩٥٧ حيث تمكن وهو ملازم أول فقط من السيطرة على مطار عسكرى هام لمجابهة نذر مؤامرة أجنبية كانت تستهدف سورية .

عاد الرئيس الأسد من جديد وسيطر على مطار المزة وأعطى القيادة للقوة الوطنية والتقدمية فى الجيش المتحالفة مع الحزب بقصد إحكام قبضتها على المفاصل الأساسية فى الجيش وبالتالى لم يتمكن المتآمرون المرتبطون مع السفارة الأمريكية من القيام بأى عمل ، وعندما ذهب إلى الاتحاد السوفيتى كان الأبرز فى الطيارين الذين

ذهبوا معه وكان أفضلهم فى الطيران ، وبعد الوحدة مباشرة ذهب فى أواخر ١٩٥٩ مع مجموعة الضباط الذين ندبوا إلى مصر إذ كان عبدالحميد السراج يعرف أن بقاء حافظ الأسد فى سورية خطر عليه ولذلك تم ابعاده الى مصر مع مجموعة الضباط البعثيين الذين ذهبوا إلى مصر .

ويضيف العماد طلاس: الأسد منذ بدايته العسكرية كان شجاعا وكان متميزا ، وبعد أن استولى على سلاح الطيران فى حركة الثامن من آذار بقى تقريبا لمدة سنة كقائد لواء ، وتمت ترقيته إلى رتبة اللواء عام١٩٦٤ ، علما بأنه تسلم منصب القيادة الجوية ، وكان برتبة مقدم قبلها متخطيا رتبة العقيد والعميد ، وتسلم القوة الجوية مباشرة حيث أصبح بعدها من رموز القوات المسلحة ، وكل عضوا فى مجلس قيادة الثورة ، وعضوا فى القيادة القومية والقيادة القطرية ، وفى كل مؤتمرات الحزب كان يرشح نفسه ويأخذ الأصوات بالاجماع تقريبا، لأنه كما قلت : كان متميزا فى الحزب ، وكانت القاعدة الحزبية تكن له الاحترام والولاء .

نعود فنقول: ان المنطقة شهدت أحداثا سياسية بالغة الأهمية .. حيث تخرج حافظ الأسد عام ١٩٥٥ برتبة ملازم ثان فى سلاح الطيران ، وعين طيارا مقاتلا فى مطار « المزة » وكان يلتقى مع رفاقه من العسكريين البعثيين ، وكان اللقاء يتم غالبا فى نادى ضباط حامية دمشق ، وفى عام ١٩٥٥ اغتيل العقيد عدنان المالكى الذى كان ضابطا لامعا ورئيسا للشعبة الثالثة ومعاونا لرئيس الأركان وذلك بتحريض أحد قادة الحزب القومى السورى .

وهنا تجدر الاشارة إلى أن البعثيين لم ينجرفوا وقتئذ فى مسلسل العنف ضد الحزب القومى السورى ، واكتفوا بتأييد قرار الحكومة فى حل هذا الحزب ، وبعد انقضاء عام على استقالة أديب الشيشكلى عام ١٩٥٤ كان الوضع السياسى فى سورية قد تطور فى اتجاه اعادة المجلس النيابى ، واستطاع حزب البعث فى انتخابات سبتمبر أيلول ١٩٥٤ أن يفرض وجوده فى البرلمان بعد الدمج الذى حصل بين حزب الاشتراكى العربى برئاسة أكرم الحوارنى وحزب البعث ، وتجدر الاشارة إلى أن أكرم الحورانى كان ينتمى فى الأربعينات إلى الحزب القومى السورى الذى أسسه أنطون سعادة . إلا أن توحيد الحزبين عام ١٩٥٣ تم دون استشارة القاعدة التى عبرت عن استيائها فى مؤتمر عقد فى يونيو حزيران ١٩٥٤ ، كما أبدت تحفظات تجاه العلاقات الواجب اقامتها مع الثورة المصرية ، أعقبتها بعض الاستقالات وتوقف صحيفة البعث[1] عن الصدور عاما كاملا .

فى تلك الفترة كانت المقاومة ضد حلف بغداد قد بلغت ذروتها ، وهو حلف نادت به المملكة المتحدة التى كانت تدعم تحالفا رجعياً يضم دول ايران وباكستان وتركيا والعراق وكان يراد به فى الواقع تكتل الدول العربية مع الغرب ضد الكتلة الشرقية ،

ويهدف أيضا إلى إبعاد نظر العرب وصرف جهودهم عن قضية فلسطين ، وقد رفضت الحكومة السورية الانضمام الى هذا الحلف الذى رأت أنه يهدد استقلالها ، وأن دفاع العرب يجب أن يتولاه العرب أنفسهم ، وأن التحالف مع الغرب المستعمر مؤامرة جديدة يراد بها تغليف الاستعمار ، وستره بالمواثيق والمعاهدات الدولية ليكتسب صفة قانونية وشرعية ، فضلا عن أن هذا التحالف يعرض الوطن العربى لشرور الحرب ، وفيه معاداة للاتحاد السوفيتى دون أى مسوغ .

وكان الضباط السوريون يعربون عن سخطهم على موقف الولايات المتحدة المنحاز لاسرائيل والذى برز وتجلى بشكل واضح فى المشروع الذى أوصى به الرئيس الأسبق ايزنهاور عام ١٩٥٤ عندما طرح خطة لاستثمار مياه نهر الأردن تخدم مصلحة عدو العرب الرئيسى ، بإقامة سد على نهر « الحاصبانى » فى لبنان ولاستيعاب الفائض السنوى من المياه لاستخدامه ، وسرعان ما تيقن البعثيون أن الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو لم يكن يحركهم الأجنبى ، وفى أغسطس عام ١٩٥٥ أصبح شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية ، ولم يمض شهران على ذلك حتى قررت القاهرة ودمشق تشكيل قيادة عسكرية مشتركة فى سورية ، وفى عام ١٩٥٥ عقد مؤتمر « باندونج » وكان له دوره الكبير فى تأكيد احترام سيادة الدول ووحدة أراضيها والمساواة بين كافة الأجناس ، كما أرغمت فرنسا عام ١٩٥٤ على التفاوض فى جنيف حول استقلال فيتنام بعد هزيمتها فى (بيان بيان فو) كما شهدت دول المغرب العربى حركات عصيان ضد المستعمر .

كان العسكريون والسياسيون السوريون على السواء ، ينظرون إلى المؤامرات التى تحاك ضدهم وضد الوطن العربى بغضب شديد ، وكانوا يتطلعون إلى بناء جيش حديث ، إلا أن الغربيين كانوا يرفضون ذلك حتى لا يتعرض أمن اسرائيل للخطر ولكن على غرار مصر بادرت سورية، وحصلت على العتاد الحربى من الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٥ وتتابعت المعاهدات الدفاعية بين الدول العربية ، وعرضت الولايات المتحدة فى ذلك الوقت على مصر خطة استصلاح أراض ، وتمويل بناء السد العالى مقابل عقد صلح منفرد مع اسرائيل ، ولكن مصر رفضت وبعد مغادرة آخر الجنود البريطانيين قناة السويس فى ١٨ يونيو حزيران عام ١٩٥٦ ، وبعد انتخاب جمال عبدالناصر رئيسا للجمهورية ، وبعد أن بدأت القاهرة تدعو الأقطار العربية الرازحة تحت نير الاستعمار إلى أن تهب فى وجه المستعمرين تراجعت الولايات المتحدة عن تمويل السد العالى ، ووقع عبدالناصر عقد شراء الأسلحة الثقيلة من تشيكوسلوفاكيا ، وبادر حزب البعث فى دمشق إلى تأييد مصر ، وفى عمان وقفت السلطة إلى جانب سورية فى معارضتها لحلف بغداد ، **وأدى ذلك إلى تقارب بين البلدان الثلاثة الأمر الذى أدى إلى تشكيل قيادة عسكرية مشتركة .. مصرية سورية أردنية فى عام ١٩٥٦ .**

وفى عام ١٩٥٦ وقع العدوان الثلاثى على مصر ، وقد انتهى بالاخفاق الذريع ، نتيجة ضغط مشترك مارسته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وخرج عبدالناصر منتصرا فى نظر الرأى العام العربى والعالمى واستمرت الثورة الجزائرية وكثف السوفيت مساعداتهم لمصر وتوالت الأحداث بعد ذلك ولم يتحقق حلم الغرب ، وأسهم العدوان الثلاثى فى شحن السوريين ، وكان البعث فى طليعة المساندين لمصر ، كما تطوع الكثير من السوريين للقتال من أمثال جول جمال ، واستشهدوا فى المعارك البحرية والبرية والجوية ، ونددت دمشق بفرنسا وبريطانيا وقطعت علاقاتها الدبلوماسية معهما ، ومنذ نهاية عام ١٩٥٦ حل الأمريكيون محل الأوربيين فى الشرق الأوسط ، الذى كان يرى الرئيس ايزنهاور أنه ساحة المعركة بين الشرق والغرب .

وفى عام ١٩٥٧ كان البعثيون يتطلعون إلى الوحدة العربية ، كان حزب البعث قد تعهد بالتقارب مع مصر عبدالناصر ، وبدأ هذا التعهد يتحول إلى حقيقة واقعة ووجود فعال إذ اجتمع فى أول فبراير ١٩٥٧ رئيسا جمهوريتى مصر وسوريا وممثلو الجمهوريتين وأصدروا بيانا تاريخيا قرروا فيه أن الغاية من اجتماعهم هى المداولة فى الاجراءات النهائية لتحقيق ارادة الشعب العربى ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين من أن شعب كل منهما جزء من الأمة العربية ، وانتهوا إلى قرار بأن الوحدة بين القطرين الشقيقين ما هى إلا ثمرة القومية العربية ، وهى طريق العرب إلى الحرية والسيادة ، وسبيل من سبل الانسانية للتعاون والسلام ولذلك فإن من واجب المجتمعين - بناء على هذه الاعتبارات - أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمانى الى حيز التنفيذ فى عزم ثابت واصرار قوى ، ثم خلص المجتمعون إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين وأسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما فى الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحا . وأكد أنها حركة بناء وتحرير ، وعقيدة تعاون وسلام ، ومن أجل ذلك أعلن المجتمعون عن اتفاقهم التام وايمانهم الكامل وثقتهم العميقة فى وجوب توحيد سورية ومصر فى دولة واحدة ، وتم ميلاد الدولة الجديدة فى ٥ فبراير شباط عام ١٩٥٨ وكان ميلادها ايذانا بفجر جديد تتضافر فيه كل الجهود والقوى فى سورية ومصر فى سبيل واحد ونحو هدف واحد وإيمان مشترك لتحقيق مجد العروبة .

وفى ٢١ فبراير شباط ١٩٥٨ أجرى الاستفتاء على الوحدة وعلى انتخاب رئيس الدولة الجديدة وانتخب الرئيس الراحل جمال عبدالناصر رئيسا للدولة الناشئة « الجمهورية العربية المتحدة » ، وما أن بزغت شمس الوحدة وقامت الجمهورية العربية المتحدة حتى كان رد الفعل سريعا إذ بادرت المملكة اليمنية إلى اعلان رغبتها فى الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة على أساس الاتحاد الاستقلالى ، وقد قوبلت رغبة اليمن بالاعزاز والتكريم وتحولت الرغبة المتبادلة الى عمل تنفيذى ايجابى .

وفى ٨ آذار مارس ١٩٥٨ أبرم ميثاق اتحاد يسمى اتحاد الدول العربية يتكون من الجمهورية العرية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية ، والدول العربية التى تقبل الانضمام الى هذا الاتحاد ، **ولقد قوبل قيام الجمهورية العربية المتحدة بعدم الارتياح من السلطة الحاكمة فى العراق والأردن**، التى بادرت إلى اعلان ميثاق الاتحاد العربى الهاشمى بينهما فى ١٤ فبراير شباط عام ١٩٥٨ .

البعـــث والوحـــدة

وقف حزب البعث الى جانب تشكيل الجمهورية العربية المتحدة من منطلق ايمانه بأنها التجربة الوحدوية الأولى ، ونقطة الجنب داخل الثورة العربية أيضا ، وادراكا منه بأنه قد سبقت هذه الوحدة ليال طويلة حالكة امتدت مئات السنين فى صراع مستمر مع ظلام الاستعمار والاستبداد والظلم والضعف ، وقد عاشت هذا الصراع الطويل المدى أجيال قبلنا وقاست أهواله وتحملت مصاعبه ، وكافحت الطغاة ، واستبسلت فى كفاحها لتحمى تراثنا ، وتدافع عن كياننا وتحفظ مقومات وجودنا ، واسباب ارتباطنا ببعضنا كأمة عربية واحدة لها ذاتيتها المستقلة

رأى حزب البعث كما رأت مصر أن قيام الجمهورية العربية المتحدة سيكون نقطة تحول رائع فى تاريخنا الحديث وبداية موفقة لمشرق فجر جديد على الأمة العربية يحمل فى طياته الحرية والعزة.

إن مصر فى كل عصورها كانت تؤمن حدودها ضدالغارات المغولية والعثمانية والهجرات المختلفة من آسيا وأوربا باتحادها مع الشام ووقوفها أمام الخطر الداهم كانتا تناضلان لحماية كيانيهما وكيانات شعوب المنطقة التى أخذت تنوشها السهام من كل مكان وخاصة فى أيام الضعف والانحلال ، ولقد تعرضت هذه المنطقة ـ كما سبق وذكرنا ـ إلى غزو الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر وخلال القرن الثانى عشر ، ولكن صلاح الدين الأيوبى سلطان الشام ومصر دحرهم فى معركة « حطين » وردهم على أعقابهم خاسرين مجللين بعار الهزيمة ثم جاءت جموع التتر إلى الشام تريد احتلاله فتصدى لها القائد بيبرس بقوات مصرية شامية واستطاع فى معركة « عين جالوت » أن يهزم جحافل التتر وينتصر عليها انتصارا عظيما

وهكذا فإن تراب الشام قد خضب من أثر هذه المعارك بدماء مصرية غالية كما خضب ثرى أرض مصر بدماء شامية عزيزة علينا جميعا تذكرها دوما بكل العرفان والتقدير .

كان من أهداف الوحدة السورية المصرية التصدى لحلف بغداد الموالى للغرب ، وهو الحلف الذى سعى الى ربط البلاد العربية باسم الدفاع المشترك ، وهو الحلف الذى أنهى المعاهدة العراقية البريطانية المبرمة عام ١٩٣٠ وحل محلها .

وتجدر الاشارة الى أن حكام العراق كانوا يدعون أن هذا الحلف الذى كان يضم « العراق وتركيا وايران وباكستان وبريطانيا » ومن ورائهم أمريكا سيفيد القضايا العربية ، وخاصة قضية فلسطين !! ولكن الحلف لم يحقق شيئا سوى عزل العراق عن البلاد العربية وبلبلة الأفكار واثارة الخواطر فى دنيا العرب ، وكانت سياسة بريطانيا ان يكون هذا الحلف أداة لشل الكفاح العربى وتجميده ولكن العرب تنبهوا للخدعة الكبرى التى ينطوى عليها هذا الحلف فلم تقبل الدول العربية الانضمام اليه ، بل وقفت بوجهه .

على الجانب الآخر كان هناك كميل شمعون الذى كان وزيرا فى حكومة رياض الصلح التى أعلنت استقلال لبنان وأعلنت الحرب على الطائفية ولكنه تنكر لموقفه القديم ومنذ أن فاز بالرئاسة عام ١٩٥٢ وهو يتزعم الدعوة الى الفتنة والفرقة والانقسام وينتهج سياسة استفزازية بالنسبة للعرب ، ويرتمى فى أحضان الغرب وحلف بغداد .

صـــورة الموقـــف

هذه هى صورة الموقف فى ذلك الوقت ، وهنا تجدر الاشارة الى أن القيادة القومية لحزب البعث دعت فى ١٧ ابريل نيسان الى الاتحاد الفيدرالى الذى أقرت مبدأه الحكومة السورية . أما الوحدة الاندماجية مع النظام السياسى المصرى فكانت القيادة لا تؤيدها ، وقد اتخذت قيادة الحزب هذا القرار دون استشارة القواعد فى سوريا أو خارجها .

فى ذلك العام نفسه قام ضباط بعثيون وتقدميون بإعلان العصيان فى « قطنا » التى تبعد ٢٨ كم عن دمشق احتجاجا على بعض التنقلات الجائرة فى القيادة وعلى انتخاب شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية وكانوا يفضلون عليه خالد العظم ، وكان يقود البعثيين العسكريين آنذاك مصطفى حمدون وعبدالغنى قنوت ، أما الرئيس الحقيقى للحزب فكان أكرم الحورانى حيث كان يقود الحزب مع مؤسسيه ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، وقد أصدر قادة التمرد العسكرى الأمر لحافظ الأسد بالاستيلاء على القاعدة الجوية فى مطار المزة ، إلا أن عددا من الضباط القادة أمثال عبدالغنى عياش والمقدم عمران انسحبوا من حركة التمرد ، ولما كان حافظ الأسد ضابطا طيارا لا يقود قوات كبيرة ، ولم يتجمع لديه سوى فصيلة طوارىء لا يتجاوز عدد أفرادها الثلاثين قام ـ كما سلف وذكرت ـ بجمع هؤلاء كى ينقل إليهم التعليمات التى وردت إليه والتى تتلخص فى منع الطيارين العائدين من دمشق من الوصول إلى طائراتهم ، وهكذا بقيت القاعدة فترة من الوقت تحت سيطرة المتمردين بقيادة حافظ الأسد وحده ، وكان لايزال ضابطا حديثا قام بتنفيذ أوامر أصدرها إليه أكرم الحورانى لكى يثبت للسلطة السياسية قدرته على التحرك عسكريا .

وقد شغل اكرم الحورانى دورا غامضا فى هذه الحركة التى أخفقت ـ كما قال العماد مصطفى طلاس ـ وهو يروى هذه الحادثة للوسيان بيترلان مؤلف كتاب مسيرة مناضل

« لقد اتخذت اجراءات ادارية ، ولكن لم تفرض عقوبات فى حق المتمردين وقد أدركنا آنذاك أن الحزب لم يكن قادرا على تسلم السلطة ، وأن المدنيين قد خدعوا العسكريين وورطوهم فى هذه المؤامرة التى خطط لها أكرم الحورانى ، وقد تتابعت الخطوات التى أشرنا اليها فيما سبق والتى أدت الى قيام دولة الوحدة فى ٢٢ فبراير شباط ١٩٥٨ باسم الجمهورية العربية المتحدة .

وفى ٢٥ فبراير/ شباط أعلن الأمين العام لحزب البعث ان الحزب حل نفسه على الصعيد الرسمى « ولكننا سنكون حاضرين فى الحزب الوحيد الذى يمثله الاتحاد القومى » ، وهذه الحركة التى عبرّت عن وحدة البلدين لا يمكن أن توجهها سوى مبادىء حزب البعث ، وتم التصديق على استفتاء ٢١ فبراير شباط ١٩٥٨ بأغلبية ٩٩,٧٥٪ من الاصوات ورحبت بها مختلف فئات الشعب فى البلدين باستثناء الحزب الشيوعى السورى الذى انتقل الى العمل السرى بينما فر أمينه العام خالد بكداش الى الخارج .

وقد أدى قيام الجمهورية العربية المتحدة الى التطورات التى أشرنا اليها فيما سبق ، لكن هذه الوحدة لم تدم طويلا ، وواجه السوريون ادارة بيروقراطية ثقيلة ، وكانوا موضع ريبة آخذة فى التزايد كما أن مركزية الحكم لم تسمح لهم بتطبيق مبادىء البعث ولاسيما أن السلطات كانت فى يد جمال عبدالناصر .

وهناك من يعتقد مثل الدكتور سهيل زكار « انه كان من الحكمة بعد قيام وحدة ١٩٥٨ أن يستفيد عبدالناصر من تجربة البعث الايديولوجية ويسعى لتطوير هذه التجربة لتكون أيديولوجية دولة الوحدة ، وأنه لو تم ذلك لكنا سنعيش .. ليس فى ظل العلم السورى المصرى بل فى ظل علم عربى لدولة عربية كبرى ولكان كثير من مشاكلنا وأزماتنا الآن غير موجودة ، لكن طبيعة الحكم الفردى ومسألة الجهاز البوليسى الذى تكون قضى على هذه الآمال ويقول : مازلت أذكر أن رفاقى الأعرف منى بالحزب كان لهم سعى حثيث ليتم اصلاح التجربة من الداخل دون عملية الانفصال ، ولكن استغلت أخطاء الحكم البوليسى وتمت عملية الانفصال بتدبير من أعداء الأمة العربية ومن أجهزة خارجية ، ومنذ ذلك الحين سعى الحزب بكوادره الشابة المؤمنة للرد على عملية الانفصال بثورة الثامن من آذار دون أن ننسى حركات الضباط الذين حكم عليهم بالاعدام لاسيما الحركة التى تمت فى حلب واعتبرت حركة عصيان ومن أبرز شخصياتها محمد ابراهيم العلى وقد حكم عليه بالاعدم وكان سينفذ فيه الحكم لولا قيام ثورة الثامن من آذار/مارس الوحدوية .

ماذا جرى بعد ذلك ؟

اتخذ مسار الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط منحى جديدا ، ينسجم مع المد القومى الوحدوى التى كانت القاهرة ماتزال تتزعمه بقوة كبيرة ، ففى صبيحة يوم الجمعة الموافق

٨ فبراير شباط ١٩٦٣ تحركت مجموعة مدنية عسكرية من القوى القومية كان رأس حربتها فصائل بعثية مسلحة فى اتجاه وزارة الدفاع العراقية مقر اقامة عبدالكريم قاسم الذى أدخل شعب العراق فى مذابح وحشية ومارس أعنف صور الديكتاتورية والاستبداد وانحرف بثورة ١٤ يوليو تموز عام ١٩٥٨ بعد أن قضى على مفجريها الحقيقيين وهى الثورة التى بدأها الجيش وأيدها الشعب بقوة ومزقت وهى فى عنفوان غليانها عبدالاله ونورى السعيد لأنهما يمثلان ما لحق بالعراق من ظلم وكبت واضطهاد وحرمان .

وفى الوقت نفسه كان راديو بغداد يذيع البيان الأول للثورة الذى أعلن انه تم القضاء بعون الله على حكم عدو الشعب عبدالكريم قاسم وزمرته التى سخرت موارد البلاد وسخرت الحريات وداست الكرامات وخانت الأمانات وعطلت القوانين ، وأعلنت البيانات اللاحقة عن مبادىء تهدف الى غايات نبيلة وتعمل على التخلص من الأوضاع القديمة الفاسدة وتعد بإخراج العراق من عزلته،والعودة الى ركب العروبة . وأن العراق الجديد سيتعاون مع كل الأشقاء العرب ، وبعد شهر واحد من أحداث العراق كانت دمشق تشهد تحركا بالغ الأهمية ، وفى خلال ساعات قليلة كان نظام الانفصال المتهالك قد تهاوى تحت ضربات العقب الحديدية الوحدوية ، **وكشف البيان الأول الصادر عن مجلس قيادة الثورة ملامح الحكم الجديد حيث جاء فيه مايلى :**

« منذ فجر التاريخ العربى وسورية تلعب دورا ايجابيا مناضلا فى حمل راية العروبة والوحدة ، وكانت سورية العربية وشعبها لا يعترفون بحدود قطرهم وانما يعيشون دائما وأبدا فى حدود الوطن العربى الكبير حتى أن النشيد السورى لم يحو كلمة واحدة عن سورية وانما كلماته كلها تمجيد للعروبة وتخليد لمفاخر العرب وبطولاتهم ، ولما قامت الجامعة العربية اندفعت سورية تدعمها وتدفع بها للأمام ، ثم أتت وحدة مصر وسورية فى الجمهورية العربية المتحدة نموذجا لآمال شعبنا فى تحقيق وحدته الكبرى ، واندفع الشعب العربى فى سورية كلها بقلبه وروحه وايمانه معطيا اياها كل ما تريد من قوة وتدعيم » .

ولكن الرجعية العميلة والاستعمار والانتهازية أبت الا أن تكشف عن نفسها مستغلة الأخطاء فى تلك الحقبة فذهبت بالتآمر على تلك الجمهورية الى أقصى ما تستطيع فكانت نكبة الانفصال .

أيها الشعب العربى فى سورية ، سنة ونصف مرت على الانفصال وأنت تعانى أصعب فترة مرت عليك .. انتخابات مرحلة بدء الاستقلال أشرف عليها الاستعمار والرجعية ، وصحف مأجورة تنهش أمانيك ، ولا تعبر عن عقيدتك ومشاعرك وبعدك عن الدول المتحررة يزداد يوما بعد يوم حتى أضحت العزلة هى الطابع الأساسى لسورية .

أيها الشعب العربي في سورية، كل ذلك وجيشك لم يكن بالجيش الغافل عن واجبه ولم يكن لنا في قيادته المنحرفة المراوغة إلا مشجعا على تحقيق رغبة الشعب فقام في صباح هذا اليوم بحركة ثورية تعبر عن مبادىء لخصها في الوحدة العربية والحياد الايجابي ومباركة ثورة العراق واللقاء مع القاهرة .

وعلى الجانب الآخر كان جمال عبدالناصر يتابع ما يجري في دمشق باهتمام بالغ ، وكان ما يجري في دمشق فرصة مواتية لتؤكد ان ما حدث في سورية من مؤامرة الانفصال كان أمرا عارضا ، فهاهو ذا نظام الانفصال الذي قام في سورية يتهاوى ورموزه تقدم للمحاكمة .

لقد كان عبدالناصر يرى أن وحدة البلدين في جمهورية عربية واحدة يستند الى ماض من الكفاح طويل ، والى تاريخ مشترك ، ووحدة مصر وسورية كانت بالنسبة لعبدالناصر انجازا نضاليا رائعا ، وكان يرى أن هذه الوحدة ترجع الى أسباب وعوامل كثيرة عميقة الجذور أصيلة ونبيلة ، ولقد كانت أول برقية تلقاها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر بعد ثورة الثامن من آذار : « الرئيس جمال عبدالناصر .. لقد ثأرنا من الانفصال وغسلنا عاره » وكان واضحا أن ثورة آذار انطلقت من صفوف الشعب لكي تقضي على كل مظاهر التخلف والظلم والاستغلال وتقود الشعب على طريق الوحدة والحرية والاشتراكية ، لقد ولدت هذه الثورة من معاناة الشعب السوري وقامت بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .

دور الأسد في الاعداد لثورة آذار

إن الدور الحقيقي الذي شغله حافظ الأسد في التمهيد لقيام ثورة آذار ، والدور الذي شغله ليلة الثامن من آذار نفسها ، مايزال دورا مجهولا تنقصه التفاصيل ، وربما يعود هذا الشيء الى شخصية حافظ الأسد نفسها فهو كبعثي أولا ، وكعسكري ثانيا حريص على العمل ضمن المؤسسة الحزبية والمؤسسة العسكرية اللتين عمل في اطارهما ، وكلتا المؤسستين تفترض العمل السري والجماعي ، والبعد عن العلانية والمظهرية والفردية ، اضافة الى أن حافظ الأسد ، وهو البعثي الملتزم يؤمن بأن دور الشخص مهما كان أساسيا فإن الثورة وهي فعل يستهدف تغييرا شاملا في بنية المجتمع لابد أن ترتكز إلى العمل الجماعي الشمولي الذي تتوزع ادواره بين الدراسة والتخطيط والتنفيذ والممارسة ، **ويتحدث « باتريك سيل » في مؤلفه : الأسد الصراع على الشرق الأوسط ، عن دور حافظ الأسد في أحداث الثورة في يومها الأول فيقول :**

« كانت اللحظة المظفرة لحافظ الأسد هي لحظة استيلائه على قاعدة الضمير الجوية حيث كانت القوة الجوية بكاملها متمركزة فيها والتي كانت تشكل المقاومة الجوية الوحيدة

ضد الانقلاب ، فقد أرسلت بعض الطائرات لقصف المتمردين ، وكانت الخطة تقضى بأن يتحرك الأسد ضد الضمير على رأس سرية من لواء الحريرى مستهدفا الوصول قبل الفجر لتجنب وقوع هجوم عليه من الجو ، ولكن مرة أخرى حصلت مشكلة لم تكن فى الحسبان فقد استغرقت المفاوضات فى الضمير أطول مما كان متوقعا **ويقول حافظ الأسد مستذكرا تلك اللحظات :**

« ارسلت اليهم مبعوثا برسالة تحذيرية بأننى سأباشر القصف اذا كانت هناك أية مقاومة ، وبعد بضع دقائق جاء اثنان من ضباطهم فى سيارة ليقترحا التفاوض فهرعت على الفور معهما الى حيث آمر القاعدة وقلت له : لقد انتهى الأمر بالنسبة لكم ، لكن مالم تستسلموا فإننا سنستعمل القوة » .

صحيح أن الثامن من آذار يوم صنعته طليعة عسكرية ، الا أن عقائدية هذه الطليعة جعلت من الحدث عملا ثوريا كاملا ، انتهى دوره الانقلابى صبيحة يوم الثامن من آذار بانتهاء فعل التغيير ، لتحل محل الفعل الذى هو « الانقلاب الثورى » بطليعته العسكرية التى نفذته « الثورة » التى هى الفعل المستمر والتى بدأت مهامها مباشرة بعد الفعل الانقلابى .

فالطليعة التى نفذت الانقلاب الثورى كانت اداة التغيير ، أما الثورة نفسها فكانت فعل التغيير الذى مازال يتفاعل الى اليوم .

يذكر حافظ الأسد أن أهداف الأمة العربية الكبرى لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الثورة ، أما الشعب فهو أداة الثورة ، وأنه لكى نمارس الثورة يجب أن تتحقق وحدة الارادة .

كما يقرر ان الطلائع الثورية التى حملت مشعل الثورة عام ١٩٦٣ كان عملها هذا استجابة لآمالها فى الوحدة والحرية والاشتراكية .

كان فكر حافظ الأسد الثورى من أبرز سمات شخصيته القيادية ، وكان من الطبيعى ان يصطدم مع بعض العقليات الجامدة التى مارست فهما خاطئا ومشوشا لايديولوجيات غريبة وغامضة ، ومن هنا بدأ التعارض بين فكر التيار الذى يمثله حافظ الأسد فى الحزب وبين تلك التيارات يتزايد ويتعمق ، وكشف الصراع عن وجود تيارين يختلفان بشكل جذرى ، تيار ينظر الى السلطة على انها اداة لتحقيق تطلعات الجماهير ، وتيار ينظر الى السلطة على انها وسيلة للمناورة والالتفاف من الخلف والخداع .

وكان من الطبيعى ان يخلق هذا التيار الذى عاشته ثورة آذار فى بداياتها انعكاسات

على الحركة الأولى التى قامت بها العقلية اليمينية المناورة فى وقت كانت الثورة فى مرحلتها الأولى التاسيسية .

واذا كانت الثورة اعلنت أن هدفها الرئيسى هو اسقاط حكم الانفصال ، والعمل على عودة الوحدة فكان من الطبيعى ان تعاود الاتصال بالقاهرة بهدف التوصل الى صيغة وحدوية قادرة على البقاء وعلى الاستمرار ..

وهنا يقول بعضهم: « إن الرئيس الراحل عبدالناصر كان يصر على الاحتفاظ بتسمية الجمهورية العربية المتحدة وعلمها ونشيدها ، ورأى أن أى وحدة جديدة تضم حكومات يسيطر عليها البعث الحاكم فى دمشق وبغداد لابد أن تضعه بين المطرقة والسندان ، واصر البعث السورى على ضرورة وجود شكل جديد للوحدة يختلف عن الشكل الذى كانت عليه وحدة ١٩٥٨ . أما البعث العراقى فقد وقف موقفا محيرا ، مرة يؤيد وجهة النظر المصرية ، ومرة اخرى يؤيد وجهة النظر السورية ، وكان واضحا انه يريد أن يعمق الخلافات المصرية السورية ويضخمها لمصلحته القطرية ، وشهدت القاهرة محادثات الوحدة الثلاثية والتى اعترف فيها صلاح الدين البيطار بخطئه وندمه على توقيع وثيقة الانفصال ، واعترف عبدالناصر بدوره انه كان قاسيا مع البعث عام ١٩٥٨ وأنه تسرع اكثر ممابنبغى فى حل الأحزاب السياسية كلها مؤكدا انه كان ينبغى أن نحل الأحزاب التى لم يكن بيننا وبينها هدف مشترك وأن نوحد الأحزاب الوطنية مؤكدا انه لم يكن يعرف سورية معرفة جيدة .

وقال عبدالناصر: ان كل من كان يعرفهم معرفة جيدة كانوا خمسة او ستة أشخاص وكانوا كتلا متنافسة ، وقد ظللت أقول لهم إن الأمر يحتاج الى خمس سنوات لأننا لم نكن على معرفة بكل تفصيلات الوضع فى سورية ، وقد أشار انتونى ناتنج فى كتابه « ناصر » الى ان الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان حذرا لخوض تجربة وحدوية جديدة مع رفاق الأمس ، وهذا الأمر أضر بالنتائج التى تمخضت عنها محادثات الوحدة الثلاثية».

نعود فنقول : انه بعد أن عاد الضباط الذين أقصوا من الجيش فى ٨ مارس آذار عام ١٩٦٣ ومنهم حافظ الأسد ومحمد عمران وصلاح جديد وعبدالكريم جندى وآخرون ، وارتدوا زيهم العسكرى وقاموا بعدما خدعوا الوحدات المختلفة فى العاصمة بالتسلل داخل الكتائب التى ستستولى بقيادتهم على العاصمة ، وتحرك اللواء زياد الحريرى رئيس أركان قيادة الجبهة السورية وقتئذ ، وهى القوات التى تقف على الخط الفاصل فى مواجهة الاسرائيليين ، تحرك بقواته باتجاه دمشق وتم التلاقى مع قوات الثوار دون اراقة دماء ، وما ان نجحت الثورة حتى عاد حافظ الأسد الذى عين برتبة مقدم قائدا للواء الجوى السابع فى « الضمير » وكان قوة التدخل الجوى الوحيدة فى سورية ، كما عاد الرائد مصطفى طلاس الى الخدمة الفعلية ، وقد رأس العميد لؤى الاتاسى المجلس

الوطنى لقيادة الثورة الذى كان يضطلع فى ذلك التاريخ بالسلطات الكافية وتولى صلاح البيطار رئاسة الحكومة .

وما أن تسلم البعثيون السوريون زمام الحكم حتى دعاهم نظراؤهم الى تجربة وحدوية جديدة أسفرت بعد التردد الشديد عن توقيع اتفاقيات مبدئية من أجل انشاء اتحاد عربى يضم مصر وسوريا والعراق فى ١٧ نسيان ابريل عام ١٩٦٣ ، على ان يتم ذلك عبر استفتاء يجرى قبل ١٥ ايلول سبتمبر ولكن الاستفتاء لم يجر بسبب تطورات الاحداث .

فاللواء زياد الحريرى الذى كان على رأس القائمين بثورة الثامن من آذار حاول الارتداد بالثورة عن أهدافها ولذلك تم استغلال رحلة قام بها الى الجزائر وجرد من وظيفته وعين سفيرا فى أسبانيا ، وقام اللواء الأتاسى من جانبه بمحاولة انقلاب جديدة بواسطة ضباط ناصريين ولكنها أخفقت فى ١٨ يوليو تموز وحين ذلك عين الحزب فى وزارة الداخلية اللواء أمين حافظ وهو ضابط انضم الى صفوف البعث فى يوليو تموز عام ١٩٦٣ .

وفى شهر أغسطس آب من العام نفسه وقعت اشتباكات مع الاسرائيليين على مقربة من بحيرة « الحولة » بينما عقد حزب البعث مؤتمره القطرى واتجه المؤتمر بحزم وجهة الثورة الاشتراكية والاصلاح الزراعى .. الخ .

بعد شهر من انعقاد المؤتمر القطرى افتتح المؤتمر القومى السادس الذى تم فيه انتخاب ثلاثة ضباط سوريين فى القيادة القومية الى جانب ضابطين عراقيين احدهما أحمد حسن البكر الذى أصبح رئيسا للجمهورية عام ١٩٦٨ ، ولكن فى نهاية عام ١٩٦٣ كان البعثيون قد أقصوا عن السلطة فى العراق على يد الرئيس عبدالسلام عارف ..

وفى سورية كانت الصراعات الداخلية على أوجها ، وكان من أبرز هذه الصراعات صراع بين رجلين عسكريين من ذوى الرتب العالية هما أمين الحافظ الذى كان وزيرا للداخلية ثم نائبا لرئيس مجلس الوزراء،فقائدا للجيش،فرئيسا للحكومة،ورئيسا للمجلس الوطنى القومى لسورية وصلاح جديد،وهولواء فى سلاح المدفعية وكان كلاهما فى اللجنة العسكرية والقيادة القطرية .

وكان حافظ الأسد منذ ٨ آذار قد أصبح عضوا فى المجلس الوطنى لقيادة الثورة وتسلم مسئوليات فى القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث منذ ذلك التاريخ ،وبات قائدا للقوة الجوية ورقى لرتبة لواء فى ٢ ديسمبر كانون الأول عام ١٩٦٤ وكان حافظ الأسد مع رفاقه قد ضاقوا ذرعا بصراعات النفوس والتجاوزات المرتكبة على كافة المستويات ، وقد تزامن مع هذا انعقاد أول مؤتمر قمة عربى فى القاهرة عام ١٩٦٤ لبحث خطة اسرائيل لتحويل مياه نهر الأردن ، وهو المؤتمر الذى تم فيه تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وأعقبه مؤتمر القمة الثانى الذى عقد فى الاسكندرية فى شهر

سبتمبر ايلول من نفس العام ، وهو المؤتمر الذى اعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطينى وتم فيه الاعلان عن تشكيل جيش التحرير الفلسطينى وقرر الرؤساء العرب المباشرة فورا فى تنفيذ مشاريع استثمار مياه نهر الاردن .. أى القيام باعمال التمويل فى الأردن وسوريا ولبنان والتصدى لمشاريع اسرائيل فى هذا المجال .

وفى شهر تشرين الثانى نوفمبر جرت اشتباكات سورية اسرائيلية ، وفى داخل سورية تجلى الاستياء على صورة اضطرابات وأعمال تمرد محلية كما حدث فى حلب وحماة وتم العدول عن بعض التدابير الاقتصادية التى كان قد سبق للحكومة اتخاذها .

وفى مطلع عام ١٩٦٥ بدأت العمليات العسكرية الأولى لمنظمة العاصفة وهى الجناح العسكرى لمنظمة فتح ضد المنشآت الاسرائيلية المقامة لجر مياه الأردن ، كما تتالت حوادث الحدود بين السوريين والاسرائيليين .

وقد عقد فى العام نفسه المؤتمر القومى للحزب وكان أمين الحافظ أمينا عاما وصلاح جديد أمينا عاما مساعدا .

وكما يقول العماد مصطفى طلاس : فقد كان حافظ الأسد عضو القيادتين متمسكا بالوحدة العربية ، وكان بالغ الضيق من التناحر داخل الحزب بين معتدلين وتقدميين ، مدنيين وعسكريين ، وحتى العسكريون كانت صفوفهم مقسمة ، وفى تلك الفترة اقصى ميشيل عفلق عن منصب الأمانة العامة لصالح منيف الرزاز من القطر الأردنى .

ويتحدث العماد مصطفى طلاس الى الكاتب الفرنسى لوسيان بيترلان عن أحداث تلك الفترة فيقول : « كان أمين الحافظ يريد احتكار السلطات كافة إلا انه لم يكن يملك العزيمة اللازمة ، لذلك ذات يوم ترك صلاح جديد رئاسة الأركان وكان على وزير الدفاع اجراء بعض التنقلات فاستدعى على سبيل المثال قائد اللواء الخامس عدة مرات دون أن يلبى هذا الأخير طلبه ، عندئذ شكا لى الوزير تصرفات القيادة وكلفنى باعتقال قائد اللواء المدرع ، وبوصفى عضوا فى مؤسسات الحزب،كنت واثقا من اننى سأحظى بالتأييد إلا أن حافظ الأسد نصحنى بأن أفاتح القيادة القطرية فى هذه المهمة وفعلت وحصلت منها على الضوء الأخضر ، وهكذا اعتقلت فى حمص قائد اللواء المدرع والضباط الموالين لأمين الحافظ وأحضرتهم الى دمشق ، وعندئذ تم تنفيذ التنقلات التى أمر بها وزير الدفاع ، ولكن القيادة القومية للحزب اجتمعت ، وبادر أمين الحافظ الى حل

القيادة القطرية فى ٢١ كانون الأول ديسمبر عام ١٩٦٥ ووضعت تحت تصرف القيادة القومية للحزب وحظر عليّ أن أغادر دمشق ، وبعد ذلك قرر أمين الحافظ تشكيل حكومة جديدة برئاسة صلاح الدين البيطار وجاء محمد عمران وزيرا للدفاع فيها.

ويضيف العماد مصطفى طلاس : كنا نجتمع بحافظ الأسد لتدارس نتائج الأحداث المتلاحقة واحتمال المجابهة مع اسرائيل ، والتى يمكن أن تتطور فى وقت لم يكن فى وسعنا فيه أن نواجه حربا لتزعزع القيادة من جراء هذه الأحداث ، ولم يكن أمامنا مفر من التصدى بالسلاح للاتجاه اليمينى الذى رفض الدعوة الى عقد مؤتمر قومى أو قطرى على أعلى المستويات بحضور سائر أعضاء القيادة القطرية باستثناء أمين الحافظ ، وحافظ الأسد ، وابراهيم ماخوس من القيادة القومية ، وبعد قرابة عشرين اجتماعا نوقشت فيها كافة المسائل السياسية والعسكرية ، والاقتصادية تقرر الانتقال الى العمل ، ولقد بدا تأثير الرئيس حافظ الأسد واضحا لأنه انضم الى القيادة القطرية فأعطاها بعدا قوميا بانتمائه الى القيادة القومية ، وبعدا عسكريا من جراء أهمية القوات الجوية التى يقودها .

ولقد شهدت تلك الفترة خاصة بعد أن رفض عبدالناصر أى صيغة وحدوية يقودها البعث،واخفاق قيادة البعث ذات النزعة اليمينية المساومة فى تقديم صيغ وحدوية تلين موقف عبدالناصر ، **وأدى ذلك كله الى تفجر ثورة الجماهير الوحدوية فى سورية** وهو مادفع بعض القيادات البعثية غير الملتزمة وعلى رأسها أمين الحافظ الى ممارسات دموية ضد الجماهير الغاضبة،ويشتد سعير العنف القمعى وتتزايد التناقضات بين البعث والناصرية نتيجة العقلية اليمينية لحزب البعث التى كانت أسيرة خوفها وكرهها للتجربة الناصرية فى الحكم،واغراق نفسها فى نظريات غير منسجمة مع واقع النضال العربى ، وكان يقف على رأس هذا التيار ميشيل عفلق الذى اتخذ من أمين الحافظ أداة غليظة لقمع القوى الوحدوية والناصرية .

وعلى الجانب الآخر كانت اذاعات وصحف القاهرة ترد على ما يجرى ، واتخذت القاهرة قرارا باذاعة ملف محادثات الوحدة الثلاثية مما أثار سعير التباين بينهما، الأمر الذى أدى الى أن تفرض القيادة اليمينية فى البعث حالة من التسلط والاستحواذ على أجهزة الحزب وخطه الفكرى ، وهو ما دفع القيادة القطرية الى تشكيل لجنة من خمسة أعضاء كلفوا باتخاذ جميع الاجراءات اللازمة لعزل الفريق اليمينى ومن ضمنها اللجوء الى السلاح ، وقد ضمت هذه اللجنة حافظ الأسد بالاضافة الى عدد آخر من الضباط الرافضين للعقلية اليمينية ، وقد أسندت الى قوى الدفاع الجوى التى يقودها حافظ الأسد مهمة احتلال دمشق ومحاور الطرق الكبرى التى تفضى إلى العاصمة ، وهيئة الاذاعة ،

والتليفزيون السورى ، كما كلفت كذلك بمهمة توقيف جميع الوحدات التى قد تعارض مهمتها ، أما كتيبة المظليين بقيادة سليم حاطوم فكان عليها احتلال قصر الضيافة ومقر قيادة أمين الحافظ ، فى حين عهدَ الى مصطفى طلاس بالمنطقة الوسطى واللواء الخامس المدرع .

ومنذ ساعات الصباح الأولى ليوم ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ تم احتلال دمشق وكللت العملية بنجاح فى جميع أنحاء البلاد .

حـوار مع طـلاس

فى دمشق يقولون .وبيدهم الحق. انه منذ انتهاء الدولة الأموية فى الشام وقيام الدولة العباسية فإن دمشق لم تعرف مجدها وعزها السابق كما عرفته فى عهد الرئيس حافظ الأسد الذى يعدون شخصيته استمرارا للتاريخ الأموى بكل ما فيه من فروسية وشجاعة واحترام ، وعندما ناقشت العماد مصطفى طلاس فى احدى جلسات الحوار الطويلة معه حول هذا القول أكد لى انه قول مطابق للحقيقة تماما ، ونحن فى بلاد الشام **نقول : سورية الطبيعية ، والتى هى سورية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين والأجزاء المغتصبة من تركيا ويطلقون على سورية الطبيعية اسم بلاد الشام، ونحن نعتز بدولة بنى أمية ، لأن العرب عرفوا العزة وعرفوا الأمجاد فى دولة بنى أمية التى قال عنها الجاحظ : « دولة بنى مروان عربية أعرابية » .**

ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن سورية كانت دائما منطلقا للتيارات العربية والتيارات الدولية التى تعصف بها ، وأذكر حديثا للمناضل العربى زكى الأرسوزى فى أوائل الخمسينات ، وكان جالسا فى مقهى الهافانا وكان الطلاب الجامعيون موجودين بيننا وكل طالب يقوّم علاقات النواب فى سورية ، **مجموعة النائب فلان تخضع للتيار الانجليزى ، ومجموعة فلان تخضع للتيار الفرنسى ، ومجموعة ثالثة للعراق ، ومجموعة رابعة لملك الأردن** ، وهكذا حتى قال زكى الأرسوزى الا يوجد فى مجلس النواب نائب واحد لسورية ؟!! هذا الكلام كان منذ بضع وثلاثين سنة ، كانت سورية مطمعا لكل أجنبى يريد أن يكون له دور فيها ، الصورة فى سورية بعد الحركة التصحيحية التى قادها المناضل حافظ الأسد تغيرت تماما ، لأول مرة لم يعد الناس يقولون سورية مع من ؟ أصبحت سورية مع نفسها مع أمتها العربية ، وذلك من خلال المصداقية التى اتسم بها الرئيس حافظ الأسد ، بدأ الناس يحترموننا فى سورية ، **وبدأ الرأى العام العالمى يكبر الدور الذى يتولاه الرئيس حافظ الأسد** ، ونحن الآن فى أوائل التسعينات وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتفرد الولايات المتحدة فى السيطرة على العالم نجد أن سورية تقول لا للولايات المتحدة عندما يتعلق الأمر بمصلحة أمتنا العربية ، **ولذلك**

فنحن نعد عهد الرئيس حافظ الأسد هو استمرار لدولة الشموخ ، دولة بنى أمية ، كانت سورية فى حاجة ماسة الى البطل الذى يعيد اليها شموخها وعزتها ..
والبطل استجابة للحظة تاريخية معينة .. استجابة الى هذه اللحظة التى تحتاج الى من يجعلها لحظة فاعلة ومؤثرة ، والبطل هو تلبية لضرورات سياسية وحاجات اجتماعية ، هو تفاعل مع ظرف موضوعى محدد له شروطه ومواصفاته .

وعندما قلت للعماد طلاس : على ضوء هذا الكلام هل يمكن معرفة واقع سورية قبل الرئيس الأسد وطبيعة الظروف التى حددت بروزه ثم واقع سورية الان ؟

قال : لابد أن نرجع الى عهد الوحدة فى أواخر الخمسينات نذكر انه خلال هذه الفترة تكالبت على سورية القوى من كل جانب ، كانت تركيا هى الأصبع التى يحركها الغرب بقيادة الولايات المتحدة ، وكان عبدالناصر فى ذلك الوقت يقود التيار القومى ، ومن هذا المنطلق فقد وجد لزاما عليه أن يكون مع سورية ، وأبلغ الرئيس عبدالناصر المسئولين فى سورية أن مصر معكم فى نضالكم العربى ضد الاستعمار ، ولذلك أرسلت مصر قوات رمزية الى شاطىء اللاذقية كما أرسلت كتيبة مغاوير الى حلب بغية المساهمة المعنوية وللتأكيد على أن مصر تقف مع سورية فيما لو تعرضت لأى غزو .

وللأمانة التاريخية فإنه بالاضافة الى صمود الجبهة الداخلية السورية عندما طرح شعار « كل مواطن خفير » بمعنى كل مواطن يدافع عن بلده ، وأن كل مواطن يجب أن يحمل البندقية وينخرط فى المقاومة الشعبية بالاضافة الى صمود الجبهة الداخلية،كان هناك دعم الرئيس عبدالناصر من الناحية القومية ، وكان لموقف الاتحاد السوفيتى دور فاعل فى ارغام تركيا على سحب جيوشها وبالتالى تم احباط مؤامرة الضغط على سورية ..

فى ذلك الوقت وجدت قيادة الجيش أنه من المناسب اضافة الى القوى التقدمية فى سورية قيام وحدة مع مصر ، وتمت الوحدة ، وكانت سورية هى الدولة العربية الوحيدة التى قبلت أن تكون الى جانب الشقيقة الكبرى مصر .. أقول هذا لكى أؤكد أن الدول الغربية كلها كانت ضد هذه الوحدة حتى الاتحاد السوفيتى كان يحلم بقيام حكم موال له فى سورية او أن يُمكن الحزب الشيوعى فى سورية من الوصول الى الحكم ..

ووجدت الجمهورية العربية المتحدة نفسها فى بحر من العداوات العربية والأجنبية ..القطبان العاليان: أمريكا وروسيا كانا ضد الوحدة ، الدول العربية المحيطة بنا كانت ضد الوحدة ، الأردن ضد الوحدة ، لبنان ضد الوحدة ، العراق ضد الوحدة ، كل العرب المحيطين بنا كانوا ضد الوحدة ، ولذلك لم تستطع الصمود ، بالطبع يجب الا نضع الحق كله على هذه العداوات لأنه كان هناك أخطاء ارتكبت وسببت التباعد بين القطرين ، الأمر الذى مكن القوى التى تعمل فى الظلام من أن تستغل فرصة اعتماد

جهاز المخابرات فى مصر على رجال لا قيمة لهم ، ولا وزن شعبى لهم ولا جذور وطنية أيضا لهم ، وقد تأكد هذا عندما رأينا العناصر التى كانت مقربة من جهاز المخابرات المصرية تتآمر على الوحدة .. كان الضباط البعثيون كلهم فى القاهرة ، الرئيس حافظ الأسد فى القاهرة ، حوالى ٢٢ ضابطا بالاضافة الى ٣٠ قائدا من القوات المختلفة كانوا فى القاهرة ، وأقول انه لو كان هؤلاء الضباط موجودين فى سورية فى ذلك الوقت لما استطاع أحد أن يقوم بعمل من الأعمال التى حدثت .. لو كنا موجودين بمناصبنا فى سورية لما جرؤ أحد على الانقلاب على عبدالناصر ، ولكن مع الأسف كنا موجودين فى مصر ولا نستطيع الحراك بأى شكل من الأشكال .

طلبنا أن نأتى الى سورية، وكان الرئيس الأسد متحمسا للعودة الفورية الى دمشق ليقوم بعمل ما لمصلحة الوحدة، ولكن مع الأسف المخابرات المصرية قيدت نشاط الرئيس الأسد فى ذلك الوقت لاعتقادها بأنه ربما يكون على اتصال مع الرجال الذين قاموا بالانقلاب ، كانت المخابرات المصرية توغر صدر الرئيس جمال عبدالناصر ضد أكرم الحورانى وكانوا يتصورون أننا معه ، لم يكونوا يعرفون أننا انفصلنا عن أكرم الحورانى عندما قمنا بمحاولتين لاستلام السلطة ، ولكن أكرم الحورانى ، كان يقول لا توجد كوادر تستطيع استلام الحكم وبالتالى سنكون فى المواجهة دون غطاء قائمين بعصيان مدنى أو انقلاب عسكرى .. الخ ..

كانوا يعتقدون أننا محسوبون على أكرم الحورانى ، وهذا غير صحيح ، وكان الرئيس الأسد قد شكل لجنة عسكرية فى القاهرة من أجل تنظيم الحزب ، وهذه اللجنة هى التى تولت عملية التنظيم لاسقاط حكم الانفصال فى سورية .. ربما كان مما ساعد فى ابقاء الرئيس الأسد فى القاهرة انه انتقد بعض التصرفات التى ترتكبها المخابرات المصرية فى سورية مؤكدا ان هذه التصرفات يمكن أن تقود الى الانفصال فاعتقد بعضهم ان الرئيس الأسد على علاقة بالطاقم الذى قام بالانفصال،مع أن الذين قاموا بالانفصال هم جماعة كانوا محسوبين على القاهرة ولا يوجد بينهم بعثى واحد أو صديق أو قريب .. ومع ذلك بعد أن خرج حافظ الأسد من السجن وجئنا الى سورية ، وكنت أحمل رسالة البعثيين من مصر ،وكنت أول ضابط بعثى يأتى الى دمشق ، وكنت المسئول عن عائلات الرئيس الأسد وصلاح جديد وأسرتى لأنى كنت الصديق القريب منهما ، وجاءوا معى على متن الباخرة [سورية] وظللنا نناضل بقيادة الأسد حتى قمنا بحركة حلب فى ١ ابريل/نيسان عام ١٩٦٢ ، كان الرئيس الأسد برتبة رائد ، وكنا قد نقلنا الى وزارات مدنية مختلفة ولكن تمكنا باتصالاتنا أن نقوم بحركة عسكرية فى المنطقة الوسطى وفى حلب ، **ويضيف العماد طلاس :** الرئيس الأسد رجل انضباطى لم يشأ أن يكسر أوامر القادة الأكبر منه رتبة ، وبالتالى لم يبرز الى السطح ليقود الثورة مباشرة ، ولذلك كان الضباط الأكبر منه رتبة مثل

جاسم علوان ومحمد عمران ولؤى الأتاسى ، كان كل هؤلاء الضباط أكبر رتبة منه ، وكان كل واحد منهم يغنى فى واد ، الأمر الذى أحبط حركة حلب لأنه بشكل لا شعورى وبحركة مسرحية غير مسئولة ظهر المسئول عن الاذاعة واعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة دون أن يتصل أحد بالآخر وطلب من مصر قوات وطائرات ومظلات .. كان المفروض أن يسيطر قادة الحركة أولا على البلد وبعد ذلك يعلن الدخول فى مفاوضات لاعادة الجمهورية العربية المتحدة .

أما أن يستنجد من محطة فى حلب بقوات مصرية هذا ما أربك الحركة وأضعفها ، ولم يتمكن الأسد فى الحقيقة من الوصول إلى حلب لأسباب خارجة عن ارادته ، ولم تكن الأمور بالتنظيم والدقة بالشكل الذى يجعلنا نسيطر على مجريات الأمور . ولذلك أخفقت حركة الضباط الأحرار فى حلب ، ودخلنا السجن .. حوالى ٧٠ ضابطا من مختلف الرتب ومعظمهم من الرفاق البعثيين .

تشاء الظروف أن يكون الأسد قد ذهب هو وصلاح جديد إلى حلب ، وبالتالى أرادت قيادة الانفصال أن تخفف من طردهم ، إذ لم يكن لكل ضابط دور بارز ولم يكن على المسرح إلا جاسم علوان وبعض أصحاب الرتب الكبيرة ، ولذلك خففت قيادة الانفصال من الطرد واكتفت بعقوبة انضباطية وهى السجن لمدة ٤٥ يوما ، وخرج الرئيس الأسد وصلاح جديد من السجن مبكرا ، وخرج من بعدهما عبدالكريم الجندى ، وهذا ساعد كثيرا لأن معظم أعضاء اللجنة العسكرية أصبحوا خارج السجن ، وفى الشهر الحادى عشر انضم اليهم المقدم محمد عمران وأصبحت معظم اللجنة العسكرية خارج السجن واستطاعوا أن ينظموا ثورة الثامن من آذار بالاعتماد على القوة الناصرية والقوة الوطنية التى كانت فى الجبهة برئاسة زياد الحريرى الذى كان قائدا للجبهة ، وبدعم البعثيين المنتشرين فى كل الوحدات والذين شكلوا ثلاث قوى أساسية تحالفت ودخلت إلى القيادة العامة فى الثامن من آذار وأسقطت الانفصال .. كل القوات تم السيطرة عليها ماعدا سلاح الطيران . فسلاح الطيران كما يقول الانفصاليون لا يستطيع أحد أن ينتزعه لانه سلاحهم ، وكان اللواء (عصاصة) المسئول عن هذا السلاح ومعه ضابط آخر يفخرون به .. **قال لهم الأسد أننى قادر على احتلال سلاح الطيران ، وأخذ سرية دبابات من كلية المدرعات وكان معه الرائد غازى أبو عقل من الكلية** ، وتوجه إلى موقع الضمير (مكان القاعدة الجوية الكبيرة وتمركز معظم سلاح الطيران فى هذه القاعدة وفى قلب الكلية الجوية) وعند منطقة عدره تعرضوا لغارة جوية وأصيبت الدبابة الأولى بصاروخ جو / أرض وتوقف الركب عن المسير وهنا قال لهم الرئيس الأسد: اننى كطيار أقول لكم اذا ظللتم واقفين ستضربون كلكم واحدا بعد الآخر اتجهوا ناحية الشرق وبسرعة عدو الطائرة فتشجعوا بمعنويات عالية وحاصروا القاعدة الجوية كما قال الرئيس الأسد ، وبعد حصار القاعدة الجوية ذهب الرئيس الأسد بمفرده ليفاوض الانفصاليين ،

وهذه شجاعة نادرة أن يترك القوات تطوق القاعدة ، والقوات ليست قواته بل هى من كلية المدرعات ، وهو ضابط طيار ، وبعد ثلاث ساعات تمكن من اقناعهم بأنهم يجب أن يستسلموا بشرف ويتركوا القاعدة ، وبعد أن انتهت المفاوضات عرض الرئيس الأسد من موقع القوة على رئيس القاعدة أن يشاركه فى قيادة السلاح فقال : أفضل أن أذهب الى البيت فأوصلهم الرئيس الأسد معززين مكرمين إلى بيوتهم وتمكن من السيطرة على سلاح الطيران تمام الساعة الرابعة من يوم الثامن من آذار مارس/وبالاستيلاء على سلاح الطيران تمت السيطرة على كل القوات فى سورية وأصبحت موالية لثورة الثامن من آذار ...

وللأمانة التاريخية أقول أننا لم يكن لنا جميعا من هدف سوى أن تعود الوحدة وأن نثبت فى القانون مبادىء تؤكدها لكيلا يأتى أى مغامر ويقول أننى صرت هنا ومصر صارت هناك ...

الرئيس عبدالناصر وبوحى من الأجهزة التى كانت تعمل معه قالوا يجب أن تعود سوريا كما كانت لبيت الطاعة ، **والسوريون قالوا** : مستحيل أن تعود سورية بهذا الشكل وتنفصل مرة أخرى ومستحيل أن يتحكم فينا مرة أخرى عبدالحميد السراج ، الذى جاءنا بعناصر ليس لها دخل بعبدالناصر وارتدوا عباءة الناصريين وسألناهم أين كنتم ونحن فى السجن ؟ لماذا لم تقوموا بالانقلاب وأنتم داخل الجيش ؟ ولكنهم طلبوا أن يكونوا فى المواقع الأساسية .

بتوجيه من الرئيس الأسد أعطوا هؤلاء جميع المناصب التى يريدونها سواء وزارات ، مخابرات أو... أو.. إلخ ، ولكن لا تعطوهم أى شىء فى الجيش ، وبالفعل تم هذا وكانوا سعداء ، وكان جاسم علوان يلعب من الخلف ولذلك قام بحركة فاشلة فى ١٨ تموز يوليو ١٩٦٣ وبعد ثلاثة شهور من قيام الثورة وتم القضاء على الفتنة فى مهدها ، وأخذ الحزب دوره لأن يكون الفاعل على الساحة فى سورية .

كانت فى الحزب ثلاث تيارات : تيار امين الحافظ الذى يريد أن يعتمد على المرتزقة ويصادر الثورة وينفرد بالحكم فى سورية ،وتيار يقوده صلاح جديد يعتمد على النهج اليسارى المتطرف ، ويريد أن يبعد سورية عن الخط العربى ويكون أقرب إلى الكتلة الاشتراكية/وتيار قومى يتزعمه الرئيس الأسد ، وهذا التيار يريد أن يتحالف مع القوى التقدمية ويريد أن تبقى سورية فى خطها القومى والعربى والاشتراكى ، وهذا التيار لم تحسم المعركة لصالحه إلا فى عام ١٩٧٠ .

وحدثت أمور كثيرة ، ففى ٢٣ فبراير شباط اقصينا الجناح اليمينى من الحزب نهائيا ، ونجح التيار القومى وتحالف الرئيس مع صلاح جديد لكنهما ظلا يتصارعان تحت السطح حتى قامت حرب يونيو/حزيران ١٩٦٧ ، وحرب حزيران يحمل وزرها

حقيقة ثلاثة أشخاص : صلاح جديد ، إبراهيم ماخوس وعبدالكريم الجندى لأنهم حملوا القضية بشكل سيىء ودفعوا عبدالناصر دفعا لأن يكون فى الساحة ، استغل الثلاثة حماس عبدالناصر ورفضوا الاستماع إلى كلام الرئيس الأسد ، لأننا لم نكن قد استكملنا استعداداتنا العسكرية اللازمة ، كما يتحمل المسئولية معهم المشير عبدالحكيم عامر لأنه لم يكن قد جهز الجيش المصرى لمحاربة اسرائيل وقدم بيانات خاطئة لعبدالناصر ، وكانت المعركة غير متكافئة .

كما أزم الثالوث صلاح جديد وعبدالكريم الجندى وإبراهيم ماخوس الموقف الدولى دون أى داع ، دخلت روسيا فى الأمر بشكل عشوائى ، وقالت أن هناك حشودا تتحرك فى المنطقة ، ولم تكن تعرف أن أمريكا تخطط لتضرب ضربتها ضد القومية العربية ورمزها جمال عبدالناصر .

كانت الولايات المتحدة بقيادة جونسون قد أكملت خطتها بالتعاون مع اسرائيل ، لكن العرب لم يكونوا يعرفون هذه الحقيقة التى أكدتها مذكرات أطراف الصراع والتى التقت كلها على أن اسرائيل كانت جاهزة للعملية وانتظرت الفرصة المناسبة وقدمنا لها حلا لمشكلتها التى ادعت أن العرب سيذبحون اسرائيل ، وبعد العدوان الذى وقع على الأمة العربية بقى صلاح جديد متمسكا بموقفه المتشنج ، بينما كان الرئيس الأسد يريد أن يكون كل شىء للمعركة .. إلى أن حدث الاختلاف التدريجى بين الطرفين .

والواقع أن كون الرئيس الأسد انضباطيا جعله ينتظر من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٠ وكان قادرا على أن يزيح التيار الآخر بضربة واحدة ، ولكن انضباطيته الحزبية والعسكرية وولاء الجيش للسلطة الحزبية جعل الحسم يتأجل حتى بلغ السيل مداه ، وفى فبراير ١٩٦٩ وصلت الأمور الى حد التصادم . **كيف ؟**

يقول العماد مصطفى طلاس : كنا فى بغداد نشارك فى اجتماعات وزراء الدفاع ورؤساء الأركان لدول الطوق حول اسرائيل ، وكان يمثل مصر الفريق عبدالمنعم رياض ، **وبعد أن انتهينا من اجتماعاتنا فى بغداد انفرد بى الفريق عبدالمنعم رياض وقال لى :** أرجو أن تنقل للرئيس الأسد أن مصر تقف معه وتؤيده ، وأرجو أن تسأله ماذا يريد بالتحديد من الرئيس عبدالناصر ، كما أرجو أن تؤكد له أن عبدالناصر جاهز لاعطائه ما يريد .. **وأضاف : الأسد رجل عربى صادق فى عروبته ، ولذلك فإن مصر تدعمه ، وإذا أراد قوات مصرية تعزز موقفه فنحن على استعداد وليكن تحت بند المناورات المشتركة ..**

وعدت إلى دمشق وابلغت الرئيس الأسد رسالة عبدالناصر التى حملها لى الفريق عبدالمنعم رياض ، وبالصدفة التاريخية استشهد عبدالمنعم رياض بعد يومين فى

الاسماعيلية فى الجبهة الشرقية فجئت للتعزية والعزاء-كان فى القاهرة ، وكان عبدالناصر يشرف على الجنازة بنفسه ، واذكر أننى استمعت إليه وهو يسأل الفريق فوزى عن الترتيبات الخاصة بها وأكد له انه بعث بالاضافة إلى عناصر الشرطة والمخابرات العسكرية خمسة آلاف عسكرى لتأمين الجنازة ولكن حرس الرئيس جمال عبدالناصر إختفى وسط الزحام وقمت انا وزكريا محيى الدين والفريق خماش رئيس الأركان الأردنى وعدد من أعضاء قيادة الثورة المصرية ووضعنا أيدينا فى بعضها لحماية عبدالناصر من اندفاع الجماهير وكان معى المرحوم سامى الدروبى سفيرنا فى القاهرة ، وقال لى عبدالناصر نلتقى غدا لأعرف منك أخبار سورية ، وجلست معه خمس ساعات كاملة حتى جاء موعد الغداء فى بيته ، وخلال الحديث الطويل أكد لى انه مع التيار الذى يقوده حافظ الأسد لأنه يعمل لمصلحة الأمة العربية وضد أعداء الأمة العربية ، ومن هذا المنطلق فعبدالناصر يؤيد هذا الاتجاه ويقف بجانبه ، ولقد جرت مناقشة طويلة حول موضوعات مختلفة ، وعندما عدت الى دمشق أبلغت الأسد بمضمون المقابلة وقضايا الحوار ، وكان مسرورا بحديث عبدالناصر ، ومسرورا أيضا بمعرفته بواقع الصراع داخل الحزب ، ولسوء حظ الأمة العربية لم يكمل عبدالناصر المشوار ورحل فى ٢٨ سبتمبر أيلول عام ١٩٧٠ ، وبعد حوالى شهرين وفى ١٦ أكتوبر تشرين قام الرئيس الأسد بالحركة التصحيحية .

الأسد يشرح ضرورة حركة شباط

ويتحدث الرئيس حافظ الأسد عن الضرورات التى حتمت اقصاء الجناح اليمينى فى الحزب فى حركة فبراير شباط عام ١٩٦٦ الى لوسيان بيترلان مؤلف كتاب « حافظ الأسد مسيرة مناضل » فيقول : « بكثير من المرارة بعد مضى عشرين عاما على هذه الأحداث منذ ولادة الحزب ، كان هناك تيار انيطت ببعض عناصره مسئوليات هامة فى مؤسسات البعث يميل نحو اليمين وقد تعايشنا مع هذا الفريق سنوات طويلة قبل ثورة ١٩٦٣ لاعتقادنا بأن ذلك لن يشكل عائقا أمام مسيرة الحزب فى تلك المرحلة » **ويضيف قائلا :**

« إلا ان خلافات عديدة كانت تظهر بيننا وبين هؤلاء المناضلين على مستوى القاعدة ، كان الكثيرون يتمنون تغييرا فى القيادة ، واقصاء المسئولين اليمينيين الذى كان وجودهم يتعارض وأهداف الحزب فى الوحدة والحرية والاشتراكية ، كانت هذه المشكلة سببا فى حرب كلامية لا تنقطع ، أن هدأت احيانا عادت بعدها من جديد على أشدها ، وكثيرا ما كان ينبغى تقريب وجهات النظر تبعا للمعطيات السياسية الراهنة وللاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية » .

ويتابع حافظ الأسد فيقول :

« بعد ثورة ٨ مارس آذار عام ١٩٦٣ أصبح التوفيق بين وجهات النظر أكثر صعوبة ، وكان المنطق يقتضى صيغة للخروج من هذا الوضع .

قبل الثورة كنا نتحدث عن الأهداف التى ينبغى الوصول اليها ، وبعد الثورة كان لابد لنا من بلوغها أو أن نضع كافة الامكانات فى هذا السبيل ، وأن نبرهن باقتناعنا وايماننا على اننا نبذل غاية الجهد لبلوغها .

قبل الثورة كنا نتحدث عن المحن التى نتعرض لها والآلام التى يعانى منها الشعب وعن علة مصائبه وعن أماله ، وكنا نناقش كل ماينبغى أن نلجأ اليه لنستجيب لتطلعات الجماهير التى منحتنا ثقتها ، سواء على الصعيد المدنى أو العسكرى ، وكان لابد لنا بعد الثورة من أن نعمل بما يتفق والوعود التى أعطيناها، كنا نتخذ الاشتراكية مرجعا فيما يخص الوضع الاقتصادى ، ونلقى على الاقطاعيين والرأسماليين مسئولية مايعانى منه الشعب ، وكان لابد بعد الثورة من وضع حد للنشاطات الضارة التى يقوم بها هؤلاء الاقطاعيون والرأسماليون ، ولكن تصور اليمين كان يناقض متطلبات فترة مابعد الثورة .

ويستذكر الرئيس الأسد :

« مازلت أذكر اننى ذهبت الى حلب فى غضون الأشهر الثلاثة الأولى التى أعقبت ثورة ٨ مارس آذار ١٩٦٣ ضمن وفد القيادة القطرية للحزب ، كنا نعقد اجتماعات مع العمال ونحدثهم بالمنطق نفسه الذى كان سائدا قبل الثورة .

وقد أجابنا العمال بعدما أصغوا الينا : انتم تحسنون الكلام ، ولكن ماتقولون ليس جديدا فهى اللغة البعثية نفسها التى نعرفها قبل الثورة ، وقد وافقنا على برنامجكم ، مع أن كثيرين بيننا لا ينتمون الى حزبكم ، لأننا كنا نأمل انكم سوف تضعون وعودكم موضع التنفيذ ، والآن تستمرون فى التحدث عن الأمراض والمصاعب التى ماتزال قائمة فى حين تتوافر لكم سلطة ايجاد حلول لها ، فى الماضى كنا نقرأ خطبكم ، أما اليوم فإننا ننتظر أفعالكم ، اذ لم يتبدل شىء فيما يخصنا نحن العمال .

فما الذى يحول دون أن تجدوا الحل لكافة المشكلات التى تذكرونها ؟ وحول هذه المسألة ، أضاف حافظ الأسد قائلا :

أنا فى الحقيقة لم تفاجئنى هذه الأفكار بل كنت أتوقعها ، كنت على العكس سوف أعجب أشد العجب لو قال العمال غير ماقالوا ، وعندما عدت من هذه الجولة نقلت ماجرى لنا وذلك فى اثناء اجتماع الحزب مبديا موافقتى على الكلام الذى وجه الينا ، بيد أنه كان من المستحيل ان نلقى آذانا صاغية لما كان يبدو لنا على انه المنطق عينه فى صفوف الفريق

اليمينى فى حزب البعث . والأمر واحد فيما يتعلق بالوحدة العربية وفى البحث عن صيغ من شأنها ضمان حرية الجماهير ، أما بشأن الوحدة فقد كان يفترض انها ستقوم من جديد بين مصر وسوريا لأن كل شيء كان مهيأ لها آنذاك ، ولاسيما أن القطيعة ماتزال قريبة العهد ، لقد تمت مناقشة هذا الاقتراح عدة مرات فى قيادة الحزب وشكلت وفود لهذا الغرض ، بيد انه كان يبدو واضحا ان اليمين لم يكن يهتم بانجاح المفاوضات مع مصر فالوحدة العربية لا تحظى باهتمامه .

وحينما كنا نعود الى هذا الموضوع يجيبنا الجواب التالى : « سوف ندرس الأمر » وتمضى الأسابيع دونما جدوى .

ولفظة « درس » فى اللغة العربية لها معنى اخر وهو : ذهب واندثر ، فكنا نقول : « لقد درسنا هذا الموضوع دراسة مستفيضة حتى « درس » فى نهاية المطاف » . ويتابع موضحا :

« أما فى مجال الحرية ، فقد كانت نظرة الجناح اليمينى فى الحزب تقليدية جدا أى رجعية ، وكان رأينا مختلفا اذ كنا نرى ضرورة ان يتمتع ممثلو المنظمات الشعبية المنتخبة انتخابا حرا بأوسع الصلاحيات ، يعنى على سبيل المثال أن يشارك العمال مشاركة وثيقة فى تطوير منشآتهم وان يفيدوا فائدة حقيقية من ثمار عملهم ، كما ينبغى ان يتمتع الفلاحون ايضا عن طريق اصلاحات مناسبة بالصلاحيات نفسها التى يتمتع بها العمال ، كنا نرغب فى انشاء مؤسسات تتماشى وهذه المقترحات ، مؤسسات تحبب العمال بمسئولياتهم وتمكنهم بفضل الصلاحيات المعطاة لهم وبفضل اقتناعهم من التحكم بمصائرهم وإلا يظلوا تحت وطأة المال أو تأثير العشائرية .

وازاء هذا الوضع كان لابد للتيار الذى يبغى بلوغ الأهداف التى رسمها لنفسه أى الوحدة والحرية والاشتراكية ان يفرض مشيئته على التيار الاخر الذى يكبح الحركة التقدمية فى البلاد ، لقد كنا فى مأزق مابين ١٩٦٣ وشباط ١٩٦٦ ووقع علينا أن نلجأ الى بعض السبل التى يمكن أن تبدو غير طبيعية للبعض ولكن هدفها أن نحقق ـ على الرغم من كل شيء ـ بعضا من اهدافنا .

من ذلك اننا اضطررنا فى عام ١٩٦٤ ان نقرر بعض التأميمات دون علم الفريق اليمينى ، مثل هذا الاجراء يمكن ان يبدو غريبا فى حزب اشتراكى باشر ثورة اشتراكية ، ويقوم بمثل هذا المبادرات دون الرجوع الى المسئولين الرئيسيين فى القيادة ، بيد أنه كان لا مفر من سلوك هذا السبيل ، **كان ذلك واجبنا اذ نحن اذ ذاك أمام خيارين** : فإما ان نراعى بعض أعضاء القيادة ونتناسى تطلعات الجماهير العاملة ، أو نختار تسريع الأحداث فنستجيب لأمنياتها فى سبيل الخير والانصاف للجميع ، والأمر فى ذلك لم يكن

يعنى اجراء واحدا يتخذ أو مرحلة واحدة ينبغى اجتيازها بل كان يعنى مواصلة الثورة وتسيير الأمور العامة ومستقبل مواطنينا ، وماكان يمكن والحالة هذه ان نتردد أكثر ممافعلنا ازاء فريق تعتوره تناقضات بهذا العمق على صعيد النظرية الثورية .

وعلى الرغم من اقتناعنا ان هؤلاء المسئولين لا يمثلون قاعدة الحزب ، فقد لجأنا الى جميع الصيغ الممكنة بغية ايجاد اتفاق بيننا فى اطار شرعية البعث واستخدام الطرق المعتادة التى تسمح بالوصول الى اجماع مقبول بعد المناقشات ، ولكن مقترحاتنا قوبلت بالرفض القاطع وبادرت القيادة القومية الى حل القيادة القطرية فى سورية وفرضت فريقا قديما حل محل قيادتنا .

لست أريد الالحاح على الطريقة التى جاء بها تشكيلها ، ولكنها لم تكن تمثل قاعدة الحزب ، وعلى الرغم من ذلك أعلنا عن ضرورة الدعوة الى مؤتمر عام جديد للبعث فى سوريا لاجراء انتخابات عامة ، ورفض أعضاء القيادة آنذاك هذه الدعوة اذ كانوا يعون تمام الوعى انهم لا يستطيعون كسب الأغلبية .

وعاشت البلاد مرة أخرى وضعا شاذا وهى دون قيادة قطرية للحزب لأن القيادة القطرية فى سورية هى التى تقود الحزب وتزود الحكومة بالتوجهات السياسية .

لقد فقدت الدولة اذن الادارة اللازمة لمواصلة سياستها سواء أكان ذلك على الصعيد الداخلى أم الخارجى .

وبسبب هذا الوضع القائم لابد من تقرير أفضل حل يتخذ فى سبيل صالح البلاد العام وبما ان القيادة القديمة لم تعد تحوز ثقة القواعد الحزبية وقد زجت خطواتها المترددة الحزب فى مثل هذه المحنة الجديدة ، فقد كان لابد من حسم الأمر ، ولم يبق هناك من حل فيما عدا اقصاء القيادة السابقة وهو ماتم فى ٢٣ شباط فبراير ١٩٦٦ .

ولكن العسكريين لم يكونوا الوحيدين فى فرض نفوذهم داخل جهاز الحزب واختيار التيار التقدمى ، فهناك المحامى عبدالحليم خدام الذى كان مسئول حزب البعث فى منطقة بانياس ، وأصبح على التوالى محافظا لحماه عام ١٩٦٤ وللقنيطرة عام ١٩٦٥ ولدمشق نهاية العام نفسه ، ثم احتل مركزا حكوميا للمرة الأولى عام ١٩٦٩ كوزير للاقتصاد والتجارة الخارجية قبل ان يتسلم مقاليد الخارجية منذ عام ١٩٧٠ والى حين اضطلاعه بمهام نائب رئيس الجمهورية عام ١٩٨٤ .

خلاصة القول : ان حافظ الأسد كان له الدور الرئيسى فى الوصول بالبلاد والحزب الى حركة ٢٣ شباط فبراير ١٩٦٦ وهى الحركة التى كانت بكل المقاييس منعطفا هاما فى مسيرته القيادية . لقد حاول الاصلاح من الداخل ، ولكنه لم يستطع ، وحاول ان

يحد من سلطات ميشيل عفلق والبيطار وغيرهما من الذين قادوا سورية الى وضع مضطرب ولكنه ايضا لم يوفق ، وكان من الطبيعى ان يستعين حافظ الأسد فى محاولته للوصول الى تحقيق الأهداف التى يؤمن بها ببعض القيادات الفكرية التي يمكن ان تقدم وجهة نظر موضوعية مثل زكى الارسوذى الذى كان واضح الفكر وكان يلتقى كثيرا بالضباط والجنود ويحاورهم.

وفى كانون أول ديسمبر عام ١٩٦٤ رقى حافظ الاسد الى رتبة لواء وعين آمرا لسلاح الجو السورى ، وبدأ يشعر باتساع الفجوة بين نهجه الثورى الواقعى والنهج المسيطر على السلطة بعيدا عن قواعد الحزب وجماهير الشعب بسبب المواقف المتناقصة التى كان يقفها عفلق ، وعجز أفكاره عن مسايرة المستجدات الجديدة ، والانقطاع عن المحيط العربى والخارجى .

كان لابد من حركة تنتشل الثورة من الحصار المضروب عليها ، وكان لدى حافظ الأسد من الأسباب مايكفى ليقول كلمته فى ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ ، واذا كانت حركة شباط قد اتسمت ببعض العنف الذى لم يكن لهمسوغ،فإن ذلك يعود الى استعمال المغامرين الحافظ سلاح القوة الذى ضرب به القوى الناصرية .

وهنا تجدر الاشارة الى أن حركة شباط أسندت الى حافظ الأسد منصب وزير الدفاع فى الحكومة الجديدة .. إلا أن هذا الموقع الرفيع لم يمنعه من التصدى للانحرافات الجديدة لانه ظل وفيا للثورة الأم ، ولقد تصورت القيادة الجديدة التى ساهمت فى انجاح اقصاء القيادة اليمينية ، انه لابد من الانتقال الى النهج اليسارى المتطرف ، وهنا وجد حافظ الأسد نفسه يقف وحيدا تجاه تصلب عقائدى أرعن ، الأمر الذى جعله يتصدى من جديد لتصويب جديد لمسيرة الثورة لكى تبقى فى الاتجاه الصحيح .

لقد رفض حافظ الأسد وبعنف مغامرة العناصر المتطرفة وتعاليها وانفصالها عن الجماهير وهو التصرف الذى كاد يخرج سورية من دائرتها العربية الى دائرة غير محددة المعالم ، غامضة الأهداف تضع مصيرها فى مهب الريح ، وتحت ستار الادعاء برفض التعايش مع الرجعية العربية والناصرية نسجت ستارا كثيفا من التقوقع والانعزال ، وحاولت ان تتمسح بالتجارب الفيتنامية والكوبية ، غير أن الأمور اتخذت اتجاهات أخرى بعد حرب يونيو حزيران عام ١٩٦٧ .

« حرب حزيران »

□□ **النتائج التي ترتبت على هزيمة العرب فى حرب حزيران كانت نتائج طبيعية لمقدمات كان لابد أن تفرزها ،** ففى ظل التوازن العسكرى المفقود بين اسرائيل والعرب ، اضافة إلى حساسية توازنات القوى الدولية ومؤامرات بعض الأطراف العربية وهشاشة

البنية الداخلية فى سورية وتأزم الوضع الاقتصادى فى مصر وضعف كفاءة القيادة العسكرية المصرية والتى أوصلت القوات المسلحة المصرية إلى حالة من العجز والترهل ، وفقدان الانضباط ، الأمر الذى جعلها عاجزة كلية عن الدخول فى حرب والانتصار فيها ، وعندما وقعت نكسة حزيران يونيو كان الرئيس الأسد فى موقع هام وهو وزير الدفاع ، وكان يدرك أن حرب حزيران مخطط لها بشكل جيد من ناحية الامكانيات والطاقات العسكرية كما وكيفا والتى استخدمت من الجانب الاسرائيلى وكانت متفوقة على نظيرها فى الجانب العربى ، **وقد جاء فى كتاب لأحد مسئولى المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط وممثلا لوزارة الخارجية وللبيت الأبيض فى المنطقة قال:** انه كان فى اجتماع مع عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأنه توجه بسؤال لعبدالحكيم عامر عن امكانياته القيادية والدورات العسكرية **وقال:** تجرأت بهذا السؤال وكنت أنتظر أن يغضب ويلقى بى خارجا ، لكنه ابتسم وقال : أنا من وقت مبكر وأنا صغير كنت ألعب مع أولاد الحى الذى كنت أقيم فيه لعبة « عسكر وحرامية » وكنت أربح .

فإذا كانت عقلية من هذا النوع التى خاضت حرب ١٩٦٧ فى مواجهة اعداد جيد من الجانب الاسرائيلى ، وأسلحة متطورة ، وخطط شاملة ، فليس هناك مفاجأة فيما حدث من نتائج .

بالنسبة لحرب ١٩٦٧ .. بالطبع فإن التقنية والكفاءة واستيعاب السلاح والتدريب كل هذا كان وراء الهزيمة التى كان لها تأثير كبير على عقل الرئيس حافظ الأسد فقد أيقظته الصدمة وحولته إلى مخطط ومفكر استراتيجى فى ميدان السياسة الدولية .

وتجدر الاشارة إلى أن الرئيس حافظ الأسد حين استلم مهام عمله كوزير للدفاع ، كانت لديه فكرة دقيقة عن طاقات جيشه،لكن قرار الحرب هو قرار سياسى ينفذ بوسائل عسكرية ، وقد نجح النظام القائم فى اضعافها إلى حد بعيد ، وقد وجد نفسه فى خضم التوتر الذى وصل ذروته فى معارك الطيران والمعارك الاعلامية المحمومة بين دمشق والقاهرة وتل أبيب ، وتحريض بعض الدول العربية لبدء الحرب أملا فى اسقاط نظامى الحكم فى مصر وسورية، ولم يكن هناك مفر من أن يخوض الحرب وقد أصبحت خيارا وحيدا إلى نهايتها وبالوسائل والقوى الموجودة مهما كان شأنها ونتائجها .

وتجدر الاشارة إلى شهادة الكاتب والسياسى البريطانى انتونى ناتنج فى كتابه « ناصر » عندما قال : إنه بعد أن أوقع عبدالناصر نفسه فى الشرك الأخير باغلاق خليج العقبة فإن الاسرائيليين لم يكونوا ينوون السماح له بالافلات إذ أن اغلاق الخليج دفع الرأى العام العالمى إلى تأييدهم بصورة ساحقة .

وكان أى اجراء عسكرى يقومون به سوف يجد تأييدا فى الغرب على أساس أنه دفاع مشروع عن النفس ، وأخذ صقور اسرائيل يفرضون سيطرتهم المتزايدة على سياسة الحكومة ، وكانت المسألة تتمثل بالنسبة إليهم فى مدى السرعة التى سيقوم بها الجيش لتنفيذ الخطى الرامية إلى سحق عبدالناصر التى ظلوا يعملون من أجلها طوال السنوات العشر الماضية ، وعندما اتجه ليفى أشكول رئيس وزراء اسرائيل آنذاك إلى الاستجابة لنداءات عاجلة من الحكومتين الأمريكية والسوفيتية بضبط النفس،هدد الصقور بوقوع انقلاب عسكرى أو على الأقل باستقالة جماعية لهيئة أركان الحرب الاسرائيلية ، وقد اعترف اسحاق رابين رئيس أركان الجيش الاسرائيلى عام ١٩٦٧ فى تصريح لصحيفة لوموند الفرنسية فى فبراير شباط ١٩٦٨ بأنه لم يكن يعتقد أن عبدالناصر كان يريد الحرب ، فالفرقتان اللتان أرسلهما إلى سيناء يوم ١٤ مايو آيار ، لم تكونا كافيتين لشن حرب على إسرائيل وأن عبدالناصر كان يعرف ذلك وإسرائيل تعرفه أيضا .

وذكر مكسيم رود نسون فى كتابه « إسرائيل والعرب » (أن هدف عبدالناصر من الاجراءات التى اتخذها فى الفترةالتى سبقت الحرب كان ارغام اسرائيل على التفاوض حول جميع المسائل الناجمة عن حرب ١٩٤٨ ، كما كان لدى اسرائيل اغراء اضافى تمثل فى أن الملك حسين لاعتبارات محلية وعربية سيشارك فى الحرب إلى جانب السوريين والمصريين رغم حالة العداء التى يكنها لهما وهو ما يهيىء لاسرائيل ذريعة كافية للاستيلاء على الضفة الغربيةالتى تعتبرها جزءا أساسيا من أرض اسرائيل وتطلق عليها اسما توراتيا هو « يهودا والسامرة » وهكذا دخل العرب الحرب بالصورة التى أشرنا إليها وكان طبيعيا أن تسفر عن النتائج التى حدثت فى حزيران ١٩٦٧ بالرغم من البطولات الفردية التى سجلها المواطنون العرب .

كانت هزيمة العرب عاملا حاسما ونقطة تحول فى حياة الرئيس الأسد بحكم موقعه العسكرى ، وعلى الرغم من أنه يحمل أعلى شهادات فى العلوم العسكرية من الاتحاد السوفيتى إلا أنه رفع مستوى ثقافته العسكرية ودخل فى دورات تدريبية كبيرة وحصل على شهادات ، وعلى الفور كان قراره بتطوير القوات المسلحة السورية تسليحا وتدريبا ، واستطاع خلال بضع سنوات أن يدخل الجيش السورى إلى مرحلة تاريخية جديدة ، **والدليل على ذلك المعجزة الحقيقية خلال حرب ١٩٧٣ ، والذى صنع المعجزة فى سورية ما بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ هو الرئيس حافظ الأسد الذى أشرف بشكل مباشر على تدريب الضباط وتسليحهم وتوسيع ثقافتهم العسكرية وتحديث الجيش من كل الجوانب ، وعلى سبيل المثال** قبل حرب ١٩٦٧ كان لدى سورية كلية عسكرية واحدة هى كلية حمص ، اما الآن فهناك العديد من الكليات فى مختلف العلوم العسكرية ، وهذا كله بفضل حافظ الأسد واشرافه المباشر وبفضل توجيهاته ورعايته تحقق المستوى الذى

وصل إليه المقاتل السورى من حيث التدريب ومن حيث الوثوق بالذات والأمان على المستقبل ، الأمر الذى أدى إلى انتصار ١٩٧٣ ، وهو الذى أنشأ مدارس أبناء الشهداء ورعى شئون الشهداء وأسرهم ، وإذا أراد الانسان أن يؤرخ للجيش العربى السورى ويقارن بين وضع هذا الجيش قبل عام ١٩٦٧ وبعده فسيجد أن الصانع الأول لنهضته هو الرئيس حافظ الأسد الذى لايزال يتابع تطوير الجيش باستمرار .

ويتحدث الرئيس حافظ الأسد عن الاجراءات التى اتخذت بعد حزيران فيقول : « بعد هذا التاريخ شرعنا فى معالجة الثغرات التى نعانى منها وقمنا بتغييرات عديدة وحدثت انتخابات جديدة ، ونظمت مؤتمرات للحزب على مستويات مختلفة وانتخبت قيادة قطرية جديدة واتخذنا اجراءات اقتصادية جديدة ، وأخرى لاعادة تنظيم الدولة » .

ومع مرور الأيام ، برزت مشكلات جديدة فانتقلنا لمعالجة القضايا الاجتماعية والسياسية وشئون الحزب بصراحة زائدة ، مما نفر الرأى العام الشعبى ، إذ كان مواطنونا يجهلون ما تفعله السلطة القائمة ، وكنا نعالج المشاكل الداخلية والدولية بعقلية جامدة ، كما لو أننا نعالج قضايا الحزب الداخلية ، وكانت الحصيلة مزيدا من انطواء سورية على نفسها ، وتراجع نفوذها الدولى الذى بات محدودا للغاية ووصلنا إلى نقطة استحال فيها تحقيق أى لقاء بيننا وبين أى بلد عربى أو أجنبى ، وكان هذا الوضع محط نقاشات عديدة فى قواعد الحزب المدنية والعسكرية ، وقد طرح فى بعض المؤتمرات دون أن يتم التوصل الى ايجاد حلول له .

وكما يقول لوسيان بيترلان فى كتابه « حافظ الأسد مسيرة مناضل » فالهزيمة كانت النقطة الحاسمة فى حياة الأسد ، إذ أنها القته فجأة فى مرحلة النضج السياسى ، وحفزت فيه الطموح ليحكم سورية بعيدا عن قيود زملائه الذين كان يحس بأنهم قادوا البلاد إلى الكارثة » .

وزاد من إحساس حافظ الأسد بخطورة الوضع رفض القيادة السياسية الأخذ بتوجهاته التى تنادى باعتبار الصراع مع إسرائيل هو قضية سورية الأساسية فى حين أرادت القيادة الاستمرار فى تطبيق سياساتها ذات النهج اليسارى غير الجماهيرى رغم الكوارث التى أصابت سورية من جرائه .

ويتحدث حافظ الأسد عن تلك المرحلة الخطيرة فى تاريخ الحزب وسورية فيقول : « لقد اختلفنا على الحزب وكيف نبنيه ، كانت أمامنا مسألة اساسية ، كان بعض زملائى يعتقدون بأن من الأصح أن يبقى الحزب منغلقا على ذاته لحماية مناضليه ، ومنع الانتهازيين من التسلل إلى صفوفنا فلقد ناضلوا وعانوا من السجون والتعذيب ولذلك

أعتقدوا بأنهم قد كسبوا الحق للانفراد بالسلطة وكنت أرى العكس تماما ، إذ لم أكن أعتقد أن السجن والتعذيب ضرورى ، ضرورة كافية لتكوين حزبى جيد ، فتجربة الحكم نفسها صالحة أيضا لتكون محكا لمعدن الرجال ، والطبع فإن الانتهازيين يشكلون خطرا ولكنه خطر يتعين ألا نبالغ فى تصوير حجمه ، فلو أننا قبلنا ألف عضو جديد وكان بينهم مائتان من غير المرغوب فيهم فإن الحزب يكون قد ربح ثمانمائة عضو جيدين ، وكنت أعتقد بأن انغلاق الحزب على نفسه سيجعله كالماء الراكد فى حفرة وغير قادر على التكيف مع جريان الحياة ، ثم إن حزبا منغلقا على نفسه إنما يطلق العنان للانتهازيين بين ظهرانيه ، ويبدأ أعضاؤه فى النظر إلى أنفسهم كطبقة قائمة بذاتها » .

الأسد ومستلزمات المعركة

وإذا كانت حرب أكتوبر تشرين هى الحدث الاكبر بروزا لمسيرة الرئيس حافظ الأسد بعد ثورة التصحيح عام ١٩٧٠ بحيث يبقى عام ١٩٧٣ هو عام النصر بالنسبة للعرب لأن القوات المسلحة اتخذت فيه للمرة الأولى مبادرة الهجوم ، كما أعطى الرئيس حافظ الأسد لهذا اليوم مجدا تاريخيا ، **فإن السؤال هو : كيف ساهم الأسد فى تعديل ميزان القوى بعد حرب ١٩٦٧ .. وكيف وفر المستلزمات اللازمة للمعركة من بناء سياسى وعسكرى وكيف تعامل مع هذه الحرب ؟**

وفى مجال الاجابة على هذه الأسئلة قال لى العماد مصطفى طلاس : بالتأكيد كانت نكسة حزيران عاملا مؤثرا فى حياة الرئيس حافظ الأسد ونظرا لأنه كان وزير الدفاع فقد رأى أن المبارزة مع العدو تعنيه من عدة نواح ، ولذلك استوعب كافة سلبيات حرب ١٩٦٧ واعتقد أن التضامن العربى هو الوسيلة الأساسية لخوض هذه الحرب ، ولما كانت مصر هى الدولة المتضررة فى حرب ١٩٦٧ فكان من الضرورى التنسيق مع مصر ، وقبل أن ينسق مع مصر بدأ فى بناء القوات المسلحة بناء شاملا ، ويمكننى أن أقول أن الأعباء التى تحملها الرئيس الأسد كانت كبيرة للغاية ، بدأ بناء القوات المسلحة بشحذ الروح المعنوية أولا ، وكان حريصا على زيارة القوات فى مواقعها المختلفة .

فى إحدى المرات ظل يتحدث لمدة ١١ ساعة متواصلة مع الجنود من خندق إلى خندق ، ولم يأخذ فيها دقيقة واحدة راحة ، فالرئيس يملك طاقة من الامكانيات تمكنه من أن يعمل لعدة ساعات دون أن يتعب ، كل الرجال الذين كانوا حوله وأنا منهم كنا نشعر بالتعب ، ولكن حيويته كانت تدفعنا لمتابعة العمل من أجل بناء القوات المسلحة .

بعد الحركة التصحيحية توجه الرئيس الأسد إلى الاتحاد السوفيتى الذى رأى قادة الاتحاد السوفيتى فيه رجلا مختلفا عمن كانوا يتعاملون معهم ، وارتاحوا له لأنه كان صادقا ، وعاد الأسد بعد أول زيارة للاتحاد السوفيتى بصفقة أسلحة بلغت أكثر مما

أخذناه من الاتحاد السوفيتى فى كل حياتنا العسكرية منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٧٠ ، حصل مرة واحدة على أكثر مما حصلنا عليه فى ١٥ سنة ، وكانت شروط التسديد أن تكون هناك عشر سنوات سماح وبعد فترة السماح يبدأ التقسيط لمدة عشرين سنة وبفائدة ٣٪ وهذا ما جعلنا نبرم اتفاقيات أكثر، وبالتالى زاد فى تعزيز القوات المسلحة وتجهيزها ، ولم يكن هناك أحد يوجد فى الجبهة مثلما فعل الأسد مع أنه يشغل موقع رئيس الجمهورية ، وكان يعطى القوات المسلحة الدور الأهم فى كافة المجالات ، وعندما التقى بالسادات شكلا لجنة تخطيط سورية ومصرية ، وفى الحقيقة كنا نعمل مع رفاقنا ، وقد صادقت أحمد اسماعيل فى ذلك الوقت ، وكان رجلا صادقا وكنا نقوم بعملنا بتنسيق متماثل بين مصر وسورية، فى الوقت الذى نواصل العمل لجذب الدول العربية الى الطريق الصحيح ونكون فى قلب التضامن العربى .

إذن بناء القوى الذاتية لسورية والتنسيق مع مصر من خلال مجلس التخطيط الأعلى وتعميق التضامن العربى كانت على رأس شواغله ، الأمر الذى أعطى نتائج بارزة ، ولقد كنا مع مصر كما لو كنا دولة واحدة وهذه حقيقة .

ومن هذا المنطلق خاض الرئيس حافظ الأسد حرب تشرين وهى أهم الحروب التى خاضتها الأمة العربية فى تاريخها المجيد، ولكن الأمور بعد ذلك سارت فى الاتجاه المعروف، الأمر الذى مكن الادارة الأمريكية بالتنسيق مع الصهيونية العالمية من امتصاص نتائج حرب تشرين وتجزئتها وتهميشها بعد ذلك على هذا النحو .

٤

قراءة فى فكر الأسد

حركة التصحيح

□□ الظروف التى حتمت قيامها .
□□ أسباب التصحيح ومنطلقاته .
□□ ملامح سياسة الأسد العربية .
□□ التوافق بين عبدالناصر والأسد .
□□ تجربة الجبهة الوطنية التقدمية .
□□ فلسفة التنمية الاقتصادية فى فكر الأسد .
□□ قراءة التاريخ والاهتمام بتدوينه .
□□ الحياة الثقافية فى مصر وكيف يتابعها الرئيس الأسد ؟

□□ كان الانفصال البغيض الذى وقع فى ٢٨ سبتمبر ايلول عام ١٩٦٢ هو المحرك الأول لنقمة الجماهير الوحدوية فى سورية قبل ثورة آذار، كان جرح الانفصال داميا بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، ولقد كان وقع الكارثة الانفصالية التى انهت الوحدة العربية الأولى فى تاريخنا الحديث على الجماهير أليما وموجعا ، وكانت الازمة الكبرى التى عاشتها سورية من ٢٨ أيلول سبتمبر ١٩٦١ حتى آذار مارس ١٩٦٣ ، دافعا للجماهير لأن تتهيأ لاسقاط حالة الانفصال ، وبلغت الأزمة ذروتها فى آذار عام ١٩٦٣ ، بسبب حكم الانفصال وحكم الرجعية وكان التململ الشعبى ينتشر فى كل الأوساط وكل الأنحاء ينقلب الى غضب ثورى اجتاح سورية عشية الثامن من آذار ، وفى صبيحة هذا اليوم قامت الثورة لتتخلص من الواقع الذى رفضت استمراره ، وبدعم الشعب استطاعت الثورة ان تشق طريقها ، وتبلور اتجاهاتها وتنتشر شعاراتها فى الوحدة والحرية والاشتراكية ، وكان هناك من يحاول أن يستغل الثورة لصالح الاتجاه اليمينى الذى يمثله ، وكان هناك أيضا من يقف على يسار الثورة ، وأدت هذه التناقضات الى حركة ٢٣ فبراير شباط عام ١٩٦٦ ، وهى الحركة التى اضافت صفحة جديدة ، مشرفة الى صفحات نضال قواعد حزب البعث ، لكن تسلط القيادة المتطرفة جعل الأمور تتأزم وتسود

النزعة الانعزالية الى أن بدأت تبرز موجبات لحركة تصحيح .. حركة تصحيح تعيد الأمور الى نصابها السليم .

ولم يمكث الشعب طويلا حتى جاءت الحركة التصحيحية فى ١٦ تشرين الثانى نوفمبر ١٩٧٠ بقيادة الرئيس حافظ الأسد، وقد عبر البيان الأول للحركة الذى أذيع فى ١٧/١١/١٩٧٠ عن الرؤية الثورية السليمة والتشخيص الصحيح للداء الذى تعانى منه سورية وشملت خريطة العمل التصحيحى كل الأمور على النحو الذى سيلى فيما بعد .

ومن المعروف ان الرئيس حافظ الأسد كان على رأس اللجنة الحزبية العسكرية التى تألفت بمبادرة منه فى مصر ابان الوحدة ثم كان على رأس اللجنة الحزبية فى سورية فى زمن الانفصال وهو الذى قام بالاتصال بالبعثيين واعاد تجميع صفوفهم بعد أن جرى حل الحزب، وهو الذى اتصل بالناصريين ، وغيرهم من الوحدويين فى الجيش ، ورتب معهم خطة ثورة آذار وشارك فى تنفيذها وقيادتها وقضى على التمرد العسكرى الذى قام ضدها فى مطار « الضمير » ، كما قضى على حركة التمرد فى الثورة فى يوليو تموز ١٩٦٣ ، وانتخب عضوا فى القيادة القطرية فى أول مؤتمر للحزب بعد الثورة ، وحسم بصفته عضو القيادتين القومية والقطرية وقائد القوى الجوية الخلاف الذى نشب فى ٢٣ شباط فبراير عام ١٩٦٦ لصالح الخط التقدمي، وأبعد عناصر القيادة اليمينية ، ومثل الاتجاه القومى الثقل حين برز التعارض بين اتجاهين فى خط الحزب بعد حركة ٢٣ شباط، وشارك فى المؤتمر الرابع الذى عقد عام ١٩٦٨ بصفته عضو القيادتين ووزير الدفاع ، كما شارك فى المؤتمر الاستثنائى بعده ، والذى برزت فيه الأزمة بكل عمقها فقام بحركته التصحيحية فى ١٦ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٠ تؤيده قواعد الحزب المدنية والعسكرية .

□□ **الذين يقرأون بيان القيادة القطرية المؤقتة الصادر فى ١٧ نوفمبر ١٩٧٠ الآن وبعد مضى ٢٢ سنة يجدون ان هذا البيان تضمن تحليلا عميقا مستقبليا للأمور وتحديدا للأهداف التى استهدفتها هذه الحركة على امتداد هذه السنوات**، ثم تنفيذا دقيقا لكل ماورد فى البيان ، كذلك فقد تضمن هذا البيان توضيحا شاملا للضرورة التاريخية التى تطلبت انقاذ الحزب ، من قيادته المناورة والعاجزة عن التطور والتى تمثل كل رواسب الواقع المتخلف الذى تعيشه الأمة العربية . مؤكدا بأن قصور وتسلط العقليات القيادية المتعالية والمناورة سبب التناقض والشلل والانقسام فى صفوف الحركة الثورية .

وقد برز هذا الانقسام فى المؤتمر الاستثنائى الذى عقد فى ربيع عام ١٩٦٩ وأخذ يتعمق على الرغم من أن قواعد الحزب عملت على تداركه ، وكثيرا ما تصدت قواعد الحزب لتلك العقليات القيادية ، ولكن كان الحزب ينقسم على نفسه فى كل مرة بسبب العقلية القيادية التى مارست التزييف والتخفى خلف شعارات أثبت الواقع والممارسة انها

لا تؤمن بها ، وكانت كل الانقسامات بعيدة عن أن تكون انقسامات لها أسس ومنطلقات وأساليب عمل متمايزة ، بحيث يتحقق فرز علمي صحيح للشوائب التي قد تعلق بجسم أي حركة ثورية نامية ومتطورة ، بل كاد الانقسام يشطر الحزب الى مجموعة فيها الغث والسمين ، وهكذا كانت تتوالى الكوارث على الحزب بفعل هذه العقلية المتخلفة والتي تجاوزتها الأحداث ، ولقد برز الرئيس حافظ الأسد من صفوف الحزب ليعلن تصحيح مسار الثورة في خطوة ثورية جريئة حاسمة وواعية ، الأمر الذي جعلها تعطي لثورة الثامن من آذار قوة جديدة ، وآفاقا ثورية جديدة .

حدد الرئيس حافظ الأسد فور قيام الحركة الهدف المرحلي لأمتنا العربية والذي جسده في التحرير الكامل لجميع الأراضي العربية المحتلة منذ عدوان عام ١٩٦٧ وعدم التفريط أو التنازل عن أي جزء منها . والالتزام باستعادة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره على أرضه ، كما أوضح أسس العمل ومنطلقاته ، فالمعركة في فكر حافظ الأسد كانت ومازال معركة قومية ، وهذا مايوجب اعطاءها ابعادها الحقيقية في جميع المجالات ، كما حدد ضمن هذه الأسس ممارسة سياسات تؤدي الى عزل العدو الصهيوني سياسيا واقتصاديا والى وقف الدعم السياسي والاقتصادي له من أي مصدر في العالم. والتصدي للمؤامرات الامبريالية في المنطقة، وتفويت الفرصة عليها ومقاومة مخططاتها المعادية للأمة العربية الى جانب العمل بكل الوسائل لاحباط المحاولات الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية ، وقضية التحرير الشامل للأراضي العربية من خلال الحلول والتسويات الجزئية أو من خلال الخطوات الجزئية المنفردة ، وحشد جميع القوى لمواجهة العدو الصهيوني والتركيز على المعركة الرئيسية والابتعاد عن المعارك الهامشية ، والانطلاق في السياسة السورية من المصالح القومية والوطنية وبما يخدم الهدف المرحلي للنضال العربي الى جانب الاستمرار في بناء الجبهة الداخلية وتعزيز قدرات القطر العربي السوري الذاتية العسكرية والاقتصادية ، بمايضمن صموده وتصديه لتحقيق الهدف المرحلي .

وفي مجال السياسة العربية بادر الرئيس الأسد بتوضيح ملامح سياسته في هذا المجال ، والتي لخصها في تطوير أساليب العمل الوحدوي والنضال لتحقيق مايمكن تحقيقه من خطوات وحدوية ولم يكن غريبا أن يبادر بعد تسلمه رئاسة الجمهورية بأيام الى اعلان اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر وليبيا تجسيدا لايمانه العميق بالوحدة العربية ، واعادة اللحمة للوحدة الى جانب اتباع المرونة السياسية في معالجة العلاقات مع الاقطار العربية ، لتعزيز التضامن العربي وترسيخه والعمل على وضع طاقات الأمة العربية العسكرية والاقتصادية والسياسية في المعركة وتحقيق تنسيق عربي فعال لعزل العدو سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، واستخدام كل الامكانيات والوسائل لتحقيق هذا

الشعار الى جانب العمل على تحقيق عمل عسكرى فعال بمايؤدى الى وحدة القيادة العسكرية وتحقيق الاستخدام الأفضل للقوات فى جبهات المواجهة ، وتنمية القوات العسكرية العربية الى جانب العمل على تحقيق تكامل اقتصادى وتطوير المناهج التعليمية والتربوية لتحقيق وحدة الثقافة والفكر .

وفى المجال الدولى الاستمرار فى بذل النشاط والجهود الفعالة فى اطار الأمم المتحدة ومؤسساتها ومنظماتها لمحاصرة العدو وعزله ، وفضح طبيعته العدوانية وترسيخ الحق العربى ودعم حركة عدم الانحياز وتطويرها والاستفادة من المواقف الايجابية فى مجموعة الدول الاسلامية وتوثيق التعاون مع المنظمات الاقليمية كمنظمة الوحدة الافريقية .

أما بالنسبة لقضية العرب المركزية ، وهى القضية الفلسطينية فقد أكد على ضرورة العمل الحازم لعدم تحويل هذه القضية الى قضية ازالة العدوان وعدم التنازل عن الأرض العربية فى جميع الظروف والأحوال ، والالتزام بدعم نضال الشعب الفلسطينى من أجل العودة الى وطنه ، وتقرير مصيره فوق أرضه ، والعمل على ابراز الشخصية الفلسطينية ومساندة منظمة التحرير والعمل على تعزيز الوحدة الوطنية بين مختلف الفصائل فى حركة المقاومة وبما يدعم النضال الفلسطينى لتحقيق الأهداف الوطنية .

تشابه فى المواقف والفكر

□□ **ملامح التشابه والتكامل فى المواقف الثورية ، والفكر الخلاق حيال قضايا الأمة العربية بين الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والرئيس حافظ الأسد .. عديدة ومتنوعة** ، ومفاهيم الثورة العربية المعاصرة فى الوحدة والحرية والاشتراكية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية التى ناضل من أجلها جمال عبدالناصر كانت هى طابع العهد الذى استهله الرئيس حافظ الأسد .. لان كلا القائدين فهم بصدق تطلعات الجماهير وعبر بوضوح عن آمالها ، ولقد جاء حافظ الأسد ليكمل الأهداف النضالية التى بدأها الرئيس جمال عبدالناصر ولم يكملها بسبب رحيله المبكر .

ولقد واجه امتحانات غير هينة وكان فى مستواها .. ظروف نكسة حزيران يونيو ، الحرب الأهلية فى لبنان ، حرب الخليج ، الاجتياح الاسرائيلى للبنان ، وقبل ذلك كله حرب أكتوبر تشرين التى كان بطلها ، وهى الحرب التى هزت الكيان الاسرائيلى ، وأنهت أسطورة الجيش الذى لا يقهر .

موجبات حركة التصحيح

□□ موجبات حركة التصحيح كثيرة ومتنوعة أولا ، قبل عام ١٩٧٠ كانت هناك شبه قطيعة تامة بين سورية وبين العرب الآخرين ، وكان واضحا أن هناك احتياجا ماسا فى سورية لقائد يعبر عنها ويسهم فى صناعة تاريخها وأحداثها الكبرى ، لاسيما بعد أن اثبتت هزيمة ١٩٦٧ عقم القيادة الانعزالية والمتطرفة الحاكمة ، كانت هناك مسئوليات قومية عظمى تحتاج الى من يكون فى مستواها وفى مستوى المخاطر التى يمكن أن تنجم عنها .

وحين ظهرت قيادة حافظ الأسد فإنها كانت فى الحقيقة تلبية لواقع سورى يتطلب وجود مثل هذه القيادة ، ولواقع عربى نشأ عن الفراغ الكبير الذى أحدثه غياب جمال عبدالناصر ، ولذلك فقد كان ظهور حافظ الأسد فعلا ورد فعل ، فى آن واحد للظروف التى نشأت فى ذلك الوقت على المستويين السورى والعربى .

داخل النطاق السورى كانت القيادة ترفض باصرار كل محاولات الاصلاح والانفتاح وكانت تمارس الانعزال والتعالى على الجماهير .

وفى النطاق العربى كانت القيادة السورية تهاجم جمال عبدالناصر عندما قبل مبادرة روجرز دون أن تطرح اى بديل يعيد الأراضى المحتلة .

صحيح أن الرئيس حافظ الأسد لم يقبل بمبادرة روجرز الا أنه أقر مبدأ المناقشة التى يمكن ان تسفر عن الرفض أو القبول وفقا لما تحققه المبادرة من مصالح سورية وعربية .

ولقد تفهم حافظ الأسد الاسباب التى دعت الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لقبول مبدأ المفاوضات حيث كانت حرب الاستنزاف التى كان يخوضها على الجبهة المصرية باهظة التكاليف .

كما أن الحرب اتخذت مسارا خطيرا فى ظل انعدام توازن القوى بين مصر التى خسرت الحرب واسرائيل فى انتصارها المؤقت ، ومقابل كل عملية مصرية محدودة كانت اسرائيل تشن عمليات برية وجوية بالجملة ، وبعضها كان بالعمق المصرى كما جرى فى جزيرة « شدوان » الواقعة قرب الساحل المصرى على البحر الأحمر والتى تستخدم كمحطة لمتابعة الطائرات الاسرائيلية وبعد ان قتلت أكثر من ثمانين جنديا مصريا قامت بفك محطة حديثة للرادار ، كما قامت الطائرات الاسرائيلية بالاغارة على مدرسة بحر البقر المصرية وهى مدرسة ابتدائية فقتلت أربعة وثلاثين طفلا وخلفت ما يقرب من خمسين جريحا ،

ومع أن الرئيس عبدالناصر أكد أن الأمريكيين يقاتلون خلف القوات الاسرائيلية

ويزودونها بالطائرات التى يستخدمونها ضد مصر فإن عبدالناصر وفى اطار مسئوليته الكاملة عن حماية شعبه ووطنه ، وافق على البدء فى المفاوضات على أساس القرار ٢٤٢ ، وبعد ان تلقت واشنطن الموافقة المصرية أعلن وليام روجرز وزير الخارجية الأمريكى الأسبق فى ٢٥ حزيران يونيو عام ١٩٧٠ مشروعه المتضمن وقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل لمدة ٩٠ يوما على الأقل .. تعين خلالها كل حكومة ممثلين للاجتماع مع مبعوث للأمم المتحدة جونار يارينج، والبحث عن كيفية تطبيق القرار ٢٤٢ ، وطريقة تضمن انسحاب اسرائيل والتوصل الى تسوية سلمية فى المنطقة ، ولقد وافق عبدالناصر على مبادرة روجرز لأنه كان على يقين أن رفضه لها سيفتح الباب أمام اسرائيل لمزيد من الغارات الاسرائيلية وربما لهجوم عسكرى كاسح .

تفهم الرئيس حافظ الأسد كرجل عسكرى استراتيجى وقومى دوافع جمال عبدالناصر ، وتعاطف معها ، فى حين كان التطرف السورى مستمرا فى ادانة الممارسات المصرية ، وقد أسعد القيادة السورية آنذاك أن ترى جمال عبدالناصر رمز الأمة العربية يفاوض الولايات المتحدة من موقع ضعف ، **ويستذكر الرئيس حافظ الأسد أجواء الموقف فى هذا الشأن فيقول :**

« كلما تحدث عبدالناصر عن السلام كان زملائى يعترضون ، ولم يكن الأمر متعلقا بمهمة يارينج أو مشروع روجرز فحسب ، بل كان زملائى لا يوافقون على فرضياته ومقولاته ، كانوا ضد أى شىء يقوله عن السلام ، وكان يبدو كما لو أن أى شىء يقوله عن قرار مجلس الأمن القومى رقم ٢٤٢ يحسب ضده ».

ويجدر بالذكر الاشارة إلى أن استمرار سياسة الرفض العشوائية قاومها الرئيس حافظ الأسد لأنه كان يرى أن إسرائيل تحصد باستمرار نتائجها وكثيرا ما تدخل فى مناقشات حول خطورة استمرار هذه السياسة ، ومن المعروف أنه عندما أعلن العرب قبولهم للقرار ٢٤٢ أصيبت إسرائيل بالدهشة ، كما أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية رفضها لمبادرة روجرز ، ورفضها لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ لاعتقادها بأن مشكلتها ستبقى دون حل ، وانطلاقا من هذا الموقف دفعت المنظمة ببعض فصائلها إلى شن غارات مسلحة ضد المستوطنين اليهود ، فى حين وجه الرد الاسرائيلى العسكرى ضد الجيش والقرى الأردنية وهو ما خلق فى النهاية حالة من التوتر والحذر المتبادل بين الجيش الأردنى والمقاومة الفلسطينية ، واستغل الملك حسين شعور الكراهية التى بدأ الجيش يحس بها تجاه المقاومة فكانت أحداث ايلول الأسود ، غير أن جمال عبدالناصر ، وحافظ الاسد حثا الملك حسين على ضبط النفس وعدم اثارة معركة لا مسوغ لها فى ظرف دقيق وحساس .

وقد ذكر أنتونى ناتنج فى كتابه « ناصر » بأن جمال عبدالناصر أبلغ ياسر عرفات عقب

مقابلته فى اغسطس آب ١٩٧٠ « انه إذا هاجم الملك حسين المقاومة فإن عليهم ألا يلوموا إلا أنفسهم ، إذ أن الملك حسين قد كف بيده عنهم حتى الآن بسبب مناشدة القاهرة من ناحية ، ومن ناحية اخرى لانه لم يكن يرغب فى إحداث انشقاق داخل جيشه وأن على المقاومة الا تتوهم أن فى استطاعتها مقاومة الجيش الأردنى إذا ما اضطر الملك حسين إلى اتخاذ موقف متطرف،وعليهم أن يتجنبوا بأى ثمن أى استفزازات أخرى لا يمكن أن تؤدى إلا إلى كارثة اخرى تنزل بهم » .

وينقل باتريك سيل فى كتابه الصراع على الشرق الأوسط قول حافظ الأسد فى مقابلة معه : (لم اكن فى حياتى كلها مؤيدا للفوضى على الاطلاق ولن أكون .. كنت أود أن تبقى المقاومة الفلسطينية نقية ومتحررة من التورط فى الشئون الداخلية للأقطار العربية ولكن بينما اعارض الفوضى الفلسطينية فى الاردن او فى لبنان أو فى أى بلد عربى آخر فإننى أؤمن ايضا بان للفلسطينيين حقا فى إيجاد أرضية ينطلق منها نضالهم فى سورية والأردن ولبنان ومصر وأى مكان آخر ، كان هذا رأيى منذ البداية الأولى وهو لا يزال رأيى اليوم) .

وقد صح ما توقعه الرئيس حافظ الأسد ، ذلك أنه عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف أربع طائرات مدنية يومى ٦ ، ٩ أيلول (سبتمبر) واحتجزتها مع ركابها فى الأراضى الأردنية ، شعر الملك حسين بأن الوقت قد حان لتصفية حساباته مع المقاومة وإنهاء الوجود الفلسطينى المسلح ، وفى ١٥ أيلول شكل حكومة عسكرية بدأت على الفور عمليات عسكرية واسعة النطاق ضد المقاومة الفلسطينية ، ولولا التدخل السورى لحماية المقاومة من التدمير ودخول جمال عبدالناصر بثقله العربى للضغط على الملك حسين لأخذت الأحداث بعدا آخر ، وكان الثمن الذى دفعه عبدالناصر لقاء هذا الدور وفاته ، فى ٢٨ أيلول سبتمبر ١٩٧٠ .

وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يرحل جمال عبدالناصر فى وقت من أخطر الأوقات فى تاريخ العرب المعاصر حيث معركة المصير العربى المحتدمة ضد الأعداء ، شاء القدر الا ينتظر جمال عبدالناصر معنا ليقودنا إلى تحقيق النصر الذى عمل وجاهد من أجله حتى آخر أنفاسه ، وتركه أمانة فى أعناق الشرفاء تهديه إلى روحه الطاهرة فى عليائها .

وفى دمشق كان لنبأ وفاة عبدالناصر وقع الصاعقة على الجميع .. لأن جمال عبدالناصر عمل دوما على حماية سورية قلب العروبة النابض ومركز الدعوة الوحدوية عبر التاريخ ، يكفى أن نشير إلى أنه إزاء الضغوط الاستعمارية التى كانت تستخدم تركيا والعراق للتدخل فى سورية وقعت اتفاقية ميثاق عسكرى وتضامن بين مصر وسورية فى

تشرين أول أكتوبر ١٩٥٥ ثم عندما اشتد الضغط بسبب الاتجاهات التحررية فى سورية وضعت مصر الاتفاقية موضع التنفيذ وأرسلت قواتها إلى سوريا تحمى حدودها الشمالية وأعقب ذلك قرار جماعى من مجلس الشعب السورى ، وقد تمت الوحدة بعد ذلك فى فبراير شباط ١٩٥٨ .

وأيا كانت النتيجة التى انتهت إليها هذه التجربة فإن الحقيقة التى لا مراء فيها ، هى أن هذه الوحدة التى تحققت فى ظل قيادة جمال عبدالناصر كانت استجابة للوعى القومى العربى فى البلدين وتسجيلا لتيار جارف إنبعث من جموع الشعبين اللذين آمنا بالقومية العربية وضرورة الوحدة بينهما ، كخطوة أولى فى سبيل الوحدة الكبرى التى تضم شمل الأمة العربية فى دولة كبرى موحدة أو اتحادية ، وكان نشوء هذه الدولة كما أوضح جمال عبدالناصر نقطة تحول رائع فى تاريخ العرب الحديث .

وعلى الرغم من انتكاسة الانفصال فى أكتوبر تشرين الأول ١٩٦١ والتى تابعها الشعب العربى بقلب جريح ، فقد كان جمال عبدالناصر نموذجا للقائد الشجاع والحكيم حين رفض أن تكون الحرب العسكرية وسيلة إلى تدعيم الوحدة ، **وفى هذا الصدد قال الرئيس جمال عبدالناصر** « إننى لا أقبل ـ مهما كانت الظروف ـ أن أرى الشعب هنا ، والشعب فى سورية أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق ولا استطيع أن أتصور القاهرة ، ودمشق إلا أخوة كفاح وإلا زملاء معركة وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية ، مع كل مدينة عربية ، مع كل قرية عربية ولذلك اتخذت قرارا بألا تتحول الوحدة العربية بين مصر وسورية إلى عملية عسكرية ، وبناء على ذلك فلقد أوقف جميع العمليات العسكرية التى كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية فى سورية .

وكان لجمال عبدالناصر كلماته التى لا ينساها الشعب السورى ومنها : « إنه ليس من المحتم أن تبقى سورية قطعة من الجمهورية العربية المتحدة ولكن من المحتم أن تبقى سورية ، أن الذى يشغل بالى ليس هو أن أكون رئيسا للشعب العربى فى سورية ولكن الذى يشغل بالى هو أن يكون الشعب العربى فى سورية وأن يصان له كيانه ، لست أتصور أن أقبل بأى حال من الأحوال أن أرى فتنة تهدد الشعب السورى أو خطر يتربص به أو شاغلا يشده ويعثر طاقته من أن تتجه بكل امكانياتها إلى حراسة المكاسب الشعبية التى حققها فى عهد الوحدة ، ثم يجد أن ما فى يده يسلب منه يوما بعد يوم بينما هو مشغول بقضية فرعية مؤقتة سوف تحكمها فى نهاية المطاف حتمية التاريخ » .

ثم تتابعت خطوات عبدالناصر المعروفة فى هذا المجال والتى تستهدف دعم الوحدة الوطنية فى سورية ، ويذكر السوريون أنه رغم انتكاسة الانفصال فقد ظلت صلة التضامن قوية بين الشعب السورى ، والشعب المصرى ، يكفى للتدليل على ذلك أن مصر

حشدت قواتها فى سيناء فى مايو أيار ١٩٦٧ بسبب العدوان الاسرائيلى المتوقع على سورية وبعد العدوان كان الرئيس جمال عبدالناصر يؤكد فى جميع مواقفه وكلماته أنه لا يقبل أن يتجزأ حل مشكلة الشرق الأوسط وأنه لا يقبل أى حل للمشكلة لا يعيد جميع الأراضى العربية المحتلة، فالجولان قبل سيناء ، والضفة الغربية قبل سيناء .

حافظ الأسد يأخذ زمام المبادرة

شعر حافظ الأسد بعد وفاة جمال عبدالناصر فى ٢٨ سبتمبر أيلول ١٩٧٠ أن مرحلة جديدة من حياته قد بدأت ، وبعد أن عاد من القاهرة حيث شارك فى جنازة الزعيم المصرى الراحل ، وشهد الحزن الجماهيرى المذهل قرر أن الوقت قد حان لإنهاء مرحلة الازدواجية والغموض والتطرف والانعزال والمناورة ، فالامة التى ودعت زعيمها الخالد ، كانت تتطلع إلى البديل الذى يملأ الفراغ الذى خلفه جمال عبدالناصر ، وفى المؤتمر القومى الاستثنائى الذى عقد فى ٣٠ تشرين الأول أكتوبر ١٩٧٠ أكد حافظ الأسد أمام المتشددين من ذوى الحناجر الهتافة والذين يجيدون القفز من جهة إلى جهة ، أسرى التطرف ودعاة الانغلاق والانعزالية .. **أعلن أنه بموت جمال عبدالناصر لم يعد بامكانهم الاختباء وراءه واطلاق تهديداتهم ضد اسرائيل ،** وكان مما دفع الرئيس حافظ الأسد إلى اتخاذ هذا الموقف أنه فى الوقت الذى وجد فيه أن مصر بعد هزتها الوطنية الجارفة التى شهدتها يومى ٩ ، ١٠ يونيو حزيران قد بدأت تتجاوز المحنة القاسية ، وكان تجديد البيعة لجمال عبدالناصر دليلا جديدا على الصحوة لازالة آثار العدوان ، بينما كانت القيادة فى دمشق تعيش أسيرة جمودها وعجزها وانطوائيتها التى دفعتها إلى أن تقرر عدم المشاركة فى مؤتمر القمة العربى فى الخرطوم لتقويم الموقف ، مع أن هذا المؤتمر قد وضع لنفسه هدفا وحيدا وهو تحديد متطلبات الدعم التى ينبغى على الدول العربية القادرة أن تقدمه لدول المواجهة التى تضررت من الحرب وهى مصر وسورية والأردن .

وقد أدى امتناع سورية عن المشاركة فى هذا المؤتمر إلى تجاهل سورية فى الدعم المالى الهام الذى قرره مؤتمر الخرطوم للدولتين الاخريين مصر والاردن ، **وقد ذكر الرئيس حافظ الأسد أن هذه العزلة التى وضعت سورية نفسها فيها لم تكن لتخدم كفاحها ضد إسرائيل ما دامت تقلص من القدرات العربية فى المواجهة مع العدو.**

وقرر الرئيس حافظ الأسد أن يسرع فى إنقاذ بلاده وأن يضع حدا نهائيا لسياسة التطرف بالكلمات ، والنضال بالشعارات ، والعجز عن المواجهة العلنية التى رأى أنها حتمية واختار الانحياز إلى الجماهير ، وإلى الحزب ، ورفض استمرار **القيادة المناورة ، وفى صبيحة يوم السادس عشر من تشرين أكتوبر عام ١٩٧٠ كان التغيير الثورى الذى**

قاده الرئيس حافظ الأسد والذى أكد فيه بالقول وبالفعل أن حركة السادس عشر من تشرين عام ١٩٧٠ هى حركة انقاذ أعادت إلى الثورة وجهها الصحيح وإلى الحزب جماهيره وتم التخلص من الواقع المضطرب الذى كان يسود والذى كان يفرض على الجماهير أن تعيش حالة من القلق.

لقد وعى حافظ الأسد آلام أمته وآمالها وعاشها وعاش بها وأدرك أحلام الأمة العربية فتعمق فيها ينتشلها من غفوة الحلم إلى عالم الواقع .. لقد عاش تجربة يونيو حزيران بكل أبعادها، فكانت هذه التجربة دافعا له ليكون فى مستوى المسئولية، وكان من الطبيعى وهو الثائر على الظلم أن يرفض استمرار الظلم .. لقدتمت الحركة التصحيحية وبنجاح، **وشكل الرئيس حافظ الأسد الحكومة الأولى والتى أصر على أن تشارك فيها أطراف غير بعثية.**

ويقول الرئيس واصفا الوضع بعد الحركة التصحيحية:

« الحركة التصحيحية إنما هى اليوم ومن خلال ارادتكم حركة الحزب، والشعب نحو المستقبل فنحن مع الشعب وله، نحن مع الشعب نعايش معاناته، ونتعرف على رغباته ونعبر عن إرادته، ونحن لهذا الشعب الأبى نتحمل مسئولية القيادة ويقع علينا عبء تحقيق تطلعاته وتنفيذ رغباته، ولسنا من يشير إلى الخطأ فقط، ولسنا من يعدد السلبيات وحسب، وإنما نحن أولا وقبل كل شىء الطليعة التى تعالج الخطأ وتتجاوز السلبيات وتصحح المسار، عندما يعترض هذا المسار أى خلل، إننا ننهض بشرف المسئولية فى قيادة الدولة والمجتمع، وشرف المسئولية يتطلب النضال ضد النفس أولا وضد أمراض الواقع ثانيا فالبعث فى بنيته تجسيد لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع ».

ويضيف:

« لقد استطعنا فى القطر العربى السورى منذ حركة السادس عشر من تشرين الثانى التصحيحية أن نمضى أشواطا بعيدة فى كل مجال، سرنا شوطا بعيدا فى تحقيق اطار الدولة العصرية، وسرنا شوطا بعيدا فى رفع مستوى معيشة المواطن وسرنا شوطا بعيدا فى تطبيق الديمقراطية الشعبية، وسرنا شوطا بعيدا فى تطبيق ديمقراطية التعليم وربط التعليم بالمجتمع، وسرنا شوطا بعيدا فى تدعيم قوتنا الدفاعية ».

إن الحركة التصحيحية اعطت لسورية دفعا كبيرا فى بناء المجتمع ونهضته بأساليب تضمن لأفراد هذا المجتمع الحياة الكريمة والعدالة الاجتماعية. لقد جاءت الحركة التصحيحية نتيجة طبيعية للصعوبات التى صادفتها ثورة آذار، التى اضطرتها الى التوقف أحيانا وإلى الانعطاف حينا آخر وإلى المراوحة فى المكان أحيانا.

قبل الحركة التصحيحية كانت ملامح الكارثة قد بدأت تأخذ مسارا خطيرا فالتشتت والارتباك وفقدان البوصلة والموقف المائع الذى لا يرسم ، ولا يحدد سياسة داخلية أو عربية أو دولية فى وقت تعاظمت فيه مخاطر الهجمة الاستعمارية والصهيونية على الوطن العربى ، كل هذه الأمور كانت تتطلب من كل القوى الوطنية والتقدمية حشد طاقاتها وتجنيدها لمعركة التحرير .

كانت سورية تعيش مأزقا حقيقيا ليس بسبب الوضع الداخلى المنهار ، ولكن بسبب الضغط الخارجى ايضا ، وبسبب الفراغ الذى نشأ عن رحيل عبدالناصر جاءت الحركة التصحيحية فى صبيحة السادس عشر من تشرين الثانى لتنتهى مرحلة قديمة ، وتبدأ مرحلة جديدة ، ولتقوم قيادة قطرية جديدة ومؤقتة من واقع الشعور بالمسئولية والحرص على الحزب والثورة ، لكي تعمل على رأب الصدع والعودة إلى الحياة الطبيعية .

ولقد كانت مسيرة الحركة فى مجال الانجازات كبيرة ومتنوعة ، ولعل فى مقدمة هذه الانجازات انجاز الصمود فى زمن الهزائم العربية المتلاحقة ، ولولا هذا الصمود لما حافظت سورية على كيانها ، ولما توافر للأمة العربية القدرة على الصمود فى زمن المتغيرات الدولية ، والمؤامرات المتلاحقة .

انجازات الحركة التصحيحية على الصعيدين الداخلى والخارجى كثيرة ومتنوعة ، يكفى ان نشير الى ماتحقق فى المجال الداخلى حيث تم حشد كل الطاقات التقدمية والشعبية ووضعها فى خدمة المعركة ، وذلك من خلال :

(١) تطوير العلاقات فى اتجاه اقامة الجبهة الوطنية التقدمية بقيادة حزب البعث

(٢) تشكيل مجلس الشعب الذى ينتخب بواسطة الشعب وبطريقة حرة بحتة ، ولكنه يضم ممثلين عن الحزب والمنظمات الشعبية والمهنية والقوى والعناصر التقدمية بهدف ممارسة التشريع ووضع الدستور الدائم ومتابعة وضع تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية والاستمرار فى بناء القاعدة الاقتصادية السليمة ، واعطاء المنظمات الشعبية دورا فعالا فى الرقابة والممارسة ، ومتابعة بناء القوات المسلحة وتطويرها من اجل القيام بواجبها على الوجه الأكمل فى معركة التحرير .

ومن الانجازات الكبرى حرب تشرين أكتوبر التى كانت الرد التاريخى المباشر على هزيمة عام ١٩٦٧ ، فالنصر العسكرى الكبير الذى تحقق آنذاك أثبت قدرة العرب ، حضاريا على استيعاب التكنولوجيا العسكرية المتطورة والقدرة على ايقاف الصلافة الاسرائيلية عند حدها.

وهذا الانجاز القومى الرائع كانت له أبعاد نفسية ووجدانية عميقة على أبناء

الشعب العربى، إذ نقل الأمة العربية من حالة اليأس الى حالة الأمل، ومن حالة الاحباط الكامل الى حالة الاستنفار والاعتزاز والوعى.

ومن الانجازات الهامة التى تحققت.. التوجه لتحقيق التوازن الاستراتيجى العسكرى والسياسى، بين العرب واسرائيل.. وبغير توافر هذا الشرط الأساسى.. أى تحقيق التوازن بين العرب وبين اسرائيل، لا يمكن للعرب أن يخوضوا حربا، أو يخوضوا سلما، لأن المفاوض العربى عندها يكون مفاوضا ضعيفا خائرا مغلوبا على أمره ازاء القرارات المصيرية التاريخية.

وهاهى ذى الصلافة الاسرائيلية تتجسد مرة أخرى فى الموقف المتطرف المتشدد الذى سلكه اسحق شامير اثناء مفاوضات مدريد حيث ظهر للعالم أجمع أن اسرائيل لا تعمل من أجل السلام بل من أجل التوسع، واستلاب المزيد من الأراضى العربية والمياه العربية لتحقيق حلم الصهيونية العالمية الأكبر بإقامة اسرائيل الكبرى.

كذلك فلقد وقف الرئيس الأسد سدا منيعا فى مواجهة المشروع التقسيمى فى لبنان، وحافظ على وحدته وعلى هويته العربية، ولذلك تمكن لبنان من قهر قوى الظلام والتمرد والميليشيات، وساعدت سورية على اعادة بناء الدولة اللبنانية ومؤسساتها الأمنية والاجتماعية وساهمت وتساهم الآن بقدر وافر فى عملية اعادة البناء والإعمار ولبنان بأسره، بحكومته وبأبناء شعبه، يعرف تمام المعرفة انه لولا العناية الفائقة التى ابداها الرئيس حافظ الأسد شخصيا لقضية لبنان لانتهى أمره ووجوده منذ أمد بعيد.

وبالنتيجة فإن دمشق الحركة التصحيحية تساعد الآن فى بلورة تكوين الفعل العربى الحديث والانسان العربى الحديث المقاوم، المعتز بعروبته، وكبريائه، وكرامته، الرافض للاستسلام، والهزيمة، المتمتع بأهلية كاملة لخوض غمار الحرب، وخوض غمار السلم على حد سواء.

فمكونات الحق العربى فى المرحلة السالفة كانت مشوبة بالأفكار الضبابية ومشوهة بالافكار الجامدة، ومجبولة بالعواطف الفضفاضة والشعارات الفارغة، فكان لابد من تحرير العقل العربى من كل هذه الشوائب وبلورته عبر منهجية علمية موضوعية، وهذا مماساهمت الحركة التصحيحية مساهمة كبرى فى انجازه.

وهنا أيضا تمكن الرئيس حافظ الأسد من تسجيل انتصار قومى جديد يكشف اسرائيل على حقيقتها العدوانية، وهو اظهار الرغبة الحقيقية العربية فى اقامة سلام عادل يرضى المجتمع الدولى، ولا ينتقص اطلاقا من الحقوق العربية المشروعة.

سورية في ظل قيادة الأسد
وبعد ٢٢ سنة تلت التصحيح

□□ كيف يمكن النظر الى أبرز التحولات التي شهدتها سورية في ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ؟ وبعد قيام الحركة التصحيحية على الصعيدين الوطني والقومي ؟

هل يمكن قياس التغيير الذي تم ، والذي تحقق حتى الآن داخل سورية بانجازات تحققت ، بمشروعات اقيمت ، بسياسات تبدلت ، بارتباطات دولية ، وإقليمية اتخذت شكلا جديدا ، بعبارة أخرى هل يمكن وضع ماجرى تحت قائمة التصنيفات السياسية المعروفة ؟

واقع الأمر إن ما استهدفته الحركة التصحيحة ، لم يكن فقط تغييرا بهدف اقامة سلطة جديدة قادرة على استيعاب تطلعات الجماهير نحو الحياة التي تنشدها ، ولم يكن التغيير أيضا ، استبدالا لسياسات انعزالية بأخرى متطورة تتناسب مع حجم سورية ، وموقعها .

ايضا لم يكن التغيير اندفاعاً فقط لاقامة شكل جديد للممارسة الجماهيرية في السلطة كبديل للتمثيل الوهمي للجماهير في مؤسسات لا تنتمي الجماهير اليها ، ولا هي تعبير عن ارادتها .

لم يكن التغيير قضاء على امتيازات قلة حزبية متسلطة ، وذات تفكير تقليدي تجاوزه الزمن أو انحياز يعيد التوازن لمعادلة اقتصادية واجتماعية هددها الخلل .

لم يكن التغيير تكثيفا للخدمات ، عدالة في توزيع هذه الخدمات ، ارتقاء بها بحيث تكون شاملة وكافية ومتناسبة ، مع متطلبات الحاضر فقط .. كان التغيير الذي شهدته سورية بعد الحركة التصحيحة ، هذا كله .

ما استهدفته حركة التصحيح عام ١٩٧٠ كان في حقيقته ثورة حضارية بأكثر منها ثورة لها أبعادها التقليدية المعروفة في مجالات السياسة والاقتصاد وغيرهما .

واذا كان الناس في حسابهم للزمن وتقويمهم للأعمار مشارب ومذاهب ، فمنهم من يحسب العمر بعدد السنين ، حتى وان كانت عجافا ، ومنهم من يحسبه بماأثمرت السنون وانتج الانسان فيها ، ومنهم من يجمع في حسابه بين هذا وذاك .

فمن المؤكد ان خير حصيلة هي حصيلة العمر المديد الحافل بالثمرالوفير ، ولكي يكون الحكم منصفا على الحركة التصحيحية ، يجب أن توزن الأمور بميزان الزمن والنتائج وان

يكون الحكم بموجب ماكان قبلها وماحدث خلالها وماوصلت اليه حتى الآن ، ان هذا الحكم يرشد دوما الى الصواب ، فنجد الاختلاف واسعا ، والفرق كبيرا بين مرحلتين : مرحلة ماقبل ثورة التصحيح ، ومرحلة مابعد ثورة التصحيح .

الدكتور محمد سلمان وزير الاعلام السورى يرى - وبحق - أن الحركة التصحيحية كانت ضرورة وطنية قومية فى آن واحد ، فقد جابه التصحيح عقلية الجمود والمناورة واسقطها ، وأعاد بناء جسور الثقة بين جماهير الشعب والحزب بقيادة الرئيس الاسد ، الذى أوضح مضمون الحركة التصحيحية ، بقوله : نحن أولا وقبل كل شىء الطليعة التى تعالج الخطأ ، وتتجاوز السلبيات وتصحح المسار عندما يعترض هذا المسار أى خلل .

أما الضرورة القومية فقد تمثلت فى الرد على حالة الاحباط عبر التأكيد على تعبئة الجماهير العربية لمجابهة العدو ، واقامة تضامن عربى فعال يملك مقومات تجاوز نكسة يونيو حزيران ، وهذا ماتحقق فى حرب أكتوبر تشرين حيث استطاع العرب لأول مرة فى تاريخهم الحديث ان يملكوا قرار المبادرة فى مهاجمة العدو الصهيونى ، وفى تحرير الأرض ، وفى اسقاط اسطورة الجيش الصهيونى الذى لا يقهر .

وفى رأى الوزير محمد سلمان أن القيادة التاريخية للرئيس الأسد استمدت اهميتها من تفاعل المسألتين الوطنية مع القومية ، فإقامة بناء داخلى متين فى سورية والعمل الدؤوب من أجل بلورة وضع عربى ملتزم بالقضايا القومية ، وفى مقدمتها مجابهة الغزوة الصهيونية واسقاطها ، أوجدا معا معادلة عربية من أبرز ثمارها بعد حرب تشرين أكتوبر .. رد الغزو الصهيونى عن لبنان ، واسقاط اتفاق السابع عشر من أيار الذى هدف الى تحويل لبنان إلى محمية اسرائيلية وقاعدة للعدوان على سورية والأمة العربية ، والصمود البطولى لابناء الجولان ، والانتفاضة الشعبية فى الآراضى العربية المحتلة التى أحدثت زلزالا يرمى حممه وحجارته على الكيان الصهيونى مؤكدة حقيقة انه لا مستقبل للاحتلال ولا بديل عن التحرير وتحقيق الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطينى .

إذن التأكيد على أولوية الصراع مع العدو الصهيونى ، وتحقيق التضامن العربى الفعال لمجابهة التحديات الصهيونية ، والتمسك بالثوابت الوطنية الفلسطينية ، ودعم الانتفاضة فى الوطن المحتل ، ونضال الأهل فى الجولان ، ومساعدة لبنان على تحقيق وفاقه الوطنى ، واسقاط الاطماع الصهيونية فى أرضه من أبرز معطيات النهج والممارسة القومية لسياسة سورية بقيادة الرئيس الأسد.

كيـف ؟

لقد عرضنا فى الصفحات السـالفة بايجاز واقع سورية قبل قيادة الاسد ، والدوافع التى ادت الى قيام ثورة آذار وأهدافها ، وتعرضنا أيضا لحركة شباط/فبراير عام ١٩٦٦ كضرورة تصحيح مسار الثورة ، ودور الرئيس حافظ الأسد فى الوصول بسورية وحزب البعث الى هذه الحركة التى كانت منعطفا هاما فى مسيرته القيادية .

ثم تعرضنا بايجاز لحرب حزيران .. الأسباب والنتائج ، وكيف حولت هذه الصدمة الرئيس حافظ الأسد الى مخطط ومفكر استراتيجي فى ميدان السياسة الدولية ، وألممنا سريعا بالاجراءات التى اتخذت بعد حرب يونيو حزيران وصولا الى معرفة الظروف التى حتمت القيـام بحـركة التصحيح عام ١٩٧٠ ومنطلقاتها ، وهى المنطلقات التى جعلت الجماهير السورية تخرج فى كل المحافظات لتأييد الرئيس حافظ الأسد ، ولتجدد له البيعة فى كل مناسبة وبتعبيرات تلقائية ، وهى ترى القائد يشق الطريق عبر الشدائد ووسط الصعاب ليشكل المرحلة الأهم فى تاريخ سورية الحديث ، وكانت الجماهير بعد الله هى سنده وهى الصخرة التى تكسرت وتتكسر عليها مؤامرات الاعداء .

لم تكن حركة التصحيح التى قادها حافظ الأسد قفزة فى المجهول أو مغامرة غير محسوبة بل كانت هدفا ناضل كثيرا من اجل الوصول اليه ، وليجعله التاريخ الفاصل بين مرحلة ومرحلة ، مرحلة ضعف فى كل مجال فى ظل قيادة انعزالية حكمت بالجهل ، والغباء ، والغرور ، وتصورت ان التعالى على الجماهير ، والقفز فوق واقع هذه الجماهير يمكن ان يخفى عوراتها الفاضحة . ومرحلة بناء وتقدم فى كل مجال ، مرحلة كان رائدها ان الانسان هو منطلق الحياة ، وهو هدفها ، وان المستقبل لابد ان يكون أبهى من الحاضر ، وان الارتباط بالشعب وبالأرض هما الوطن ، وفى ظل صفاء العقيدة ،ووضوح الرؤية والتزام المبدأ ، والايمان المطلق بالجماهير وقدراتها غير المحدودة تحقق الكثير فى ظل قيادة الأسد الذى استلهم مسيرته من خفقات قلوب الجماهير العربية ، ومن معاناة الكادحين .

كان حافظ الأسد واثقا من قدرته على قهر الصعاب ، وهو يخطط ويقود ، ويفجر حركة التصحيح ، لأن احساسه بالمعاناة الشعبية ، وعظمة الآمال الجماهيرية كان عميقا ، وهكذا لم يتردد فى مواجهة التحديات التى هدفت الى ابعاده عن الطريق رغم كبر ، وتنوع ، وتعدد واستمرارية هذه التحديات منذ خمس وعشرين سنة ، وحتى الآن ، بصور مختلفة ، وبأساليب متنوعة ، ولسوف يبقى مبهرا لمن سيؤرخون لتجربة حافظ الأسد انه استطاع فى ظل العقبات والصعوبات ، وبلاده تتعرض لأعنف الحملات وأعتى المؤامرات أن يحافظ على وحدة بلاده الوطنية ، أن

يحافظ على ارادته الوطنية حرة غير مقيدة ، بأى قيد ، وتتابعت الانجازات التى جعلت من سورية دولة عصرية قوية ، منيعة ، رفيعة القدر ، مسموعة الكلمة ، قبلة للاحرار ، والمناضلين فى سبيل الحق ، والحرية ، والكرامة ، وحق تقرير المصير .

الانسان منطلق التجربة

الانسان هو منطلق تجربة حافظ الاسد ، وهدفه ، هكذا قررت سورية منذ الحركة التصحيحية ، هكذا كان هدفها ، ولذلك استجاب الانسان فى سورية لهذا القرار وأعطى نموذجا فريدا فى القدرة على البذل والعطاء ، ولذلك أيضا كانت كلمة نعم التى قالها الشعب السورى لقائده ، وهو يرشحه للولاية الدستورية الرابعة مقرونة بالفعل ، والسلوك ، وخرجت جماهير الشعب بشيبها ، وشبابها ، برجالها ، ونسائها لتعبر ، وبطريقتها الخاصة عن فرحتها بماحققه الأسد ، وادراكها ان الحاضر الذى تنعم به ، والذى يتسم بالاستقرار ، والأمن ، والبناء هو حصيلة عمل دؤوب شاركت فيه كل الجماهير ، وبنته كل الجماهير ، ولذلك فقد كان الرئيس حافظ الأسد صادقا ، وواقعيا عندما قال فى خطابه التاريخى بمناسبة اداء القسم فى مجلس الشعب فى ٢ مارس آذار ١٩٩٢ : « ان الجماهير تدرك وبحسها السليم ان المستقبل لابد أن يكون ابهى من الحاضر ، فهو سيكون بإذن الله حصيلة ما تراكم فى الأمس ، ومايتحقق اليوم ، وغدا ، وعلينا أن ننذر أنفسنا فى كل مواقع العمل ، والمسئولية الرسمية ، والشعبية لتحقيق آمال ، وطموح الشعب ، وعندما نكون كذلك ، فإننا نقوم بواجبنا من جهة ، ونكسب احترام الشعب ومحبته من جهة أخرى ، وأقصى وأنبل مايتطلع اليه المرء هو ان ينال محبة الناس فى وطنه ، وعندما كنت أتابع أعراس الجماهير التى كانت تحتفل أمام أبصار الجميع فإننى كنت أعلم بأن مايربطنى بالشعب هو مايربط الشعب بالأرض ، والشعب والأرض هما الوطن ومن لا يرتبط بالشعب والأرض فلا وطن له ، ومن لا وطن له لا وجود له » .

معالم الدولة الحديثة

لعل أول مايسترعى الانتباه عند الحديث عماتحقق فى هذا المجال الاشارة الى حقيقة ان الرئيس الأسد هو أول زعيم سورى يرسى مؤسسات ويبنى معالم الدولة الحديثة ، من يدرس تاريخ سورية الحديث بعد حكم الرئيس الأسد يرى انه لم تبق هناك خلية من خلايا المجتمع السورى الا لها تنظيم ، هناك منظمات للطلائع الصغيرة التى تشمل الطلبة من الابتدائى وحتى الاعدادى ، وهناك منظمة اسمها « منظمة شبيبة الثورة » التى تأخذ الشباب لكى تعدهم اعدادا فكريا ، ورياضيا ، وهناك أيضا منظمات

شعبية لكل فئة من فئات المجتمع ، هناك الاتحاد العام لنقابات العمال ، والاتحاد العام للفلاحين والاتحاد الوطنى لطلبة سورية ، والاتحاد العام النسائى ، والاتحاد العام للجمعيات الحرفية ، ثم هناك نقابات تشمل جميع المهن كالمحامين والصيادلة والمهندسين والصحفيين .. الخ .

بالاضافة الى ذلك فإن هناك حزبا وهو ليس حزبا واحدا ، وانما حزب يتفاعل مع الأحزاب الموجودة فى الساحة من خلال ائتلاف وطنى يضم سبعة أحزاب ، وينفتح الى استقبال أحزاب أخرى بالاضافة الى عدد كبير من المستقلين الذين يمثلون جميع شرائح الشعب ، ومن يتطلع الى هذه المؤسسات التى ارسيت بالاضافة الى المجالس المنتخبة محليا وطريقة الانتخاب يرى ان هذا الاساس الذى ارساه الرئيس الأسد هو أساس كامل البنيان بالاضافة الى بناء القوات المسلحة وتنظيماتها وتشكيلاتها وانخراطها بالشعب باعتبارها جزءا منه ، جزءا معبرا عنه ضمن تفاعل وطنى يرمى الى حماية الثورة فى الداخل والخارج ، لكنه رغم ذلك كله لا يمكن أن ينفى دور القائد فى المجتمع ، والقائد تعبير جاء عند العرب من القدوة ، وعندما يكون الانسان قدوة فى مجتمعه يستطيع الشعب ان يتفاعل معه ، ويعطيه ثقته ، وهذا لا يأتى من الصدفة ..

الرئيس الأسد عاش منذ كان طالبا مع الجماهير ، يعلمها ويتعلم منها ، ينزل اليها ويناقشها من القاعدة الى القمة ، يسأل جميع ذوى الشأن فيها من الوحدة الصغيرة على مستوى القرية أو المدينة أو الحى ويستمع الى رأى المنظمة ، ورأى الحزب ، ورأى الجبهة الوطنية التقدمية ، ثم رأى القيادة السياسية ، ورأى مجلس الوزراء ، وبعد ذلك يبحث كيف يمكن ان يعالجها البرلمان ، وعندما يأتى كل هذا يضفى على القضية من حكمته الكثير حتى تخرج بالصورة التى ينبغى أن تخرج عليها ، ولذلك فإن إمكانية القيادة ، أو مواهب القيادة لا يمكن ان تتوافر لكل الناس ، وحافظ الاسد لم تخرجه الصدفة وانما اخرجه الواقع الحى المتمثل فى تعايش الانسان مع بيئته ، وشعبه ، وأمته ، منذ نعومة أظافره وحتى الآن ، ولذلك فإن الأثر الذى زرعه الرئيس الأسد وخلقه لا يمكن ان تمحوه الأيام وانما سيبقى خالدا .

المؤسسات الدستورية

المؤسسات الدستورية بمفهومها الحقيقى ، وفى ظل الاطار الذى يوفر لجميع المواطنين العمل والانتاج ويرسخ قاعدة الحقوق والواجبات ، هذه المؤسسات لم تمارس دورها الحقيقى الا بعد الحركة التصحيحية ، حقيقة ان ثورة آذار التى أسقطت الانفصال ، والقيادات اليمينية سعت لايجاد المؤسسات الدستورية التى تحمى التحولات داخل المجتمع ، ولكن ذلك لم يتحقق بشكل متكامل الا بعد الحركة التصحيحية ، واستقراء

بيان القيادة القطرية المؤقتة عن قيام الحركة التصحيحية يبين بوضوح ايمان الرئيس الاسد بدور الجماهير فى عملية التغيير الذى يتطلب ممارسة الديموقراطية بأوسع اشكالها .

وكان مجلس الشعب التجسيد العملى لممارسة الديموقراطية ، وقد نص على تشكيله بيان القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربى الاشتراكى عام ١٩٧٠ خلال ثلاثة أشهر ، وفى الثانى والعشرين من شباط فبراير عام ١٩٧١ انعقد مجلس الشعب لأول مرة ، وجاء تشكيله تتويجا لما تحقق فى الفترة الانتقالية ، فكان تشكيله فى الموعد الذى حدده بيان القيادة القطرية دليلا آخر على الوفاء بالعهد ، وبرهانا جديدا استشفه الشعب بحسه السليم من اتجاه صادق لدى الرئيس حافظ الأسد نحو تعزيز دور الشعب فى تحمل المسئولية ، وجاء مجلس الشعب ممثلا لمختلف قطاعات الشعب وفئاته أوسع تمثيل ، وفيه رأت الجماهير التجسيد العملى لشعار الديمقراطية الشعبية، وفى حرم هذا المجلس شع نور الحرية ليملأ أرجاء سورية، وليؤكد ممارسة الحرية بمفهومها الصحيح ، وبواسطته تأخذ المنظمات الشعبية دورها فى المساهمة بسن التشريعات ومراقبة التنفيذ ، وتمارس الرقابة الشعبية بشكلها الفعال ، كما تمارس دورها فى عملية التحويل الاشتراكى .

وقد حدد الرئيس الأسد مسئوليات المجلس فى مسئوليتين رئيسيتين : مسئولية التشريع ، ومسئولية وضع دستور دائم للبلاد يؤكد مبادىء الثورة ويرسى الأسس المتينة للمستقبل ويشكل الاطار العام الذى تحدد ضمنه المسئوليات ، وتصان الحريات ، وينطلق كل مواطن فى نطاق اختصاصه الى اداء دوره فى خدمة المجتمع ، والوطن ، والأمة العربية ، وهكذا حدد الرئيس حافظ الأسد تصوره لدور مجلس الشعب فى عملية التغيير الاجتماعى ، وقد أعطى تكوين مجلس الشعب بعدا وعمقا جديدين الى المنجزات المتعددة فى مجال الديموقراطية وتوسيع مجال ممارساتها .

وتجدر الاشارة هنا انه فى اطار تحديده للمفهوم العميق للديموقراطية **أكد الرئيس حافظ الأسد ان الديموقراطية الشعبية ليست أمرا مجردا بل هى صنيع وممارسات لابد ان تنطلق من الواقع** ، وفى ضوء معطياته مايجعلها قادرة على تطوير هذا الواقع ودفعه نحو الصورة المثلى التى يرنو اليها الشعب .

وأكد الرئيس حافظ الأسد أيضا فى خطابه امام مجلس الشعب فى السادس عشر من تشرين الثانى نوفمبر ١٩٨١ « لا يفوتنى منذ اليوم الأول لانعقاد مجلسكم أن أؤكد على الاهمية القصوى لممارسة المجلس لمهامه الدستورية ممارسة تامة وفى اطار من المتابعة والديناميكية والدقة والرؤية الثاقبة لمصالح الشعب عامة».

« ومن الخطأ والخطر الا نرى بشكل واضح مدى السلبية التى تنجم عن أى تهاون أو تقصير فى ممارسة المجلس دوره كاملا وهو المؤسسة التى اختارها الشعب كأعلى سلطة تشريعية ، وانها أمانة مقدسة ان يقوم كل منا بالدور الذى أوكله اليه الشعب ، وفى الاطار الدستورى الذى حددته جماهيره، لقد أكدت فى لقائى مع مجلس الشعب السابق على ضرورة أهمية الرقابة التى يمارسها مجلس الشعب وفقا لأحكام الدستور والقوانين ، واليوم أيضا أؤكد على ضرورة ممارسة هذه الرقابة .. انكم كممثلين للشعب فى أعلى مؤسسة دستورية فى البلاد مسئولون مسئولية مباشرة عن التعبير عن أمانى الشعب ، وآماله ، ورغباته ، وهذا يتطلب منكم الاتصال الدائم والمستمر مع مواطنيكم لمتابعة آرائهم وأفكارهم فيما يتعلق بالشئون العامة للوطن .. لقد جاء مجلس الشعب استكمالا لبناء الديموقراطية الشعبية التى شكلت أحد الأهداف الكبرى للحركة التصحيحية ، وصولا الى غاية اساسية هى ان تكون السلطة بيد الشعب منبع كل السلطات ، لأن ذلك هو الضمان لاكتساب المزيد من العمل والاعداد على طريق التحرير.

لقد كانت المجالس قبل الحركة التصحيحية ، لا تمثل سوى طموحات أشخاص وفئات صغيرة من المجتمع ، وكانت حكرا على هؤلاء فقط ، ولم يكن ممكنا ان يكون للشعب الكلمة الفصل .. وكانت الديموقراطية أشبه بغطاء أو ديكور يخفى وراءه مصالح قلة محدودة ، ولم يكن هناك تمثيل للعمال والفلاحين بل لقد عمقت هذه المجالس الهوة للفوارق الطبقية واستعمال السلطة للقمع والاضطهاد ، وكبت كل مامن شأنه تغيير المسار.

وكان من الطبيعى أن تبقى سورية ساحة للتقلبات والسياسة الغوغائية ، ولم يكن ذلك إلا افراز من افرازات الاستعمار والرجعية المستحكمة والى أن استطاعت ثورة الثامن من آذار أن تزيل هذا الاضطهاد والظلم وتسعى من خلال الممارسة الديمقراطية الشعبية الصحيحة الى وضع كل امكانية ووسائل الانتاج فى يد الجماهير ، ولكن من أسف فإن هذا الأسلوب الصحيح للديموقراطية لم يتحقق حتى قامت الحركة التصحيحية ووضعت كل المفاهيم السليمة للديموقراطية موضع التنفيذ ، وبانتخاب الجماهير لمجلس الشعب بدأ عهد جديد فى التنظيم الديموقراطى ، وأصبح الدور للجماهير فى ممارسة السلطة .. أصبح للجماهير ممثلوها الذين يحملون آمالها وأمانيها وطموحاتها ، وبذلك خطا مجلس الشعب خطوة تقدمية رائدة » .

ولقد أراد الرئيس حافظ الأسد أن تكون سورية مهدا لديموقراطية جماهيرية ، وكان ذلك واضحا منذ البيعة الأولى له ، وبتاريخ ١٩٧١/٣/١٤ وقف الرئيس الأسد يعبر عن أحاسيسه ومشاعره تجاه الشعب وفهمه للمسار الديموقراطى فقال : « عندما اقر

مجلس الشعب أن اكون رئيسا للجمهورية ، حين قال ابناء وطنى الاعزاء ـ نعم ـ بهذا الاجماع الواسع ، فقد طوقوا عنقي بثقتهم الغالية ، التى أعتز بها أعظم اعتزاز ، وأقدر مغزاها أعمق تقدير ، وأجهد بكل قوتي للنهوض بما ترتبه على من واجبات ومسئوليات وماتقضيه من كفاح وعناء ولن تغيب عن ذهنى ماحييت دلالة ـ نعم ـ التى قالها المواطنون الاعزاء من مقيمين وغير مقيمين .. شيوخا وشبابا .. رجالا ونساء .. مدنيين وعسكريين ، ومن مختلف فئات الشعب بملء الحرية ، ومطلق الارادة الحرة .

ولكم شعرت بالسعادة تغمر نفسى اذ رأيت جماهير شعبنا الحرة تمارس فى يوم الاستفتاء حقا اساسيا من حقوقها وتعود الى ضميرها واقتناعها فقط لتبدى رأيها وتقول كلمتها فى اختيار رئيس الجمهورية .. ولكم ملأت الغبطة فؤادى لأننى أيقنت اننا باستفتاء الثاني عشر من آذار سرنا شوطا هاما ورئيسيا على طريق ممارسة الديمقراطية الشعبية .

كان الاستفتاء تنفيذا لما انطلقنا منه منذ السادس عشر من تشرين الثانى عام ١٩٧٠ من ضرورة التوجه الى الشعب ، واستلهام رأيه فى الهام من أمور حياته ، وفى الخطير من شئون الوطن .. وعلى هذا فقد كان الاستفتاء على منصب رئاسة الجمهورية تأكيدا لمبدأ المشاركة الشعبية فى حمل المسئولية وتجسيدا عمليا لهذا المبدأ على أوسع نطاق أما المنصب ذاته فلم يكن فى نظرى يوما من الأيام سلطة بقدر ماهو أمانة ، ومسئولية ، وكنت دائما ، ومازال أقدر سمو المنصب واهميته بمقدار التفاف جماهير الشعب من حوله وتأييده لمن يتبؤونه ، وبقدر مايكون المنصب ايضا سبيلا لخدمة الشعب ، وتحقيق أهداف الوطن ، وعندما يكون الشعب هو الطريق الى منصب ما ، يصبح المنصب مصدر قوة وعزيمة ، ومعينا لا ينضب من الالهام الشعبى ، بهذه الروح ، ولهذه الاعتبارات التى أؤمن بها ايمانا راسخا أقبلت على حمل أعباء الرئاسة الأولى معتمدا على الله وعلى تأييد جماهير الشعب مستمدا من ثقتها العون على قيادة هذه المسيرة لما فيه خير القطر العربى السورى ، وخير الأمة العربية ونصرها وعزتها .

ولقد فهمت التأييد الشعبى كما ينبغى له أن أفهمه ، فهمته تأييدا لنهج ، وسياسة ، ومبادىء ، فهمته تأييدا لحرية المواطن ، وكرامة الانسان ، فهمته تأييدا لسيادة القانون ، فهمته تأييدا لمصارحة المواطنين فيما يتعلق بأمور الوطن .

فهمته تأييدا للديموقراطية الشعبية ، وممارستها الفعلية ، فهمته تأييدا للمشاركة الشعبية الواسعة فى المسئولية ، فهمته تأييدا للمسيرة الوحدوية ، فهمته تأييدا للوحدة الوطنية ، وفهمته تأييدا لنداء بناء الوطن بناء متينا فى مختلف المجالات واشعر اليوم أننى بارادة الشعب أتابع مع المواطنين جميعا وبهم المسيرة التى بدأتها على طريق البناء المتين فى هذا القطر .

ان القطر العربى السورى شهد تطورات دستورية ، وسياسية، واقتصادية ، واجتماعية تشكل كلها مؤشرات التقدم الذى يحرزه هذا القطر.

والخطوات التى يحققها نحو استعادة مكانته الصحيحة فى الوطن العربى والعالم .

وأود أن أقول بمنتهى الصراحة أيضا : أن الصعاب قد تعترض طريقنا لتؤخر بلوغنا هدفا من الأهداف ، ولكننا لن نتخاذل ، ولن نتردد فى مكاشفة الشعب ، ومصارحته بمالا نقدر عليه ، مستمدين من ثقة الشعب العزم على قهر الصعاب ، وتذليل العقبات ، وكما كان الشعب فى هذا العهد سيبقى دائما دليل المسيرة ، وستكون أهداف الشعب ورغباته غاية أبذل فى سبيلها قدر ماأستطيع ،وما تقتضيه من طاقة وجهد ، على هذا الاساس سوف نسير دوما الى الامام لا نتوقف عند صغائر الأمور التى قد يحاول اثارتها فى طريقنا أولئك الذين لهم مصلحة فى عرقلة المسيرة ، أو أولئك الذين لا يدركون أبعادها .

ان ما لمسناه من تجاوب شعبى ومن أدلة مادية ملموسة على ثقة الشعب بالمسيرة تجلت خلال المسيرات العفوية التى أعقبت حركة التصحيح مباشرة ، وفى البرقيات التى أرسلت ، وفى تدفق الوفود الشعبية على العاصمة ، والمشاعر الصادقة التى عبرت عنها الجموع الضخمة التى خرجت فى مسيرات عفوية اثناء جولتى فى المحافظات ، والتى لم يعرف لها تاريخ هذا البلد مثيلا .

وأخيرا فى الاستفتاء الشعبى العام الذى عبر فيه كل فرد بحرية وبشكل مباشر عن رأيه والذى كانت نتيجته أيضا اجماعا لم يشهد له تاريخ هذا البلد مثيلا ، أن هذا كله يفرض علينا ان نسير دون توقف ويجعل من حقنا ان نتجاوز كل العوائق التى تعترض سبيلنا .

لقد خرجنا من حالة الضياع ، وانهينا عزلة القيادة عن الشعب ، وعزلة القطر العربى السورى عن شقيقاته ، ووضعنا حدا للعبث باقتصاد البلاد والاستهتار بقوت المواطنين ونحن الآن نتجه الى المستقبل بروح جديدة ، هى روح الوحدة الوطنية وبايمان جديد هو ايمان القيادة بجماهير الشعب وايمان الجماهير بالقيادة .

نحن الآن نسير بخطوات ثابتة على طريق الثورة بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى وفق الخطوط العريضة التى أعلنها بوضوح بيان القيادة القطرية المؤقتة فى السادس عشر من تشرين أكتوبر عام ١٩٧٠ ، رافعين شعارات الاستقامة ، والنزاهة ، والاخلاق ، والوفاء ، مترفعين عن الانانيات ، منصرفين الى المصلحة العامة ، وخدمة الشعب ، لنصل بذلك الى أهدافنا المباشرة فى البناء والتحرير ، ومن ثم الى أهداف أمتنا فى الوحدة والحرية والاشتراكية .

وفى ختام كلمتى الى أبناء وطنى الأعزاء ، أقول اننى لكم جميعا ، وانتم أخوتى وابنائى ، وجميعكم سواسية فى نظرى ، لا افضل احدا على غيره إلا بمقدار مايبذل من جهد فى سبيل معركة البناء ، والتحرير ، وفى خدمة أهداف الأمة العربية .

شكرا من صميم القلب لكل مواطن أولانى ثقته ، ووعد بأن أبذل كل ماأستطيع من جهد فى سبيل الشعب الذى أحبه ، وان يكون خير كل فرد من ابناء هذا الشعب ، ومحبة كل فرد من ابناء هذا الشعب دليلى فى العمل الدؤوب ومرشدى فى الجهد الصادق .

فلنسر جميعا متحابين متكاتفين متحدين لندفع بلدنا الى معارك التقدم والعزة ، ولننهض بقسطنا الوافر من النضال الى سبيل ازالة العدوان ، وتحرير الأرض العربية ، ولنتجه الى اشقائنا أبناء الأمة العربية فى جهد جدى لتحقيق الوحدة العربية .

أرجو الله أن يمدنى بعونه لحمل الرسالة وأداء الأمانة .

الدستور الدائم

□□ وبعدما باشر مجلس الشعب مهامه لأول مرة بعد تشكيله فى ظل الحركة التصحيحية ، وضع الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية الأمر الذى أعطى الديموقراطية شكلا ومضمونا جديدين ، ويأتى انجاز الدستور تتويجا لنضال متواصل على طريق مبدأ الديموقراطية الشعبية ودليلا واضحا ينظم مسيرة الشعب نحو المستقبل ، وناظما لحركة الدولة ومؤسساتها المختلفة ومصدر تشريعها .

ولقد تتالت الأدوار التشريعية بعد الحركة التصحيحية كلها لتعبر بمجملها عن مرحلة تشريعية كاملة اتسمت بالاستقرار والديموقراطية من حيث دراسة مشاريع القوانين واقتراح مايلبى حاجة المجتمع ، وتطوره من خلال عمل جاد ، ومثابر لاحدى عشرة لجنة .

وتجدر الاشارة الى انه بعد أن أقر مجلس الشعب مشروع الدستور الدائم تم عرضه على الاستفتاء الشعبى ، فأقره الشعب بتاريخ الثانى عشر من مارس آذار عام ١٩٧٣ ، ولقد كان انجاز الدستور الدائم فى الجمهورية العربية السورية تتويجا لنضال جماهير الشعب السورى على طريق تحقيق الديموقراطية الشعبية ، واطار ينظم مسيرة الشعب نحو المستقبل وضابطا لمؤسسات الدولة ومصدرا لتشريعاتها .

أهمية الدستور الدائم فى سوريا أنه استوعب كل الأهداف التى يناضل الشعب من أجل تحقيقها ، وجاء تحديده لأسس ومفاهيم حقوق وواجبات المواطن ضمن أفق عربى

اشتراكى تقدمى ، مستندا الى منطق ينتمى الى العصر ، ويلبى متطلبات مرحلة التحرير ، والبناء .

دستور الحركة التصحيحية حدد نظام الحكم فى سورية فرسخ سلطة جماهير الشعب وأكد دور حزب البعث العربى الاشتراكى فى قيادة الدولة والمجتمع ، اضافة الى تنظيم الملكية ، وتحقيق مبدأ المساواة ، والعدالة الاجتماعية ، وحرية الرأى ، والاعتقاد ، وحق التعليم والعمل ، والاهتمام الكبير باتاحة جميع الفرص أمام المرأة لتشارك فى بناء المجتمع ، كما عكس الدستور ابعاد الديموقراطية الشعبية ، وآفاقها فى ممارسة المواطن لحريته من خلال تأكيده على مبدأ ممارسة الشعب للديموقراطية ، والحرية .

وقد أكد الرئيس الأسد مرارا « ان الحرية حق مقدس ، والديموقراطية الشعبية التى تكفل للمواطن ممارسة حريته هى الصيغة المثالية لكى تجعل كل شخص قادرا على على العطاء والبناء » .

الإدارة المحليـة

□□ وضحت ممارسة الديموقراطية فى أفضل صورها فى انتخابات مجلس الشعب ، ومجالس الادارة المحلية ، ولقد جاء قانون الادارة المحلية الذى صدر عام ١٩٧١ مجسدا للقيم والأفكار والأهداف التى أكد عليها الرئيس حافظ الأسد ، والتى تقوم على ضرورة ترسيخ مبدأ حرية المواطن ، باعتبار أن الانسان هو هدف الثورة ، واداتها ، وأن تحقيق هذا المبدأ هو الذى يتيح له ممارسة دوره على الشكل الصحيح .

قانون الادارة المحلية استهدف تركيز المسئولية فى أيدى فئات الشعب المنتخبة لتمارس بنفسها دور القيادة مايتطلب تحقيق أوسع المجالات لتطبيق مبدأ الديموقراطية الشعبية النابع من ارادة الشعب ، والذى يؤمن رقابته الدائمة على حسن التنفيذ ومساهمته الفعالة فى تحقيق المجتمع العربى الاشتراكى الموحد .

كذلك فقد كان الهدف من تعميق دور الاتحاد العام لنقابات العمال هو توفير الجو الملائم للحركة النقابية ، لكى تكون حركة نقابية هادفة تسعى لتحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية وحماية الانتاج ومصالح العمال والدفاع عن قضاياهم .

الديموقراطية

الحكومة الديموقراطية هى التى يكون الشعب فيها مصدر السيادة ، والسلطة ، وهو الذى يباشر هذه السيادة ويمارسها ، فالحكومة هنا تقوم على اساس سيادة الشعب وتكفل الحرية للافراد ، وتحقق المساواة السياسية لهم ، وتخضع (أى الحكومة) لرقابة

رأى عام حوله من الوسائل القانونية ما يستطيع بها اخضاعه فعلا لنفوذه ؛ ورقابة الرأى العام هى القاسم المشترك لجميع صور الحاكم الديموقراطى ، وهذه الرقابة هى التى تميز الديموقراطية عن أنواع الحكم الأخرى ، وهى التى تجعل الديموقراطية حقيقة واقعة ، واذا كان الشعب فى الحكومات الديموقراطية هو مصدر السيادة وصاحبها الا ان ممارسة هذه السيادة تتخذ صورا مختلفة يمكن تحديدها على النحو الآتى :

(١) قد يمارس الشعب سيادته بطريقة مباشرة فيحكم نفسه بنفسه ، ويستأثر بصفة خاصة بالسلطة التشريعية اذ يتولاها بنفسه ، ويطلق على نظام الحكم فى هذه الحالة اصطلاح «الديموقراطية المباشرة» .

(٢) قد يلجأ الشعب الى انتخابات نواب عنه (برلمان) ويترك لهم مقاليد الأمور وممارسة السيادة نيابة عنه ، وهذا النوع من الحكم يسمى « بالديموقراطية النيابية » .

(٣) قد ينتخب الشعب برلمانا (كما هو الشأن فى الحكومات النيابية) ولكن لا يترك له حرية التصرف الكاملة ، وانما يشاركه فى ممارسة الوظيفة التشريعية ، وقد يباشر الشعب ـ زيادة على ماتقدم ـ نوعا من الاشراف والرقابة على البرلمان كوحدة ، وعلى أعضائه متفرقين ، وتوصف الديموقراطية فى هذه الحالة بأنها « ديموقراطية شبه مباشرة » .. اذن فمحور النظام الديموقراطى هو سيادة الشعب وحكومة الشعب بواسطة الشعب ، لمصلحة الشعب ، وتلجأ الشعوب للوصول الى الديموقراطية بوسائل مختلفة تارة عن طريق الثورة ، وطورا بالالتجاء الى الطرق السلمية ، وقد توصلت الشعوب الى الأخذ بالنظام الديموقراطى وان اختلفت بها السبل التى لجأت اليها لتحقيق هذا الهدف .

وقد شهدت بداية القرن العشرين من عنف التيار الديموقراطى وشدة جاذبيته مالم تشهده القرون السابقة .

وفى السنوات الأخيرة من هذا القرن انهارت أقدم الأنظمة الفردية ، وأنظمة الدول التى تعتمد على الحزب الواحد كماحدث فى الاتحاد السوفيتى ، وفى دول أوروبا الشرقية ، ولكن حداثة التيار الديموقراطى الجارف لا تنفى أن روافده تمتد الى أبعد العصور فى تاريخ الانسانية ، واذا كان فلاسفة الاغريق هم أول من استنبطوا فكرة الديموقراطية ، وطبقت الديموقراطية فى المدن اليونانية القديمة مثل اثينا ، وغيرها الا ان صور هذه الديموقراطية كانت ذات طابع خاص يبعدها عن الديموقراطية الحقيقية ، ويدنيها من النظام الارستقراطى .

وقد أشارت الكتب السماوية الى فكرة الديموقراطية ومهدت المسيحية أذهان البشر

للأخذ بالديموقراطية بمادعت اليه من أحكام خلقية وفضائل نفسية ، وعلى رأسها صفات العدل ، والاحسان ، واحترام بنى الانسان ، وبما رسمته من حدود لسلطان الدولة على الفرد فى نطاق المبادىء السابقة ، ثم نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم فسجل الفضائل والأحكام الخلقية التى دعت اليها المسيحية ثم خطا بالانسانية خطوات بعيدة المدى الى الامام ، فدعا دعوة صريحة الى نظام حكومى يجب اتباعه ، والتقيد به ، **وهذا النظام الذى أتى به الإسلام هو الديموقراطية فى أسمى أوضاعها وأرفعها وهذا ما أكده السيد الرئيس فى قسم البيعة الرابعة .**

ويقوم هذا النظام على أصول ترجع فى جوهرها الى اختيار رئيس الدولة (الخليفة) وبواسطة المبايعة (الانتخاب العام) ويتقيد هذا الرئيس فى تصريف شئون الدولة بنظام الشورى، وهو صورة النظام البرلمانى الحديث الذى أكده القرآن الكريم فى بعض آياته « وأمرهم شورىبينهم » وقول الحق تبارك وتعالى أيضا « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله »، وبعد ذلك برزت تيارات فكرية تدعو الى النظام الديموقراطى حيث السيادة للشعب ، ولكن هذه التيارات لم تبرز فى النظم الحكومية لأن الحكم المطلق الذى تمسك به لويس الرابع عشر والخامس عشر لم يتأثر بالحركة الفكرية ، تلك الحركة التى استمرت تسير فى طريقها حتى جاء القرن الثامن عشر فبلغت أوجها ، واكتسبت فكرة الديموقراطية عن طريق الثورة قوة لا غالب لها اذ أصبحت دعامة القانون الحديث ، فالفلسفة السياسية التى بشر بها فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبالذات (جان جاك روسو) كان لها أكبر الأثر فى تكوين عقلية رجال الثورة الفرنسية ، تلك الثورة التى نقلت المبدأ الديموقراطى من الفلسفة النظرية الى القانون الدستورى .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الديموقراطية مبدأ قانونيا وقاعدة وضعية ونظاما للحكم تضمنته الدساتير المختلفة ، والديموقراطية كنظام تختلف صوره من دولة الى أخرى .. هناك من يرى أنها ترمى الى تحقيق الحرية والمساواة السياسية ، وانها قبل كل شىء مسألة عقل ، وقلب ، وليست مذهبا اجتماعيا يرمى الى مصلحة المجتمع من الناحية المادية فقط ،أى انها ليست مسألة خبز ، وزبد فقط ، وهذه هى الديموقراطية التقليدية ، والتى تختلف عن الديموقراطية الاجتماعية ، والتى ظهرت حديثا ، وتهدف الى تحقيق السعادة المادية للأفراد وهى لا تؤمن بوجود الحريات فى المجتمعات الراسمالية اذ تراها مجرد حريات صورية ، وانها تعتبر فى الواقع امتيازات للاقلية ، ونلاحظ انه من الممكن وجود الديموقراطية الاجتماعية فى ظل الانظمة الديكتاتورية حيث يتخذ منها الحاكم وسيلة يصرف بها الشعب عن المطالبة بحقوقه السياسية .

وقد عبر عن هذا المعنى (بسمارك) عندما قال : « اذا صار الشعب سعيدا من الناحية المادية فعلى السادة الاشتراكيين الديموقراطيين أن ينشدوا ما شاءوا من الأغانى فلن يتبعهم أحد » .

وقد ظهر حديثا نوع من الديموقراطية يطلق عليه أنصار اصطلاح الديموقراطية الاجتماعية أو الديموقراطية الشعبية التى تهدف الى تحقيق المساواة الاجتماعية بين الأفراد ، والعمل على رفع مستواهم من الناحية المادية ، فعرف هذا النوع من الديموقراطية تحقيق المساواة فى الثروة بين أفراد المجتمع ، والديموقراطية هى أقرب النظم الى تحقيق العدالة بين الأفراد وتختلف صورها من دولة الى أخرى ، وهى كنظام للحكم تعتبر الأقرب الى تحقيق العدالة بين الأفراد وضرورة واقعية لا مرد لها ، وهى التى تحول دون قيام الانقلابات أو الثورات وتعمل على توطيد السلام ، ومقاومة الديموقراطية لا جدوى منها ، ذلك انه من الممكن ان نحب الديموقراطية ونتعلق بها ومن الممكن ان نعاديها ونحاربها ، ولكنها فى كلتا الحالتين واقعة لا مرد لها ، وهى من القوة بحيث يصعب مقاومتها ، ونقدها لا يجدى كما لا يجدى التذمر من عودة الشتاء بزمهريره .

كل هذه المعانى وغيرها كانت فى فكر الرئيس حافظ الأسد وهو ينادى فى سن مبكرة للغاية بفكرة التعددية السياسية ، والاقتصادية لتحقيق أوسع صور المشاركة فى بناء الدولة والمجتمع من خلال ايمانه الراسخ بوجود قواسم مشتركة يمكن أن تلتقى حولها مختلف القوى الوطنية من أجل العمل الوطنى والبناء والتنمية كما سنرى .

لقد بدأ الرئيس حافظ الأسد المسار الديموقراطى فى سورية بعد السادس عشر من تشرين الثانى نوفمبر عام ١٩٧٠ بأن أطلق طاقات الشعب للمشاركة فى بناء البلاد واختار صيغة الديموقراطية التى تناسب سورية، مؤكدا أن صيغة الديموقراطية ليست اطارا جامدا وليست طريقا موصدا بل هى موضوع حى يتطور ، ويتجدد وفق تطور الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لأن صيغة الديموقراطية « ليست سلعة تستورد من هذا البلد أو ذاك وانما هى الاطار الذى يمارس فيه المواطنون حقوقهم ، وواجباتهم وفق ظروفهم المرحلية ، وكل مرحلة من مراحل التقدم والتطور يحققها تقدم معطيات جديدة فى مجالات الحياة المختلفة لابد أن تعكس نفسها على الاطار الديموقراطى ، ولكى يمارس شعب من الشعوب الحياة الديموقراطية لابد من تحقيق توازن دقيق جدا بين الصيغة الهيكلية والقوانين ، وبين محصلة المعطيات الثقافية والتراثية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يملكها ، أو يتمتع بها هذا الشعب - أى شعب - وأى خلل فى هذه الموازنة يحتم أن يعيش الشعب حياة لا ديموقراطية وتبدأ المعاناة مع بداية الخلل ، وبقدر اتساع الخلل تتسع لا ديمقراطية الحياة سواء تقدمت الصيغة على المعطيات أو تقدمت المعطيات على الصيغة ، وبسبب عدم تماثل المعطيات الثقافية والتراثية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بين شعوب العالم فى أى وقت لم تستطع أى صيغة ديموقراطية بعينها أن تفرض نفسها بقوتها أو بجاذبيتها على شعوب العالم أو فى أى وقت على امتداد ما هو معروف من التاريخ الإنسانى، وعلى الرغم من تمسك

الانسان دائما بتحقيق الحياة الديموقراطية بمعنى انها سيادة الشعب أو حكم الشعب نفسه بنفسه فقد بقيت فى الزمن الواحد وفى مرحلة تاريخية واحدة صيغ كثيرة تنتشر بين شعوب العالم ، حتى أنه فى كثير من الأحيان بدت هذه الصيغ والتى تسعى الى الهدف نفسه متباينة الى حد التناقض .

الجبهة الوطنية التقدمية

□□ **كان الرئيس حافظ الأسد هو الأسبق فى تطبيق فكرة التعددية السياسية والاقتصادية لتحقيق أوسع صور المشاركة فى بناء الدولة** ، والمجتمع من خلال ايمانه الراسخ بوجود قواسم مشتركة يمكن ان تلتقى حولها مختلف القوى الوطنية من أجل العمل الوطنى والبناء والتنمية ، ولقد تحققت التعددية السياسية فى ظل الحركة التصحيحية ، بعد أن أقامت بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى .. جبهة وطنية تقدمية متطورة الصيغ تلبى حاجات الشعب ومصالحه .

وجاءت هذه الخطوة البارزة تنفيذا لبيان القيادة القطرية المؤقتة باصدار ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية فى السابع من مارس آذار ١٩٧٢ ، والذى كان بداية مرحلة من العمل الجبهوى المشترك بين كل الاحزاب الوطنية والتقدمية فى سورية ، الرئيس الأسد فى تفاعله مع فكر الحزب ، ومن خلال ايمانه بالحوار الصريح ، والمباشر ، وفى اطار حوارات كثيرة بدأها بعد نجاح الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ وجد ـ وهذا واضح فى البيان الأول للقيادة القطرية المؤقتة بعد تسلم الرئيس الأسد مقاليد الحكم عام ١٩٧٠ ـ ان الانفراد بالحكم قبل هذا التاريخ قد أدى الى النتائج السلبية التى أشرنا اليها ، كما أنه أدى الى عزل القوى السياسية التى كانت موجودة فى الساحة ، وكانت هناك عزلة جماهيرية عن الحزب استمرت سنوات قبل الحركة التصحيحية ..

لقد وجد الأسد بخبرته كمناضل فى صفوف الحزب وكابن من أفراد الشعب أن هناك خللا فى المعادلة القائمة بين الحزب والجماهير ، وبعد نقاشات عديدة استمرت عدة اشهر رأى انه لابد من تغيير الصيغة من فكرة الحزب الواحد الذى يحكم كل شىء الى الحزب القائد الذى يقود من خلال جبهة وطنية تقدمية جميع الاحزاب السياسية ، ومن خلال دراسته للتاريخ الحزبى فى سورية ، وجد أن التنظيمات السياسية فى تاريخ سورية الحديث كانت أحزابا رجعية التفكير تنطلق للتعبير عن مصالحها الطبقية سواء كانت اقطاعية او رأسمالية ، وترى أن هذا هو نهاية المطاف فى حدود القطر العربى السورى ، أما فى علاقاتها بالدول العربية الأخرى فقد كانت تتسم بالانتهازية ، ولا تدرك اهمية العمق العربى لسورية ووحدة المصير العربى ، وكان يمثل هذا النوع من الأحزاب .. حزبان رئيسيان هما حزب الشعب ، والحزب الوطنى وكانا يتناوبان الحكم فى

فترة مابعد الاستقلال أى منذ عام ١٩٤٦ وحتى انقلاب ١٩٤٩ ، ثم غابت هذه الاحزاب قليلا من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥٤ خاصة اثناء الحكم الديكتاتورى لاديب الشيشكلى ، ولكنها عادت ، وبرزت على السطح منذ عام ١٩٥٤ ، وحتى عام ١٩٥٨ .

واستطاع النبض الجماهيرى بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى والقوى الوطنية الأخرى أن يحجم هذه القوى وأن يسير على الرغم منها نحو وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر ، وبعد عام ١٩٥٨ نشأ الاتحاد القومى ، وفى مصر بعد الانفصال كان هناك الاتحاد الاشتراكى ونتيجة المعاناة النضالية ، والتأثر بين القطرين نشأت أحزاب هى الى حد قريب أما منشقة عن حزب البعث ، وإما متفرعة عنه ، متأثرة بتفكيره أو بتفكير الفكر الناصرى ، كانت هناك حركة الوحدويين الاشتراكيين ، وحزب الاتحاد الاشتراكى ، والحزب العربى الاشتراكى الديموقراطى ، والاشتراكيين العرب ، وكان الحزب الشيوعى السورى الذى أسس منذ العشرينات ، وكان هناك من هم متأثرون بفكر حركة القوميين العرب .

بعد النقاشات الواسعة التى ادارها الرئيس الأسد ، ومن خلال فهمه العميق لتركيب سورية الاجتماعى وجد أن هذه الصيغة ، هى الصيغة المثلى لكى تكون هناك جبهة عريضة لهذه الأحزاب ، وهذه القوى تشارك حزب البعث وتناقش جميع القضايا ذات الثقل الاستراتيجى .. بمعنى آخر إن هذه الاحزاب تشترك فى مجلس الشعب ويكون لها نوابها ويكون لها أيضا أعضاء فى مجلس الوزراء ، وايضا تمثيل فى القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية ، وفى جميع الهيئات والنقابات المنتخبة والمجالس المحلية ، اذن هى شريكة ، وهذه الشراكة نتيجة الحوار المعمق من القاع وحتى القمة .

أوجد الرئيس الأسد مناخا سياسيا فى سورية ، سبق ماجرى من تطورات فى أوروبا الشرقية وماكان يسمى بالاتحاد السوفيتى من قبل لان الحوار الذى اداره الأسد منذ بداية السبعينيات خلق تعددية سياسية عدت نموذجا فريدا بالنسبة لدولة من دول العالم الثالث ، ومن خلال الحوار داخل الحزب ، وداخل القيادة والخبرة النضالية للرئيس الأسد ، وجد أن الديموقراطية فى بلد نام كسورية يجب ان تختلف عما هو موجود فى البلاد المتقدمة صناعيا ، لانه من الناحية العملية يجب ان ننظر الى الشرائح الاجتماعية الموجودة فى المجتمع ، ويكون التعامل معها لما فيه مصلحتها .

الديموقراطية المطلقة : إذا أخذت بمفهومها الذى كان سائدا مثلا فى الثلاثينات قد لا تصلح الآن بعد التطورات التى حكمت العلاقة الانتاجية الى جانب التطورات الثقافية والاقتصادية الموجودة فى المجتمع .

واذا أخذنا الديموقراطية بالصورة الموجودة فى البلاد الأوروبية قد لا تصلح للتطبيق فى المجتمع السورى نظرا لطبيعة الدخل ، والتقدم التكنولوجى والذى خلق وعيا لدى

الجماهير من حيث ان التمثيل يستطيع أن يعكس مصالحها الحزبية أو مصالحها الانتاجية ، ولذلك فهى تقوم على هذا الاختيار وتعد ان البرلمان وسيلتها ، ولكن فى بلد نام كسورية وغيرها من البلدان النامية المماثلة ، وحيث يكون الانتاج الزراعى هو الغالب ، وسكان الريف هم الاكثرية ، ونتيجة التفاوت فى الانتاج وعدم وجود قاعدة صناعية ممتدة أو تقدم تكنولوجى كما هو موجود فى الغرب .. فطبيعى ان هذا التمثيل المطلق لا يعكس الحقيقة ، ولذلك وجد الرئيس الأسد ان التعددية السياسية توجد مناخا **لتحقيق مبدأين أساسيين :**

المبدأ الأول هو أنه لا توجد فكرة مطروحة على مستوى الايمان المطلق بالوطن ، والايمان بالجماهير ، ومحاولة النهوض فيها . إلا ممثلة فى حزب من الاحزاب المذكورة ، واذا أخذنا فى المفهوم الشعبى انه لا توجد فئة غير منضوية تحت تنظيم لمن يمثلها .. الفلاحون لهم اتحاد .. العمال لهم اتحاد .. الحرفيون . والطلبة ، والمعلمون ، والمحامون ، والمهندسون ... الخ ، كل هذه الفئات تندرج فى تنظيماتها ، والتنظيمات المهنية أيضا لها تمثيلها الحزبى والشعبى ، وبالتالى فهى شريكة فى صنع القرار ، ونتيجة لهذا التنظيم استطاعت سورية ان تخلق تعددية سياسية لها عمق جماهيرى ، وعمق شعبى وتعبر هذه المجالس عن تطلعات الجماهير ورغباتها من خلال النقد ، والنقد الذاتى والمناقشة فى القرار ، ولهذا ، وكما قلنا **فإن الرئيس حافظ الأسد لم يتخذ أية قرارات بديلة عما تراه الجماهير** ، انما كانت الجماهير فى جميع المستويات تتخذ قراراتها ، وكانت قرارات الجماهير ، ونبضها ،واستشرافها لمستقبلها يشكل الهاما للقيادة ، وعلى رأسها الرئيس الأسد الذى يتخذ من القرارات مايناسب المرحلة التى تمر بها سورية ويناسب أيضا مصلحة الجماهير وبصورة لا تتناقض مع مصلحة الجماهير العربية لأن الجماهير السورية جزء من الأمة العربية ، وأنه مهما طال الزمن ، أو قصر لابد أن تكون المصلحة العربية واحدة سواء فى سورية أو فى غيرها من الأقطار العربية .

فلسفة التاريخ

□□ **وإذا قرأنا خطابات الرئيس حافظ الأسد بإمعان نجده دائما يؤكد أنه ليس بديلا للجماهير ، انه يجسد رأى الجماهير ، ونبضها ، ومصلحتها فيما يتخذ من قرارات .. التعددية السياسية تجربة غنية ، وأحد مصادر ثرائها أن الرئيس حافظ الأسد لم يكن سجين أيديولوجية لا يحيد عنها قيد أنملة** ، خلافا لكثير من القادة عبر التاريخ وخاصة فى البلاد الماركسية حيث كانت الايديولوجية تحد دائما من القدرة على التطوير ، ولذلك ترنحت هذه الأنظمة ، وسقطت ، وسقط معها الرهان لانها لم تكسب أى جماهيرية .

الرئيس حافظ الأسد يؤمن بفلسفة التاريخ بمعنى أن حركة التاريخ تخلق فكرا جديدا ، وهذا الفكر الجديد يجب أن يستوعب من خلال الممارسة العملية ، وذلك كان دائما عندما يكون هناك أى قيد على حركة الجماهير ، ومن خلال تفاعله مع الجماهير وأحساسه بنبضها يطرح الشيء الجديد الذى يمكن أن يخلق تطويرا حسب المرحلة التاريخية التى يوجد فيها المجتمع .

وهنا يمكن أن نضرب المثال التالى : الرئيس حافظ الأسد طلب من الجبهة المركزية للجبهة الوطنية ان تبدأ حوارا لتطوير آلية عمل الجبهة ، لأنه لا يجوز ان نقف عند الأسس والمبادىء التى وضعت فى السبعينيات ، ذلك انه منذ السبعينيات وحتى الآن جرت تطورات كثيرة ، ومتلاحقة ، وطرات مستجدات كثيرة على مستوى العالم ، وعلى مستوى الوطن العربى ، وعلى مستوى سورية ، ولذلك لابد من وقفة للمراجعة ولادخال التطوير فى عملها الجماهيرى وعملها التنظيمى .

مثال آخر : الرئيس الأسد طلب من الكادر الحزبى الا يشعر اطلاقا بأنه متميز على الجماهير .. أنا أرى البعثى ـ وهذا كلام الرئيس الأسد ـ هو المواطن الذى يقدم مالديه للبلد ، الذى ينتج بأقصى طاقته الانتاجية .. الذى يلتزم بمبادىء الاخلاق والمثل العربية .. الانسان البعثى هو الذى يفكر لمجتمعه وجماهيره ، الذى يقدم التضحية ، الذى يتقدم الطلاب مثلا ليكون الأول فى مدرسته ، والذى يتقدم العمال ليكون المنتج الأول فى معمله أو ا. رس الذى يعطى أقصى ماعنده لتلاميذه ، أو المراة التى تعطى مالديها للوطن من خلال التربية اذا كانت تعمل فى المنزل ، أو اذا كانت تقوم بعمل مامن خلال قطاعات الانتاج الدولة ..

الرئيس حافظ الأسد طور هذا المفهوم ، لم يقف عند حد يؤدى الى الجمود .. مثلا فى فترة السبعينيات كانت هناك الضغوط على سورية وهى الضغوط التى أدت الى خنق كثير من المنتجات ، خاصة مؤسسات القطاع العام التى تهتم بالمتطلبات اليومية للمواطنين سواء كانت مخابز تابعة للدولة أو مؤسسات تبيع الخضر والفواكه أو مؤسسات استهلاكية .. الخ ، ولأن المواطن دائما محور تفكيره ، يحس بآلامه ويحاول أن ينهض به ، رأى أنه عندما تطور المجتمع ، وزادت قوة الانتاج فيه وأصبح الوضع العالمى لا يقبل أن تمد الدولة يدها لتأخذ من دولة أخرى كل شيء دون أن تنتج ، لأن دخل الدولة قبل كل شيء هو دخل الآخرين أيضا .. وقف الرئيس الأسد يقول : علينا أن نؤمن بالتعددية الاقتصادية وعلينا ان نخلق قطاعا مشتركا يجمع بين القطاعين العام والقطاع الخاص ، وعلينا أن نشجع جهود القطاع الاستثمارى ، ولذلك نشأت التعددية الاقتصادية جنبا الى جنب مع التعددية السياسية ..

وفيما يتعلق بقضية القطاع العام رأى الأسد بخبرته التاريخية وكقائد من قادة دول العالم الثالث التاريخيين أن هناك فرقا بين مانسميه القطاع العام والذى يشكل العمود الفقرى للاقتصاد ، وبين القطاع الخاص ، ورأى أنه فى ظروف مثل ظروف سورية لابد من تدعيم القطاع العام باعتباره العمود الفقرى ، وتحرير الاقتصاد القومى من التبعية ، **ولهذا مع دعمه للقطاع العام لم يقبل ان يكون القطاع العام عقبة كأداء فى سبيل التطور الاقتصادى ، وأعطى لكل قطاع من الضمانات مايكفل له الازدهار** .. القطاع العام يبقى كصمام أمان للأمن الاقتصادى ومع ذلك لا ينبغى أن يكون قطاعا متخاصما مع التطور أو قطاعا هامشيا لا يجده الناس أو قطاعا متخلفا عن مواكبة التطور التكنولوجى ، بل ان الرئيس حافظ الأسد كان دائما يقول للوزراء والمسئولين فى المواقع المختلفة : عليكم أن تخلقوا مبادرات ابداعية لتطوير القطاع العام ، وقد أشرف بنفسه على تنظيم مؤتمر الابداع الوطنى ، والذى شاركت فيه جميع القوى المنتجة فى سورية فى فترة الحصار الاقتصادى الذى زاد على سورية فى الثمانينات ، وتحديدا منذ عام ١٩٨٥ ، وحتي عام ١٩٩٠ عندما اتهمت سورية بالارهاب وعندما أريد لسورية أن تركع ، واستنفر هذا المؤتمر الذى دعا اليه الأسد " الهمم الوطنية ، " وقام العمال بمبادرات للعمل التطوعى لزيادة الانتاج ، وقدم المهندسون اختراعات جديدة ، وضاعف المزارعون من رقعة المساحات المزروعة وطورت الدورات الزراعية ، وأصبحت الارض تعطى أكثر من محصول زراعى طوال العام الواحد نتيجة للدورات الحقلية ..

ليس معنى هذا الكلام أن سورية قد وصلت الى حد الكمال ، لأنها مازالت فى بداية الطريق ، ولكن معنى ذلك أنها تسير على الطريق الصحيح ، وان التفاؤل بهذه الصيغة فى التطور الاقتصادى له مسوغه ، **لسببين:** انه يراعى الوضع داخل سورية ، ويتعامل مع المتغيرات الدولية ، وقبل هذا كله فانه يضع مصلحة الاقطار العربية المجاورة فى حساباته للوصول الى الغايات المرجوة .

والأن يعاد النظر وبتوجيه من الرئيس الأسد فى كثير من القوانين والقرارات التى تشكل عبئا على مسيرة التطور على جميع الصعد. وليس هناك شىء يمكن أن يستمر إلى مالا نهاية ، أى قانون ، أى قرار ، أى مؤسسة أيا كان نوعها من حق أصحابها ، أو العاملين فيها ، والمشرفين عليها أن يضعوا كل مايتعلق بتحسين ادائها وتطويره دون خوف ودون قيد على الفكر ، مادام هذا الفكر يرمى فى النهاية الى الابداع والى الخلق والى التجديد لبناء الوطن ، ولتعزيز التضامن مع الأقطار العربية .

صيغة التعددية السياسية ، والاقتصادية إذن ليست مستوردة من خارج سورية وليست مفروضة عليها ، انما هى صيغة نبعت من الأرض .. من الشعب .. من الجماهير، وطالما ان هذه الصيغة حققت وتحقق التقدم على اساسها ، فهى صيغة

مناسبة ، وليس من قبيل المبالغة القول بأن الاستفتاء الذى جرى مؤخرا على الولاية الرابعة للرئيس حافظ الأسد قد أكد بالشكل الذى جرى فيه ان المبايعة لحافظ الأسد لم تكن لشخصه فحسب ، وانما كانت أيضا لكل الطروحات التى قدمها ، وعندما ينتظم فى شوارع دمشق مليونا مواطن فإن هذا أكبر دليل على نجاح الصيغة .

وقد يبرز من يقول إن هؤلاء خرجوا بالأمر أو أن السلطة أكرهتهم على ذلك ، ولكن المراقب المحايد يرى ، أو كما يقول بعض علماء النفس « تستطيع أن تقود حصانك الى الحقل ، ولكن لا تستطيع ارغامه على العمل » ، وهؤلاء جاءوا يحملون اللافتات ويدفعون أجور السيارات ، ويبقون ليالى فى الشوارع والطرقات ، ثم يقومون بالمجىء الى الصناديق طواعية ، واختيارا ، مع هذا الوضع لا تستطيع أن تقول الا أن هذه الصيغة تعكس التجاوب بين القائد ، والجماهير .

● **النقطة الثانية** : إن المشاركة الجماهيرية لا تأتى من العدم ، وانما لابد أن تكون مبنية على اقتناع ، وهذا الاقتناع نتيجة التفاعل المستمر مع الشعب ، وهذا التفاعل يقوم به الحزب والأحزاب الأخرى ، ولذلك يمكن القول إن صيغة الجبهة التقدمية صيغة ناجحة ، لأن الحزب نجح فى اقناع الجماهير بها عن طريق رفع التعددية السياسية ، والشعب السورى شعب مسيس بطبعه ، لا يستطيع أى انسان أن يفرض عليه اقتناعا الا اذا كان مقتنعا لأنه شعب يقرأ ، ويحلل ويناقش ، شعب صعب المراس ، وصعب القيادة أيضا ، ولذلك فإن نجاح هذه الصيغة يعكس نجاحها فى قدرتها على ربط الجماهير بالعمل السياسى ، وفى ظروف دولة مثل سورية مازالت تناضل من أجل تحرير أرض تصبح قضية الوحدة الوطنية شعارا مقدسا ، وبالتالى لا يسمح لأحد بأن يعبث بهذه الوحدة ، والجماهير السورية واعية لهذه الحقيقة ، وتستطيع أن تتصدى لأى محاولة للعبث بالوحدة الوطنية .

ولذلك عندما حاول اعداء سورية أن يبثوا سمومهم داخل المجتمع السورى ، استطاع هذا المجتمع بالمناعة الوطنية ، والسياسية ، والايمان الوطنى أن يحبط هذه المحاولات ، ولذلك فنحن نقول : التجربة الموجودة فى سورية تجربة جديرة بالدراسة لانها تجربة غنية ، وعميقة ـ ليس معنى ذلك انها تجربة منزهة من الاخطاء ، وقد تكون هناك أخطاء فى بعض المجالات . قد تحقق نجاحا فى مجال ، وقد تخفق فى مجال آخر ، ولكن المحصلة فى النتيجة ، والنتيجة هى النجاح .

فى سورية الآن يسلطون الضوء بكل الشجاعة وبكل القوة على نواحى التقصير ، والخلل فى الحياة السياسية ، والحياة الاقتصادية ، وفى كل مرحلة من المراحل يدير الرئيس حافظ الأسد حوارا مع القيادة ، مع الجبهة الوطنية التقدمية ، مع القيادات عندما يلتقون

بشكل انفرادى ، أو جماعى ، ويمارسون الرقابة الحزبية ، والرقابة الجماهيرية ، فلا حصانة لأى انسان ، **الحصانة الوحيدة التى يمكن أن يحتمى بها أى سورى الآن عمله ، ووطنيته ، واخلاصه لوطنه الذى ينتمى اليه .**

اتهام باطل ومرفوض

ولذلك فإن زعم بعض الأصوات الغربية بأنه لا توجد فى سورية ديموقراطية هو زعم مرفوض جملة وتفصيلا ، لأنه باطل ، ومبنى على باطل ، لأن الديموقراطية اذا كان هدفها حكم الشعب بالشعب فإنها ليست صيغة واحدة ، وتختلف من دولة الى أخرى .. **الديموقراطية فى سورية تعنى أنه لا قيد على الرأى الحر سوى قيد الضمير ، والمسئولية حيال المجتمع ، وأفراده .**

وتعنى أوسع المشاركة الجماهيرية فى صنع القرار السياسى .. فى التنمية الشاملة فى المشاركة فى بناء الوطن .. الديموقراطية لابد أن ترتبط بمقوماتها .. ومقومات الديموقراطية ترتبط بالهوية الوطنية .. بالهوية القومية ، بالعدل الاجتماعى ، بالتوازن ضمن المجتمع : هى الطريق الى مناخات صحيحة وسليمة الى الحرية بكل أبعادها السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ..

لو تطلعنا فى سورية الى الجبهة الوطنية التقدمية ، والتى قلنا عنها انها نتاج فكرى سياسى متقدم للرئيس القائد حافظ الأسد ، **نجد ان الذين يتحدثون اليوم عن التعددية السياسية ، والتعددية الاقتصادية سبقهم الرئيس حافظ الأسد بفكره السياسى ، ورؤاه الصحيحة منذ حوالى العشرين عاما ..**

فى سورية تحالف سبعة أحزاب تضمها الجبهة الوطنية التقدمية ، وهذه الأحزاب فى حد ذاتها فى الوقت التى تشكل أوسع تحالف سياسى فى تاريخ سورية ، تشكل أيضا ضمنا تحالفا اجتماعيا ، لأن الأحزاب السورية لا تقوم على وحدة الطبقة ، وانما على تحالف قوى الشعب العامل فى المجتمع من عمال وفلاحين ومثقفين وبرجوازية وطنية ، وتشغل المرأة دورا مهما فى الحياة السياسية ، وتشارك أيضا فى البرلمان وفى الحكومة ، وفى المنظمات ، بالاضافة الى الأحزاب نجد المنظمات الشعبية ، ونجد النقابات المهنية ، ونجد الشعب يشارك فى الادارة المحلية ، وتحقيق الخدمات العامة ، وفى مجلس الشعب ، وصياغة القانون ، وفى الحكومة ، وتحقيق التنمية الشاملة ، وتحقيق التقدم ، وعدالة توزيع التقدم ، وفى الجبهة الوطنية التقدمية يساهم أيضا الشعب باحزابه السياسية ، فى صنع القرار السياسى ..

الديموقراطية ليست نظرية جاهزة ، ولا عملا مسبق الصنع ، ولا يصح أن نقول إن

تجربة الغرب هى صحيحة بالنسبة الى سورية .. كما لا يصح أن نقول ان التجربة السورية هى الصحيحة بالنسبة للغرب لأنه لكل مجتمع خصوصية تاريخية ، وخصوصية روحية ، والحرية الاجتماعية فى فرنسا التى يحميها القانون الفرنسى ، قد يعاقب عليها قانون دولة أخرى ، فالمجتمع الشرقى مثلا سواء كان مسيحيا أو مسلما له تقاليده وعاداته المختلفة عن المجتمع الغربى ، وقد لا يصح ماهو صحيح فى فرنسا لدولة مثل سورية ، أو ماهو صحيح فى سورية قد لا يصح فى الولايات المتحدة الأمريكية .

الجبهة الوطنية التقدمية
كيف ولدت وكيف تطورت ؟

□□ **قلنا ، ان الرئيس حافظ الأسد كان السباق الى تطبيق فكرة التعددية الحزبية** ، من خلال ايمانه الراسخ بوجود قواسم مشتركة يمكن ان تلتقى حولها مختلف القوى الوطنية ، من أجل العمل الوطنى والبناء والتنمية .

ولكن كيف ولدت فكرة الجبهة ؟ وكيف تطورت ؟

لقد اكتشف الرئيس حافظ الأسد قيمة هذه المؤسسة السياسية المتقدمة وضروراتها قبل اثنين وعشرين عاما من هذه المتغيرات الدولية التى يشهدها عالمنا المعاصر الآن ، كما جاءت هذه التجربة تلبية لضرورات وطنية ، واجتماعية ، وسياسية ملحة ، فقبل حافظ الأسد كانت علاقات القوى الوطنية والتقدمية فى سورية تقوم على التناحر والتصادم ، وكان من الطبيعى ، وكنتيجة لهذا الأمر أن تتغلب التناقضات الثانوية والهامشية على التناقضات الرئيسية ، ومع مجىء حافظ الأسد أمكن الوصول الى قواسم مشتركة بين هذه الأحزاب التى لم يصنعها الرئيس حافظ الأسد وانما هى أحزاب موجودة فى الساحة السياسية المشتركة التى تم الاتفاق عليها ، والتى تمت صياغتها عبر ميثاق .. هو ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية ، وعبر النظام الأساسى للجبهة الذى يضبط حركة هذه المؤسسة وينظم علاقات الأحزاب الجبهوية بعضها ببعض الآخر .

ويعتز السوريون بأن هذه التجربة التى صنعت التعددية الحزبية والسياسية فى سورية جاءت فى وقت كان الكثيرون فيه يرفضون فكرة التعددية الحزبية والتعددية السياسية ، لأن العقلية التى كانت تسيطر على الفكر السياسى العربى حتى ذلك الوقت كانت عقلية الحزب الواحد والأوحد ، وجاء حافظ الأسد ليقول بأن الوطن يتسع لجميع هذه القوى الوطنية والقومية ، وبأن حزبا واحدا لا يستطيع وحده أن ينفرد بالعمل السياسى أو أن يحتكر هذا العمل السياسى ، وأن القوى السياسية الأخرى تستطيع أن تمارس دورا فاعلا ومؤثرا فى الحياة السياسية السورية وفى بناء الوطن .

ولقد أثبتت هذه التجربة صلاحيتها وفاعليتها فى مناسبات كثيرة وخاصة فى مواجهة الثورة المضادة كما سيلى فى موقع آخر، وفى جميع الأحوال فإن هذه الصيغة ـ صيغة الجبهة الوطنية التقدمية ـ انما تعبر عن شكل متقدم من أشكال الوحدة الوطنية ، لأن هذه الوحدة كانت دائما مطلبا اساسيا ، وبغير هذه الوحدة الوطنية ماكان لسورية أن تصمد فى مواجهة التحديات التى واجهتها على امتداد عشرين عاما أو أكثر وتمارس الأحزاب السياسية السورية فى الجبهة الوطنية التقدمية دورها الكامل فى الحياة السياسية .. ليست هناك أية قيود على حركة هذه الأحزاب ، بل إن بعض هذه الأحزاب ممثلة فى امنائها العاملين فى بعض القيادات الاساسية . القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية تسهم فى صنع القرار السياسى فى القضايا الاستراتيجية الكبرى ، بل وحتى فى القضايا التفصيلية الجزئية .. تجتمع القيادة المركزية برئاسة رئيس الجبهة الوطنية التقدمية الرئيس حافظ الأسد وتناقش جميع هذه المسائل ، وتتخذ قرار الحرب ، وتتخذ قرار السلم ، وتتخذ القرارات المتعلقة بالمصير الوطنى والمصير القومى ، ونسوق أمثلة على ذلك .. **قرار حرب تشرين أكتوبر اتخذته** القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية عام ١٩٧٣ ... **دخول سورية الى لبنان لانقاذ لبنان وشعبه من المحنة التى عانى منها** انما كان بقرار من أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية .. **قرار مواجهة الثورة المضادة وجماعات الاخوان المسلمين** كان بقرار من القيادة المركزية للجبهة الوطنية ، وأحزابها ، **حتى قرار السلام** ، أو قرار مشاركة سورية فى مؤتمر السلام فى مدريد كان بقرار ونتيجة حوار مطول جرى فى عدة اجتماعات للقيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية .. **الموقف من الغزو العراقى للكويت** ، وتفاصيل هذا الموقف وماترتب على ذلك الموقف من اجراءات بما فى ذلك مشاركة سورية بقوات عسكرية ذهبت لكى تسهم فى تحرير الكويت من الغزو والاحتلال العراقى انما اتخذ بعد مناقشات طويلة فى اطار القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية ، وأيضا ما يتعلق بالقضايا الداخلية سواء منها الاقتصادية ، أو السياسية أو غيرها من القضايا انما تناقش داخل هذه القيادة ، وتشهد اجتماعات الجبهة الوطنية التقدمية خلافات حادة أحيانا حول بعض المسائل ، وتختلف الأحزاب احيانا ، وتأتلف أحيانا أخرى ، وتناقش كل المسائل بكل الصراحة ، ولكنها تخرج فى نهاية المطاف بقرار واحد وموحد تلتزم به جميعها ، وتعمل جميعها على تنفيذه وفق الأسس التى اتخذ عليها هذا القرار .

وضـوح الرؤيـة أولا

اكتشف الرئيس حافظ الأسد قيمة هذه المؤسسة السياسية المتقدمة وضروراتها قبل اثنين وعشرين عاما من المتغيرات الدولية التى يشهدها عالمنا المعاصر الآن وهى المتغيرات التى حتمت بروز ظاهرتى التعددية السياسية والتعددية الاقتصادية ، وكان

قيام الجبهة الوطنية التقدمية حصيلة حوار طويل ومكثف بين ممثلى القوى الوطنية ومن خلال لجنة الجبهة التى شكلت بقرار من الرئيس الأسد ، وقد استمر عملها منذ مطلع عام ١٩٧١ وحتى يوم توقيع ميثاقها ولم يكن من الممكن لهذا الحوار أن يسفر عن نتائج ايجابية لولا المناخ الايجابى الذى هيأته الحركة التصحيحية ، وهو المناخ الذى خلق جوا من الثقة داخل حزب البعث العربى الاشتراكى والمجتمع السورى ، وأيضا فى علاقة الحزب بالجماهير وبالقوى الوطنية التقدمية ، الأمر الذى اتاح لهذه القوى الدخول فى هذا الحوار استنادا الى بيان القيادة القطرية لحزب البعث العربى الاشتراكى الصادر فى السادس عشر من تشرين الثانى « نوفمبر » عام ١٩٧٠ وهو البيان الذى التزمت من خلاله القيادة بالعمل من أجل اقامة الجبهة الوطنية التقدمية وإخراجها الى حيز الوجود كخطوة لتقوية الجبهة الداخلية وتعزيز الوحدة القومية ، من أجل تحقيق الأهداف المنشودة وفى مقدمتها خلق المجتمع العربى الديموقراطى الموحد ..

لم يكن الجو العام الذى سبق قيام الجبهة نقيا خاليا من الشوائب والترسبات التى تركت آثارها السلبية على العلاقات بين القوى الوطنية التقدمية فى سورية ، ولذلك فقد اتجه الجهد أولا الى تنقية الجو من الشوائب والترسبات التى شابت هذه العلاقات وصولا الى تعميق الثقة الحقيقية من خلال الممارسة ، والتطبيق لا من مجرد الأقوال برفع الشعارات .

وفى هذا الاتجاه بذل الرئيس حافظ الأسد جهدا واضحا لبلورة وتوضيح مفهوم الجبهة والعمل الجبهوى ، وكان هذا التوضيح ضروريا للحزب وأيضا للقوى السياسية الأخرى لاسيما فى ظل وجود أفكار ومفاهيم خاطئة وتعددات مختلفة حول الجبهة والعمل الجبهوى .. وبصراحة أكثر فلقد كان لدى القوى السياسية غير البعثية تطلعات وأفكار معينة حول قيام الجبهة ، وربما كانت هذه الأفكار والتطلعات مختلفة عن نظرة الحزب الذى كانت أقسام غير قليلة من قواعده متوجسة وقلقة نتيجة ما كانت تسمعه ممايطرحه بعض أفراد تلك القوى السياسية عمدا أو جهلا مثل : ان هذه المرحلة انتقالية ، وستتبعها مرحلة ثانية ينتهى فيها حزب البعث ، وسيكون هناك تجمع موحد يشكل تنظيما جديدا من مجموع القوى الداخلة فى الجبهة ، وهذا ماكان يبعث على البلبلة لدى قواعد الحزب وذلك بسبب الخوف على مصير الحزب والقلق من الوصول الى تنظيم غير متجانس وغير موحد الفكر والتنظيم ... الخ .

ولكن وضوح الرؤية لدى قيادة الحزب والتزامها بمقرراته وتصورها الصحيح لمفهوم الجبهة كان دافعا لها وللحزب للمضى قدما نحو تحقيق شعار الجبهة وترسيخه واخراجه الى حيز الواقع والتطبيق العملى ، منطلقة من أسس عديدة **لعل أبرزها :**

* اعتبار قيام الجبهة ضرورة حتمية ، تفرضها مهمات النضال التحررى والثورى ، كما

أكدت على ذلك مقررات مؤتمرات الحزب ، وهذا ماتتطلبه وحدة العمل والنضال الجماهيرى الذى يعتبر مبدأ فى الاستراتيجية النضالية لحزب البعث .

* اعتبار الجبهة اداة تعاون وعمل مشترك بين قوى سياسية تلتقى حول مصالح وأهداف مشتركة غير متناقضة مع الأهداف الأساسية لاستراتيجية الحزب .

* اعتبار قيام جبهة وطنية تقدمية لا يتعارض مع مبدأ الحزب القائد ، ودوره فى قيادة المجتمع والدولة .

* وفضلا عن ذلك فإن ظروف عدوان يونيو حزيران ١٩٦٧ واعتبار تحرير الأرض المحتلة الهدف الرئيسى فى هذه المرحلة جعل من مسألة قيام الجبهة ضرورة تفرضها التحديات القائمة ولاسيما تحدى الاحتلال لعدة أسباب : منها ضرورة تعزيز الوحدة الوطنية ، وتقوية الجبهة الداخلية ، وضرورة حشد جميع الطاقات والقوى من خلال هذه الجبهة ، الى جانب ضرورة احلال علاقات التعاون والعمل المشترك بين القوى الوطنية والتقدمية بديلا عن علاقات الصراع والتناحر ، وعدم تغليب التناقضات الثانوية وغير العدائية على التناقضات العدائية ، وأخيرا ضرورة تكوين رأى موحد يدعم معركة الصمود والتحرير والبناء .

أهداف الجبهة الوطنية داخليا وعربيا وعالميا

وقع ممثلو الجبهة التقدمية ميثاق الجبهة وأعلنوا عن قيامها فى ٧ مارس أذار عام ١٩٧٢ ، وقد حدد هذا الميثاق أهدافها داخليا ، وعربيا ، وعالميا .

وحين وضع ميثاق الجبهة ١٩٧٢ فإنه حدد لهذه الجبهة مهمات ، ومنها تحرير الأراضى العربية التى احتلت بعد حرب ١٩٦٧ ، **ونص ميثاق الجبهة** : بأن عليها أن تضع الخطط السياسية ، والثقافية ، والعسكرية لكى تنجز هذا الهدف ، والمهمة الثانية التى يعلن عنها ميثاق الجبهة هى أن تكون الجبهة هى المسئولة عن إقرار مسائل السلم ، والحرب ، ويرى المراقبون أن الجبهة مارست دورها على هذا الصعيد ممارسة كاملة ، وأيضا من المهام التى أعلنها ميثاق الجبهة إقرار الخطط الاقتصادية ، ومناقشة السياسات الاقتصادية من أجل بناء قاعدة اقتصادية قوية ، ومتينة تمكن سورية من أن تمتلك قدرة على الصمود فى وجه التحديات التى تواجهها دائما .

كذلك من المهام التى كُلفت بها الجبهة رسم خطط التثقيف القومى ، ومن أجل خلق رأى عام موحد يسهم فى تثقيف المواطن ثقافيا ، وسياسيا ، على جميع المستويات إلى جانب العمل على اكتمال البنـــاء الديمقراطى ، وبناء المؤسسات الدستورية ، وبالفعل فإن هذا الهدف قد أنجز من خلال قيام مجلس الشعب ، ومن خلال إقامة مؤسسات أخرى كمجالس الادارة المحلية والمنظمات الشعبية التى تسهم فى قيادتها

جميع أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية ، وكانت هناك مهام أخرى ، وهى أن ترفع من طاقات الشعب من أجل هدف التحرير الذى يعد الهدف الأساسى الذى حدده ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية ، والمقصود بالتحرير هنا هو تحرير الأراضى التى احتلت فى حرب ١٩٦٧ . ومن المهام التى حددها ميثاق الجبهة ايضا الوصول بالحوار الايجابى والتعامل الجماهيرى داخل اطار الجبهة إلى التنظيم السياسى الواحد ، والواقع أن هذه المهمة ليست مطروحة الآن على الفكر السياسى العربى لأن ما هو مطلوب الآن هو التعددية السياسية ، والحزبية ، وليس التنظيم السياسى الواحد .

وهذا الشعار (**شعار التنظيم السياسى الواحد**) رفع فى لحظة تاريخية معينة ، وفرضته ظروف محددة .. أما الآن فإن سورية تعيش مرحلة التعددية الحزبية ، والتعددية السياسية . **وعلى أية حال فإن هناك حوارا الآن حول ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية** علما بأن فى هذا الميثاق ثوابت لا يمكن المساس بها ، ولكن هناك ايضا إلى جانب هذه الثوابت بعض المسائل التى يمكن أن يعاد النظر فيها ، وعلى سبيل المثال مسألة التنظيم السياسى الواحد ، والتى لم تعد مسألة مطروحة على الفكر السياسى سواء فى سورية ، أو على صعيد الفكر السياسى العربى بشكل عام ، ذلك أنه منذ وضع ميثاق الجبهة الوطنية عام ١٩٧٢ ، فإن مياه غزيرة قد جرت تحت الجسر خلال هذه الأعوام الاثنين والعشرين ، وأصبح من الضرورى أن يعاد النظر فى بعض المهام على ضوء التطورات التى حدثت سواء فى الأوضاع الداخلية ، أو الأوضاع الاقليمية ، والعربية ، أو فى ضوء المتغيرات الدولية .

تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية

كما أشرنا فقد تم تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية فى مطلع ١٩٧١ ، كما صدر نظامها الأساسى ، والميثاق الذى يمثل برنامج عملها ، وقد تألفت الجبهة من القوى التقدمية فى سورية بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى وترك باب الجبهة مفتوحا لتضم اليها عناصر ، وأطرافا توافق على ما جاء فى ميثاقها ، ونظامها ، وعند تشكيل مجلس الشعب اشترك فيه ممثلون عن هذه القوى السياسية ، وأختير الأمين العام لحزب البعث العربى الاشتراكى ، وهو الرئيس حافظ الأسد رئيسا للجبهة الوطنية التقدمية ..

وتجدر الاشارة إلى أن قيادة حزب البعث للجبهة تتجسد فى تمثيله بالأكثرية فى مؤسسات هذه الجبهة جميعها ، وبأن يكون منهاج الحزب ، ومقررات مؤتمراته موجها اساسيا لها فى رسم سياستها العامة ، وتنفيذ خططها .. **تجدر الاشارة أيضا إلى** ان الدستور الذى أقره الشعب السورى باستفتائه عليه قد أقر بهذه الحقيقة فى المادة الثامنة منه عندما قال : (**حزب البعث العربى الاشتراكى هو الحزب القائد فى المجتمع**

والدولة ويقود جبهة وطنية تقدمية تعمل على توحيد طاقات جماهير الشعب ، ووضعها فى خدمة أهداف الأمة العربية .

حشد كل الطاقات

ولكن هل يمكن القول بأن الهدف الذى أعلنته القيادة القطرية المؤقتة يوم السادس عشر من تشرين أكتوبر ١٩٧٠ من وراء الجبهة الوطنية التقدمية وهو حشد كل الطاقات التقدمية والشعبية ووضعها فى خدمة المعركة قد حقق أهدافه ؟ وما هو الدليل على ذلك ؟

واقع الأمر انه قبل الحركة التصحيحية كانت سورية تشكو من صراعات تناحرية بين الأحزاب ، والقوى الوطنية ، والتقدمية كما اشرنا ، ولكن الرئيس حافظ الأسد برؤيته المستقبلية الشاملة أدرك خطورة هذه العلاقات التناحرية ، والصدامية ، ونجح بعد حوار مطول استمر حوالى عامين أن يضع اطارا مناسبا لجميع هذه القوى ، وهو اطار الجبهة الوطنية التقدمية .

وقد قلنا من قبل بأن هناك ضرورات وطنية قومية ، وسياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وداخلية أملت على الرئيس الأسد أن يمضى فى هذا الطريق الذى كان يبدو فى بداية المطاف طريقا محفوفا بالشكوك حتى داخل حزب البعث ، ذلك أن جميع البعثيين لم يكونوا مقتنعين بهذه الوجهة الاستراتيجية من وجهة نظرهم ... بل أن بعض أحزاب الجبهة ايضا لم تكن مقتنعة بهذا الاجراء ، أو بهذه الخطوة الاستراتيجية .

ولقد اثبتت هذه الجبهة فاعليتها ، ومصداقيتها فى العمل القومى ، والوطنى ، وفى العمل السياسى ، ولو عدنا إلى تاريخ سورية خلال العقدين الماضيين لوجدنا أن هذه الصيغة التى هى شكل متقدم من أشكال تجسيد الوحدة الوطنية داخل سورية كان لها دور فاعل ومؤثر فى المجابهات الكبرى التى دخلتها سورية سواء فى حرب أكتوبر تشرين أو فى الدفاع عن لبنان ، أو فى مواجهة الثورة المضادة أو فى تحديد موقف جرىء وشجاع من الغزو العراقى للكويت أو فى اتخاذ القرار فيما يتعلق بمؤتمر السلام ، أو فيما يتعلق بالتعامل مع المتغيرات الدولية التى تركت آثارها ليس على الدول التى إنهارت فقط ، وإنما على العالم كله بما فى ذلك الوطن العربى ، وسورية جزء من هذا الوطن العربى ..

وخلاصة القول إن هذه الصيغة اسهمت اسهاما كبيرا فى تعزيز الوحدة الوطنية وتدعيمها والتى لولاها لما كان ممكنا لسورية أن تشغل هذا الدور الاقليمى البارز والمتقدم عبر سنوات طويلة ..

من ناحية ثانية فلقد كان للرئيس حافظ الأسد شخصيا الفضل الأول ، والأكبر فى

الانتقال بحزب البعث من حالة الانغلاق، والعزلة عن الشعب، وحالة الانفراد، والتفرد بالسلطة إلى حالة الانفتاح على الجماهير، والانفتاح على الأحزاب، والقوى الأخرى، والانفتاح أيضا على الرأى الآخر..

الرئيس حافظ الأسد بقدراته الخاصة، ومواهبه غير العادية أفلح فى نهاية المطاف خلال حوار هادىء، ومن خلال عزيمة، وتصميم ثابتين أفلح فى أن ينتقل بحزب البعث من الحالة التى كان عليها فى الستينات إلى حالة مختلفة تماما، الأمر الذى ساعد على نجاح تجربة الجبهة الوطنية التقدمية، ولولا حكمة، وشجاعة، ومرونة الأسد لما كان يمكن أن تحدث هذه النقلة النوعية فى الحياة السياسية الداخلية فى سورية.

لقد تصدى الرئيس حافظ الأسد لكل محاولات القلة فى المؤتمرات الحزبية المغلقة، والتى رفضت العمل الجبهوى بكافة أشكاله.. استطاع برؤيته التاريخية الواسعة، والشاملة، **وهو من القلائل الذين يجيدون قراءة المستقبل بنفس المقدرة التى يجيد بهاقراءة التاريخ**، استطاع، وهو الذى يقول دائما أن التاريخ هو علم المستقبل أن ينصت باصغاء شديد الى نبض الواقع، ويستشف، ويستكشف، ويتلمس الآفاق البعيدة، وهو الذى يمتلك حسا سياسيا سليما، وبصيرة ثاقبة، أن يصل إلى فكرة التعددية السياسية، والحزبية والتى سبق بها عصره باثنين وعشرين عاما، وكان يحملها قبل الحركة التصحيحية، وبالتالى فإنه ظل يخوض نضالا مستمرا داخل مؤسسة حزب البعث القيادية، والقاعدية من أجل اجراء هذه التحولات النوعية..

لقد دخل حافظ الأسد فى مواجهات كبرى داخل حزب البعث قبل الحركة التصحيحية، واستطاع فى نهاية المطاف أن يحدث هذا التحول الذى لا يعد تحولا يتعلق بالأوضاع الداخلية لحزب البعث العربى الاشتراكى، وإنما يتجاوز هذا الحيز إلى حيز أوسع، وأشمل، وهو حيز سورية كلها.

العمل السرى والقوى المتربصة

وفضلا عن ذلك كله فقد كان قيام الجبهة الوطنية التقدمية ضرورة تاريخية لمنع العمل السرى، أو الالتحاق بالقوى الأخرى التى تضررت مصالحها منذ قيام ثورة آذار عام ١٩٦٣، **بمعنى أن الرئيس الأسد عندما قرر بأن ينفتح حزب البعث على القوى السياسية الوطنية، والتقدمية الأخرى إما كان يدافع عن مستقبل سورية** لان الاسلوب الذى كان مُعْتَمَدا قبل الحركة التصيحيحية، كان من شأنه فى نهاية المطاف أن يفضى إلى تخريب الوحدة الوطنية، وعدم المقدرة على بناء جبهة وطنية قوية، وقادرة على مقاومات التحديات، والمجابهات التى كانت موجودة فى ذلك الوقت.

ويرى صفوان قدسي عضو قيادة الجبهة الوطنية التقدمية بأن نظرة حافظ الأسد فى هذه المسألة لم تكن نظرة محصورة فى حزب البعث ، وإنما كانت تتجاوز ذلك إلى سورية كلها ، **وبالتالى فإن حافظ الأسد إنما كان يدافع عن سورية ، ويدافع عن الشعب السورى ، وبكل تأكيد فى دفاعه عن سورية ، وعن الشعب السورى ، وعن الوحدة الوطنية ، وعن الجبهة الداخلية إنما كان يدافع أيضا عن حزب البعث العربى الاشتراكى** ، واذا كانت هناك فى وقت من الأوقات قوى سياسية لم تستطع أن تواكب هذا التحول فى الحياة السياسية السورية ، فإن هذه القوى إنما اتخذت قرارا بأن تنتهى الى زوايا النسيان .. هذه القوى لم تعد موجودة لأنها لم تتمكن من مواكبة التطور الهام فى الحياة الفكرية ، والسياسية ، ولذلك فقد آلت الى زوال لأنها لم تستوعب هذه الخطوة الاستراتيجية ، وأهمية هذا التحول النوعى .. هذه القوى بحكم تكوينها ، وبحكم انتمائها الى مرحلة مضت ، وبحكم عدم قدرتها على قراءة الواقع ، وقراءة المتغيرات قراءة صحيحة حكمت على نفسها بالتلاشى، وبالتالى فإنه يمكن القول بأن أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية فى سورية هى التى تمثل الآن ، وفى هذه المرحلة القوى السياسية الفاعلة ، والمؤثرة فى الحياة الشعبية ، والجماهيرية السورية .

القـــوى المســـتقلة

واذا كنا تحدثنا عن الحوار الهادىء الذى شاركت فيه جميع القوى الوطنية ، والأحزاب التقدمية فى سورية فى مطلع السبعينات بعد بداية الحركة التصحيحية مباشرة ، وهو الحوار الذى أفلح فى الوصول الى هذه الصيغة بين القوى ، والأحزاب على النحو الذى أشرنا اليه ، فإن السؤال يُثار حول القوى المستقلة ، وهى القوى التى لم تنضو فى اطار احزاب الجبهة الوطنية ، والواقع أن هذه القوى المستقلة بدأت وبتشجيع من الرئيس حافظ الأسد فى السنوات الأخيرة تمارس دورا أكثر حيوية من خلال مشاركتها فى بعض المؤسسات التنفيذية ، والدستورية ، والتشريعية وغيرها ، وهناك عدد لا بأس به من المستقلين فى مجلس الوزراء ومجلس الشعب ، وهناك عدد من المستقلين فى مجالس الادارة المحلية ، وفى المنظمات الشعبية ، وفى النقابات المهنية ، وهناك من يطرحون تساؤلا كبيرا حول معنى كلمة مستقل **ومن هؤلاء صفوان قدسي** الذى لا يرى تيارا مستقلا لا ينغمس فى الحياة السياسية السورية ، ولا يمكن لأى شخص أو لأى مجموعة تريد أن تشارك فى العمل العام ، أو فى العمل السياسى أن تكون مستقلة تماما لأنها لا تريد أن تكون منتمية الى تيار سياسى ، أو الى توجه سياسى ، أو الى فكر سياسى معين ، ولابد أن تكون بشكل ، أو بآخر تعبيرا عن قوى فاعلة ، ومؤثرة فى المجتمع .

ويضيف قدسي : إننى من الذين يرون أن تعبير كلمة مستقل ليس تعبيرا دقيقا ،

وبالتالى اتمنى أن تنضوى هذه القوى التى نقول عنها بانها مستقلة فى اطار تنظيمات سياسية ، والأحزاب الجبهوية القائمة قادرة على استيعاب هذه القوى المستقلة لأن القوى المستقلة لا تطرح أفكارا ، وشعارات ، ووجهات نظر تختلف عن الافكار ، ووجهات النظر التى تطرحها أحزاب الجبهة تطرحها أحزاب الجبهة الوطنية التقديمة .

مستقبل الجبهة الوطنية التقدمية

القناعات المشتركة التى ترسخت وتكرست على ضوء النقاط التى أشرنا اليها من قبل هى التى مكنت هذه الأحزاب ، ومكنت بالتالى هذه الصيغة من أن تثبت وجودها فى الحياة السياسية السورية ، ولولا هذه الاقتناعات الراسخة ، والثابتة لما كان من الممكن المحافظة على هذه الصيغة ، وبالتالى المحافظة على الوحدة الوطنية ، وفيما يتعلق بمستقبل هذه الجبهة **فقد أشار الرئيس حافظ الأسد فى خطابه أمام مجلس الشعب ، والذى ألقاه فى الثامن عشر من شهر آذار مارس** ١٩٩٢ بمناسبة أدائه للقسم الدستورى لولاية دستورية رابعة. **أشار الى ضرورة العمل على تطوير هذه الصيغة** ، وفى اجتماع أخير للقيادة المركزية للجبهة كُلف مكتب التنسيق والاتصال فى القيادة المركزية بأن يعقد عددا من الاجتماعات لكى يقدم أفكارا حول ما هو ممكن وما هو متاح من أجل تطوير صيغ العمل الجبهوى ، ومن أجل تفعيل دور الجبهة الوطنية التقدمية فى الحياة السياسية ، وسوف تتبلور هذه الأفكار والاقتراحات من خلال تقرير يعرض على القيادة المركزية بقيادة الرئيس الأسد ليتم اقرار ما تراه القيادة المركزية مناسبا ، وصالحا للتطبيق .. **وكما يؤكد صفوان قدسى فإن الرئيس الأسد يسعى لإعطاء دور أكبر لأحزاب الجبهة الوطنية لإثراء الحياة السياسية السورية .**

التطرف الماركسى ، والتطرف باسم الاسلام

ولقد استطاع تحالف الجبهة الوطنية التقدمية أن يصمد فى وجه التطرف الماركسى ، والتطرف باسم الاسلام ، ومن المؤكد أن الفكر القومى الذى يطرحه الرئيس الأسد دوما هو الذى يحصن الجبهة الداخلية السورية من التيارين : تيار التطرف اليسارى ، والتيار الدينى المتعصب ، والمنغلق ، والذى يريد أن يغلق العقول أمام أى فرصة متاحة للاجتهاد ، والتفكير .

وكما قال أحد المفكرين فى وقت من الأوقات فإن الافكار التى تولد فى القطب الشمالى سرعان ما تتبخر عندما يجرى نقلها الى خط الاستواء ، فالأفكار لا تعار ، ولا تستعار ، ولكل بلد خصوصيته القومية ، وهذه الخصوصية نابعة من تراثه ،

وثقافته ، ومن حضارته ، وتاريخه ، وقيمه الروحية ، ولابد أن تؤخذ هذه الخصوصية بعين الاعتبار .

ولعل أبرز الدروس المستفادة من تجاربنا فى الوطن العربى الا ننهمك فى النظرية بحثا عن الحياة وانما ننهمك فى الحياة بحثا عن النظرية .. **والتجربة السورية فى ظل الرئيس حافظ الأسد** تعلى دائما من شأن الممارسة ، ولكن دون أن تتخلى عن الثوابت المبدئية ، والثوابت القومية حتى لا تضيع البوصلة الموصلة الى أهدافها الكبرى ، وبعبارة أخرى فإن الحصن المنيع الذى مكن سورية ، ومكن الجبهة الوطنية التقدمية من مواجهة الأفكار المتطرفة سواء كانت الأفكار اليمينية ، أو الأفكار اليسارية هو الفكر القومى ، وهو الفكر المنفتح الذى لا يصد نفسه عن الآخرين بالتعصب وبأن يكون معصوب العينين ومفتونا بالدوران حول نفسه،انه فكر الرئيس الأسد .. الفكر المنفتح على تجارب الآخرين ، ولكنه أيضا الفكر الذى يعلى دائما من خصوصية التجربة الوطنية ، والتجربة القومية ، والذى يأخذ بعين الاعتبار تراث الوطن ، وثقافته ، وقيمه الروحية أيضا .

ومشاركة الرئيس الاسد فى معظم اجتماعات القيادة المركزية للجبهة يعطيها أهمية خاصة ، وكما يقول صفوان قدسي فإن الرئيس حافظ الأسد يشارك فى معظم اجتماعات الجبهة الوطنية التقدمية ، ولا يتغيب عن اى اجتماع إلا لضرورات استثنائية ، ومهام عاجلة يكون مضطرا لأدائها ، وفى قيادته لاجتماعات القيادة المركزية يحاول الرئيس الأسد دائما أن يشجع ممثلى احزاب الجبهة الوطنية فى هذه القيادة على أن يتحدثوا بحرية مطلقة ويُصغى الى جميع اقراء ، بل انه فى بعض الأحيان حين لا يجد احدٌ ضرورة فى أن يدلى برايه فى مسالة من المسائل فإن الرئيس الأسد يستحثه على أن يبدى رأيه ، وتناقش هذه الآراء بديمقراطية كاملة .

وهذه حقيقة فإن من يعرف الرئيس الأسد عن قرب يعرف كم هو مستعد لسماع الرأى الآخر حتى لو كان هذا الرأى مخالفا لرأيه ، وقد شوهد الرئيس حافظ الأسد مراراً فى بعض الاجتماعات ، وهو يصغى اصغاء جيدا ومطولا الى أراء لا تتفق بالضرورة مع اجتهاداته الفكرية والسياسية ، ومع آرائه فى هذه المسائل ، ومع ذلك فإنه كان يجيد الاصغاء ، ومن ثم فإنه كان يجيد الحوار مع هذه الأفكار التى كان يصغى اليها .. انه مستعد دائما لتبادل وجهات النظر وتمحيصها يُغْنى ويُثرى القضايا مدار الحوار والنقاش ، وهو يعيد النظر فى بعض افكاره ، اذا وجد ان هناك رأيا آخر يمكن أن يكون مفيدا فى تعديل توجه ما ، أو فى اتخاذ قرار ما ، **باختصار فإن من يعرف الرئيس الأسد عن قرب يجده يتمتع بقدر كبير جدا من الروح الديمقراطية** ومن استعداد لسماع الرأى الآخر ، ومن اجادة الحوار حول مسائل يمكن ان تكون مدار خلاف ، ولكن

نتيجة الحوار لا يمكن لأى اجتماع يحضره حافظ الأسد أن ينتهى دون اتفاق على القواسم المشتركة التى تجمع ولا تفرق ، ودون الوصول الى القرار المناسب الذى يعتبر عن كل الآراء .

الديمقراطية فى فكر الأسد

فى الكلمة التى القاها الرئيس حافظ الأسد فى مجلس الشعب بمناسبة أداء القسم الدستورى لولاية جديدة قرأنا تفسيرا شاملا لرؤية الأسد للمسألة الديمقراطية التى تشغل التفكير المعاصر ، وشرحا للأسس الحضارية التى تقوم عليها ، ويبين للذين يرفعون شعارات النظم الديمقراطية ، كيف يكونون ديمقراطيين قولا وعملا سواء على الصعيد الدولى أو على الصعيد المحلى .

فما هى أبعاد الديمقراطية الفعلية فى فكر الرئيس الأسد ؟ وما هى أسسها ؟

(١) الأساس الحضارى : يقول الرئيس الأسد : « إن صيغة الديمقراطية ليست سلعة تستورد من هذا البلد أو ذاك وإنما هى الاطار الذى يمارس فيه المواطنون حقوقهم، وواجباتهم وفق ظروفهم المحلية ..» .

فى هذا التعريف نجد أن الديمقراطية مسألة حضارية تفجر طاقات الانسان ، وتحمله الى أجواء الخلق ، والابداع ، والعطاء ، وهذا ما يعنيه الرئيس الأسد ، فالأمة تنتقل من مرحلة حضارية الى مرحلة أرقى انطلاقا من جذورها الحضارية ، من تاريخها .. من تراثها .. من داخل حدودها وليس من خارجها ، ولا يمكن لأية أمة أن تبنى نظاما ديمقراطيا مستوردا . فالبحث عن الديمقراطية يبدأ بالذات الحضارية التى تميز أمة عن غيرها .

وهنا يقول الرئيس الأسد :

«.. ألم تروا ماحدث للذين بحثوا عن الديمقراطية فى خارجهم وخارج أوطانهم ...» .

(٢) ديناميكية الاطار الديمقراطى :

لا تقف الحياة عند صيغة معينة ، فالتطور يبقى ملازما للحياة ، يغذيها ، يغنيها ، يقدم لها الجديد ، ولا وجود لها بدونه .

ان ممارسة الديمقراطية من خلال نظام معين ، لا تبقى بمنأى عن حتمية التطور الذى يدفع إلى الواقع باستمرار بمعطيات جديدة. فكلما تبدلت الظروف، برزت الحاجة الى التعديل أو حتى تبديل الصيغة الديمقراطية كى تنسجم مع المستجدات ، وبالتالى مع الحياة نفسها ..

يقول الرئيس الأسد:

« .. كل مرحلة من مراحل التقدم، والتطور، والبناء نحققها، تقدم معطيات جديدة في مجالات الحياة المختلفة، لابد أن تعكس نفسها على الاطار الديمقراطي ..».

اذن عندما تكتسب الصيغة الديمقراطية طابعا سكونيا فإنها تموت حتما، ولكي تعيش الديمقراطية لابد لها من أن تبقى في حركة دائمة .. وتتجلى حكمة القيادة في اقامة التوازن بين المعطيات الجديدة، والصيغ القانونية.

يقول الرئيس الأسد:

« .. ولكي يمارس شعب من الشعوب الحياة الديمقراطية لابد من تحقيق توازن دقيق جدا بين الصيغة .. أعني الهيكلية، والقوانين، وبين محصلة المعطيات الثقافية، والتراثية والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية ..».

(٣) نسبية القيم الديمقراطية:

الأسس التي يقوم عليها البناء الديمقراطي، والمنطلقات التي يتغذى منها تختلف من أمة لأخرى. فما هو عادي عند أمة، قد يكون مقدسا عند أخرى، وما هو محلل هنا محرم هناك .. حتى عند الأمة نفسها، تختلف تلك الأسس، والمنطلقات من زمن لآخر، فمن الخطأ أن نأخذ المفاهيم الديمقراطية السائدة لدى شعب، لنطبقها على شعب آخر فذلك مخالف للعلم. والمنطق .. ولا وجود لديمقراطية مطلقة صالحة لكل زمان، ومكان، لذا لا يمكن، عند البحث عن صيغة ديمقراطية أن نتجاوز مبدأ نسبية القيم، والمفاهيم، والمعتقدات، هنا تتجلى الرؤية العلمية للرئيس الأسد .. **فهو يقول:**

« .. وبسبب عدم تماثل المعطيات الثقافية، والتراثية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية بين شعوب العالم في أي وقت من الأوقات، لم تستطع أي صيغة ديمقراطية بعينها أن تفرض نفسها بقوتها، وجاذبيتها على شعوب العالم في أي وقت على امتداد ماهو معروف من التاريخ الانساني ..».

(٤) البعد الجماهيري:

ان أية ديمقراطية تبقى منقوصة إذا لم تشمل فوائدها كل أفراد المجتمع، ولا يأخذ البناء الديمقراطي متجاه الصحيح. إذا لم يوفر الفرص للجميع في الاختيار الحر والعيش الكريم. إذ ما فائدة بعض الديمقراطيات الغربية طالما بقيت أنفاق المترو ومداخل البنايات حافلة بالجياع ؟

ولصالح من يأتي قرار السلطة اذا بقي حصرا على رأس الدولة، والبرلمان ؟ ان الديمقراطية بمفهومها العميق هي اطار لممارسة النشاط الانساني بعيدا عن هيمنة طرف

على آخر ، وحتى لا يبقى الانسان العادى على هامش الحياة السياسية ، والفقير على هامش النشاط الاقتصادى .

يقول الرئيس الأسد :

« .. فإلى جانب المؤسسات السلطوية أو الرسمية المنتخبة ديمقراطيا ، والمجالس المحلية ومجلس الشعب ، توجد المنظمات الشعبية بحلقاتها وقياداتها المتسلسلة ، والمنتخبة ديمقراطيا وتوجد النقابات المهنية بحلقاتها ، وقياداتها المتسلسلة ، والمنتخبة ديمقراطيا وتوجد الأحزاب ، وقياداتها المنتخبة ديمقراطيا ، الكل يمارس العمل السياسى ويشارك فى السلطة والقرار ..» .

(٥) البعد الدولى :

عندما يطالب الرئيس الأسد بشرعية دولية ، وعدالة إنسانية تكون إطارا لسلام عالمى قائم على العدل فإنه يعبر عن أرقى المشاعر الإنسانية خاصة فى دول العالم الثالث ، والدول الصغيرة .. فإلى جانب إقامة النظام الديمقراطى ، داخل الدولة الواحدة يجب أن تسود العلاقات الديمقراطية بين دول العالم كله ..

فهو يقول :

« .. فجدير جدا بالدول التى ترفع شعار الديمقراطية أن تطبق ، وخاصة عندما تتحدث مع الشعوب الأخرى كما يجرى معنا نحن ، أن تمارس الديمقراطية الدولية التى تقتضى المساواة بين الدول ، والتعامل الحر ، والند للند بين الدول » .

كيف ينظر أطراف الجبهة الوطنية لهذه الصيغة وما حققته ؟

قال لى خالد بكداش السياسى السورى المخضرم ، وزعيم الحزب الشيوعى ، وعضو قيادة الجبهة الوطنية التقدمية : إن صيغة هذه الجبهة جاءت بمبادرة من الرئيس حافظ الأسد ، ولم تكن هذه المبادرة سهلة عليه فقد لاقى صعوبات فى سبيل إقرارها حتى من داخل حزبه .. حزب البعث العربى الاشتراكى ، ولكنه تغلب على كل هذه الصعوبات ، وقامت الجبهة وهى جبهة جدية ، وليست جبهة شكلية وينص ميثاقها الذى اتفقنا عليه جميعا على محاربة الاستعمار ، والصهيونية ، والامبريالية ، وعلى النضال فى سبيل إقامة نظام اشتراكى على أساس علمى ، وفى سورية الآن صورة ديمقراطية حقيقية ، وينص ميثاق الجبهة على أن كل حزب من الأحزاب المنضوية فى الجبهة له الحق فى ممارسة نشاطه .

ونحن الشيوعيين فى سورية تعاملنا مع حزب البعث حتى قبل قيام الجبهة ، وأذكر أننى كنت نائبا عن دمشق فى مجلس النواب السورى عام ١٩٥٤ ، وفى ذلك الحين تألف ما سمى بالتجمع القومى البرلمانى ، وكان يشمل حزبنا الشيوعى ، وحزب البعث العربى

الاشتراكى ، والحزب الوطنى ، وبعض الشخصيات الوطنية ، كما كان يحضر اجتماعات قيادة هذا التجمع ممثلون عن الجيش العربى السورى لأن المشاكل التى كانت تجابهها سورية فى ذلك الحين كانت مشاكل خطيرة ، ومعقدة ، وكان هناك حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور لملء الفراغ الذى تركه المستعمرون الانجليز ، والفرنسيون حيث كانت الولايات المتحدة الامريكية تريد ملء هذا الفراغ ، وقد وقفنا ضد هذه المشاريع الاستعمارية وأحبطناها ، والآن نعمل فى جبهة تضم جميع القوى الوطنية التقدمية ، وهى كما قلت مبادرة من الرئيس حافظ الأسد ، وقد قلت من قبل وأعيد الآن **أن حافظ الأسد يتميز عن غيره من قادة حركات التحرير فى العالم عندما انتصروا ، ووصلوا إلى السلطة ، مارسوا التنكيل بالقوى التقدمية ، بينما حاول الرئيس حافظ الأسد أن يستفيد من هذه القوى ، ويجمعها ويأتى بها إلى السلطة.**

نعم ، كثير من حركات التحرير فى الوطن العربى ، وخارج العالم العربى وقفوا مواقف ضد الاستعمار ، ولكنهم أيضا وقفوا مواقف غير سليمة فى وجه التقدمية فى بلادهم ، وأصبحت هذه القوى غريبة على مجتمع الاستقلال مثل غرابتها على مجتمع الاستعمار ..

الرئيس حافظ الأسد لم يقع فى هذا المأزق الذى خططت له ، ولا تزال الامبريالية ، بل سعى إلى توحيد جميع القوى الوطنية ، وأيضا القوى التقدمية ، وأذكر أن الصحفية اللبنانية علياء الصلح قابلت الرئيس الأسد هنا فى دمشق ، وسألته عن موقفه من الشيوعيين ، فأجاب قائلا : الحزب الشيوعى قوة وطنية موجودة على الساحة السورية . ونحن نتعاون معها ».

وأضاف بكداش : «لقد تعرفت على الرئيس الأسد لأول مرة عندما كان وزيرا للدفاع .. التقيت به فى بيته وتحدثنا حديثا أخويا صريحا ، وخرجت بانطباع أكدته الأحداث فيما بعد ، **وهو : أن حافظ الأسد زعيم وطنى مقدام يؤمن فعلا بتوجيه جميع القوى التقدمية والوطنية لمحاربة جميع التحديات التى يمكن أن تتعرض لها سورية ،** واستمرت علاقاتنا منذ ذلك الحين ، وحتى أصبح رئيسا للجمهورية ورئيسا للجبهة الوطنية التقدمية ، وكانت العلاقة بينه وبينى ، وبين الشيوعيين والبعثيين علاقات أخوية ما تزال مستمرة حتى الآن .

وقال لنا أحمد عقل الأسعد الأمين العام للحزب الوحدوى الاشتراكى الديمقراطى ، وعضو القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية :« لاشك أن حزب البعث العربى الاشتراكى حزب قومى رائد ، وقد أعطى للنضال العربى الكثير ، ولكن مثله مثل أى حزب فى وطننا العربى تعرض للاهتزاز ، وتعرض مرة إلى الشد به يمينا أو يسارا ، جاء أيضا مَنْ فكَّر أن يجعله حزبا للنخبة ، كل هذه الأمور تفاعلت على أرضية حزب البعث الى أن انتخب الرئيس حافظ الأسد امينا عاما لحزب البعث العربى

الاشتراكى فعادت الى هذا الحزب الرائد هويته القومية ، والعربية ، وأعاد الرئيس الأسد إليه جماهيريته ، وارتبط بأهدافه المتلازمة بين الوحدة ، والحرية ، والاشتراكية ، وعزز المعانى القومية ، والوطنية فى حياة الحزب ، وجعله يتفاعل مع الجماهير ، والرئيس الأسد هو وحده الذى أعاد لحزب البعث وجهه القومى الأصيل ، وجماهيريته الواسعة وارتباطه بقضايا امته العربية .

الأحزاب الوطنية فى سورية قبل قيام الحركة التصحيحية كانت أحزابا متصارعة ، ومتناثرة ، ومبددة للجهد .. اليوم أصبحت كلها فى ظل الجبهة الوطنية التقدمية ، والتى هى نتاج حضارى لفكر الرئيس الأسد المتقدم ، ولرؤية بعيدة النظر تعمقت فى القاسم النضالى المشترك القومى ، والوطنى ، والانسانى ، وأصبحت الجبهة الوطنية التقدمية فى سورية اليوم مثالا يحتذى به وبخاصة فى بلدان العالم الثالث الذى لم تنضج فى العديد من دوله تجربته السياسية .

وكان للجبهة الوطنية التقدمية دورها فى إسقاط التآمر من الداخل ، والخارج لكى تبقى سورية قلعة حصينة فى النضال العربى ، ولتحقيق أهداف الأمة العربية ..

وقال أحمد الأسعد : لقد توافرت لسورية قيادة وطنية عظيمة تمثلت فى الرئيس حافظ الأسد ، وعندما نتحدث عن القائد الإنسان حافظ الأسد فإننا نتحدث عن القيم النبيلة ، وعن المبادىء السامية ، وعن السلوك الرائع ، وعن الفكر الاستراتيجى الشمولى .. لقد خرج حافظ الأسد من وسط الشعب ، وحمل على كتفيه هموم وآمال الأمة العربية ، فهو قائد عظيم من أمة لها حضارتها العظيمة ، وقد عبر شعبنا فى سورية عن عمق ولائه لهذا القائد الذى أنار درب أمته ، وحمل المشعل ، عبر يوم تجديد البيعة لولاية دستورية رابعة حيث خرج الشعب بكل فئاته ، وبكل إنتماءاته يهتف لقائده ، ويبادله الحب بحب ، والوفاء بوفاء ، ويقول له : من العقل ، والقلب نعم للقائد الأمين حافظ الأسد لقد أكدت التجربة الرائدة التى أرسى دعائمها حافظ الأسد بفكره السياسى المتقدم ، والذى سبق به زمانه فى التعددية السياسية ، والاقتصادية ، أكدت التجربة أن هذه هى الصيغة التى تؤمِّن أوسع قاعدة للمشاركة الجماهيرية فى صناعة التقدم ، وبناء الوطن ، والحفاظ على مكتسبات الجماهير ، وأقول لكل الأشقاء العرب : عليهم أن يدرسوا هذه التجربة بعين تربط الضمير بالمسئولية القومية لأن فيها الكثير لخير هذه الأمة .

القائد والتجربة

يقول الرئيس حافظ الأسد : إذا كان عدم الاستقرار الفكرى والسياسى قد إعترى السنوات الأولى من عمر ثورة الثامن من آذار/مارس بما يحمله ذلك من انعكاسات

سلبية على الصعد الاقتصادية، والاجتماعية، والدفاعية فإننا عالجنا هذا الاشكال، وتجاوزناه بعد حركة التصحيح عام ١٩٧٠.

وانطلقنا منذئذ في عملية بناء وطنية واسعة تغطي كافة الحاجات الوطنية على سعتها، وتعددية مشتملاتها، وفي بعديه المادي، والروحي، وبدأنا ببناء وتعزيز، القدرة الداخلية، وبادرنا بالاتصال بجميع الأحزاب التي كانت قائمة في البلاد قبل حركة التصحيح وقبل ثورة آذار/ مارس.

ونشأ حوار حر بين جميع الأحزاب لا يفرض أحد على أحد رأيا، وكان حوارا وطنيا مسئولا استغرق وقته الذي احتاجه، واستمرت المناقشات المكثفة أكثر من عام توصلت الأحزاب في نهايتها الى اتفاق تام، وموثق انطلاقا من المصلحة الوطنية، والحرص على مسيرة وطنية قوية.

وباشرنا مسيرة وطنية مشتركة على طريق طويل، وكانت تجربة نوعية جديدة لا سابقة لها في بلادنا، ولا مثيل لها في بلدان العالم الأخرى، وقد يقال: أنه وجدت جبهات وطنية في بلدان أخرى، واقول إن التجربة تختلف جدا من حيث تاريخيتها ومحتواها، ونظام عملها، وفاعليتها.

وتابعت الجبهة نشاطها خلال العقدين الماضيين مطورة بين وقت وآخر أسلوب عملها، ولا أذكر أن هناك أمرا واحدا على المستوى الوطني سواء داخليا أو خارجيا بُتَّ فيه أو وجبت معالجته إلا عالجناه في إطار الجبهة الوطنية التقدمية .. نتبادل الآراء بشكل حر ومسئول .. نناقش ونجتهد .. نختلف ونأتلف، ونخرج باتفاق قوامه خلاصة الآراء التي إستقر عليها المتحدثون في نهاية الأمر، ولا أذكر أننا خرجنا مختلفين حول أمر هام ناقشناه في أية جلسة من جلساتنا؛ والتي كانت دائما تستغرق وقتا طويلا لأن الكل كان حريصا على أن تتسع الرؤية حول موضوع المناقشة، وأن تخرج بأصح رأي موحد وأصح قرار في النهاية.

وهذا لا يعني أننا لم نكن نناقش الأمور الأقل أهمية بل فعلنا ذلك وبشكل مستمر، ناقشنا أمورا أقل أهمية، وأمورا صغيرة، ولكننا اعتبرنا، ونعتبر أن كل الأمور التي ناقشناها، أو نناقشها هامة وإلا لما كان هناك ما يبرر مناقشتها، ان المجال كان مفتوحا دائما لأن تناقش الجبهة كل أمر ترى مناقشته.

الجبهة الوطنية إنجاز هام

ويضيف الرئيس الأسد : لقد كانت الجبهة الوطنية التقدمية انجازا وطنيا هاما ومكسبا كبيرا لقضايا الشعب ، والوطن ، وشغلت دورا أساسيا فى صمودنا الوطنى ضد التحديات المتعددة الأشكال التى استهدفت وطننا فى كبريائه ، ومصالحه ، وسيادته ، وقراره الحر ، وحقه القومى ، ومع ذلك فإننا نرغب من الجبهة أكثر مما تحقق ، ومازال امامنا الكثير مما يمكن عمله من التطوير الذى يحقق زيادة من الفاعلية فى خدمة قضايا ، وأهداف الوطن .

ان الانسان ينشد الكمال دائما ، ولا يناله ، ومع ذلك يجب أن يستمر فى تطلعه اليه ، وفى تحركه نحوه بشكل دائم ليقترب منه قدر المستطاع .

اننى آمل أن نجتمع قريبا لنناقش ، ونقرر ما نراه لازما لتطوير عمل الجبهة ، وزيادة فاعليتها الوطنية .

وفى اطار البناء الوطنى كان الاهتمام الكبير بمنظماتنا الشعبية التى أصبحت ركائز جبارة فى الدفاع عن هذا الوطن وشموخه ، وبنائه ، وصون ارادته ، الأمر الذى هو موضع فخرنا ، وتقديرنا الكبير .

وفى اطار البناء الوطنى أيضا بذلت الجهود لتعزيز نقاباتنا المهنية عن طريق توحيد أبناء المهنة الواحدة فى تنظيم واحد بدلا من عدة تنظيمات كما كان الأمر فى كل من نقابات الأطباء ، والمحامين ودعمت هذه النقابات بعد توحيدها لتأخذ دورها الوطنى الذى يجب أن تأخذه ، والذى نراه اليوم واقعا ملموسا نعتز به .

وفى اطار البناء الوطنى أعدنا صياغة مؤسسات السلطة التنفيذية ، والتشريعية ، والادارة المحلية ، وهى أيضا تجربة جديدة هدفت الى مشاركة كل طاقات البلاد فى بناء الاقتصاد ، وتنميته ، وحققت نجاحات هامة تنمو ، و تعلو باستمرار ، وكانت لنا خططنا الثقافية ، والاجتماعية وقد أعطينا لكل ذلك جهودا كبيرة ، وحققنا نجاحات هامة رغم كل الصعوبات التى مررنا بها .

فلسفة التنمية الاقتصادية
فى فكر الأسد

□□ لعل أبرز ما يميز الفكر الاستراتيجى للرئيس حافظ الأسد انه فكرٌ شمولى فى جوانبه السياسية ، وجوانبه الاقتصادية ، ومن المؤكد ان الفصل بين الاقتصاد ، والسياسة لم يعد أمرا ممكنا لأن التجارب أكدت ، وهى مازالت تؤكد كل يوم ان كلا

منهما يكمل الآخر ، وكما أصبحت سورية تمتلك بعد الحركة التصحيحية تعددية سياسية أصبحت تمتلك أيضا تعددية اقتصادية ،حيث تشارك قطاعات رئيسية في خطط التنمية الشاملة ، وفي بناء القاعدة المادية لسورية يوجد القطاع العام ، وهو القطاع الرئيسي ، ويوجد أيضا قطاع خاص ، والى جانب هذين القطاعين يوجد قطاع مشترك ، والى جانب كل هذه القطاعات يوجد أيضا قطاع تعاوني نشط في هذا المجال ..

التنمية في سورية تنطلق من التعددية الاقتصادية التي أرسى دعائمها الرئيس حافظ الأسد، ولو تطلعنا الى ما قبل قيام الحركة التصحيحية لوجدنا ان الفارق كبير ، وكبير جدا ، سواء كان في بناء الصناعة ، أو في توسيع الخضرة ، والزراعة ، واقامة السدود ، وتحقيق الخدمات سواء كان في مجال الصحة ، أو التربية ، أو التعليم ، وتحسين الدخل القومي وتحسين دخل الأفراد ..

هذه التعددية الاقتصادية ، وهذه التنمية الشاملة حققت لسورية مجالات واسعة في بناء الاقتصاد الوطني ، وتحصين هذا الاقتصاد من الهزات ، أو المفاجآت التي تتعرض لها العديد من الدول ، خاصة ان سورية تتحمل نيابة عن أشقائها العرب جزءا كبيرا في الدفاع عن مصالح الأمة العربية ، وفي تحمل مسئوليات استثنائية من خلال الصراع العربي الاسرائيلي ، حيث انها في الوقت الذي تبني فيه بيد دفاعا للحفاظ عن الوطن فإنها باليد الأخرى تنمي هذا الوطن ، وتحقق التنمية الشاملة ، وتحقق التقدم ، والعدالة أيضا .

السياسة التعليمية والخدمية

من يحصي مثلا عدد المدارس في سورية من ابتدائية ، واعدادية ، وثانوية قبل قيام الحركة التصحيحية ، وبعد قيامها يجد انه لا توجد مزرعة صغيرة إلا ويوجد فيها مدرسة ، ولا توجد قرية تعدادها عشرة أو خمسة عشر الف مواطن إلا ونجد فيها الاعدادي والثانوي .. نجد أيضا المستوصف ، نجد الكهرباء ، والمراكز الثقافية ، والطرق المعبدة .

اذا أخذنا العلم والثقافة نجد انه قبل عهد حافظ الأسد كانت هناك جامعتان تضمان امكانيات محدودة ، وكان عدد الطلاب في الجامعتين (جامعة دمشق وجامعة حلب) لا يتعدى ٢٥ ألف طالب .. الآن توجد أربع جامعات (جامعة اللاذقية ، وأخرى في حمص ، بالاضافة الى جامعتي حلب ، ودمشق) الى جانب ذلك هناك الكثير جدا من المعاهد المتخصصة مثل معهد البترول ، والمعاهد المتوسطة وهي بالعشرات ، وهناك أيضا عشرات المعاهد المتوسطة تتبع وزارة الصناعة حيث يدرس الطالب سنتين بعد الثانوية

العامة للتخصص ولكى يعد نفسه للعمل فى وزارة الصناعة ، وهناك معاهد تتبع وزارة السياحة كالفندقة والسياحة .

وهناك أكثر من عشرين معهدا متوسطا تعليميا يتبع وزارة التعليم العالى ، وهناك معاهد تتبع وزارة التربية لتخريج معلمين ، وهناك مراكز ثقافية تابعة لوزارة الثقافة ، وموجودة فى كل مركز ، أو ناحية يتجاوز عدد سكانه خمسة آلاف ، وهناك المراكز الثقافية ، والمكتبات ، وهى موجودة ومتاحة .

والتعليم مجانى من الابتدائى ، وحتى الجامعة ، وهناك أيضا ايفاد بالآلاف من المتفوقين الى الدول الأجنبية للحصول على التخصصات غير الموجودة فى سورية .. نسبة الأمية تقلصت كثيرا فى البلاد وأصبح أكثر من ٧٠٪ من الشعب السورى يتعلم ضمن المدارس لأن التعليم الزامى ، ونسبة الامية فى تضاءل مستمر لأن هناك فصولا ترعاها وزارة التربية ، وفصولا أخرى ترعاها الوزارات المختصة فى المعامل والحقول ، ولذلك فإن أعلى نسبة تعليم فى الوطن العربى تراها فى سورية ، وهناك الوضع الصحى حيث تتكفل الدولة بالعلاج ، وفى كل محافظة هناك المستشفيات الحكومية التى تصرف الدواء ، والعمل الجراحى للمواطن ، وفى كل قرية هناك مركز صحة .

اذا أخذنا شبكات الطرق لا توجد فى سورية قرية يزيد عدد سكانها على ٢٠٠ أو ٣٠٠ شخص إلا ويوجد بها طرق وشبكات طرق بين المحافظات هى (أوتوسترادات) تتوافر فيها كل المواصفات الدولية والكهرباء منتشرة فى الريف والمدينة على السواء .

وفى عهد الرئيس حافظ الأسد تطور استهلاك الكهرباء تطورا كبيرا جدا ، وأصبح هناك وحدات كبيرة جدا لتوليد الكهرباء ، بالاضافة الى سد الفرات الذى يمدها بكهرباء تصل إلى ثمانية وحدات ، وفى سورية نهضة لا تعتمد على الجهود الحكومية فحسب وإنما أيضا على الجهود الذاتية ، وأى باحث اقتصادى يرى أن سورية بلد من بلاد العالم الثالث التى تعد نسبة المديونية فيها متدنية جدا قياسا على دورها الدفاعى ، وواجباتها التى تقوم بها فى خدمة المجتمع ، وتقدر هذه النسبة إذا قيست بدول أخرى أقل مديونية ، وأقل فى عدد السكان ، سواء كانت هذه الدولة عربية ، أو افريقية ، أو آسيوية ، أو فى أمريكا اللاتينية ، كذلك فقد تجلت الوحدة الوطنية بعد الحركة التصحيحية فى أروع صورها فى عهد الرئيس حافظ الأسد بحيث انه فى كل قرية مجلس محلى ، وفى كل قرية تمثيل للفلاحين إذا كانت هناك قرى تعتمد على الزراعة أو التعاونيات ، وهناك مجالس فى كل حى وفى كل قرية وفى كل مدينة منتخبة انتخابا شعبيا ..

الشىء المهم من هذا كله أن سورية أصبحت وفى عهد الرئيس حافظ الأسد قوة اقليمية .. فى الماضى لم يكن لسورية دور يذكر فى الشرق الأوسط ، بعد الحركة

التصحيحية استطاع حافظ الأسد بحكمته وقيادته التاريخية أن يجعل من بلاده احدى الدول الاقليمية البارزة سياسيا ، واقتصاديا فى منطقة الشرق الأوسط .

من المؤكد ان بصمات الحركة التصحيحية فى كافة المجالات لا يمكن حصرها ، يكفى أن نقول أن كل المدن أعيد تنظيمها بشكل يحقق أروع صور المواءمة بين الأصالة ، والمعاصرة ، ويكفى أن نقول ان مدنا كثيرة مثل مدينة الثورة على سد الفرات لم تكن موجودة ، ووجدت بعد الحركة التصحيحية وأن بيوت القرى تجددت ، وأصبحت بيوتا صحية ، بكل المواصفات ، بيوتا لا تخاصم التطورات الحديثة .

والانسان السورى اصبح مستواه الصحى والتعليمى جيدا بالقياس الى العديد من الدول النامية ، نتيجة تطور الخدمات وامتدادها الى مختلف المناطق.وهذا له انعكاساته الايجابية على عملية التنمية بصورة عامة لأن الانسان الصحيح البنية قادر على الانتاج والعطاء بصورة افضل ، والانسان المسلح بالعلم وتقنيات العصر قادر على رفع قيمة الانتاج ومضاعفته وابتكار الاساليب الافضل فى تطوير العملية الانتاجية .

باختصار فإن الجميع سواء كانت الدولة ، أو المواطنون يشاركون فى عملية التنمية الشاملة ، إن قانون الاستثمار الأخير فتح الباب واسعا أمام الراسمال السورى والعربى للمشاركة فى التنمية الاقتصادية ، وهذا القانون يبشر بأن المليارات سوف توظف فى خدمة التنمية ، ولا نقول العشرات ، بل المئات من المشاريع ستقام فى سورية، وتلك فرصة لتشغيل اليد العاملة ، والحد من البطالة التى تتعرض لها العديد من الدول ، ولو تجول المرء فى الأسواق السورية ، وتابع ما تنشره ، وتذيعه وسائل الاعلام حول المنشآت الاقتصادية ، والمنتجات التى يعلن عنها فى سورية لأحس الى اى مدى تطورت سورية فى هذا المجال .

الوضع الاقتصادى تطور بشكل ملموس والليرة السورية تتمتع برصيد من الثقة لبعدها عن الاهتزازات ، وكل الحاجات التى يرغب فيها المواطن تعرض فى السوق ، والخط البيانى الاقتصادى فى تقدم مستمر.

ملامح واتجاهات أساسية

السياسة الاقتصادية الناجحة هى التى لا تبتعد عن أرض الواقع حتى لا تكون خيالية ، وحتى لا تنجم الكوارث ، والأزمات الاقتصادية المعروفة ، ولدى حزب البعث ايمان ، واصرار على أن الديمقراطية الحقيقية ، وفكرة العدالة يجب أن تتحقق ، وبشكل سليم .. فيما يتعلق بهذا الشعار وجد الحزب انه ورث شركات كان يمتلكها رأسماليون فى السابق ، وخلال مرحلة التأميم التى تمت فى عهد الوحدة بين سورية ومصر ، وبعد ثورة

الثامن من آذار/مارس وبالنسبة للشركات التى تركها اصحابها أممت وكان وضعها حتى عند التأمين غير سليم ، أى عليها ديون كبيرة للمصارف وللدولة .. وعندما اممته هذه الشركات اصبحت تشكل قاعدة القطاع العام وكانت قيمة الاستثمارات فى الصناعة لا تتجاوز عند التأميم ١٢٥ مليون ليرة سورية ، ولو أخذنا بسعر الدولار الموجود فى عام ١٩٦٣ وما بعد ١٩٦٥ فإن هذه المصانع المؤممة لم تكن تشكل أكثر من أربعين مليون دولار أو خمسين مليون دولار فى القيمة الثابتة لليرة السورية آنذاك .

وإذا نظرنا الآن الى قيمة القطاع العام فى سورية بعد الحركة التصحيحية سنجد انها بعشرات المليارات من الدولارات ، والقطاع الخاص فى أى بلد لا يستطيع أن يعبىء مدخرات تمكنه من قيادة النمو فيها .. وفى سورية الآن مصفاتان لتكرير البترول ، واحدة طاقاتها التكريرية خمسة ملايين طن ، والثانية ستة ملايين طن ، أى ان تكلفتها الآن ملايين الدولارات .. وكيف يستطيع القطاع الخاص السورى أن يصنع مؤسسات تكرير ؟ بالطبع لا يستطيع ، معامل السماد الآزوتى تُكَلِّف مئات الملايين من الدورات ، ولا يستطيع القطاع الخاص تمويلها ، ولا تستطيع مدخراته ان تؤسس لقيام صناعة مثل هذه الصناعات ، وكذلك الحال بالنسبة لمعامل مثل السوبر فوسفات والورق ، والحديد ، والصلب .

القطاع الخاص لا يستطيع أن يعبىء مدخراته لكى ينهض بمثل هذه الصناعات سواء كانت صناعات أساسية أو صناعات تحويلية كبيرة، وهو دائما يحجم عن الدخول فى صناعات مثل اقامة الطرق ، أو الخطوط الحديدية ، ولا مناص من أن تقوم الدولة بهذه المشاريع لكى تستطيع أن تختصر الزمن ، وهذا الأمر ليس مقصورا على سورية ، بل هو موجود فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة .. الخ .

الرأسمالية فى معناها المجرد انتهت بعد الكساد العظيم فى عام ١٩٣٣ ، وظهور نظرية (كينز) التى تعطى الدولة حق التدخل فى الاقتصاد ، وفرانكلين روزفلت فى فترة ما بعد الكساد لجأ الى التدخل الحكومى الكبير لمواجهة الكساد ولبناء الاقتصاد الأمريكى ، وفى بريطانيا سواء فى حكومات حزب العمال ، أو حزب المحافظين كانت الصورة مشابهة لتأمين قيام جميع الصناعات البريطانية ،وفى فرنسا يوجد قطاع عام كبير يمتلك الكثير من المؤسسات الاقتصادية الكبيرة .. القطاع العام اذن ليس وقفا على الدول الشيوعية ، وسورية بعد الحركة التصحيحية لم تقف عند حدود القطاع العام الذى أُمم فى فترات التأميم لأسباب سياسية ، وانما أقامت قطاعا عاما قويا يشكل عمودا أساسيا للنهوض الاقتصادى من خلال انشاء البنية التحتية ، حيث أقامت شبكات الطرق وشبكات الكهرباء ومؤسسات للتعليم ، ومؤسسات للصحة ، وانفقت عليها مليارات الدولارات ، وعندما وقفت لتتأمل مسيرتها وجدت ان هناك بعض الصناعات الاستهلاكية

لصناعة الأحذية ، أو الصناعات الغذائية يمكن أن ينهض بها القطاع الخاص بصورة أفضل فأفسحت المجال للقطاع الخاص للدخول فى هذه المجالات ، وأقام القطاع الخاص صناعات اعتمدت على الموارد الأولية الموجودة داخل القطر .

ثم انتقلت بعد ذلك الى مجال آخر وهو قطاع الزراعة .. وجدت أن الفلاح يتمسك بأرضه وينتج ، فتركت القطاع الزراعى خاصا ٩٧٪ ولم تتدخل الدولة إلا بوحدات ارشادية نموذجية لكى يتعلم الفلاح كيف ينجح فى استعمال البذور المحسنة مثلا ، وكيف يزيد محصوله اذا لجأ الى مكافحة الآفات ، وكيف يزيد ثروته الحيوانية اذا استعمل التلقيح ، واعتمد على الصحة البيطرية .. الى آخر هذه الأمور ، وهكذا ترك القطاع الزراعى والصناعات المتعلقة به للقطاع الخاص بنسبة كبيرة. ثم وجدت سورية فى ظل الحركة التصحيحية انه لابد من تضامن جهود الدولة لحماية القطاع الخاص من المحتالين أو شركات الأموال التى تدعى انها تحاول أن تستزيد من استثمارات الناس ، لأن الفرد الذى يدعى انه يستثمر أموال الناس اذا لم توجد عليه رقابة الحكومة قد يطيح باستثمارات صغار المستثمرين ، وقد يتسبب فى افلاسهم ، ولذلك وحتى تعطى الثقة للفرد المدخر صدرت القوانين التى تتيح للدولة أن تكون مساهمة فى شركات القطاع الخاص بنسبة ٢٥٪ ، ولذلك أيضا أنشأت قطاعا مختلطا بدأ فى قطاع السياحة والفنادق حيث تملكت الدولة نسبة ٢٥٪ والقطاع الخاص ٧٥٪ ، وقدمت التسهيلات ، والاعفاءات الضريبية ، وما الى ذلك .

ثم وجهت اهتماما كبيرا لاستصلاح الأراضى الزراعية من خلال استخدام الآلات الزراعية ، وأقامت ندوات كثيرة ، وأعطت الأراضى للشركات الزراعية الاستثمارية واعتبرت الأرض جزءا من رأس المال الخاص الذى تساهم به الدولة ، وقدمت التسهيلات ، ولدى سورية شركات عديدة للاستثمار الزراعى .. تزرع الحاصيل .. وتربى الحيوانات ، وكل ما يمكن أن يخدم الاقتصاد السورى ، ثم تطورت أكثر ، فأصدرت قانون الاستثمار رقم ١٠ الذى أعطى للمستثمر العربى والسورى امكانيات كبيرة للاستثمار حيث أعفته من الضرائب لمدة قد تصل الى سبع سنوات لا تحصل خلالها **أية ضرائب على الاطلاق ، كما أعفت جميع وسائل الاستثمار التى تستخدم فى المشاريع الاقتصادية من الرسوم الجمركية ، وتكفلت الدولة بكل ما تحتاج اليها المشاريع الاستثمارية من كهرباء ، وماء ، وطرق ، كل هذه تتحملها الدولة ، ويشمل الاستثمار** صناعات ، وخدمات ، وسياحة .

اذن التعددية الاقتصادية التى وجه بها الرئيس الأسد صيغة تتناسب مع الواقع الذى تعيشه سورية ، ويعيش فيه اقتصاد الدولة ، **ومن جهة ثانية** وضعت القوانين السورية الضمانات التى تلزم المشروع بأن يحقق كفاية انتاجية عالية ، ويحقق ربحا

حقيقيا لا صوريا ، أو وهميا ، وقالت : إن الدولار يحسب بقيمته الحقيقية حتى لا تكون الأرباح وهمية ، وشجعت على التنافس حتى يكون المجال متاحا للمستهلك للمفاضلة ، واختيار السلع الأفضل ، وزيادة مجالات التصدير ، وتحاول سورية دائما أن تصلح من سلبيات العمل ، وتشرك ما أمكن معها في هذا المجال غرف التجارة والصناعة ، لأنها الغرف الأكثر خبرة ، والتعاون وثيق بين كافة أجهزة الدولة سواء كانت أجهزة استيراد ، أو تصدير ، أو بنوك ، أو جمارك حتى يمكن الوصول الى الغاية المثلى .

ودائما يشير الرئيس الأسد الى ضرورة المراجعة للقضاء على كل سلبيات أو أخطاء تبرز خلال العمل ، ولكى تتطور التجربة نحو الأفضل .

بالاضافة الى ذلك فإن في سورية شركات عربية مشتركة ، وهناك شركات أيضا أنشأتها المنظمات المتخصصة المنبثقة عن الجامعة العربية ، وهناك مشاريع مشتركة كثيرة بين سورية ومصر وليبيا منذ قيام اتحاد الجمهوريات العربية (المصرف التجارى العربى - شركة النقل البرى) وهناك أيضا شركات أردنية سورية مشتركة .

ومن المؤكد أن حسن إدارة ، وقيادة ، وحكمة الرئيس الأسد جنبت سورية الكثير من المشاكل الاقتصادية ، وكان شعار الرئيس الأسد دائما هو الاعتماد على الذات ، ونتيجة لتطبيق هذا الشعار لم تلجأ سورية الى القروض الكبيرة التى كان يمكن أن يشكل تسديدها عبئا على الاقتصاد القومى على الرغم من أن سورية دولة مواجهة تخصص جزءا كبيرا من مواردها للدفاع ، لأنها دولة مهددة بالعدوان الدائم من جانب اسرائيل ، **ولكن الرئيس حافظ الأسد حينما اختط لنفسه سياسة وطنية قومية** ، كان يستلهم ما لدى شعبه ، وما لدى أمته من طاقات ، وامكانيات ، بمعنى ان القطر العربى السورى بحيوية شعبه ، وبايمانه برسالته ، وبايمانه بقائده فَجرَّ امكانيات للاصرار على التحدى ، والبقاء ، مما جعل هذا الشعب الصغير يصمد أمام تحديات لم يواجهها شعب مثله في التاريخ .

يكفى أن نشير الى منذ عام ١٩٦٧ تعرضت سورية الى عدد من الحروب واستطاعت في عام ١٩٧٣ أن تخوض حربا تحريرية بعد سنوات قليلة من العدوان الاسرائيلي وأن تبنى جيشا حديثا ، وشعبا يقف في جبهة متراصة وراء جيشه الوطني ، وان يحقق ما حققه من انجازات بالتنسيق ، والتعاون المشترك مع مصر في عام ١٩٧٣ .

وبعد وقف اطلاق النار في عام ١٩٧٣ ظلت سورية تقود بكل البسالة وعلى امتداد أربعة أشهر كاملة حرب استنزاف ضارية تحملتها حتى تم توقيع اتفاقية فصل القوات على الجبهة السورية عام ١٩٧٤ ، وفي عام ١٩٧٦ قامت الحرب الأهلية في لبنان حيث وجدت سورية نفسها مدفوعة بالاخاء العربى ، وبما طلبه أشقاؤها في لبنان رئيسا ، وحكومة ،

وشعبا ، وكذلك اشقاؤها العرب من خلال جامعة الدول العربية أن تضع جزءا كبيرا من جيشها تحت تصرف لبنان الشقيق ، ومازالت هذه القوى موجودة هناك حتى الآن ، وقد تكلفت سورية الكثير من أجل الحفاظ على عروبة لبنان ، ووحدة أراضيه ، ودرء الخطر عنه . وفى عام ١٩٨٢ خاضت سورية حربا حقيقية ضد اسرائيل فى لبنان وقدمت تضحيات كبيرة للحفاظ على وحدة لبنان ارضا وشعبا ومؤسسات . **ومع ذلك استطاع هذا القطر بقيادته الحكيمة أن يصمد فى وجه التحدى** ، وأن يصمد أيضا فى الحرب الداخلية التى بلغت ذروة تآمرها فى بداية الثمانينات ، واستمرت منذ بداية ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨٣ ، وكلفت سورية الكثير ، ورغم ذلك صمدت سورية بقوة بقيادة **الأسد** **كذلك فان سورية تعرضت للحصار الاقتصادى .. تعرضت للمقاطعة .. بل تعرضت** لرفض الدول اعطاءها القروض ، أو التسهيلات الائتمانية، ومع ذلك فإن عظمة الشعب السورى ، وعظمة القائد مكنت من الانتصار على التحدى الاقتصادى بالدرجة نفسها التى تمكنت بها من الانتصار على التحدى السياسى .

وتظل الحاجة ماسة الى ضرورة دراسة خصوصية العلاقة القائمة بين الحاكم ، والمحكوم فى سورية ، وكيف استطاع الرئيس الأسد أن يجعل من سورية ذات الامكانيات المحدودة دولة اقليمية يحسب لها حساب ، ويكون لها وجود اقتصادى ، ووجود سياسى ، وحضارى ، فضلا عن وجودها الأمنى فى المنطقة .

أبعاد مرحلة الانفتاح

عندما نتساءل عن أبعاد المرحلة الراهنة التى يمر بها الاقتصاد السورى الآن نستطيع القول بأنه من خلال التعددية الاقتصادية ، ومن خلال القانون أصبح لكل قطاع من هذه القطاعات نصيبه فى التنمية دون افتئات ، أو تجاوز ، أو محاولة التضييق على قطاع من هذه القطاعات ، فالقطاع العام فى المسائل الاستراتيجية التى تهم كل مواطن ، سواء فى مجال الانتاج ، أو فى مجال الخدمات .. والدولة تتحمل نصيبها فى هذا الاتجاه لصالح المواطن ، ولصالح هذا الخط سواء كان بالنسبة للمسائل الأساسية التى تهم المجتمع ، والبلد من جهة ، وتهم المواطن ، والشرائح الاجتماعية من جهة أخرى .. فى القطاع العام يأخذون نصيبهم من الرعاية ، ومن ايجاد الفرص ، ومن اقامة المشروعات التى لا يُقْبل عليها القطاع الخاص الذى يميل أحيانا للربح السريع .

فى القطاع العام ينظرون الى مصلحة الوطن ، والمجتمع ، والمواطن ، فتتحمل الدولة نصيبها فى اقامة المنشآت الاقتصادية الصناعية والخدمية ذات الصفة الاستراتيجية ، فى

الوقت نفسه **فإن القطاع الخاص يأخذ نصيبه كاملا فى العمل ، وفى حماية القانون** ، ودون تعارض بين القطاعين العام ، والخاص ، أو القطاع المشترك الذى يقوم بمشاريع اقتصادية كبيرة وواسعة سواء فى الزراعة بفروعها المختلفة ، أو فى مجال الثروة الحيوانية ، والنقل ، والسياحة . **والقطاع الخاص يأخذ نصيبه فى العمل** ، واقامة المنشآت الاقتصادية ، أو الخدمية الى جانب القطاع العام ، والقطاع المشترك ، ونجد الآن أن القطاع العام يتعامل مع الزراعة ، وأيضا القطاع الخاص ، والقطاع المشترك يتعامل مع النقل كما يتعامل معه القطاع الخاص ، وهكذا فى السياحة ، وفى كل مرافق الحياة العامة ، والخدمة العامة يساهم أيضا القطاع التعاونى فى مجالات النقل والاسكان كما يساهم القطاع العام فى مجالات السكن ..

إذن فإن كل القطاعات تساهم فى التنمية الاقتصادية ، وتجد جميعها من الدولة التسهيلات الكاملة كى تصل هذه القطاعات الى أهدافها ، وفى حدود السعر المعقول ، وقد أدت هذه المنافسة بين هذه القطاعات الى تحسين الانتاج ، وتحسين النوعية ، وتخفيض الأسعار لأن كل قطاع من هذه القطاعات يريد تصريف منتجاته ، وتصريف هذه المنتجات يحتاج الى نوعية جيدة ، ويحتاج الى سعر ملائم . ولو دققنا النظر فى الأسعار فى سورية ، وفى البلاد المجاورة لوجدنا ان هناك فارقا كبيرا فى الأسعار لصالح المواطن ، وربما أحيانا تتميز النوعية السورية حيث نجد فى بلدان مجاورة أكثر سعرا ، وأقل جودة ، هذه السياسة التى سارت عليها سورية منطلقة من الفكر السياسى ، والاقتصادى للرئيس حافظ الأسد حققت النتائج المرجوة لخير البلد ، والشعب .

الهـزات الاقتصادية

الشىء المبهر فى تجربة سياسة التعددية الاقتصادية أن سورية لم تتعرض لهزات اقتصادية بالرغم من حالة الحرب التى تعيش فيها ، وهذا يعود إلى قوة الاقتصاد السورى بالدرجة الأولى ، ويعود أيضا إلى تعدد الموارد الطبيعية ، ويعود كذلك إلى وجود اقتصاد قومى قوى ، وتعدد الموارد الطبيعية لأن سورية فى مسارها الاقتصادى تنطلق من فكر سياسى واضح ، ومتميز ، أرسى دعائمه الرئيس الأسد ، وهذا الفكر أيضا عبر عن سياسة اقتصادية واضحة فى هذا الاتجاه ، أى أن سورية تسير لتحقيق التنمية الشاملة ، وتحقيق عدالة التوزيع تحقيقا للعدل الاجتماعى ، وحفاظا على توازن المجتمع فى ظل مناخات من الحرية والديمقراطية .

وهذه التجربة السورية تجربة متميزة استطاع فيها الرئيس حافظ الأسد أن يخلق توازنا رائعا بين السعى لتأمين لقمة العيش ، ومناخ الحرية ، والديمقراطية ، والتنمية الشاملة ، وقوة العمل فى المجتمع فى توازن لا يؤدى إلى افتئات جانب على

جانب اخر، كل هذا مكن من أن تتحقق التجربة بوضوح فلم تخنق الحرية ، والديمقراطية تحت شعار تأمين العيش ، ولم يعط الضمان للحرية ، والديمقراطية على حساب رغيف العيش، وكرامة عيش المواطن .

هذا التوازن الرائع الذى حافظ على التقدم من جهة ، وعلى توازن المجتمع من جهة أخرى فى ظل الحرية ، والديمقراطية ، وفى ظل نسيج متكامل هو الذى مكن سورية من أن تحقق تقدما اقتصاديا ، وايضا ثباتا إقتصاديا لم يعرض الاقتصاد السورى ، أو العملة السورية للاهتزاز ، وللاختناقات التى تعرضت لها دول كثيرة .

المسافة بين فئات المجتمع متقاربة فى سورية . بين من لديه ثروة ، ومن ليست لديه ثروة ، كل منهما يستطيع العيش فى سورية ، ويجد الفرصة متاحة للعمل ، ولتحقيق العيش الكريم ، وفى الحدود المعقولة ، سواء كان عاملا يدويا أو غير يدوى .. المسائل الاستراتيجية تناولها القطاع العام لأنه لا يُقْبل عليها القطاع الخاص مثل مصانع الحديد ، والصلب : والتى لا يمكن لغير الدولة أن تفكر فى إقامة مثل هذه المصانع ، ولأن فى القطاع الخاص ، أو المشترك يُؤْثرون إقامة المشاريع الشريعة ، وغالبا الاستهلاكية .

حقيقة أن القطاع الخاص يحقق تقدماً ماديا للمجتمع ، ويؤدى خدمات ضرورية ، ولكنه فى المقابل يحقق ربحا ، أما المسائل الاستراتيجية ، أو المسائل المفصلية فى حياة المجتمع لا يمكن أن يتولاها إلا القطاع العام ، ولكن الموضوع ليس على إطلاقه ، القطاع العام فى سورية كما فى كل البلاد التى أخذت بالتوجه الاشتراكى يتعرض أحيانا لبعض السلبيات كأن تصبح حسابات التكلفة فى أى مصنع غير متوازنة بسبب وجود عدد كبير من العمال فى هذه المنشآت الاقتصادية ، وفى الوقت الذى تؤكد فيه سورية على ضرورة الحفاظ على دور القطاع العام واهمية هذا القطاع إلا أنها باستمرار تسعى إلى تحسينه ، وإدخاله ضمن المفاهيم العلمية ، والعصرية للإقتصاد ، وتحفظ له توازنه .

القطاع الخاص كما ذكرنا من خلال تحسين إنتاجه ، ونوعية هذا الانتاج ، والقطاع العام ، والقطاع المشترك حققوا نوعا من المزاحمة أدى إلى إستقرار السعر ، وتحسين نوعية الانتاج وكثيرا ما أشارت ندوات دولية كتلك الندوة التى أقيمت فى القاهرة حول (الجنوب إلى أين .. سياسيا واقتصاديا) ، وهى الندوة التى شارك فيها ممثلون عن دول الشمال ، تكررت الإشارة إلى أهمية التجربة السياسية ، والاقتصادية السورية فى دول العالم الثالث ، وفى دول الجنوب ، وكيف إنها تجربة جديرة بالدراسة خاصة بعد التحولات الكبيرة التى يشهدها العالم الآن ، والتى كانت لها انعكاساتها على تجارب كثيرة خاصة بعد الإنهيار الذى حدث فيما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى ، وفى دول أوربا الشرقية ، فى سورية يسود التكامل بين القطاعات الإقتصادية ، والإنعكاسات

الإجتماعية ، وتفاعل قوى المجتمع سواء كان فى دائرة ما يسمى باليمين ، أو اليسار ، هذا التفاعل السياسى ، والإجتماعى الذى تشهده سورية بين هذه القوى يعبر عن تحالف حقيقى بين الشعب العامل ، والمنتج ، والذى ينعكس خيرا ، وبناء على صالح المجتمع العربى ، والسورى فى جوانبه السياسية ، والإقتصادية ، والتنموية الشاملة .

التجربة السورية نجحت أيضا إلى جانب هذا فى الاستفادة من القطاع المغترب فى دعم الاقتصاد السورى ، والمغتربون السوريون عددهم بمئات الآلاف ، والمغتربون حققوا نجاحات إقتصادية فى وطنهم الثانى ، والعديد منهم مغتربون فى عواصم عربية وعواصم عالمية ، واستطاعوا أن يحققوا من خلال مشاريعهم ثروات هائلة يمكن أن تفيد وطنهم الأصلى ، وتحقيقا لهذا الهدف صدر فى سورية ، وبتوجيه من الرئيس الأسد قانونا للمغتربين يسهل لهم العودة إلى بلادهم ، والاستفادة من ثرواتهم التى حققوها هناك لكى يوظفوها فى وطنهم الأم ، ولكى يحولوا أموالهم إلى البلد ، وهناك إغراءات كثيرة نص عليها القانون خاصة بالمغتربين ساعدت فى جذبهم سواء كانت تتعلق بالآليات الزراعية ، أو وسائل النقل ... إلخ .

وبتوجيه من الرئيس حافظ الأسد فإن الباب مفتوح لهؤلاء المغتربين لأن يعودوا إلى بلدهم ، ويساهموا فى تنميته ويعززوا اقتصاد بلدهم ، والقانون السورى يحمى ثروة هؤلاء ، ويحقق الضمانات التى تجعل كل مغترب مطمئنا إلى أن ثمار الجهد الذى بذله لن يضيع . والواقع أن المغتربين السوريين سواء فى الولايات المتحدة أو دول أوربا أو استراليا ، أو أمريكا اللاتينية ، أو آسيا ، أو غيرها .. حققوا نجاحات مبهرة فى هذه البلدان ، بل أن بعضهم يشغل وظائف رسمية جيدة ومنهم الوزير ، ومنهم المحافظ ، ومنهم مدير البنك ، ومنهم النائب ، ومنهم أصحاب منشآت اقتصادية ناجحة ، والقانون الذى وضع بعد الحركة التصحيحية يرحب بكل هؤلاء ، وقد عاد بالفعل عدد كبير منهم ليساهموا فى تنمية بلادهم مستفيدين من القوانين الجديدة التى يسرت لهم العودة ، ويسرت لهم المساهمة فى تنمية اقتصاد المجتمع السورى .

مستقبل الاقتصاد السورى

خلاصة القول أن الاقتصاد السورى يتطور بثقة على أسس علمية بعيدا عن العشوائية ، وفى إطار تخطيط ، وبرمجة ، ومبادرة فردية ، أى أن هذا الاقتصاد يجمع بين الامرين فى سورية .. الاقتصاد المبرمج للمسائل الاستراتيجية التى تهم المجتمع ، ويعطى للمبادرة الفردية حقها فى أن تسهم فى التنمية الاقتصادية لأنه فى ظل القانون الذى يحمى القطاع الخاص ، والقطاع العام ، أو القطاع التعاونى ، لكل قطاع نصيبه فى تأسيس الاقتصاد السورى ، ولدى سورية فى هذا المجال خبرات اقتصادية جيدة ،

ونوعيات علمية متخصصة تتحمل مسئولياتها فى اللجان الاقتصادية فى ظل القرار السياسى الموضوعى القائم على فكر استراتيجى ، وشمولى للرئيس حافظ الأسد بالتعددية السياسية ، والاقتصادية ، وفى ظل مساهمة كافة القوى السياسية ، والشرائح الاجتماعية لأن تقول رأيها فى مسيرتها الاقتصادية لأن فى تداول الآراء ومناقشتها ، ومشاركة الجميع فى البناء تحقيق التقدم ، والاستقرار المنشود ، وتجنب المفاجآت التى تتعرض لها بعض البلدان نتيجة عدم وجود سياسة اقتصادية مدروسة ، ومعروفة سلفا .

الزيادة الهائلة فى السكان

سورية كغيرها من الدول التى تعانى من الزيادة الهائلة فى عدد السكان ، والواقع انه بعد أن تحسنت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، والصحية فى أعقاب الحركة التصحيحية ، وما تقدمه الدولة من رعاية كبيرة فى مجالات العلم ، والصحة ، والخدمات قلّت إلى حد كبير نسبة الوفيات ، ولكن بالمقابل ازدادت نسبة الانجاب ، وتكاد الآن نسبة الزيادة فى سورية أن تكون من النسب العالية فى العالم ، ومما لاشك فيه أن هذه الزيادة تلتهم الكثير من دخل سوية ، ومن النمو الاقتصادى ، وهذه المسألة بدورها تلقى الآن العناية المطلوبة بهدف الحد من التضخم السكانى لانه من المُتصَوَّر انه إذا استمرت هذه الزيادة ، فسوف يصبح عدد السكان عام ٢٠٠٣ ، ٢٠ مليون نسمة وهذا رقم كبير . **وهناك من يقترح من الخبراء أن حل الزيادة السكانية فى الوطن العربى انما يكمن فى تحقيق المزيد من التعاون بين الدول العربية ذات الكثافة السكانية والدول العربية ذات الكثافة فى الموارد وذات المساحات الكبيرة ، وعدد السكان الأقل ،** أى أن قضية الوحدة العربية تشكل حلا ضروريا ، وقوميا مناسبا لهذه المشكلة التى تعانى منها كثير من الدول العربية .

الاقتصاد السورى يمر الآن فى مرحلة انفتاح على طريق التنمية يعتمد كما قلنا إلى حد كبير على القطاع الخاص ، وإعطائه دورا أكبر فى عملية التنمية دون أن ينسى الدور الأساسى للقطاع العام فى هذه العملية .

ويقول الدكتور نبيل سكر الاقتصادى السورى المعروف ، والذى ظل مغتربا فى الخارج لفترة طويلة ، وعاد منذ سنوات ليمارس النشاط الاقتصادى ، وتقديم خبرته للمستثمرين : إن التنافس المبدع بين القطاع العام ، والخاص ، والمشترك سوف تكون له نتائجه فى المستقبل القريب مادامت هذه القطاعات تعطى نفس الحوافز ونفس الامتيازات ، وتعامل معاملة واحدة ، ومادام يوجد دور لهذه القطاعات الثلاثة ضمن إطار عملية التنمية .

ويضيف أن الاقتصاد السورى يسير من حسن إلى أحسن ، لأن الاقتصاد السورى اقتصاد متين لتنوع موارده الطبيعية ، وعدم الاعتماد على قطاع أو مصدر واحد (فلدينا النفط ، ولدينا الزراعة ، والصناعة ، والموارد الكثيرة ، وهذا يساعد على تحقيق التنمية المتوازنة) وهذا هو السبب لعدم تعرضنا لهزات اقتصادية حادة .. صحيح إننا نوجه جزءا من مواردنا نحو الدفاع ، وهذا أمر واجب لحماية الوطن من العدو الخارجى ، **ولكن بالرغم من هذا العبء فإن الاقتصاد السورى إقتصاد مخطط**، والسياسات الاقتصادية التى اتبعناها خلال السنوات الماضية استطاعت أن تجنب سورية الهزمات الاقتصادية العنيفة .. التخطيط الاقتصادى الذى تسير عليه سورية الآن يبتعد عن التخطيط المركزى ويتجه الى التخطيط التوجيهى ، وهو يعطى دورا كبيرا للقطاع الخاص فى التنمية وتدعيم القطاع العام ، وإصلاح بعض سلبياته حتى يستطيع أن يقوم بدوره فى التنمية ، ولكى يكون قطاعا رابحا بمعنى أن يعتمد على أساس الربح أيضا ، وأن يعمل فى جو تنافسى ، وألا يعتمد على الدولة فى كل شىء ، باختصار الجهود تتجه لكى يكون القطاع العام سليما معافى ويعمل على أساس الربح ، والمنافسة ، ودون أن يُكَبِّد الدولة أى خسائر ، كذلك فإن التنافس بين القطاع العام ، والقطاع الخاص ، والقطاع المشترك ، قد أدى إلى نتائج إيجابية كثيرة .

ويضيف الدكتور نبيل سكر : الباب الآن أصبح مفتوحا للقطاع الخاص لكى يعمل فى كافة المجالات فى السياحة ، والزراعة ، والصناعة ، والمزايا التى تعطيها الدولة للقطاع الخاص كثيرة ، وقد صدر مؤخرا قانون الاستثمار وهو القانون رقم (١٠) لسنة ١٩٩١ والذى أعطت الدولة بموجبه للقطاع الخاص المحلى ، والعربى ، والأجنبى امتيازات كثيرة منها الاستيراد دون ضرائب ، ومنها الاعفاءات الضريبية على الدخل ، وهذه الاعفاءات تتغير فيما إذا كانت الشركة قطاعا مشتركا ، أو قطاعا خاصا ، والحافز الأكبر هو أن الجو العام للاستثمار أصبح مهيأ بشكل كبير ، والوضع الاقتصادى جيد جدا ، وهذا الجو فى حد ذاته حافز قوى للقطاع الخاص للاستثمار .

الدولة تشجع التصدير من قِبل القطاع العام ، والقطاع الخاص بصورة كبيرة وتسمح للقطاعين الخاص ، والعام بالاحتفاظ بجزء كبير (٧٥٪) من الناتج فى التصدير للاستفادة منها فى مستلزمات الانتاج ، والاقتصاد ، القطاع الخاص الآن يشغل دورا اقتصاديا اكبر ، وسورية تسير الآن نحو مزيد من التنمية فى القطاعات الخدمية والاستهلاكية دون أن تنسى الدور الأساسى للقطاع العام ، وهو الدور التخطيطى فى المقام الأول إلى جانب المساهمة فى بناء البنية التحتية وفى مجالات الانتاجية ، وعلى أساس أن يعمل القطاع العام على أسس الربح ، والمنافسة مع القطاع الخاص ، والقطاع المشترك .

ويضيف الدكتور نبيل سكر أيضا ان القطاع المشترك فى سورية بين الدولة والقطاع

الخاص ليس جديدا ، وقد بدأ تجربته فى أواخر السبعينات خاصة فى المجال السياحى حيث أقيمت شركتان سياحيتان كبيرتان فى هذا المجال ، وكانتا ناجحتين ، وفى منتصف الثمانينات شجعت الدولة القطاع المشترك فى الزراعة فأصدرت المرسوم التشريعى رقم ١٠ لعام ١٩٨٦ حيث أعطى بعض المزايا للشركات المشتركة التى تقام فى مجال الزراعة ، وأقيمت فعلا شركات ناجحة تعمل بشكل جيد ، وتتمثل مشاركة الدولة عادة فى تملك ٢٥٪ من رأس مال المشروع ، ويمتلك القطاع الخاص (الحصة الأكبر ٧٥٪) ، ويقوم القطاع الخاص بإدارة هذه الشركات المشتركة ، وهذه هى الصيغة التى تسير عليها سورية الآن ، وقد بدأت تقام مشاريع فى القطاع المشترك فى الصناعة فى ظل القانون رقم ١٠ لعام ١٩٩١ ، وهو قانون الاستثمار .

وبشكل عام فإن قانون الاستثمار الذى تم اصداره عام ١٩٩١ أعطى نفس الحوافز للمستثمر المحلى ، والعربى ، والأجنبى ، وشمل قطاعات الزراعة ، والصناعة ، والنقل بشكل أساسى ، ولكن يمكن أن تقام مشاريع أخرى خارج هذه القطاعات الثلاثة اذا وافق عليها المجلس الأعلى للاستثمار .

وقد أقيمت بالفعل عدة مشاريع منذ عام ١٩٩١ عند اصدار هذا القانون ، ولازالت طلبات المشاريع تتوالى على المجلس الأعلى للاستثمار ، ومن المؤكد انه مع مزيد من التوضيح فى هذا التوجه الجديد ستتضاعف المشاريع التى تقام فى المجالات الزراعية ، والصناعية وسيتضاعف عدد المستثمرين العرب ، والأجانب لأن الموارد فى سورية كثيرة ، والجو العام مهيأ للاستثمار .

فلسفة الأسد

فلسفة الرئيس الأسد فى التنمية تعطى القطاعات الثلاثة كما اشرنا دورا كبيرا فى الاقتصاد ، وقد حقق الشعار الذى رفعه الرئيس حافظ الأسد شعار التعددية الاقتصادية نتائج باهرة .

والرئيس حافظ الأسد يحرص على أن يكون لكل قطاع دور فى هذه العملية ، هذا منطلق أساسى من منطلقات الفلسفة الاقتصادية فى الوقت الحاضر ، والتعددية الاقتصادية تعنى انه يوجد أكثر من قطاع واحد له دور أساسى فى الاقتصاد ، أى تعدد القطاعات المشتركة فى عملية التنمية .

ولاشك ان سورية التى تضم موارد كثيرة ، ومتنوعة ، والتى لا تعتمد على مورد واحد حيث النفط ، والزراعة ، والصناعة الى جانب اليد العاملة المدربة ، ورواد الاقتصاد ، فى ظل هذه الموارد والامكانيات ، **وفى ظل التوجه لزيادة الانتاج ورفع سويته ومردوده سيكون**

المستقبل مشرقا، ومأمولا، لكن المشكلة الأساسية التى ستواجه سورية فى المستقبل هى الزيادة السكانية، فالسكان كما قلنا ينمو عددهم بنسبة ٣٫٧٪ سنويا، وهى نسبة عالية جدا، ومعنى ذلك انه يجب ان تنمو سورية اقتصاديا بسرعة، وبمعدل أعلى من معدل النمو السكانى، ولكى تتحقق هذه التنمية المرتفعة يجب تجنيد كل الطاقات لعملية التنمية، وهذا ما يشرف عليه الرئيس حافظ الأسد الآن، ويتابعه بشكل يومى الى جانب الاستفادة من القطاع المغترب، وامكانياته البشرية، والمالية للمساهمة فى تحقيق معدل النمو الذى يفوق معدل النمو السكانى.

فى سورية يدركون حجم التحديات الأساسية التى تواجههم فى عملية التنمية، وفى عملية التطور، ويضعون الحلول التى تكفل التصدى لهذه التحديات، التى تتمثل فى: ضرورة الانفتاح على القطاع الخاص، واعطائه دورا أكبر فى التنمية دون أن يؤدى هذا الوضع الى خلق تفاوت فى الدخول، أى يقومون بتوسيع دور القطاع الخاص، ويحافظون فى الوقت نفسه على اعطاء الفرص المتكافئة للجميع، وعدم ظهور مظاهر للتفاوت الكبير فى الدخل، وعدم بروز الاحتكارات الكبيرة، ويحاولون قدر جهدهم توسيع قاعدة الملكية فى القطاع الخاص، وعدم تمركز الثروة فى أيد قليلة.

والتحدى الثانى، الذى يسيرون فيه بنجاح واضح هو القيام بعملية اصلاح القطاع العام لكى يكون قطاعا رابحا، ومنتجا، وتتم عملية نقل العمالة الفائضة الموجودة فى القطاع العام نحو القطاعات المنتجة، ويُوجِدون لها فُرَص عمل منتجة .. صحيح ان هذه العملية صعبة، وصحيح انها تتطلب وقتا طويلا، ولكنها تجرى فى سورية بنجاح واضح، والى جانب عمليات الاصلاح هناك أيضا مجالات التدريب المستمرة، ومواكبة التطورات التقنية الحديثة، والملاحظ فى التجربة السورية انها نجحت فى منع التضخمات المالية التى تنتج عادة من الانفتاح، والخطة السورية فى اصلاح القطاع العام، ومواجهة عملية العمالة الفائضة، ومشكلة التضخم المالى أعطت القطاع العام حريته، واستقلاليته فى اتخاذ القرارات، وفى العمل المربح، والمجدى، ولكن فى ظل الحفاظ على حقوق الشريحة العمالية.

الاعتماد على الذات وماذا حقق ؟

منذ السنوات الأولى لتوليه دفة القيادة أطلق الرئيس الأسد شعار (الاعتماد على الذات) الذى أصبح القاعدة الأساسية فى صلب الخطط الخمسية التى حققت تطور الانتاج بقدر كبير فى مختلف القطاعات الزراعية، والصناعية، والعمرانية، وكما يؤكد المهندس محمود الزعبى رئيس مجلس الوزراء فإن قاعدة الاعتماد على الذات حققت

بتوجيهات الرئيس حافظ الأسد الكثير من النتائج الايجابية على مسيرة الاقتصاد الوطنى خلال السبعينات ، والثمانينات .

وأشار السيد الزعبى الى ان الحكومة السورية وضعت برنامجا للأولويات فى اطار خطة شاملة للنهوض بالانتاج الوطنى ، وخاصة فى قطاعى الصناعة ، والزراعة اللذين شهدا نهضة كبيرة فى السنوات الأخيرة .

وحدد السيد الزعبى المحطات الرئيسية فى تطور حركة الاقتصاد الوطنى على النحو التالى :

*** من المهم فى هذا المجال أن أقدم صورة واقعية للوضع العام على الصعيد الاقتصادى الذى عملت الحكومة خلال الفترة الماضية على تطويره** ، وعلى تجسيد مقررات مؤتمرات الحزب ، وخصوصا مقررات المؤتمر القطرى الثامن ، وعلى تنفيذ توجيهات السيد الرئيس حافظ الأسد ، ومتابعة الأهداف التى رسمتها الحكومة فى بيانها الوزارى ، وقد كان أول هدف للحكومة هو اعطاء الأولوية للزراعة ، والاستثمار الزراعى ، وجعل هذه الأولوية معززة بالوقائع التى تجعل من الزراعة العمود الفقرى للاقتصاد الوطنى .

* لقد جرى فى هذا الاتجاه حشد لجميع الطاقات ، والامكانات العاملة فى الميدان الزراعى ، وانصب الاهتمام على توفير مستلزمات الانتاج الزراعى فى أوقاتها ، وبكمياتها المطلوبة ، وشهد عام ١٩٨٨ وعام ١٩٨٩ تركيزا على توفير هذه المستلزمات بصورة شاملة ، وكان هذا يتطلب اصدار الخطة السنوية الانتاجية بصورة مبكرة لتكون الرؤية واضحة ، والمهام محددة ، والأهداف مرسومة ، والجهود محشودة فى القطاع الزراعى ، وكان هذا أيضا يتطلب تطويرا أفضل لتمويل الفلاحين ، والمزارعين بالقروض التى تساعدهم على مضاعفة أعمالهم ، واستثمارهم .

وبمراجعة بسيطة لسقوف القروض التى قدمها المصرف الزراعى التعاونى يتبين لنا انها كانت فى عام ١٩٨٠ لا تتجاوز مبلغ ٤٥٠ مليون ليرة سورية فى حين انها أصبحت فى عام ١٩٨٨ بما يعادل أربعة مليارات ليرة سورية ، ونيفا ، وفى الوقت الحاضر سيكون هذا الرقم أكثر من ذلك .

* وهذا التطور فى التمويل المصرفى للاستثمار الزراعى يدل على المدى الذى بلغه حجم الاستثمار الزراعى ، وكان هذا يتطلب أيضا تحريك أسعار المنتجات الزراعية . فجمود السياسة السعرية كان يشكل عائقا كبيرا ، وبدأ تحريك الأسعار لزيادة دخول الفلاحين ، ولجعل الريعية الجيدة فى الزراعة مرتكزا لإعادة الانسان الى الأرض ، وتأمين حياة حرة كريمة فى الريف ، وتوفير أقصى استقرار اقتصادى ، واجتماعى .

* لقد رافق هذا تنفيذ برامج زمنية لاستصلاح الأراضي ، وبناء السدود ، وشبكات الأقنية المائية وكان لابد من مواجهة سوء المواسم أحيانا نتيجة شح الأمطار بادخال مساحات جديدة فى الأرواء الزراعى .

لقد ادخلنا عام ١٩٨٨/ ما بلغ ٢٤ الف هكتار ، وفى عام ١٩٨٩/ ما بلغ ٦٠ الف هكتار من الأراضى فى الارواء الزراعى ، وبدأنا بتشجيع الاستثمارات الخاصة فى الزراعة ، وتم تأسيس ١٠ شركات مشتركة زراعية ناجحة بالاضافة الى تعزيز البحث العلمى ، والارشاد الزراعى وتوفير جميع الخدمات الأساسية للريف .

* وفى اطار عملنا فى القطاع الصناعى فقد أكدت الحكومة أن القطاع العام الصناعى يحتاج الى دراسة ، والى معالجة صعوباته ، وقد نهض القطاع العام الصناعى الرائد بمهمة التصنيع ، وان هذا القطاع العملاق القوى يعتبر صمام الأمن الاقتصادى الذى يمتص جميع الصدمات ، وهو القوة التى تحمى اقتصادنا الوطنى من جميع الاضطرابات ، والتقلبات العالمية .

وبالفعل بدأنا بعقد اجتماعات نوعية لكل مؤسسة على حدة ، وتم من خلالها معالجة مشاكلها ، وازالة صعوباتها ، وتوفير مستلزماتها كما الزمت كل مؤسسة بخطة ذاتية لتصدير منتجاتها ، وتأمين مستلزماتها من عائدات تصديرها لمنتجاتها من القطع الأجنبى ، وأصبحت المؤسسات الهندسية ، والنسيجية ، والغذائية ، والزجاجية ، والأسمنت ، وغيرها تؤمن مستلزماتها من عائدات تصديرها .

* **ان القطاع العام الصناعى انطلق قويا مؤهلا لمواجهة كل الظروف** ، قادرا على اختزال الاخطاء ، وعلى المساهمة بفائض اقتصادى متزايد باستمرار ، كما أن القطاع الخاص اتسع دوره أيضا فى مجال الاستثمار الصناعى الرافد للقطاع العام .

* **أما عن وضع الطاقة الكهربائية فانه تم تحويل محطات توليد الطاقة الكهربائية من العمل على الفيول الى العمل على الغاز لتخفيف كلفتها ، كما أن محطات التوليد البخارية والغازية تكفى بانتاجها احتياجات سورية ، ولكن التقنين المحدود انما لجأت اليها الحكومة من أجل استكمال المشاريع المستقبلية وأعمال الصيانة الضرورية لهذه المحطات ، من أجل عدم الزج بالطاقة القصوى تخفيفا لكلفتها الاقتصادية ، علما بأن المشاريع الكهربائية التى ستنجز ستجعل من سورية بعد عام ١٩٩٣ دولة مصدرة للطاقة الكهربية .**

* إن أعمال المسح ، والتنقيب ، والاكتشاف ، والانتاج فى الحقول النفطية الجديدة ، وتزايد انتاج هذه الحقول يُعزز المستقبل الجيد لسورية فى هذا المجال ، وان الشركات الأجنبية تنشر معلومات عن سورية بأنها أصبحت بلدا نفطيا هاما ، ونحن لا نحاول الاسراف فى الاعلان معتمدين على الوقائع ، وأن تتحدث بنفسها عن ذاتها ، ولكن من

المؤكد ان كميات الغاز المكتشفة تجعل سورية من أوائل البلدان المستثمرة للغاز ، ومن البلدان النفطية فى المستقبل .

* لقد انعكست السياسة الاقتصادية المتطورة فى مجالات الزراعة ، والصناعة ، واستثمار النفط ، والغاز على الوضع الاقتصادى العام ، وبرزت نتائج ايجابية كبرى لها دلالاتها ، فقد أمكن فى عام ١٩٨٨ وفى عام ١٩٨٩ تحقيق توازن مالى هام ، وكبير اذ غطت الايرادات المحلية النفقات الاستثمارية ، والجارية فى الموازنة العامة ، كما تم تحقيق التوازن فى ميزان المدفوعات التجارى ، ورجحت كفة الصادرات على المستوردات . وهذان المؤشران أشارا بوضوح الى التوازن المالى ، والاقتصادى العام ، وأكدا بأن سورية حققت بالفعل الاعتماد على الذات بالاعتماد على مواردها ، وامكاناتها المحلية ، وانه بممارسة سياسة جريئة ، وموضوعية أصبح الاقتصاد الوطنى قائما على الاكتفاء الذاتى بما يعنيه هذا من استقلالية سياسية ، واقتصادية حققتها سورية لنفسها بالاعتماد على امكاناتها ، وعلى سواعد أبنائها ، وعلى جهود منتجيها ، وعلى حسن استثمارها لمواردها ، وخبراتها .

* لقد لاحظت خلال متابعتى لشئون المؤسسات أن الآراء المالية ، والقانونية تعتبر مدخلا إلى تنظيم علاقات العمل ، والانتاج لأن ترجمة الخطط ، ووسائل العمل التى تنظم علاقات الانتاج ترجمة مالية ، وقانونية صحيحة سوف تؤدى إلى توفير الصيغة المتكاملة من جميع الوجوه الانتاجية ، والتنظيمية ، والمالية ، والقانونية .

أن أهم مؤشر كشف لنا مدى خطواتنا السليمة التى تحققت على الصعيد الاقتصادى هو مؤشر التوازن المالى فى الموازنة العامة ، لقد اعتمدنا كما ذكرت من قبل على تغطية نفقاتنا من موازدنا المحلية ، وهذا أدى إلى جانب ايجابياته المختلفة إلى استقرار نقدى وكبح للتضخم ، نعم واجهتنا صعوبات ، ولكنها كانت ذات فائدة لأنها دفعتنا إلى المبادرة ، وإلى توفير المواد الأولية ، وتصنيع قطع تبديل ، والاستغناء عن الاستيراد ، ويمكننا أن نخطو خطوة أخرى هى اجراء تعاون بين القطاع العام ، والقطاع الخاص فى تصنيع كثير من قطع التبديل ، وأجزاء الآلات ، وهذا التعاون يضع امكانات جميع أبناء الوطن فى خدمة المسألة الاقتصادية ، والانتاجية ، ومن المهم أن نستفيد من كل امكانية فى هذا الوطن لأن ذلك يؤدى إلى الزج بجميع الطاقات ، والمواهب فى عملية البناء الاقتصادى والانتاج .

* إن النتائج المثمرة التى يحققها الاقتصاد الوطنى تنعكس خيرا وعطاء على جميع المواطنين ، ولم يكن من السهل نقل شعار الاعتماد على الذات من دائرة القول إلى دائرة الفعل المؤثر ، بل انها كانت حصيلة سياسية ، واقتصادية ، وانتاجية ، وادارية وتنظيمية ، ومتابعة .. كانت الحكومة فيها حريصة بأساليبها على استقصاء النتائج الملموسة فى الزراعة ، وفى الصناعة ، وفى كل مؤسسة ، وفى كل قطاع .

* إن كل إنسان لديه طاقة ، وكل منتج يجب أن يكون فى خدمة الوطن . لقد تعلمنا خلال الفترة الماضية كيف نستنبط الأساليب الناجحة فى مواجهة العقبات ، والصعوبات ، وتذليلها ، وعلينا أن نحذف من قاموسنا الاقتصادى ، والانتاجى كلمة الصعوبات والعقوبات ، فمتى كانت الارادة المتوافرة فالامكانات موجودة ، وقد أثبتت تجربتنا فى الزراعة ، والصناعة كيف أمكن تجاوز كل عقبة ، والتوصل إلى النتائج الايجابية المتزايدة ، فالتعاون بين الادارة ، والنقابة ، والعاملين ، وتحمل المسئولية المشتركة سيكون له الأثر الحاسم فى تحقيق المستوى الأمثل .

الرئيس الأسد.. كيف يرى المسار الاقتصادى ؟

فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ٢ مارس آذار ١٩٩٢ ، وبمناسبة أداء القسم للولاية الدستورية الرابعة تحدث الرئيس حافظ الأسد عن بناء سورية فى المجال الاقتصادى ، والاجتماعى ، والثقافى ، والخدمى ، وتناول الانجازات الكبيرة ، والهامة التى مكنت من الاستمرار فى عملية البناء ، وتأمين الاحتياجات الأساسية للمواطنين ، ومتطلبات الدفاع عن الوطن فقال : **(ولقد كان لبناء الاقتصاد الوطنى إهتمام كبير لأن بناء القاعدة الاقتصادية ، وتحقيق الازدهار الاقتصادى ، وتأمين احتياجات المواطنين ، وتوفير فرص العمل هى من المسئوليات الكبرى الملقاة على عاتق الدولة ، وضمن هذا الفهم فإن تحقيق التنمية الاقتصادية مسئولية تقع على عاتق الدولة ، كما هى واجب وطنى يجب أن يقوم به جميع المواطنين كل فى حدود إمكاناته ، وقدراته .**

إن العملية الاقتصادية بالنسبة لشعبنا هى عملية وطنية ، فالعامل المجد فى عمله يقوم بعمل وطنى عندما يساهم فى زيادة الانتاج ، والمواطن الذى يساهم فى بناء مصنع ، أو مزرعة إنما يقوم بعمل وطنى لأنه يزيد موارد البلاد .. إذن يجب أن يقوم به جميع المواطنين كل فى حدود إمكاناته ، وقدراته .

ان اقرارنا للتعددية الاقتصادية جاء لاعتبارات وطنية ، لأن البلاد يجب أن تكون ورشة عمل كبيرة كلنا يعمل فى هذه الورشة وفق امكاناته ، وطاقاته .

لقد أخذت الدولة على عاتقها خلال السنوات الماضية بناء المؤسسات ، والمنشآت الاقتصادية التى لم يكن فى طاقة الأفراد بناؤها ، فتكونت لدينا قاعدة اقتصادية هامة وفرت لنا القسم الكبير مما نحتاجه ، ولولا ذلك لكانت البلاد قد عانت ظروفا فى غاية القسوة ، والصعوبة .

لقد تجاوزت توظيفات الدولة فى التنمية الاقتصادية مئات المليارات ، فكان لنا هذه

المنشآت الكبرى فى الكهرباء ، والنفط ، والغاز ، والمواصلات ، والصناعات الميكانيكية ، والكيميائية ، والغذائية ، والنسيجية ، وكان من الصعب على بلد نام يحتاج كل شيء أن تقف الدولة مكتوفة الأيدى تنتظر المجهول .

التشجيع على الاستثمار

وفى اطار حرص الدولة على القيام بواجبها فى دفع عملية التنمية الاقتصادية ، وفى أطار التعددية الاقتصادية التى تبنتها الدولة ، ومؤسساتها بعد حركة التصحيح ، فقد فتحت الطريق واسعا أمام المواطنين للاسهام فى بناء البلاد ، فصان الدستور حق الملكية ، وصدرت تشريعات من شأنها التشجيع على الاستثمار ، وصدر قانون الاستثمار الذى أعطى مزايا كثيرة للمواطنين الذين يريدون الاسهام فى البناء الاقتصادى .

كما صدر قانون ضريبة الدخل إذ تم تحديد معدلات ضريبة الدخل لتشجيع المواطنين على التوجه بمدخراتهم نحو الاستثمار.

كل هذا أدى إلى نشاط اقتصادى كبير فى القطاع الخاص ، فقامت مئات الشركات مما يبشر بمزيد من الخير ، والنجاح للاقتصاد الوطنى .

وفى إطار التعددية الاقتصادية ، ومن أجل تشجيع المواطنين للاسهام فى التنمية الاقتصادية نشأ القطاع المشترك ، وتم تأسيس عدد من الشركات المشتركة بين الدولة والمواطنين ، وعندما قررت الدولة التعددية الاقتصادية ، فقد قررت تقديم الدعم ، والتسهيلات للقطاعات الثلاثة . القطاع العام ، والقطاع الخاص ، والقطاع المشترك ، لأن هذه التعددية تفتح أمام كل مواطن الباب لممارسة النشاط الاقتصادى وفق رغبته ، وحسب القطاع الاقتصادى الذى يختار العمل فيه ، لأن الوطن بحاجة إلى جهود جميع أبنائه ليظل عزيزا قويا ، وليعيش أبناؤه جميعا فى العزة ، والرفاهية .

وفى إطار الحديث المختصر ، والمكثف على الساحة الاقتصادية يبدو منصفا القول أن الدولة بذلت جهودا كبيرة لتطوير قطاع الزراعة ، وتشجيع المزارعين ، والعمل لتطوير القطاع الزراعى ، وتشجيع الفلاحين ، والعمل على توفير متطلباتهم ، وحققت انجازات هامة ، **ولابد من الاستمرار فى هذا المنحى ، ومتابعة الاهتمام بشكل خاص بما يلى :**

أولا : تطوير وسائل الانتاج ، وتصنيع مستلزماته .

ثانيا : استمرار استصلاح الأراضى ، وتسريع الانجاز برفع وتيرة العمل .

ثالثا : الاستمرار فى عملية التشجير الحراجى ، والثمرى ، وتسريع الانجاز .

رابعا : تسريع ، وتكثيف عملية تشييد السدود لكى لا تبقى فى البلاد مياه مهدورة سواء كانت نهرية ، أو مطرية .

خامسا: الاهتمام بالثروة الحيوانية، وتوفير متطلباتها ..

ويضيف الرئيس الأسد:

يجب أن نستمر فى البناء الواسع الشامل، وسوف نستمر، وعلينا أن نشحذ الهمم التى بدونها لا تنهض الشعوب، وأن نستأصل من حياتنا الاهمال، والتواكل، وإهدار الوقت، وهى الأمراض التى تفتك بمحاولات النهوض التى جرت، وتجرى فى بلدان العالم الثالث.

إن الاهمال مرض، والتواكل مرض، وإهدار الوقت مرض، والوعى والارادة وحدهما قادران على تخليص الانسانية من هذه الأمراض.

هدر الوقت آفة خطرة يجب أن نكافحها، وإذا كان الهدر بجوانبه مُعلاً، فاكثر جوانبه اضرارا، واعلالا هو اهدار الوقت.

إن الإنسان يتقدم، ويرتقى، وينجح باستغلال الوقت .. إن الشعوب تتقدم، وتتطور باستثمار الوقت.

تنمية الإحساس بالزمن

نحن بحاجة إلى تنمية الاحساس بالزمن، واداة ذلك الوعى، والارادة. عندما نستطيع أن نملأ الوقت بالعمل فسنجد الحياة اكثر غنى، وبهجة، فهذا لا يعنى أنه لا وقت للراحة، بل يجب أن يكون للراحة وقتها المحدد والمعروف الذى نملؤه، وللعمل وقته المحدد المعروف الذى يملؤه.

وألا نشابك بينهما ـ اى بين وقت الراحة، ووقت العمل، وعندما نشابك بينهما تضيع الراحة ويضيع العمل، اى أن كلا منهما يصبح ضرورة للآخر، وتصبح الراحة عملا فى حقيقتها، وهدفها، كما يصبح العمل راحة فى حقيقته، وهدفه، وهكذا فالراحة بشكلها هذا ومحتواها شىء، وهدر الوقت واضاعته، وتدنى الاحساس بالزمن، أو من الزمن شىء آخر تماما.

أننى واثق أننا سندحر فى النهاية ـ وأمل أن تكون قريبة ـ سندحر كل معوقات التقدم التى تعترض طريقنا، وتحد من مردود جهودنا، وهى عوائق حملناها، أو حملتها إلينا المعاناة، وسياسات التجهيل والظلم التى مورست علينا خلال العصور الاستعمارية المظلمة.

الانسان فى فكر الأسد

عندما يهتم الرئيس ، أى رئيس بالتعليم ، وبالثقافة ، وبالاعلام ، فإن هذا الاهتمام يعنى الكثير ، فهو يعنى أولا : أن هذا الرئيس قد وضع يده على البداية الحقيقية ، والجادة للارتقاء بالمجتمع ، والحياة ، **ويعنى ثانيا** : إنه فى قياداته لمسار التطور ، والتنمية يريد أن يبنى لأمته حاضرا مجيدا لا يكون فقط موازيا لماضيها التليد إذا كان لهذه الدولة مثل هذا الماضى وإنما يخطو خطوات جديدة وابعد تأثيرا ، فهو لا يكتفى بالقول بأن الأجداد صنعوا كذا .. وكذا وانما يضيف للقول أننا صنعنا وبنينا وشيدنا .. الخ .

مثل هذا الرئيس يدرك أن المواطن المثقف المتعلم ، المستنير هو فى النهاية مواطن مبدع ، وهو مواطن يستطيع أن يحمل على كتفيه الانجازات المطلوبة ، ويحقق لمجتمعه التقدم المنشود ، والتجارب تثبت كل يوم أنه لا خير فى أمة لا تمنح حق الثقافة ، والتعليم ، والاعلام للمواطنين بحيث يبقى المواطن يعيش فى جهالة منعزلا عن العصر ، وعن الفكر ، وعن كل ما يمكن أن يساعد أو يسهم فى عملية التطور بمختلف أشكاله .

أولا : الثقافة

بداية لابد أن نشير إلى مقولة الرئيس حافظ الأسد بأن الثقافة هى (الحاجة العليا للبشرية) ، ودائما ينبه الرئيس الأسد إلى ضرورة التأكيد على الأصالة ، والحفاظ على الهوية ، والقدرة على التفاعل ، والفعل مع الثقافة العالمية ، ولقد كانت عملية بناء الانسان هى المرتكز الأساسى للنهوض بالمجتمع ، وتطويره ، وأحداث التغيير الجذرى فى بنيته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية منذ الأيام الأولى التى تلت قيام الحركة التصحيحية ، ومن الطبيعى أن تكون المسألة الثقافية فى مقدمة المسائل التى تتأسس عليها عملية بناء الإنسان ، وترتقى من خلالها لأن الثقافة تساعد الإنسان فى تجاوز واقع الجهل ، والتخلف ، وفى بناء ذاته ، والدفاع عنها ، وفهم ما يحيط به فى هذا العالم ، فضلا عما تمنحه من قدرة على مواكبة النهضة الحضارية ، والثورة التكنولوجية ، وتحدى البناء الذى يشهده العالم فى نهاية القرن الحالى .

بعد قيام الحركة التصحيحية تهيأت ظروف الارتقاء ، والتقدم ، والنهضة التى تحققها الثقافة وشهدت المسألة الثقافية اهتماما كبيرا اكد دورها فى بناء الإنسان ، وتوسيع مجال أنشطتها المتعددة الابداعية ، وقد تزايد دور وزارة الثقافة منذ قيام الحركة التصحيحية ، وتعمق هذا الدور ، ونما نتيجة للخدمات الثقافية التى تقدمها الدولة .

وإذا كان من الممكن أن نعقد مقارنة بين واقع الثقافة قبل حكم الرئيس الأسد ، وواقع

هذه الثقافة الآن ، وإذا كانت هذه المقارنة ممكنة فى عجالة سريعة فإنه يمكن القول بأن أهم ما جرى فى عهد الرئيس الأسد هو تغيير مفهوم الثقافة ، وبالتالى الاستراتيجية الثقافية .

قبل حكم الرئيس الأسد كانت الثقافة تعتبر صورة من صور الترف ، والرفاهية ، فى عهد الرئيس الأسد صارت شيئا آخر .. صارت خبز الناس اليومى .. صارت حقا لكل مواطن ، وهذا الكلام ليس نظريا ، وانما تجسد على الواقع الفعلى على الأرض ، حيث صار لدى سورية ما يقرب من ٩٢ مركزا ثقافيا بعضها قصور للثقافة مجهزة بالمكتبات بالاضافة الى محطات مكتبية مختلفة .

الفارق كبير بين ماكان ، وبين ماصار ..

صار من الأشياء المعروفة ـ كما سبق التبيان ـ أن الدولة موجودة فى قطاع الثقافة لخدمة المثقفين ، ولخدمة الجمهور فى العلاقة المتبادلة بين الطرفين بتأمين كل الوسائل للمثقفين .. للفنانين .. للكتاب .. للمحاضرين .. للسينمائيين ، وقبل ذلك كله يوفر الاسلوب الذى يمكن أن تصل به هذه الأمور إلى عامة الناس فى المحافظات ومن اقصى قرية فى القطر إلى أدنى قرية .

الانتشار الأفقى للتعليم فى سورية ظاهرة جديرة بالتقدير والاحترام لم تعد تجد فى سورية قرية واحدة لم يدخلها التعليم الابتدائى الالزامى ، بالاضافة الى برنامج ، وخطة لمحو الأمية حتى وصلت نسبة الأمية الى ٢١٪ بعد أن كانت قبل حكم الرئيس الأسد ٥٦٪ ، وفى بعض المناطق وصلت ٧٠٪ .. الآن لدى سورية كل ما تحتاجه من مدارس تعليمية للأطفال الصغار .. ثم بعد ذلك صفوف محو الأمية الموجودة فى كل مكان ، بالنسبة للنساء ، والرجال مع صفوف للمتابعة ، مع أحداث مراكز متواصلة لتأهيل الأميين الذين يرغبون رجالا ، ونساء ، حتى يستطيعوا أن يجدوا المهنة التى تقيهم العوز ، التعليم انتشر أفقيا ، ولكنه أيضا تصاعد ، ففى سورية الآن أربع جامعات بالاضافة الى وحدات جامعية عديدة .. فلقد وصل عدد طلاب الجامعة فى دمشق الى أكثر من ٩٠ الف طالب ، وكذلك فى الجامعات المختلفة التى تقدم للطلاب التعليم الجامعى ، بالاضافة الى العمل الجاد من أجل احداث مراكز للبحوث ، ونشاطات تتولاها المنظمات الشعبية فى نشر التعليم ..

المراكز الثقافية تزامن معها انشاء معاهد للثقافة الشعبية مرتبطة بها ، وفيها يتعلم الآلاف فى كل محافظة ، وفى كل مركز يتعلمون الى جانب الثقافة العامة مهنة من المهن التى يريدونها ، بالاضافة الى المعاهد التشكيلية ، والتطبيقية الملحقة بالمراكز الثقافية ، ومنها يبدأ الطفل تعلم الرسم ، ومعظم الذين تخرجوامن كلية الفنون الجميلة كانوا طلابا فى هذه المعاهد .

إذن الثقافة أصبحت حقا للجميع تعليما ، وممارسة ثم توفيرا لوسائلها المختلفة ، ففى المراكز الثقافية هناك المسرح ، وهناك شاشات العرض السينمائى ، وهناك العروض الموسيقية ، وهناك حلقات قراءة الكتاب ، ومناقشة هذه الكتب ، وهذا يتوافر للجميع عبر المراكز ، ومن خلال المنظمات الشعبية المختلفة فى بعض الأحيان ، والمعسكرات المتتالية ، والتى هى معسكرات تثقيفية من الدرجة الأولى خصوصا بالنسبة للطلائع الصغار الذين يسمون (طلائع البعث) .

أى كاتب جيد ، أو اذا كان شابا واعدا يجد السبيل لنشر الكتب ، وأخذ المكافأة والتشجيع الكامل ، الموسيقيون كذلك ، وقد أنشىء فى عهد الرئيس الأسد ، ولأول مرة المعهد العالى للفنون المسرحية ، والمعهد العالى للموسيقى ، وكان هذا خطوة متقدمة جدا بالاضافة الى المعاهد الموسيقية العادية ، وتكونت الفرق الفنية وحدثت أشياء كثيرة وتذكر منها الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة ان سورية أصبحت الآن قادرة على انتاج عشرات الكتب فى العام ، وضمن مستوى رفيع من الحرية ، ترجمة وتأليفا ، وبما يقدم ثقافة عالية للقارىء العام ، وثقافة متخصصة للمتخصصين عبر سلاسل مختلفة ، بالاضافة الى العناية الفائقة برعاية ، وحماية التراث ، وتحقيق الكتب ، ونشر سلاسل ذات أهمية بالوطن العربى مثل سلسلة المختار من التراث لأنها تقدم التراث الى جميع الناس ، وتقول الدكتورة نجاح العطار أيضا فإنه لا يمكن أن ننسى ، عند الحديث عن حماية التراث النشاط الأثرى الذى يجرى الآن فى سورية برعاية خاصة ، وفى سورية كل عام على الأقل من ٤ الى ٥٠ بعثة أثرية تنقيبية ، والبعثات الأجنبية فيها مشرفون سوريون أيضا ، وهناك بعثات مشتركة ، وبعثات سورية ، تكتشف سنويا الكثير من الآثار الجديرة بالاكتشاف .

وفى كل عام تُقام ندوة أثرية دولية يحضرها كبار العلماء من كافة أنحاء العالم ، وتنشر الأبحاث فى الحوليات الأثرية كما تنشر الكتب حول المكتشفات الأثرية المختلفة ، وبعض هذه المكتشفات غيرت الكثير من معالم التاريخ القديم مثل اكتشاف (إيبلا) ، ورقمها التى اصبح عددها ١٧ الف لوحة (إيبلا تقع فى شمال محافظة إدلب) ولدى سورية مشاريع ترميمية كثيرة ، ومتتابعة .

والموسيقى بدورها شهدت تطورا كبيرا ، كذلك الحال بالنسبة للفن التشكيلى حيث تقام معارض أسبوعية بالاضافة الى المعارض السنوية المختلفة ، والمهرجانات التى تقام على المدرجات الأثرية مثل مدرج « بصرى » الدولى ، وهذا حدث بعد الحركة التصحيحية ، وهو أكبر مدرج أثرى فى العالم كله ويستوعب من ٢٠ الى ٢٥ الف متفرج ، وعمره الفى عام ولكنه يمتاز بأنه غير مُخَرَّب ، وقد أجريت عليه بعض الترميمات ، والآن يقام المهرجان

عليه ، ثم يذهب الى مدرج « جبلَه » الاثرى وهو يستوعب حوالى عشرة آلاف متفرج والى « قلا حلب الأثرية » والى « تدمر » احيا ا ، وبعد أن كانت سورية تعانى من قلة المتاحف ، ولم يـ لديها س وى متحف واحد هو المتحف الوطنى ، أصبح عندها الآن ٣٥ متحفا حديثا جدا

الذى يثير الاحترام حقا ان انشغال سورية ، وهى دولة مواجهة لم تسقط من حسا الخيار العسكرى لأنه ينبغى أن يكون قائما ، وان عمليات التنمية الاقتصادية ، والتنم الثقافية تأخذ دورها ، ويُنفق عليها الكثير ، ولولا ذلك لما رأينا مكتبة الأسد ، وهى مكت من أحدث مكتبات الشرق الأوسط ، وأكبرها ، وفيها تصان المخطوطات .

أيضا دار الأوبرا تبنى ، تنفيذا لقرار الرئيس ببنائها مع مجموعة مسارح بالاضا الى البناء الجاهز للمعهدين .. معهد عال للموسيقى ، ومعهد عال للفنون المسرحية والمدينة السينمائية على طريق مطار دمشق، والاعداد المتواصل لإنشاء متحف الفن الحديد كل هذه العناية ، والرعاية يوجهها الرئيس الأسد للثقافة ، وهو يقول : إن أىَّ مشرو ثقافى هو مشروع اقتصادى من الدرجة الأولى ، الاقتصاد لخدمة الانسان ، والثقافة هـ الانسان فى النهاية ، ولا شىء دون الانسان ، والانسان لا تنمو انسانيته بدون ثقا تجعله يدرك ماذا يريد ، وكما يقول الرئيس الأسد دائما فإن الانسان لا يستطيع أ يبنى ، وأن ينتج ، وأن يصنع إلا اذا كان انسانا مثقفا ، والثقافة اذن هى فى الأساس وفى الكلمة الجميلة التى كتبها الرئيس الأسد فى دفتر الشرف للمكتبة قال : « الثقافة هـ الحاجة العليا للبشرية » وهو يوصى دائما بالدفاع عن كل ما هو ثقافى .

اهتمام الرئيس الأسد بالثقافة مرجعه ادراكه لما قادته ثقافته الرفيعة فى مختلف مراحل عمره ، وكل من يعرف الرئيس الأسد يعرف أنه ذو ثقافة متعددة ، يبدو ذلك من اجادته للغة العربية ، يخطب ارتجالا كما يخطب كتابة فلا يَلْحن ، ويقول أعمق الكلام ، وأكثره تركيزا ، لا فرق بين ارتجاله ، وكتابته .. هو مثلا لا يكتفى بقراءة التراث ، وانما يقرأ كل ما يتصل بالتراث ، يتابع الأبحاث ، ويناقش المختصين فى أصعب ما يستطيعه المختصون فى كثير من الأحيان ، ويدهش الذى يجلس اليه حينما يجد هذا الحجم من المعلومات ، ومن القدرة على وضع الأشياء فى سياقها ، يقرأ الكثير عن العالم .. يتابع النتاج الثقافى العربى ، والعالمى ، **ويهتم بقضايا الفكر بشكل عام ،** ومن هنا تأتى حمايته للثقافة لأنه لا يعتبرها ترفا ، ويريدها حقا لكل مواطن ، ويريد أن يقدم وسائلها للمثقفين ثم يقدم نتاج المثقفين الى الجمهور ، وحين تستعصى الأمور ، وتحتاج الى دعم يقدم هذا الدعم دون تردد .

وتقول الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة : كنا فى الماضى نقذف بالثقافة الى آخر

سلم الأولويات ، ولا أحد يضعها فى راس السلم كما ينبغى ان تكون .. فى عهد الرئيس الأسد أخذت وضعها الطبيعى فى المقدمة **ونحن نقول: إن الرئيس الأسد هو سيد الكلمة البليغة** ، ولأنه كذلك فهو يرعى كل أصحاب الكلمة .. يقدم كل ما يستطيع لكل الكتاب ، ولا يتركهم للصدفة ، ولم نسأله شيئا فى يوم من الأيام إلا وقدمه ، وكذلك يحظى اتحاد الكتاب ، وحتى الكتاب الذين ليسوا داخل هذا الاتحاد برعاية خاصة ، ومحبة خاصة ، وهو يتابع الحركة الأدبية فى الوطن العربى ، ونظرا لأنه يؤمن بالأمة العربية الواحدة ، والقومية العربية الواحدة ، فهو يؤمن بالثقافة الواحدة الموحدة ، وبأربابها ، وبالعاملين فى اطارها ، ويقدم لهم الرعاية حين يلتمسونها منه .

وتقول الدكتور نجاح: إن هذا التطور الثقافى كان له انعكاسه على الإنسان السورى .. لا أريد أن أبالغ او أن اقول كلاما ينتمى الى الغرور ، لكن ستجد اينما ذهبت أثر هذا التطور الثقافى ، والتعليمى فى حياة كل مواطن .. كل مواطن فى سورية يستطيع أن يتابع الأحاديث السياسية ، والفكرية ، والثقافية التى تلقى باللغة العربية الفصحى ويفهمها ، ويناقشها ، وهذا يعنى مستوى من تطور الوعى .. تجد كل انسان تقريبا مُسَيَّسا .. واعيا ، وليس مسيسا عاديا ، يناقش فى كل القضايا ، ليس فقط القضايا المرتبطة بحياته اليومية فحسب ، وانما ايضا المرتبطة بوعيه العام لما هو اكبر لقضايا الأمة العربية السياسية ، والفكرية ، وكل الأشياء المطروحة على بساط البحث ، ويحاول أن يسهم بشكل أو بأخر فى موضوع التنمية ..

الوعى العام واضح جدا فى المجتمع العربى السورى ، وخاصة فى مجتمع المرأة الذى كان معزولا فى يوم من الأيام ، وهنا لابد ان نذكر للرئيس الأسد انه أعطى للمرأة حقوقا كبيرة جدا ، **وتضرب الدكتورة نجاح العطار مثالا بنفسها** ، عام ١٩٦٠ .. كانت اول سيدة تحمل الدكتوراه فى الآداب ، ومع ذلك فقد حيل بين دخولها لقسم اللغة العربية لأنهم ارادوا فى ذلك الحين الا تدخل امراة ، الآن النساء فى كل مكان .. هناك وزيرة للتعليم العالى وهناك وزيرة للثقافة .. عدد الطالبات يبدو أكثر من عدد الطلاب .. المرأة موجودة فى كل مكان ، والمرأة الآن تتسم بوعى لم تكن تحصل عليه لولا تدخل الرئيس الأسد .. أصبحت موجودة فى كل مكان .. فى المنظمات الشعبية ، فى اتحاد الطلبة ، فى نقابات العمال . فى مجلس الشعب .. الخ .

قبل الرئيس الأسد كان خروج المرأة للعمل تقليد غير مرحب به ، وكانت المرأة اما محبوسة فى البيت لا تعرف إلا أمور المنزل وإما هى سيدة صالون .. الآن أصبحت تحمل رسالة ، وتؤدى مسئوليتها فى البيت ، وفى خارج البيت فى نفس الوقت .. لأنها كما يقول الرئيس الأسد ليست نصف المجتمع فقط ، وانما هى مربية للنصف الآخر ، ولذلك فمن الضرورى جدا أن تكون واعية .

ولقد ارتكزت الاستراتيجية الثقافية فى سورية على هذا الاتساع الكبير فى تثقيف الجماهير ، وفى تعليمها ، وفى تخصيص المرأة بحظ وافر من كل ما يمكن أن يُقدم ، وهذا الانعكاس يبدو واضحا .. يكفى أن تذهب لأى مكان ، تخاطب أى انسان فى الشارع ، فى المدرسة ، فى القرية ، فى أى مكان ، ستجد الناس يفهمون ، وبأكثر مما هو متوقع ، وسورية تدعم الكتاب كما تدعم رغيف الخبز ، والكثيرون يقبلون على القراءة ويشترون من المراكز الثقافية ومن المحطات المكتبية المتناثرة فى كل مكان ، والتى تقدم الكتاب اعارة ، ومبيعا ، وكذلك فلقد تنوعت المجلات الثقافية فى عهد الرئيس حافظ الأسد ..

هناك مجلات فى الحياة المسرحية ، والحياة السينمائية ، والموسيقى ، وهى مجلات رفيعة المستوى ، ومتخصصة ، كما أن الندوات ، والتى تقام دائما تُدعم بشكل ممتاز وتُوفر لها كل الامكانيات ، بالاضافة الى معرض الكتاب السنوى الذى يستقطب العديد من المحاضرين .

واهتمام الرئيس الأسد بالثقافة يعنى كما أشرنا ان الرئيس الأسد يدرك معنى الثقافة ، وأهميتها فى كل عمليات التطور ، والتنمية ، والارتقاء بالمجتمع ، والحياة ، ويعنى هذا الاهتمام انه يريد لبلاده أن تنهض ثقافيا ، وأن تنطلق فى آفاق الفكر ، وتبنى حضارتها ، ويعنى انه يريد أن يبنى حاضرا مجيدا متجاوزا للماضى المجيد.

دور الثقافة فى تعميق العلاقات العربية

اذا كان الرئيس الأسد يؤمن بأن الوحدة العربية هى حقيقة ، وبأن الأمة العربية هى أمة واحدة ، وبأن ما فعلته ظروف متعددة منها الاستعمار أمر غير طبيعى ، ولابد من تجاوزه ، اذن لابد أن يكون توجيهه الأساسى هو تنمية العلاقات العربية بكافة أشكالها ، وبوجهها الثقافى أولا .

ويوجه الرئيس حافظ الأسد دائما بفعل كل ما يمكن لتوطيد العلاقات الثقافية العربية بأشكالها الرسمية ، وغير الرسمية ، وبفتح الحوار الحر مع كافة المفكرين ، والكتاب ، والمثقفين ،واشتراكهم فى ندوات تليفزيونية وفى المراكز الثقافية كى يزداد عمق هذه الروابط ، والأواصر ، وتبدو أكثر حميمية ، هذا جزء من استراتيجية الثقافة بالنسبة للعلاقات العربية ، **وهو توجيه مستمر ، ومتواصل من الرئيس الأسد لإيمانه بأن الوحدة الثقافية هى حقيقة واقعة ،**وضرورة مستمرة،ويكفى أن تذهب لزيارة أى بلد عربى ، وتقارن الانسان فى أى قرية عربية بالانسان فى منطقة أخرى لتجد اثر الثقافة

الواحدة الموحدة ، وأثر اللغة العربية العظيمة ، والمجيدة في جمع الشمل ، وفي تحقيق الوحدة حتى في أسوأ الظروف ، وفي أقسى الظروف التي تعني الشتات ، والتمزق ، والبعد ، وتحول الأقطار العربية إلى جزر دون رابط ، وجامع .

أما في الداخل فإن توجيه الرئيس الأسد المستمر هو العناية بالفكر ، وبالثقافة بشكل عام ، وتقديم كل المستلزمات لمفكرين ومثقفين وتعميم الثقافة وجعلها في متناول الجميع ، وتوفير كل الوسائل لدخول البيوت عبر أجهزة الاعلام أحيانا ببرامج خاصة معينة عبر الكتاب .. عبر المحاضرة .. عبر الأقنية الثقافية المرئية والمقروءة والمسموعة وعبر الأفلام والمسرحيات ، ولا تدخر سورية وسعا في تعميم هذه الثقافة ، وتوفير الوسائل التي تمكن الناس من الاستفادة منها ، مثلا حين يقام مهرجان ، وتأتي أحسن الفرق تكون البطاقات مجانية بالنسبة لمعظم الناس ، وذات سعر رمزي جدا بالنسبة للقادرين ، المتاحف السورية مفتوحة للطلاب ، والجنود بشكل مجاني .. الكتاب مدعوم .. دور السينما أسعارها منخفضة جدا ، كذلك المسارح ، وهناك ملاحقة دءوبة كي تتسامى الأعمال الثقافية ، وكي تبرز مشروعات جديدة ، وحين يطرح أي مشروع مثل توفير الأبنية الثقافية للمسارح ، وغيرها .. والانفاق ضروري للبعثات الدراسية على عمليات التنقيب ، وعمليات الترميم ، وحتى شراء اللوحات الفنية لدعم الفنانين ، كل هذا يحدث بأمر وبتوجيه خاص من الرئيس الأسد .

وباختصار فإن العمل الدءوب المتواصل .. وتوفير التعليم للجميع ـ وافتتاح المدارس في كل مكان .. ودعم مشاريع محو الأمية .. أمور يُوليها الرئيس اهتماما كبيرا .

وتجدر الاشارة إلى أن الرئيس الأسد أصدر في بداية عهده قانون محو الأمية ، وشكل مجلسا أعلى لتوفير كل الامكانيات للقضاء على الأمية ، الأمر الذي أدى إلى تقليص نسبة الأمية إلى ٢١٪ ، وإلى جانب ذلك فإن الرئيس يدعو إلى الاهتمام أيضا بالنخبة المتميزة فكريا ، ولكن ليس على حساب الجماهير الواسعة .

قراءة التاريخ وإعادة الاعتبار للقادة التاريخيين

يوجه الرئيس حافظ الأسد دائما أهمية ، وضرورة العودة للتاريخ للتزود بالثقافة المساعدة على حفظ الهوية ، ومعرفة الهوية .. التاريخ ليس بحزازاته واشكالاته ، فالحزازات دائما تكون موجودة ، وكذلك الاشكالات ، وإنما بإنصاف البارزين من **المفكرين والعلماء الذين قدّموا واعطوا وساعدوا واثروا التاريخ الحضاري وهذا يعني كما يقول أحد المفكرين : إننا لسنا أمة منفصلة ..نحن أمة يتواصل**

تاريخها عبر إبداعاتها المستمرة .. وتتواصل أجيالها جيلابعد جيل .ماضينا مجيد ، وحاضرنا ينبغى أن يكون مجيدا أيضا . ومن الخطأ ، والخطر أن نتجاهل ما كان ، **ونقول ما سيكون هو الشىء الجيد** .. لا شىء يكون من لا شىء ، لو لم يكن لنا هذا الماضى لاستعصى علينا أن نفكر فى أشياء كثيرة ، وليس من حقنا ، وليس مفيدا أن نتناسى هذا التاريخ .. نحن الآن رممنا مقام الخليفة الأموى العظيم عمر بن عبدالعزيز المدفون قرب « معرة النعمان » قرب مدينة حلب فى الجزء الشمالى من سورية ، وكذلك أعدنا بناء العديد من الأضرحة للشخصيات التاريخية التى تُعرف أين هى موجودة ، ونحن لا نكتفى ببناء الأضرحة ، وانما نقيم الندوات الدائمة حول أبطال التاريخ ، وحين أقمنا ندوة حطين العربية ، افتتحها الدكتور / عصمت عبد المجيد الأمين العام للجامعة العربية ، وكما هو معروف فإن للبطل صلاح الدين ، ولمعركة حطين تأثير بالغ فى تاريخنا ، وكانت هذه الندوة بتوجيه من الرئيس الأسد .

إن الحفاظ على التاريخ أمر بالغ الضرورة ، وينبغى على كل أمة أن تحفظه بنور العيون ، لأنه موصول بالحاضر ، وإذا أردنا أن نبنى هذا الحاضر بناء ليس فيه الانخلاع من الهوية ، الحضارية ، وللقبض على أشياء لسنا حتى الآن من صانعيها ، وإذا كنا نريد أن نبنى ، فالمفروض أن نعرف وأن نرتكز على ما هو مجيد فى تاريخنا ، وأن ندخل العصر من بابه الواسع بعد ذلك .

وسمع الرئيس حافظ الأسد يقول : « لا يجوز أن ننظر إلى الحكام فى التاريخ فقط من زاوية سلوكهم الشخصى ، وإنما ينبغى أن ننظر إلى انجازاتهم بشكل عام لصالح الأمة أو لصالح الشعب » ، ربما يكون هناك بعض الظلم وقع على حاكم معين مثل هارون الرشيد ، ولكن من يقرأ تاريخه يرى أن ظلما كبيرا وقع عليه لأن الدولة عرفت فى عهد الرشيد عصرا ذهبيا ، وهو الذى كان يقود الجيوش للجهاد فى كل عام ، وهجر بغداد واتخذ من الرقة مقراً لكى يقوم بالدفاع عن الثغور ضد الروم ، وهو الذى كان يرعى الأدب والأدباء ، ولذلك إذا أخذنا تاريخ الرشيد من خلال شعر أبى نواس فقط نكون قد ظلمناه .

ولذلك فإن الرئيس الأسد أعاد الاعتبار لكثير من القادة التاريخيين الذين كانوا منسيين سواء فى التاريخ القديم ، أو الحديث ، كما أمر الرئيس باطلاق أسماء المناضلين الذين أسهموا فى نهضة الأمة سواء كانت نهضة علمية ، أو غيرها على الشوارع ، وفى جامعة دمشق مثلا هناك مدرج باسم جابر بن حيان ، وأيضا مستشفى ابن النفيس ، ومستشفى الرازى وشارع ابن سينا .. الخ .

صديق للكتاب

يعتز المثقفون، والأدباء فى سورية بأن الرئيس حافظ الأسد مع شواغله العديدة ظل صديقا للكتاب .. يقرأ فى كثير من الأحيان حول قضية ما أكثر مما يقرأ المتخصصون فى هذه القضية ، ويتابع حركة الثقافة فى سورية ، وفى الأقطار العربية ، وفى العالم ، وهو مُعْنًى بالتاريخ ، وبكتب التراث ، وبالأدب ، وبالشعر .. يتذوق وينتقد أيضا ، معنى بالثقافة المعاصرة اقتصادا ، وعلما ، وهموما مختلفة ، وهو ذواقة متحسس للموسيقى ، ولغيرها ، ولكل ما يرتبط بالشئون الثقافية من مسرح ، وسينما ، ومتابعته ليست مقصورة على القطر السورى ، وإنما هى على حد تعبير الأديب المصرى العالمى المرحوم الدكتور يوسف ادريس ذات أفق عربى شمولى .

ومكتبة الرئيس الأسد الخاصة مكتبة غنية مليئة بكتب الآثار، والحضارات القديمة ، والأدب ، والشعر ، معرفته الكاملة بالشعر ، والشعراء تغْنى أنه يقرأ الشعر ، قديمه وحديثه ويتعمق فى الحضارة الاغريقية القديمة ، التاريخ الاسلامى ؛ وحين يحاور ضيوفه تجد أنه على علم بهذا الكتاب ، أو ذاك ، تقدر أنه لا يدخر وسعا فى قراءة أشياء كثيرة مرتبطة بكل آفاق الثقافة ، حين تناقشه فى بعض نظريات الاقتصاد تكتشف أنه لابد أن يكون قد قرأ مؤلفات عديدة فى علم الاقتصاد ، على سبيل المثال يعرف كل ما يتصل بالمؤلفات التى كان يكتبها عباقرة الفكر ، والأدب فى مصر مثل الدكتور طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وغيرهم ، وقد قرأ الرئيس الأسد لمعظم الكتاب المصريين والعرب ، وحين يتسع وقته فإنه لا يدخر وسعا فى مقابلة الكتاب ، والمثقفين من أى قطر ، ويقول الرئيس الأسد : إنه يجد متعة فى الحديث إلى الكتاب ، والمفكرين ، ولكتاب مصر مكانة خاصة لديه ، **وقد أكد هذه الحقيقة الأديب يوسف ادريس عندما جاء إلى سورية، وقابل الرئيس الأسد .. ويعطى الرئيس الأسد اهتماما كبيرا للعلاقات المصرية السورية فى المجال الثقافى** ، والواقع أن العلاقات بين البلدين فى هذا المجال لم تنقطع قط ، وعبر السنوات الطويلة ، وكان الكتاب ، والفيلم السينمائى ، واللحن ، والموسيقى ، والأغنية هى الرسل الأوائل ، ولم ينقطع الحضور المصرى فى مهرجانات سورية المختلفة سواء المهرجانات المسرحية ، أو السينمائية عبر كل هذه السنوات حتى حين كانت هناك قطيعة سياسية ، ولعل الجميع يذكرون أنه قد تم تشكيل اتحاد الفنانين العرب فى دمشق ، وشارك فى حضوره ، وفى تشكيله عدد من الأخوة المصريين برئاسة سعد الدين وهبة ، وكما أشرنا فإن لمصر فى قلب الرئيس الأسد مكانة خاصة ، ربما لأنه عاش فيها قليلا ، وتعرف على الكثير من كتابها ، وأدبائها ، ومثقفيها ، وساساتها ، **وتوجيه الرئيس الأسد الدائم كما يذكر العاملون فى الحقول الثقافية هو: تمتين العلاقات العربية عموما ، ومع مصر بوجه خاص** ، التى نكنّ لها

الكثير من الاحترام ، والتقدير ، مصر الأيام الرائعة المشتركة خلال فترة الوحدة ، وصور العلاقة الثقافية بين مصر وسورية عديدة ، ومتنوعة ، العلاقة بين الأدباء والكتاب علاقة وطيدة .

وصور العلاقة الثقافية بين مصر وسورية عديدة ومتنوعة ، العلاقة بين الأدباء والكتاب علاقة وطيدة ، والمشاركة مستمرة .. معظم الكتاب المصريين مقروءون فى سورية ، وقد يكون الكتاب السورى مقروءا بشكل أقل ، ولكن هناك جهوداً تبذل الآن لكى يصل الكتاب السورى إلى مصر بطريقة أفضل ، ثم هناك السينما والمسارح ، والمهرجانات المتتابعة ، وتكاد لا تخلو أى ندوة تعقد فى سورية من دعوة كتاب مصريين للمشاركة فى نشاطاتها المختلفة، ودعوة الفنانين والكتاب والمثقفين السوريين للمشاركة فى الندوات والنشاطات والمهرجانات الدورية التى تعقد فى القاهرة . لقد توطدت العلاقات الثقافية وتعمقت بين الكتاب ، والمفكرين ، والاعلاميين ، والعاملين فى الصحافة ، لأن الأرضية واحدة والثقافة مشتركة ، والقناعات واحدة ، وتضع الحركة الثقافية فى سورية على رأس أهدافها تحقيق اقصى صور التعاون الثقافى العربى ، باعتبار أن الوحدة الثقافية تخلق الأرضية الصالحة ، والمشتركة للعمل الوحدوى العربى المشترك ، وبشتى أشكاله ووجوهه .

الحياة الثقافية فى مصر وكيف يتابعها الرئيس الأسد ؟

يبقى أن نشير إلى أن الرئيس الأسد يتابع وباهتمام شديد الثقافة المصرية ، أو الثقافة العربية بوجه عام لأن الثقافة العربية فى مصر والشام هى ثقافة أصيلة وراسخة ، والعلاقات الثقافية بين مصر وسورية قديمة ، وكانت ممثلة فى الذين جاءوا من بلاد الشام سواء من لبنان ، وسورية، وأقاموا الصحافة مثل جورجى زيدان ، وبشارة تقلا ومن الممثلين جورج أبيض ، وأبو خليل القبانى ، ولذلك فإن هناك تفاعلاً ثقافياً قديماً ، وتبادلاً ثقافيا مستمراً بين مصر ، وسورية .

والرئيس الأسد يقرأ للأدباء ، والكتاب ، وعندما اصطحب الرئيس مبارك الرئيس الأسد فى زيارة لمنطقة الساحل الشمالى فى صيف ١٩٩٠ قابل فى منطقة (مراقيا) الأديب المرحوم يوسف ادريس ، وأمضى معه وقتا فى حوار ثقافى ممتع اكد اهتمام الرئيس الأسد بالثقافة والمثقفين ، وقد أرسل الرئيس الأسد دعوة ليوسف أدريس ، ولكن القدر لم يسمح له بتحقيق هذه الأمنية ، وقد حزن الرئيس الأسد عليه حزنا كبيرا ، وخلال مرضه اتصل مدير مكتب الأسد عدة مرات لكى يطمئن على صحة الدكتور ادريس خلال مرضه ، وكان ينقل له تطورات وضعه الصحى يوما بيوم أثناء وجوده فى مصر .

وعندما ذهب الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء المصرى إلى سورية فى يوليو ١٩٩١ تحدث الرئيس الأسد معه عن أدب يوسف ادريس ، وروى الكثير عن صداقته ليوسف ادريس وقارن بين أدبه وأدب نجيب محفوظ ، مؤكدا أن الجمهور فى سورية ، يهتم بالقصة القصيرة أكثر من اهتمامه بالرواية ، وهذا سبب شعبية يوسف ادريس فى سورية ، وقد تحدث المرحوم يوسف ادريس بعد عودة الرئيس الأسد من مصر وأكد أن هناك صداقة تربطه به وذكرنا قبل قليل أن الرئيس الأسد وجه الدعوة للأديب الكبير يوسف ادريس لزيارة سورية.

الرئيس الأسد تكلم أيضا عن أدب الروائى العالمى نجيب محفوظ ، وعن عمالقة الفكر المصرى الراحلين مثل طه حسين ، وعباس العقاد ، وتوفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وغيرهم ، وتكلم أيضا عن دور الموسيقار الراحل محمد عبدالوهاب ، والمرحومة أم كلثوم فى الغناء العربى ، وكيف أن هذين العملاقين كانا عاملا من عوامل الوحدة العربية لدرجة أن الانسان العربى من الخليج إلى المحيط كان يفتح الراديو يوم الخميس للاستماع إلى أم كلثوم .

وتحدث أيضا عن محمد عبدالوهاب ، وروى حادثة أن عبدالوهاب عندما جاء إلى حلب فى سورية ليغنى فى العشرينات لم يجد جمهورا ، وفى اليوم التالى سأل عبدالوهاب المتعهد عن سبب عدم وجود جمهور كبير ، فأجابه المتعهد بأن أهل حلب يرسلون أولا الذواقة لسماع المطرب ، فإذا وجدوا أنه يستحق ، فإن الجمهور يأتى بعدهم ، وطلب منه الانتظار إلى اليوم التالى ، وإذا بالجمهور يتدفق من كل مكان ، لأن عبدالوهاب نجح فى امتحان الذواقة ، ولأن حلب تمتاز بالمواهب الكبيرة فى الغناء ، والموسيقى ، وفيها مدرسة حلبية مشهورة على امتداد التاريخ .

وروى الرئيس الأسد أن الموسيقار خالد الذكر سيد درويش جاء الى حلب ، وبقى ستة أشهر ليتعلم النغمات ، والمقامات ، والموشحات الحلبية ، وتكلم الرئيس الأسد أيضا فى هذه الجلسة عن قراءاته لمذكرات المشير الجمسى ، والوزير اسماعيل فهمى ، وبعض الكتاب الذين كتبوا عن حرب أكتوبر ، وكان ينتقل من فكر الى فكر ، ومن كتاب الى كتاب ، وظل الوزراء المصريون ، والسوريون الذين يستمعون الى الرئيس الأسد مندهشين لقوة الذاكرة ، وقدرة الرئيس على الاستذكار ، وادارة النقاشات الفكرية .

ولذلك فإن الرئيس الأسد بحكم تكوينه الثقافى ، وبحكم قراءاته الكثيرة يعطى الثقافة المصرية جزءا كبيرا من اهتمامه ، ومن المؤكد أن جيل الرئيس الأسد كان على صلة وثيقة بالمؤلفات المصرية ، التى كانت تصدر سواء أكانت روايات جورجى زيدان ، أو الرسالة للدكتور أحمد أمين أم غير ذلك من المجلات الثقافية ، بالاضافة الى المجلات الفكرية ، التى تصدر أيام الوحدة سواء مجلة الفكر المعاصر التى كان يشرف عليها

الدكتور زكى نجيب محمود أو مجلة الكاتب التى كان يشرف عليها أحمد عباس صالح ، أو مجلة الطليعة التى كان يشرف عليها لطفى الخولى ، وغير ذلك من المجلات المصرية الأخرى مثل آخر ساعة ، وروزاليوسف ، وأكتوبر ، والهلال .. وما الى ذلك .

ثانيا : التعليم

وضعت الحركة التصحيحية على رأس أهدافها العاجلة تحقيق تنمية شاملة فى مجال التعليم ، وربطه بمتطلبات المستقبل ، ولم تقف النهضة التعليمية فى سورية عند حد تخريج أعداد من المتعلمين فحسب إنما الى تربية الأجيال وتخريجها من المؤسسات التربوية والتعليمية بالكفاءات المطلوبة ، وتحقيق الاتجاهات السليمة نحو العمل ، والبناء .

الرئيس حافظ الأسد أعطى اهتماما بالغا للتربية ، ورعى العلم ، والعلماء رعاية كبيرة ، وقدم الدعم الكامل للتربية ، والتعليم عبر مؤسساتها التنفيذية ، والنقابية ماديا ، ومعنويا ، وأخذت المؤسسات التربوية منحى متصاعدا نحو توسيع قاعدتها لوضع مبادىء الحزب ، والدستور موضع التحقيق الفعلى بدءا بديموقراطية التعليم ومجانيته لكل المراحل ، والتعليم الالزامى ، والتعليم المهنى ، والفنى .... الخ .

ولم تقتصر عند هذا الحد ، فأدخلت مبادىء ، وعناصر جديدة على العملية التربوية لتساهم فى عملية بناء الانسان ، واعداده ، وتهيئة الكوادر الفنية ، والمهنية لقيادة عملية التنمية ، والتى يعتبر الانسان عنصرها الأساسى .

ونظرا لكون التربية استجابة لحاجة التنمية الشاملة ، فإنها تشكل حافزا مثيرا لفعاليات المجتمع الفكرية والاجتماعية ، والاقتصادية ، وربطها بحاجات المستقبل ، ومتطلباته ، ولذلك فإن مرتكزات العملية التربوية اعتمدت على تحقيق ديموقراطية التعليم ، وربط التربية بالتنمية ، وتطوير مضمون التربية ، وتحسين كفايتها ، وفعاليتها بما يحقق اعداد الجيل العربى الاشتراكى المزود بالمعارف ، والخبرات ، والمهارات ، ولتحقيق ديموقراطية التعليم ، فقد عملت المؤسسات التربوية على تهيئة الفرص التعليمية الملائمة أمام ابناء المواطنين اينما تواجدوا فى المحافظات مدنا ، وريفا ، وأنشأت المدارس فى كل حى ، وقرية حتى أصغر مجمع سكانى ، الى التجمعات الرعوية المتنقلة (البدو) .

وفى ظل الحركة التصحيحية أيضا شهدت سورية تقدما ، وتطورا فى المؤسسات التعليمية ، والتربوية كخطوة فى سبيل تحقيق التقدم الاقتصادى ، والاجتماعى وصولا الى تغيير البيئة الاجتماعية الكفيلة بتحقيق التطور ، والتقدم الحضارى فى كافة المجالات .

وقد ادركت الحركة التصحيحية أهمية التعليم فى بناء الانسان ، وتربيته ، وخاصة التعليم العالى (المعاهد والجامعات) فى خلق الكوادر العلمية التى ترتكز إليها اسس التطور والتقدم وبناء المجتمع الذى يساهم فى مسيرة الحضارة الانسانية .

تطورت الجامعات فى أيام الرئيس الأسد ، وبدأت تمنح بالاضافة إلى الإجازة الشهادات العليا ، دبلوم ، ماجستير ، دكتوراه ، واقيم بعد الحركة التصحيحية العديد من المعاهد ، ومراكز البحث ، منها معهد تاريخ العلوم عند العرب فى حلب الذى حرص على اصدار عدد كبير من الكتب العلمية العربية ، واعتاد أن يعقد كل سنة مؤتمرا يناقش الباحثون فيه احدى المنجزات العربية العلمية ، ولم يعطل عمل هذا المعهد ما اعتادت عليه جامعة دمشق من توجية الدعوة سنويا لعقد أسبوع العلم ، وتصدر الجامعات السورية المجلات التى تبحث فى العلوم الانسانية ، والعلوم التطبيقية ، حاضرا وتراثيا .

ونستذكر هنا **قول الرئيس حافظ الأسد** (الدولة تسعى بدأب لربط مناهج التعليم العالى بمتطلبات التنمية ، وتهتم باستمرار بقطاع التعليم العالى ، والتخطيط له ، ونحن اذ نطبق ديموقراطية التعليم نحرص فى الوقت ذاته على أن نحافظ على سوية التعليم ، وأن نرفعها ، وقد سبق أن أشرنا الى أن التطور الحاصل فى ظل الحركة التصحيحية فى مجال التعليم يتمثل فى تلك الانجازات التى تحققت فى حقبة كبيرة من الزمن ، فأينما ذهبنا ، وفى أى جهة تطالعنا تلك الصروح التى شيدتها الدولة بتوجيه من الرئيس الأسد بإحداث الجامعات ، وزيادة عدد الكليات ، والمعاهد ، وتوفير الأبنية المناسبة للكليات ، والمعاهد ، والتى تضم القاعات ، والمدرجات ، وقاعات المطالعة ، والمكتبات .

ثالثا : الإعلام

بداية لابد أن نشير الى حقيقة هامة ، وهى ان السمة البارزة للاعلام السورى منذ الحركة التصحيحية هى تركيزه على القضايا القومية . **وكما يقول وزير الاعلام محمد سلمان** فإن من ابرز أهداف حزب البعث الوحدة العربية ، وهذا يعنى ان التزامنا بالقضايا العربية مسألة تنبع من التزامنا ، ومسئولياتنا القومية ، وإن قوة العرب فى وحدتهم ، كما أكد الرئيس حافظ الأسد .

ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى ان ماحققه العرب من انتصار فى حرب تشرين ، أكتوبر المجيدة ، ماكان ليتم لولا توافر التضامن العربى ، وارادة القرار الواحد فى سورية ومصر .. ان وحدة القرار ، والرؤية ، والعمل حيال التحديات التى تجابهها أمتنا العربية ، وفى مقدمتها الغزوة الصهيونية الاستيطانية كفيلة بايجاد معادلة جديدة فى المنطقة تتحقق من خلالها أهداف العرب فى الوحدة ، وبناء المستقبل المتحرر من كل أشكال العدوان ، والتخلف ، وبديهى أنه كلما كان العرب موحدى القرار ، والرؤية ،

والعمل ، فإن مكانتهم الدولية تتعزز ، وفاعليتهم تكبر خاصة فى هذا العصر الذى يشهد تحولات جوهرية فى اتجاه التكتلات ، والتجمعات الدولية .

اهتمام الرئيس حافظ الأسد بالاعلام منذ الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ تناول الشكل ، والمضمون ، فعلى صعيد الشكل أقيمت مؤسسات عديدة ، وحديثة سواء على مستوى الوسائل الاعلامية ، أو المرئية ، أو المسموعة ، أو المكتوبة ، فتأسست صحيفة مركزية جديدة فى عهد الرئيس حافظ الأسد هى مؤسسة تشرين ، وعلى صعيد الاذاعة تطورت تطورا كبيرا ، وأصبحت تمتلك محطات واسعة على كافة الموجات ، وبالنسبة للتليفزيون أصبحت له محطات تغطى كل سورية ،وبعض الاقطار المجاورة ، وبالنسبة للمؤسسات الاعلانية التى تخدم المؤسسات الاعلامية الأساسية أيضا وجدت كمؤسسة الاعلان ، ومعاهد لاعداد الصحفيين ، واستحدث قسم فى كلية الآداب بجامعة دمشق ، هو قسم الصحافة لتخريج الكوادر الصحفية .

كما تم الاهتمام من حيث المضمون بالرسالة الاعلامية الى المواطنين ، فكان هناك مايساعد على أن يكون الخطاب السياسى الى الناس مقنعا لأن الانجازات كانت موجودة ، وساعد الاعلام خاصة فى السنوات الأخيرة فى نشر التوعيات الثقافية والسياسية ، كما لعب الاعلام فى سورية دورا كبيرا أثناء حرب تشرين ، والانجازات التى تحققت فى تلك المعارك ساعدت كثيرا على الارتقاء بالاعلام السورى الى مستوى جيد ، وايضا ارتقاءه الإعلام الحزبى بمصداقيته ، وأصبح هناك مصداقية للأخبار التى تصدر عن وكالة الانباء السورية ، وعن الصحف السورية ، والاعلام فى عهد الرئيس الأسد ازدهر ازدهارا كبيرا ، وبالطبع فإن هناك مجالات ، وآفاقا واسعة يطمح اليها الاعلاميون مع ماتحقق ، لأن الاعلام وبفعل تطور وسائل الاتصال والتقنية الحديثة هو دائما عملية الثورة الأسرع فى العالم ، ومواكبتها ليست بالمسألة الهينة .

دور الاعلام

يقول الرئيس حافظ الأسد « إن دور الاعلام أهم وأشمل .. فهو وسيلة تثقيف تحتاجها الغالبية العظمى من جماهير الأمة العربية ، ولذلك نؤكد على أن يكون دور الإعلام فى خدمة أوسع الجماهير ، ولكى يستطيع ان يكون كذلك فلابد أن يرتفع بأجهزته ، والعاملين فيه الى مستوى هذه المسئولية ، وهكذا فنحن نريد الإعلام أداة تغيير ، وتطوير نحو الأفضل فى كل مجالات الحياة » .

أدراك الرئيس حافظ الأسد لمكانة الاعلام ، ودوره فى المجتمع السورى ، خاصة فى هذا العصر الذى شهد ثورة علمية ضخمة ، كان له أكبر الأثر فى الارتقاء بمهمة الاعلام بالمجتمع ، وتعزيز دوره فى البناء الانسانى .

وقد استطاع الاعلام السورى ان يواكب التطورات التى تحققت فى سورية شكلا ، ومضمونا .

شكلا : بامتلاكه لأحدث ماتوصلت اليه الحضارة المعاصرة من انجازات علمية ، وتكنولوجية اختصرت الزمان ، والمكان ، وحولت العالم الى قرية صغيرة ، **ومضمونا** بالتزامه بأهداف الثورة ليكون أداة بناء فى يدهـــا لا سلاحا خطيرا فى يد اعداء الثورة .

استند الاعلام السورى فى انطلاقته بعد الحركة التصحيحية على المكانة التى احتلها فى فكر الرئيس حافظ الأسد الذى يرى « ان دور الاعلام فى هذه المرحلة التاريخية دور كبير ، ويكاد يكون المحرك الأهم للجماهير ، وربما من أهم وسائل الثقافة أيضا » .

وكان توجيه الرئيس الأسد الدائم هو تأكيد المصداقية والاعتماد على التحليل العلمى ، والدقيق ، وفهم التاريخ ، واستيعابه ، والإيمان المطلق بأهداف الأمة العربية ، والاخلاص لها ، والنضال من أجل تحقيقها ..

الشىء المبهر أيضا أن الرئيس حافظ الأسد، ومن خلال إيمانه بالاعلام السورى يحرص على تزويد الاعلام بالحقائق المجردة ، وقد تجلى ذلك بشكل واضح خلال حرب تشرين أكتوبر التحريرية ، التى تعتبر من أهم المعارك التى خاضتها الأمة العربية ، حيث كان الاعلام مواكبا لها خبرا ، وتعليقا ، وتحليلا ، ودراسة استراتيجية عسكرية ، وبنفس الدرجة فى الحكمة ، والوعى ، والفهم يتعامل الاعلام السورى مع مختلف القضايا العربية ، والدولية ، ويعتز الصحفيون العرب بنفس درجة اعتزاز الصحفيين السوريين بأن وزارة الاعلام فى سورية المصدر الأساسى لتزويدهم بكافة المعلومات المتصلة بسورية ، كما أن وزارة الاعلام وضعت الخطط ، والبرامج المختلفة للنهوض بالمؤسسات الاعلامية المقرءوة ، والمسموعة ، والمرئية ، وقد حققت وزارة الاعلام خلال السنوات الأخيرة علاقات تعاون ، وصداقة مع العديد من المؤسسات الصحفية العربية ، والاعلامية ، واقامت جسور تواصل مع جميع الدول الشقيقة ، والصديقة من خلال بروتوكولات التعاون الاعلامى التى أبرمتها معها ، وتستقبل الوزارة دوما البعثات الاعلامية كما توفد الى الدول الشقيقة ، والصديقة البعثات الاعلامية لتحقيق المزيد من علاقات التعاون ، وتبادل الأراء حول مختلف القضايا التى تهم سورية ، أو التى تتعلق بالدول الشقيقة ، والصديقة ، وتنطلق الوزارة فى عملها من توجيهات الرئيس حافظ الأسد الذى يرى أن الاعلام السورى جزء لا يتجزأ من الاعلام العربى ، بل هو اعلام تحمل مسئولية الدفاع عن قضايا الأمة العربية ، كما تحملت سورية مسئولياتها تجاه تلك القضايا .

جماهيرية الاعلام السورى

خلاصة القول فإن **الاعلام السورى**، وخاصة فى السنوات الأخيرة قد شهد **انطلاقة كبرى**، حيث جرى تنشيط واسع لأجهزة الاعلام والتليفزيون، وكانت فى المقدمة توسيع محطات الارسال ومحطات التقوية، وحدثت أجهزة التليفزيون، ووسعت برامجها، كما وسعت مديرية تبادل البرامج، والأخبار مع الدول العربية الشقيقة المجاورة ومع كل دول العالم ككل، ووسعت دائرة الاتصال مع الأقمار الصناعية، كل هذا ساهم فى تنويع وتطوير وسائل الاعلام المرئية خاصة، والمسموعة .. والذى ساهم فى تحقيق مصداقية الاعلام السورى أيضا هو القدرة الفائقة لمؤسسات الاعلام فى ايصال الرأى والموقف والصورة، والخبر بكامل تفصيلاته من الخارج والداخل بحياد تام، الأمر الذى أعطى مصداقية كبيرة للاعلام **السورى وأعطى انتشارا أكثر لهذا الاعلام**، الذى حاول أن يستفيد من تقنيات العصر ومستجداته بعقل مفتوح، ومتوازن، وفى ظل سياسة هادئة **أخذت فى الاعتبار** بالدرجة الأولى **مصلحة الشعب السورى والأمة العربية**، وفى ظل الحرص على التفاعل بين الحضارة العربية مع الحضارات الأخرى، ومعروف أن الفن والاعلام هما المرآة التى يمكن أن تعكس مثل هذا التلاقى الحضارى ومثل هذه المواقف بهدوء، وتشويق، ولقد حاول الاعلام السورى أن يوظف كل هذه الأمور، وكل هذه التقنيات الجديدة بما يحقق وصولا أسرع الى **المشاهد والقارىء**، ويحقق مصداقية أيضا فى نقل ما يجرى فى العالم **بتوازنه**، **وبصدق**، وكل هذا أيضا ساهم فى انتشار الاعلام السورى، وفى الموقف السياسى المتوازن للقيادة السورية.

ولكن الى أى مدى نجح الاعلام السورى فى توضيح الخطاب السياسى، وما هى المقومات التى اعتمد عليها ؟ وهل يمكن القول بأن الهدف القومى الذى استهدفه الرئيس الأسد، استطاعت أجهزة الاعلام أن تعكسه محليا، وعربيا، وعالميا بشكل جيد ؟!!

فى البداية لابد أن نشير الى أن الاعلام السورى آمن فى وقت مبكر بضرورة التكامل بينه وبين كل أجهزة الاعلام العربى على اعتبار أن القضية القومية هى هاجس الجميع، وسعى للتنسيق لمواجهة حملات التشويش ولغة التزوير للواقع والحقائق، وخاصة حقائق التاريخ والحياة معا، لأن محاولات التشويش والتزوير استهدفت بمجموعها زلزلة المواطن العربى، وفكره، وقطع الطريق بين الأجيال العربية ومستقبلها، ولذلك حرص **الاعلام السورى كما حرص الاعلام المصري على أن تكون صورة المستقبل الذى تمشى اليه الأجيال الصاعدة واضحة**، وواحدة، وتحقيق أقصى درجات التقدم الذى يستوعب حركة العصر ومتغيرات هذا العصر، والقيم المنشورة ككل، وكان واضحا أمام

الاعلام فى **مصر وسورية** أن وظيفته يجب أن تأخذ فى الاعتبار الى جانب سرعة المعلومة والخبر ، وعنصر التشويق الذى يوصل الموقف والخبر والحدث ، التوازن المستمر بين المضمون والشكل فى المجال السياسى ، وأيضا فى مجال المنوعات والدراما ، ومن المؤكد ان الاعلام قد وفق فى هذه الرؤية ، ولعل ما ساعد الاعلام أن الرئيس حافظ الأسد كان موفقا فى ايصال رؤية واضحة لما يريد بلغة محددة ، وبعمق ، وبانتماء كامل لكرامة الأمة ومستقبلها .

ولقد عمل الاعلام السورى على أن ينقل هذه السياسة ، وأن يعكسها فى مجالها المباشر ، وفى البرامج السياسية المباشرة ، وأيضا فى المجال الدرامى ، وفى المجال التوثيقى ، وحقق نجاحات لا بأس بها ، ولازال يواصل دوره فى تطوير وسائل الاتصال ، وفى تطوير لغة التواصل مع القارىء والمشاهد والمستمع ، وبما يعكس هذه السياسة التى تهدف إلى حضور عربى فاعل ومؤثر يعيد إلى هذه الأمة مجدها ، ودورها الحضارى الثرى الذى تستطيع من خلاله أن تقف فى وجه كل الأطماع والتحديات والأخطار التى تهدد هذه الأمة بكامل اجهزتها .

شىء أخر لابد من الاشارة اليه وهو أن أجهزة الاعلام السورية من خلال الندوات التى اقامتها ، والمهرجانات التى نظمتها نجحت فى نقل الفكر القومى للرئيس السورى عربيا وعالميا والدليل على ذلك التعليقات التى تكتب هنا وهناك ، والدراسات التى تنشر فى مختلف أرجاء العالم ، وتصل أصداؤها إلى دمشق ، والنجاحات فى كل عام تزداد فى هذا المجال عن العام الذى سبقه .

التكامل الإعلامى بين دمشق والقاهرة

يجىء الاعلام الحديث فى مقدمة العناصر ذات الفاعلية فى تحقيق الربط ، والتقارب بين الشعوب ، وكوسيلة متطورة للاتصال الجماهيرى فى عصر المتغيرات التكنولوجية ، والسياسية ، والثقافية ، وهذا يتطلب من رجاله خبرة ، ودراية ، وحسا سياسيا متميزا ، ومعرفة واسعة تؤهلهم لادارة هذا الجهاز البالغ الحيوية بآلياته البالغة الأهمية من مسموعة ، ومقرءوة .. ومرئية ..

ومنذ حركة التصحيح فى سورية الشقيقة عام ١٩٧٠ والتى قادها الرئيس حافظ الأسد ، وقطاع الاعلام يشهد طفرة هائلة يقودها الآن الدكتور محمد سلمان وزير الاعلام وقراءة متعمقة فى تاريخ العلاقات المصرية السورية فهو تاريخ متفرد يترجم وحدة المصير ، والهدف ، والنضال بين شعبين شقيقين لهما مكانتهما المرموقة على خريطة الوطن العربى .. **هذه الرؤية يطرحها وزير الاعلام فى النقاط التالية :**

عندما قال السيد الرئيس حافظ الأسد بأن مصر ، وسورية مااجتمعتا مرة الا وكان ذلك لمصلحة شعبيهما ، والأمة العربية .. فإن صدق هذه المقولة يتأكد من خلال التاريخ ، وفى معركتى عين جالوت ، وحطين ، ثم حرب أكتوبر « تشرين » حيث سجل التاريخ الحديث قدرة ، واقتدار الانسان العربى فى استخدام وسائل الحرب الحديثة .

إن العلاقات المصرية السورية قد تطورت تطورا ملحوظا فى المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والاعلامية ، وهى علاقة تضرب بجذورها فى عمق التاريخ ، وتترجم حرصهما على وحدة الأمة العربية ، والدفاع عن مقدساتها ، وهذا ما يتعزز الآن فى ظل قيـــادة الرئيسين حافظ الأسد ، وحسنى مبارك ، وقد تبدى هذا التعاون الكبير فيما جرى من تشكيل موقف عربى موحد لرد الخطر عن الأمة ، وفى مقدمة هذه القضايا الغزو العراقى للكويت ، والهجرة السوفيتية المكثفة إلى الأرض المحتلة .

وإذا كان العرب قد بدأوا منذ أكتوبر سنة ١٩٩١ عندما عقد مؤتمر مدريد بخوض معركة السلام فلابد هنا من الاشادة بدور مصر الأساسى فى هذا المجال ، لما تتمتع به من ثقل سياسى عربى ، ودولى ، ومن الالتزام بقضية السلام وفق قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ وعلى أساس مبادلة الأرض بالسلام ، وهذا يعنى استعادة جميع الأراضى العربية المحتلة ، وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى ، وتعرية النهج الاسرائيلى التوسعى العدوانى ، ورفضها الانصياع للشرعية الدولية .. وبالرغم من رغبتنا فى اقامة السلام العادل ، والشامل الذى عبرنا عنه بمشاركة وفدنا فى مؤتمر مدريد ، وبما قلناه فى المؤتمر والمحادثات الثنائية فى واشنطن حيث قدمنا ورقة عمل سورية متكاملة تنطلق من شمولية الحل على جميع جبهات الصراع ، فإن اسرائيل مازالت تناور وتتهرب من استحقاق السلام .

ويؤكد وزير الاعلام فى اجابته عن سؤال حول العلاقات بين مصر، وسورية أنها جيدة، ويضيف الدكتور محمد سلمان أنه من خلال اللقاءات التى جرت بينه ، وبين صفوت الشريف وزير الاعلام المصرى جرى الحوار حول العديد من الأمور بشأن تنسيق المواقف المشتركة ، وتشكيل لجان لوضع أسس تطوير هذه العلاقات ، وتبادل الخبرات ، والتعاون بين وكالتى الأنباء ، والاستفادة من الانتاج المصرى ، والسورى الفنى ، والثقافى ، مع تكثيف تبادل زيارات الوفود الرسمية ، والفنية فى المهرجانات ، واللقاءات الثقافية ، والفنية بين البلدين .

ومع التطور الكبير فى وسائل الاتصال المرئية ، والمسموعة ، والمقروءة **يقول وزير**

الاعلام السوري: إن الوزارة تواصل تحديث الأجهزة لتواكب التطور العلمى ، كما تنسق مع الدول العربية الشقيقة بشأن الاستفادة من الاقمار الصناعية فى تبادل الرسائل الاخبارية ، والبرامج الثقافية ، والسياحية ، والرياضية ، وتطوير هذه المجالات بشكل أفضل يتطلب التعاون ، والتنسيق لتحقيق التقارب بين المواطنين العرب ، وتجربة الشقيقة مصر فى هذا القطاع غنية ، ويمكن أن تكون مصدرا رئيسيا فى تزويدنا بمختلف الخبرات التى تعزز علاقتنا الأخوية المشتركة .

السياسة السورية عربيا ودوليا بعد الحركة التصحيحية

كثيرة جدا هى الشواهد التى تؤكد أن البعد القومى كان ولا يزال المكون الأساسى للسياسة العربية السورية بأبعادها المختلفة ، فالقرار السوري ،قومى عربى فى أساسه ، ومنبعه ، وفى مسراه ، وفى مجراه ، وفى وسائله ، وفى أهدافه .

والحديث عن السياسة السورية عربيا هو الحديث عن المضمون السياسى القومى بمعنى أن استخدام هذا العنوان انما يستهدف الحديث فى المنطلق ، والفهم العربى السورى فى المسائل ، والقضايا ، والتحديات المطروحة فى الساحة العربية ، وسبل تحقيق الأمن القومى العربى ، والأهداف القومية التى تسعى إلى تحقيقها الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، وفى مقدمتها الوحدة العربية ، عروبة السياسة السورية فى منطلقاتها ، ووسائلها ، وأهدافها هى المزية الجوهرية التى تميز السياسة السورية تاريخيا عن غيرها من السياسات فى الأقطار العربية ، وهى التى جعلت سورية هدفا دائما للقوى المعادية للأمة العربية ، وفى مقدمتها الكيان الصهيونى العدوانى ، لقد عُرفت سورية دوما بأنها قلعة الصمود القومى لمواجهة كل التحديات ، والأخطار ، وبأنها رايةُ ، وشراع الوحدة العربية المنشودة ، وانطلاقا من ذلك فقد كانت كل قضية قومية هى قضية سورية بالدرجة الأولى ، فى وجدان ، ووعى ، ونضال ، وتطلعات الشعب العربى ، إلى المستقبل ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى بدءا من قضية الكفاح الوطنى ضد المستعمر من أجل استقلال أقطار المغرب العربى ، إلى قضية الكفاح الوطنى من أجل استقلال أقطار الخليج العربى ، ومن هذه إلى الوقوف بحزم فى وجه العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وإلى التمسك الحازم بوحدة السودان شمالا ، وجنوبا .

كذلك فإن قضية فلسطين هى قضية سورية بقدر ما هى قضية فلسطينية ، وقضية لبنان هى قضية سورية.

ومنذ قيام الحركة التصحيحية بقيادة الرئيس حافظ الأسد انتقلت سورية من حالة العزلة والتشنج والصراع الداخلى إلى ميدان الفعل والتأثير اقليميا ، وعربيا ، وعالميا ، نقول : منذ قيام الحركة التصحيحية ، والتضحيات التى تقدمها سورية من أجل الحفاظ على وحدة ، واستقلال ، وعروبة لبنان لا تحصى ، تكفى الاشارة إلى صمود سورية ، وتصديها البطولى للغزو الاسرائيلى على لبنان ١٩٨٢ ودعمها غير المحدود لرجال المقاومة الوطنية اللبنانية الذى كان من نتائجه ارغام الغزاة الاسرائيليين على الانسحاب من معظم الأراضى اللبنانية التى أحتلت أنذاك ، واجبار قوات المارينز ، وقوات حلف شمال الأطلسى ، على الانسحاب من بيروت ، واسقاط اتفاق السابع عشر من مايو / أيار الذى وقع مع اسرائيل ، والذى كان يهدف إلى تحويل لبنان إلى محمية اسرائيلية كما سيلى ، وها هى ذى سورية تواصل دعمها غير المحدود للمقاومين اللبنانيين من أجل تحرير ما بقى من أجزاء محتلة فى الجنوب اللبنانى ، وكما يقول الرئيس حافظ الأسد: « لو لم ننطلق من أرضية قومية لما كان الاستعداد لبذل ما بذلناه من جهود ، وتضحيات خلال سنوات عديدة من أجل لبنان ، وما كان باستطاعة أى بلد غير سورية أن يفعل ما فعلناه ، وأن يضحى كما ضحينا من أجله » .

يكفى أن نشير إلى وقوف الرئيس الأسد بحزم ، وصلابة فى وجه المخططات المستهدفة تقسيم العراق ، والتأكيد على وحدة العراق الجغرافيةووحدة شعبه .

يكفى أن نشير أيضا إلى أن سياسة سورية لازالت تتجه سلبا ، أو ايجابا مع أى دولة تبعا لموقف هذه الدولة من القضية الفلسطينية ، فالرئيس الأسد مع القضية الفلسطينية ، ومع الذين يدعمونها ، وهو عدو لدود لمن يقف ضد هذه القضية .

بصمات الرئيس حافظ الأسد على الوحدة العربية ، والتضامن العربى واضحة ، ولذلك لم يكن غريبا أن يبادر بعد تسلمه رئاسة الجمهورية بأيام إلى إعلان اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر ، وليبيا تجسيدا لإيمانه العميق بالوحدة العربية ، واعادة اللحمة الوطنية ، **يكفى أن نشير أيضا إلى الجهود الكبيرة التى بذلها من أجل تجنيب العراق الكارثة التى حاقت به من جراء مؤامرة صدام حسين فى احتلال الكويت ،** حيث بذل مع الرئيس حسنى مبارك ، وحكام العرب الآخرين الكثير لتجنيب العراق الكارثة التى حلت به ، **ولقد بذل ، ويبذل الكثير لمساعدة الشعب الليبى** على اجتياز محنته بعد قضية « لوكربى » ، وجهوده المبذولة الآن من أجل تطويق النزاع بين المملكة العربية السعودية وقطر ، والنزاع الذى نشب مؤخرا بين ايران ، والامارات العربية .

بصمات الرئيس الأسد فى العمل العربى دفعت بعض الزعماء ، والصحفيين

العرب إلى وصفه « بحكيم العرب » لما له من بعد نظر ، ومن إيمان بحتمية انتصار الأمة العربية ، وبامكانيات النهوض المتوافرة لكى تجتاز الأزمات التى تتعرض لها الآن .

سياسة واحدة فى التعامل مع الشرق والغرب

ما يميز الرئيس حافظ الأسد فى مباحثاته الخارجية انها سياسة واقعية مبنية على فهم تاريخى لقدرة القطر السورى ، وقدرة المنطقة العربية وعلى قراءة تاريخية للسياسة الدولية ذات العلاقة فى الشرق والغرب ، والرئيس فى سياسته يطرح دائما أننا يجب أن نتحاور مع الجميع ضمن الاحترام المتبادل لسيادتنا ، واستقلالنا الوطنى ، ولاسيما وأن سورية تحترم سيادة ، واستقلال الآخرين ايضا ..

الرئيس الأسد لم يحاول فى يوم من الأيام أن يجعل القرار السورى رهنا ليد قوى عظمى أخرى ، وعلى الرغم من العلاقة الوثيقة مع الاتحاد السوفيتى سابقا ومع كتلته ، فقد كان القرار قراراً عربيا سوريا يتوخى المصلحة العربية السورية والعربية اصلا وكان هذا واضحا منذ البداية لدى القوى العظمى ، ولذلك كان يتعامل مع الآخرين بوضوح ، وكان الآخرون يتعاملون معه من خلال فهم هذا المنطلق ، لم يقل الرئيس حافظ الاسد شيئا إلا اجتهد لكى يعمل به ويحافظ عليه ويفى به ، ولذلك كانت سياسته تتسم دائما بالصراحة ، والموضوعية ، ومن خلال الفهم الجيد للمصلحة العربية ، والفهم الجيد للظروف التاريخية فى العلاقات الدولية ، كان الرئيس الاسد يتقدم للحوار مع الدول الأجنبية ، ومع القيادات المتعاقبة على الولايات المتحدة الامريكية ، وكان يردد دائما نحن نحترم الشعوب الأخرى ونحترم انجازاتها ، ولذلك فإن الشعوب إذا كانت صادقة فيما تطرحه بشأن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وحقوق الانسان ، والتعاون المتكافىء المبنى على الاحترام المتبادل ، سوف تجد كل الترحيب بالتعامل معها .

وكما يقول الرئيس الأسد : نحن ليس لدينا مشكلة مع الآخرين ، مشكلتنا مع الآخرين هى أن اسرائيل جاءت تحتل أرضا لنا ، وجاءت تطرد شعبا شقيقا من أرضه ، وجاءت تحاول أن تتوسع بالعدوان ، فهل ينسجم هذا مع حقوق الانسان ، ومع حق تقرير المصير ، ومع مبادىء ، وميثاق الأمم المتحدة ؟!!

نحن لا نريد أن نعتدى على أحد ، ولا نريد أن نُلحِق الأذى بأحد ، ونحن أصحاب عقول متحضرة ، وسورية لها دور حضارى ، وتتعامل مع الآخرين بهذا المنطق ، وعندما التقى الرئيس حافظ الأسد مع قادة فرنسا الذين تعاقبوا على الحكم مثل « فاليرى جيسكار دستان » « وفرانسوا ميتران » وغيرهما كان يقول لهما : إن لبنان

عربى ، ولذلك لا يجوز أن تكونوا أوصياء عليه ، ولو حاولتم ذلك ، فإنكم ستخسرون لأن اللبنانيين أنفسهم لا يريدون لأحد من خارج لبنان أن يكون وصيا عليهم ، وسورية عندما تفعل أى شىء فى لبنان لا تفعله كالغريب ، وإنما تفعله بحكم الجوار الجغرافى ، وبحكم التضامن العربى ، ووفق قرارات الجامعة العربية ، وبطلب من الشرعية اللبنانية ، فضلا عن أن السوريين ، واللبنانيين أقرباء ، فكيف يمكن أن تكونوا أوصياء علينا ، هذا شىء لن يكون لمصلحتكم ، ولا لمصلحة لبنان ».

عندما جاء مندوب البابا يقول للرئيس حافظ الأسد : إن المسيحيين فى لبنان يجب أن يكونوا تحت الوصاية ، أو الولاية ، **كان الرئيس الأسد يقول : المسيحيون هم عرب منذ أقدم العهود ، حتى السيد المسيح عاش معنا هنا ، ومعظم السوريين كانوا يدينون بالمسيحية حتى جاء الاسلام وقداستقبلوا المسلمين كأولاد عمومة ، وفضلوهم على الرومان من بنى دينهم ، وأنتم تتعاملون بمنطق لا يمكن أن يسود عندنا ، المسيحى العربى لا يقبل وصايتكم ، ونحن نؤكد أن لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، ولذلك لا نقبل أن تحدثونا وكأننا نحن فى موقف التعارض مع المسيحية ، بالعكس نحن نرى أن العرب المسيحيين ساهموا فى صنع الحضارة العربية جنبا إلى جنب مع اخوانهم المسلمين**» ولذلك عندما رأوا هذه الموضوعية ، وهذه الصراحة ، وعندما كانوا يتصلون بالآخرين ، كانوا يجدون مصداقية لكلام الرئيس الأسد على الواقع ..

وعندما تحدث الرئيس حافظ الأسد مع الأمريكان قال لهم : « نحن لسنا تبعا أو شيوعيين ، نحن نسعى وراء مصالحنا الوطنية ، ونحن نريد أن نحتفظ بعلاقة جيدة معكم ، ومع كل الدول ، ولكن أنتم تنظرون إلينا نظرة أعداء ، نحن لسنا معادين للشعب الأمريكى ، ونحن نعتز بالانجازات الحضارية التى أنجزها الشعب الأمريكى ، ولكن إذا أردتم أن تكون علاقتنا واضحة فعليكم أن تتفهموا مشاعرنا الوطنية .. كيف يمكن أن تقبلوا دولة تعتدى ، وتضم أراضى الغير ، ولا تقفون منها موقفا يؤدى إلى نشوء العدالة ، وانتصار الحق ، بل تتخذون المواقف المغايرة ؟!، إذا كنتم تريدون فعلا السلام ، والعدل ، والبحث عن الحق ، فسوف تقفون الى جانب الحق العربى ..

الصراحة فى مقابلات حافظ الأسد ـ مع نيكسون فى دمشق ، ومع الرئيس بوش ، ومع الذين تعاقبوا على الخارجية الأمريكية والذين قابلوه ـ جعلتهم يؤمنون بأنه رجل مثقف وطنى صادق المشاعر ، يجيد الدفاع عن قضيته ، ولا ينكر حقوق الآخرين ، ولذلك كتبوا عنه ما كتبوه فى مذكراتهم ، سواء فى مذكرات نيكسون ، وكيسنجر ، وفانس ، وكارتر ، وجميع من كتبوا عن الشرق الأوسط تكلموا بموضوعية عن الرئيس حافظ الأسد .

المصلحة العربية محرك أساسى للسياسة الخارجية السورية

فى ظروف الحرب الباردة كان هناك السعى الدائم من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا الغربية على دعم إسرائيل ، وتقويتها على حساب العرب ، ونستطيع ان نستشهد بما جرى فى حرب ١٩٤٨ ، حيث مكنت إسرائيل من الانتصار على العرب بدعم المعسكر الغربى الذى نهض بعد الحرب العالمية الثانية ، وفى عام ١٩٥٦ شاركت دولتان مهمتان من المعسكر الغربى ، وهما فرنسا ، وبريطانيا ، بالاضافة إلى اسرائيل فى غزو مصر ، وفى عام ١٩٦٧ ، عندما اعتدت اسرائيل على الدول العربية ، وحققت ماحققت فقد ساعدها على ذلك التسليح الأمريكى ، والفرنسى ، والبريطانى ، الأمر الذى مكن اسرائيل من تحقيق التفوق التكنولوجى ، والتسليحى ، ومن احتلال اجزاء جديدة من الاراضى ، الأمر الذى اضطر العرب اضطرارا لكى يعقدوا معاهدات ، أو صداقات مع المعسكر الاشتراكى بقيادة الاتحاد السوفيتى القائم آنذاك كما فعلت مصر وسورية اللتين وجدتا الأبواب الغربية موصدة بوجهيهما للحصول على السلاح مالم يقدما تنازلات جوهرية لاسرائيل ، وسلكتا طريق التعامل مع الدول التى تعتبر نضال العرب نضالا مشروعا وعادلا وتحريريا .

الرئيس الأسد فى هذه الفترة كقائد من القادة العرب الذين عاشوا فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وساهموا إسهاما كبيرا فى النضال فى فترة الخمسينات ، والستينات ضمن الأحداث الكبيرة للأمة العربية .. طرح مقولة انه يجب أن ننظر فى سياستنا نحو العالم الخارجى إلى موقف هذا العالم من قضايانا العادلة ، وعلى رأسها قضية شعب فلسطين ، ولذلك فإن موقف سورية بقيادة الأسد كان يتأثر سلبا ، أو ايجابا بموقف هذه الدول من القضايا العادلة للأمة العربية .

وكان الرئيس حافظ الأسد يقول دائما : ليس المهم أن تعقد معاهدات بين دولة ، وأخرى .. نحن لم نعقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتى حتى فترة الثمانينات .. فى الخمسينات ، والستينات ، والسبعينات لم يكن بيننا ، وبين الاتحاد السوفيتى أى معاهدات صداقة، ومع ذلك كنا نلقى منه الدعم والمساندة السياسية والعسكرية وفق مصالحنا المشتركة ، ووفقا لاحترام متبادل لسيادة كل دولة واستقلالها .. ولذلك تعامل الرئيس الأسد مع الاتحاد السوفيتى دون تبعية .

يكفى دليلا على ذلك ان الاتحاد السوفيتى كان له رأى مغاير لرأى سورية فى لبنان ، وفى حرب الخليج ، وفيما يجب ان يكون عليه حل مشكلة الشرق الأوسط ..وسورية تؤمن بالسلام القائم على العدل ، ولكن تؤمن ايضا بالدرجة نفسها بحق كل الشعوب فى

أن تكافح من أجل الحرية والاستقلال ، وفى فترة من الفترات كان الاتحاد السوفيتى يُقَتِّر على سورية فى الأسلحة ، ويسعى إلى خلق هدوء يمهد للتفاوض ، ومع ذلك كانت سورية تقول للاتحاد السوفيتى أن الولايات المتحدة تسلح إسرائيل بكل الأسلحة التى تمكنها بأن تكون دولة أكثر قوة فى المنطقة ، والتى يعادل تسليحها تسليح العرب مجتمعين ، بل وتتفوق عليهم .

يضاف إلى ذلك أن الرئيس حافظ الأسد كان على خلاف مع الدول الغربية بالنسبة لقضايا كثيرة مثل قضية لبنان ، وقضية فلسطين ، وقضايا اقليمية أخرى ، ولكن ذلك لم يمنع من أن تكون هناك علاقة جيدة بين الرئيس الأسد ، وقادة دول المعسكر الغربى ، والمعسكر الشرقى ، كانت هناك أوجه خلاف كثيرة ، وكانت تصل إلى حد الصدام بين سورية ، والولايات المتحدة ، وحدث هذا الصدام فى لبنان فعلا عندما أسقطت القوات السورية طائرات أمريكية ، وأسرت بعض الطيارين ، وكان الرئيس الأسد يقول : إذا أردنا أن نتعامل فيجب أن نتعامل من موقع الند للند ، ومن موقع الاحترام المتبادل ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة ، ولذلك فإن الادارات الأمريكية المتعاقبة كانت تحاور الرئيس ، وترى أن موقفه الوطنى موقف متميز ، وليس تابعا للاتحاد السوفيتى كما كانت تصوره الصهيونية .

بعض الناس فى الغرب كانوا ينطلقون من ادعاء يقول :بأن سورية دولة ارهابية ، وقد أثبتت الأحداث أن الأمر ليس كذلك ، وأن سورية دولة تدين الارهاب وتقاومه بقوة وانها دولة ترغب فى تحقيق السلام العادل والشامل وفق قرارات الشرعية الدولية .. وبعد الزيارات المتكررة التى قام بها « جيمس بيكر » فى سبيل الاعداد لمؤتمر مدريد ومشاركة سورية فى هذا المؤتمر على أساس تنفيذ المبادرة الامريكية التى اعتبرت ان قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ يشكلان الأساس فى تحقيق سلام عادل وشامل للصراع العربى الاسرائيلى .

ولقد تأكد للجميع أن السلام هو منطلق من منطلقات السياسة السورية ، ولكنه السلام القائم على العدل ، على احترام الشرعية الدولية ، دون تفريط فى حبة تراب من الأرض العربية المحتلة .

وعلى الرغم من تطورات الأحداث السياسية المختلفة ، فقد استطاع الرئيس الأسد وببراعة تُحسَبُ له أن يحتفظ بعلاقات عربية متينة ، على سبيل المثال ، برغم خلاف الرئيس الأسد مع نظام صدام حسين فى العراق ظل يتعاطف مع شعب العراق ، وكانت ولاتزال الأراضى السورية بيتا للمعارضة العراقية التى وجدت لدى الرئيس الأسد التفهم الكامل للوضع فى العراق وحرص الرئيس الأسد على العراق وايران دفعه بعد الحرب العراقية ضد ايران الى العمل لمنع توسيع رقعة هذه الحرب وانهائها. وفى خلال حرب الخليج

فقد كان هو المدافع بغير تردد ، بل والمندفع للتأكيد مع الرئيس مبارك على انهما لن يسمحا لأحد أن يهدد وحدة العراق الجغرافية ويقسّم شعبه .

الوحدة العربية

فى أحد مؤتمرات القمة لاحظ الذين استمعوا إلى الرئيس حافظ الأسد أنه خرج عن النص الذى كان قد أعده ، وأضاف بعض الفقرات الهامة حول موضوع التضامن العربى ، والحرب العراقية ـ الايرانية .

الفقرات التى خرج فيها الرئيس الأسد عن النص جاء فيها : «سورية تقول دائما لا شىء من دون محتوى، التضامن ليس كلمة مجردة، والوحدة ليست كلمة مجردة، هذه كلمات لها مضامين، نحن مع هذه المضامين نتمسك بها، ولا نستطيع أن نتنازل عنها، فى كل وقت سورية تريد التضامن أولا: على أساس المواثيق العربية، كل المواثيق العربية سورية تتقيد بها حرفيا، ثانيا: على أساسيات قرارات القمم العربية وكل قرارات القمم العربية سورية تتقيد بها ثالثا: على أساس المواثيق الثنائية وكل المواثيق الثنائية سورية تتقيد بها حرفيا وأرجو من الأخوة أن يتحدونى، أو يتحدوا بلدهم سورية فى هذا الاتجاه، فى الاسراع .. فى المسارعة .. فى تطبيق قراراتنا، ومواثيقنا التى وقعنا عليها، والتزمنا بها طواعية، واعتبرناها، ومازلنا نراها معبرة عن ارادة شعوبنا. فلنلتزم بها لنتضامن على أساسها، لنفهم، وليفهم المواطنون العرب، وليفهم اخواننا المسلمون غير العرب على ماذا نحن متضامنون».

وفى خطاب آخر للرئيس حافظ الأسد قال : **الوحدة العربية هدف أسمى باعتبارها ضرورة حياتية بجوانبها السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والدفاعية.**

الوحدة هدف قائم بذاته .. يتطلب شرف النضال فى سبيل تحقيقه ، اما من يتحدث عنها ، ويضع امامها العراقيل ، والمصاعب ، فإنه يضع نفسه بقصد ، أو بغير قصد فى موضع الانعزال ، والتقوقع ، وحيث الانفصاليون ، والتجزيئيون أعداء الوحدة ، وعندما ينتكس أى عمل وحدوى بعد تحقيقه فلا يدل على علة فى هدف الوحدة ، ولا يجوز ، ولا يمكن أن يُبْدِىَ فى نفوسنا القلق ، واليأس ، بل يحفزنا على تصعيد الكفاح ، ومواصلة الجهد لتحقيق الوحدة .. نحن سنستمر فى نضالنا من أجل الوحدة ، ولا شروط لنا على من يريد أن يحاورنا فى هذا الأمر إلا شرط تحقيق الوحدة » لذلك فإن هذا الإيمان ، وهذه الفلسفة تعتبر مواقف للحكم فى سورية .. والفلسفة ليست لها عوامل متغيرة بعكس الكثير من المواقف التى يمكن أن نقول بأنها مواقف للحكم فى بلد أو آخر .. الفلسفة التى يتبناها

الرئيس الأسد هى فلسفة الوحدة ، وبالتالى عندما ينطلق فى العلاقات مع أى قطر عربى شقيق ، فهو ينطلق من النظرة إلى المستقبل بأن مصلحة العرب فى هذا القطر ، أو ذاك هى مصلحة واحدة ، وبالتالى لا يجوز اطلاقا أن يكون الخلاف بين الحاكم والحاكم ، أو أى خلاف فى وجهات النظر بين هذا ، أو ذاك ، لا يجوز أن يكون عاملا للاحباط ، أو اليأس فى تحقيق الوحدة العربية لأن هذا الخلاف الطارىء ، والمؤقت ليس خلافا حول قضية الوحدة ، أو حول الجماهير العربية لأنها بطبيعتها وحدوية ، وإنما مرجعه وجود خلل فى هذا النظام ، أو ذاك ، وعلينا أن نسعى لازالة هذا الخلل ، **ولذلك لم ينظر الرئيس الأسد لموضوع العلاقات العربية بنظرة قصيرة المدى تفرضها مصلحة حاكم ، وإنما كان ينظر إليها بعقل الفيلسوف الذى ينظر الى المستقبل على ما يجب أن يكون** ، ولذلك فهو كثير الصبر ، والأناة عندما كان يتعامل مع القضية الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية الأولى.ان الرئيس الاسد ينظر الى التاريخ والجغرافيا ،ويكسوهما بطابع الفلسفة القومية التى ترى أن مصلحة الفلسطينيين هى مصلحة العرب ، وأن قضية فلسطين هى قضية عربية بالدرجة الأولى وإذا انسلخت القضية الفلسطينية عن جسدها العربى ، أو عن مجالها العربى اصبحت قضية قطرية منعزلة قد تتعرض للانقسامات ، والتجزئة ، وقد تتعرض لإجهاز الأعداء عليها إذا ماخرجت قوميا عن اطار موقفها النضالى .

كان يخشى الرئيس الأسد على ما تؤول إليه القضية الفلسطينية من خلال النزاعات التى كانت تتم بين منظمة التحرير الفلسطينية **على سبيل المثال** ، وبين أى قطر عربى أخر ، كما حدث فى الخلاف الأردنى ـ الفلسطينى عام ١٩٧٠ ، أو الخلاف الفلسطينى ـ اللبنانى أو الخلاف الفلسطينى ـ الكويتى ، بعد غزو العراق للكويت ، أو الخلاف الفلسطينى ـ السورى ، كان الأسد يرى بحكمة القائد الفيلسوف أنه يجب النظر للقضية من حيث أهميتها الاستراتيجية بالنسبة للمستقبل العربى ، **ولذلك كان يقول** (إنه لا يجوز إطلاقا أن يكون هذا الخلاف ، أو ذاك عاملا ، أو سببا لكى ندير ظهورنا لبعضنا البعض ، أو نقتتل على مجرد خلافات هامشية ، يجب أن ننظر للمستقبل ، وبعمق لكى نستطيع أن نصنع فى الحاضر ما يجب أن يؤدى ، أو يصل بنا إلى هذا المستقبل ، الذى يمكن أن يكون فيه خلاصنا من الاحتلال ، والسير على طريق الحرية ولذلك عندما اختلفت سورية مع النظام الأردنى نتيجة دعم الحكومة الاردنية للاخوان المسلمين فى مرحلة من مراحل السبعينات ، وبرغم ما مارسه من مساعدة لهم ومن إلحاق الأذى بالمواطن والمؤسسات السورية ، وبالرغم من أنه كان لدى سورية القدرة على توقيع العقاب ، كان الرئيس الأسد يرى بحكمته انه لا يجوز أن نعاقب شعب الأردن الشقيق على هذا ، ولذلك لم يغلق الحدود بين البلدين ، وظل التبادل التجارى

مستمرا بل وظلت المشاريع المشتركة قائمة ، ولم يغلق باب الحوار مع الملك حسين حتى اضطر الملك حسين فى يوم من الأيام إلى الاعتذار ، وعبرشاشةالتليفزيون مؤكدا أنه لم يكن على علم بما جرى ، وبأن سورية الشقيقة والرئيس الأسد يتمتعان عنده بكل الحب وعظيم الاحترام والتقدير .

فى الحرب العراقية الايرانية كان لبعض دول الخليج نظرة تختلف عن نظرة سورية لهذه الحرب .. كان الرئيس الأسد يرى « بحكمته انه لا تناقض بين العروبة والاسلام » ولا يمكن اطلاقا لأى مسلم أن يكون عدوا للعرب ولا يمكن لأى عربى أن يخرج من روحه الاسلامية ، ولذلك كان يرى بأن ايران اذا كانت صادقة فى ثورتها يجب أن تظل احتياطيا استراتيجيا للعرب ، ولا يصح أن تكون نقيضا للعرب ، بينما كان صدام حسين يقول أن هذه الحرب عربية فارسية وكان يتهم الايرانيين بالمجوس ، وهم مسلمون منذ دخول العقود الأولى للهجرة بعد الفتوحات التى تمت ببلاد فارس ، وكان بينهم صحابيون أجلاء فى الاسلام مثل سلمان الفارسى ، وكان الرئيس الأسد ينظر الى التاريخ بأن استمرار الحرب فاجعة لا يمكن أن تتم إلا على حساب العرب والمسلمين ، وكان ينادى بأعلى صوت ليتوقف هذا الحريق المدمر وهذه النار .

وان الرئيس حافظ الأسد يسعى دائما للحوار والاتصال لكى تكون العلاقات العربية الاسلامية فى أزهى صورها لأنه كان يؤمن ولايزال بأن المصلحة العربية والمصلحة الاسلامية واحدة ، وقد تحققت توقعاتهووجهة نظره بما جرى من نتائج مدمرة على البلدين وفى هذه الحرب التى دامت ثمانى سنوات بين العراق وايران ، ورغم ان النظام العراقى لم يترك وسيلة إلا وتآمر بها على سورية، ومع ذلك التقى الرئيس الأسد مع الرئيس العراقى صدام حسين فى مؤتمر قمة عمان ، ومن ثم ومن خلال هذا المؤتمر تمت لقاءات كثيرة بين وزيرى الخارجية فى البلدين بحثا عن أى وسيلة تنهى الخلاف بين الدولتين الشقيقتين حتى أثناء غزو العراق للكويت ، وبالرغم من تهجم صدام حسين وأجهزته الاعلامية على الرئيس الأسد ، **وبكبرياء الفارس العربى أرسل له رسالة تعتبر من عيون الأدب السياسى** ليثنيه عن بقائه فى الكويت ويطالبه بالانسحاب حرصا على الجيش العراقى الشقيق وعلى الشعب العراقى الشقيق من الدمار، ويتعهد له بالوقوف معه فى خندق واحد لمجابهة أى اعتداء يتعرض له العراق بعد انتهاء غزوه للكويت، وكما قلنا فإن الرئيس الأسد فى نظرته للمستقبل ، ينظر من خلال بعد فلسفى فى التاريخ لأن هذا هو ما يجب أن يكون ، والحالة المرضية لبعض الأنظمة العربية لا يمكن أن تثبت إلى ما لا نهاية لأن المناعة فى الجسد كالطبيعة عند الإنسان تخلق ظروفا ضد المرض وتتخلص من عوامل الداء، ومابالنا بأمة يتجاوز عدد سكانها ٢٥٠ مليونا وتمتد على قارتين

من الأرض.. مساحة وامكانيات وثروات ، بالاضافة الى التراث والروح الحضارية الوثابة للأمة العربية التى صمدت فى وجه التحديات منذ آلاف السنين .

إذن الرئيس الأسد لا ينظر للسياسة بأنها صدى عقلية حاكم ما ، وانما ينظر لها باعتبارها صدى لنبض شعب ولفكر شعب ، وهذا الشعب ليس فقط فى سورية وانما فى كل البلاد العربية ولدى الانسان العربى على امتداد الوطن العربى .

لذلك ، فإنه اذا كانت السياسة هى فن الممكن ، فإنها عند الرئيس حافظ الأسد هى السير فى الامكانيات المتاحة لايجاد امكانيات أكبر من واقع الفهم الموضوعى والتحليلى للامكانيات الكامنة فى الأمة .

السياسة السورية فى المجال العربى

وبعد :

فإن النماذج التى تؤكد أن البعد القومى هو المكون الأساسى للسياسة العربية السورية بأبعادها المختلفة كثيرة ومتنوعة ، ونعرض فى الفصول القادمة لنماذج تؤكد هذه الحقيقة وتدعمها ، نماذج من لبنان ومن الخليج ومن قضية العرب المركزية وهى القضية الفلسطينية .





□□ من المؤكد ان العلاقة بين الرئيسين مبارك والاسد ، هي تجسيد للعلاقة بين الشعبين عبر التاريخ وهما يؤكدان دوما ان ثمة ضرورة وطنية وقومية لوجود علاقة مميزة بين سورية ومصر .





□□ يولى الرئيس حافظ الاسد اهتماما كبيرا لروح التسامح الدينى فى سورية وكثيرا مايلتقى ممثلو رجال الدين المسيحى «فى الاعلى» ورجال الدين الاسلامى «فى الاسفل» فى جامع بنى امية بمناسبة صلاة عيد الفطر المبارك ..

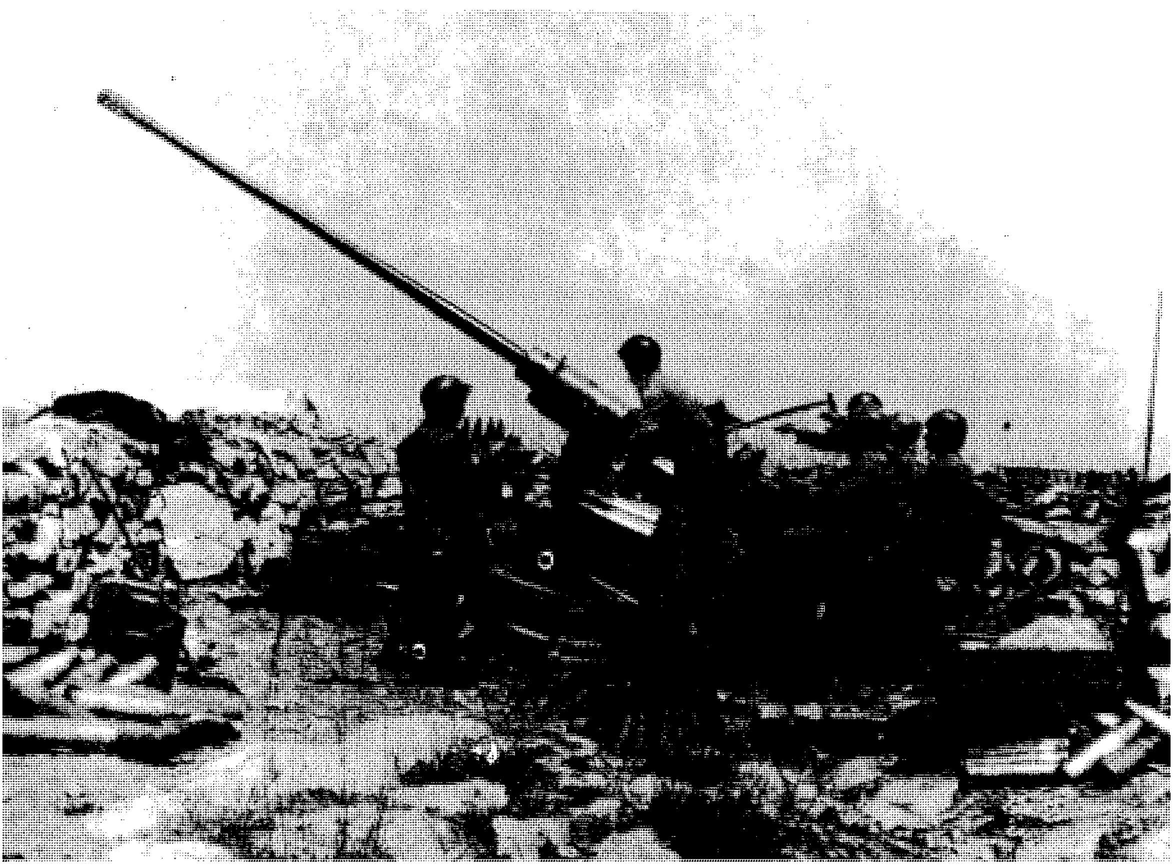


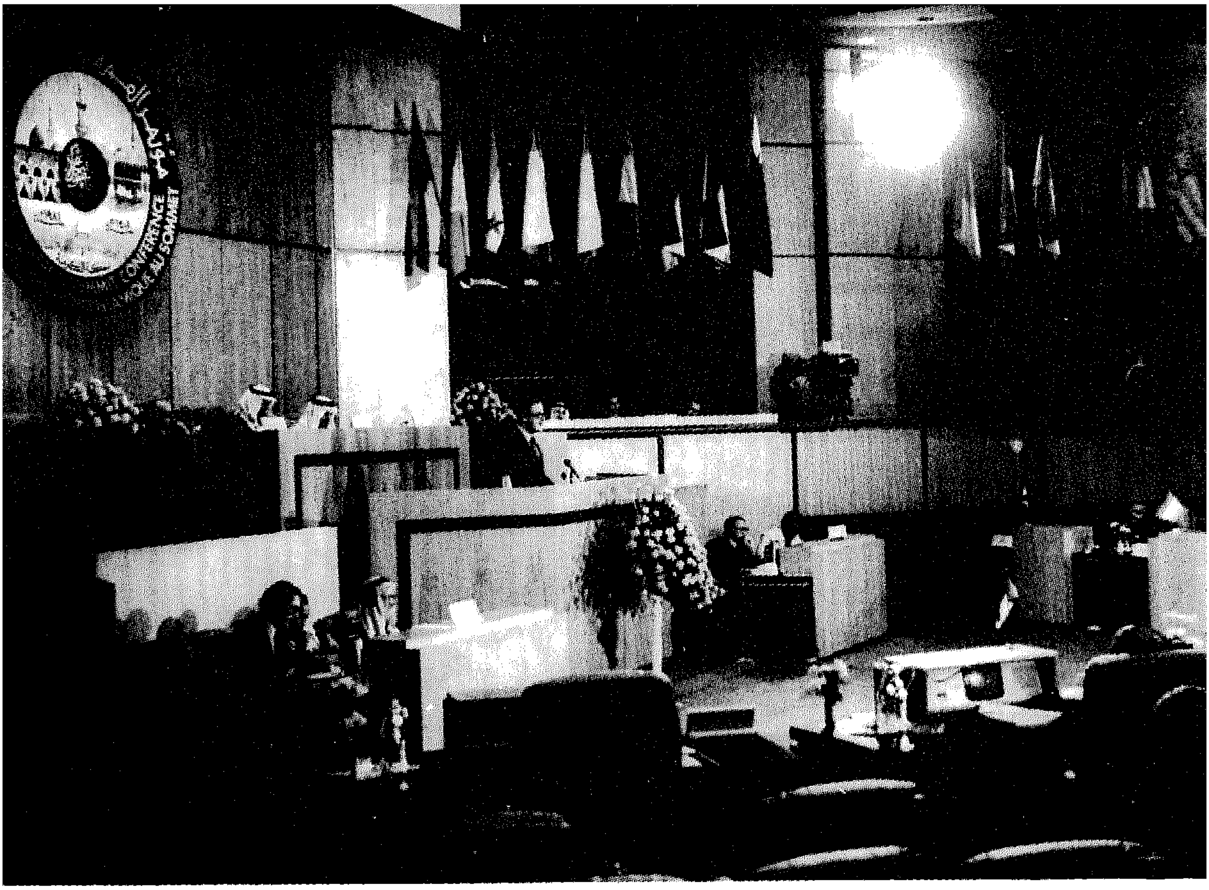


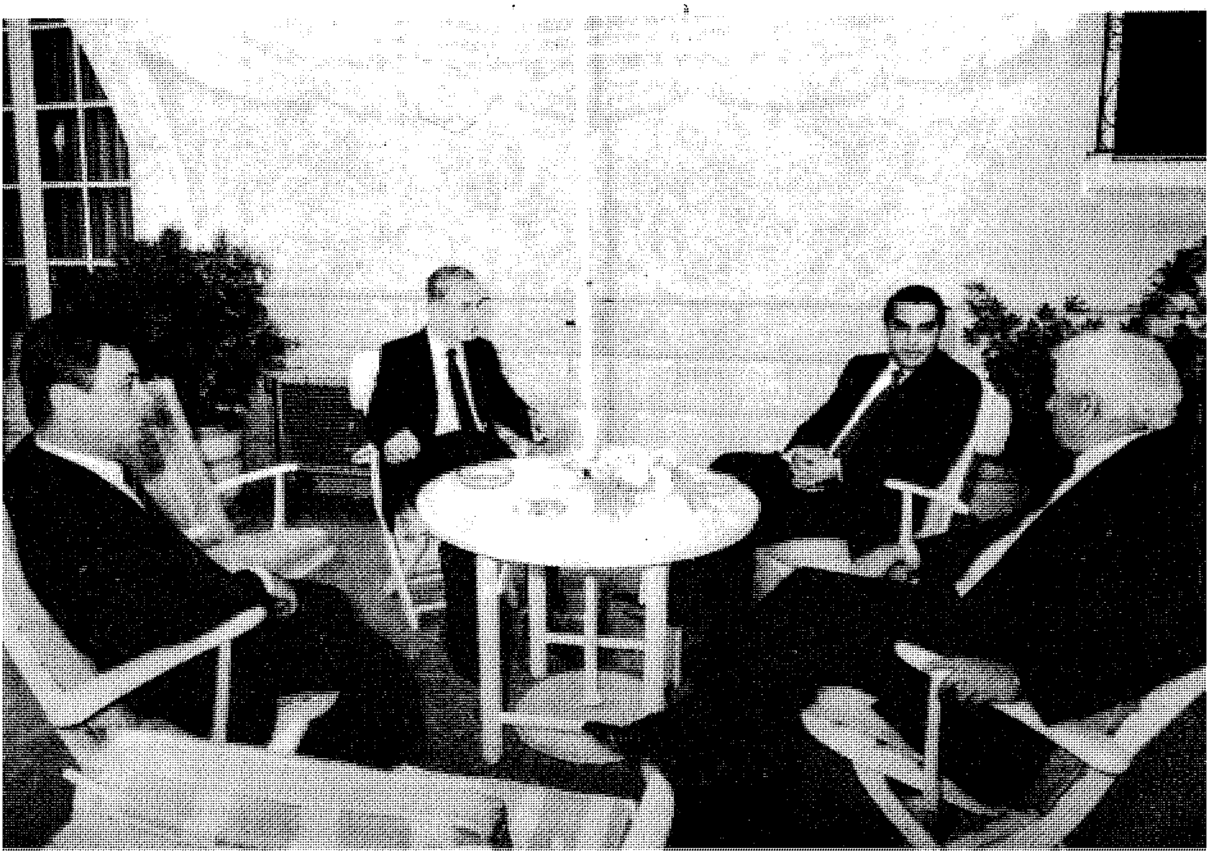
□□ الصورة فى الاعلى : الرئيس حافظ الاسد ووزير الدفاع مصطفى طلاس يتفقدان الخطوط الامامية فى الجبهة المواجهة لجيش العدو .

□□ الصورة فى الاسفل : الرئيس حافظ الاسد يغادر المسجد الأموى فى ٢٧ تشرين الاول «اكتوبر» عام ١٩٧٣ ، اول ايام عيد الفطر المبارك .






CONFERENCE
AU SOMMET



















□□ الصورة فى الاعلى : احد الاجتماعات الحزبية ويبدو فيها من اليسار الرئيس حافظ الاسد ، عبدالله الاحمر ثم محمود الزعبى ، وزهير مشارقة الى اليسار من الخلف . .

□□ الصورة فى الاسفل : من الجزائر فى ٢٦ تشرين الثانى «نوفمبر» عام ١٩٧٣ الرئيس حافظ الاسد يحضر القمة العربية السادسة مع وزير الخارجية عبدالحليم خدام . .


Conference
With Syria
22.25.6.81
المؤتمر الدولي للتضامن
مع سورية
ومنظمة التحرير الفلسطينية



















■ التأريخ للحركة المصدقة ■

٥

قراءة في فكر الأسد

العلاقات السورية
اللبنانيـــة

□□ أرض واحدة وتاريخ مشترك .
□□ المبادرة السورية في لبنان .
□□ الغاء اتفاق ١٧ ايار .
□□ ايقاف الحرب الأهلية واتفاق الطائف .

جرى على لبنان من الأحداث ما جرى على سورية، فقد كان تابعا للدولة العثمانية ، باعتباره جزءا من بلاد الشام ، وبعد الحرب الكونية الأولى قسمت بلاد الشام ، وكان لبنان أحد هذه الاقسام وخضع للانتداب الفرنسى .

ومنذ اللحظة الأولى للانتداب . أخذ الفرنسيون يعملون بمختلف الطرق على توطيد أقدامهم ، وتحقيق منهجهم الاستعمارى ، والذى كان فى مقدمة اهدافه الحيلولة بين لبنان ، وبين تيار الحركة العربية ، وحصره فى نطاقه الاقليمى الخاص ليكون موطىء قدم ثابت لهم .

وقد ضاعفت فرنسا وقتذاك من جهودها فى سبيل منع أى حركة قومية اصيلة فى لبنان، وحالت دون قيام أى دعوة عربية ، وفرضت رقابة شديدة على الصحف ، ومنعت قيام الأحزاب ، وحرمت عقد الاجتماعات واشهرت سيف الارهاب فى وجه القوى الوطنية ، والقومية حتى ينكمشوا فى مواطنهم فلا يفكروا فى العروبة ولا فى القومية العربية ، وبدأت فرنسا تستغل مسألة الطائفية المنتشرة فى لبنان بصورة واضحة .

(ومن أمثلة هذه الطوائف نذكر السنيين ، والشيعيين والدروز، والعلويين ، والمارونيين ، وطوائف أخرى من المسيحيين الأرمن) وحرصت فرنسا على تدعيم فكرة

الطائفية والتعصب لها ، وأزكت روح التنافس بين مختلف الطوائف ، وأوهمت بعض الطوائف بدعاياتها الكاذبة المسمومة بأن فكرة القومية العربية من شأنها أن تُغَلِّب طائفة على طائفة ، وأن محاربة هذه الفكرة تمكن الطوائف من الحفاظ على **مصالحها ، وشخصيتها وتقاليدها الخاصة ، وقد كان من أنكى تصرفات فرنسا وأشرسها فى لبنان** تعميقا لبذور الشقاق بين الطوائف جعْل وظائف الحكومة ، والمناصب العليا قائمة على أساس الطائفية ، وقد وضح أساس الطائفية بصورة رسمية فى المادة ٩٥ من الدستور اللبنانى الذى وضعته فرنسا فى عام ١٩٢٦ اذ نصت المادة المذكورة على : (بصورة مؤقتة والتماساً للعدل ، والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة فى الوظائف العامة ، وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة) ، وبالاضافة الى هذا النص الخبيث فى معناه نلاحظ أن الدستور فى مجموعه لم يتضمن أى معنى من معانى السيادة للبنان .

على الرغم من نصه فى المادة الأولى أن لبنان دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ ، وسيادة تامة ، وكانت مواد الدستور تهدف الى تخليد طابع الانتداب اذ كان ينص على اعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية ثابتة فى البلاد (كانت المادة ١١ من الدستور تنص على أن القانون يحدد الأحوال التى تُستَعْمل فيها اللغة الفرنسية ، وكانت ألوان العلم اللبنانى **هى ألوان العلم الفرنسى، وفى وسطه شجرة الارز كرمز للبنان) وعلى الرغم من هذه السياسة** الهدامة ، والضغط الشديد على أبناء لبنان فإن نفرا من أبنائه الأحرار ذوى المبادىء السامية والعقيدة العربية الراسخة صمموا على تعديل الدستور ، وحذف المواد التى تتعارض مع استقلال لبنان وسيادته وكان ذلك عام ١٩٤٣ اذ أعلن استقلال لبنان فى ذلك التاريخ وتولى الشيخ بشارة الخورى رئاسة الجمهورية ورياض الصلح رئاسة الوزراء وأعلن المرحوم رياض الصلح فى بيان تاريخى ألقاه أمام مجلس النواب اللبنانى فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٣ أن لبنان بلد عربى يمت الى العروبة بأوثق المظاهر والصفات ، وأنه يجب أن يتعاون مع البلاد العربية الأخرى على أساس هذا الاعتبار .

ولبنان من أحوج الدول الى التعاون مع العرب ، وموقعه الجغرافى ولغة قومه وثقافته ، وتاريخه وظروفه الاقتصادية تجعله يضع علاقته بالدول العربية الشقيقة فى طليعة اهتمامه ، واقامة علاقات معها على أسس معينة تكفل احترام الدول العربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده ، ولكن هذه الانتفاضة التى ظهرت فى لبنان ، وتمثلت فيها الروح العربية الصميمة التى تجلت فى المطالبة بوجوب استعمال اللغة العربية وحدها ـ دون غيرها ـ فى وزارات الدولة ومصالحها وفى ربط لبنان بالبلاد العربية ربطا وثيقا على اعتبار انه جزء من الوطن العربى ..

نقول إن هذه الوثيقة التى حمل لواءها الأحرار وعلى رأسهم المرحوم رياض الصلح

والشيخ بشارة الخورى لم ترق للفرنسيين المستعمرين ، وأثارت حفيظتهم فاعتقلوا رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء وعددا من الوزراء والنواب ، وقد أدى هذا التصرف الاستفزازى الى انفجار بركان الثورة فى لبنان ، وكانت ثورة عارمة شاملة ضمت مختلف الطوائف من مسيحيين ومسلمين ، واشترك فيها المارونيون المسيحيون، ، وبادرت الدول العربية حكوماتها وشعوبها الى تأييد لبنان وتعضيده فى كفاحه المستمر ، وقد أدى هذا الوضع الى انبعاث لبنان من جديد وظهوره بوجهه العربى الصحيح ، وسار فى ركب العروبة ، وانضم الى جامعة الدول العربية عضوا فيها وذلك فى عام ١٩٤٥ ، واندمج فى مختلف القضايا العربية على أساس انه قطر عربى ، وجزء من الوطن العربى الكبير ، ولم يتهيب اللبنانيون جبروت الفرنسيين ، وعسفهم ، واجتمع قادتهم فى جبل لبنان الذى اتخذوه مقرا للحكم ، وأعلنوا تأليف حكومة وطنية معارضة للحكومة التى ألَّفها الفرنسيون ، وجعلوا رئاستها للسيد إميل ادَّه الذى انفرد وحده بمعارضة قرار البرلمان مؤيداً حكومة رياض الصلح ، ولما تأزم الموقف عرضت الحكومة الوطنية قضية لبنان على مجلس الأمن ، وكان لبنان قد قُبِل عضوا فى الأمم المتحدة فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ فأصدر مجلس الأمن قراره بوجوب جلاء القوات الفرنسية المحتلة عن لبنان، وقد تم الجلاء فعلا فى سنة ١٩٤٦ .

وهكذا كُلِّلت جهود الوطنيين الأحرار ، وطويت صفحة اليمة من تاريخ لبنان ، التى سوَّدها المستعمرون الفرنسيون بسياساتهم الهدامة ، وبدأ عهد جديد يطل على لبنان أمل الجميع فيه كل خير للبلاد وللعروبة ، وكان ميثاق الاستقلال الذى أعلن عند رياض الصلح ، وتعاهد الجميع على تنفيذه بأمانة واخلاص حتى يشعر كل فرد بنعمة الاستقلال ومزاياه فى كل مرافق الحياة ، ويلمس نتائجه فى حسن الادارة واستقامة العمل ، وشيوع المساواة وازدهار الحالة الاقتصادية ..

نقول كان ميثاق الاستقلال يتضمن محاربة الطائفية اذ جاء فى بيان حكومة رياض الصلح أن من أهم أسس الاصلاح التى تقتضيها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية ، والقضاء على مساوئها ، لأن الطائفية تعوق التقدم الوطنى من جهة ، وتسىء الى سمعة لبنان من جهة أخرى فضلا عن انها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التى يتألف منها الشعب اللبنانى ، وتضعف وحدة الوطن ، فالغاء الطائفية يعد من **الاصلاحات الوطنية الخطيرة ذات الأثر المحمود بالنسبة للبنان، ولكن على الرغم من هذه المواثيق** والعهود فإن نفرا ممن تُسَيِّرهُم مصالحهم الشخصية ، ولا يعترفون اطلاقا بالمصلحة الوطنية دأبوا على ايقاظ الفتنة الطائفية ونفث سمومها ونشر أباطيلها ليستفيدوا من وراء ذلك ، ويصلوا عن هذا الطريق الدنس ، وتلك الأساليب الشائنة الى منصب الرئاسة حيث تُتَاح لهم فرصة الاستغلال والاثراء غير المشروع على حساب الوطن .

والغريب في الأمر أن زعيم الداعين الى الفتنة والفرقة هو كميل شمعون ، كان وزيرا فى وزارة رياض الصلح التى أعلنت وثيقة الاستقلال ، وأعلنت الحرب على الطائفية ، ولكنه تنكر لموقفه القديم فى سبيل صالحه الشخصي واستطاع أن يصل الى كرسى رئاسة الجمهورية . وعندما رشح نفسه لهذا المنصب فى سنة ١٩٥٢ كان يتهم منافسه حميد فرنجيه بأنه مسيحى متعصب يكره العرب والمسلمين هادفا من وراء ذلك الى كسب ثقة المسلمين فى المعركة الانتخابية ، ولما فاز بالرئاسة أراد فى نهاية مدته أن يعدل الدستور ليتسنى له تجديد الرئاسة فى سنة ١٩٥٨ ، وفى سبيل ذلك زعم أنه حامى المسيحيين والمدافع عن سيادة لبنان ضد الخطر العربى ، وأخذ ينتهج سياسة استفزازية بالنسبة للعرب ، وناصر حلف بغداد مقابل مبالغ مالية حصل عليها من العراق ، ولكن الأمور صارت فى لبنان على غير ما يتوقع إذ قامت ثورة فى لبنان تطالب باستقالته وترفض تعديل الدستور ، ونجحت الثورة فى الاطاحة به ، وتم ترشيح فؤاد شهاب للرئاسة فى عام ١٩٥٨ .

كما قلنا فإن لبنان كان يقوم وحتى مرحلة ما قبل ميثاق الطائف على صيغة ١٩٤٣ وهى صيغة توافقية تمت برعاية الانتداب الفرنسى ، ولم يكن أى طرف من الأطراف يرى أنها تحقق له مطالبه ، وكان هذا السبب في عدم قيام لبنان على أساس المواطنة الصحيحة بين اللبنانيين ، وتعميق شعور الانتماء الى الطائفية والقبلية اكثر من الانتماء الى الوطن . العروبيون ومعهم الاسلاميون كانوا على اقتناع بأن صيغة سنة ١٩٤٣ صيغة مؤقتة ، وأن لبنان كيان مصطنع وأن الأراضى اللبنانية جزء من الأرض السورية ، واذا كانوا قبلوا العيش فى اطار هذه الصيغة فلأن ظروف لبنان لم تكن تسمح بأى اخلال بها ، ولم تنجح ثورة سنة ١٩٥٨ فى بلورة صيغة جديدة ، أما المارونية السياسية فقد رأت فى الصيغة اللبنانية النموذج الأمثل لتحقيق أطماعها .. فأرادت أن يكون لبنان وطنا لها بوجه خاص وأن تكون الأقليات الأخرى فى خدمتها .

وقد أشار الدكتور الياس سابا فى دراسة له بعنوان (العلاقات العربية العربية والأزمة اللبنانية) ، أشار الى أن قيادات المارونية السياسية أصرت على الا يضم لبنان الكبير مناطق سورية الساحلية الغربية ذات الكثرة المسيحية الارثوذكسية ، وفضلت فى المقابل أن يضاف اليها الجنوب ذو الأكثرية الشيعية حتى لا يزيد عدد الأرثوذكس ، بشكل يهدد الموقع المميز للطائفة المارونية ، بل لقد بالغت المارونية فى تأكيد أهميتها ، وتلازم بقاء لبنان ببقائها هى ، وجاء فى وثيقة للجبهة اللبنانية نُشرت بتاريخ ١٩٨٠/١٢/٢٣ (إن سلام الشرق الأوسط مرتبط بسلام لبنان ، وسلام لبنان مرتبط بسلام المسيحية اى المارونية) .

والواقع أننا لكى ندرك أبعاد المسألة اللبنانية بشكل جيد ، فإنه من الأهمية بمكان أن

نعود الى نشأة طائفة الموارنة ، ومن المعروف أن الكنيسة المارونية تنسب الى الراهب مار مارون الذى توفى عام ٤١٠ ميلادية ، وكان هذا الراهب قد اتخذ من المنطقة الواقعة إلى الغرب من مدينة حماه مقرا له .

أن أصول هذه الطائفة سورية بحتة ، وظل الموارنة فى هذه المنطقة حتى القرن السابع الميلادى عندما نشب خلاف بينهم وبين الأكثرية فى الكنيسة الارثوذكسية وكان من نتيجة هذا الخلاف هجرة الموارنة الى جبال لبنان الشمالية ، ورغم التسامح العربى الذى أبدته الدولة الأموية تجاه الموارنة ، الأمر الذى ساعد هذه الطائفة على النمو والاستقرار فى جبال لبنان الشمالية فقد ظلت مصدر متاعب وقلق للحكم العربى الاسلامى فى دمشق بين الحين والآخر .

ويذكر الأستاذ كمال صليبى فى كتابه (الكيان اللبنانى بين التصور والواقع) أن بلاد الشام كانت مسرحا أساسيا للحروب الصليبية ، فقد استغلت المارونية السياسية والعسكرية الحملات الصليبية لتؤكد تمايزها عن محيطها العربى الاسلامى ، ويذكر أيضا انه عندما وصل الفرنجة الى بلاد الشام فى نهاية القرن الحادى عشر فيما يسمى بالحملة الصليبية الأولى التف حولها قسم من الموارنة الموجودين فى جبل شمال لبنان .

ويؤكد الدكتور محمد على مكى فى كتابه (لبنان من الفتح العربى الى الفتح العثمانى) التعاون الصليبى المارونى فيقول : « مر الصليبيون عبر الساحل الشمالى من لبنان دون أن يجدوا مقاومة ، وقد وجدوا متطوعين من الموارنة فى جهات البترون فمشوا فى ركابهم » ، ومن المؤكد أن المسيحية ككل والمارونية احدى مذاهبها لم تحتضن الحملات الصليبية بشكل عام ، ولكن كما يشير الأستاذ فؤاد العشا فى مؤلفه (حافظ الأسد قائد ورسالة) فإن تيارا سياسيا وعسكريا من المارونية كان باستمرار ومايزال حتى الآن يحاول الاستفادة من الأخطار التى تهدد العروبة والاسلام ، هذا التيار الذى تعاون مع الحملة الصليبية سابقا ، تعاون فى مرحلة ما مع اسرائيل لضرب الاتجاه العربى فى لبنان ، ومع بداية القرن العشرين وانهيار السلطنة العثمانية إثر هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى اقتسم الانجليز والفرنسيون البلاد العربية وفتتوا بلاد الشام ، وقام الفرنسيون عام ١٩٢٠ استجابة لضغوط أصدقائهم الموارنة بضم أجزاء عديدة من الولايات العثمانية التى كانت فى السابق تابعة لبيروت ودمشق الى أراضى المتصرفية اللبنانية القديمة ، وخلقوا بذلك دولة لبنان الكبير بحدوده الحالية .

واقع الأمر أن فرنسا اعتبرت نفسها حامية للتيار المسيحى بشكل عام ، وقد غذت وعمقت الخلافات الطائفية ، وقد نجم عن هذا الموقف اثارة خلافات طائفية عميقة أدت الى اضرام النار وارتكاب مذابح وتدمير فى جميع أنحاء لبنان .

العلاقات اللبنانية السـورية

العلاقة اللبنانية السورية قديمة قدم التاريخ واذا كانت أقوى من أن تطمسها رغبة انعزالى أو طائفى ، فإن الأزمات تبلورها حيث يظهر فى أوقات الشدة أن المواطن العربى فى سورية هو الذى يتحسس آلام إخواته فى لبنان ، **ذلك أن اللبنانيين والسوريين هم أبناء شعب واحد فى دولتين مستقلتين . كما قال الرئيس الأسد** . ومع قيام الانتداب الفرنسى على سورية ولبنان بعد الحرب الكونية الثانية نشأ تحديد لحدود الجمهورية اللبنانية ، فقام الكيان اللبنانى الحديث وأنشأ الانتداب فى منطقة سورية الحالية دويليات **منها دويلة جبل العلويين، ودويلة حلب ، ودويلة دمشق، ودويلة جبل الدروز ، وكان الشيء** المتضمن فى هذه الخطوات التى قام بها الانتداب أنه لكل طائفة ولكل مجموعة بشرية **متجانسة طائفيا دويلة ، ولكن الشعب السورى والنضال السورى ضد الانتداب رفض** هذه الدويلات واستقر الأمر فى النهاية على أن سورية دولة واحدة ، أما فى لبنان فقد تم القبول بحدوده وبتنازل المسلمين عن رغبتهم فى الانضمام الى سورية فى مقابل تخلى المسيحيين عن فكرة الضمانه الممنوحة من فرنسا ..

وهكذا قام جاران . سورية واحدة موحدة لفظت فكرة الدويلات وأصبحت جسما موحدا ، والجار الثانى لبنان ، الذى استطاع من خلال ميثاق ١٩٤٣ أن يجعل المسلمين يقبلون بالاستقلال عن سورية مقابل تخلى المسيحيين عن فرنسا ، وعندما ذهب الانتداب نشأت مشكلة بين لبنان وسورية ، فبين هذين البلدين وهما كيانان منفصلان وحدة فى الشئون النقدية ، والجمارك ، وفى اصدار العملة ووحدة فى الجيش أيضا ، لأن الجيش اللبنانى والسورى كليهما جزء من جيش الشرق ، فماذا يكون التصرف فى حالة وجود وحدة اقتصادية ونقدية .. الخ .

الاستقلال فى سورية ولبنان نظم علاقة جديدة .. حَلَّ الوحدة الاقتصادية والجمركية السابقة وأصبح لكل دولة وضعها المستقل بالاضافة الى الاستقلال السياسى .

نشأت فى سورية دعوة لحماية الاقتصاد الوطنى ، وتشبث اللبنانيون بالاستيراد الحر ، فنشأ نوعان من الاقتصاد .. الاقتصاد فى سورية متجه نحو الاقتصاد الموجه ، والاقتصاد اللبنانى ليبرالى بشكل صريح . نشأت خلافات بعد ذلك حيث كان رياض الصلح يتصل بحكام لبنان فى ذلك الوقت وأغلبهم ممن درسوا معه فى تركيا ، ومن الذين جاهدوا معا ضد الانتداب '**الفرنسى**' كان يتصل بهم ويقول لهم لا تجعلوا اللبنانيين يستندون لغير سورية فى الاقتصاد ، وقد حدث فى ذلك الوقت خلاف .. فمنع السوريون تصدير القمح الى لبنان ، فاتصل رياض الصلح برئيس الوزراء السورى مؤكدا حرصه

على بقاء العلاقة مع سورية على ماهى عليه، ورغبته فى عدم تعويد اللبنانيين عن الاستقلال عنهم ، وقال له : هم حتى الآن يعتقدون أنهم اذا استغنوا عن القمح السورى سيموتون جوعا واذا استمر المنع فسيكتشفون أن فى كندا واستراليا قمحا ويبدأون فى استيراد القمح من هناك ويصبح من المتعذر اعادتهم الى القمح السورى .. والحكمة أيها الاخوة السوريون تقتضى ألا تدفعوا باللبنانيين بعيدا عنكم بحيث يبدأون فى ترتيب أمورهم على أساس خاص .

المهم أن نشوء اقتصادين ليبرالى، وآخر موجه: ووجود فئات فى لبنان وسورية تستفيد من التباعد رسخت أحوالا لم تكن موجودة من قبل .. لبنان وسورية كانا وحدة اقتصادية .. ولكن نظم الاستقلال الاقتصادى بدأت منذ عام ١٩٤٣ ثم بولغ فى فهم هذا الاستقلال حتى وصل الى وضع التناحر .. **الحادثة الأهم فى تاريخ العلاقات اللبنانية السورية** بعد تلك الأيام التى تحدثنا عنها **كانت ثورة** ١٩٥٨.

يقول (روبرت مورفى) الذى جاء الى لبنان بشأن الحرب ، وقد اتصل بعبدالناصر لهذا السبب يقول: جئت الى لبنان فوجدت العلم اللبنانى مرفوعا على ثلث الأرض اللبنانية أما الثلثان الأخران فكانا بدون علم لبنان ، ومعنى ذلك أن قوة سورية برزت عام ١٩٥٨ على هذين الثلثين . ويضيف (مورفى) إن المناطق المرتفع فيها العلم اللبنانى كانت هى المناطق المزدهرة ، أما المناطق غير المزدهرة فهى التى لا يوجد فيها العلم ، أى أنه كان يقصد أن الحرمان فى ثلثى الأراضى اللبنانية هو الذى أوصلها الى سورية . ولقد جاء فؤاد شهاب فى أعقاب ثورة ١٩٥٨ وكان حكمه فيه نوع من التشابه القليل مع نظام عبدالناصر سواء من الناحية الاقتصادية أو نوع الحكم حيث وضح تأثير الجيش وبدأ يحكى عن التنمية والخطط الاقتصادية .

المرحلة الثالثة فى تطور العلاقات السورية اللبنانية كانت مع الدخول السورى الى لبنان عام ١٩٧٦ ، وكان هذا الدخول بكل المقاييس حتميا لأن الصورة كانت كما يلى :

الفلسطينيون مسلمون وأقوياء ، ودولة لبنانية غير قادرة ومسلمون ومسيحيون ،

لبنان عام ١٩٧٦ ، وكان هذا الدخول بكل المقاييس حتميا لأن الصورة كانت كما يلى :

الفلسطينيون مسلمون وأقوياء ، ودولة لبنانية غير قادرة ومسلمون ومسيحيون ،
لا أحد منهم قادر على الانتصار أمام الآخر ، أو قابل بالانهزام أمام الآخر .

جاء الرئيس الأسد من منطلق عربى يمثل الحكم القومى بين قطريتين متناحرين ، القطرية الفلسطينية والقطرية اللبنانية المتضررة من التحرك الفلسطينى ، وكان بينهما تناحر ، وليس أفاق اتفاق .. هنا كان لابد من وجود قومى يفصل بين القطريتين

المتناحرتين ، والقادر على ذلك هو الجار والقريب هو سورية والرئيس الأسد ، فدخلت سورية كحكم بين قطريتين متناحرتين لا أمل لأحداهما فى الانتصار على الآخر ، هذا هو أساس الدور السورى فى لبنان ، كان واضحا أن اللبنانى المحشور من قبل القوى الفلسطينية مضطر لأن يُعَنِّف ، والفلسطينى الذى يبحث عن طريق القدس مضطرا الا يقيم اعتبارات للحساسيات اللبنانية ، فجاء الدور السورى يمثل التحكيم العربى للخلاف ، وهذا الدور اقتضى جرأة كبيرة من الرئيس الأسد حتى يقوم به ، وجعل سورية تواصل هذه المهمة الصعبة لمدة ١٧ عاما ، مهمة محاولة أن تكون حكما بين فئات ذات نزاعات ، وذات اتجاهات مختلفة .

لقد كان حافظ الأسد هو أكثر الزعماء السوريين على الاطلاق استيعابا وفهما لحقيقة لبنان وطوائفه وخصوصيته ، ودور الطائفة المارونية فيه .

الرئيس الأسد ومعاونوه أثبتوا قدرة سياسية فى التصرف فى لبنان ، والمعاهدة التى قامت بين سورية ولبنان شىء طبيعى من شأنه أن يسد فراغا كبيرا . وإذا كانت أسباب الصراع فى لبنان عميقة الجذور ، فإن السبب المحورى كان وما يزال يتركز حول حسم موضوع الانتماء العربى الواضح الذى يسعى بعض الانعزاليين لطمسه مستفيدين من نكسات كانت تصيب المد القومى العربى فى بعض الأحيان .

وتاريخيا فإنه مع قيام الحركة التصحيحية بدأت العلاقات السورية اللبنانية تأخذ منحاها الطبيعى فى اطارها التاريخى والجغرافى والحضارى .

وجاءت حرب تشرين / أكتوبر التحريرية المجيدة لتؤكد متانة هذه العلاقة خصوصا أن هذه الحرب أفرزت معطيات لصالح المد القومى العربى ، الأمر الذى جعل قوى الامبريالية والصهيونية والانعزال تتكاتف لاعادة التوازن الذى اختل ، فكان لبنان هو الساحة التى أختيرت للرد على الانتصار العربى ، الذى تحقق بحيث يمكن القول إن أحداث لبنان جاءت بمثابة ثأر من حرب تشرين ، كما أكدت ذلك تصريحات قادة اسرائيل انفسهم .

وقد استدعى هذا الأمر انتباه القيادة السورية التى بدأت العمل بسرعة لتدارك الأوضاع فى لبنان فكان أن عقدت لهذه الغاية قمة سورية لبنانية فى شتوره فى ٧ يناير كانون الثانى سنة ١٩٧٥ ، انتهت ببيان مشترك يعلن استعداد سورية لتلبية كل طلب للبنان .

ومنذ ذلك الحين لم تتوقف سورية لحظة واحدة عن تقديم كل عون ممكن للبنان

لانقاذه من المؤامرة التى يتعرض لها ، **والتى جعلت الرئيس الأسد يقول فى ٢ آب / أغسطس ١٩٧٥ : إن سورية معنية فى الدفاع عن لبنان ، كما أن لبنان معنى للدفاع عن سورية .**

الوثيقة الدستورية

استطاعت سورية واستطاع حافظ الأسد أن يساند بكل طاقته الوفاق الوطنى اللبنانى واستطاع ببراعة سياسية مشهود له بها حتى من خصومه أن يشغل دور الحكم الحيادى فى الخلافات اللبنانية وأن تمثل سورية دور المنطق العربى فى حل المشكلة اللبنانية ، وأكد الرئيس الأسد أن سورية هى الدولة الوحيدة القادرة على اعطاء المنطق العربى قوته المادية .. كيف ؟.

بداية لابد من الاشارة إلى أن الرئيس حافظ الأسد هو أول رئيس سورى يتعامل مع لبنان على أساس أنه دولة مستقلة ، ولقد حسم الخلاف التاريخى الذى ظل قائما حتى توقيع الوثيقة الدستورية ، وقد عقدت قمة سورية لبنانية فى فبراير شباط ١٩٧٦ مهدت لاعلان الرئيس سليمان فرنجية بالاتفاق مع الرئيس رشيد الصلح ، الوثيقة الدستورية التى تضمنت ١٧ بندا للاصلاح ونصت على هوية لبنان العربية . والواقع أن الوثيقة التى أكدت هوية لبنان العربية وأقرت بحاجة المؤسسات إلى اصلاح جوهرى أبرزت مدى الفائدة التى حققتها الجماهير العربية فى لبنان للمبادرة العربية السورية الأخوية التى جاءت تعبيرا عن ارادتها وتحقيقا لتطلعاتها .

دائما كان فى السياسة السورية السالفة للرئيس حافظ الأسد ونتيجة الميوعة السياسية ووجود فرقاء عديدين فى الساحة عدم وضوح فى النظرة العقائدية السورية إلى لبنان .. **مع مجيء حافظ الأسد ووجود دولة ذات رأى ووضوح رؤية ، كان هناك وضوح نظرى فيما يتعلق بأن لبنان كيان مستقل** . وعلينا أن نتعامل معه على هذا الأساس ، ونعامله من منطلق احترام سيادته على حل مشاكله ، وهذا ما حدث فى الوثيقة الدستورية التى وقعها الرئيس حافظ الأسد مع الرئيس الأسبق سليمان فرنجية . ويروى السياسى والمفكر.. (مُنَح الصلح) أنه حدث فى يوم من الأيام أن ذهب إلى الولايات المتحدة واجتمع بمسئولة الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية (المسئولة عن الشئون اللبنانية وهى السفيرة جلاسبى) وفى نهاية حوار طويل بينهما قالت : إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تشك لحظة واحدة فى أن سورية لا تريد شبرا واحدا من الأراضى اللبنانية .

فى ٨ مايو/ آيار ١٩٧٦ انتخب الياس سركيس رئيسا للجمهورية، وفى ٢٠ يوليو/ تموز ألقى الرئيس حافظ الأسد خطابا هاما تحدث فيه عن مراحل الأزمة اللبنانية وأشار إلى أن أحداث لبنان هى نتيجة مخطط استعمارى يهدف إلى توريط المقاومة الفلسطينية وضربها وتصفية المخيمات وارباك سورية وأخيرا تقسيم لبنان.

واننا نتصدى لهذه المؤامرة لأن سورية ولبنان عبر التاريخ بلد واحد وشعب واحد.. الشعب فى سورية ولبنان عبر التاريخ شعب واحد، وقد ترتب على هذا مصالح حقيقية مشتركة، وأمن حقيقى مشترك ووشائج قربى مشتركة وهى الشواهد التى تؤكد أن حافظ الأسد كان ولا يزال من أكثر الزعماء فهما لحقيقة لبنان وطوائفه ودور الطائفة المارونية بوجه خاص

فى مرحلة من المراحل رفعت بعض الأطراف اللبنانية ضرورة الحسم العسكرى وانهاء الوجود المسيحى فى لبنان، **ولقد تصدى الرئيس حافظ الأسد لمخاطبة هذه الأطراف علنا قائلا: من أى منطق تتكلمون؟ من منطق الاسلام ؟!**

الاسلام أبعد ما يكون عن هذه المنطلقات ... الاسلام إصلاح ومحبة. إخاء المسلم الحقيقى هو مَنْ أحب الآخرين، والمسلم الحقيقى هو مَنْ أحب المسيحى الحقيقى، نحن فى هذا البلد مستعدون لأن نتحرك إلى لبنان لنقف بوجه كل معتدوضد كل ظالم بغض النظر عن ادعاءاته الدينية.

يجب أن يفهم المتاجرون فى لبنان أن الاسلام والمسيحية انبعثا من أرضنا، وهذا ليس عبئا علينا وانما هو فخر واعتزاز لكل جماهيرنا، وعلينا أن نكون الأمة الجديدة بالحياة.. الجديرة بالمسيحية والاسلام، علينا أن نكون عند مستوى هذه القيم.

إن حافظ الأسد أثبت لدعاة الحسم العسكرى وإنهاء الوجود المسيحى فى لبنان بأن الهدف الأساسى من الدعوة إلى تقسيم لبنان هو توجيه ضربة كبرى للاسلام باعتباره دين الأكثرية الساحقة من الأمة العربية، لأنهم يريدون أن يقدموا الاسلام فى هذا العصر على أنه الدين المتزمت الذى يمنع أنصاره من العيش مع الآخرين حتى وإن كانوا من أبناء الأمة الواحدة.

وفى خطاب ألقاه الرئيس الأسد بتاريخ ٢٠/ يوليو/ تموز سنة ١٩٧٦ قال: إن هذه مؤامرة على الاسلام ومؤامرة على المسيحيين، وأنا أؤكد على هذا الموضوع ولا أريد أن اجامل به أحداً اطلاقا، عندما ينقسم لبنان سيقول الاسرائيليون

لا تصدقوا هؤلاء العرب إن لم يستطيعوا أن يعيشوا معا ، إذا لم يستطع المسلم العربى أن يعيش مع المسيحى العربي ، فكيف يمكن أن يعيشوا مع اليهود غير العرب الذين جاءوا من كل بقاع الأرض من الغرب والشرق ، سيسقط هذا الشعار. إسرائيل تريد التقسيم لكى تُسقط عنها تهمة العنصرية .

الطائفة المارونية حاولت باستمرار أن تؤكد أنها كيان متميز عن اللبنانيين الآخرين من مسلمين ومسيحيين ، ولذلك فإن هناك من يعتقد وبحق أن الأزمة اللبنانية فى جذورها هى ازمة سياسية واقتصادية من جهة وصراع بين الاتجاه القومى العربى وأعداء هذا الاتجاه من جهة أخرى ، **ولا يمكن بحال من الأحوال أن تعد أزمة دينية طائفية** لأن الطائفة المارونية لم تتعرض لأى اضطهاد فى محاولتها قيادة المجتمع اللبنانى ، بل انها لم توفر حتى للطوائف المسيحية الأخرى ضمانات العيش الكريم ومارست استغلالا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا منظما واحتكرت مواقع السلطة الرئيسية من رئاسة الجمهورية إلى قيادة الجيش والقضاء والمصارف وأجهزة الأمن والمواقع التجارية ، فأصبحت بيروت مركزا اقتصاديا عالميا ، فى حين برزت أحزمة البؤس ومدن التَّنَك فى ضواحى المدن وبيروت ، **وكما يشير الدكتور إلياس سابا فى بحث له بعنوان (العلاقات العربية والأزمة اللبنانية)** فإن خطر السلبيات الذى ترتب على هذا الوضع هى التبعية الاقتصادية المفرطة للخارج ، وهى التى تشكل بالتلازم مع ارتفاع نسبة انتاج الخدمات الى المجموع أهم نقاط الوهن فى بنية الاقتصاد اللبنانى ، وفى مستوى ونمط أدائه ، فكأن لبنان قد **تمكن من تحقيق مستوى معيشة مرتفع لأبنائه ودرجة متقدمة من النمو والتحديث على الرغم من افتقاره إلى الحجم الاقتصادى المناسب وإلى الموارد المادية الكافية .**

خلاصة القول أن صيغة سنة ١٩٤٣ كانت السبب المباشر فى كل ما شهده لبنان من تصدع بين الحين والحين حتى جاءت ثورة ١٩٥٨ والتى كادت تودى بهذه الصيغة ، لكن الغرب سارع الى نجدة المارونية السياسية وانزال قوات المارينز الامريكية على الشواطىء اللبنانية ، ثم إيجاد أرضية من التفاهم المشترك بين فؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية وجمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة سمحت باستمرار الصيغة نفسها لقاء امتيازات جديدة أُعطيت لزعماء الطوائف المارونية والسنية والدرزية على حساب الوطن نفسه ، واستطاع لبنان المزدهر اقتصاديا أن يُبقى صيغة سنة ١٩٤٣ ، ولكن هذا الازدهار الاقتصادى كان احد الأسباب الرئيسية لنشوب الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ .

وكان بروز الوجود الفلسطينى المسلح على الارض اللبنانية والذى اعتبرته الطائفة

المارونية اخلالا قد يؤدى إلى الاطاحة بالمعادلة اللبنانية التى تقوم على تفوقها السياسى والعسكرى والاقتصادى ، بالاضافة إلى ما تردد عن مشاريع أعدها كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى آنذاك تقضى بتوطين الفلسطينيين فى لبنان واعتباره وطنا بديلاً عن فلسطين .

وواقع الأمر أن حادثة الاتوبيس فى ١٣ نيسان / ابريل عام ١٩٧٥ **لم تكن سوى الشرارة التى أشعلت أتون الحرب الذى استمر فى لبنان طوال خمسة عشر عاما ونيف .**

وفى كتاب (لعنة وطن) لكريم بقرادونى، وهو أحد قادة القوات اللبنانية الكتائبية جاء قوله حول مايعده مؤامرة هنرى كيسنجر على بلاده : (لقد تَكَوَّن فى المرحلة الكيسنجرية تيار خفى صنف دول الشرق الأوسط دولا دائمة ، وجودها ضرورى ، ودولا مؤقتة يمكن الاستغناء عنها ، ورأى فى لبنان دولة غير مكتملة المقومات حدوده الجغرافية مصطنعة ، وتركيبته السياسية هشة وغير قابلة للحياة ، ولم يتردد بعض صانعى القرار الأمريكى فى طرح لبنان كأحد الحلول الممكنة للمشكلة الفلسطينية ولأزمة الشرق الأوسط ، فى المقابل رأت المدرسة الكيسنجرية أن الفلسطينيين يقيمون فعلا فى لبنان وقد أنشأوا مؤسساتهم العسكرية والسياسية، والاعلامية، والمالية، والاقتصادية، وأن المسلمين اللبنانيين يرحبون بهم ويرون فيهم عونا لهم فى مواجهة الحكم المارونى .

وهكذا ارتسم أمام العقل الأمريكى أن الحل الأمثل والأكثر واقعية ينطلق من توطين الفلسطينيين فى لبنان مما يرضى إسرائيل ولا يخرب الأردن ويريح العرب ولو أدى ذلك إلى تقسيم لبنان أو تفكيكه ..

المبادرة السورية فى لبنان

خصوصية العلاقة اللبنانية السورية أقوى من أن تطمسها رغبة انعزالى ، واللبنانيون والسوريون هم أبناء شعب واحد فى دولتين مستقلتين كما قال - وبحق - الرئيس حافظ الأسد معبرا بذلك عن هذه العلاقة المتميزة ، ومؤكدا أن بين لبنان وسورية علاقة خاصة عبر التاريخ لا يستطيع أن يتجاهلها أى حكم قائم فى سورية أو فى لبنان فهى تفرض نفسها على الحكام ، وكل من يتجاهل هذه العلاقات الأزلية الأبدية يسىء إلى مصلحة الشعب العربى فى البلدين وإلى تاريخه ومستقبله . وفى أكثر من مناسبة قطع الرئيس حافظ الأسد على نفسه العهد بأن يأخذ بعين الاعتبار

مصلحة المواطن العربى فى لبنان تماما كمصلحة المواطن العربى فى سورية ، ولقد أشار فى أكثر من موضع إلى أن المواطنين اللبنانيين مسلمين ومسيحين ينضوون دوما تحت لواء القومية العربية .

ومن هذا الفهم ننطلق فى اهتمامنا ومعالجتنا لما يحدث فى لبنان ، وعلى أساسه نسعى لوقف الاقتتال بالتفاهم والتعاون مع القوى السياسية المختلفة فى لبنان ، ولخلق المناخ الملائم لأن يحلوا مشاكلهم الأخرى ديمقراطيا . ومن خلال الحوار فيما بينهم .. وواجباتنا ازاء لبنان سنؤديها دائما وفى كل وقت ، وسوف نبذل كل ما نستطيع لوقف القتال لأنه قتال بين فرقاء من أهلنا وذوينا ، وإذا رغب اخوتنا فى لبنان أن يستعينوا بامكاناتنا العسكرية وبقواتنا المسلحة فسوف نضع تحت تصرفهم كل ما يريدون فى أى بقعة فى الأراضى اللبنانية ، ولن يمنعنا من أداء هذا الواجب ما تنوى اسرائيل أن تفعله ، وسنكون جاهزين للتصدى لاسرائيل ليس على أرض سورية فحسب بل فى أى مكان من الوطن العربى وأن الاعتبار الوحيد الذى حدد وسيحدد فى المستقبل أبعاد التدخل السورى فى لبنان بما فى ذلك حجم ومواقع القوات السورية هو مصلحة شعب لبنان لأن تاريخنا واحد ومستقبلنا واحد ومصيرنا واحد .

الحرب الأهلية فى لبنان

عرضنا فيما سبق لأسباب الصراع فى لبنان ، وعرفنا أن السبب المحورى كان حول صيغة سنة ١٩٤٣ التى حكم لبنان بموجبها على امتداد نصف قرن وهى الصيغة التى ادت فيما بعد الى اندلاع ثورة ١٩٥٨ وهى الثورة التى كانت مقدمة لماحدث بعد ذلك فى عام ١٩٧٥ ، ولا شك أن التوازن اللبنانى الذى ظل قائما لسنوات طويلة قد تعرض لاهتزازات ، ولخلل نتيجة لتمركز بعض المنظمات الفلسطينية فى جنوب لبنان ، وهو التمركز الذى أدى الى انقسام فى الأوساط السياسية بين مؤيد للوجود الفلسطينى ومعارض له كان يرى أن وجود المنظمات الفلسطينية فى جنوب لبنان فيما اصطلح على تسميته فى مرحلة لاحقة ، « فتح لاند » ، وقد تصاعد الانقسام فى الرأى الى درجة استدعت تدخل الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الذى استضاف وفدين ، وفدا لبنانيا يمثله العماد اميل البستانى قائد الجيش اللبنانى ، والوفد الثانى برئاسة ياسر عرفات ، وقد اسفرت اجتماعاتهما فى ٣ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦٩ على توقيع اتفاقية القاهرة التى نظمت الوجود الفلسطينى فى لبنان .

وفى عام ١٩٧٠ شهدت الأردن أحداث ايلول الأسود بين الجيش الأردنى والمنظمات الفلسطينية وترتب على هذا الوضع ابعاد المنظمات الفلسطينية عن الاردن ، وازداد

الوجود الفلسطينى المسلح كثافة فى لبنان ، واصبحت منظمة التحرير دولة داخل الدولة اللبنانية ، وتورطت بعض فصائل المنظمات الفلسطينية فى الشئون الداخلية اللبنانية حيث ساندت بعض الساسة اللبنانيين الذين كانوا يتطلعون لنسف الصيغة اللبنانية القائمة من أساسها ، وكان واضحا أن لبنان على شفا حرب طاحنة بين الجيش اللبنانى وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية .

وفى ٢ مايو/ أيار ١٩٧٠ اندلعت معارك عنيفة بين الجيش اللبنانى وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها مصر لمنع اندلاع القتال إلا ان ملامح المواجهة الكبرى كانت تبدو فى الأفق وتطورت الاشتباكات التى بدأت فى ٢ مايو/ أيار ١٩٧٣ ، حيث عبأت القوى المسيحية ضد الوجود الفلسطينى فى لبنان بحجة الاخلال بالتوازن الطائفى الديموجرافى ، وكان واضحا انها تحاول خلق حجة مناسبة لاستمرار هيمنتها ، ومع ان الخلاف فى صورته العلنية كان بين الاحزاب مثل الكتائب ، والاحرار ، والتقدمى الاشتراكى ، وحركة أمل ، إلا أن منظمة التحرير وقعت فى فخ نصب لها وأصبحت طرفا فى هذا الصراع الذى لم يكن لها مصلحة فيه .

ولولا تدخل الرئيس حافظ الأسد لاعادة التوازن للفلسطينيين فى لبنان لأخذت الأحداث مسارا أخر. وفى فبراير شباط ١٩٧٥ اغتيل المناضل اللبنانى معروف سعد وكان اغتيال معروف سعد بداية لزيادة التوتر والاستعداد العسكرى ، وفى يوم ١٣ ابريل/ نيسان اطلقت النيران على أتوبيس فلسطينى فى حى عين الرمانة المسيحى ، وكان هذا الحادث الشرارة التى فجرت حربا أهلية دامية استمرت قرابة ١٦ عاما مورثة خلالها كل أنواع القتل المنظم والعشوائى .

وأدرك الرئيس حافظ الأسد أن مايجرى فى لبنان مقدمة لأحداث كبيرة ومؤامرة أكثر اتساعا، وفى اطار ادراكه لخصوصية العلاقة اللبنانية السورية، التى لايستطيع أى حاكم قائم فى سورية أو فى لبنان أن يتجاهلها، بادر إلى التأكيد بأن من يتصور أن تفجير الأزمة فى لبنان سوف يسهل تمرير اتفاقيات منفردة مع اسرائيل يقع فى خطأ كبير ، لاننا لن نترك هذا المخطط ينجح ، وأجرى الرئيس الأسد محادثات مع المسئولين فى لبنان كانت تنطلق من الحرص على مصلحة لبنان والمصالح المشتركة بالبلدين لاسيما مايتعلق منها بالاستقرار فى لبنان مؤكدا أن سورية لا تستطيع أن تقف موقف المتفرج من الأحداث التى تدور فى لبنان لأن سورية بشكل أو بأخر معنية بها .

وكان واضحا من تحليل الاحداث ، والأسباب التى أدت اليها انها ليست لبنانية

محضة ، ولكنها حصيلة الظروف العربية من جهة ، وحصيلة كل العوامل الدولية المتعلقة بالقضية الاساسية ـ قضية فلسطين ـ من جهة أخرى ، **وادرك الرئيس ان استمرار الفئات المتقاتلة فى التناحر سيؤدى الى تدمير لبنان وصولا الى سورية** ، كما سيخل بصيغة التعايش اللبنانى المشترك ، وسيؤدى الى تصاعد الوضع فى منطقة الشرق الأوسط وأن أول المتضررين سيكون سورية حيث انها المستهدف الأول من المخطط الاسرائيلى الصهيونى لاعادة رسم خريطة الشرق الأوسط . **وتقدم الرئيس حافظ الأسد بأكثر من مبادرة لإعادة الحياة الطبيعية الى لبنان ووقف النزيف الدموى المستمر والرهيب فيه** ، وأكد الرئيس الأسد ان بلاده مع وقف القتال وضد من يصر على استمرار القتال وضد المؤامرة التى تحاك ضد شعب لبنان ، وعلى الثورة الفلسطينية ، وعلى الأمة العربية ، **ولكن مبادرات الرئيس الأسد ، وكل محاولاته للحوار مع الأطراف اللبنانية اصطدمت باصرار بعض القوى اللبنانية على شن حملة عسكرية شاملة لا تراجع فيها ضد القوات المسيحية .**

وقد أوضح الرئيس حافظ الأسد انه كان رأى الجميع ان أحداث لبنان نتيجة مخطط استعمارى يهدف الى توريط المقاومة ، وضربها ، وتصفية المخيمات وأرباك سورية، وتقسيم لبنان ، واذا كانت المؤامرة تستهدف ضرب المقاومة الفلسطينية ، وتقسيم لبنان فإنه لا يمكن لسورية ان تقف موقف المتفرج على المؤامرة التى تستهدف تحقيق هذه الأهداف ونحن معنيون بإفشال هذه المؤامرة ، وعلينا أن نعد أنفسنا بالقدر الذى نستطيع فيه لأن نتصدى للمؤامرة والمتآمرين ، من ناحية ثانية فإن سورية ولبنان عبر التاريخ بلد واحد وشعب واحد ، وترتب على هذا الوضع مصالح مشتركة ، وأمن حقيقى مشترك ، وتاريخ وجغرافيا مشتركة ، يكفى أن نشير الى انه كان فى لبنان قبيل الحوادث حوالى نصف مليون سورى يمارسون مختلف الأعمال ، وهؤلاء نتيجة للأحداث عادوا الى سورية والآن يوجد فى سورية حوالى نصف مليون لاجىء من شعب لبنان جاءوا الى سورية ، ودخل الى سورية حوالى ١٥٠ ألف فلسطينى من الاخوة المقيمين فى لبنان . نتيجة الأحداث دخل الى سورية حوالى مليون نسمة ، ونستطيع أن نتصور حجم المشكلة التى يسببها دخول مليون انسان فى بلد عدد سكانه أقل من تسعة ملايين .

وأضاف الأسد يقول : وعندما ينقسم لبنان سيقول الاسرائيليون لا تصدقوا هؤلاء العرب ان لم يستطيعوا أن يعيشوا معا .. اذا لم يستطع المسلم العربى ان يعيش مع المسيحى العربى فكيف يمكن ان يعيشوا مع اليهود غير العرب الذين جاءوا من كل بقاع الأرض !! من الغرب والشرق .. سيسقط هذا الشعار .. اسرائيل تريد التقسيم لكى تسقط تهمة العنصرية ، **ستقول اسرائيل أين هى العنصرية** ؟ اسرائيل تقوم على اساس الدين وفى لبنان دولة أو دويلات تقوم على أساس الدين، فإما ان نكون جميعا عنصريين ،

وإما أن نكون جميعا لا عنصريين .. تقسيم لبنان يشكل طعنة لفكرة القومية العربية وكأننا نقدم الدليل على أن القومية العربية ليست الرباط الصالح الذى يربط بيننا جميعا بحيث نستطيع أن نعيش فى ظل لواء القومية العربية .

عندما لا يستطيع العرب فى لبنان أن يعيشوا معا فى دولة واحدة رغم مرور السنين الطويلة على هذا العيش المشترك ، فهذا دليل عملى مادى يريدون تقديمه على بطلان فكرة القومية العربية .. أكثر من هذا أريد أن أقول :

إن تقسيم لبنان يشكل ضربة كبرى للاسلام باعتباره دين الأكثرية الساحقة من الأمة العربية ، لانهم يريدون أن يقدموا الاسلام فى هذا العصر على انه الدين المتجمد الذى يمنع انصاره من العيش مع الآخرين حتى اذا كانوا من ابناء الأمة الواحدة ، ان هذه مؤامرة على الاسلام وعلى المسلمين ، وأنا أؤكد على هذا الوضع ولا أريدان أجامل به أحدا اطلاقا ، وقد قلته فى كثير من أحاديثى مع المعنيين فى لبنان وخارج لبنان ، إنه مؤامرة على الاسلام ومؤامرة على العروبة ، ولصالح العدو ، ولصالح الصهيونية .

وأكد الرئيس حافظ الأسد على ان العروبة ستظل أقوى من هؤلاء المتآمرين ، والاسلام أقوى من هؤلاء المتآمرين ، ولن يستطيعوا تحت اسم العروبة وتحت اسم الاسلام ان يضربوا العروبة والاسلام لاننا لهم بالمرصاد ، ان المؤامرة فى لبنان هى مؤامرة على الاسلام وعلى المسيحية .. **والصراع فى جوهره ليس بين المسيحية والاسلام ، وانما بين الاسلام والمسيحية من جهة ، وبين اعدائهما من جهة أخرى .** هذا هو تفسيرنا لأحداث لبنان ، ويقيننا ان هذه المؤامرة لا تستطيع أن تحقق أهدافها الا من خلال القتال ، ولكى نحبط المؤامرة لابد أن نوقف القتال ولذلك بذلنا جهدا سياسيا وعسكريا ، قدمنا السلاح والذخائر من أجل وقف القتال لان موازين القوى كانت غير متكافئة ولم يكن بالامكان وقف القتال ، ولذلك اضطررنا الى تقديم السلاح لهؤلاء الذين يهاجموننا وينكرون جهود هذا الشعب ، حاولنا تضييق رقعة المشكلة بقدر المستطاع لان توسيع هذه الرقعة فى صالح المؤامرة ، وفى يوم من الأيام انهارت جبهة الأحزاب الوطنية وانهارت جبهة المقاومة الفلسطينية ، وانهارت جبهة الأحزاب فى لبنان ، وانهارت جبهة المقاومة فى لبنان ، وارسلوا لنا الصرخات وكرروا الاتصال وهم فى حالة سيئة ، وقد سقطت بعض الاحياء ، ومسلحو الكتائب يجتاحون المنازل ويتساقط أمامهم كل شىء .

ويقول الرئيس الأسد فى موضع آخر **خلال مقابلته لكمال جنبلاط فى دمشق :**

« استقبلنا كمال جنبلاط وكان لى معه لقاء طويل .. استعرضنا احداث لبنان منذ بداية الازمة ، وقلت له : نحن متفقون واياكم على تحليل أحداث لبنان وعملنا جميعا من أجل وقف القتال ، وساعدناكم سياسيا وعسكريا ومع هذا لم تستطيعوا أن تصمدوا

ودخلنا لبنان وغامرنا باحتمال مجابهة الحرب مع اسرائيل ، وحققنا للمقاومة كل الضمانات التى تريدها والكفيلة بحرية عمل المقاومة ثم ناقشنا الاصلاحات الوطنية واتفق على الوثيقة الدستورية ، وهذه الوثيقة تتضمن الكثير نسبة ٩٥٪ مما طرحتموه ، فما الذى تسعون اليه ؟ تحدث عن العلمنة يريد دولة علمانية فى لبنان .

قلت له : ان الكتائب متحمسة للعلمنة ورجال الدين المسلمون وبعض رؤساء الوزارات ، ورؤساء مجلس النواب رفضوا العلمنة لان الأمر يتعلق بجوهر الدين الاسلامى . قال : لا تهتموا بهم انهم لا يمثلون شيئا .

قلت له : ان الأمر ليس أمر تمثيل انما هو أمر يتعلق بالدين الاسلامى ، وعندما يتعلق الأمر بالاسلام فيجب عدم الاستهانة به .

قال : « خلونا نؤدبهم .. لابد من الحسم العسكرى ». . كان كمال جنبلاط يريد التخلص من المسيحيين الذين مايزالون يحكمون منذ ١٤٠ سنة . ويقول الرئيس الأسد : « هنا رأيت ان كل قناع قد سقط .. اذن الأمر ليس كما كنا نقول ، وليس كما كان يقال لنا ، الأمر ليس بين يمين ويسار وليس بين تقدمى ورجعى ، ليس بين مسلم ومسيحى .. **المسألة هى مسألة ثأر وانتقام تعود الى ١٤٠ سنة** ، ولقد استدعيت ياسر عرفات فى اليوم التالى وأعدت امامه ماقلته لكمال جنبلاط وناقشته فى مخاطر الحسم العسكرى بين فئتين فى وطن واحد ، وقلت له : أمر غير ممكن ، وسيفتح الأبواب على مصاريعها لكل تدخل أجنبى وخاصة التدخل الاسرائيلى ، ولنتصور جميعا حجم المأساة التى يمكن ان تنتج اذا ماتدخلت اسرائيل وانقذت بعض العرب من بعض العرب الآخرين ، وأنا ضد هذا التوجه لان الاسلام محبة وعدل ، وليس كراهية وبغضاء واذا كنت سأنطلق من كونى ثائرا فالثورة عدل للجميع .. الثورة ضد الظلم .. الثورة اصلاح وتصحيح .. الثائر لا يرفع الظلم عن نفسه ليوقع به الآخرين ، انما يرفعه عنه ، وعن الآخرين ، هكذا الثائر ، وهكذا المسلم الحقيقى والمسلم الحقيقى هو الثائر الحقيقى .

الاسلام هو الثورة الكبرى فى تاريخ أمتنا وفى تاريخ البشرية وبدافع الروابط الاخوية والقومية والعلاقة الخاصة بين سورية ولبنان وبدافع الشعور بالمسئولية واستجابة لنداءات مختلف اطراف النزاع فى لبنان ببذل كل جهد فى سبيل وقف القتال ودفع الاطراف لايجاد قواسم مشتركة عن طريق الحوار ، لم يبق امام حافظ الأسد الا خيار واحد وهو الحيلولة دون تنفيذ مؤامرة تمزيق لبنان والالتفاف على سورية لضربها وتركيعها تنفيذا لمخطط كيسنجر . وتلبية لنداء الجماهير اللبنانية ودعوة السلطة الشرعية فى لبنان عبرت الطوابير السورية المدرعة فى صباح واحد

حزيران/ يونيو ١٩٧٦ الحدود السورية اللبنانية الى البقاع والشمال، وأخفق ياسر عرفات الذى حاول تطويق النجدة السورية فى الجمع بين جنبلاط والجميل بعد أن أصبحت خلافاتهما أقوى من امكانيات اللقاء.

ومع أن الرئيس حافظ الأسد أعطى تعليمات صارمة الى قادة قواته التى دخلت لبنان ان تتجنب العمل كفريق منحاز الى طرف ضد اخر مهما كانت الأسباب والمسوغات، لأن هدفه الرئيسى كان الحفاظ على التعايش اللبنانى الذى أراد كيسنجر تحطيمه، وحقن دماء اللبنانيين من كافة الطوائف تحت شعار التوافق الوطنى، الا أن **بعض قادة المنظمات الفلسطينية ارتكبوا سابقة ليس لها مثيل** عندما نصبت قوات فلسطينية كمينا لوحدة من الدبابات السورية فقتلت أطقمها.

ان سورية قدمت نصائح كثيرة لقادة المقاومة بأنهم سيدمرون قضيتهم. ويتحولون عن هدفهم المقدس فى تحرير وطنهم كلما انغمسوا فى الشأن اللبنانى، وكان حافظ الأسد يتساءل بألم ومرارة، ما هى العلاقة بين أن يقاتل الفلسطينيون فى أعلى جبال لبنان وبين تحرير فلسطين. إن الذى يقاتل فى جبل لبنان من الفلسطينيين لا يقاتل قطعا من أجل فلسطين.

وفى خطاب القاء الرئيس حافظ الأسد فى ١٢ ابريل / نيسان ١٩٧٦ أكد على أن ما يحدث فى لبنان هو مؤامرة تستهدف الأمة العربية وفى أولوياتها القضية الفلسطينية.

قال: (اننا ضد أولئك الذين يصرون على استمرار القتال فى لبنان. ان هناك مؤامرة كبيرة تحاك ضد الأمة العربية وعلى اخوتنا فى القيادة الفلسطينية أن يفهموا ويعوا خطورة هذه المؤامرة فهى هدفهم الأول). ادرك الأسد أن عدم تدخله لانقاذ المسيحيين من الدمار الذى كانوا على وشك الوقوع فيه سيطلق يد اسرائيل لاحتلال لبنان وتهديد سورية بحجة حماية المسيحيين وضرب المقاومة الفلسطينية، ويتحدث الكاتب البريطانى «باتريك سيل» عن الدخول السورى إلى لبنان فيؤكد أنه جاء فى اطار فهم استراتيجى لحجم المؤامرة المرسومة لكل من لبنان وسورية وفلسطين، كما كانت رؤية الأسد الاستراتيجية وارادته تتمثلان فى نزع فتيل مؤامرة كبيرة.

كان أكثر ما يقلق حافظ الأسد أن تتدهور الأمور فى لبنان إذا حققت مؤامرة تقسيم لبنان هدفها ونشأت دولة يملؤها الحقد ويتوارث أبناؤها الحقد نتيجة للقهر الذى عانوه، وأكد الرئيس الأسد فى خطاب القاه فى ٢٠ يوليو / تموز ١٩٧٦ أن الآثار والمخاطر التى قد تنجم عن وقوع مثل هذه الكارثة عديدة .. سيكفر هؤلاء بكل القيم العربية وبكل قيم الاسلام، ستنشأ دولة وأقولها صريحة واضحة أكثر خطراً وأشد عداء من اسرائيل،

وهؤلاء الناس الذين سيعيشون فى هذه الدولة ستكون دولتهم أكثر خطرا وأشد عداء من اسرائيل نتيجة لمسلسل القهر الذى عانوه .

يقول فؤاد العشا فى كتابه (حافظ الأسد قائد ورسالة) : وقد رأينا فيما بعد، وبعدما اغتصب ميشيل عون السلطة فى جزء من لبنان كيف أدى شكل واه من أشكال التقسيم غير المعلن ، عن قيام حكومتين متناحرتين وكيف أدى القصف الوحشى بين جزئى بيروت الشرقى ، والغربى إلى دمارها ، وكيف وصل **التناقض** ذروته عندما نشب الصراع فى شرق بيروت نفسها بين فريقين من طائفة واحدة نتيجة نزاعهما للوصول إلى السلطة والاستئثار) .

كان الرئيس حافظ الأسد يرى منذ أن بدأت الأحداث فى لبنان الأخطار التى يمكن أن تنجم عن هذه الأحداث والتى تَصَوَّرها أخطارا كبيرة على المقاومة ، وعلى لبنان ، وعلى شعب لبنان ، وعلى الامة العربية ، **ومن هنا كان قراره بأن يسارع إلى تحمل المسئولية فى لبنان فى انتظار أن يدرك كل الأشقاء العرب نتيجة تفاقم الأحداث وتطورها .**

ويقول الرئيس الأسد : لو نظرنا إلى التدخل السورى من زاوية سورية بحتة لوجدنا أن هذا التدخل لا ينسجم مع المصلحة القطرية السورية ، نحن لا نحقق ربحا ذاتيا من تدخلنا فى لبنان ولكن يستطيع أى قارىء للأحداث الآن أن يقدر مدى النتائج الايجابية للتدخل السورى ومدى أهمية التضحيات السورية .

ويُضيف : نحن منذ بدء الأحداث طلبنا بشكل مباشر ، وثنائى من الكثير من الأشقاء العرب أن يأتوا للمساهمة معنا فى تحمل المسئولية فى لبنان ، لدرء الخطر مشتركين ، هى الخطر الذى يعنينا جميعا ، وقد أعلنت منذ زمن وللرئيس سركيس شخصيا ، وقبله للرئيس فرنجية أن هذه القوات لم تدخل لبنان لتفرض سلطة سورية بل دخلت إلى لبنان لتدافع عن العرب ، عن القيم العربية لتحول دون أن تستغل اسرائيل هذه الاحداث وتحقق ما تريد ، وفى اطار هذا الفهم نحن جاهزون فى أى وقت لأن نضع هذه القوات السورية تحت سلطة رئيس الجمهورية اللبنانية وبإمرة السلطة الشرعية فى لبنان ، هذا كان رأينا منذ بدء الأحداث وحتى الآن .. تدخلنا السريع فى لبنان لم يمكن اسرائيل من تحقيق اهدافها وحال دون تدخل اسرائيل إلى لبنان لتنقذ بعض الفئات اللبنانية ، ولتظهر أنها حامية لبعض الفئات وأنها استطاعت أن تخلصهم من الذبح ، وتحتل قسما من لبنان ، وتقيم دولة ، أو دويلات عنصرية طائفية فى لبنان ، وبهذا تتحقق للعرب كارثة جديدة هى اخطر من كارثة قيام اسرائيل ، فوجود القوات السورية داخل لبنان منع حصول هذه الكارثة ، ونحن كما نتوقع أن مرور الزمن سيجعل الجميع يدرك أهمية التدخل السورى فى لبنان ، نحن فى لبنان ندافع عن العروبة وعن الاسلام ونؤمن بوحدة لبنان .

لو لم ندخل إلى لبنان لكانت نتيجة الصراع إما ان تنتهى المقاومة الفلسطينية فى لبنان

وإما أن يُدَمَّر لبنان وتقوم دويلات طائفية وحتى الآن استطعنا أن نمنع تدمير المقاومة الفلسطينية واستطعنا أن نمنع تقسيم لبنان وقيام دويلات طائفية عنصرية لأننا استطعنا أن نحول دون تدخل اسرائيل وتحقيق هذه الأهداف **وأكثر ما يتمناه الرئيس الأسد أن تنهض المؤسسات اللبنانية بمسئولياتها فى أقرب وقت ممكن حتى تستطيع الاستغناء عن المساعدة السورية فى تحقيق الأمن** ، وكثيرا ما أكد على أن امكانية قيام هذه المؤسسات بمسئولياتها يتوقف بقاء القوات السورية التى تقدم المساعدة الى لبنان، **وكثيرا ما أكد الرئيس الأسد أن نواياه المقبلة هى النوايا التى أعلن عنها منذ أول يوم للقتال ثم منذ أول يوم لدخوله إلى لبنان** وانه يرغب فى أن يستقر الأمن فى لبنان وأن تقوم المؤسسات اللبنانية بمهامها كاملة وأن تستطيع السلطة الشرعية المعنية فى لبنان الاستغناء عن المساعدة السورية بأسرع ما يمكن ، وعندئذ سيكون لدى سورية الرغبة فى أن تسحب قواتها من لبنان لتستأنف مهامها الأساسية .

ان القوات السورية لا تحارب ضد أحد فى لبنان ، وانما هى منذ دخولها لتنقذ اللبنانيين والفلسطينيين من الدمار الذى لم يكن باستطاعتهم أن يخرجوا منه ومن مستنقع الدم إلابمساعدة قوة كالمساعدة التى قدمتها القوات السورية .

ويؤكد الرئيس حافظ الأسد أننا نشعر بالرضا لأننا نشعر بما تعكسه الحقيقة التاريخية ، من أننا فى البلدين شعب واحد ، ولهذا لا نستبعد أن نضحى من أجل المواطنين فى لبنان كما نضحى من أجل المواطنين فى سورية ، وأى متتبع موضوعى للتطورات فى لبنان خلال السنوات الأخيرة يستطيع أن يتأكد كم هى التضحيات سواء البشرية أو المادية أو السياسية التى قدمتها سورية من أجل لبنان ، ننطلق فى هذا من إننا شعب واحد ، وعلينا واجب واحد نحو البلد الشقيق الذى وقع فى مشكلة كبيرة ، مشكلة مأساة ، نعتقد أننا قدمنا خدمات كبرى ، وأن هذه التضحيات أدت إلى نتائج خففت كثيرا من الآلام عن المواطنين اللبنانيين ، وهذا ما كنا نطمح إليه ، نحن نساعد لبنان ، نساعد على إيصال هذا البلد الشقيق إلى وضع معين بحيث تستطيع قيادته وأطرافه أن تتابع الطريق ، وأن تمارس مسئولياتها ، كاملة، وأن تحل المشاكل ، او تعالج الأسباب التى أدت بلبنان إلى الوضع الذى وصل إليه ، وحتى فى هذا القسم من المشكلة لابد أن نساعد وهذا ما فعلناه وما سنفعله ، ونحن نقول لأشقائنا اللبنانيين ، فى القوى والأحزاب والسلطة نحن نساعدكم لكن لا نحل محلكم . الحرب الأهلية وقفت فى لبنان بفضل القوات السورية ، وليس بفضل اى شىء آخر ، وهذه فى نظر البعض هى مصيبة المصائب ، ولكن يجب أن نصل إلى وفاق ، إلى حالة السلام بين المتقاتلين ، لابد أن يجتمعوا ، لابد أن يناقشوا خلافاتهم وهذا ما حدث فيما بعد .

ايقاف الحرب الأهلية

هناك حقيقة هامة كثيرا ما أوضحها الرئيس حافظ الأسد وهى أن القوات السورية لم تدخل إلى لبنان لتحارب إسرائيل من هناك ، وانما دخلت لايقاف حرب أهلية على أرض لبنان لها امتدادات دولية خارجية ، وبالتالى كانت القوات السورية موزعة تقوم بمهمات الشرطة، وليس بمهمات جيش نظامى على الرغم من تغير المهمات، وعلى الرغم من أننا **كما يقول الرئيس الأسد نحارب فى أرض ليست مهيأة من قبلنا لمواجهة العدو ، وليس لدينا فى لبنان الحجم من القوات ، وأنواع الأسلحة المختلفة ، والاستعداد التعبوى ، والهندسى وغير ذلك لمواجهة هذا العدو** ، فعندما فُرض علينا القتال وقف جيشنا بعزة ، وقوة ، وكرامة ، وكانت ملاحم حقيقية ، ونحن نعرف ما لدى العدو من معدات تكنولوجية ، ونعرف ما لديه من طيران ، وكنا نعد أنفسنا ، ونتهيأ ، ولكن قرارنا هو أنه فى أى وقت سواء كنا متوازنين مع العدو أم لم نكن ، فى أى وقت يعتدى فيه هذا العدو نتصدى له بقوة ، ونجابهه بدون أى تردد ، لأنه فى كل الأحوال ليس المهم فقط فى المعارك والحروب النتائج ، النتائج مهمة ولكن المهم أولا هو أساليب الممارسة والسلوك ، فعندما نقاتل بشرف نقاتل حتى الشهادة ، وعندما لا يستطيع العدو أن يتقدم شبرا إلا على أجسادنا فلا نكون اطلاقا قد خسرنا المعركة ، ومهما تكن نتيجة المعركة فنحن الذين نربحها .

شروط اسرائيل »

كثيرا ما أعلنت اسرائيل أنها لن تسحب قواتها من لبنان إلا عندما تنسحب القوات السورية ، **وقد سُئل الرئيس الأسد متى وبأية شروط ستكونون على استعداد لسحب القوات السورية من لبنان** فقال : إن اسرائيل تقول شيئا ، وتعمل شيئا آخر، منذ أكثر من عام **قلت** : إن اسرائيل ليست هى المهددة كما تدعى ، بل نحن المهددون ، **وقلت** : أننا نعتقد بأن اسرائيل تنوى تحقيق نقلة توسعية جديدة ، سواء على شكل احتلال أرض لبنانية ، أو على شكل وضع الدولة اللبنانية تحت هيمنتها .

وها نحن الآن نرى إسرائيل وقد حققت بالفعل هذه النقلة التوسعية الجديدة.

عندما بدأت اسرائيل عدوانها على لبنان ، قالت : إنها تريد اخراج الفدائيين من منطقة يبلغ عرضها أربعين كيلو مترا ، وقد سَمَّتها عملية (سلامة الجليل) .

لم تقل فى البداية انها تريد اخراج منظمة التحرير من بيروت ، ولم تقل أنها تريد أن تُخرج القوات السورية من لبنان ، بينما هى الآن تردد كل هذا .

فتأسيساً على ما سبق ألا يحق لنا أن نتوقع أن اسرائيل تريد أمورا أخرى كتوسع آخر ؟

نحن لسنا غزاة فى لبنان.

نحن دخلنا لمساعدة اللبنانيين كأشقاء لنا ولايقاف الحرب الأهلية التى كان اللبنانيون يعانون منها وقد أوقفناها فعلا وتحملنا من أجلهم تضحيات كثيرة.

لقد دخلنا إلى لبنان بناء على طلب السلطة اللبنانية. وبقينا هذه السنوات أيضا بطلب السلطة اللبنانية الذى كان يتجدد كل ستة أشهر، وبموافقة عربية.

ومن هنا فطريق خروجنا من لبنان مسألة ثنائية سورية ـ لبنانية، ومسألة عربية داخلية.

الغزو الاسرائيلى

إدراك الرئيس حافظ الأسد لحقيقة الارتباط العضوى بين الأمنين السورى، واللبنانى ومعرفته الوثيقة بحقيقة الأطماع الصهيونية فى لبنان، وخاصة فى جنوبه جعلته **يبادر منذ اللحظة الأولى لتوليه المسئولية لبناء قوةلسورية تستطيع أن تتصدى للخطر الاسرائيلى على البلدين**، وقد ساهمت قوة سورية فى إنهاء أسطورة اسرائيل التى لا تقهر خلال حرب تشرين أكتوبر ١٩٧٣، وقد أدى التعاون الطبيعى، والتاريخى بين مصر وسورية إلى إنجاح هذه الحرب نجاحا كبيرا، ولولا تدخل الولايات المتحدة الأمريكية المباشر لما استطاعت اسرائيل أن تصمد فى مواجهة تلك الحرب، والكل يعرف، ويذكر كيف عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقامة جسر جوى وبحرى لتزويد اسرائيل بأحدث الأسلحة المتطورة من أجل الوقوف أمام النتائج الباهرة التى حققها الجيشان المصرى، والسورى، خلال حرب رمضان سنة ١٩٧٣.

ولقد حاول الرئيس حافظ الأسد فى اطار سعيه لايجاد سلام عادل يقوم على تأمين حقوق الجميع فى العيش بسلام فى المنطقة حاول أن يبنى رؤية جديدة، يمكن معها إعادة صياغة العلاقات العربية ـ العربية صياغة سليمة بحيث يتم الاستغناء عن دور الشرطى الضامن للمصالح الغربية فى المنطقة (اسرائيل)، **من هنا فإن الرئيس حافظ الأسد بادر إلى التدخل الفورى لوقف الحرب الأهلية: اللبنانية عام ١٩٧٥** والتى كان واضحا أن من بين أهدافها الرئيسية هدر الطاقات والامكانيات العربية بالثغرة اللبنانية بعد اثارة النعرات والفتن بين اللبنانيين، ولم يكن خافيا دور اسرائيل ومحاولتها أن تكون مشاركتها فى تأجيج الحرب اللبنانية رداً على حرب رمضان ١٩٧٣.

ومن المؤكد أن احجام بعض الدول العربية عن تقديم الدعم اللازم لمصر وسورية باعتبارهما الجبهة الوحيدة او الجبهة القادرة على المواجهة من خلال حرب رمضان ١٩٧٣، إلى جانب عدم استيعاب النتائج الهامة لهذه الحرب التحريرية أدى إلى نشوب الأزمة اللبنانية من جهة وإلى ارتداد السلاح الذى استعمل خلال حرب ١٩٧٣ على

العرب وعلى مصر وسورية بالذات ، ولقد انعكست الخلافات العربية ـ العربية على الأزمة ، وبدلا من أن تتجه جهود العرب إلى تحقيق المصالحة القومية بعد أن استطاع الرئيس حافظ الأسد ايقاف الحرب الأهلية لكان قد أمكن تطويق هذه الحرب سريعا ، ولقد تطورت الاحداث على النحو المعروف ولولا التضحيات الكثيرة التى قدمتها سورية لكانت الأمور قد وصلت إلى نتائج بالغة الخطورة ، وهناك من لا يعرف حتى الآن حجم هذه التضحيات ، يكفى أن نُشير إلى أنه خلال الاجتياح الاسرائيلى عام ١٩٨٢ للأراضى اللبنانية دفعت سورية دفعة واحدة أكثر من سبعة آلاف شهيد من جيشها على أرض لبنان وتكبدت خسائر عسكرية كبيرة ، **ومع ذلك لم تتوان سورية عن دورها فى دعم المقاومة الوطنية فى لبنان التى أجبرت القوات الاسرائيلية** على الانسحاب من أجزاء كثيرة كان قد احتلتها خلال اجتياحها للبنان عام ١٩٨٢ ، وانسحبت مرغمة تحت وطأة المقاومة المدعومة من سورية ، يكفى أن نشير أيضا إلى الدور السورى فى دعم الشعب اللبنانى لاسقاط اتفاق السابع عشر من مايو / أيار الذى كان سيؤدى إلى وضع لبنان تحت السيطرة الاسرائيلية كما سيهدد الأمن القومى العربى بشكل عام ، والأمن القومى اللبنانى السورى بشكل خاص .

الرئيس حافظ الأسد هو أكثر الزعماء السوريين فهما لمتطلبات الارتباط العضوى بين الأمنين السورى واللبنانى ذلك أن كل ضعف ينتاب لبنان هو فى الحقيقة يستهدف سورية فى عمقها نظرا لموقع لبنان ونظرا لحقيقة أن جميع الغزوات والاعتداءات التى قامت بها اسرائيل انما كانت من نقاط محددة من لبنان ، فلبنان الذى يقع فى خاصرة سورية يؤثر تأثيرا بالغا على الأمن القومى السورى بشكل خاص ، وعلى الأمن القومى العربى بشكل عام ، وكذلك فإن أى ضعف لسورية يتأثر به لبنان ، ويجعله أقل مناعة فى مواجهة الاعتداءات . وهنا لابد من القاء الضوء على **طبيعة المخططات الاسرائيلية فى لبنان** ، فهى ترى لبنان النقيض الحقيقى لتكوينها ولكيانها العنصرى الطائفى ذلك أن الشعب اللبنانى هو شعب واحد وإنْ تنوع بالانتماء إلى طوائف عدة ، وإلى أديان ، وإلى مذاهب ، وهذا التنوع يُغنى لبنان ويعطى لبنان معنى لرسالته الحضارية العالمية ، ذلك أنه يُشكل مؤسسة دائمة للحوار المسيحى الاسلامى خاصة عندما نعلم أن كل عائلة فى لبنان تتوزع بانتمائها الطائفى بين عدة طوائف ، بينما الشعب اللبنانى فى مجموعه هو من أصل واحد وفى ظل تاريخ واحد وتراث واحد . وله لغة واحدة ، وتطلعات ، وآمال واحدة ، **ومن هنا فإن لبنان يُشكل النموذج الحضارى الذى يشهد على بطلان التكوين الصهيونى العنصرى الرافض للتعايش مع الطوائف أو الأديان الأخرى على أرض فلسطين** ، ومن هنا فإن النموذج اللبنانى والمثال اللبنانى دليل على العروبة الحضارية التى لا تميز بين دين ودين وبين لون ولون ، **اذن فالعروبة وحدها قادرة على المحافظة على هذا المثال والنموذج ومن هنا فانه ليس** مطلوبا اثبات عروبة لبنان بقدر ما هو مطلوب اثبات لبنانية العروبة الآن ، ولذلك فإن

عظمة انجاز الأسد أن بلاده استطاعت أن تساعد لبنان ، الذى حقق انتصارا عربيا كبيرا هو الابقاء على الوحدة الوطنية اللبنانية التى تؤكد العروبة الحضارية ، وانتماء لبنان العربى. ولولا سورية وموقفها المبدئى لكانت حالة لبنان قائمة ولكانت اسرائيل قد تمكنت من تفتيت لبنان إلى عدة كيانات عنصرية طائفية ، وعند ذلك لن يقوى أى مجتمع عربى على مقاومة التفتيت خصوصا أن جميع المجتمعات العربية لديها هذا التنوع فى الانتماء الطائفى والمذهبى ، ومن هنا كانت أهمية النظرة إلى وحدة لبنان وإلى العيش المسيحى الاسلامى المشترك فى لبنان كضامن اساسى لمواجهة مخططات اسرائيل الرامية إلى تفتيت المنطقة العربية ، ولولا سورية لما تحقق اتفاق الطائف ، ولما خطا لبنان هذه الخطوات الهائلة لاخراجه من الحرب إلى حالة السلام ، وإزالة الحواجز بين اللبنانيين وبين المناطق اللبنانية ، وبالتالى العودة إلى مسيرة إعادة قيام الدولة وبناء مؤسسات داخل لبنان ، وهذا الوجود قد نصت عليه اتفاقية الطائف بقصد مساعدة لبنان على تحقيق وفاقه الداخلى ، وتعزيز سيادة واستقلال لبنان على أرضه وتمكين قواته المسلحة من القيام بدورها بحيث تستطيع عند ذلك القوات السورية الخروج من لبنان دون أى اضرار بالكيان اللبنانى وبسيادة واستقلال لبنان .

الأطماع الصهيونية فى جنوب لبنان وكيف فهمها الرئيس حافظ الأسد

قبل الحديث عن حقيقة الأطماع الاسرائيلية فى لبنان وكيف فهمها الرئيس حافظ الأسد ، وكيف تعامل معها . لابد من التمهيد لهذا الحديث بطرح الملاحظات الآتية :

أولا : أن لبنان رغم كثرة الاعتداءات الاسرائيلية عليه رفض ، ولايزال يرفض الاعتراف باسرائيل .

ثانيا : إن اتفاقية الهدنة التى وُقِّعت بين لبنان واسرائيل فى ٢٣ مارس آذار ١٩٤٩ وان كانت لم تضع حدا لحالة الحرب إلا انها بموجب القانون الدولى توجب على اسرائيل كما توجب على لبنان التوقف عن كل اعتداء مسلح .

ثالثا : ان لبنان مرتبط بوحدة الحياة والمصير بالشام وفلسطين والأردن والعراق الواقعة فى محيطه الطبيعى ، ويمتد هذا الارتباط المصيرى إلى الجبهة المصرية الغربية وبقية الوطن العربى .

رابعا : ان وجود القوات السورية فى لبنان بأهدافه ، وبما له من شرعية يختلف اختلافا كليا عن وجود القوات الاسرائيلية التى دخلت الاراضى اللبنانية غازية ، وما تزال تحتل أجزاء واسعة منها لتحقيق أطماع توسعية ولا وجه للمقارنة بين الوجودين .

كذلك فإن القوات السورية دخلت إلى لبنان تلبية لنداءات مُلحَّة من اللبنانيين أنفسهم ، شخصيات وأحزاب وتجمعات سكانية ، وبناء على طلب السلطة الشرعية ، وأداء لواجب قومي وانها خلال وجودها فى لبنان أدت مهمة نبيلة فقد أوقفت الحرب الأهلية التى كانت مستعرة فى كل أنحاء لبنان ، وحافظت على وحدة لبنان أرضا وشعبا ، وحققت معجزة الوفاق الوطنى فى اتفاق الطائف ، كذلك فقد أوضحت على لسان قائدها حافظ الأسد انها مستعدة لسحب قواتها حالما يقول لها اللبنانيون انهم لم يعودوا فى حاجة إلى العون الذى قدمته لهم فى وقت المحنة .

خامسا: ان اسرائيل مارست ضد لبنان كل صور الاعتداء الوحشى والشرس والتخريبى برا ، وبحرا ، وجوا ، وليس جديدا . التأكيد على أن اعتداءاتها على لبنان هى مجرد ذريعة لتحقيق مطامعها فى أرض لبنان وموارد لبنان المائية ، والزراعية ، والاستراتيجية ، وطابع الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان منذ عام ١٩٦٨ وحتى الآن طابع وحشى مروع ، فاسرائيل من الجو ، والبر . والبحر ، تفتك بالقرى اللبنانية الآمنة حتى وصلت إلى قصف المدن كمدينة طرابلس وصيدا ، ودخلت إلى قلب بيروت فى ١٠ ابريل نيسان ١٩٧٣ .

أسباب الاعتداءات الاسرائيلية ودوافعها واستهدافاتها حددها حافظ الأسد فى ثلاثة أمور:

- ★ **دوافع دينية تاريخية.**
- ★ **استراتيجية عسكرية.**
- ★ **عوامل اقتصادية.**

من الناحية التاريخية:

جاء فى سفر يشوع ١:٤« وعدالله شعبه المختار باعطائه كل موضع تدوسه قدماه » ولبنان حسب هذا الوعد وتفاسير أئمة الصهاينة ضمن هذا الوعد . داخل فى أرض الميعاد ، وجاء فى سفر التكوين : « منح الله شعبه المختار كل الأرض الواقعة بين النيل والفرات » فمن الناحية الدينية التوراتية واضح كل الوضوح أن لبنان كله ـ لا الجنوب فقط ـ داخل فيما يسميه اليهود «اسرائيل الكبرى».

من الناحية السياسية: فإن اسرائيل احتلت عام ١٩٤٨ جزءا من قضاء مرجعيون ، وبنت جبيل ، وأصبحت على مشارف الليطانى ، ولكنها لم تلبث أن انكفأت عن هذه الأراضى جيوشها تحت ضغط فرنسا ، ولكنها عادت واستولت بموجب اتفاقية الهدنة بينها وبين لبنان عام ١٩٤٩ على أراض زراعية واسعة من قرى الحدود الجنوبية ، يارون ، راميش ، عيترون ، بليدا ، حولا ، والعديسة ، وكفر كلا ، وميس الجبل ..

وفى سنة ١٩٥٥ كرر بن جوريون مطامع اسرائيل التوسعية ،مؤكداً بأن حدود دولة ١٩٤٨ لاتحد بأى شكل من الأشكال من اتساع اسرائيل التاريخى ، وقد أيد الكنيست هذا الموقف وأسبغ عليه طابعا شرعيا إذ رفض اقرار دستور دائم لاسرائيل على اعتبار انها لم تكتمل بعد لا شعبا ولا أرضا .

وفى ٧ يوليو/ تموز ١٩٦٧ صرح ليفى أشكول رئيس الوزراء لجريدة لوموند الفرنسية قائلا : (لا يمكننا ونحن بأمس الحاجة إلى المياه أن نرى مياه الليطانى تذهب هدرا إلى البحر ، لقد أصبحت القنوات جاهزة فى اسرائيل لاستقبال هذه المياه واستعمالها) ، وبعد حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧ صرح وزير الدفاع الاسرائيلى موشى ديان (أن حدود اسرائيل أصبحت طبيعية على جميع الجهات ، وأن الضفة الشرقية للأردن ولبنان وسورية ستكون الفريسة الثانية لاسرائيل) .

أما الأسباب الاستراتيجية للمطامع الاسرائيلية فى لبنان كما حددها الرئيس حافظ الأسد: فمرجعها إلى حدود اسرائيل بطبيعة تكوينها العدوانى لا تستقر على تخوم محددة ، وأن للبنان أهميته ، من الناحية العسكرية حيث يمتاز لبنان بسطح جبلى تبرز فيه سلسلة جبال لبنان التى تفصل بين السهل الساحلى وسهل البقاع الذى يعتبر طريق الاقتراب الطبيعى من شمال الشام .

وأما الأسباب الاقتصادية: فمعروف أن اسرائيل يقلقها كثيرا ازدهار لبنان الاقتصادى ، وفى كل مرة تضرب اسرائيل يكون من أهدافها المباشرة تعطيل موسم الاصطياف فتقضى على المورد الرئيسى للبلاد ، كما أن اسرائيل تسعى للحصول على أراض جديدة لاقامة الكيبوتز واستيطان المهاجرين الذين قال عنهم بن جوريون : أنهم يكونون كفرة إذا لم يعودوا إلى اسرائيل (تراب الأباء والأجداد) .

وأرض جنوب لبنان الخصبة هى مطمح أبصارهم لاستيطان هؤلاء العائدين ، إلى جانب ذلك كله فإن المطامع الاسرائيلية فى نهر الليطانى واضحة منذ عام ١٩١٩ ، (ان مطامع اسرائيل فى الليطانى تنبع من طبيعة كيانها الاستعمارى ، وهى بالنسبة لها حيوية لمشاريعها التوسعية كدولة هجرة استيطانية مفتوحة لاستيعاب الملايين من اليهود من كل أنحاء العالم ، ومنذ مؤتمر الصلح فى عام ١٩١٩ والصهيونية تؤكد مطامعها فى الليطانى) .

وفى ٦ كانون الأول/ يناير من عام ١٩٦٩ حددت الحركة الصهيونية أطماعها فى جنوب لبنان على النحو التالى : (إن الحقيقة الأساسية فيما يتعلق بحدود فلسطين هى أنه لابد من ادخال المياه الضرورية للرى وللقوى الكهربائية ضمن هذه الحدود ، وذلك يشمل مجرى نهر الليطانى ومنابع مياه الأردن وسفوح جبل الشيخ) .. الخ ، والى جانب هذه

الأطماع الصهيونية فى لبنان فإن هناك أهدافا أخرى سعت اليها اسرائيل من غزوها للبنان فى صيف ١٩٨٢ وفى مقدمتها التوسع على حساب الأرض العربية ، وقهر الانسان العربى ، وتجريده من روح المقاومة ، وضرب قوى التحرير المعادية لكل مظاهر الاستغلال والتخلف وصولا الى السيطرة المطلقة على المنطقة العربية والمشاركة فى نهب ثرواتها المادية وتصفيتها حضاريا وبناء اسرائيل الكبرى المتناقضة جذريا وصداميا مع أهداف الأمة العربية ، وطموحاتها ، وتطلعاتها نحو مستقبل أفضل .

أهداف الغزو الاسرائيلى للبنان

قبل الحديث عن الغزو الاسرائيلى للبنان لابد من الاشارة الى أن أهداف الغزو الاسرائيلى تمثلت فى اخضاع لبنان لمشيئة الأطماع الأمريكية والمخططات الاسرائيلية تمهيدا لدفعه الى الارتماء فى الخندق المعادى للأمة العربية والانفراد **بسورية** وبقوى الثورة الفلسطينية وابقاء العرب على حالة من الضعف والتمزق .

ولقد تطورت الأحداث على الساحة اللبنانية بشكل مثير حيث بدأ مسلسل الاغتيالات والمجازر الدموية التى نفذها الكتائبيون فى عين الرمانة ، ومنطقة **الدكوانه** ضد الفلسطينين ، **ونشطت سورية لايقاف نزيف الدم العربى فى لبنان ، ولكن المؤامرة عادت الى الظهور** ونشب الاقتتال وتصاعد عام ١٩٧٥ وانفجرت حرب الكرنتينة ثم حرب الدامور وسرعان ما شهدت بيروت اشتعال نار الفتنة حيث نشب القتال فى كل مكان وظهرت بوادر الانقسام الطائفى فى الجيش اللبنانى ، وكان ذلك فى أعقاب مجزرة بيروت المعروفة باسم السبت الأسود فى ٨ آذار/ مارس ١٩٧٦ ، وفى ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٧٦ قرر الرئيس حافظ الأسد فى خطاب شرح فيه الموقف على الساحة اللبنانية وضع قوات الردع العربية تحت إمرة الرئيس الياس سركيس استنادا الى قرار مؤتمر القمة السادس فى الرياض .

لقد دخلت القوات السورية لبنان دفاعا عنه وحفاظا على استقلاله وحقنا للدماء ومنعا للتقسيم ، وعندما استتب الأمن وعاد الهدوء الى لبنان خرجت اسرائيل من صمتها بعد استمرارها طيلة الحرب ، وأعلنت انها لن تسمح للقوات السورية العاملة ضمن قوات الردع العربية بتجاوز الخط الأحمر وكشفت عن نياتها وفضحت أهدافها ، وتزامن مع هذا كمائن أعدها الكتائبيون لقتل عناصر قوات الردع العربية ، وكان واضحا ان الآمال معلقة على دمشق لتحقيق الأمن وحقن الدماء فى لبنان ، ولكن اسرائيل صعدت فى عملياتها الاستفزازية متحدية بذلك العالم كله **وكان أبرز هذا التصعيد اعلانها ضم الجولان فى ١٤ كانون الأول يناير عام ١٩٨١ واعتبارها أرضا اسرائيلية** ، ولكن هذه الخطوة لم تحقق لاسرائيل هدفها لجر سورية الى مجابهة عسكرية خططت لها بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت ملامح هذه المؤامرة قد وضحت عندما شكل مناحيم

بيجين رئيس وزراء اسرائيل حكومة جديدة شغل فيها الارهابى المتطرف ايريل شارون منصب وزير الحرب ، ولقد كان التواطؤ على أعلى مستوى بين الادارتين الأمريكية والاسرائيلية على غزو لبنان ، هذا الغزو الذى دفع ثمنه بعد افتضاحه الكسندر هيج وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق ، ويعترف البريطانى باتريك سيل فى كتابه (الصراع على الشرق الأوسط) بوجود هذا التواطؤ الذى تعمدت كل من أمريكا واسرائيل عدم جعله صريحا لتتمكنا من انكاره ، غير أن مجريات الغزو واتساع نطاقه ، وفظاعة حجم التدمير فى الأرواح والممتلكات .. كل هذه الأسباب أدت الى هياج الرأى العام الأمريكى واقالة وزير خارجيته وتحميله مسئولية الموافقة الأمريكية وأدى الى تعثر الغزو وتخبطه فى المستنقعات اللبنانية القاتلة ، ولكن الاشتباكات الدموية والهجمات المتكررة ظلت تلاحق القوات السورية العاملة فى لبنان ، **وتصدى الطيران العربى السورى بكل بسالة للطيران الاسرائيلى فى سماء لبنان ومنعه من تحقيق أهدافه العدوانية ،** ونشطت القوات الكتائبية فى أعمال الاغتيال والتصفيات الجسدية . **وتأزم الموقف فى زحلة** ووقعت خسائر كبيرة فى صفوف المدنيين اللبنانيين ، والفلسطينيين على حد سواء ، وجرت تصفيات جسدية كان ضحيتها كمال جنبلاط وطونى فرنجية نجل الرئيس الراحل سليمان فرنجية والمناضل الفلسطينى زهير محسن زعيم منظمة الصاعقة .

ومرة أخرى تدخلت القوات السورية لوقف المعارك ، وايقاف التهجير ، وتابعت سورية مهمتها القومية على الساحة اللبنانية من أجل المحافظة على الكيان اللبنانى الموحد أرضا وشعبا ، والمحافظة على وحدة المقاومة الفلسطينية وأمنها وسلامتها . وعززت القوات السورية مواقعها الأمنية ودفعت بوحدات من الصواريخ المضادة للطائرات الى منطقة البقاع لحماية القوات السورية هناك ، ولدفع العدوان الجوى الاسرائيلى عن لبنان ، ولكن الفئات اللبنانية المتآمرة على لبنان تابعت نشاطها الهدام ، وبالتعاون مع الولايات المتحدة واسرائيل ، وتزامن مع هذا كله تحركات أمريكية مشبوهة وفرت الظروف الموائمة لشن عدوان اسرائيلى غادر واسع النطاق هدفه تقويض ما حاولت سورية بناءه خلال فترة وجودها فى لبنان وضرب البنية العسكرية الفلسطينية واجبار القوات السورية على الخروج من لبنان .

وفى صباح يوم ٤ يونيو/ حزيران ١٩٨٢ استفاق العالم كله ليستمع الى أخبار عن قيام الطائرات الحربية الاسرائيلية ، بقصف مواقع ومناطق مختلفة من لبنان قصفا كثيفا بزعم أن هذا الاعتداء هو رد انتقامى لحادث اغتيال سفير اسرائيل فى لندن شلوموارجوف ، وسرعان ما تكشفت حقائق بالغة الأهمية من بينها أن القوات الاسرائيلية اجتاحت الجنوب اللبنانى تحت ستار كثيف من نيران البر والبحر والجو وتجاوزت حدود الأربعين كيلومترا التى أعلنت عنها ، كما تجاوزت صيدا ثم زجت بقوات جديدة فاقت كل التقديرات الأولية .

وفى نهايــة الأسـبوع الأول من العــدوان كـانت القـوات الاســرائيلية قد توغـلت أكثـر من ٦٠ كيلومتـرا فى عمـق الأراضــى اللبنانيـة بعـد أن دفعت بحوالى ٧٥ الف جندى على ثلاثةاحاور، الأول على الساحل الليطانى، والثانى فى اتجاه البقاع ، والثالث نحو الجبال .

وفى كتاب (لعنة وطن) لمؤلفه (كريم بقرادونى) أشار الى أن المارونية السياسية اشتركت فى تهيئة المناخ لعملية سلام الجليل.. وروى الواقعة التالية :

« أطلعنى بشير الجميل على مضمون اجتماع جرى مع شارون وزير الدفاع الاسرائيلى فى بيروت خلال شهر كانون الثانى/ يناير عام ١٩٨٢ فى بيت بشير بالأشرفية حضرة والده بيار ، وكميل شمعون ، وقال شارون : « إن ثمة قرارا اسرائيليا بتدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير ، وان العملية الكبرى تفترض مشاركتكم فى معارك بيروت أو تتوقف على مدى استعدادكم لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل » .

ويعلق بشير على هذا اللقاء بقوله : « قبل الاجتماع كنت متخوفا من ردة فعل الشيخ بيار ومرتاحا لموقف شمعون ، وفوجئت كثيرا عندما أظهر الشيخ بيار خلال الاجتماع حماسا للعملية الكبرى أكثر من شمعون » ولجأت اسرائيل فى سياق عملية الغزو الواسعة النطاق الى خبثها اليهودى المعتاد فأعلنت على لسان بيجن فى خطاب القاه فى الكنيست « اننا نبذل كل جهد ممكن لتجنب المواجهة مع السوريين ، اننا لا نريد أن نؤذى أحدا ، إننا نريد شيئا واحدا فقط ، هو ألا تُهاجَم مستوطناتها فى الجليل ، فإذا دفعنا الخط الى الوراء مسافة أربعين كيلومترا عن حدودنا فسوف تنتهى مهمتنا وينتهى القتال كليا » .

ومنذ اليوم الأول للغزو قصفت القوات السورية فى البر والجو القوات الاسرائيلية الغازية وجسدت سورية هذا الموقف عمليا حين هبت الى نجدة لبنان ، ودفعت بقواتها الى ساحة المعركة برغم معرفتها حجم القوات الاسرائيلية الغازية ، وتحملت فى سبيل ذلك الاعباء والتضحيات الكبيرة انطلاقا من واجبها القومى وادراكها العميق لمعانى الأواصر الأخوية التى تربط بين سورية ولبنان ، وعلى الرغم من تصدى القوات السورية والفلسطينية والقوى اللبنانية الوطنية بكل البطولة والشجاعة والاقتحام ، تابعت القوات الاسرائيلية تقدمها وفرضت الحصار على بيروت الغربية ، وفى اطار المخطط الاسرائيلى لتدمير القوات السورية والفلسطينية فى بيروت الغربية فرضت الحصار من البر والجو والبحر مع تجويع السكان وحرمانهم من متطلبات الحياة اليومية والضغوط النفسية ، ولقد شهدت بيروت أروع صور الصمود والتصدى ، **وكما يقول باتريك سيل فى كتابه (الصراع على الشرق الأوسط)** : رغم أن القوات السورية كانت تقاتل فى وضع خرج

للغاية بعدما زجت اسرائيل بنخبة قواتها المدرعة وسلاحها الجوى والبحرى ، فإن هذه القوات استطاعت أن تُرغم اسرائيل على دفع ثمن كل متر كسبته عن طريق ايقاعها فى كمائن .

ويشير فؤاد العشا فى مؤلفه (حافظ الأسد قائد ورسالة) الى أن الفرقة الثانية المدرعة السورية قامت بخوض معركة فى ١٠ يونيو/ حزيران مع لواء اسرائيلى مدرع فى منطقة راشيا انتهت بتدمير معظم دبابات اللواء الاسرائيلى ، وأسر بضع دبابات صالحة للاستعمال من طراز م ٦٠ الأمريكية الصنع ، وفى الجبهة الوسطى تمكن لواء دبابات سورى وحيد من ايقاف الاسرائيليين عند قرية عين زحلتا لمدة تزيد على يومين ومنعهم من الاختراق باتجاه طريق بيروت ـ دمشق ، وعلى جبهة البقاع أوقفت الفرقة السورية الأولى هجوما اسرائيليا آخر ومنعته من الوصول الى الطريق الحيوى نحو الحدود السورية .

وعندما وجدت اسرائيل أن المعركة ليست كما وصفتها بأنها « عملية جراحة نظيفة » راحت تدفع بقوات جديدة للتغلب على المجابهة السورية العنيدة ووصل حجم القوات الاسرائيلية فى لبنان الى رقم قياسى « حيث تجاوز ١٠٠ ألف جندى ، ١٢٠٠ دبابة ، ١٢٠٠٠ شاحنة للجند والمؤن » .

أكد ذلك تيمور جوكس الناطق باسم قوات الأمم المتحدة فى الناقورة ، ومعلوماته مستقاة من قوات الأمم المتحدة التى كانت من خلال نقاط التفتيش التابعة لها تراقب الاسرائيليين وهم يعبرون الحدود دون أى اكتراث للرأى العام الدولى .

ورغم ان الولايات المتحدة توصلت لوقفين لاطلاق النار على الأقل بين القوات السورية والاسرائيلية إلا أن محور بيجن ـ شارون كان لايزال يطمح الى احتلال بيروت والسيطرة عليها ، وهكذا أمرت القوات الاسرائيلية بمحاصرة العاصمة اللبنانية وقصفها بالمدفعية والطيران تمهيدا لاجتياحها .

وصباح يوم ٢٥ حزيران أصاب الطيران الاسرائيلى عددا من المجمعات السكانية فى عملية أبى شاكر فى بيروت ، ولكى يجبر شارون بيروت على الاستسلام استخدمت قواته أسلحة محرمة دوليا فقامت القنابل الارتجاجية بهدم عمارات بأكملها ، كما استخدمت القنابل الفوسفورية والعنقودية الأمريكية الصنع ، وراحت اسرائيل تشن حرب تصفية منظمة ضد سكان بيروت المدنيين بقصد الارهاب وكسر شوكة المقاومة المدنية المسلحة ، وأدى ذلك الى قتل عدد يتراوح ما بين ١٧ ألفا الى ٢١ ألف لبنانى وفلسطينى وجرح حوالى ٤٠ ألف شخص ، كما اعترفت بذلك صحيفة الواشنطن بوست فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٢/٩/٣ ، وكان ٤٠٪ من كل هذه الأعداد من الأطفال .

كلمات الأسد ودورها فى رفع معنويات الجنود

كانت رسائل الأسد وتوجيهاته إلى أبنائه المقاتلين دافعا لهم لمواصلة صمود المقاتلين الرائع ، وقد اخترنا كنموذج ـ تلك الرسـالة التى كتبها بخط يده بتاريخ ٢١ يونيو/ حزيران ١٩٨٢ قال فيها : « أحببت أن اتصل بكم ولم أجد وسيلة أفضل من أن أكتب إليكم بخط يدى :

نحن لم نبدأ هذه المعركة بل العدو هو الذى بدأها وقد يستأنفها فى أى وقت ، أنه يطمع فى أرضنا ووطننا ، عندما بدأ العدو المعركة كان ردكم شجاعا ، وإذا استأنف العدو المعركة يجب أن يكون ردكم شجاعا باسلا يتميز بالاصرار العنيد ، والتصميم ، والنفس الطويل الذى لا نهاية له والذى يحطم كل أمل للعدو فى احراز نصر ، إذا بدأت المعركة يجب أن تستمر مهما طال الزمن ويجب أن يكون قتالكم عنيفا دؤوبا إلى الحد الذى يسجل التاريخ وتتحدث البشرية أن شعبنا مارس أروع الشجاعة وأشدها صلابة ، وأن شعبنا فى مقدمة شعوب العالم بسالة وتضحية من أجل أرضه وكرامته . نعم ، يجب أن يسجل التاريخ هذا ، وتقرأه وتتحدث به شعوب الدنيا ، فإذا كان العدو الذى جمع شتاته من بلدان العالم المختلفة .. يقاتل ويضحى من أجل باطله وعدوانه ، من أجل أن يحتل أرضنا ، ويذل شعبنا ، ويقتل أطفالنا ونساءنا وشيوخنا ، فما أحرانا نحن أن نموت ميتة الشرف دفاعا عن الحق ، وضد الباطل ، دفاعا عن الحرية ، وضد العدوان دفاعا عن أرضنا ، وشعبنا ، ودفاعا عن أطفالنا ، ونسائنا ، وشيوخنا ، ومستقبل أجيالنا .

الحياة قصيرة ، أيها الأبناء ولا تستحق أن تُعاش إذا لم نكن أعزاء فى وطننا .

حياة المرء قصيرة بذاته ، طويلة مستمرة بعمله وحياة شعبه .. حياة المرء قصيرة ، فليقرر كل منا الا تنتهى حياته إلا نهاية العز والشرف والرجولة ، وهل هناك أمر أشرف ، وأروع خلودا من نهاية أبية للحياة تتم فى ميدان القتال دفاعا عن الشعب والوطن ، وتلك هى الشهادة .

الحياة قصيرة ، والسعيد الخالد من أدى خلالها عملاً كبيراً ينعكس خيرا وكرامة على الشعب وأجياله المقبلة ، ولا أكبر من الشهادة فى مواجهة العدو .

فلنتحد العدو الذى يعمل على إذلالنا واحتلال أرضنا إذ ليس هناك مايبعث الاعتزاز فى النفس كوقفة التحدى التى يقفها الانسان فى وجه نار العدو دفاعا عن الوطن .

لا مجد فى مستوى مجد الشهيد من أجل الوطن فليطمح كل منا إلى نيل الشهادة .

أنا الذى قلت فى الماضى وأقول الآن ، وفى المستقبل : الشهداء هم أكرم من فى الدنيا وانبل بنى البشر مَنْ يربح المعركة هو الانسان لشجاعته وتصميمه ، وهذه حقيقة تظل ثابتة مهما تطور السلاح . يجب الا يخيفنا تفوق طيران العدو . فهو يستطيع أن يلحق بنا خسائر خلال المعركة بالعتاد والرجال ، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يربح المعركة إذا صمم الرجال المقاتلون على القتال والصمود ، الرجال الشجعان الصامدون هم وحدهم الذين يحسمون المعركة ويربحونها فى نهاية الأمر وهم الذين يستحقون حب الوطن .. واعتزاز المواطنين .

واذا استؤنف القتال ، علينا أن نقاتل دون أن نأبه لتفوق طيران العدو ، مع العلم أن طيارينا الأبطال قاموا وسوف يقومون بواجبهم فى مواجهة العدو.

يجب أن يقتنع العدو أن الزمن الذى كان يخيفنا فيه بهدير طائراته وقنابلها قد ولى ، ويجب أن نثبت له وللعالم أن مَنْ يكسب المعركة هو الانسان الشجاع الذى يرفض الذل ، ويحتقر الجبن والتخاذل ، والذى يعتبر أن حياته المثلى هى فى استشهاده دفاعا عن كرامة الوطن والمواطنين .

يجب أن نثبت للعدو أن طيرانه لن يكسب المعركة لأن طيران أمريكا لم يستطع أن يهزم فيتنام بل لم يستطع أن يحمى أمريكا من الهزيمة .

أنتم الآن على أبواب ملحمة كبرى فاجعلوها ملحمة المجد ، أنتم الآن على أبواب أن تكتبوا فصلا خطيرا من فصول التاريخ فاكتبوه بالنور ليستضىء به شعبنا بأجياله المتعاقبة ، وليستضىء به كل شعب يتعرض للعدوان ، وما النور إلا قطرات دم الشجاع ، دم البطل ، دم الشهيد .

أيها الأبناء ...

قسما بالأجداد .. قسما بالأبناء والأحفاد ، قسما بالشعب قسما بكم أيها المقاتلون ، قسما بالله لن أدع الفرصة تهرب منى عندما أجد ممكنا أن أكون معكم فى الميدان ، وأسير معكم على الطريق الذى أوصيتكم أن تسيروا عليه ، وإذا حدث ذلك فنعمة الفضل كل الفضل فيها لهذا الوطن .. لهذا الشعب .

فكل الأمانى تصغر وتصغر أمام أمنية الشهادة ، وكل الفضائل تصغر وتصغر أمام فضيلة الشهيد . فإلى النصر أيها الأبناء العسكريون ، ضباطا وصف ضباط وجنوداً .

لنقاتل العدو وفى ذاكرتنا قول راسخ لا ننساه :

أنه لا تستطيع قوة فى الدنيا أن تهزم شعبا صمم أبناؤه على القتال حتى النصر ، ونحن المقاتلين السوريين صممنا على القتال حتى النصر.

تحيتى لكم، حبى لكم، أيها الأبناء العسكريون».

وجاءت تحية أخرى للرئيس حافظ الأسد لتزيد من صمود المقاتلين السوريين رغم فقدان عنصر التكافؤ، وقال مخاطبا هذه القوات بنداء عاطفى حار: أخوانى وأبنائى:

« إننى أتابع باستمرار أنباء قتالكم المجيد وبطولاتكم الفذة وأدائكم الرائع ودحركم للعدو فى كل مرة يحاول النيل فيها من صمود وعروبة بيروت رغم بشاعة القصف الهمجى الذى ينفذه برا وبحرا، وجوا عليكم وعلى أهلنا هناك، لقد استطعتم بتضحياتكم وصمودكم تأمين الشروط اللازمة لثبات اخوانكم المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين فى بيروت على مدى شهرين تقريبا، بورك قتالكم الذى أثبتم به أنه لا تستطيع قوة فى الدنيا أن تهزم شعبا صمم أبناؤه على القتال حتى النصر. وانكم أيها المقاتلون العرب السوريون صممتم على القتال حتى النصر، إن شعبنا العربى فى كافة أقطاره يرنو إليكم ويرفع الرأس عاليا بكم، يثق بصمودكم والتاريخ وأجيالنا القادمة ستتحدث عنكم بكل عزة وفخار».

ويختتم الرئيس الأسد رسالته المؤثرة بهذه الكلمات: «أيها الأحبة أن عروبة بيروت أمانة بين أيديكم فاحفظوا هذه الأمانة ودافعوا عن نسائها وشيوخها وأطفالها ضد همجية أعداء الانسانية واجعلوا معركة بيروت ملحمة مجد دفاعا عن كرامة الأمة العربية ودرسا للمتخاذلين الجبناء.

أحييكم وأشد على أيديكم وأقبلكم فردا فردا وأطلب إليكم الصمود ودحر العدو والتمسك بشعارنا الخالد الشهادة أو النصر لتكملوا طريقنا، طريق الفداء طريق الشهادة طريق النصر».

اغتيال بشير الجميل

ولقد تتابعت الأحداث السياسية وتلاحقت مع الأعمال القتالية التى نشبت فى مناطق الجبل بين القوات السورية والاسرائيلية، **وجرى اغتيال (بشير الجميل)** فى انفجار وقع فى مقر حزب الكتائب أدى إلى ارتكاب مذابح انتقامية فى مخيمى صبرا وشاتيلا أشرف عليها الاسرائيليون بشكل مباشر، كما أكدت الوثائق وجود تنسيق تام حتى تم يومى ١٦، ١٧ ايلول / سبتمبر ذبح أكثر من ألف رجل وامرأة فى حين خرجت فى اسرائيل مظاهرات صاخبة تطالب بالتحقيق فى الدور الاسرائيلى فى المجزرة، وتحرك الجيش الاسرائيلى الذى استقدم قوات جديدة إلى بيروت الغربية واندفعت القوات الاسرائيلية إلى قلب المدينة من الشرق والجنوب، وخلال ٢٤ ساعة سقطت عاصمة لبنان فى أيدى

الاسرائيليين وتمكن الجيش الاسرائيلي من تحقيق ما لم يجرؤ على محاولته أثناء وجود القوات السورية وقوات الثورة الفلسطينية .

اعتمدت اسرائيل خلال الغزو على الكذب لتضليل الرأى العام داخليا وخارجيا ، وشن الحرب النفسية ضد الحضور السورى فى مواجهة الغزو ، ولكن بسالة القوات السورية فى **تصديها** للقوات الاسرائيلية الغازية أبطلت مفعول هذه الحرب ، وتجدر الاشارة إلى أن الولايات المتحدة رفضت خلال الغزو ممارسة أى ضغوط على حكومة بيجن لوقف الغزو، وراحت تتحدث عن خلق ظروف اقامة سلام دائم فى المنطقة ..

اللافت للنظر فى التصريحات الأمريكية إنها تؤكد أن الادارة الأمريكية كانت على علم مسبق بالعدوان ، بل شاركت فيه لاستثمار نتائجه العسكرية ، وكانت واشنطن ترمى إلى منح اسرائيل الغطاء الدولى المتعدد الجنسيات لتبرير احتلال يراد له أن يبقى فى لبنان أطول فترة ممكنة وكشف عدد من الكتاب والمفكرين أن الهدف من كل ما جرى ويجرى اجبار لبنان على تقديم تنازلات ضد المصلحة اللبنانية والمصالح العربية .

لقد ثبت بالفعل أن الشراكة الامريكية الاسرائيلية لم ينتج عنها سوى استمرار احتلال لبنان والضغط عليه من خلال مشاريع مصدره وتحركات دبلوماسية مكوكية لحل النزاع ، وكل ما حدث لم يكن سوى دور من أدوار المناورات التى تقوم بها واشنطن لترويض العرب على هضم الغزو والقبول به كأمر واقع ، وكما يقول العماد مصطفى طلاس : فإنه فى اطار متابعة تصعيد اسرائيل عدوانها على لبنان من جهة وتغطية اخفاق اسرائيل فى وضع حد للعمليات الفدائية اللبنانية خلف الخطوط من جهة أخرى ، برزت حقائق عديدة أهمها أن العجز الصهيونى وصل إلى مرحلة الخوف فى دفع فاتورة حساب ثمن الغزو ، ومن معاناة القوات الاسرائيلية فى لبنان لذلك كان لابد من الاسراع فى الأمور للوصول إلى اتفاق مع لبنان يحقق المكاسب السياسية المطلوبة ، وتحقق ذلك عندما وافق المجلس النيابى اللبنانى فى ١٩٨٣/٦/١٥ على اتفاقية ١٧ايار ـ مايو وهى الاتفاقية التى فندها الرئيس حافظ الأسد وشرح خطورتها الجسيمة على لبنان وسوريا والأمة العربية .

وقد وصف الرئيس الأسد مشروع الاتفاق بأنه خطير خطير ، وانه على سبيل المثال لا الحصر يقضى بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل واقامة بعثات دبلوماسية تحت اسم مكاتب خاصة ويفرض قيودا سياسية وعسكرية واعلامية فى كامل الأراضى اللبنانية ، وليس فقط فى المناطق التى تحتلها اسرائيل ، كما يفرض هيمنة عسكرية اسرائيلية فى الأجواء اللبنانية والمياه الاقليمية اللبنانية ، ويجعل لبنان امتداداً جغرافيا لاسرائيل ويحوله إلى بلد حليف للكيان الاسرائيلى ...

الاتفاق كان يفرض على لبنان أن يتخذ اجراءات ضد أى عنصر عربى يوجد على

أرض لبنان ، ويمارس أى نوع من النشاط ضد اسرائيل حتى ولو كان نشاطا ثقافيا بل ويمنع أن تقوم أى مؤسسة عربية على أرض لبنان اذا كانت لها أهداف ضد اسرائيل ، كما ورد فى الاتفاق أنه تعتبر الدولة عدوة إذا كانت لا تقيم علاقات دبلوماسية مع لبنان واسرائيل ، كما فرض مشروع الاتفاق أن تقوم على الأراضى اللبنانية بما فى ذلك المناطق القريبة من الأراضى السورية مراكز يتمركز فيها الاسرائيليون ، كما فرض أن تُعطى شرعية لقوات سعد حداد بما فى ذلك الميليشيات التى ستتطوع فى تنظيم الأنصار وتعتبر قوى مسلحة شرعية تقدم لها الدولة اللبنانية السلاح والتمويل والرواتب ، وأشار مشروع الاتفاق إلى أنه عند الخلاف حول أى تفسير أو موضوع جديد تبت الولايات المتحدة فى الأمر وليس لجنة تحكيمية وأن يكون قرار الولايات المتحدة فى أى خلاف ملزما للطرفين .

ومن البديهى أن قرار الولايات المتحدة فى حل الخلاف مع اسرائيل وليس لبنان ، كما أن مشروع الاتفاق يفرض على لبنان أن يعدل كل قوانينه بما يتوامم مع النصوص الواردة فيه ، وأن يتخلى عن كل التزاماته تجاه الدول العربية التى تتعارض مع نصوص الاتفاق على أساس أن هذا اتفاق أقوى من أى اتفاق لبنانى آخر مع أى جهة أخرى غير اسرائيل .

وهكذا فإن الاتفاق ينقل لبنان من موقعه العربى ليصبح على حد تعبير الرئيس الأسد محمية اسرائيلية ويجعل لبنان مستقرا لأعداء العرب ، ونظرا لأن مشروع الاتفاق ينتهك استقلال لبنان ويهدد أمن لبنان ومصالحه ، وبالتالى أمن سورية وأمن الوطن العربى .. أكد الرئيس حافظ الأسد أن بلاده ستقف إلى جانب الشعب اللبنانى الشقيق فى نضاله ضد محاولات الهيمنة الاسرائيلية وتأمين سيادته على كامل أراضيه ، وأكد الرئيس حافظ الأسد أنه يجب أن يخرج الصهاينة من لبنان وفق قرارات مجلس الأمن دون قيد أو شرط . وعلى هذا الأساس رفض الرئيس الأسد الاتفاق جملة وتفصيلا وأعلن موقفه منه بصراحة ، وأكد أنه خيانة للبنان وللأمة العربية ، وأكد أن اسرائيل لن تستطيع أن تحقق أهدافها مهما تكن التضحيات .

اتفاق ١٧ مايو / ايار

رغم أن الكتائبيين ارتكبوا مجازر صبرا وشاتيلا انتقاما لمقتل زعيمهم بشير الجميل إلا **أنهم اعترفوا فى وقت لاحق أن الاسرائيليين هم الذين قتلوا بشير الجميل** لأنه رفض طلب بيجن بعقد معاهدة سلام رسمية مع اسرائيل .

لقد أحدث التصدع الذى أصاب البنية الأخلاقية والنفسية لدى قطاع كبير من سكان اسرائيل نتيجة غزو لبنان وما ارتكبته القوات الاسرائيلية من فظائع لم يكن لها أى مبرر

أحدث انعكاسات خطيرة داخل اسرائيل عبر عنها ياشيا هو ليوبورتز الأستاذ بالجامعة العبرية : « نحن ارتكبنا المجزرة والكتائبيون مرتزقتنا كالمرتزقة الأوكرانيين والكرواتيين الذين نظمهم هتلر للقيام بما يريده وحذونا حذو هتلر فنظمنا القتلة فى لبنان لقتل الفلسطينيين » .

ولقد أحدثت مجازر الاسرائيليين فى لبنان انقلابا بالغ الأهمية فى صحافة الغرب التى وصفت جرائم اسرائيل وعناصر الكتائب فى مجازر صبرا وشاتيلا بأنها جرائم إرهابية وقد ألحقت هذه المجازر العار بسمعة الولايات المتحدة . المهم أنه فى أعقاب انسحاب القوات الاسرائيلية من بيروت أصبحت هذه القوات هدفا سهلا للقناصة والكمائن ، وكافة أشكال الحرب غير النظامية ، ونشطت المقاومة اللبنانية ضد اسرائيل إلى الحدّ الذى أثار الرأى العام ، وجعله يتساءل عن الثمن الذى تحصل عليه اسرائيل فى لبنان مقابل قتل مزيد من جنودها ، وتوجت المقاومة اللبنانية نضالها بزلزال دكتة على رؤوس الاسرائيليين فى صور بتاريخ ١١ تشرين الثانى نوفمبر عام ١٩٨٢ قُتل فيه ٦٧ إسرائيليا ، ومع انهيار المبنى الاسرائيلى المؤلف من ثمانية أدوار انهارت أيضا ثقة القوات الاسرائيلية فى نفسها التى وصفت غزو لبنان بأنه ليس أكثر من نزهة فى عربة ، كذلك فقد تلقت الدولة العظمى الأولى فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية ضربة مروعة ، عندما نجحت المقاومة اللبنانية فى نسف مقر السفارة الأمريكية فى بيروت ، وكانت حصيلة العملية ٦٣ قتيلا ومائة جريح . **وقد علق روبرت منيسك فى كتابه (ويلات وطن) على حادث انفجار السفارة الأمريكية بقوله** : لقد أنهى هذا الحدث شهر العسل الأمريكى

والسؤال الآن : كيف تم سقوط اتفاق ١٧ مايو/ آيار ؟

بعدما اجبرت اسرائيل على الانسحاب من لبنان أدعى مناحم بيجن أن انتهاء القتال سوف يتيح لنا فى السنوات القادمة عقد معاهدات سلام واقامة علاقات سليمة مع مختلف الدول العربية ، وعندما وعد بيجن شعبه بتحقيق معاهدات سلام مع الدول العربية كان يستند الى وعد قطعه له بشير الجميل قبل انتخابه رئيسا للجمهورية بأن يبرم معه اتفاق سلام اذا نجحت اسرائيل فى اخراج السوريين والفلسطينيين من لبنان . وفى تنصيبه رئيسا للجمهورية ، عندما ورث أمين الجميل منصب شقيقه المقتول التزم بوعده ، وشجعت الولايات المتحدة الامريكية التفاوض بين لبنان واسرائيل ظنا منها بأنه لو أصبح لبنان حليفاً لاسرائيل بحيث تطمئن الى حدودها الشمالية ، وعقد اتفاق سلام تكون قد طوقت سورية وعزلتها ، وجرت مفاوضات بين الجانبين اللبنانى والاسرائيلى بالتناوب ، وجرت محاولات من جورج شولتز وزير الخارجية الامريكى لاقناع الرئيس الأسد بالاتفاق المرتقب ، وفى أعقاب محادثات شهدتها كريات شيمونا الاسرائيلية ومنطقة خلده اللبنانية التى تحتلها القوات الاسرائيلية تم توقيع اتفاق فى السابع عشر من مايو/ آيار ١٩٨٣ بين حكومة أمين الجميل وحكومة اسرائيل .

ولقد رأت سورية بقيادة حافظ الأسد ان الاتفاق يحد من سيادة لبنان ويفقده حرية القرار التى تتمتع بها الدولة المستقلة ، كما انه يشكل خطرا على سورية ، وبالتالى على البلاد العربية الأخرى ، كما انه يتناقض مع السياسة السورية الثابتة بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط التى تتلخص فى أن كل قضايا المنطقة مرتبطة بأزمة الشرق الأوسط وأنه من غير المقبول حل أى من هذه القضايا بمعزل عن القضية المركزية وهى قضية شعب فلسطين ، ولقد تصور شولتز أن الرئيس الأسد سينحنى أمام شيء محتوم ، لم يتصور أن بلدا من بلدان العالم الثالث كما يقول باتريك سيل فى كتابه (الصراع على الشرق الأوسط) يستطيع أن يقف فى وجهه ، وكما يقول المؤلف بأسلوبه المتميز أعطى الأسد الوزير الأمريكى درسا فى التاريخ استغرق خمس ساعات شرح له نضال العرب لاحتواء اسرائيل وغضبهم من اللامبالاة الأمريكية تجاه تطلعاتهم ودعمها الأعمى لعدوهم ، وأن الولايات المتحدة كانت تقترح آنئذ ان تكافأ اسرائيل على عدوانها بسماحها لها بتغيير هوية لبنان العربية وتهديد أمن الدول العربية الأخرى كسورية .

ويصف باتريك سيل هذه المقابلة بأنها « كانت من بين أشد التجارب مرارة فى حياة شولتز العملية » فلم يكن معتادا على مثل هذه التوبيخات ، وعاد شولتز الى بيروت غاضبا شاعرا بالمهانة « كانت وجهة نظر سورية ان الاتفاق يحد من استقلال لبنان ويشكل خطرا على سورية وعلى البلاد العربية ، وقد ضرب الرئيس حافظ الأسد أمثلة مساوىء الاتفاق اللبنانى الاسرائيلى من وجهة نظره فى النقاط الآتية :

أولا : لبنان لا يحق له بموجب الاتفاق أن يملك فى أى مكان من أراضيه أى سلاح للدفاع الجوى يتجاوز مداه خمسة عشر الف قدم .

ثانيا : الطيران اللبنانى لا يستطيع أن يطير فوق جنوب لبنان ، أى فوق الأرض اللبنانية الا بعد أن يعلم السلطات الاسرائيلية ، وهذا يعنى ان اسرائيل أخذت الاجواء اللبنانية .

ثالثا : لو أرادت أى دولة عربية أو غير عربية أن تنقل بطريق الترانزيت عبر لبنان صفقة أسلحة اشترتها من مكان ما فإنه لا يحق للحكومة اللبنانية بموجب الاتفاق اللبنانى الاسرائيلى أن توافق على مرور هذه الصفقة لا فى البر ولا فى البحر ولا فى الجو الا اذا كانت الدولة المستوردة تقيم علاقة دبلوماسية مع اسرائيل .

رابعا : القرار فى جنوب لبنان يتخذ مشاركة بين العناصر الاسرائيلية واللبنانية .

خامسا : العناصر الاسرائيلية ستبقى فى جنوب لبنان ولمدة غير محدودة ، وبالنسبة لسورية اكتفى بإيراد مثل واحد :

تل أبيب عاصمة اسرائيل بعيدة عن الحدود اللبنانية الاسرائيلية نحو مائتى كيلو متر

ومع ذلك أضافت اسرائيل خمسين كيلو مترا منطقة أمنية داخل لبنان تتمركز فيها عناصر عسكرية اسرائيلية .. بينما حدود هذه المنطقة الامنية التى ستتمركز فيها العناصر العسكرية الاسرائيلية لا تبعد عن دمشق عاصمة سورية أكثر من عشرين الى أربعة وعشرين كيلو مترا .

ومن هنا لا أظن أن أحدا يبحث هذه الأمور بموضوعية يتوقع أن توافق سورية على هذا الاتفاق لأن من يقرأه بامعان يفهم تماما لماذا سميّ فى سورية اتفاق اذعان .

مثل هذا الاتفاق يحدث فى ظرف واحد فقط هو عندما تحدث حروب كبيرة على غرار الحروب العالمية فيسحق طرف طرفا آخر ويفرض عليه الاستسلام، **أما الواقع فى لبنان فشىء غير هذا.**

أولا: لم تقم حرب بين لبنان واسرائيل فتسحق اسرائيل فى نهايتها لبنان .

ثانيا: لو قامت الحرب فعلا بين البلدين فلا تؤدى الى النتائج التى تؤدى اليها الحرب وعبأت سورية نفسها لخوض معركة اسقاط اتفاق ١٧ مايو- آيار الذى يشكل عقدا من عقود الاذعان **كما وصفه الرئيس حافظ الأسد وخطرا** أمنيا واستراتيجيا ، وعاهد الرئيس الأسد الله والوطن والأمة ان تقف بلاده مع القوى الوطنية اللبنانية فى خندق قتال واحد لاسقاط الاتفاق .

ويقول باتريك سيل فى كتابه الصراع على الشرق الأوسط: فإن من بين ما أكدته معركة اسقاط اتفاق ١٧ آيار **انها أوضحت للعالم كله الخصائص المميزة لشخصية حافظ الأسد**، وهى الاقتناع بصحة موقفه سياسيا واخلاقيا ، وأعصاب باردة تحت النار ، عناد هائل .. استعداد للقتال ، وللقتال حتى بشراسة عاصفة فى سبيل مايراه قضية قومية وفوق كل شىء كان لديه الصبر الذى يقتضيه النفس الطويل . كانت التقارير التى تجمعت لدى الادارة الامريكية تقول : ان حافظ الأسد ليس كغيره من القادة فهو يتمتع بأعصاب فولاذية وارادة لا تلين وقدرة على المجابهة لا تبارى ، ومن هناك فقد أوفدت اليه روبرت ماكفرلين رغبة فى ابقاء الباب مفتوحا مع دمشق .

ويروى المؤلف البريطانى باتريك سيل تفاصيل هذه المقابلة فيقول:

« كان الأسد عبر سنوات طويلة قد طور أسلوبا للتفاوض غالبا ماكان يستعمله مع الضيوف الأجانب ولم يكن ماكفرلين حالة استثنائية من بين هؤلاء ، فبعد تبادل عبارات المجاملة الودية **كان الأسد فى العادة يسأل : كيف الطقس فى بلادكم ؟** فيجيب الضيف بمايفيد ان الطقس فى بلاده أبرد منه فى سورية ، **وبذلك يعطى الأسد فرصته اذ يبادر الى القول:** حار هنا لان الولايات المتحدة تذكى النار ، ويؤكد ان التوترات والحروب فى

المنطقة يجب ان تتحمل واشنطن مسئوليتها جميعا ، وعندئذ يشعر الزائر الأمريكى بأن عليه أن يدافع عن نفسه فاقدا لاية ميزة ، واستعمل ماكفرين اخر سلاح لديه فى ضوء العجز الذى ابداه فى حضرة الرئيس فألمح الى أن البارجة الامريكية الضخمة نيوجرسى ستكون على مقربة من سواحل لبنان فى غضون أربع وعشرين ساعة ، غير ان الولايات المتحدة الأمريكية وليس سورية هى التى دفعت ثمن هذا التهديد المبطن واخفقت الاستراتيجية الأمريكية فى تجريب لغة القوة والتهديد مع السوريين ففى الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٨٣ اقتحمت شاحنة مفخخة .. ثكنات مشاه البحرية الامريكية فى مطار بيروت .. وقتلت ٢٤١ جنديا أمريكيا . (ووفقا) لما ذكره فكتور أوشدوفسكى وهو عميل فى جهاز الموساد الاسرائيلى فإن محطة تصنت تابعة للموساد الاسرائيلى ، توصلت لمعلومة تشير الى أن المقاومين الشيعة يعدون شاحنة مفخخة ذات حجم غير مألوف واستنتج عملاء المخابرات الاسرائيلية ان مشاه البحرية الامريكية هدف محتمل،ولكنهم قرروا عدم تمرير المعلومة لكى يجعلوا الأمريكيين يتورطون أكثر فأكثر فى القضية اللبنانية » .

وانتهت هذه المجابهة التى تمت بمنتهى الدقة والشراسة والذهاب الى حافة الهاوية بانكفاء أمريكى تام فسحبت أمريكا قواتها من لبنان فى شباط عام ١٩٨٤ متجنبة بالدرجة الأولى اذلالا مماثلا كالذى انتهى بهزيمتها العسكرية الواضحة فى جنوب شرق آسيا وشكل لديها مايسمى بالعقدة الفيتنامية .

أما أمين الجميل الذى سبق له فى يوليو/ تموز ١٩٨٣ ان هدد السوريين بأنهم اذا لم يتوقفوا عن قصف معاقل قواته ، فإن القنابل ستعود الى دمشق نفسها فإنه ادرك ان لعبة الكبار قد انتهت وان عليه أن يذهب الى دمشق معتذرا نادما ، **وتوج نجاح الأسد فى اعلان الحكومة اللبنانية بعد مرور اقل من عام عن الغاء اتفاق ١٧ مايو/ ايار بشكل رسمى واعترف شولتز بان اتفاقية ١٧ آيار لم تجلب الا الخراب للبنان .**

ان نتيجة المجابهة الكبيرة والقاسية بين الطرفين الأمريكى ـ الاسرائيلى من جهة والسورى والوطنى اللبنانى من جهة أخرى اكدت من جديد أن النجاح فى معركة بهذا الحجم يحتاج إلى تخطيط هادىء ونفس صبورة وعزيمة لا تلين وارادة لا تقهر ، وثبات فى المواقف المبدئية مهما كان الثمن فادحا ، **وقد أدار الرئيس هذه المعركة بكفاءة مذهلة متسلحا** بكل المزايا المطلوبة لمثل هذا النجاح الباهر ، وفى نهاية ولاية أمين الجميل كان لبنان قد وصل إلى اقصى حالات اليأس والانهيار والتفكك لاسيما بعد أن تسلم قيادة البلاد العماد ميشيل عون قائد الجيش حيث كلفه أمين الجميل فى الأيام الأخيرة من عمر رئاسته بتشكيل حكومة عسكرية رغم وجود حكومة شرعية قائمة برئاسة الدكتور سليم الحص ، ولم يكن يخطر على بال اى أحد أن يترك أمين الجميل الجمهورية فى لبنان ممزقة

وأن يقودها الى نفق مجهول ولكنه كشف عن نزعة الغدر والحقد تجاه سورية وأراد أن يخلق واقعا طائفيا عنصريا ينسجم مع التيارات المتطرفة التى حملها بعض زعماء الموارنة فى لبنان منذ أن قام .

وعلى الفور اتخذ العماد ميشيل عون كل الاجراءات الممكنة لاستلام السلطة بانقلاب عسكرى مارونى ، وقام عون بتجديد الاتصال مع سمير جعجع قائد القوات اللبنانية بعد قطيعة استمرت بينهما أكثر من سنتين ، كما استقطب دانى شمعون وجورج عدوان وغيرهما من غلاة المراهنين على الخيار الاسرائيلى .

فى أوساط الطائفة[1] ، كان عون قد أعلن قبل تكليفه بأيام بأنه فور انتهاء ولاية الجميل سيملأ الفراغ الدستورى ، وفور أن غادر الجميل قصر بعبدا وبتشجيع من اللوبى المارونى الاسرائيلى تم لميشيل عون ما اراد ، وبدأت المارونية السياسية تشعل حربها الكبيرة فى لبنان بحجة أن الوجود الفلسطينى أخلَّ بالتوازن الذى يعيشه لبنان ضمن طوائفه ومذاهبه المتعددة .

خلف هذا الشعار خاضت المارونية حرب السنتين الأولى ، ثم ما لبث بعد ذلك أن شهد لبنان العنف المارونى ، بعضه ضد بعض بعد أن انتهى شهر العسل بين العماد ميشيل عون وسمير جعجع ، وكان كلاهما يطمع فى أن يكون صاحب القرار الأول على رأس المارونية السياسية ، وكان الوصول إلى نتيجة مرضية امراً شبه مستحيل وانقسمت المارونية إلى فريقين : أحدهما مؤيد لعون والآخر موال لسمير جعجع ووقفت البطرياركية المارونية إلى جانب جعجع ضد عون وسرعان ما انفجرت حرب واسعة النطاق بين الطرفين أسفرت عن هزيمة سياسية ومعنوية لميشيل عون ، هذا الجنرال الذى كان يعتبر نفسه رمز القوى الانعزالية والتقسيمية والذى حول الجيش الذى كان يُفترض فيه أن يكون جيش الوطن يحمى حدوده إلى ميليشيا فئوية تعمل لمصلحة عون ، وعطل عون دور مجلس النواب وحول المنطقة الشرقية إلى سجن كبير ومنع النواب من التوجه إلى مبنى مجلس النواب لممارسة حقهم الدستورى ، والقانونى فى انتخاب رئيس جديد لمجلس النواب وللجمهورية ، وذلك فى محاولة يائسة لمنع وصول قيادات تؤمن بوحدة لبنان وعروبته ، وذلك بعد أن اكتشف رموز الانعزال عدم قدرتهم على الوصول إلى قصر الرئاسة فى بعبدا لتنفيذ مخططهم التآمرى .

وجاءت النهاية الطبيعية لميشيل عون بعد ان تجاوزته الاحداث الاقليمية والدولية ، وفى صبيحة يوم ١٣ أكتوبر / تشرين أول ١٩٩٠ شنت قوات من الجيش اللبنانى بقيادة العماد أميل لحود وبموازرة سورية هجوما بريا كاسحا انتهى بفرار عون ولجوئه إلى فرنسا .

واستمرت سورية فى الحرص على تعهداتها التى قطعتها على نفسها فى الحفاظ على وحدة لبنان وعروبته وتوفير الاصلاح لبنيته ، ولمس جميع اللبنانيين اصرارها على الحفاظ على وحدة لبنان أرضا وشعبا ومؤسسات والتمسك بعروبتهم ، واعتبار الاصلاح مدخلا ومبدأ لانهاء الاقتتال اللبنانى ، كما ظهر أن مجلس النواب يشكل السلطة الشرعية الوحيدة التى تمثل طموحات اللبنانيين ، وهكذا دعى النواب إلى الطائف لوضع بنود ميثاق وطنى جديد ينقذ لبنان من محنته وسط ترحيب لبنانى ودعم عربى ومباركة دولية .

وعندما أحست المارونية السياسية انها دخلت فى طريق مسدود أحنت رأسها وقررت الذهاب آلى الطائف ، وعندما أدركت كل القوى أن سورية تريد التوصل إلى حل نهائى فى لبنان عبر حوار ديمقراطى وأنه يجب افساح المجال أمام المؤسسات الشرعية اللبنانية للعمل ، **وأن الرئيس الأسد مصر على الحفاظ على الوضعية الدستورية للمسيحيين فى لبنان وعلى المناصفة فى الحقوق والمركز بين المسيحيين والمسلمين** ، كما تأكد للمارونية اخفاق مراهنتها المجنونة على النظام العراقى الذى ذهب فى دعمها إلى الحدود القصوى فأغدق عليها سلاحا كان من الوفرة والضخامة ما جعل سمير جعجع يعترف بأن النظام العراقى يغدق على الجيش والقوات بما يسمح بخوض معركة متكافئة .

ولقد كان موقف العراق فى مناصرة طائفة الموارنه ضد القوى الوطنية من المسيحيين والمسلمين فى لبنان مثار دهشة من العالم كله لاسيما وأن رئيس العراق بادر إلى غزو الكويت البلد العربى المجاور واحتله وأدخله ضمن حدوده .

وفى ٣٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٩ بدأت اجتماعات الطائف بالمملكة العربية السعودية ، وبحضور أعضاء المجلس النيابى ممثلين لكل الطوائف والقوى السياسية والاجتماعية فى لبنان ، وأسفرت اجتماعاتهم التى استمرت قرابة شهر عن توقيع ميثاق وطنى عُرف باسم ميثاق الطائف ، وبالفعل تم اقرار اتفاق الطائف بالاجماع من قبل نواب البرلمان واعتبر هذا الاتفاق نصرا للبنان العربى الموحد .

صحيح أن أى طرف لبنانى لم يجد فيه كل طموحاته ، ولكن الأصح هو أن الاتفاق شكل بداية منطقية لاعادة بناء الدولة اللبنانية وفق أسس واضحة يمكن تطويرها فى المستقبل خصوصا أن أمورا كثيرة قد حُسمت فيه ، وفى مقدمتها وحدة لبنان وانتماؤه العربى واعتبار الاصلاح ضرورة لابد منها والتأكد على العلاقة اللبنانية السورية المميزة ودور سورية فى مساعدة السلطة الشرعية اللبنانية على بسط سلطتها على كامل التراب اللبنانى واعتبار العدو الصهيونى الخطر الأساسى الذى يهدد لبنان والنضال من أجل لبنان ، كذلك فإن هذا الاتفاق أكد على مركزية الدولة اللبنانية باعتبارها دولة واحدة

موحدة ذات سلطة مركزية قوية وأن أرض لبنان واحدة لكل اللبنانيين فلا فرز للشعب ولا تجزئة ولا تقسيم ولا توطين والالحاح على وحدة الوطن كان أكثر من ضرورى فى وجه الدعوات التقسيمية المشبوهة ، ورغم أن رئاسة الجمهورية بقيت للطائفة المارونية إلا أن صلاحيات هذا الموقع أصبحت أقل من ذى قبل ، فالاتفاق نص صراحة على أن « **تناط السلطة الاجرائية بمجلس الوزراء** » وهذا النص هو أكثر تقدما وديمقراطية من النص الدستورى كما ورد فى المادة ١٧ من الدستور التى تنيط السلطة الاجرائية برئيس الجمهورية وحده ، **كما أقر الميثاق من حيث المبدأ الغاء الطائفية حيث نص على مايلى** « ان الغاء الطائفية السياسية هدف وطنى أساسى يقتضى العمل على تحقيقه » وهذا انجاز واضح فى بلد يحكم بالكامل من خلال المفهوم الطائفى وتوزيع المناصب والوظائف من خلال حصص طائفية ولكن الاتفاق اعتمد ـ مرحليا على الأقل ـ وحتى إشعار آخر على الأغلب (على الطائفية وليس المواطن كوحدة سياسية) .

ويعلق الدكتور الياسى سابا على ذلك بقوله : (وهكذا فالنظام الجمهورى الديمقراطى اللبنانى هو نظام تشترك فيه الطوائف اللبنانية ـ أو المواطنون عبر طوائفهم ـ فى الحكم) .

أن الانجاز الكبير الذى مثله اتفاق الطائف فكان فى اندحار قوى الانعزال والتسلط والعداء لسورية ، واعتبر الاتفاق بحق بداية النهاية لميشيل عون ونهجه التآمرى الذى انتهى كما أسلفنا فى المنفى .

كما حقق اتفاق الطائف انجازا آخر تمثل فى اتفاق الأطراف على عودة الروح إلى المؤسسات الشرعية التى عطلها ميشيل عون فتم انتخاب رينيه معوض رئيسا للجمهورية ، إلا أن الاتفاق ولبنان نفسه أصيبا بضربة مؤلمة جدا باغتيال الرئيس رينيه معوض فى ٢٢ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٨٩ ، ولتفويت الفرصة على الذين راهنوا على سقوط لبنان والاتفاق بهذا الفعل الاجرامى الشنيع سارعت القوى اللبنانية الى انتخاب الياس الهراوى بسرعة قياسية (٢٤ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٨٩) .

وإذا كان هناك من يستمر فى انتقاد اتفاق الطائف على اعتبار أنه جاء أرخص من دماء اللبنانيين التى سفكت من أجل لبنان لا طائفى وديمقراطى وعربى ، فإننا نقول إن هذا الاتفاق ليس نهاية المطاف ولم يعتبره أحد كذلك .

وبالفعل تقدمت السلطة اللبنانية خطوة نحو الأمام عندما استجابت لارادة اللبنانين وتوصلت إلى عقد اتفاقية مع سورية هى (معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسورية) ، **وقد جدد الرئيس حافظ الأسد دعمه للشرعية ولوحدة وسيادة واستقلال لبنان ووضع كل الامكانيات السورية بما فيها الامكانيات العسكرية تحت**

تصرف لبنان وحكومته الوطنية ، ومماتجدر الاشارة إليه أن ميثاق الطائف أكد على خصوصية العلاقة السورية اللبنانية عندما قال : (إن سورية هى الشقيقة الأقرب إلى لبنان العربى ، من هنا كانت العلاقة بينها وبين لبنان ، علاقات تتميز عن علاقات لبنان بغيره من الدول حتى العربية وان ما يجمع بين سورية ولبنان هو أكثر بكثير مما يفرق بينهما وأن من مصلحتهما المشتركة أن يسارعا إلى تنظيم وتأطير وتطوير علاقاتهما المميزة هذه .

وفى هذا الاطار جاء توقيع معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وهى الاتفاقية التى أكدت الحقيقة الثابتة بأن البلدين هما بلد واحد فى مصالحهما وفى مصيرهما وفى تاريخهما وإن قامت الحدود بينهما ، وقد تم توقيع هذه المعاهدة فى ٢٢ مايو / آيار ١٩٩١ .

لقد صرح الرئيس حافظ الأسد عقب توقيع هذه الاتفاقية بأن ما بين «سورية ولبنان لم نصنعه نحن إنما صنعه الله فكان التاريخ المشترك وكانت الجغرافيا المشتركة وكان الدم المشترك ، وعلى ذلك فما نبنيه اليوم معا بين البلدين هو بعض ما تعكسه هذه الموروثات المشتركة والتى لا يمكن أن تزول أو تمحى بمرور الزمن،لأنها الحقيقة الحياتية التى لا ترتبط بكوننا نعيش فى كيان سياسى واحد أو كيانين سياسيين منفصلين ، فالاخوان اخوان ، سواء عاشا معا فى بيت واحد أو فى بيتين منفصلين ، معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسورية ترجمت الروابط الأخوية المميزة التى تربط بين البلدين التى تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والانتماء الواحد والمصير المشترك والمصالح الأخوية الواحدة ، ترجمتها فى عدة مواد تكفل تحقيق أعلى درجات التعاون والتنسيق بينهما فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية والعلمية وغيرها بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين فى اطار سيادة واستقلال كل منهما وتؤكد الترابط بين أمن البلدين بما يكفل عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سورية ، وسورية لأمن لبنان ، كما أنها تنص على الالتزام بمبادىء الجامعة العربية ومعاهدة الدفاع المشترك ومساندة كل منهما للآخر فى القضايا التى تتعلق بأمنه ومصالحه الوطنية ».

الرئيس الهراوى يثمن اتفاق الطائف

فى حوار أجريته مع الرئيس اللبنانى الياس الهراوى ، نُشر فى جريدة الأخبار فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٠/٦/٤ قال لى : جاءت وثيقة الوفاق الوطنى التى أقرها مجلس النواب اللبنانى بالاجماع فى الطائف فى أكتوبر ١٩٨٩ لتؤكد من جديد ما هو مؤكد من اصرار نواب الشعب على دعم الشرعية ، ومع ذلك فلا تزال فئة فى المنطقة الشرقية

تعارض ، وتتحدى إرادة الشعب اللبنانى المدعومة بالتأييد العربى والدولى . عاش لبنان قبل مؤتمر الطائف وضعا فريدا لم يشهده منذ الاستقلال وهو الفراغ فى سدة رئاسة الجمهورية ترافق مع قيام حكومتين واحدة مسيحية ، وثانية اسلامية تتنافسان سياسيا ووطنيا حتى كاد اللبنانى ييأس من رؤية وطنه موحدا من جديد .

وجاءت حرب التحرير المزعومة التى أعلنها العماد ميشيل عون فى ١٤ آذار ـ مارس ١٩٨٩ بحجة فرض انسحاب الجيش السورى من لبنان بالقوة لتزيد من عمق الخلافات اللبنانية ـ اللبنانية ـ واللبنانية العربية ، ولتزج بدول إقليمية وعربية فى صراع بدأ هدفه لأول وهلة كأنه وطنى فإذا به يتفاقم إلى حد إعلان حروب غير لبنانية على الأرض اللبنانية وهذه الحروب لا تزال ماثلة على صفحة العلاقات المتوترة بين بعض الدول العربية ، وظهر ذلك جليا فى مؤتمر القمة الطارئة التى انعقدت فى بغداد .

أن الشرعية التى انبثقت فى لبنان بفضل اتفاق النواب فى الطائف حققت فى مرحلة أولى ملء الفراغ الدستورى ، وفور انتخابى رئيسا للجمهورية شكلت حكومة برئاسة الدكتور سليم الحص ، وانطلقت العمل الادارى والرسمى بعدما كاد الشلل يقضى على المؤسسات العامة . **أما الأمر الأهم** فكان بدء حوار صريح مع الشقيقة سورية انطلاقا من موافقتها المعلنة على ما ورد فى وثيقة الوفاق الوطنى التى أقرت فى الطائف ، والقاضى بأن تسهم سورية فى مساعدة لبنان على بسط سلطته على كامل أراضيه بواسطة قواه الذاتية ، وأريد هنا أن اذكر الجميع بأننى حريص على ترسيخ علاقة لبنان بسورية فى اتفاقات واضحة وثابتة لا تتبدل مع تبدل الرؤساء أو الظروف .

أما العناصر الخارجية على الاجماع الشعبى فهى تتذرع تارة بأن شق الاصلاحات الداخلية جاء على حساب المسيحيين وهو لا يحقق طموحاتهم ، بينما تدعى طورا بأن هذا الاتفاق يكرس بقاء الجيش السورى فى لبنان علما أن البند الرابع فى وثيقة الوفاق الوطنى يؤكد على أن هدف الدولة اللبنانية هو بسط سلطتها على كامل الأراضى اللبنانية بواسطة قواها الذاتية ، وأن القوات السورية ستساعد الشرعية على بسط هذه السلطة فتعيد تجميع القوات السورية تباعا ، وفى فترة زمنية محددة بمدة أقصاها سنتان تأتى بعدها خطوة تالية بالتوافق بين الحكومتين اللبنانية والسورية .

دعم الشرعية معروف تماما

أن ما يطلبه لبنان لدعم الشرعية معروف تماما ، فهو ـ داخليا ـ محاذرة تفويت الفرصة المتاحة لتطبيق بنود اتفاق الطائف لتستعيد البلاد وحدتها المجسدة فى شرعية طامحة إلى ترسيخ الأمن والاستقرار واعادة اعمار ما تهدم ، ولذلك ندعو مجددا إلى التعقل والاقلاع عن المشاريع الانتحارية التى تهدد لبنان وتُشرِّع أبواب

الهجرة أمام الطاقات المنتجة والمبدعة ، فنقع فى حالة الفقر والكساد على كافة المستويات .

إن الذين سعوا إلى تكريس واقع الفرز الطائفى انجروا سريعا إلى التناحر المذهبى ثم إلى التقاتل بين أبناء المذهب الواحد مما انعكس هجرة جماعية لأصحاب الرساميل والكفاءات ونحن نسعى اليوم لتهدئة الأوضاع ودعوة كل اللبنانيين من أصحاب الطاقات ليعودوا ويسهموا فى اعمار وطنهم ، أما عربيا فإننا قبل أى أمر آخر نطالب الفرقاء الخارجيين الذين يغذون الخلافات داخل لبنان أن يكفوا طوعا أو بضغط من باقى الأشقاء العرب عن وقف تدخلهم ، فيدعموا الشرعية ولا يعطوا الذريعة لأعداء لبنان فى استمرار احتلالهم لجزء عزيز من أرضنا وهو الجنوب ، وعلى صعيد آخر ، فنحن شاكرون للأشقاء العرب موافقتهم بالاجماع على اقتراح اللجنة الثلاثية الذى تقدم به الملك فهد لأنشاء صندوق دعم لتمكين الدولة اللبنانية من بسط سيادتها على كامل الأراضى اللبنانية واعادة اعماره ، ونأمل من الأشقاء والأصدقاء الاسهام فى هذا الصندوق .

وتحدث الرئيس الياس الهراوى عن ضرورة إرساء العلاقات السورية اللبنانية على قواعد ثابتة وواضحة فقال : (إننى شخصيا أعى اهمية تثبيت العلاقات اللبنانية السورية على أسس متينة وواضحة ، بحيث يتمكن أى حكم مستقبلا من الارتكاز على هذه الأسس لتطوير العلاقة وإنمائها .

لقد سبق للرئيس حافظ الأسد وخلال أول قمة عقدناها فى دمشق أن أكد على التزام سورية باستقلال لبنان واحترام نظامه ، وعن اتفاق الطائف قال : إن الرئيس الأسد يتمنى أن تنهض قوى الأمن الذاتية وتقوى وتمتلك القدرة على ممارسة مهماتها ، فتبسط سلطتها على الأرض اللبنانية فى أسرع وقت ، كذلك شدد الرئيس الأسد أن لسورية مصلحة أساسية وعقائدية فى استقلال لبنان ووحدته وازدهاره ، وقوته ، وتقدمه ، ومن هذا المنطلق يطور الحكم الحالى علاقاته مع سورية الشقيقة على كافة الأصعدة أمنية كانت أم اقتصادية لتترجم لاحقا باتفاقات ثابتة وراسخة كى لا يبقى أى خلل فى العلاقات بين جارين عضوين فى جامعة الدول العربية .

وقال الرئيس الهراوى : اننى أؤمن بأن التضامن العربى هو السد المنيع فى وجه المخططات التى تُحاك ضد دول المنطقة ، واعتقد أن القمة المصرية السورية حققت هذه الخطوة الأساسية على طريق هذا التضامن ، لأن الثقل المصرى والدور السورى يتكاملان فى المنطقة ويمنحان العرب القدرة على المشاركة الفاعلة فى البحث عن الحلول الشاملة لقضايا الشرق الأوسط .

رشيد الصلح : أصوات خاطئة مضللة

بالطبع فإن هناك بعض الأصوات هاجمت ، ولأسباب معروفة الاتفاقية الأمنية بين سورية ولبنان التى أشرنا اليها من قبل ، بزعم انها تحد من حرية القرار اللبنانى .. وكما قال لى رشيد الصلح رئيس وزراء لبنان السابق : فإن هذه الأصوات هى أصوات مخطئة ومضللة وتتذرع بأسباب غير موجودة إذ ان هذه الاتفاقية الأمنية حافظت على استقلال كل من البلدين والحكومة اللبنانية كما ورد فى اتفاق المعاهدة التى صادق عليها المجلس النيابى واقرها بشكل اجماعى هى وحدها المسئولة عن الأمن فى الأراضى اللبنانية ، وهى تتصرف بتمام الاستقلال ، ولا علاقة لأى فريق آخر للمحافظة على الأمن والحجج والأسباب التى تدلى بها هذه الجهات هى أسباب وهمية ، لا تمت الى الواقع بصلة ولا أغالى اذا قلت : إنها أسباب تنطلق من سوء النية أكثر مما تنطلق من الواقع ، وأما بالنسبة لما تطالب به اسرائيل من انسحاب سورى أولا قبل خروجها فإنى اقول بأن اسرائيل تخادع ولن تنسحب من لبنان إلا اذا حصل ضغط دولى عليها .

وقال : إن العلاقة بين لبنان وسورية علاقة مميزة والكل يعلم أن لبنان و سورية كانا فى بدء استقلالهما يشكلان وحدة جمركية ومالية واقتصادية وأن الجيشين السورى واللبنانى كانا يعتبران جيشا واحدا ، واننى أؤكد ان هذه العلاقة فى أحسن صورها الآن وهى تشكل عنصرا أساسيا من عناصر السياسة اللبنانية التى يتمسك بها جميع اللبنانيين ويحرصون عليها لأنها لمصلحة لبنان أولا ولمصلحة الشعبين السورى واللبنانى ، ثانيا ولمصلحة العرب ثالثا وقال رشيد الصلح : **والأمر الذى لاشك فيه أن الرئيس حافظ الأسد هو من كبار رجالات العرب فى القرن العشرين وقد قاد سورية لما فيه خيرها وخير أهلها وصان وحدتها وقوى سلاحها وأمن لها ازدهارا اقتصاديا وماليا جعل كل العرب يقدرون فضله على سورية وسائر الوطن العربى ، الرئيس الأسد يعرف وضعنا فى لبنان** ،عاشه وهو الذى تدخل مرارا لانقاذ لبنان من محنته ولعودة الحياة الطبيعية الى لبنان وتثبيت العلاقة المميزة بين لبنان وسورية ، بالاضافة الى أنه ساهم فى حماية الجنوب اللبنانى ومقاومة المحتل الاسرائيلى لجزء من أراضى لبنان .

حسين الحسينى : الأسد وعروبة لبنان

المعانى نفسها أكدها حسين الحسينى رئيس مجلس النواب اللبنانى السابق عندما قال : لقد حافظ الوجود السورى فى لبنان على عروبتـــه ، وساهم فى الحيلولة دون تقسيم لبنان ، . ومنع توجيه ضربة كبرى للاسلام باعتباره دين الأكثرية الساحقة من الأمة العربية ، ولولا الوجود السورى لكانت اسرائيل استطاعت أن تفتت لبنان الى كيانات

عنصرية طائفية ولن يكون بمقدور أى من المجتمعات العربية مقاومة التفتت لاسيما وأن المجتمعات العربية لديها هذا التنوع فى الانتماء الطائفى والمذهبى ، **ومن هنا كانت أهمية النظرة الى وحدة لبنان والى العيش المسيحى والاسلامى المشترك** لضمان القدرة على مواجهة مخططات اسرائيل الرامية الى تفتيت المنطقة العربية ، ولولا دعم سورية ودورها لما تحقق اتفاق الطائف ولما خطونا هذه الخطوات الهائلة والمتمثلة فى اخراج لبنان من حالة الحرب الى حالة السلام وازالة الحواجز بين اللبنانيين وبين بعض المناطق ، وبالتالى العودة الى مسيرة اعادة قيام الدولة وبناء مؤسسات الدولة فى لبنان ، والوجود السورى نصت عليه اتفاقية الطائف وهو بقصد مساعدة لبنان على تحقيق وفاقه الداخلى وتعزيز سيادة واستقلال لبنان على أرضه ، وتمكين قواته المسلحة من القيام بدورها بحيث تستطيع عند ذلك القوات السورية الخروج من لبنان دون أية أضرار بالكيان اللبنانى وسيادة واستقلال لبنان ، وليس مجاملة لمصر ولا لسورية أن تعمل الاستراتيجية اللبنانية على المساهمة فى حلقات مصرية سورية جيدة لأن كل علاقة مصرية ـ سورية جيدة تنعكس ايجابا على مصلحة لبنان فضلا عن أن مصر وسورية هما تاريخيا الضامن لأمن المنطقة ، ومن يستقرىء التاريخ منذ صلاح الدين الأيوبى حتى يومنا يعرف مدى أهمية العلاقة المصرية السورية ووجوب صياغتها فى أى ظرف من الظروف ، وكل اخلال بهذه العلاقة ينعكس سلبيا على الأمن القومى العربى .

ويتفق حسين الحسينى مع الرئيس حافظ الأسد فى أن الأزمة اللبنانية فى جذورها هى أزمة سياسية اقتصادية من جهة وصراع بين الاتجاه القومى العربى واعداء هذا الاتجاه .. **ويقول** : انه عند المرحلة الانتقالية بعد تحقيق الاستقلال ونقل الوطن من ظل الانتداب الفرنسى الى ظل الاستقلال كان يجب آنذاك حل المشاكل وازالة الخلل فى التكوين الوطنى اللبنانى .

وهنا لابد من الاشارة الى أن الخلل فى التكوين يكمن فى نظرة الحكم فى لبنان الى المناطق اللبنانية ، والطوائف اللبنانية والمواطنين فى لبنان حيث اعتبرت مناطق لبنانية أصيلة فى التكوين اللبنانى ، بينما اعتبرت مناطق أخرى أقل أصالة وهى بمثابة مجال حيوى للمناطق التى اعتبرت أصيلة مما أدى مع الزمن الى التفاوت الفاضح بين المناطق ، ولذلك فإن الحرمان فى لبنان هو حرمان مناطق وليس حرمان طوائف ، والخلل الثانى فى التكوين كمن فى عدم الوضوح فى تحديد هوية الوطن وانتمائه بالقول بأن لبنان ذو وجه عربى مما أفسح المجال لاعطاء لبنان مفاهيم متعددة أدت بالنتيجة الى الخلل الثالث فى التكوين ، والذى هو عدم تمكين لبنان من اقامة تربية وطنية واحدة تستطيع أن تؤمن مفهوما واحدا للوطن لدى جميع اللبنانيين ، وهكذا بتنا أمام واقع بأن كل مدرسة فى لبنان

باتت وزارة تربية قائمة بذاتها لها مناهجها وبرامجها ومفاهيمها ، الأمر الذى انعكس سلبيا على البنية اللبنانية .

من هنا نرى أن عدم الاقدام على بناء الدولة ومؤسسات الدولة ، وبالتالى الدخول فى النظام الجمهورى الديمقراطى البرلمانى والاقتصادى الحر بما يوجبه من قيام المؤسسات والقوانين ، هذا الأمر جعل الأرض اللبنانية صعبة وصالحه لقيام حالة عدم الاستقرار ، الأمر الذى استغلته اسرائيل لتنفيذ مخططها الرامى الى تفتيت وتأجيج الصراع بين طوائفه والى اظهار أن كل طائفة فى لبنان تشكل شعبا قائما بذاته .

ويضيف حسين الحسينى : « الذين ساهموا فى ميثاق ١٩٤٣ هم نخبة من خيرة اللبنانيين وقد ساهموا فى نقل الوطن من الانتداب الى الاستقلال . وان فشلوا فى الانتقال من المرحلة الانتقالية التى انتهجتها صيغة الحكم الانتقالى والتى استندت الى الأشخاص تمهيدا لاقامة الدولة وبناء مؤسسات الدولة .. أما الآن فإن جميع الثغرات التى استغلت ومنها اقامة التعارض بين لبنانية اللبنانى وعروبته الأمر الذى لا يوجد مثيل له لدى المصرى أو السورى أو المغربى وعروبته ، ومن هنا كان لابد من الوصول الى تحديد حقيقى لهذه المفاهيم بما يتيح لنا اقامة تربية وطنية واحدة ووفاق وطنى حقيقى نتجه فيه الى بناء الدولة ومؤسسات الدولة ، ولذلك جرى حل الأشكال الأساسى الذى هو مرحلية الوطن أم نهائية الوطن فكان أن تضمن الميثاق الوطنى بأن لبنان هو وطن نهائى لجميع أبنائه ، وبالتالى فإنه عربى الهوية والانتماء ، وهو ملتزم بقضايا أمته ؛ خطونا خطوات واسعة فى ازالة هذا الخلل وحددنا النظام المعتمد فى لبنان فى صلب الدستور ، وفى اعتقادى انه بعد هذه الخطوات الواسعة لابد من اتمام المسيرة لنصل الى تجاوز الطائفية وشرورها ، ويمكن القول بأن جوهر الميثاق الوطنى انه جعل التجارة بالطائفية تجارة خاسرة علما بأنه ليس فى لبنان اى صراع دينى أو طائفى على أساس دينى .. هناك صراعات سياسية ارتدت أثوابا دينية طائفية وفقا لتطورات الصراع .

يضيف حسين الحسينى : من المعروف أن التصور لحل الأزمة اللبنانية يرتكز على ثلاث ركائز الأولى : هى تحقيق وفاقه الداخلى ، والركيزة الثانية : هى ارساء العلاقات السورية اللبنانية على قواعد واضحة وثابتة فى اطار سيادة واستقلال كل من البلدين ، والثالثة : هى تطبيق القرارات الدولية الكافية بانهاء الاحتلال الاسرائيلى للأراضى اللبنانية ، وانسحاب اسرائيل الى الحدود المعترف بها دوليا ، وقد خطونا خطوات واسعة بالنسبة للركيزة الأولى والركيزة الثانية ، حيث تم وضع اطار تنظيمى للعلاقة السورية اللبنانية فى معاهدة الاخوة والتعاون والتنسيق بين لبنان وسورية يسمح بوضع جميع المشاكل والاشكالات السابقة على جدول أعمال الحل وبالتالى الحيلولة دون قيام اشكالات

جديدة فى المستقبل عبر تنظيم العلاقات تنظيما دقيقا فى شتى الحقول ، وعلى كل الأصعدة بواسطة اتفاقيات ثنائية يجرى عقدها وفقا لدراسات يتم انجازها عبر اللجان المتخصصة التى تكونت فى المعاهدة .

هذا الاطار التنظيمى الذى جعل القمة اللبنانية السورية تنعقد دوريا بين رئيس الجمهورية السورية، ورئيس مجلس الشعب ورئيس مجلس الوزراء ونائب رئيس مجلس الوزراء ، ومن الجانب اللبنانى رئيس الجمهورية ، ورئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء ، ونائب رئيس مجلس الوزراء فضلا عن لجان وهيئة من أمانة عامة ، ولجان من وزراء مختصين يقومون بوضع الدراسات اللازمة حول كل حقل من الحقول التى يمكن عقد اتفاقيات ثنائية حولها يقدم الى المجلس الأعلى الذى هو القمة اللبنانية السورية ، وهذا الاطار التنظيمى هو شبيه بالفكرة التى وضعت بين فرنسا وألمانيا ، ونجحت نجاحا كبيرا بالرغم مما كان بينهما من مشاكل وحروب ، وكيف يمكن ألا تنجح بين شعبين هما فى الأصل شعب واحد فى دولتين ، هذا يحفظ سيادة واستقلال كل من البلدين ، **وفى اعتقادى ما تم بين لبنان وسورية هو نموذج لعلاقات عربية بين بلدين يربطهما ما يربط بين لبنان وسورية** ، ورغم أن لبنان وسورية قاما بما رتبه اتفاق الطائف إلا أن الأسرة الدولية والولايات المتحدة الأمريكية لم تقم بما رتبه عليها اتفاق الطائف وهو تطبيق القرار رقم ٤٢٥ ، بل ان الباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذى يوجب على الولايات المتحدة أن تجبر اسرائيل على الانسحاب من الأراضى اللبنانية لم يتم حتى الآن ، الأمر الذى يهدد مصداقية الولايات المتحدة والأمم المتحدة حول الشرعية .

والسؤال المطروح الآن : كيف يمكن للشرعية الدولية أن تكون بهذه الشدة عندما يكون الأمر متصلا بالكويت ، والعراق ، وليبيا ، ويوغسلافيا بينما تقف عاجزة أمام صلف اسرائيل وتعنتها بخرقها المستمر للمواثيق الدولية ؟

وقال حسين الحسينى : طبعا بعد هذا الشرح لم يعد هناك حاجة لتبيان رأى الرئيس الأسد لأنه بالأفعال ساهم فى انقاذ لبنان ، وفى اعادة وحدته الى أمتن ما يمكن أن تكون فيها ، وبالتالى فإن لبنان بدعم من الرئيس الأسد ومن سورية ومن القوات العربية السورية استطاع أن يتجاوز العديد من مشاكله خصوصا على صعيد حل الميليشيات وازالة الأسلحة وسحب الأسلحة المتوسطة والثقيلة ، كما يساهم الجيش العربى السورى فى مساعدة لبنان على تمكين قواته المسلحة من اعادة بسط سلطة الدولة اللبنانية لقواتها الذاتية على كامل الأراضى اللبنانية .

والرئيس الأسد يبذل كل الجهد فى هذا السبيل ، والرئيس الأسد سياسة واقعية لا تفرط فى الحق وتبقى على الأمل ، وهى السياسة التى حافظت على الأمل حتى الآن ، بينما هناك سياسات غير واقعية قد كبدتنا الكثير من الأثمان ، ولم تبق على الأمل ،

والرئيس الأسد هو أول رئيس دولة في الشقيقة سورية يؤكد على وحدتنا وتبعا للتأكيد على الوحدة .. هو يقول بسيادة واستقلال لبنان ، ذلك أن لبنان بدون وحدة لا سيادة له ولا استقلال ، ووحدة لبنان كما يقول الرئيس الأسد بحق هى الثروة الحقيقية لأنها تمثل العيش المشترك المسيحى ـ الاسلامى . الذى هو ثروة وطنية لبنانية وثروة عربية وثروة عالمية انسانية حضارية أيضا :

لقد استطاعت سورية أن توقف الحرب الأهلية اللبنانية ، ومع نجاح سورية فى ايقاف هذه الحرب فقد أبقت على الأمل فى استعادة الوحدة والسيادة والاستقلال ، دائما كانت سورية تحول دون استمرار الحرب الأهلية اللبنانية ، ولكن التأخير كان بسبب عدم نضج الظروف التى تمكن اللبنانيين من ذلك لأن الوفاق من صنع اللبنانيين وليس مفروضا عليهم .

انقاذ المسيحيين حال دون احتلال اسرائيل ، وعبر النقاش مع حسين الحسينى كان هناك سؤال : **إلى أى مدى كان تدخل الرئيس الأسد فى لبنان لانقاذ المسيحيين حائلا دون احتلال اسرائيل للبنان وتهديد سورية بحجة حماية المسيحيين ؟**

وقال الحسينى : ليس عندنا فى لبنان شىء يُجيز التفريط فى المسيحيين أو المسلمين العيش المشترك المسيحى الاسلامى هو من ضمن الشعب الواحد والعائلة الواحدة والتاريخ الواحد والتراث الواحد .. وهذا لم توفق فيه اسرائيل .. إذا كنتم تذكرون ساعة اشتعال الحرب فى لبنان كان شعار اسرائيل هو قبرصة لبنان على اعتبار أن فى قبرص شعبين لكل شعب تاريخه وتراثه ولغته وعرقه ، وقد أرادت تصوير الطوائف اللبنانية وكأنها شعوب متنافرة متناحرة فى حين أن الشعب اللبنانى بأسره هو شعب واحد من أصل واحد ، من هنا كان تدخل سورية ليس لحماية المسيحيين فحسب ، بل لحماية الوحدة الوطنية اللبنانية وحماية النموذج والمثال اللبنانى القائم على العيش المشترك المسيحى الاسلامى ، بينما اتخذت سورية هذا الموقف حاول العراق تصدير الخلافات العربية إلى لبنان ، ومن هنا كانت مساندته للجنرال ميشيل عون ليس حبا فيه بل نكاية بسورية فى حين أن أى عربى منصف يعرف أن لبنان لا يمكن أن يحكم بواسطة أى حكم فردى أو عسكرى ، أو دينى ، ولا يمكن أن ينسجم إلا مع نظام جمهورى ديمقراطى برلمانى واقتصادى حر ، وقد دفع لبنان ثمن دعم العراق للجنرال عون من دم أبنائه ومن بنيانه وعمرانه الشىء الكثير ، ونموذج الجنرال عون هو نقيض لطبيعة لبنان وحقيقة لبنان ومعنى لبنان لأن أى سيطرة عسكرية يمكن أن تحقق نفسها فى منطقة من المناطق لكنها لا تستطيع أن تسيطر على المناطق كلها لأن الحريات العامة فى لبنان هى أساس وجوده وأساس وجود الطوائف المتنوعة فى لبنان وأى مس فى الحريات العامة سينتج حكما

مرفوضا ، وبالضرورة الحروب الأهلية ، ومساعدة أى نظام عسكرى فى لبنان يعنى ازالة لبنان .

يشير حسين الحسينى أيضا إلى أن اتفاق السابع عشر من أيار هو فى جوهره تشريع للاحتلال الاسرائيلى للأراضى اللبنانية وهو تعريض للأمن القومى بشكل عام ، وللأمن القومى السورى بشكل خاص ، وأبرز نصوص هذا الاتفاق انه يضع لبنان كله تحت الحماية الاسرائيلية ، ويمكن اسرائيل من التمركز على أرضه ومن اجتزاء عمق ٤٥ كم على طول خريطة لبنان بذريعة ضمان الأمن الاسرائيلى وهذا ما لا يمكن أن يتصوره أحد خصوصا وأن وجود القوات الاسرائيلية المحتلة على أرض لبنان سيجعل العاصمة السورية على مرمى المدفعية الاسرائيلية المباشرة وهذا ما لا يمكن أن يتصوره أحد أيضا ، ومن نصوص الاتفاق أن تبقى الأجزاء الكثيرة من الأراضى اللبنانية تحت الاحتلال الاسرائيلى وبالتالى يفقد لبنان سيادته واستقلاله ، يكفى أن نشير إلى أنه من نصوص اتفاق ١٧ أيار أنه ممنوع على الطيران اللبنانى أن يحلق فوق الأراضى اللبنانية إلا بإذن من اسرائيل ، يكفى هذا المثل ليدل على بقية الأمور الأخرى ، وعلى كل حال فقد رفض الشعب اللبنانى هذا الاتفاق وتصدى له ، وإذا كان الشعب اللبنانى هو البطل الحقيقى فى سقوط اتفاق ١٧ أيار فإن سورية كان لها دورها العظيم فى هذا العمل الوطنى ،فسورية هى عمق لبنان الاستراتيجى ، وهى التى دعمت لبنان ، ومكنته من أن يدافع عن أبسط حقوقه واستقلاله ضد هذا الاتفاق .

ويشير حسين الحسينى إلى حقيقة أن اتفاق الطائف الذى أصبح دستورا فيما بعد تضمن لأول مرة تحديد مرجعية لالغاء الطائفية السياسية وتحديد آلية المرجعية ، وهى الهيئة الوطنية المرتقب تشكيلها من قبل أول مجلس نيابى منتخب جديد ، وهى مؤلفة برئاسة رئيس الجمهورية وعضوية رئيس مجلس النواب ورئيس الوزراء وأعضاء من الشخصيات الفكرية والاجتماعية والسياسية ينتخبهم مجلس النواب للقيام بتقديم المقترحات إلى مجلس الوزراء والنواب بقصد إنهاء هيمنة أى طائفة سياسية فى لبنان والوصول إلى الحكم المدنى الذى يؤمن حماية الحريات العامة ومن ضمنها حرية العقيدة والشعائر الدينية لكل مواطن ، ولقد جرت بعد اتفاق الطائف عدة محاولات لاجهاضه ، منها مؤامرة اغتيال الرئيس رينيه معوض ، ولكن هذه المؤامرة فشلت بفضل إرادة الشعب اللبنانى وتصميمه على الخروج من المحنة ، **وقد ساعدت سورية فى حماية لبنان** ووقفت كل الدول العربية مع هذا الاتفاق الذى هو وليد الارادة العربية التى تبلورت فى قمة الدار البيضاء ، **وكان لمصر وسورية دور مؤثر فيها**،ويبقى لمصر ان تساعد لما لها من ثقل وقدرة فى المحافل العالمية والدولية ، وأن تساعد فى اتمام المسيرة خصوصا فى حث الولايات المتحدة على القيام بما التزمت به من حيث تطبيق القرار ٤٢٥ واجبار اسرائيل على الانسحاب إلى الحدود المعترف بها دوليا لأن جوهر الأزمة اللبنانية يبقى فى جنوب لبنان ،

وما لم تنسحب اسرائيل جنوب الحدود المعترف بها دوليا ، لا يمكننا القول بأن لبنان قد عاد إلى حالته الطبيعية ، ولا يمكن القول بأن الأزمة اللبنانية قد انتهت .

نبيه برى وخصوصية العلاقات اللبنانية السورية

ويقول الأستاذ نبيه برى رئيس مجلس النواب اللبنانى فى لقاء لى معه :

« واقع الأمر أن الاتفاق السورى اللبنانى الذى عقد بين البلدين لم يكرس الواقع كما ينبغى ، قد يكون خطوة متقدمة ، ولكنه بالتأكيد دون طموح الشعبين ، هناك واقع معاش على الأرض اللبنانية - والسورية لا سبيل لأحد أن ينكره ، إذا كان هناك من زور التاريخ فإنه بالتأكيد لا يوجد من يستطيع تزوير الجغرافيا .. لبنان محدود بثلاثة حدود ، حدود من اسرائيل جنوبا ، وهى حدود لا نستطيع أن نتعامل معها وحدود غربا هو البحر وحدود شرقا من سوريا ، وبالتالى نتعامل مع الوطن العربى ، والعالم كله من خلال سورية ، فلابد أن يكون انفتاح لبنان على سورية قائما .. هناك وشائج قربى قائمة بين البلدين ، لا توجد عائلة فى لبنان ليس لها ذات الأسم ، وذات القربى الموجودة فى سورية ، تجد العائلة اللبنانية ، والعائلة السورية تحمل نفس الاسم ، هناك المصاهرة ، وهناك العلاقات الاقتصادية الوثيقة .

فالعلاقات بين سورية ولبنان تماما كالعلاقات بين مصر والسودان من قديم الزمن .. العلاقات القائمة بين لبنان وسورية الآن هى أقل من العلاقات القائمة بين أى دولتين أوربيتين أو من العلاقة الموجودة بين دول السوق الأوربية المشتركة .. هى أكثر تواضعا من العلاقة بين فرنسا وألمانيا ، هى لا تقاس بالعلاقة بين البلاد المنخفضة .. وبالتالى فإن ما أتت به اتفاقية الطائف ، وما تكرس من اتفاقيات بين البلدين أقل بكثير من الواقع الحقيقى القائم بين لبنان وسورية .

تتميز السياسة السورية فى ظل قيادة الرئيس الأسد بأن دمشق اعترفت لأول مرة بسيادة لبنان ، واستقلال لبنان « نحن شعب واحد فى دولتين مستقلتين كما قال الرئيس الأسد وبحق » طبعا هناك بعض الفئات اللبنانية ذات الأهداف المعروفة تحاول الزعم بأن سورية تريد وضع يدها على لبنان ، أو ابتلاع لبنان ، وهذا غير صحيح على الاطلاق ، والتجارب علمتنا هذا الشيء ، هل تعلم أن المحاكم الروحية المسيحية سواء للطائفة الارثوذكسية أو الطائفة الكاثوليكية وغيرها موجودة بدمشق هى فى نفس الوقت تتولى رعاية المسيحيين الموجودين فى لبنان.باختصار كل الاتفاقيات التى وقعت حتى الآن بين البلدين أقل بكثير من الواقع القائم بين سورية ولبنان .

سورية دفعت ثمنا غاليا من دماء شعبها لحماية لبنان عام ١٩٨٢ ، دفعت مئات الشهداء ، آلاف الجرحى دون مقابل إلا الذود عن لبنان ، وبالرغم من غلاء هذا المهر فإن

الدور السورى الأساسى فى لبنان ، أدى إلى منع التقسيم فى لبنان بعد أن كان لبنان يسير إلى التقسيم ، وفى مرحلة دولية واقليمية كانت تميل إلى التفتيت .. انظر إلى ما حدث فى الاتحاد السوفيتى.وفى يوغوسلافيا ، وفى تشيكوسلوفاكيا ، وقارن بين ما حدث فى هذه الدول لتعرف طبيعة الدور الذى قامت به سورية لحماية لبنان ، أهمية الدور السورى فى لبنان لا يتبلور فقط فى الحماية من اسرائيل بالرغم من التضحيات ، وإنما فى منع تقسيم لبنان .

لبنان لم يكن بلدا موحدا سيتم تقسيمه ، بل كان بلدا مقسما يطلب الوحدة ، حدثت كنتونات بأرجحية شيعية ، وبأرجحية سنية ، وبأرجحية درزية ، وكنتونات مسيحية .... إلخ،كانت المؤامرة تتفشى كل يوم ، وكان حلم اسرائيل أن يتفتت لبنان ؛ لأن هذا التفتيت كان سينقل إلى سورية ، والجزائر ، ومصر ، وكل مكان لأن الفئات الموجودة ، موجودة فى كل الوطن العربى ، هناك حقيقة أخرى لابد أن تكون معروفة دائما .. فى عام ١٩٧٦ لم نقرر دخول الجيش السورى إلى لبنان ، قررنا دخول الجيوش العربية ، ولكن مع الأسف فإن الجيوش العربية تركتنا ، وبقيت سورية معنا ، ولولا بقاء السوريين لتقسم لبنان .. ان بقاء لبنان بصيغته الحضارية التى هى النموذج المناقض للوجود اليهودى فى المنطقة . الفضل فيه لله عز وجل وللدور الذى لعبه حافظ الأسد .

وقال الرئيس نبيه برى : « اتفاق الطائف حدث برضى عربى وشبه اتفاق دولى .. ولكن الصياغة شيء ، والتنفيذ شيء آخر .. الصياغة كانت فى الطائف ، وأنا لى ملاحظات عديدة على الطائف ، ولكنه الآن أصبح دستورا .. أصبح نصوصا ، وبالنصوص كما يقولون يختبيء الشيطان بين التطبيق والواقع ، والقرار ، والمحامون يقولون عليك أن تربح الدعوة مرتين مرة عندما تأخذ الحكم ، والأخرى عند تنفيذ الحكم ... العرب والعالم سعوا وعملوا لحل الأزمة اللبنانية ، وهناك فضل لعدة بلاد ، **ولكن دور سورية الأعظم هو تنفيذ هذاالحكم كيف يتم تركيب الجيش اللبنانى ؟** بعض الدول قدمت مساعدات عسكرية ولكن الجيش اللبنانى قام بدعم من السوريين ، وبقى الجيش السورى ولا يزال موجودا فى لبنان حتى يقوى من ساعد ، وعضد الجيش اللبنانى ، حتى يستطيع هذا الجيش أن يحل محل السوريين ، وما يقال عن الجيش يقال عن القوى الأمنية ، وعن الوزارات ، وعن انتخاب الرؤساء .. لولا الوجود السورى لما نفذت بنود اتفاق الطائف ، ومن بنود هذا الاتفاق تلك الانتخابات التى تمت مؤخرا ، فسورية هى وحدها الراعى فى اتفاق الطائف ، وأى أمر فى لبنان يؤثر على سورية ، وأى أمر سورى يؤثر على لبنان ، وحفظ الأمنين اللبنانى والسورى مسئولية مشتركة بين سورية ولبنان .. أنا أتحدث عن الموضوع الاستراتيجى الذى يتعلق بجبل الشيخ وبالبقاع الغربى ، ويتعلق بأى اتفاق اسرائيلى يجعل سورية شبه مطوقة .

هناك قرى نصفها فى لبنان ، ونصفها الآخر فى الأراضى السورية ، باختصار فإن

ما بين سورية ولبنان من علاقات أخوية ، وتاريخية أقوى بكثير من أى نص مكتوب ، وبالتالى فالاتفاقات التى وقعت هى تنظيم للعلاقات الحقيقية الكاملة بين البلدين لمصلحتهما وليس لسورية مطامع فى لبنان .. هدف سورية الأساسى هو اعادة السلم ، والأمن والاستقرار والاستقلال للبنان ، والحفاظ على وحدته ، وحرصنا على التعاون مع سورية هو حرص على التعاون بين أى بلدين عربيين شقيقين ، لذلك إن التعاون فى مصلحتهما المشتركة والمتبادلة ، وأن ما قدمته سورية للبنان من دعم جدى لتحقيق للأمن والاستقرار والطمأنينة فيه ،وإعادة وحدة الدولة ومؤسساتها يعطى الصورة الواضحة عن النوايا الأخوية تجاه لبنان .. ولو كان لسورية مطامع فى لبنان لما أقدمت على تقديم هذه المساعدات .. وعندما تسعى سورية لأن تقف الدولة اللبنانية على أقدامها ، وأن تستعيد مؤسساتها ، وتمارس سلطاتها وسيادتها ، فى هذا الأمر مصلحة كاملة للبنان ولسورية ، وللعرب .

وبعد فإن دور الرئيس حافظ الأسد فى متابعة الأزمة اللبنانية ، وايجاد حل جذرى لها هو دور رائد ، وغير مسبوق ، مارس فيه مهارته الفائقة ورصيده الوطنى والقومى ، ونجح فى إيجاد صيغة مقبولة من الجميع .

أن انجاز الرئيس الأسد فى لبنان سوف يبقى من المآثر الخالدة التى ابدعها هذا القائد الكبير .. يكفيه فخرا أنه أدخل لبنان مرحلة الدوله العصرية والحديثة بعد انجاز اتفاقية الطائف التى شكلت أساس الهدنة الداخلية ، ونقلت لبنان إلى السلام الكامل والثابت ، وألغت نظرية الأمن بالتراضى ، وبدأت الدولة فى استعادة ممتلكاتها وتنفيذ خططها الأمنية مباشرة ، دون العودة إلى موافقة أحد بصورة مسبقة ، كما كانت تجرى الأمور من قبل ، والانتخابات النيابية التى أجريت لأول مرة بعد عشرين عاما هى انجاز يبشر بتجديد البنية السياسية اللبنانية ، والمعروف أن اتفاق الطائف قد أقر بتسوية مؤقتة قضت بتوسيع أعضاء المجلس النيابى ، وإقامته على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين .

٦

قراءة فى فكر الأسد

الرئيس الأسد
والقضية الفلسطينية

□□ حول فلسطين تمحور الشعور الوطني والقومي.

□□ الشرارة الأولى لمنظمة فتح انطلقت من سورية.

□□ بعد عام ١٩٧٠ سورية بيتا لقادة المقاومة .

□□ صور الدعم السورى للقضية الفلسطينية فى عهد الأسد.

□□ كانت قضية فلسطين هي الهاجس الذي ظل يمثل فكر الشباب العربي في سورية ، وخارج سورية من جيل الرئيس حافظ الأسد .. هذا الجيل الذي وعى أبعاد وعد بلفور عام ١٩١٧ ، وثورة ١٩٣٦ ، وعمليتي التقسيم اللتين تمتا عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ .

حول فلسطين تمحور الشعور الوطني والقومي في سورية ، وحول التاريخ والجغرافيا التي تعلمها جيل الرئيس حافظ الأسد ، وتعلمها الآباء ، والتي تقول : إن سورية الكبرى تمتد من جبال طوروس إلى خليج العقبة ، وبالتالي فإن فلسطين جزء من سورية ، ومعروف أنه لا يمكن للانسان أن يفصل ذاكرته عن التاريخ ، لأن التاريخ هو ذاكرة الشعوب ، وإذا فقدت الشعوب ذاكرتها ، فقدت تاريخها .

في فترة الانتداب الفرنسي على سورية ، والانتداب البريطاني على فلسطين ، كان هناك مؤتمر تأسيسي سوري فلسطيني يطالب بالاستقلال الفوري عن البلدين ، ولو عدنا إلى وثائق أيام الحكم الملكي لفيصل على سورية والتي سبقت دخول غورو إلى دمشق لعرفنا الحقيقة التالية وهي : إنه كانت هناك وزارة لسورية عن فلسطين ، سورية الكبرى آنذاك ، وفي هذه الوزارة كان هناك مجلس تأسيسي عن جميع المناطق في فلسطين ، ولم يكن في هذا الأمر اية غرابة ، فعز الدين القسام الذي قاد ثورة ١٩٣٦ في فلسطين هو

شيخ من مدينة « جبلة » على الساحل السوري .. لم يكن هناك فرق بين كيان اسمه فلسطين او سورية في تاريخ النضال الشعبي لتحرير سورية من الانتدابين البريطاني والفرنسي ، ولكن عندما صار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وكانت سورية قد حصلت على استقلالها عام ١٩٤٦ ، **كان تفكير الشباب من جيل الرئيس حافظ الأسد يدور حول فلسطين** ، وجزء كبير من هؤلاء الشباب اختار الجندية لكي يكون له دور مشرف في تحرير فلسطين **والبعض الآخر** من الشباب الذين كانوا أكبر سنا من جيل الرئيس حافظ الأسد ذهبوا متطوعين في حرب ١٩٤٨ ، وفي جيش الانقاذ الذي قاده « **فوزي القاوقجي** » ، هذه الخلفية التاريخية السريعة عن العلاقة بين الشعبين ، **أو الشعب الواحد في سورية وفلسطين ، شكلت في ذهن الرئيس حافظ الأسد هاجسا** ، لأن هذا الشعب الفلسطيني الذي خرج من دياره/نتيجة ظلم دولي لم يسبق له مثيل في التاريخ/عليه أن يسترد حقوقه في العودة ، وفي تحرير أرضه ، وفي بناء دولته المستقلة على تراب وطنه .

الشرارة الأولى لمنظمة فتح انطلقت من سورية

وعندما كان الرئيس حافظ الأسد وزيرا للدفاع في عام ١٩٦٥ ، انطلقت الشرارة الأولى لمنظمة فتح من سورية ضد المحتلين الصهاينة .

والرئيس حافظ الأسد هو الذي اشرف على الطلقة الأولى التي خاضتها أول منظمة رفعت الكفاح المسلح شعارا بالنسبة لتحرير فلسطين ، ولذلك فإن **للرئيس حافظ الأسد** بالاضافة الى ما سبق **دورا تاريخيا** ينهض به بكل أمانة المسئولية في حماية الفلسطينيين وفي تقديم جميع ما يلزمهم من أجل قضيتهم العادلة ، وهي قضية استرداد وطنهم ، وحقوقهم المشروعة في فلسطين .

وفي عام ١٩٧٠ ، عندما تعرضت المقاومة الفلسطينية إلى الصدام مع الجيش الاردني ـ ونحن نحكي التاريخ ، ولا نُقَوِّم الاحداث ـ **اضطر الرئيس حافظ الأسد أن يرسل القوات السورية لدخول الأردن لايجاد مخرج ، ولفك الحصار عن المقاومة الوطنية الفلسطينية** التي كان يطبق عليها الجيش الاردني من جميع الجوانب ، وقام بجهد كبير في سبيل اخراج القيادة دون تعرضها لأي أذى ، في الوقت نفسه كان هناك جهد داخل **الجامعة العربية قاده الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لاخراج ياسر عرفات من عمان** ، ولايجاد مخرج سياسي لهذه الأزمة التي كادت تعصف بالمقاومة الفلسطينية الوطنية ، وبعد عام ١٩٧٠ ، والخروج من الاردن ، **كان جميع قادة المقاومة يوجدون في سورية بدون استثناء** وينتقلون بين سورية ولبنان معززين مكرمين .. أول خلاف في وجهات النظر وقع بين سورية ، وبعض افراد من القيادة الفلسطينية ، كان خلافا حول التكتيك الذي يجب أن يتبع في سبيل الوصول إلى الهدف الاستراتيجي ..

لا نستطيع أن نقول بأن الخلافات كانت من صنع من ، ولكن نستطيع أن نقول إن هناك بكل اسف **تناقضا بين الموقف التكتيكى ، والموقف الاستراتيجى لدى بعض القيادات الفلسطينية** ، وكانت سورية تحذر من أنه لا شأن لهم بالوضع الداخلى فى الأردن لأن قضيتهم كانت فلسطين ، ولكن للأسف حدث **أيلول الأسود عام ١٩٧٠** .. بنفس الروحية كانت سورية تحذر بأنه لا مصلحة للمقاومة الفلسطينية ان تسيطر على لبنان وأن تغتال السلطة الدستورية ، أى تجردها من صلاحيتها ، وان تمارس دور الدولة داخل الدولة .. داخل لبنان ، ان بعضهم كان يرى هذا الشيء وكأنه مطلب شرعى لحماية المقاومة الفلسطينية التى تورطت بالصدام مع اللبنانيين بجميع توجهاتهم واتجاهاتهم ، وبالدولة اللبنانية فى عام ١٩٧٦ ، الأمر الذى اضطر سورية لأن تتدخل مرة ثانية للدفاع عن لبنان وعن الفلسطينيين فى ذات الوقت .

ومهما كان من خلاف فى هذه النظرة أو تلك فإن سورية لم تتزحزح قيد أنمله عن الإيمان بأحقية الشعب الفلسطينى فى استرداد أرضه وبناء دولته المستقلة ولم تسحب اعترافها فى يوم من الأيام **بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى ، وكانت سورية والرئيس حافظ الأسد باستمرار عاملا مهما جدا فى رأب الصدع الفلسطينى** وتوحيد جهودهم ونصيحتهم ، والأخذ بيدهم نحو الهدف الاستراتيجى وقد دار النقاش والحوار بين القيادة الفلسطينية والقيادة السورية مرارا بشأن وضع صيغة تحالف استراتيجى لأن القيادة السورية ترى بأنه لا يمكن تحقيق السلام العادل والدائم والشامل فى المنطقة إلا بحل المشكلة الفلسطينية باعتبارها لب الصراع فى الشرق الأوسط ، **وظل الرئيس الأسد يحذر من أى موقف تكتيكى لا يراعى وحدة نضال الأمة فى سبيل الوصول للهدف الاستراتيجى لأنه سيؤدى إلى عقبات على حساب النضال الفلسطينى وعلى حساب النضال العربى ، وكان الرئيس الأسد يرى ولايزال بثاقب النظر .. أن أى معركة مع أى قطر عربى شقيق سوف تكون على حساب القضية وضد مصلحة الشعب الفلسطينى ، وأثبت التاريخ صحة هذه النظرية** ، سوا كان بالخلافات الاردنية الفلسطينية فى الأردن عام ١٩٧٠ أو بالخلاف اللبنانى الفلسطينى الذى ادى إلى الحرب التى دامت خمسة عشر عاما فى لبنان دفعها الشعب اللبنانى الشقيق ثمنا غاليا فى استضافته للفلسطينيين ، ومازال يدفع حتى الآن ثمن احتلال اسرائيل للجنوب بسبب انطلاق عمليات المقاومة من الأراضى اللبنانية ، **وأيضا كانت سورية تقول بأنه حتى تأييد صدام فى حرب الخليج أو الدخول فى تحالفات عربية ـ عربية ليس من مصلحة القضية الفلسطينية أو الشعب الفلسطينى لان ذلك يورط الفلسطينيين فى صراعات على حساب صراعهم الأساسى مع اسرائيل .**

ونستطيع أن نقول إن هناك تراثا ضخما من الفكر السياسى للرئيس حافظ الأسد

فى خطبه الحزبية والجماهيرية حول قضية فلسطين يمكن ان تشكل دليلا نظريا واعيا لمسألة التعاون مع هذه القضية المعقدة والشائكة وكلها تنصب فى مصلحة فلسطين ومصلحة الشعب الفلسطينى لاسيما وأن الرئيس حافظ الأسد وسورية دفعت ومازالت تدفع الثمن الغالى من أجل نصرة القضية الفلسطينية ونصرة الشعب الفلسطينى ،

وبالرغم من كل ما جرى وما يجرى فإن سورية حريصة ان تكون علاقة الفلسطينيين معها وثيقة تؤدى بكلا الطرفين إلى الوصول إلى الهدف الاستراتيجى وهو تحرير الأراضى العربية المحتلة .

صور الدعم السورى للقضية الفلسطينية فى عهد الرئيس حافظ الأسد

يمكن القول ـ وبغير تحفظات ـ أن القسم الأكبر من كوادر القيادة الفلسطينية ، قد عاش أو تعلم فى سورية سواء كأفراد أو كجماعات وأن سورية تستضيف منذ عام ١٩٤٨ وبعد عام ١٩٦٧ عددا من الفلسطينيين يتراوح ما بين ٣٠٠ ألف و٤٠٠ ألف فلسطينى تقدم لهم جميع الخدمات التى تقدمها للمواطن السورى بدون تفرقة أو استثناء ، يتمتعون بحق الرعاية الصحية ، وبحق العمل والتساوى فى الأجور ، وحق الترشيح فى الانتخابات فى المناطق التى يمكن أن تكون مخصصة للسوريين فى أماكن سكناهم ، وحتى أن قسما كبيرا من الفلسطينيين الذين دخلوا سورية عام ١٩٤٨ حصلوا على مناصب رفيعة منها الوزارة والسفارة ، لانه لم يكن هناك تفرقة بين السورى والفلسطينى سوى فى وثيقة السفر التى يحملها ، لأن سورية لا تفرق بين عربى وعربى .. وأن سورية هى بلد العرب أجمعين ، أكثر شعب عربى شقيق استفاد من هذه الوضعية هم الفلسطينيون الموجودون فى سورية .. الناحية الثانية : إن سورية استضافت على أرضها القسم الأكبر من جيش التحرير الفلسطينى منذ عام ١٩٤٨ وقدمت لهذا الجيش ـ وحتى يومنا هذا ـ التسهيلات والتدريبات والمعسكرات والاسلحة لهذا الجيش لانها تعتبره دريفا فى التحرير ورديفا لان يكون نواة لجيش فلسطينى عندما تتحرر فلسطين ويعود الحق إلى إهله .. لم تبعد منظمة من المنظمات المنضوية وغير المنضوية تحت منظمة التحرير الفلسطينية هى قضية العرب ، وتحت شعار الحق المشروع فى النضال من أجل تحرير الارض .. وكانت سورية دائما تعمل على أن تخصص جزءا كبرا من ميزانياتها لخدمة فلسطين ضية فلسطين وكان لديها السفراء فى الخارجية ممن يحملون الجنسية الفلسطينية .. الشىء الآخر .. أن سورية لم تأخذ هذا الموضوع فقط على أرض سورية وإنما قدمت الدعم فى الجامعات ، وفى المدارس والمعاهد لأبناء فلسطين فى غزة والاراضى العربية المحتلة ، وتقدم لهم فى كل عام مئات

المنح الدراسية المجانية لكى يستطيعوا أن يتابعوا تحصيلهم العلمى ، وبالنسبة لسورية يكفى أن نقول أنها خاضت جميع حروبها من أجل قضية فلسطين وفقدت جزءا عزيزا وغاليا من أراضيها فى سبيل الدفاع عن فلسطين ومازالت تقوم بالدور فى لبنان خدمة للبنان وخدمة للقضية الفلسطينية .. نستطيع ايضا أن نقول إن القسم الأكبر من الشعب الفلسطينى قد تلقى دعما ومساندة مالية ومادية وثقافية وتعليمية من سورية وهذا الشىء كما يقول الرئيس الأسد ليس منة وإنما هو واجب تقتضيه الأخوة ، وتقتضيه وحدة المصير.

فور قيام الحركة التصحيحية بادر الرئيس حافظ الأسد بإصلاح أوضاع جميع قطاعات الحياة السياسية السورية ، لاسيما فى مجال السياسة العربية ، والسياسة الخارجية ، وقد قادته حركته التصحيحية الى توضيح السياسة الخارجية السورية فى المجال العربى توضيحا دقيقا ، وفتح صفحة جديدة لعلاقات قائمة على دعم كل صور التضامن العربى فى كافة المجالات ، وبما يخدم قضية العرب المركزية ، وهى القضية الفلسطينية .

واذا رجعنا الى الأدبيات التى صدرت عن الرئيس حافظ الأسد ، أو عن حزب البعث العربى الاشتراكى ، نجد أن القضية الفلسطينية وما تفرع عنها ، وما نتج من احتلالات لأراض عربية من بينها الجولان السورى كانت ، ومازالت هى المحور التى تأسست عليه العلاقات العربية السورية ، وحتى فى الاطار العربى كانت هذه القضية هى المحور الذى تدور عليه وحوله كل الأنشطة السورية ، حتى الصياغة الداخلية للدفاع عن سورية ولروافد الدفاع من تنمية ، وتخطيط ، واقتصاد ، وما الى ذلك ، كان دائما يصب ، ولو بصورة غير مباشرة فى هذا الاتجاه .. اتجاه القضية الفلسطينية ، وما تفرع عنها على اعتبار أن القضية الفلسطينية هى القضية المركزية لكل العرب ، وعلى اعتبار أن الصراع العربى الاسرائيلى شغل هذه المنطقة أكثر من أربعين عاما ، ومازال يشغلها ، وهو الآن على طاولة المفاوضات بين الأطراف العربية ، وبين اسرائيل التى تقاوم تحقيق تسوية عادلة ومشرفة لهذا الصراع بشكل يؤدى إلى انسحاب اسرائيل من جميع الأراضى المحتلة والى استرجاع الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى ، وخاصة اقامة دولته المستقلة فى فلسطين .. وهذا المحور الرئيسى للسياسة السورية الداخلية ، والعربية ، والخارجية مازال قائما حتى الآن مادام هناك احتلال اسرائيلى فى أرض عربية ، ومادام هناك حق عربى لم يعد الى أيدى العرب حتى الآن .

الأدبيات التى صدرت عن الرئيس حافظ الأسد من خطب وتصريحات تنظر الى

الصراع العربي الاسرائيلي على انه احتلال ، وغزو لأرض عربية ، وهذا هو المنطلق الذى نظر فيه الى قضية فلسطين منذ نشوئها عام ١٩٤٨ ، ثم جرى على ذلك تطورات متعددة ، وكثيفة محلية ، ودولية ، وعربية ، وأدت الى مجموعة من الحروب دخلت فيها سورية كلها ، وأسهمت فيها بما استطاعت من قدرات عسكرية ، ثم نشأت متغيرات دولية وفرت لهذا الصراع أسلوبا آخر للحل ، هو الطريقة السلمية التفاوضية انطلاقا من قرارات مجلس الأمن، ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة لحل الصراع العربي الاسرائيلي والمشكلة الفلسطينية بالطرق السلمية ، والواقع أن هذا التطور الذى تعرضت له القضية الفلسطينية كان تطورا ايجابيا تعامل مع العوامل ، والعناصر التى نشأت طوال أكثر من اربعين عاما مضت على هذا الصراع بمختلف اشكاله وما يأتى به .

ومن الطبيعي أن يستمر اهتمام الرئيس الأسد بالقضية الفلسطينية على الرغم من خلافه في وجهات النظر والأداء مع بعض القادة الفلسطينيين سواء كان هناك خلاف مع هذه القيادة الفلسطينية أو تلك او لم يكن ، مادامت القضية الفلسطينية فى فكر الرئيس الأسد وقلبه منذ أن كان طالبا وبعدما عمل فى اطار الخدمة الوطنية ، والقومية عضوا فى حزب البعث العربي الاشتراكى ثم ضابطا فى القوات المسلحة ثم رئيسا للجمهورية العربية السورية .

القضية الفلسطينية كانت معه منذ تفتح وعيه على القضايا العربية ، وعلى مبادىء القومية العربية ، وكان من الطبيعي أن يستمر اهتمامه ، وتعامله مع القضية الفلسطينية دون النظر الى اية اعتبارات أخرى .

الرئيس الأسد نظر دوما الى قضية فلسطين كقضية سورية تماما ، بذل كل جهوده منذ توليه المسئولية لإعلاء شأن كلمة فلسطين ، وتحسين وضع الشعب الفلسطينى ، لتقوية موقفه النضالى ، والدفاعي لتحرير أرضه ، والحصول على حقوقه الوطنية الثابتة فى العودة ، وتقرير المصير وقيام الدولة المستقلة .

ويقول خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني الفلسطيني السالف

ارجو أن احدد بعض المواضيع التى عرفت فيها عن كثب الرئيس الأسد فى تعامله مع قضية فلسطين .. بعد قيام ثورة ٨ مارس اذار عام ١٩٦٣ كانت الثورة ترفع شعارين كبيرين .. الشعار الأول الوحدة العربية ، وثورة الثامن من آذار كانت ردا قوميا على الانفصال الذى مزق الأمة العربية واضعفها ، وأضعف العلاقات بين مصر الدولة العربية الكبرى والشقيقة الكبرى ، وسورية، والاقطار العربية الأخرى .. هكذا اذن جاءت ثورة الثامن من آذار وحافظ الأسد من قيادييها الأساسيين .

ثم نظرت ثورة الثامن من آذار الى قضية فلسطين على انها قضية العرب جميعا ، وان

هذه القضية لا يمكن أن تنسى ، ولا يمكن للأمة العربية أن تستقر دون تحريرها وعودة الحقوق الوطنية الثابتة لشعبها العربى الفلسطينى ، لذلك بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٧٠ كان الرئيس الأسد يشغل فى معظم هذه الأعمال موقع وزير دفاع الجمهورية العربية السورية ، وقدم كل الدعم لحركة فتح عندما جاءت الى سورية فى عام ١٩٦٥ قدم لها معسكرات تدريب ، قدم لها السلاح ، قدم لها مدربين ، ولم يبخل عليها بشىء ، وكانت حركة فتح فى ذلك الوقت تمثل الكفاح المسلح ، وترفع شعار الكفاح المسلح لتحرير فلسطين .**فسورية ، وحافظ الأسد هما اللذان دعما هذه الحركة** ، ومكناها من العمل. حتى قائمة العمليات الفدائية الأولى والثانية فى عام ١٩٦٥ انطلقت من سورية التى وفرت لها الدعم العسكرى ، والمادى ، والمعنوى .. **اذن حافظ الأسد تبنى الكفاح المسلح بوصفه حركة تحرير وطنية ضد المحتلين الصهاينة .**

ثانيا : فى هذه الفترة بالذات ـ كما تعلم ـ دعا الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الى مؤتمر قمة عربى من أجل البحث فى انشاء كيان للفلسطينيين .. هذا الكيان أصبح ضروريا لمنع ذوبان القضية الفلسطينية ، ولمنع انتهائها وذوبان الفلسطينيين فى المجتمعات التى حلُّوا ضيوفا عليها ، فدعا الى قمة عربية عقدت بالقاهرة فى عام ١٩٦٤ ، ثم جاءت القمة العربية الثانية التى عقدت فى الاسكندرية برئاسة الرئيس عبدالناصر ، والتى أعلن فيها عن انشاء منظمة التحرير ، وجيش التحرير الفلسطينى ، وسُئلت الدول العربية المشاركة مَنْ منها يسمح بقيام قوات أو كتائب فلسطينية مقاتلة على أراضيها ، فكان الجواب ايجابيا من مصر ومن سورية .. مصر عبدالناصر الذى وافق على أن يتجند الفلسطينيون فى قطاع غزة ، وفى مصر فى جيش التحرير الفلسطينى ، وأطلق على قواته آنذاك كتائب « عين جالوت » ، وكذلك فى سورية حيث وافق الرئيس حافظ الأسد ـ عندما كان وزيرا للدفاع ـ على انشاء قوات فلسطينية نظامية كتائب وألوية على أرض سورية ، وأطلق عليها اسم قوات « حطين » وهذه القوات المسماه بقوات حطين مازالت حتى الآن تعتمد على التجنيد الالزامى لأبناء فلسطين فى سورية ، ومازال القطر العربى السورى ، وبالذات الرئيس حافظ الأسد يقدم لها كل الدعم التسليحى والتدريبى ، والمادى ، ولا أبالغ اذا قلت انه حتى رواتبها ، ومصروفاتها تصرف من موازنة وزارة الدفاع فى القطر العربى السورى ، **لذلك كان للرئيس الأسد فضل كبير فى انشاء جيش التحرير الفلسطينى** .. هذا الجيش الذى يعتبر العمود الفقرى لمنظمة التحرير ، ورمزا لتطلع الشعب الفلسطينى الى وطنه ، الى العودة ، وتقرير مصيره ، وإقامة دولته المستقله ..

هذان العملان .. اى السماح لحركة فتح ببدء نشاطها وعملياتها من أرض سورية ، وقيام جيش التحرير الفلسطينى يؤكد أن الرئيس حافظ الأسد لم ينظر الى فلسطين كقضية ثانية ، بل هى قضيته الأولى والأهم ، هذه هى روحه ، وهذه هى نفسيته طوال معرفتى به من موقع المسئولية الذى تبواه وتسلمه ، ثم جاء عام ١٩٧٠ حيث قامت

الحركة التصحيحية ، وأصبح الرئيس الأسد رئيسا للوزارة ثم رئيسا للدولة .. للجمهورية العربية السورية ، وقد ازداد دعمه بعد تسلمه الرئاسة لجميع فصائل حركة المقاومة .. كان الدعم فى عام ١٩٦٥ لحركة فتح ، ولكن فى عام ١٩٧٠ ، عندما استلم الرئيس دَعَّمَ جميع الحركات أى فتح ، والشعبية ، والصاعقة ، وكل فصائل المقاومة ، وقدم لها كل احتياجاتها .

وأخيرا وليس آخرا حدث فى عام ١٩٧٠ حادث مؤسف للغاية .. حيث شن الجيش العربى الأردنى هجوما على الفلسطينيين فى الأردن عام ١٩٧٠ ، وكان أيلول سبتمبر أسود فى الحقيقة ، وكان الفلسطينيون يذبحون فى عمان وفى مختلف أماكن المملكة الأردنية الهاشمية .. اثنان هبَّا للدفاع عن الفلسطينيين أولهما الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، حيث دعا الى قمة عربية حضرناها ، وكان الرئيس عبدالناصر يقيم فى هيلتون كى يكون قريبا من القمة ويديرها ، وكنا معه هناك ، وكان لنا معه عدة لقاءات ، وبالفعل عرض علينا كل ما يستطيع لانقاذ اخواننا فى الأردن ، وكان الرأى لنا ، ونحن الذين طلبنا منه أن يرسل وفدا أولا ثم وفدا ثانيا الى عمان لانقاذ الاخوة ، ووقف القتال ، لأن القتال هذا يضر بنا وبالاخوة الأردنيين ، **والرجل الثانى الذى ساعدنا كثيرا هو الرئيس حافظ الأسد** ، حيث انه بالرغم من شعوره العربى ، والقومى ، وبالرغم من نظرته الى كل الدول العربية كدول شقيقة ، ومؤاخيه لسورية ، ولكنه لم يستطع أن يصبر على ذبح الفلسطينيين وابادتهم ، فحرك الجيش السورى ـ وكان وزيرا للدفاع آنذاك ـ الى الأردن ، وحدث صدام مؤسف جدا ، **وأكثر الناس أسفا ، وحزنا على هذا الصدام كان الرئيس حافظ الأسد** لأنه لم يكن أبدا يريد لجيش عربى أن يقاتل جيشا عربيا ، ولجندى عربى أن يقتل جنديا عربيا آخر ، كان ينظر الى الجندى الأردنى نظرته الى الجندى السورى ، ولكن حرصه على الفلسطينيين دفعه لارسال قوات احتلت شمال الأردن ، وأربد ، وسلمها للحركة الوطنية الأردنية ، والفلسطينية آنذاك ، وسحب الجيش السورى ..

هذا الحادث يؤكد حرص الرئيس الأسد أيضا على قضية فلسطين وتقدمها وازدهارها ، وصعودها الى الأمام ، والى الأعلى ، ثم جاءت الحركة التصحيحية فى أكتوبر ١٩٧٠ ، وطيلة فترة العامين الأولين أو الأعوام الثلاثة الأولى كان كل جهده منصبا على فصائل حركة المقاومة ، وعلى توحيد هذه الفصائل بدلا من أن تكون فصائل متنافرة ، وغير متحابة ، وبالعكس يقاوم بعضها بعضا .. فعمل كثيرا على وحدة فصائل المقاومة ، واستمر فى تقديم العون اللوجستى « المعلومات » والتدريبى والتسليحى ، وكان الدعم يخص جميع فصائل حركة المقاومة وليس فصيلا دون آخر .

مع أن حزب البعث العربى الاشتراكى شكل فصيلا مقاتلا ، هو منظمة طلائع حرب

التحرير الشعبية ، فرعايتها كانت مثل المنظمات الأخرى ، ولم تحظ بامتيازات عن بقية الفصائل ، فكان حافظ الأسد دوما مع أبناء فلسطين ، مع وحدتهم ، مع تمسكهم بعقيدتهم ، ومبادئهم ، واقتناعهم بضرورة العودة ، وممارسة حق تقرير المصير ، ثم اقتربت حرب رمضان التحريرية اكتوبر ١٩٧٣ .

اذكر هنا حادثة ، مازلت أذكرها بوضوح .. اجتمعنا فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير .. الاجتماع كان برئاسة الأخ ياسر عرفات ، وكنت عندئذ رئيس المجلس الوطنى ، وكنت أحضر جميع اجتماعات اللجنة التنفيذية بهذه الصفة ، فقررت اللجنة التنفيذية فى عام ١٩٧٣ فى شهر يوليو ارسال وفد لمقابلة الرئيس الاسد ، ووفد اخر لمقابلة الرئيس السادات فى مصر لشرح قضية فلسطين ، وطلب المزيد من العون ، والمزيد من الراى ، والتوجه الذى يراه الرئيسان السادات والأسد فى صالح قضية فلسطين ، فذهبنا الى الرئيس الأسد ـ لأن الاجتماع كان فى دمشق والرئيس الأسد كان الاقرب فى دمشق ـ انا على ماأذكر والاخ المرحوم زهير محسن ، فذهبنا ، وقابلنا الرئيس الأسد ، وشرحنا وضع فلسطين وكان متفهما تماما ، ولم يكن بحاجة لمن يعطيه مواعظ ، أو دروسا فى الموضوع الفلسطينى ووعدنا بدعم منظمة التحرير كما كان الدعم قائما فى الماضى بأن يستمر هذا الدعم ، ويزداد لدعم نضال الشعب الفلسطينى ، وتطلعه لتحقيق حقوقه .. ثم قلت له : نحن ايضا مكلفون بذهابنا إلى مصر ، واجتماعنا مع الرئيس السادات ، وبكل صراحة أقول لك : اننى ابديت بعض الملاحظات عن الرئيس السادات من أن تصميمه على الحرب ليس قويا فالتفت الى (بزعل) وقال لى : ثق تماما إن الرئيس السادات ليس اقل رغبة فى التحرير ، والقتال من الرئيس جمال عبدالناصر .. أذكر هذه الكلمات حرفيا .. اذهبوا اليه ، واكسبوا ثقته ، وفى هذا فائدة كبيرة لكم ، وللقضية الفلسطينية ، وللشعب الفلسطينى ، وبعد مدة طويلة علمت انه كان هناك اتفاق على خوض حرب تشرين اكتوبر التحريرية .

ذهبنا الى مصر ، وفور وصولنا اجتمعنا مع المرحوم المشير أحمد اسماعيل ، وكان انذاك وزيرا للدفاع ، فتكلمنا بشكل عام معه ثم قال غدا نسافر لنلتقى بالرئيس السادات ، فى اليوم التالى التقينا فى مطار حربى فى القاهرة وركبنا الطائرة ، وكان معنا مجموعة كبيرة من كبار الضباط اذكر من بينهم الفريق سعد الشاذلى ، واذكر ايضا المشير عبدالغنى الجمسى ، وآخرين .. جلسنا فى الطائرة المشير أحمد اسماعيل ، وزهير محسن ، وانا فى المقدمة وجلس الضباط ، وفردوا الطاولات فى الطائرة ، ووضعوا على الطاولات خرائط فاستغربت ، وتعجبت ، وقلت : الا يستطيعون الراحة ساعة واحدة مسافة الطيران من القاهرة الى الاسكندرية ؟!!

بعد ذلك علمت انهم كانوا يعدون لحرب رمضان ، وكانوا يعملون فى كل وقت ، وفى كل

لحظة لهذه الحرب ، وعلمت كم كان التحضير لهذه الحرب شاقا ومضنيا .. لم يكونوا يضيعون لحظة واحدة ، أو ثانية واحدة ، حتى اثناء ركوبنا الطائرة لمدة ساعة بين القاهرة والاسكندرية . ووصلنا الاسكندرية فوجدنا السيارات فى انتظارنا ، فركب المشير أحمد اسماعيل ، وأنا سيارة .. الاخ زهير محسن ، والشاذلى ، والجمسى سيارة بالاضافة للسيارات الأخرى .

وذهبنا الى مكان لا أعرفه .. « الآن عرفت انه برج العرب » ووجدنا الرئيس السادات هناك ، وتحدثنا مطولا ولكن لم يلمح لا هو ، ولا حافظ الأسد ، أو المشير أحمد اسماعيل من قريب ، أو من بعيد الى ان هناك حربا قادمة ، الرئيس السادات قال لى جملة مازلت اذكرها ولا انساها ، قال لى : « ياأخ خالد لازم اخوانك فى الثورة الفلسطينية يعرفوا ان مصر تنفق أموالها على السلاح الحديث ، وليس عندنا أموال ننفقها على الصحف فى لبنان .. نحن ننفق أموالنا على السلاح ، وأرجوك ان تخبر كل أخوانك بهذا » ، ووعدته خيرا ..

كان لقائى مع الرئيس السادات جيدا ، تبنى منظمة التحرير ، ودافع عنها ، وأكد حرصه على قوتها ومتانتها واطراد النضال والكفاح .. وعدنا .. وفى طريق العودة بالسيارة كلمنى المشير احمد اسماعيل وقال لى : « ياأخ خالد .. افرض ان حربا قامت .. ماذا يمكنكم فعله .. نقول ذلك بالفرض لانه كانت هناك حرب ١٩٥٦ ، وحرب ١٩٦٧ ، افرض ان حربا قامت بالفعل هل باستطاعتكم تدمير أهداف داخل اسرائيل ؟

فقلت له : ماذا تعنى بالاهداف ؟

قال : مثلا مصفاة النفط .. مطار اللد .. مطار نهلان .. مطار مجدو .

فقلت له : بكل صدق لا نستطيع ذلك ، ولم يزد كلمة واحدة على هذا ، وبعد شهرين اندلعت الحرب ، ولم أكن أعرف شيئا عن اندلاعها ، وعلمت بعد انتهاء الحرب ان اخوة لى بالثورة الفلسطينية لا أريد أن أذكر اسماءهم لانهم مازلوا قياديين ، قالوا لأحمد اسماعيل ان بامكانهم ان يدمروا خمسين هدفا على الأقل فى اليوم الأول للحرب ، (ولم يدمروا هدفا واحدا) .

لذلك سألنى ، والحمد لله كنت صادقا معه ، وقلت : ان امكانياتنا لا تسمح بتدمير اهداف استراتيجية كبيرة من هذه الاهداف .. وبعد عودتنا الى دمشق عدنا الى عملنا فى منظمة التحرير ، وقدمنا للاخوة تقريرا عن لقائنا مع الرئيس السادات ، وتقريرا عن لقائنا مع الرئيس حافظ الأسد ، وكان التقريران ايجابيين ، وارتاح الاخوة لهما كثيرا ..

ثم جاءت الحرب التحريرية .. حرب أكتوبر ، وتقدم الجيش السورى مسافات كبيرة فى الجولان ، وتقدم الجيش المصرى فى العبور ، وفى سيناء كما نعلم جميعا ، ولكن لم يكتب

الله لهذه الحرب أن تستمر بالنجاح التام والكامل فحدثت الثغرات ، ثغرات الدفرسوار والكيلو ١٠١ .. الخ ، وعقدت قمة عربية عام ١٩٧٤ فى المملكة المغربية « قمة الدار البيضاء المشهورة » .

فى هذه القمة كان الفلسطينيون منتشين بانتصارات حرب اكتوبر سواء كان على الجبهة المصرية او على الجبهة الشمالية « الجبهة السورية » لأول مرة أصبح العالم يدرك ان الجيش الاسرائيلى يمكن قهره ، وانه ليس كما كانوا يقولون : جيش لا يقهر .. لأول مرة حقق فيها الجندى العربى المبادأة ، والمبادرة .. قام بالهجوم ، لم ينتظر حتى يهاجم لكى يدافع عن نفسه .. لأول مرة حقق طلعات على الأرض ، وانجازات كبيرة ، واخذ عددا كبيرا من الأسرى .. فكانت الروح المعنوية الفلسطينية قوية جدا .. **لذلك قرر الفلسطينيون فى هذه القمة ان يطلبوا منها الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل شرعى ، ووحيد للشعب** الفلسطينى .. قبل ذلك لم تكن عندنا هذه الصفة كممثل شرعى وحيد ، وفى هذه القمة علمت ، وبشكل مؤكد ان الرؤساء حافظ الأسد ، وانور السادات ، وهوارى بومدين دافعوا دفاعا مستميتا عن حق الفلسطينيين فى أن يكون لمنظمتهم « منظمة التحرير » التمثيل الشرعى ، والوحيد للشعب الفلسطينى بينما كثير من الدول العربية لم ترض بذلك ، وبالذات الأردن وبعض الدول العربية الأخرى ،وقد اتخذت القمة قرارا ينص على أن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى الوحيد ، وتقرر ارسال رئيس عربى هو الرئيس الراحل سليمان فرنجية الى الامم المتحدة ليدافع عن قضية فلسطين امام الأمم المتحدة باسم العرب جميعاوبعد ذلك ارتفع مستوى منظمة التحرير كثيرا .. حتى أصبحت لها مكاتب شرعية ومعترف بها فى الدول العربية والعديد من الدول الأجنبية الصديقة أصبح معترفا بها كممثل شرعى وحيد .. أصبحت عضوا كامل العضوية فى جامعة الدول العربية ، وفى المؤتمر الاسلامى ، وفى دول عدم الانحياز ، واصبحت عضوا مراقبا فى الأمم المتحدة ، فارتفع الاسم الفلسطينى ، والكيان الفلسطينى حتى أصبح حقيقة واقعة فى نظر الرأى العام العالمى ، وهذا انجاز كبير ، وتقدم كبير لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وفى ذلك الوقت ايضا وبعد ان انتصر الجيش السورى ، والجيش المصرى فى حرب رمضان ، وحققا المعجزة ، **جاء الرئيس الأسد ، وطرح علينا الوحدة النضالية بين سورية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وكان الرئيس يريد بذلك أن يصمد الفلسطينيون** . ان يتمسكوا بقرارات مجالسهم الوطنية .. الا يتنازلوا فى الأمور الأساسية ، والأمور المبدئية ، وأراد أن يضع امكانيات القطر العربى السورى كله تحت تصرف منظمة التحرير ، وهذه تضحية كبيرة ، لان سورية ـ كما تعلم ـ دولة لها كيانها .. لها جيشها .. لها وزاراتها .. منظمتنا ليست كأى دولة .. ليس عندها أرض ، فأن يطرح الوحدة علينا ـ كمنظمة بدون أرض ـ مع دولة ، فهذه تضحية كبيرة من القطر العربى

السورى ، ولكن اخوانى لم يوافقوا على ذلك ، ولذلك اجهضت فكرة الوحدة الاستراتيجية بين سورية ، والمنظمة .

ثم انتقل النضال الفلسطيني .. فصائل حركة المقاومة بعد ضربها فى الأردن انتقلت إلى لبنان ، وكانت كل أسلحتها تأتى عبر سورية، كل مقاتليها يذهبون للتدرب فى الاتحاد السوفيتى ، أو المانيا الشرقية ، أو بلغاريا عن طريق سورية، أى كل قواعدها وقياداتها الأساسية موجودة فى سورية ، ولم نجد من سورية إلا الدعم والتفهم لجميع الفصائل دون تمييز فصيل على فصيل آخر ، فبقى الرئيس الأسد مع منظمة التحرير طيلة هذا الوقت ، وطيلة هذه المدة ، وبدأت الصدمة الأولى ، والثغرة الأولى فى هذه العلاقة عام ١٩٧٥ ، عندما دخل الجيش السورى لبنان .. عندما اشتد أوار القتال الطائفى الاسلامى - المسيحى فى لبنان ، **وحافظ الأسد يكره كلمة طائفية ، هو عربى .. هو قومى ، لا يريد أن يكون أى نضال ذا طابع طائفى .. إنه يعد الطائفية لعنة وسبة فى جبين الأمة العربية باعتباره قائدا عربيا وحدويا قوميا ، ولبنان بالنسبة لسورية شىء مهم .. لبنان ليس بعيدا عن سورية.. أمن لبنان يمس أمن سورية.. أى ضرر فى لبنان ينعكس على سورية.. أى تقسيم للبنان ينعكس على سورية، وكثر الحديث فى ذلك الوقت عام ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ عن تقسيم لبنان ، واذكر فى ذلك الوقت أنه جاء مبعوث أمريكى اسمه «دين براون» إلى لبنان يدرس وينصح بما يمكن عمله.**

أذكر أول ما وصل دين براون ذهب لمقابلة الرئيس اللبنانى سليمان فرنجية ، وكميل شمعون ، وبيير الجميل .. « الثلاثة ماتوا الآن » وعندما اجتمع بهم ، واستمع إلى أحاديثهم عن القتال الفلسطينى اللبنانى قال له الثلاثة : ان التعايش بينهم وبين المسلمين أصبح صعبا ، وأن التعايش مع الفلسطينيين أصبح مستحيلا .

ذهب دين براون من اجتماعه هذا لمقابلة كمـال جنبـلاط فسمع منه أيضا أن التعايش مع الفريق الآخر أصبح مستحيلا ، **فقال له براون كلمة واحدة :** « يظهر أن تعايشكم أصبح مستحيلا ، ولذلك من الممكن أن تعيشوا فى دولتين » أى وكأنه يوحى لهم أنه يمكن تقسيم لبنان ، وانزعج الرئيس حافظ الأسد لذلك كثيرا لأنه لا يقبل تقسيم لبنان .. تقسيم لبنان ينعكس على سورية ، وعلى الأمة العربية ، وبالذات على قضية فلسطين ، فأرسل الجيش السورى لمنع التقسيم ، ولمنع الاقتتال بين اللبنانيين .. مع الفلسطينيين .

فى نهاية السبعينات ، كثر الاعتداء اليهودى ، أو الاعتداء الاسرائيلى على جنوب لبنان ، وفى عمق لبنان .. صار الاسرائيليون يقصفون المخيمات .. يقصفون قواعد منظمة التحرير يهاجمون ، ويحتلون أرضا لبنانية ، وينسحبون .. أى كانت منظمة التحرير تواجه الدولة الاسرائيلية القوية بامكانياتها الضعيفة ، وعندئذ عرض الرئيس الأسد مرة أخرى على

منظمة التحرير التنسيق ، والتعاون الفعال ، والكامل ، والشامل ، وعقدت الاجتماعات فى دمشق مع حركة فتح رأسها الشهيد أبو إياد ، ومعه سبعة من أعضاء اللجنة المركزية لفتح، ومن الجانب السورى رأس الاجتماعات نائب الرئيس عبدالحليم خدام ومعه ثمانية من قيادة الجيش السورى، والسياسيين السوريين.. اجتمع اعضاء الوفدين ثمانية أيام ، واتفقوا على اقامة علاقات تنسيقية استراتيجية بين سورية ، ومنظمة التحرير ، ووقعوا هذا الاتفاق ،ونشر فى سانا (وكالة الانباء السورية) وفى اليوم التالى قالت وفا (وكالة الانباء الفلسطينية) إن هذا الاتفاق غير مقبول ، وياسر عرفات لن يوافق عليه ، وأن ما جاء فى الوكالة السورية غير صحيح مما اضطر ابوأياد ان يقول : « إن ما جاء فى سانا هو الصحيح » ولكن أبوعمار رفض ، فتولد لدى السوريين اقتناع بأنه إن لم يوافق أبو عمار على أمر فمن الصعب أن ينفذ هذا الأمر فى منظمة التحرير الفلسطينية ، ولن تتم علاقة تنسيقية ، واستراتيجية بين سورية ، ومنظمة التحرير ، حتى كان عدوان اسرائيل المشهور فى عام ١٩٨٢ ، واحتل الاسرائيليون لبنان ، ووصلوا الى بيروت وطوقوها ، وحوصرت المقاومة الفلسطينية ، وقطاعات من الجيش السورى برئاسة العميد محمد حلال داخل بيروت .. أذكر أننى واخوانى ـ وكنت فى دمشق ـ ذهبنا لمقابلة الرئيس الأسد لنجدة أهلنا فى لبنان ، وكانوا مطوقين من الجيش اللبنانى ، والطيران السورى كان قد ضرب ضربة قوية . كانت خسائر سورية كبيرة .

ذهبنا إلى الرئيس الأسد أنا والقيادة الفلسطينية فى دمشق .. وجاءوا له بورق طبعوه ، فقرأه ، وقال : هذه ورقة من قائد الجيش السورى فى بيروت محمد حلال يقول فيها : إن الرئيس إلياس سركيس عرض عليه أن يؤمن له انسحابا سليما وآمنا بموافقة الاسرائيليين ، وأنه انذره إن لم ينسحب فى خلال ٤٨ ساعة سيقوم الجيش الاسرائيلى بضرب هذه القوات .. وهو يطلب رأى الرئيس الأسد ، فانزعج الرئيس الأسد ، ورمى الورقة وقال له : قاتل حتى الموت « بلاش كلام فارغ عن الانسحاب » هذا بالحرف الواحد .. قاتل حتى الموت .. وطلب تبليغ ذلك إلى العميد محمد حلال ، وبقى السوريون يقاتلون جنبا إلى جنب مع المقاومة الفلسطينية ، حتى تم الاتفاق مع فيليب حبيب كما تذكر ، ووافق الأخ أبو عمار والقيادة الفلسطينية على الانسحاب ، وانسحبوا إلى الخارج ، وذهب أبو عمار كما يعلم الجميع إلى تونس ، وجاءت معظم القوات الفلسطينية إلى سورية ، وانتشر بعضها فى البقاع الذى لم يكن قد احتل ، وكذلك فى (منطقة طرابلس) وأبو عمار بقى فى تونس ، كان أبو عمار يعتقد انه ببعده عن سورية سيأتى له بصداقة امريكية ، وبالود الأمريكى ، وأن امريكا ستساعده كثيرا إذا ظل بعيدا عن سورية وثبت أن ذلك ليس صحيحا . وساءت العلاقة بين سورية، ومنظمة التحرير وكل هذا الوقت وسورية ترفض قيام منظمة تحرير ثانية .. كان ـ وصدقنى فى ذلك ـ

بإمكان سورية أن تقوم بانشقاق اكبر ، وان تشكل منظمتى تحرير ، ولكن سورية رفضت ذلك ، **وقالت منظمة تحرير واحدة هى ممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى :** والآن شارك الجميع فى عملية التسوية السلمية فى المحادثات الثنائية.. سورية ومنظمة التحرير وأنا سعيد بذلك **وأقول:** إن التنسيق بينهم جيد مع مصر ، ومع الأردن أيضا جيد ومع لبنان وآمل أن يستمر هذا التنسيق ، لأنه الآن بدون التضامن العربى ، بدون موقف عربى موحد فلن يأخذوا شيئا من اسرائيل .. اسرائيل متعنتة بالأرض ، ويرفض الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، لذلك فالسلاح الوحيد فى يد العرب الآن لكى يحصلوا حقوقهم فى المفاوضات الثنائية ، ولكى يكون لهم موقع مناسب فى العالم الجديد الآن . لأنه لم يعد هناك اتحاد سوفيتى ، والعالم الجديد يتشكل ، والعالم الجديد يتعامل مع أمريكا ، فإذا لم يكن العرب متحدين فليس لهم موقع فى هذا العالم الجديد ، **وأنا أؤكد لك أن الرئيس الأسد مازال حتى هذه الساعة وسيظل قائدة عربيا قوميا ، يرى فى فلسطين قضيته الأولى والأهم** ، ويعد الوحدة العربية ، والعلاقات العربية ، وبشكل خاص مع مصر هى الأساس فى التحرك العربى السليم للطريق إلى قيام وحدة عربية ، وتنسيق عربى كامل ، ومصر الدولة الشقيقة الكبرى بدونها ثبت ان العرب لا يستطيعون أن يتحركوا كثيرا إلى الاحسن .

الحل الانفرادى

أصبح واضحا للجميع أن الحل الانفرادى لا يمكن أن يأتى بسلام ، وهو مرفوض ، وأضرب مثلا على ذلك ،وهو كامب ديفيد .. مصر هى الدولة الكبيرة وافقت على اتفاقية كامب ديفيد مع اسرائيل وبقى الاردن ، وسورية ولبنان ، ومنظمة التحرير خارج هذه الموافقة .. فكانت النتيجة أنه لم يحدث سلام . ولذلك فإن الرئيس الأسد قال : إنّ السلام إنْ لم يكن شاملا للجميع فلن يكون هناك سلام ، وهذا مؤكد ، اسرائيل تحاول دوما الانفراد بالقوى العربية قوة قوة ، تريد الآن الانفراد بالفلسطينيين عن طريق حكم ادارى ، وليس حكما ذاتيا .. ما تعرضه اسرائيل هو حكم ادارى من ١٨ شخصا مُنتخبين يديرون أمور الصحة .. التعليم .. الشرطة .. الخ وليس حكما ذاتيا يؤدى إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة ، اسرائيل تريد الآن أن تنفرد بالفلسطينيين ، وهذا مزعج جدا .. **لذلك سورية تنادى بالحل الشامل** ، وأنا معها فى أن يكون الحل شاملا للجميع ، أى أن يشمل جميع جبهات الصراع اللبنانية ، والسورية ، والأردنية ، والفلسطينية ، وأن تستعاد الحقوق الوطنية العادلة ، والمشروعة ، وهى حقوق الحد الأدنى للشعب الفلسطينى « حق العودة ، وتقرير المصير ، والدولة المستقلة » .

حافظ الأسد مع الحل الشامل حتى العظم . لا يمكن أن يقبل بحل منفرد مهما كان ،

ولذلك كان قوله : القدس قبل الجولان ، وقوله بأن الحقوق الفلسطينية قبل الحقوق العربية ، وأهم ، ولذلك هو يعنى ما يقول لأن القدس قبل الجولان ، وأن القدس يجب أن تعود عربية ، وعاصمة للدولة الفلسطينية ، وهذا أهم له من أى شىء آخر ، مع اعتزازه الكبير ، وحرصه الكبير على الجولان كجزء لا يتجزأ من الأرض العربية السورية .

تقترب السياسة السورية أو تبتعد مع أى دولة بمدى اقتراب هذه الدولة ، أو بعدها عن القضية الفلسطينية .. ويدلل خالد الفاهوم على تأكيد هذه الحقيقة بقوله :

العلاقة بين سورية ، وايران كانت علاقة سيئة .. متوترة .. عندما كان يحكم ايران الشاه ؛ والسبب فى ذلك بسيط لأن الشاه كان حليفا ، وصديقا لاسرائيل،وكان يرى أن الموضوع الفلسطينى ، والموضوع العربى ليس على جدول أعماله ، ولكن عندما قامت الثورة الاسلامية فى ايران تحسنت العلاقة بين سورية، وايران كثيرا لأن ايران اعتبرت قضية فلسطين أيضا قضيتها .. هى قضية المسلمين ، والعرب ، فتحسنت العلاقة بسبب تغير الموقف الايرانى تجاه فلسطين .

ثانيا : فى كل علاقاته مع أى دولة مهما كانت هذه الدولة يؤكد الرئيس الأسد دائما على الحقوق الفلسطينية وإذا الدولة التى يتفاوض معها رفضت هذه الحقوق ، فإنه لم يكن ليقيم معها أى علاقات ، ويرفض حتى استفادة القطر العربى السورى من التبادل التجارى ، والتبادل الاقتصادى مع بعض الدول لأنها كانت تدعم الكيان الصهيونى .

سورية دائما تغلب قضية فلسطين على أى قضية أخرى.

مصر هى القوة العربية الكبرى

الرئيس الأسد منذ أن كان طالبا فى الدراسة الثانوية آمن بالوحدة العربية ، وبالعلاقات العربية ، وكان إيمانه بمصر لا يتزعزع ، وكان ينظر إلى مصر دوما على أنها القوة العربية الكبرى التى بدونها لا يمكن للعرب أن يقطعوا مسافات واسعة إلى الامام ، لذلك حرص على أن تكون علاقته بعبدالناصر جيدة جدا ، واذكر هنا حادثة .. كنا مع عبدالناصر أثناء انعقاد القمة فى فندق هيلتون بعد مذابح الفلسطينيين فى الأردن ، وكان حافظ الأسد وزيرا للدفاع ، فتكلمنا عن ضرورة وقف القتال فى الأردن ، وايجاد حل للخلاف الفلسطينى الاردنى ، وقلت للرئيس عبدالناصر : إن فى سورية حافظ الأسد وزير الدفاع ، وموقفه مثل موقفك ، وهو يدعو لايجاد حل سلمى للخلاف الفلسطينى ـ الأردنى ، وهو يؤمن بالهدف .. فقال لى عبدالناصر : مع الأسف سورية فيها رجل واحد متسلط هو صلاح جديد ، ونحن نعرف الكثير عن وطنية حافظ الأسد ، ولذلك نؤيده ، وأثبتت الأيام أن فى سورية رجلاً قويا للغاية،هو حافظ الأسد .. الذى كان يريد دائما

علاقات قوية مع مصر ، ويؤمن بهذه العلاقات ، وكان يريد حتى الوحدة مع مصر ، ومازالت حتي الآن ـ والحمد لله ـ العلاقات جيدة والعلاقات قوية ، والحقيقة بدون مصر ، وسورية لا يستطيع الفلسطينيون ، ولا العرب ان يحققوا شيئا من حقوقهم ، العادلة التى يقرها المجتمع الدولى .

سورية ، ومصر إذا ارتبطتا بعلاقات متينة ، وقوية تدفعان الأمة العربية قُدُما إلى الأمام وإذا كانت علاقات سورية، ومصر متعكرة فإنها تنعكس بالسوء على قضايا العرب جميعا ، وبشكل خاص على قضية فلسطين .. الرئيس الأسد يحترم الرئيس مبارك كثيرا ، وهو على استعداد للتعاون معه إلى أبعد الحدود لخدمة القضايا القومية للأمة العربية .

نماذج لإنسانيات الأسد

ويضيف الفاهوم : قبل اشهر توفى لنامناضل فلسطيني، وصديق هو الأخ عبدالمحسن ابو ميزر ، فما كان من الرئيس الأسد إلا أن وضع كل إمكانيات سورية تحت تصرفنا لاجراء الدفن والتأبين بشكل مناسب ، وأرسل مندوبه ، وقام بكل الدعم لعائلته ، وعرض عليهم كل ما يشاءون ، وهذا لا يحدث فقط بالنسبة لعبدالمحسن أبو ميزر ، بل بالنسبة لكثير من الفلسطينيين .

المعروف عن حافظ الأسد أنه رجل وفى لا يمكن أن ينسى اصدقاءه ولذلك يحافظ على الود ، وعلى الصداقة ، وهذا ينطبق على الفلسطينيين ، **وأكبر ناحية إنسانية هى :** إنه لا ينظر للفلسطينيين على انهم شعب آخر ، نظرته للفلسطينيين هى كنظرته لأبناء سورية لا يفرق بين سورى ، وفلسطينى .. الفلسطينى السيىء مثل السورى السيىء ، والفلسطينى الجيد مثل السورى الجيد ، وهو لا ينظر إليهم على انهم شعب غريب ، أو كشعب ضيف بل أنه ينظر إليهم كأهل البلد مثل باقى السوريين تماما .

وكل هذه جوانب إنسانية نقدرها للرئيس الأسد أفضل تقدير ، فهو يساعد الكثير من العائلات الفقيرة سرا ، ويدعم الكثير من الناس الذين كانوا فى وضع جيد ثم ساء وضعهم ، فهو لا يقصر أبدا ، وهو يتعامل معهم بشكل إنسانى واسع .

٧

قراءة فى فكر الأسد

أزمة الخليج

وكبرياء الفارس

- □□ جهود الأسد فى سبيل الوحدة والوفاق العربى.
- □□ لقاء الأسد وبوش.
- □□ رسالة الأسد الى صدام حسين.
- □□ سورية فى مواجهة نتائج كارثة حرب الخليج.
- □□ اعلان دمشق.

□□ فى ظل الاحساس العميق بالمسئولية القومية ، ومتطلباتها ، وفى إطار المبادىء التى آمن بها فى صدر شبابه ، وفى طليعتها الوحدة العربية **تتابعت مبادرات الرئيس حافظ الأسد من أجل تحقيق الوحدة** ، فالوحدة العربية هدف سقط دفاعا عنه مئات الشهداء الذين خضبوا بدمائهم الارض العربية ، وصولا إلى هذا الهدف ، آمن حافظ الأسد بأن العرب أمة واحدة ، وبأن قوميتهم واحدة ، وهذه القومية فى معناها البسيط الذى أدركه وقتئذ هى الشعور الذى يجمع شمل الشعوب التى تسكن الوطن العربى الكبير ، والتى تتكلم اللغة العربية ، والقومية العربية ليست خيالا ، ولا مبدأ مصطنعا مجردا من الدعائم والأسس التى تثبته وتؤيده ، وإنما هى حقيقة واقعة منذ اقدم العصور ، ولعل أكثر الشعارات التى جذبت حافظ الأسد للانخراط فى حزب البعث ذلك الشعار الذى يقول (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) ، وكان إيمان حافظ الاسد ، ولا يزال بأن الامة العربية هى اكثر أمم الارض التى توافرت واجتمعت لها كل العناصر والأسس التى لا توجد القومية إلا بها ، فاللغة الواحدة ، والتاريخ المشترك قد توافرا بصورة واضحة للأمة العربية .

ولقد وحدت اللغة العربية الفصحى ، وربطت بين العرب قبل نزول القرآن الكريم ، ثم ظهر الاسلام ، ونزل القرآن بهذه اللغة ، وقد تضمن آيات كثيرة تشير إلى هذه الحقيقة ،

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾، وفي موضع آخر يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾

كذلك فإن من أهم عناصر القومية العربية بعد اللغة، وهو التاريخ، الذى يعد بمثابة شعور الأمة وذاكرتها، هى تاريخ مشترك بالنسبة للعرب، وكثيرا ما وجه الرئيس حافظ الأسد إلى ضرورة دراسة التاريخ مؤكدا إن الأمة التى لا تحرص على تاريخها، وتُقَلِّب الطرف دائما فى ثناياه لتستمد منه القوة وتستفيد بما فيه من عبر، مثل هذه الأمة التى تنسى، أو تتجاهل تاريخها تفقد بهذا المسلك شعورها القومى، ويتزعزع كيانها، ولا يمكن أن تَسْلم شخصيتها، ويستقيم كيانها، ويتوطد إلا إذا استعادت تاريخها، وتذكرت أحداثه، وهذا الذى وجه به حافظ الأسد يؤيده الواقع الملموس، فالدول المستعمرة تحارب دائما تاريخ الأمة المحتلة، وهدف هذه السياسة القضاء على تاريخ الأمة، وبالتالى القضاء على تراثها القومى وشعورها بذاتها، والحركات القومية تبدأ دوما بإحياء تاريخ الأمة القومى، وتذكير أبنائها بماضيهم المشرق، وأمجادهم القديمة، لكى يتسنى دعوتهم إلى استعادة الثقة بأنفسهم والإيمان بقوميتهم، والتخطيط لمستقبل كريم لأمتهم، وهذه الدعوة إنما تستمد قوتها من تاريخ الأمة بما ينطوى عليه من أمجاد ومفاخر.

ويذكر زملاء الرئيس حافظ الأسد فى مرحلة الدراسة العسكرية أنه أعد سلسلة من الدراسات، والبحوث ناقشها مع زملائه، والتقت كلها على حقيقة مؤكدة هى أنه لا نجاة للعرب مما يتهددهم إلا بالتمسك بقوميتهم، وبالحفاظ عليها إذ أن هذه القومية تهدف إلى الوحدة، وتحرير الوطن العربى الكبير من الاستعمار بمختلف اشكاله، وبناء اقتصاد قومى فعال، وتنظيم تعامل رأس المال الوطنى مع رأس المال الأجنبى على أساس التبادل العادل من الخدمات، والمنافع، وبناء مجتمع تسوده الحرية وتسيطر عليه العدالة الاجتماعية، وتتحقق فيه الكرامة الانسانية.

كان الرئيس الأسد يرى فى صدر شبابه أن طريق الوحدة ملىء بالعقبات، وهذه العقبات بعضها خارجى، وبعضها داخلى كامن فى الوطن، والعقبات الخارجية تتمثل فى الاستعمار، والصهيونية، والعقبات الداخلية تنحصر فى النزعات الاقليمية، والطائفية، والاعتبارات الشخصية، وكان يرى أن القضاء على العقبات الداخلية والخارجية يتطلب تضامن أبناء الأمة، وتوحيد كفاحهم، والنضال المستمر حتى النصر. كما يرى أن اتساع نطاق الوعى القومى المستنير هو الذى يقضى على مختلف النزعات (المعرقلة للوحدة).

بصمات واضحة

وفي إطار هذه الحقائق فإن بصمات الرئيس الأسد على محاولات تحقيق الوحدة العربية، والتضامن العربي واضحة، ولذلك لم يكن غريبا ان يبادر بعد تسلمه رئاسة الجمهورية بأيام إلى إعلان اتحاد الجمهوريات العربية مع مصر، وليبيا تجسيدا لايمانه العميق بالوحدة العربية، وإعادة التفاعل القومي الذي كان بين سورية ومصر عام ١٩٥٨.

وهنا تجدر الاشارة إلى انه في فترة السبعينات أعلن الرئيس حافظ الأسد: أنه مستعد أن يعلن أي شكل من أشكال الوحدة مع الأردن الشقيق، مؤكداً أن اختلاف النظم بين البلدين لا يمكن أن يكون عائقا، ولقد أنشئت الكثير من الشركات المشتركة بين الاردن وسورية، وبالرغم من الجراح التي كان يعانيها من النظام العراقي، فلقد داس على هذه الجراح بكبرياء الفارس البطل، **وذهب الى العراق ليلتقي بالرئيس السابق أحمد حسن البكر، ويبحث معه التنسيق، والوصول إلى ميثاق العمل الوطني عام ١٩٧٩**، وهو الميثاق الذي انقض عليه صدام حسين في انقلاب مشهور بعد أشهر. قليلة من توقيعه، لم يتوان الرئيس الأسد، ولم يكل من الذهاب في مشرق الوطن العربي، وفي مغربه للبحث عن أي وسيلة للتضامن العربي، وتحت أي صيغة ممكنة، صيغة تضع العرب في أي شكل من أشكال التضامن والوحدة، **لم ينطلق حافظ الأسد في مسعاه بحثا عن مجد شخصي، أو مكسب مادي**، وكان يرى، ولا يزال أن دوره كرئيس لسوريا سوف ينهيه عندما تتحقق الوحدة العربية، وتكون هناك دولة عربية واحدة مؤكدا انه لا يجوز اطلاقا أن تكون مصلحة اي اقليم، أو اي رئيس عقبة تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، والمجيد، **ولا يمكن لأحد أن ينسى مبادرات الرئيس الأسد وجهده المشهود به أثناء الحرب العراقية الايرانية** داعيا إلى إنهاء هذه الحرب واطفاء لهيبها، لانها كادت أن تودي بالخليج العربي كله، واستطاع بجهد لازالت تفاصيله في طي الكتمان أن يحجم هذه الحرب تمهيدا لإنهائها، لأنه كان يرى أن هذه الحرب لا تفيد ايران، ولا العراق، ولا الأمة العربية، ولا الأمة الاسلامية، ولقد صدقت نبوءته التاريخية عندما أكد على هذه الحقيقة، حقيقة أنه لن يخسر من استمرار هذا الحرب إلا العرب، والمسلمون، ولن يستفيد منها إلا أعداء العرب والمسلمين، وبالفعل فإن هذه الحرب الظالمة لم تحقق اية نتيجة، وخسر البلدان خسارة كان يمكن أن تكون اضافة قوية وقدرة لصالح الأمة العربية، والأمة الاسلامية.

ولقد بذل مع الرئيس حسني مبارك جهودا كبيرة لتجنيب العراق الكارثة التي حاقت به من جراء مغامرة صدام في احتلال الكويت، **كما بذل، ويبذل الكثير من الجهد لمساعدة الشعب الليبي على اجتياز محنته بعد قضية (لوكاربي)**، ونستطيع

أن نقول إن بصمات الرئيس الأسد على العمل العربى القومى والوحدوى واضحة حتى أن بعض الصحفيين العرب **أطلقوا عليه (حكيم العرب) لبعد نظره ، وإيمانه بحتمية انتصار الأمة العربية .**

الأسد وأزمة الخليج

فى أعقاب اعلان وقف قرار الحرب العراقية الايرانية فى ١٩٨٧/٧/٢٠ ، وهى الحرب التى استمرت ثمانى سنوات شغلت فيها العرب عن قضاياهم الاساسية ، واهدرت فى أتونها آلاف الأرواح ، ومليارات الدولارات ، وحطمت المنشآت العسكرية ، والاقتصادية تاركة غصة مؤلمة فى الوجدان العربى لا يعرف أحد متى ستنتهى آثارها ، فى أعقاب هذا القرار ، بدأ النظام العراقى فى اطلاق التصريحات الرنانة ، بدأ بادعائه أنه سيحرق نصف اسرائيل بالكيماوى المزدوج ، ثم إعلانه عن امتلاكه لأسلحة فتاكة بصورة جعلت اسرائيل وأبواق دعايتها تتصنع الخوف من التصريحات العراقية الطنانة ، لجلب مزيد من المهاجرين اليهود ، والحصول على اهم المعدات العسكرية ، والمالية ، والتأييد الدولى الكثيف لها باعتبار أنها (حمل وديع يعيش بين الذئاب العربية) **ونجحت الدعاية العراقية فى أن تقنع بعض العرب السذج بأن العراق بمفرده أصبح قادرا على انتزاع الحقوق العربية بالقوة** ، وسرعان ما تبين أن هذه التصريحات التى كان لها دوى الطبول لم يكن لها من هدف إلا صرف الأنظار عما يُعد له من غزو الكويت ، واحتلالها فى الثامن من آب / اغسطس عام ١٩٩٠ .

بالطبع فإن المجال لا يتسع إلى الحديث عن جذور الازمة ، والنتائج التى ترتبت عليها لأن كل الحقائق حول هذه المسألة اصبحت معروفة لابناء الشعب العربى فى كل مكان ، ولكن هذه المعرفة لا تمنع من ضرورة الوقوف على بعض الحقائق المتصلة بالاجتياح العراقى للكويت .

فمن جهة جاء الاجتياح فى وقت كان فيه المناخ الدولى الجديد المتمثل فى انتهاء الحرب الباردة يخلق معطيات جديدة تتطلب من الأمة العربية التعامل معها بأسلوب وتفكيرجديدين،فالمتغيرات التى جرت فى اوربا الشرقية ، ومناطق اخرى من العالم أخذت تشكل واقعا جديدا كان لابد للعرب معه أن يفكروا فى السير بحركة متوازنة دون أن يفقدوا خلالها الثوابت الاستراتيجية التى تحقق أهدافهم ، وعلى أساس هذا الوعى للعالم بدأ يظهر فى الأفق تباشير امكانية تحقيق شكل من أشكال التضامن العربى القادر على إيصال صوت عربى موحد إلى العالم سواء فيما يتعلق بقضية الصراع العربى الاسرائيلى ، أو فيما يتعلق فى التعامل مع التكتلات الاقتصادية الجديدة ، وتوظيف هذه

التحركات فى دعم الانتفاضة التى ظلت تتصاعد داخل الأراضى المحتلة ، ونجحت فى ازالة الغشاوةالتى جهدت اسرائيل فى وضعها على أعين الرأى العام العالمى .

من جهة ثانية كانت الأزمة اللبنانية تسير فى اتجاه الحل بعد أن تم توقيع وثيقة الوفاق الوطنى بين الأطراف اللبنانية فى الطائف ، وهى الوثيقة التى ما كان لها أن تصدر لولا التحرك السورى النشط ، والواعى بالتعاون مع دول عربية عديدة .. لقد استطاعت سورية التى كانت تدرك بدقة أبعاد اللعبة على الساحة اللبنانية أن تحافظ على عروبة لبنان ، وأن تحبط كل المؤامرات الطائفية التى تجعل من اسرائيل أول المستفيدين من التمزق اللبنانى . **وهذا الاقتراب نحو حل الأزمة اللبنانية أحدث قلقا بالغا لدى صدام حسين الذى كان يرى أن الوصول إلى حل المسألة اللبنانية انتصار لسياسة الأسد ، فما كان منه إلا أن دعم الانفصالى العماد ميشيل عون** ، وارسل إليه كميات هائلة من الأسلحة المتنوعة لتخريب الوفاق اللبنانى ، الذى يتبلور بشكل فعلى فى ظل الرعاية السورية الأخوية للجار الشقيق لبنان .

ومن جانب ثالث كان صدام حسين قلقا مما يحدث من محاولات لتنقية الأجواء العربية ، وانهاء الخلافات بين الأشقاء ، ثم قرار بعض الدول العربية بإعادة علاقاتها مع ايران .

كل هذا بالاضافة إلى القلق من التقارب المصرى السورى ، وعودة الجامعة العربية إلى مقرها الدائم بالقاهرة وفقا للمادة العاشرة من ميثاق الجامعة العربية .

كل هذه البوادر الايجابية بدأت تعيد إلى المواطن العربى الشعور بالثقة بالنفس ، والأمل فى امكانية مواجهة المخاطر الناشئة عن المتغيرات الدولية التى أخذت اسرائيل تستثمرها على نحو يهدد مستقبل الأمن العربى برمته ، وذلك من خلال تنفيذ جريمة العصر بتهجير مئات الألوف من يهود الاتحاد السوفيتى ، والدول الشرقية بالاضافة إلى يهود الفلاشا ، وكان لتصاعد حمى الاستيطان لدى الاسرائيليين القدامى والمهاجرين الجدد أبلغ الأثر فى جعل المسئولين الاسرائيليين يتحدثون صراحة عن اسرائيل الكبرى فى ظل المناخ الدولى الجديد واعادة العلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل ومعظم دول أوربا الشرقية ، وبدء تسللها إلى المؤسسات الاعلامية ، والاقتصادية ، والسياسية لهذه الدول .

فى اطار هذه المعطيات جاء اجتياح القوات العراقية للكويت ، وكان له وقع الصاعقة فى نفوس جماهير الأمة العربية . **وكان لهذا الاجتياح فى سورية صدى خاص** ، فقد سبق أن تنبأت بحدوث مثل هذا الأمر ، وحذرت من المؤامرات الخبيثة التى يبيتها صدام حسين لجيرانه العرب ، وثبتت صحة الرؤية السورية . **وفور وقوع الاجتياح العراقى للكويت بدأ الرئيس حافظ الأسد يبذل جهودا حثيثة لتطويق أبعاد المؤامرة الجديدة** ، فوجه منذ الساعات الأولى للغزو دعوة للرؤساء ، والملوك ، والأمراء العرب إلى

عقد اجتماع طارىء على مستوى القمة بهدف وقف التدهور بكل الوسائل الممكنة لتطويق كل أبعاد الأزمة التى افتعلها صدام ، والوصول إلى حل عربى لهذه المشكلة الخطيرة ، وبدأت الأحداث تتفاعل فى منطقة الحدث ، وعلى المستوى الدولى ، وعقد اجتماع طارىء لمجلس الجامعة العربية فى القاهرة حضره وزراء الخارجية العرب يومى الثانى والثالث من آب/ اغسطس وتوصلوا بعد مناقشات طويلة إلى اصدار قرار يدين العدوان العراقى على الكويت ، ويطالب النظام العراقى بانسحاب غير مشروط لقواته من الكويت لتفويت الفرصة على الطامعين فى الاراضى ، والثروات العراقية ، وحتى لا يكون هناك حجة لاستجرار القوات الاجنبية الى منطقة الصراع .

وفى العاشر من أغسطس/ آب ١٩٩٠ انعقد مؤتمر القمة العربى ، حيث بذل الرئيس الأسد ، وبالتعاون مع الرئيس مبارك ، والقادة العرب جهدا استثنائيا للارتفاع إلى مستوى الحدث ، والتركيز على حفظ الخلاف ضمن الأسرة العربية ، واقناع النظام العراقى بالخطر الذى يهدد الجميع وضرورة إنهائه للغزو .

وقد ألقى الرئيس الأسد فى مؤتمر القمة الذى انعقد فى القاهرة بتاريخ ١٠ آب أغسطس ١٩٩٠ خطابا بين فيه ابعاد الخطر المحدق بالأمة العربية كلها ، **ودعا إلى حل المشكلة ضمن الأسرة العربية الواحدة انطلاقا من الحرص على مستقبل الأمة العربية كلها** ، والخروج من المحنة بأقل الأضرار الممكنة ، انطلاقا من الانحياز للأمة العربية بكل اجزائها ، وليس لبعض اجزائها ، **وأوضح الرئيس الأسد أن سورية لم تبع ، ولم تساوم ، ولا تنوى أن تفعل ذلك فى المستقبل بالنسبة لقيمها ، ومبادئها التى هى قيم العرب جميعا** ، لانها قيم التراث ، قيم الماضى العريق ، بكل ما يحمله هذا الماضى من مفاهيم معنوية ، ومن مدلولات مادية .

وقد اختتم المؤتمر أعماله بإصدار القرار رقم (١٩٥) باغلبية ١٣ صوتا ، ومعارضة صوتين ، وامتناع الباقى عن التصويت ، وتغيب تونس ، أدان فيه العدوان العراقى على دولة الكويت الشقيقة ، وعدم الاعتراف بضم الكويت ، والمطالبة بإعادة النظام الشرعى الذى كان قائما فى الكويت قبل الغزو العراقى ، وتأكيد سيادة الكويت ، وسلامته الاقليمية .

لقد كانت مواقف الرئيس الأسد منسجمة مع الخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر ، وبتاريخ ١٩٩٠/٨/١٤ بدأت قوات سورية فى الانتشار فى الأراضى العربية السعودية ، وكانت مصر قد أرسلت قوات مصرية للهدف نفسه ، بعد ذلك كان الرئيس الأسد قد حضر حفل تخريج دورة المظليين فى ١٩٩٠/٩/١٢ حيث ارتجل كلمة قدمت شرحاً وافيا لموقف سورية من الغزو العراقى للكويت وقد كانت هذه الكلمة فى توقيتها ، ومضمونها رسالة إلى كل عربى تُبصّره بنذر الكارثة التى تنتظر العرب اذا لم تتم إزالة الغزو .

وترشده إلى الطريق القويم فى مواجهة هذه الأخطار. **ونظرا لأهمية هذه الكلمة فإننا نورد بعض فقراتها:**

« أن سورية بشعبها العظيم ستظل قلعة حصينة تدافع عن نفسها، وعن أمتها.. تكشف الزيف حيثما رأته، وتكشف التضليل إينما وجدته لا تهتدى فى سيرها إلا بالمصالح العامة للأمة، أما المصالح الضيقة، والنزوات الشخصية، والدوافع الخفية فلم تحكم سير سورية فى الماضى، ولن تحكم سيرها فى المستقبل، لم نجامل فى الماضى، ولن نجامل فى المستقبل، ولن يستطيع أحد تضليل رؤيتنا أبدا عبر حياكات متداخلة الأشكال والألوان، فشعبنا خبرته الأيام، والتجارب، خبرته الأزمات، والمصاعب، وامتلك القدرة على فرز الألوان والأشكال بعضها عن البعض الآخر ليتبين الغث من السمين، وليرى العام ويميزه عن الخاص، وليرى كما يرى اليوم التناقض بين المظهر والمضمون جليا تماما.

إن ما يحدث فى الخليج مؤلم.. محزن لكل عربى.. ما يحدث عشش فى الأذهان، وعاش ويعيش مع العرب الآن فى قيامهم، وفى نومهم.. خوفهم بعضهم من البعض الآخر.. خوف العربى من العربى، خوف الشقيق من الشقيق.. هو شاغل الناس.. هو الشاغل الأساسى.. بل هو الشاغل الأوحد عند الكثيرين.

أما القضية الفلسطينية فقد تراجعت، ولم تعد أولى اهتمامات بعض العرب، بل أغلب الظن أنها لم تعد فى سلم اهتمامات بعض العرب، ومما لاشك فيه أن من العوامل الهامة التى ساعدت فى تراجع هذه القضية هو اقحام بعض القيادات الفلسطينية طرفا فى الصراع بين العراق، والكويت، وبالتالى بين مؤيد للغزو، والضم، ومعارض لهما.

فى حدث خطير كهذا، فى حدث عربى خطير كهذا، هل يمكن أن تقف سورية متفرجة لا رأى لها، سورية التى لا رأى لها هى سورية غير موجودة، وهذا لا نرضاه لأنفسنا، ولا يتوقعه أحد منا، خاصة أن القضية تعنينا وتعنينا فى الصميم، لأنها تهدد أمتنا بمبادئها، وقيمها، ومصالحها، ومن هذه المبادىء، والقيم، والمصالح، وعلى أساسها يكون الرأى السورى، ويكون الموقف السورى.

« **نحن لا ننحاز إلى هذا، أو ذاك، لا ننحاز إلى القوى، أو الضعيف، ولكننا ننحاز إلى الحق القومى**، والحق القومى كما أعنيه هو محصلة مبادىء، وقيم، ومصالح الأمة منسجمة، ومتناغمة مع القوانين، والأعراف الدولية العادلة التى أجمعت عليها الشعوب، وكانت ثمرة كفاح طويل خاضته البشرية على امتداد حياة البشر، وهذا الحق القومى يرتب أساسا للعلاقات العربية، منها أن الخلافات العربية تحل بالحوار لا بالنار، وهذا ما لم يحدث بين العراق، والكويت بل العكس تماما.

ولكن القول الذى استقر الرأى عليه أخيرا، ويجرى ترديده بشكل مستمر، ويُتَمَسك

به من قبل اخواننا فى العراق أن عملية الكويت ، واجتياح الكويت هى عملية تصحيح تاريخى ، انه تصحيح للتاريخ لأن الكويت كما قالوا : كانت جزءا من العراق ، ويجب أن يعاد الجزء إلى الكل ، وأن يعاد الفرع إلى الأصل ، وقد أعيد الآن ، وانتهى الأمر .

إن سورية ترى أن تصحيح ما اعوج من التاريخ العربى أمر مطلوب ، ومرغوب فيه ولكن ليس بالفرض ، ليس بالقسر ، ليس بالقهر ، بل بمشاركة الأطراف فى الرؤية والفعل ، والا يكون الأمرُ اعوجاجا آخر أضيف إلى اعوجاج سابق أو أضيف إلى اعوجاجات سابقة ، من المؤسف أيها الرفاق هذا الواقع العربى الذى نرى فيه من يؤيد غزو دولة عربية .. دولة عربية أخرى ، **من المؤسف أن نرى هذا الواقع العربى يبتعد عن المشكلة الحقيقية عندما يتحدث عن اللحظة الراهنة ، وعن الظروف الحاضرة ، وعندما يتحدث إلى ما كان وما يجب أن يكون ، فبدلا من أن يشير إلى المشكلة بعينها يحاول أن يبتعد ويتحدث عن نواتج المشكلة ، وافرازاتها ، ويجعل من هذه النواتج ، والافرازات أصل المشكلة ، وهو يعرف بطبيعة الحال غير ذلك** ، وإذ أقول أنه يعرف غير ذلك فإننى أشير إلى بعضهم ، وأنا أدرك أن الكثير من الذين يقعون فى هذا الخطأ ، ويتحدثون عن المشكلة بغير حقيقتها ، وبغير ابعادها ، اكثر هؤلاء ابرياء تقود آراءهم بعض من مودة ، أو عواطف نحو هذا الطرف ، أو ذاك ، هؤلاء لا أركز اللوم عليهم الآن ، وإن كنت أطالبهم بمزيد من الروية ، والوعى والتبصر ، والتمعن ، والبحث عن الحقائق ، وعن الطرق المجدية القومية التى تخدم الأمة بمجموع اقطارها ، والتى ترسخ الانتماء القومى ، وتبعدنا عن التباعد القومى ، تساعد على التئام الجراح ، ولا تخلق ، وتعمق جراحا جديدة ، هذا ما أطالب به هؤلاء ، أما الذين يعرفون الحقائق ، والطرق المفيدة ، ويتحدثون بعكسها ، فهؤلاء الذين أقول لهم دعونا نحكم الضمائر ، وننظر إلى المستقبل ، يجب ألا ندع المصالح القريبة المباشرة الصغيرة تهزنا من الأعماق ، تغلق احساسات الضمير ، وتفتت الأمة أرضا ، وجماهيرا فى المستقبل .

فالأطماع من كل صوب ، والطامعون من كل صوب ، فلنتجنب الجهل والجهالة ، ولنتجنب جاهليتنا العربية ، والتى جاء الاسلام ليكافحها ، ويطهر نفوسنا منها .. واننى أرى ، وأحس ، ويحس كل مراقب عربى اننا نكاد نلج أبواب العودة إلى هذه الجاهلية ، مع ادراكنا أن جاهلية اليوم ـ ان عشناها ـ فهى بحكم التطور ابعد أثرا ، واشد خطرا بكثير كثير من جاهلية الأمس .

نحن لسنا مع القوات الأجنبية ، سورية ليست مع وجود قوات أجنبية فى أى مكان من الوطن العربى ، هكذا كانت فى الماضى ، وهكذا سورية الآن ، ولكن مشكلتنا الملحة ليست القوات الأجنبية ، فقد بدأت المشكلة قبل أن تاتينا القوات الأجنبية ، **والمشكلة هى التى جلبت لنا القوات الأجنبية . إذن لنحل مشكلتنا وهى مشكلة عربية ـ عربية ، وعندما نحل المشكلة العربية ـ العربية والتى هى احتلال الكويت ، وضم**

الكويت ، بعد الغاء الدولة ، هي السبب الذى أعلنه الجميع من عرب وأجانب الذى بسببه ، ومن أجله ، وبناء عليه جاءت القوى الأجنبية إلى منطقتنا.

يجب الا ينصرف ذهن أحد ابدا إلى اننا فى سورية ننطلق من موقف العداء للعراق ، صحيح نحن مختلفون ، ومنذ زمن طويل ، ولكن موقفنا فى مثل هذه الأمور ـ فى أمور كالأمر الذى نحن بصدده ـ لا يمكن ان ينطلق من موقف خلاف ثنائى ، إنما ينطلق من رؤية تاريخية تبدأ فى الماضى ، وتمتد إلى أعماق المستقبل ، تشمل المصالح العميقة ، والجذرية للأمة ، ونحن ، والعراق جزءان فى هذه الأمة ، ومن هذه الأمة ، إننا ننطلق من الحرص على الأمة بكل أقطارها ، واقول بكل وضوح إننا ما نظرنا إلى المصالح القطرية ، فإن فى قولنا هذا تكمن مصلحة الشعب العراقى قبل مصلحة أى قطر آخر ، مهما يكن الخلاف فيما بيننا فنحن فى النهاية أبناء أمة واحدة .

انني أقول : أن الطريق أمام الغزو طريق مسدود ولا يمكن ان ينجح أبدا ، وطريق الغزو شيء ، وطريق الوحدة العربية شيء آخر ، وفى رأيى أن طريق الوحدة مفتوح ولو جزئيا ، ومع ذلك أيضا فهو طريق طويل ، طريق معبد بالتعب ، بالجهد ، ولكنه معبد أيضا بالاخلاص ، والنوايا الحسنة ، وارادة الجماهير ، فلنسر على طريق الوحدة العربية لا على طريق الضم العربى ، الأول سالك ولو بصعوبة ، ولكن الآخر مغلق بأية وسيلة ، بأى سبيل استخدمناه ، وبغض النظر عن نوايانا ، وعن الأسلحة التى نستخدمها فى تحقيق هذه النوايا ، مادام الطريق هو طريق الغزو ، والضم .

نحن مؤمنون أنه فى النهاية لابد من أن نكون جميعا فى دولة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط ما دمنا أمة عربية واحدة.

وفى اطار التضليل ، أو فى اطار الخطأ عند بعضهم ، **يطرحون كيف يمكن لقوات عربية أن تكون على أرض العربية السعودية ، القوات الأجنبية موجودة فى المملكة العربية السعودية ، تصوروا هذه المغالطة : كيف نكون نحن العرب على أرض العرب إذا كان على هذه الأرض أجانب !!** لأن الأجانب موجودون على الأرض السعودية يجب أن يتركها العرب لهؤلاء الأجانب !! **أليس غريبا أن يدعى البعض أن هذا المنطق هو المنطق القومى ؟!!!**

إن الأمر كمن يمشى مقلوبا على رأسه ، يريدون منا ان نترك الخليج بكامله ، ان نترك عرب الخليج للأجانب الذين هم الآن على أرض الخليج ، ان وجود الأجانب هو حافز إضافى للعرب ، لكى يرسلوا قواتهم ، ومواطنيهم إلى هذه الأراضى العربية ، ولكن فى كل الحالات ، العرب يجب أن يشاركوا فى حماية أى شقيق عربى يشعر بالقلق ، والتهديد من قِبَل شقيق عربى آخر ، ليست الغاية هنا أن نحارب الشقيق الآخر المهدد ، وإنما ان نمنعه من العدوان ، وبهذا نساعده نحن فى هذا ، ونحن فصيل ، أو مجموعة من

المجموعات العربية العسكرية الموجودة فى المملكة العربية السعودية ، وفى الامارات المتحدة إلى جانب قوات عربية أخرى مصرية ، ومغربية ومن دول اسلامية ، **نحن لهذا نقوم بعمل قومي ، وليس بعمل قطرى إلا بقدر ارتباط العمل القطرى بالعمل القومى** ، او ارتباط المصلحة القطرية بالمصلحة القومية ، فنحن قوميون ، نحن الذين نقوم بجرأة وبدون مواربة ، وبدون انتهاز ، بخدمة القومية العربية ، بالعمل القومى ، نحن نقوم بمساعدة الأخ عندما يكون فى ضيق ، نحن نقوم بما يمكن أن يمنع الأخ من الاعتداء على أخيه ، وبالتالى نساعد الاثنين معا ، نحن نقوم بعمل يجعل هؤلاء المواطنين العرب الذين يعيشون فى بلدان الخليج يشعرون أن الأجانب ليسوا هم حماتهم إنما حماتهم ، هم العرب ، حماتهم هم الأقربون ـ نحن وغيرنا من العرب ، وليس الأجانب ، وبقدر ما نكون قوميين حقيقيين يجب أن ندفع بقوى عسكرية اضافية إلى العربية السعودية ، وإلى دول الخليج الأخرى ، إن أرادت ذلك ، **لأن البلدان العربية هى التى يجب أن تحمى العرب** ، وهى التى يجب أن تحل مع الوقت مع نمو هذه القوى ، وتطور الظروف ، هى التى يجب أن تحل محل القوى الأجنبية ، هذا هو الطريق ، وقد يكون اصعب الطرق لاخراج هذه القوى الأجنبية . **هل نسى هؤلاء أن هذه الأرض التى يتحدثون عنها ، ويريدون منا ، ومن غيرنا من العرب أن نتركها أنها أرض عربية ؟! هل نسى هؤلاء أن السكان الذين يعيشون على هذه الأرض أرض الخليج هم أيضا مواطنون عرب ، وعلينا أن نكون إلى جانبهم فى حالتهم التى يشعرون فيها بصعوبة بالغة ؟!** هذا ، اكرر ليس كرها للآخرين ، ليس كرها لأحد من العرب الآخرين وليس حربا نعلنها على العرب الآخرين ، وإنما هى انتصار للجميع ، فنحن ننصر أخانا ظالما أو مظلوما ، ننصر الظالم بمنعه عن ارتكاب ومتابعة الظلم ، وننصر المظلوم بحيث ندفع عنه الظلم .

هذا ما تفعله سورية ، وهذا ما نطالب به كل عربى ، هذا ما يجب على كل عربى أن يفعله .

عندما كنا نقف فى لبنان فى وجه اسرائيل ، والولايات المتحدة ، وبريطانيا ، والقوات الفرنسية ، والايطالية ، وغيرها من قوات الأطلسى كان بعض أشقائنا شامتين ، وكانوا يقومون بأعمال تتناقض جذريا مع المصلحة العربية ، ومع التقاليد العربية ، ومع الخلق العربى ، ومع ذلك نحن لا تعشش فى نفوسنا الأحقاد ، ونحن لن نقف عند هذه الأمور ، سنظل نعطف ، ونتعاطف مع الشقيق ، ونعمل من أجل مصلحته ، كما نعمل من أجل مصلحتنا ، ولكن باقتناعنا ، ووفق رؤيتنا ، لن يجرنا أحد أبدا إلى عكس ما نحن به قانعون ، اننى أدعو الجميع ، وأمد يدى باسمكم ، وباسم شعبنا للجميع أن نضع الأحقاد جانبا ، وأن نقف معا صفاواحدا يرفرف عليه الحب ، ويرفرف عليه وفوقه التعاون ، لنبنى تضامنا عربيا ، ونعمق الأخوة العربية ، وندفع الأعماق الوجدانية

للوحدة العربية على أن ننطلق فى كل هذا من مواقع صحيحة ، ومن خطى أولية صحيحة ، ومن أولى هذه الخطى ألا يكون بيننا معتد ، ومُعتدى عليه ، وأمل وارجو الله أن يهدينا جميعا إلى سواء السبيل .

مباحثات مع ايران

وكان لابد من تدارس أبعاد الخطر مع الجارة المسلمة ايران التى تقع وسط الأزمة فزارها الرئيس الأسد فى ١٩٩٠/٩/٢٢ ، وأجرى خلالها مباحثات مطولة ، وواسعة مع المسئولين فى الجمهورية الاسلامية الايرانية ، ثم صدر فى ختام المحادثات بيان عكس رؤية الرئيسين للمخاطر التى تهدد العرب ، والمسلمين من جراء الأزمة ، كما أجرى الرئيس الأسد اتصالات ومشاورات دولية مع الرئيس « تورجوت أوزال » واستقبل « بريماكوف » المبعوث الشخصى للرئيس جورباتشوف ، وعلى الجانب الآخر كان الرئيس الأسد يُنَبِّه إلى الأساليب التى تلجأ إليها اسرائيل لاستغلال الأزمة ، والحصول على الدعم العسكرى ، والاقتصادى ، والسياسى من الولايات المتحدة .

لقاء الأسـد وبوش

وبتاريخ ١٩٩٠/١١/٢١ قام الرئيس الأمريكى جورج بوش بزيارة للمنطقة زار خلالها **جدة ، وفى ختام جولته وصل إلى جنيف ليلتقى مع الرئيس الأسد ، ويقوم الرئيسان بمناقشة موضوع أزمة الخليج** ، حيث اكد الرئيسان على تنفيذ قرار القمة العربية الطارئة وقرارات الأمم المتحدة القاضية بانسحاب العراق من الكويت ، كما ناقشا موضوع الصراع العربى الاسرائيلى ، وأكدا على ضرورة ايجاد حل شامل ، وعادل ، على أساس قرارات مجلس الأمن وخاصة القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادرين عن مجلس الأمن ، **ومع تفاقم الأزمة تابع الرئيس الأسد تحركاته المكثفة فى كل الاتجاهات بهدف تجنيب العراق ، والأمة العربية المخاطر المحتملة للحرب** ، وكان من هذه التحركات انعقاد مؤتمر قمة رباعى بين رؤساء مصر ، وسورية ، وليبيا ، والسودان فى ٤ يناير ١٩٩١ فى مصراته بليبيا حيث ركزت هذه القمة على هدف وحيد وهو الوصول إلى حل سلمى للأزمة يجنب الأمة العربية الخطر الوشيك ، فى تلك القمة تاكد للجميع أن كل الجهود والوساطات العربية والدولية لم تُجْدِ مع صدام حسين وأنه يقود بلاده والأمة العربية نحو كارثة مروعة خاصة أن مجلس الأمن كان قد أعطى العراق فرصة اخيرة لتنفيذ قراراته تنتهى فى ١٥ يناير ١٩٩١ ، **وكان لابد للرئيس الأسد أن يسمو فوق كل الجراح وفوق كل الخلافات لإنقاذ الأمة العربية من الخطر الداهم ، واتخذ الرئيس الأسد خطوة قومية وتاريخية حين وجه عبر الأثير رسالة مليئة بالمشاعر الأخوية الصافية ،**

والأحاسيس القومية الصادقة إلى الرئيس العراقى، وقد كان لهذه الرسالة أبلغ الأثر فى نفوس أبناء الأمة العربية، وكان الرد المؤسف والمحزن على الرسالة من جانب الرئيس العراقى، صدام حسين.

نص رسالة الرئيس الأسد إلى الرئيس العراقى صدام حسين

فى الثانى عشر من كانون الثانى / يناير عام ١٩٩١ قبل انقضاء المهلة المتاحة بأكثر من يومين توجه الرئيس حافظ الأسد إلى الرئيس العراقى برسالة أخوية ملؤها المشاعر الصادقة داعيا إلى تجنيب العراق والأمة العربية كارثة وشيكة. **وفيما يلى نص الرسالة:**

« **السيد الرئيس صدام حسين. رئيس الجمهورية العراقية**: بمشاعر أخوية صافية، وأحاسيس قومية صادقة، ومن منطلق إدراك الأخطار المحدقة بالوطن العربى عامة، وبالعراق الشقيق خاصة، أتوجه اليكم بهذه الرسالة عبر الأثير حرصا على أن نجنب الأمة والعراق ما لا تحمد عقباه، وكلى أمل فى أن تلقى رسالتى منكم التفهم لحقيقة دوافعى، والاستجابة التى أتوخاها، وفى هذا الظرف الدقيق الذى يجتازه الوطن العربى، والذى ترصده وتتابع تطوراته جماهير أمتنا، وشعوب العالم، وحكوماته باهتمام، وقلق بالغين، لا أجد مدخلا إلى مخاطبتكم أفضل من تأكيد وشائج الأخوة التى تجمع بين شعبينا فى سورية والعراق، وتأكيد اقتناعى بأن حرصنا الدائم فى البلدين الشقيقين يجب أن يتركز فى مواجهة التحديات، والأخطار التى تتعرض لها الأمة العربية.

لقد عزمت أن أتوجه إليكم بهذه الرسالة على رغم ما بيننا منذ سنوات عدة من خلافات فى وجهات النظر وعلاقة غير ودية، أمل فى أن تتبدل إلى ما هو خير وأنفع لبلدينا وأمتنا، فما نحن بصدده يفرض علينا أن نتصارح وأن نتبادل الرأى، فأى أذى يصيب العراق هو فى نهاية الأمر أذى يصيب بشكل من الأشكال سورية والأمة العربية.

وعندما نرى أن العراق يواجه خطرا جديا كما هو الحال الآن، فإن الخلافات بين قطرين شقيقين تضمحل وتزول، لأن ما يجمع بيننا أكبر وأهم كثيرا من أية خلافات ومكاسب آنية تتراءى لنا، هذا إذا صح أن نقول أننا أمام أية مكاسب.

وادراك جدية الخطر يدفع المرء إلى الحديث بالصراحة التى تمر بها الروابط الأخوية والقومية. بيد أنى أبادر من البداية إلى الاعراب عن أملى فى ألا يفهم كلامى على أننى أريد الاحراج، بل أن جل همى أن أخاطب الضمائر، وغايتى أن تتفاعل العقول، والعواطف، وأن تسمو الأفكار، والأفعال إلى ما يحقق المصلحة القومية العليا، ويُفوِّت

على أعداء أمتنا فرصة لا يمكن أن يحلموا بأفضل منها ، لاسيما أن هذه الفرصة تأتيهم بفعلنا وبقرار منا ، ولذلك ينبغى أن نحذفها تماما ، بفعلنا وبقرار منا ، غير مكرهين ولا خائفين من أحد ، بل منطلقين من إيماننا بضرورة هذا الفعل وهذا القرار ، وهذا هو دور العراق الشجاع فى هذه اللحظات . وهكذا لا نسمح لأعداء الأمة أن يجنوا أية فائدة عن طريق استغلال هذه الفرصة .

ومهما كان العربى يمر فى ظروف يعتقد أنها حساسة ، فذلك لا يمنعه من الاستماع إلى صوت أخوانه الحريصين عليه .

ان المصلحة العربية تعنينا ، ومصلحة العراق تعنينا ، فكلانا جزء من الأمة العربية ، ومن هنا تكون الشراكة فى الرأى تنبثق من الشراكة فى التاريخ ، والشراكة فى التراث ، والشراكة فى الحضارة ، والشراكة فى اللغة ، والشراكة فى القيم الروحية ، والشراكة فى الآلام والآمال ، والشراكة فى المصير ، والشراكة فى كل ما يعنيه انتماؤنا إلى الأمة العربية التى انطلقت من أرضها رسالات السماء وبهرت العالم بما قدمت من فكر وعلم ومثل ، وعلى ذلك فإن المشاركة فيما نحن فيه ، قولا وفعلا هى لنا وعلينا حق وواجب .

ومن هنا يصبح واجب الأخ أن يوصل كلمته إلى أخيه الذى بدوره يصبح من واجبه أن يسمع كلمة أخيه بأقوى احساساته وبذهن مفتوح ، لأن كليهما شريكان فى المصير ومن سمع كلمة أخيه ما أصابه خسران ولا خاب عنده ظن .

وإذا كنت أشدد على الخطر الجدى الذى تواجهه الأمة عامة والعراق خاصة ، وادعو إلى تفويت الفرصة على الأعداء ، فلست فى صدد مناقشة وجه الحق ووجه الباطل فى اجتياح العراق للكويت ، فهذه مسألة أخرى ليس هذا مكان ولا أوان مناقشتها ، وإنما المهم فى الظرف الراهن هو ما نواجهه من وضع خطر وخطير يهدد العراق ، ان حرصنا على العراق بأرضه وشعبه كحرصنا على انفسنا لأن العراق جزء عزيز غال من أرض العرب وأمة العرب .

إن المستفيد من الوضع فى هذه اللحظات هى اسرائيل التى تحتل أراضى عربية وتخطط وتعمل للتوسع فى أرض العرب ، وتستفيد من الوضع الدولى الحالى والتناقض العربى ، فى حين أن العرب ، مجتمعين ومنفردين وفى مقدمتهم العراق هم الخاسرون ، ولا أرى أن لأحد من العرب مصلحة فيما يحدث الآن ولا أرى أن للعراق مصلحة فيه .

ان المصلحة الأساسية للأمةالعربية ، وخاصة فى هذه المرحلة التاريخية ، هى فى التماسك والتضامن الحقيقى ، وأن يوفر كل بلد عربى الطمأنينة للبلد العربى الآخر ، حتى ولو كان بينهما خلافات فى موضوع أو أكثر من الموضوعات العربية ، لا أريد أن أصدق أن الشعور عند العرب بوحدة المصير قد زال ، أو أن التضامن بين العرب قد صار فى حيز المستحيل ، بل أريد أن أؤكد أن فداحة الخطر كفيلة بأن تعزز الشعور بوحدة

المصير ، وكفيلة بأن تدفع إلى التضامن العربى ، وإلى حل الخلافات العربية بالحوار لا بالقسر .

واريد أن أؤكد خاصة أن مسئولية العراق ، وسوريا ، ودول عربية أخرى هى المساعدة فى توفير الطمأنينة ، والشعور بالأمن للدول العربية المجاورة لها ، ولو برزت خلافات بين حين وآخر ، لأن هذه الخلافات يمكن معالجتها بالحوار ، وبما يعزز الثقة ويبعد خوف أى بلد عربى من الآخر ، وهذا يساعد فى تعميق روح الأخوة وتحقيق التضامن العربى الفعال ، ويشكل خطوة هامة على الطريق نحو وحدة عربية مستقبلية ، تتحقق بالاقتناع ، وبالايمان بأن خلاص الأمة فى وحدتها .

ان المستقبل أمامنا مفتوح لتوحيد الأمة كلها ، وامتنا امة عظيمة بذاتها وبرسالتها وتراثها وبوفرة امكاناتها ، وهى قادرة على أن تقدم لنفسها ، وللعالم مثلما قدمت فى الماضى من اشعاع روحى ، وفكرى اغتنت به البشرية .

السيد الرئيس صدام حسين :

إن صعوبة الواقع الراهن فى الوطن العربى وتعقيده وما يحمله من أخطار ناجمة عن دخول العراق إلى الكويت ، وضمها بالقوة ، وإلغاء وجود الكويت كدولة مستقلة عضو فى جامعة الدول العربية ، وفى منظمة الامم المتحدة ، وهذا ما لا نعتقد أنه تصرف مشروع ، ولا يحق للعراق أن يقدم عليه ، ولو من وجهة نظر وحدوية لأن أسلوب القوة والعنف ليس بالأسلوب الصالح والملائم لتحقيق الوحدة بل هو سبب لعرقلة أى عمل وحدوى والنفور منه .

فليكن إذن انسحاب العراق من الكويت مقدمة لجو جديد تتلاشى فيه الأخطار الجدية ونقف فيه صفا واحدا ، وقوة واحدة فى وجه كل من يهدد أرضنا ، ومصالحنا وكرامتنا ، ومصيرنا .

وقد يقول قائل ، إنّ العراق سيكون مستهدفا بهجوم حتى لو خرج من الكويت . اننى أريد أن أؤكد فى هذا الشأن عهداً أخويا لاشك فيه : أنه لو حدث ذلك بعد الخروج من الكويت فإن سورية ستقف بكل امكاناتها المادية والمعنوية إلى جانب العراق فى خندق واحد ، تقاتل معه بكل شدة وبأس إلى أن يتحقق النصر .

السيد الرئيس صدام حسين :

مصلحة الأمة فوق كل مصلحة ، وفى سبيلها تهون كل تضحية ، ومواجهة الخطر تكون بالقرار الصائب ، وهذا ما هو منتظر منكم .

وإن قرارا تتخذونه الآن بنزع فتيل الأزمة وتجنيب العراق والوطن العربى أخطار

حرب مدمرة سيسجل لكم أنه عمل شجاع مناسب فى لحظة مناسبة . والله نسأل أن يلهمنا الصواب ، ويهدينا سواء السبيل . والسلام عليكم ورحمة الله
دمشق فى ١٢ كانون الثانى ١٩٩١ .

حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

رد من صدام

وبتاريخ ١٣ كانون الثانى : يناير ١٩٩١ كان الرد المؤسف من الرئيس العراقى صدام حسين الذى أطلق على نفسه اسم (عبدالله المؤمن صدام حسين) ، والذى ادعى فيه أن جيش العراق هو المؤمن الذى لا يستطيع غيره أن يُنازل جميع الكفار.

وإذا كانت رسالة الرئيس الأسد قد عكست واقعية وصوابية الموقف العربى فإن رسالة صدام حسين قد أكدت ديما جوجيته وسوء التبصر والبصيرة لديه ، حيث أصم أذنيه إزاء نصيحة شقيق أسدى إليه النصح الأخوى ، ووقع فى تناقضات قاتلة ..

أكاذيب كشفتها الحقائق

وبالنتيجة فإن رد صدام حسين تعامى عن كل الحقائق ، ولكن هذا لم يحرف سورية عن رؤيتها القومية ، ولم يغير موقفها من شعب العراق وأرض العراق ، والدليل على ذلك تصدى سورية لكل الأطماع الخارجية لدى بعض الدول مثل تركيا فى اقتطاع أجزاء من العراق خلال الحرب أو ما بعدها ، ولم يتوقف جهد الرئيس الأسد لإنقاذ العراق وشعبه وجيشه عند حدود البيانات العلنية ، بل استمر عبر الأقنية الدبلوماسية المختلفة فى الاتصال مع الجهات الصانعة القرار فى العالم بالاضافة إلى الجهود الدولية التى كانت تُبذل لتفادى حصول الكارثة فى الخليج ، **ومرة أخرى بعث الرئيس حافظ الأسد برسائل غير معلنة ، وعلى أعلى مستوى إلى صدام حسين يعرض فيها عليه استعدادسورية للعمل من أجل انقاذ العراق ،** وايجاد مخرج مشرف من الأزمة ، وذلك من أجل اغلاق الأبواب أمام الاحتمالات الأسوأ ، ولقد كشف عن هذه الرسائل بريماكوف المبعوث الشخصى للرئيس جورباتشوف فى سلسلة المقالات التى كتبها عن المهمة التى قام بها فى بغداد وغيرها خلال أزمة الخليج ، وبين هذه الرسائل رسالة هامة يدعوه فيها إلى اعلان قبوله مبدأ الانسحاب من الكويت كى تعملسورية على الدعوة

لعقد مؤتمر قمة عربى يهيىء الأجواء المناسبة للخروج من الكويت ، وحماية العراق من الخطر الداهم ، لكن صدام حسين لم يستجب لهذا المسعى القومى .

نتائج كارثية

ولقد تتابعت الأحداث المأسوية العاصفة حيث أدى تعنت صدام حسين ، واصراره على المضى فى طريق الكارثة الى رفض كل المساعى العربية والدولية لايجاد مخرج معقول ، وتتابعت أحداث العاصفة على النحو المعروف ، ولم يستطع أحد فى تلك الفترة عمل أى شىء ، وكان الهم ثقيلا مدمرا لكل عربى إلى أن كان يوم ٢٨ فبراير عام ١٩٩١ حين أعلن وقف اطلاق النار ، وبدأت مرحلة استيعاب النتائج الكارثية لتلك الحرب المؤلمة التى دفع العراق فيها ، والأمة العربية ثمنا باهظا ، وبغير مقابل ، **ولقد عبر الرئيس الأسد فى ذلك اللقاء عن مشاعره ازاء الوضع الذى آلت إليه الأمور نتيجة الأمور الطائشة لصدام حسين ، ولقد تناول الرئيس الأسد فى كلمته أثناء مأدبة الافطار التى أقامها تكريما للعلماء وأرباب الشعائر الدينية بمناسبة شهر رمضان المبارك بتاريخ ١٣ ابريل ١٩٩١ الآثار والعبر التى خلفتها حرب الخليج ، والجهود التى بذلتهاسورية لتجنيب العراق الذى هو عليه الآن ، وتجنيب سورية والأمة العربية ماكان أعداء العرب يريدونه لها ، مؤكدا أن اسرائيل ، ومن وراءها لم يكن ممكنا أن يحلموا بفرصة ذهبية كالتى قدمها حاكم عربى مسلم، وبصورة مفاجئة.**

عمالة صدام

وفى حوار أجريته مع العماد مصطفى طلاس نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع السورى إبان حرب الخليج ، ونُشر فى صحيفة أخبار اليوم فى عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يناير (كانون ثانى) ١٩٩١ قال وهو يتحدث عن دوافع صدام حسين من خلال معرفته به لاحتلال الكويت وتحدى العالم ، ومعاداة الدنيا كلها بهذا الشكل ، قال طلاس :

« أريد أن أوضح حقيقة هامة لله وللتاريخ وهى أن الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان أول من نبهنا إلى عمالة صدام حسين لأمريكا ، واذكر أننى عندما جئت إلى مصر للمشاركة فى تعزية الشعب المصرى فى استشهاد عبدالمنعم رياض ، وكنت وقتها رئيسا لأركان الجيش السورى ، اننى قابلت الرئيس عبدالناصر بمنزله بمنشية البكرى ، وبعد تقديم العزاء مباشرة استبقانى الرئيس عبدالناصر قائلا : سوف أُقابل رئيس الأركان الأردنى لمدة خمس دقائق ثم أعود لكى أستمع منك عن الوضع فى سورية .

استمر اللقاء مع عبدالناصر خمس ساعات ونصف الساعة ، وفى نهاية اللقاء قال لى خلّى الاخ حافظ الأسد « وكان وقتها وزيرا للدفاع » : يأخذ حذره من صدام حسين .. كان صدام حسين قد تسلم السلطة منذ ٨ شهور تقريبا فى حركة ١٧ تموز .. قلت للرئيس عبدالناصر : صدام حسين رفيق حزبى ، وكان عندنا فى سورية ، وعلى الفور قال عبدالناصر : وكان عندنا أيضا فى مصر ، ومعلوماتى عنه أفضل من معلوماتك ،.. فقد كنا نراقبه فى القاهرة عندما كان طالبا فى كلية الحقوق ، وبعد أن حامت حوله الشبهات .. وأرجو أن تنبه الاخ حافظ الأسد بأن هذا المناضل الحزبى مُخترق من المخابرات الأمريكية ، وبالطبع نقلت هذا الكلام للرئيس حافظ الأسد .. إذن تعامل صدام مع الغرب تعامل قديم منذ عام ١٩٦٢ ، ولكن غلطة صدام أنه لم يعرف الحدود المسموح له بها » .

أضاف العماد طلاس يقول : « وكانت حرب الخليج لازالت مشتعلة وقت اجراء المقابلة) قد تدوم حرب الخليج اياما أو بضعة أسابيع ، لكنها لن تطول مثل حرب فيتنام حيث كان الأمر مختلفا وأنا زرت فيتنام أثناء المعارك ، كان لهم أصدقاء يقدمون لهم السلاح مثل روسيا وكوريا والصين وكل الدول الاشتراكية وكان الروس يتولون تشغيل أطقم الدفاع ، أما صدام فإنه يعادى كل الدنيا ، حتى أكبر صديق له وهو الملك حسين لم يوافق على أن يؤجر له مطارا يضع فيه سربا من الطائرات .. كل الجيران يعادونه فكيف يستطيع أن ينتصر ؟!!.. لقد دخل معركة خاسرة منذ البداية ، خسرها عندما رفض أى كويتى أن يتعامل معه ، وخسرها عندما رفضت الدنيا بأسرها هذا الأمر الذى حاول فرضه ، وكيف يمكن لكويتى أن يقبل بحكم صدام حسين الذى يقتل بنفسه كل من يعارضه .. خذ مثلا وزير الصحة العراقى لمجرد أنه رفض ادخال السموم للعراق ضمن ما تستورده من أدوية قتله فى غرفة مكتبه ، وأنتم فى مصر تعرفون كيف كان يرسل الشباب المصرى الذى ساهم فى المصانع والمزارع خلال حربه مع ايران ، كيف كان يرسلهم فى صناديق مغلقة ... القتل هوايته ، نسف طائرة وزير دفاعه عدنان خيرالله بخمسة أصابع ديناميت لمجرد أن البعض بدأ يُشير إلى دوره فى المعارك مع ايران علما بأن الذى انتصرعلىايران هو السلاح الامريكى الذى ظل صدام حسين يزعم أمام العرب أنه لحماية البوابة الشرقية ، وبعد ٨ سنوات من القتال عاد للاتفاق مع ايران الذى سبق أن مزقه أمام التليفزيون عام ١٩٧٥ ...

صدام حسين باحتلاله الكويت أراد أن يغطى اخفاقه فى ايران ، فقد طلبوا منه أن يتراجع فى ايران عن كل شىء احتله لأن أمريكا لا تسمح له أن يغير توازنات المنطقة كيفما شاء ، ولقد اعتقد أنه بعد أن نفذ المطلوب ، وتراجع عن ايران ، فإنهم سيوافقون على ضم الكويت كمكافأة ، ولكن حساباته كانت خاطئة » .

استطرد العماد طلاس قائلا: « اقول بكل الم لقد وضع صدام الجيش العراقي في محرقة لن يستفيد منها سوى اسرائيل ، ولكى يُبعد نفسه عن عشرات الاتهامات أراد أن يخلط الأوراق فأطلق بضعه صواريخ على اسرائيل .. إن صدام حسين الذي يقول : إنه يريد أن يحرر فلسطين أجرى إتصالين مع اسرائيل سجلتهما أجهزتنا ، حاول خلالهما جس نبض رابين عن مدى الامكانية في دعم عون ، وطلب من رابين أن يمرر الأسلحة للجنرال عون ، وعندما سُئل رابين .. ألّا يخشى من الأسلحة التي يقدمها صدام لعون ؟ قال : أبدا لأن صدام يقدم الاسلحة لعون لكي يقتل بها السوريين ، ولا ضرر على اسرائيل ،.. وهكذا يحاول صدام حسين أن يقنعنا بأنه يريد أن يحرر فلسطين في الوقت الذي وقف ويقف ضد كل مسعى جاد يستهدف رأب الشرخ العربي » .

ولقد كشف لى العماد طلاس في معرض الحديث عن تعامل صدام القديم مع الغرب. كشف عنه عندما قامت ثورة ايران واعتقلت موظفين من السفارة الأمريكية أراد بضربتهوكان متوهما أنه في عدة أيام « خمسة أيام » يستطيع : أن يصل إلى طهران ويأخذ المحتجزين الأمريكيين ويقدمهم هدية للرئيس كارتر في عيد الميلاد لكن ايران خيبت آماله ، ولم يستطع في ٨ سنوات أن يفعل شيئا ، ولم يكن يستطيع ذلك لو كان الجيش الايراني قد ظل كما كان عليه الحال أيام الشاه .. ولكنه استغل أن الثورة حلت الجيش الايراني وأصبح الناس يقاتلون دون تجربة ثم لا تنس الدعم الأمريكي والغربي لصدام حسين .. خمسون طيارا فرنسيا شاركوا معه ، الطائرات السوبر أعيرت له من فرنسا .. **إذن كانت معركة غربية والرئيس ميتران لم يخف هذا الشيء** ، وعندما قالوا له كيف تقول عن صدام حسين أنه ارهابي وأنت بعت له أسلحة بستة وتسعين مليار فرنك فرنسي **فقال ميتران للبرلمان الفرنسي** : لقد بعت له هذه الأسلحة حتى أحمى فرنسا ، وأحمى الغرب من الثورة الاسلامية القادمة من الشرق .. إذن صدام حسين كان يريد أن يتولى دور الشرطي في المنطقة .. **ربما يتبادر سؤال : هل كان هناك أمر خطى لصدام حسين أن يشن حربه على إيران ؟** والجواب لا يوجد مثل هذا الأمر ، ولكن صدام حسين يعرف ماذا يرضى أمريكا ، وحين يعلن الحرب على إيران فإنه ليس في حاجة لاستئذان أمريكا لأن ايران تحتجزرهائن امريكية ، وهي كل يوم تصف أمريكا بأنها الشيطان الأكبر ، أما الشيطان الأصغر فهو روسيا ، وكان الخميني يشتم الدولتين العظميين كل يوم .. إذن صدام حسين قام بعمله لصالح الغرب ، ولصالح الولايات المتحدة أساسا ، وإلا لما فتحت له كل أبواب التسلح . وإلى جانب كل الأسلحة التي حصل عليها صدام حسين من الولايات المتحدة فإن دول الغرب هي التي طورت له كل ما لديه من اسلحة ، **ولكن غلطة صدام حسين الكبرى** ، والتي لا تغتفر له أنه لم يفطن إلى أن أمريكا لن تسمح له باللعب حتى نهاية الشوط ، ولأنه إذا استولى على

الكويت وتطلع بعد ذلك إلى الساحل الشرقى للخليج العربى فسوف يصبح مسيطرا على ٧٠٪ من ثروات النفط العربى ، وهذا الشىء لا تسمح به أمريكا » .

سورية كلها فى مواجهة الأزمة

نعود الآن فنقول :

إنه منذ أن تفاقمت أزمة الخليج ، وحلت الكارثة سارعت الهيئات الحكومية ، والدوائر السياسية فى سورية إلى تأكيد الدعوة لموقف عربى متضامن على أساس مبدئى ، وبما يكفل حفظ الحق العربى لكل أفراد الشعب العربى ، وفى هذا الاطار كان دور مجلس الشعب ، ودور الحكومة ، ومختلف الدوائر السياسية دورا كبيرا فى التنبيه إلى مغبة التراخى والتقاعس عن مواجهة الخطر فى حينه أو التقليل من شأنه .

فإذا كانت نتائج هذه الأزمة لاتزال فى تفاعل ، وتوالد مستمرين وقد يمضى وقت طويل حتى تتوقف هذه النتائج عن التوالد والتفاعل ، كذلك فإنه ليس من أهدافنا فى هذه الصفحات الخوض فى هذا الجانب لأن الخسائر المادية هائلة ولم تبلغ سقفها حتى الآن ، ويكفى كإشارة عابرة لهذا الجانب أن نقول أن الدراسات الغربية أكدت أن كلفة الحرب بالنسبة للعراق بما فى ذلك الخسائر فى العتاد الحربى والتبادل التجارى يصل إلى ٤٠٠ مليار دولار وأن عدد الجنود الذين قضوا فى المعركة يقترب من مائتى الف جندى ، وحين تضاف إلى الأرقام خسائر الكويت وبقية دول الخليج والاقطار العربية فإن الأرقام ستكون خيالية ومروعة دون شك .

وإذا نظرنا إلى النتائج المعنوية ، والاستراتيجية التى هى أعمق ، وأخطر سنجد أن من أهداف أزمة الخليج ، والحرب التى نشبت بسببها إعادة رسم خرائط جديدة للمنطقة ، **ولأن نتائج الحرب لم تنته بعد** فإن هذه الحرب عمقت دون شك الفجوة بين أبناء الأمة العربية منعا لتحقيق أى شكل من أشكال التضامن العربى وسعيا وراء قتل أى تطلع شعبى للوحدة عن طريق القضاء على مفهوم القومية العربية ، وهكذا فإن هذه الحرب ارادت أن تثبت الهويات القطرية الى فترة ليست قصيرة ، وهو هدف استعمارى صهيونى قديم ، ومما يؤسف له حقا أن بوادر استجابة لهذا التوجه بدأت تظهر فى بعض الأقطار العربية بفعل الحرب وبتشجيع مبطّن ومعلن أحيانا فى بعض الدوائر الغربية ، ومن الأمثلة على ذلك ما اقترحه بعض المسئولين الفرنسيين لالغاء مصطلح الوطن العربى واستبداله بمصطلح الدول العربية .

ولكى ندرك المستوى الذى بلغه هذا الهدف ، علينا أن نقارن بين حالة التضامن العربى على تواضعها قبل الحرب وبعدها ، **ومن نتائج هذه الحرب أيضا على المستوى**

الاستراتيجى هو أن الامة العربية فقدت قوة عسكرية أساسية ضاربة ، وفى عصر تبدو فيه القوة انها لا تزال هى الأساس فى تقرير مصائر الأمم ، وقد تكون سورية هى المتضرر الأكبر فى هذا المجال ، لأن العراق كان يشكل عمقا استراتيجيا هاما لسورية ، كان يمكن لهذا العمق أن يمتد ليشمل ايران بما تجسده من موقف اسلامى مخلص تجاه قضية الصراع مع الصهيونية .

أما فلسطين فهى دون شك أكثر المتضررين بعد العراق والكويت ، حيث فقدت الضفة الغربية وقطاع غزة الكثير من موارد التمويل التى كانت تأتيها من دول الخليج بسبب الحرب من جهة ، ومن جهة لأن عدداً كبيراً من الفلسطينيين تأثر بالاجراءات التى اتخذتها دول الخليج نتيجة تأييد بعض قادة منظمة التحرير لصدام حسين خلال الأزمة ، ومن الناحية السياسية فقد تعرضت الانتفاضة الباسلة لأضرار بالغة بعد أن شددت سلطات الاحتلال قبضتها خلال الأزمة على الأرض المحتلة ، ونجم عن ذلك تعطيل كبير للعمل ، نجمت عنه خسائر اقتصادية هامة ، كما أن اهتمام العالم بالانتفاضة تراجع كثيرا خلال الأزمة ، وفتر التعاطف الدولى معها للاعتقاد الذى ساد أثناء الأزمة بأن موقفها من حرب الخليج كان مستمدا من موقف قيادة المنظمة .

أما على صعيد التضامن العربى فقد تسببت هذه الأزمة وتداعياتها فى انهيارات عبرت عن نفسها رسميا فى الانقسامات التى شهدتها الجامعة العربية أثناء الأزمة ، والتى أدت إلى استقالة الشاذلى القليبى الأمين العام السالف للجامعة .

ومن المؤكد أن أكبر المتضررين هم الأشقاء العراقيون وجيشهم ذلك أن القوات الدولية لم تكتف بضرب الأهداف العسكرية بل والبنية التحتية للمدن العراقية ، وخاصة مدينة بغداد التى دمرت ، كما أن أهدافا غير عسكرية مثل المتحف الوطنى العراقى قد ضربت ، ولاشك أن العقوبات الاقتصادية الدولية المستمرة وضعت الأشقاء العراقيين بين سندان الجوع والمرض ، ومطرقة النظام الذى لم يغير أساليبه القمعية .

احتضان المعارضة العراقية

واستمرارا للدور السورى فى دعم الشعب العراقى الشقيق ومساندته ، فقد كان من الطبيعى ان تكون سورية بيتا للمعارضة العراقية لممارسة نشاطها بحرية كاملة ، ودون أى تدخل ، والأمثلة على هذا كثيرة ومتعددة ، والواقع كما يقول الكاتب العراقى حسن العلوى فإن من الحقائق التاريخية المعروفة إنه إذا تخاصم العراقى مع زوجته فإنه يتوجه إلى الشام ليستريح ، وإذا اختلف الوزير العراقى مع مجلس الوزراء فإنه يتركه ليتجه إلى سورية ، وهذه حقيقة معروفة منذ قيام الدولة العراقية عام ١٩٢١ ، وقد قال الشاعر الجواهرى تأكيداً لهذه الحقيقة .

إنــى شــامــى إذا نُــســب الــهــوى
وإذا نُــســبــت لــمــوطــنــى فــعــراق

هناك هوى شامى عند العراقى ، ربما للقرب الجغرافى ، وربما لأن سورية لا تسأل القادم إليها عن هويته أوتطلب منه تأشيرة دخول ، **وهذه المسألة موجودة قبل الرئيس الأسد..** أثناء الصراع بين العراق الملكى ، وبين عبدالناصر ، وهو الصراع الذى دخلت سورية طرفاً فيه مع عبدالناصر فى مواجهة حلف بغداد ، ودفعت الكثير ، وتعرضت لعدد من المحاولات الانقلابية .. إذن هناك عراقة فى العلاقات بين العراق وسورية سواء كمواطنين أو سياسيين .

الذين عارضوا نورى السعيد جاءوا إلى سورية .. الذين عارضوا عبدالكريم قاسم .. الذين عارضوا صدام حسين جاءوا إلى سورية ، والذى يأتى إلى سورية قد لا يكون بعثيا ، بل قد يكون من خصوم حزب البعث ، هناك وزراء من العهد الملكى ، وهناك وزراء قوميون ضد حزب البعث ، وهناك اسلاميون جاءوا إلى سورية ، ويوجد فى سورية حوالى ربع مليون عراقى ، وحين حوصر العراق أغمضت السلطات السورية أعينها عن شاحنات الطعام التى تدخل العراق ، واعتبروا هذا واجبا قوميا يقومون به ..

الجوار الجغرافى يتسع وفقا للنظرية القومية .. فى سورية حزب قومى ، وقيادة قومية وفى القيادة القومية هناك قيادة عراقية قطرية .. هناك مكتب لشئون العراق يرعى العراقيين فى ظل اغلاق سفارتهم ، يقوم بكافة الأعمال القنصلية ، هذا الشىء غير موجود فى أى بلد عربى .

ولكن كيف فهم الرئيس حافظ الأسد العلاقات السورية ـ العراقية ، وكيف تعامل معها؟ يجيب حسن العلوى بقوله : أجيب وأنا أعلم أن نقصا فى مصداقيتى سيرتبط بجغرافية المنطقة ، وأنا أعيش فى سورية ، ومعنى هذا فإن أية إشارة ايجابية فى صالح سورية ، أو فى صالح الرئيس الأسد ستدخل فى سياق المجاملة ، أو النفاق ، أو حفظ الرزق .. الواقع أن القادم لسورية من العراق يأخذ موقفا ، ولا يأخذ أى امتياز ، بينما الذاهب من سورية إلى العراق ، يأخذ الامتياز والمواقع ، وتفتح له الخزائن ، نحن هنا ننفق من جيوبنا .. أنا مثلا أحمل أكثر من جواز ، من أسبانيا ، ومن بريطانيا ، ومن السعودية ولدى اقامة فى كل هذه الدول لكنى أرتبط مع سورية على قاعدة أنها البقية الباقية من الأرض القومية التى تفتح المطار دون أن تسأل القادم إليها إذا كان يحمل تأشيرة أم لا ، يدخل القادم إلى المدرسة ، والجامعة ، ويمتلك السيارة ، والدار كأنه سورى .. الواقع القومى لسورية يشد الكثيرين من أمثالى ، ومن هنا فإن ما أذكره جوابا على سؤالك يدخل فى سياق التجرد الكامل من أى مصلحة ، ولدى شواهد ومعلومات ،

واستنتاجات ، **الشواهد أن القيادة العراقية هى التى كانت تبدأ دائما العمل المضاد لسورية**، لم يحدث أن اكتشفت مؤامرة سورية فى العراق ، بينما تتكشف فى كل فترة مؤامرة عراقية ضد سورية .. الانقلابات الثلاثة الأولى فى سورية من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٥١ ، حسنى الزعيم ، وسامى الحناوى ، وأديب الشيشكلى كان العراق طرفا رئيسيا فيها ، الانقلاب الذى لم يتم عام ١٩٥٧ ، بعد أن رفض الشيشكلى المخطط الدموى لنورى السعيد ، الاتفاق العراقى التركى على مهاجمة سورية تحت غطاء حلف بغداد بين فترة وأخرى ، اكتشفت هذه المعلومات فى محكمة الشعب بعد ثورة ١٤ يوليو / تموز عام ١٩٥٨، وفى فترة أخرى تكشفت فيها أسرار المؤامرة العراقية ضد سورية ، راجعت تاريخ الاستقلال السورى منذ ١٩٤٦ ، وحتى عام ١٩٩٠ ، وقد ظهر لى خلال ٤٤ عاما من الاستقلال أن العلاقة السورية العراقية لم تكن حسنة إلا لمدة ثلاث سنوات ، وباردة لمدة سبع سنوات ، وعلى امتداد ٤٤ عاما كانت حربا شعواء بين العراق وسورية .

وخلال هذه الفترة تحسنت نسبيا العلاقات بين العراق ، والأردن ، وبين العراق ، والسعودية ، وبين العراق ، وإيران ، وبين العراق ، وتركيا ، لكن العلاقة العراقية السورية ظلت على هذه الحال .

ولقد تساءلت: ما هو السر فى بقائها على هذا النحو مدة ٣٤ عاما؟ هل يعود ذلك إلى الخلافات الموجودة بين حافظ الأسد، وصدام حسين؟

حافظ الأسد لم يكن موجودا ، بالتحليل ، وعندما أعلن استقلال سورية عام ١٩٤٦ كانت الخطوات تُتخذ لاقامة دولة اسرائيل التى أعلنت عام ١٩٤٨ ، والذين خططوا لاقامة دولة اسرائيل خططوا لكى لا يكون هناك تنسيق ، أو تكامل ،أو تعاون بين العراق وسورية لكى لا يتشكل الحزام الأمنى حولها ، **وإلا فما هو تفسير وجود حزب واحد، ومنطلقات فكرية واحدة، وكلاهما جمهورى ،ولم تتم حتى الآن الوحدة .. مَنْ السبب ؟!**

الواقع أن العراق هو الذى اوكل اليه تعميق الانشقاق مع سورية، وسورية من مصلحتها أن تتفق مع العراق لعدة أسباب.. العراق غنى .. العراق عمق جغرافى وسوق لتصريف المنتجات .. سورية مصيف ممتاز من كل النواحى الجغرافية والاقتصادية والسياسية .. السوريون هم الذين يستفيدون من اتفاقهم مع العراق ، **حافظ الأسد شخصيا كان يستجيب لأى نداء من الجانب العراقى** ، واستطيع أن اقرر وقد كنت شاهد عيان فى التنظيم السابق ، ومن موقعى السياسى السابق إنه بمجرد أن يلوح العراقيون بالتفاهم كنا نجد أن الرئيس حافظ الأسد يحمل حقيبته ويأتى إلى بغداد .. حين أعلنت الوحدة عام ١٩٧٨ بين العراق وسورية ، بعض القادة البعثيين

نصحوا الرئيس الأسد بأن يتريث وأن يحذر صدام حسين ، لكن الرئيس الأسد أجابهم انه لا حذر من المغامرة القومية أى المغامرة الوحدوية مع العراق ،إذا حدثت فأهلا وسهلا وإذا لم تحدث فهذا افضل من أن نبقى فى الحالة الانفصالية لكن الحذر وقع ، **وأعلن صدام حسين عن مؤامرة سورية ضد العراق** ، مؤامرة لم تكن قائمة على الاطلاق ، ولو كانت قائمة لكنت احد الأبطال العاملين فى نظام صدام حسين لأننى اتهمت فى هذه المؤامرة وسُجنت وأعطيتُ فى السجن مواد سامة أدت إلى اصابتى بتصلب الشرايين واضطُررت لزرع شرايين جديدة فى القلب .. الشاهد أنه حتى فى ظل العلاقات الحسنة بين العراق وسورية ، وعندما كان صدام حسين هنا فى سورية ، وكنت فى الوفد المرافق له حيث اقام الرئيس الأسد دعوة عشاء فى « القاعة الدمشقية » ، وصافحت الرئيس واحنيت راسى كعادتى ، وطول حفل العشاء ، وصدام حسين يرمقنى ، ففهمت أنه قد حدث شىء واقتربت منه بعد انتهاء العشاء ، **فبادرنى بقوله : لماذا أحنيت رأسك لحافظ الأسد ؟!** **قلت** : لانه رئيس دولة ، **فقال لى** : يجب ان لا تحنى رأسك لحافظ الاسد .. **قال هذا** ، ونحن فى سورية لنقيم الوحدة ، وعندما عدنا إلى بغداد صدرت إلينا التعليمات من مكتب الاعلام بألا يُكتب أى شىء عن سورية سوى الكتابة عن الآثار ، والمتاحف وغيرها ، . وعندما جاء الرئيس حافظ الأسد إلى العراق كتبت مقالا فى مجلة (ألف باء) التى كنت اراس تحريرها وقلت فيه « ابن المعره فى كهف ابن زريق » وكنت أشير فيه إلى زيارة المعرى التاريخية لبغداد والتى استقبله فيها الشاعر الشريف الرضى والتى قال فيها :

شربنا مع دجلة خير ماء
وزرنا أشرف الشجر النخيلا

والشاعر الجواهرى قال فى عام ١٩٤٤ ، وفى ذكرى أبى العلاء المعرى أشار إلى تلك الزيارة حيث سرق أهل بغداد سفينة أبى العلاء المعرى .

أجل قد خطفناها مخافة فرقة
وخشية ازماع نضيق به ذرعا

أى ان أهل بغداد سرقوا سفينة أبى العلاء كى لا يعود أبو العلاء المعرى إلى بلده ، فقلت : **مَنْ يسرق سيارة حافظ الأسد حتى يبقى فى بغداد تحت القبة الزرقاء ؟؟** واقصد بها قبة القصر الجمهورى فى بغداد ، **ثارت ثائرة صدام حسين وانقلبت الدنيا ، وحوكمت** ، ولم يمض وقت طويل إلا وحدثت مجزرة حلب التى قتل فيها عدد كبير من شباب الكلية العسكرية فى حلب ، وكتبت مقالا بعنوان (حلب يا ذبح الوحدة) ، وبعد أن صدر المقال انعقدمجلس انضباط برئاسة (طه ياسين جزراوى) الذى يسمى طه ياسين رمضان ، وعضوية وزير الاعلام وواحد من الحزب لمحاكمتى بتهمة الكتابة عن هذه

المذبحة ، وتساءلت : نحن مع سورية فى دولة واحدة وفى موقف واحد ، وإذا بطه ياسين رمضان يقول وما يدريك بأن رفاقك هم الذين قاموا بهذه العملية ضد سورية ؟! أى أن العراق هو الذى أشرف على مذبحة حلب فى أثناء الاتفاق مع سورية على إقامة الوحدة عام ١٩٧٩ ،وبعد هذا يعلن صدام حسين عن وجود مؤامرة سورية ضد العراق .

هذه المقالات منشورة فى مجلة (ألف باء) ، إذن فصدام حسين كان يحضر أثناء الاتفاق مع حافظ الأسد لضرب حافظ الأسد، وليس العكس.

وفى ظل المفهوم الأسدى الاستراتيجى ، وفيما كان يسمى بالتوازن الاستراتيجى مع اسرائيل فإن من مصلحة سورية لكى تتوازن مع اسرائيل أن يتوافر لها عمق جغرافى واستراتيجى هو العراق ، بالاضافة إلى ذلك فإن نشأة حافظ الأسد ، وتربيته القومية تجعله يؤمن بضرورة الوحدة ، ومصلحة السوريين اقتصاديا مع اقامة الوحدة مع العراق .

معروف ايضا أن (جورج براون) وزير خارجية بريطانيا الأسبق ، والذى كان يزور العراق ويقدم استشارات لصدام حسين اشار فى أحد الاجتماعات السرية بعد قيام الثورة الايرانية أنه ليس من مصلحة العراق الدخول فى وحدة مع سورية لأن الوحدة مع سورية ستجعل العراق فى مواجهة مع اسرائيل ، وهذا يستنزفها كما ستجعل العراق طرفا فى المستنقع اللبنانى لتورط سورية فى لبنان ، ثم إن سورية متعبة اقتصاديا ، وتحتاج إلى دعم مالى . ومعنى هذا أنه لا مصلحة للعراق فى هذه الوحدة .. هكذا أخبرنى صدام حسين بعد زيارة جورج براون للعراق وذهابه ، الزيارة التى صحب فيها براون صدام فى رحلة استمرت اسبوعا على الحدود العراقية الايرانية ..

غزو الكويت جاء بناء على استشارة قدمت لصدام حسين من جورج براون بأن حربا خاطفة لمدة أيام ستغير الوضع فى إيران . وسيبقى العراق هو أقوى قوة فى الخليج وبعد زوال الشاه بإمكانه أن يأخذ الكويت ، ويخرج بها ، والولايات المتحدة ستوافق على هذه الصفقة وكذلك دول الغرب مقابل ضرب الثورة الايرانية ، ونحن لا نعلم حتى الآن مَنْ أوفد براون إلى العراق فى هذه الفترة ، ولهذا فإن صدام حسين بعد غزو الكويت ذكر التصريح الشهير الذى لم يلتفت إليه أحد على الاطلاق حيث قال : إن الكويت ضمن الحرب وفى سياق الحرب العراقية الايرانية .

رأى آخر لزعيم من زعماء المعارضة العراقية هو بيان جبر ممثل المجلس الأعلى للثورة الاسلامية فى العراق ، وعضو مكتب الأمانةالعامة للجنة العمل المشتركة للمعارضة العراقية. حول رؤية الرئيس حافظ الأسد للعلاقات السورية العراقية يقول : « منذ تواجد المعارضة العراقية فى الساحة السورية فى نهاية السبعينات ، وبداية

١٩٨٠ ، ونحن نجد كل تفهم من الحكومة السورية وبالأخص الرئيس الأسد لانطلاقة الشعب العراقى ، الذى يعانى من جور الحكم الديكتاتورى الذى يمثله صدام حسين منذ ذلك الوقت، كانت معظم الدول العربية تقف إلى جانب صدام ، **ولكن سورية بقيادة الرئيس الأسد كانت تتفهم طبيعة النظام الدموى الحاكم فى بغداد، وكانت تتفهم منطلقات الشعب العراقى، وقواه الوطنية، ولذلك فتحت أبوابها للعراقيين الذين أجبرهم النظام العراقى على الرحيل، استقبلتهم دون أن تطلب معرفة هويتهم أو جواز سفرهم**، وأسكنتهم فى المحافظات السورية المختلفة وزودتهم بجوازات سفر سورية، وسمحت لهم بحرية العمل ، وبغير تدخل من جانبها ، ومارست المعارضة العراقية من كل الاتجاهات اليسارية ، والديمقراطية ، والقومية والكردية ، والاسلامية نشاطتها بكل حرية ، والواقع انه من الصعوبة بمكان الادعاء بأن النظام العراقى نظام بعثى أو قومى ، هو نظام يعتمد فقط على حكم صدام حسين وصدام حسين هوالقانون وهو كل شيء .

والواقع أن سورية كانت البلد الوحيد الذى فضح صدام حسين فى وقت مبكر لأنه يعرفه جيدا. وقد قلت مرة لأحد المراسلين الاجانب إنه .. لو حاول أى شخص ترتيب قاموس سياسى لكلمة اسمها صدام حسين لاحتاج إلى الف صفحة لتحليل تركيبته النفسية وجرائمه العديدة والتى تعكس كراهيته لشعبه وعداوته لجيرانه ، يكفى أن نشير إلى استخدامه للأسلحة الكيماوية فى قتل أبناء شعبه الكردى فى الشمال واستخدامه لأبشع الأسلحة فى تصفية خصومه من أصدقائه ومن أقاربه ومن الحزبيين ومن الوزراء ، وقال : هناك أكثر من مليون ونصف عراقى بين مشرد ومهجر وكثير من هؤلاء تدخل الرئيس الأسد لحل مشاكلهم ، والعراقى يدخل إلى سورية كما يدخل السورى ، ويحق له أن يتملك بسهولة ، وتُقدم له التسهيلات ، وهناك مكاتب للمعارضة العراقية فى جميع المستويات ، وقد اتخذت سورية هذا الموقف المبدئى بالرغم من صور التآمر العراقى العديدة على سورية ، وجميعها من أتباع صدام حسين ، وحادثة الأزبكية خير مثال ودليل على جرائم النظام العراقى حيث ارسل سيارة فيها كمية كبيرة من المتفجرات وأوقفها فى أحد الشوارع المزدحمة فى منطقة الأزبكية فى دمشق ، وفجرت بواسطة اللاسكى وأدت إلى قتل العشرات وجرح المئات ، كما ارسل شاحنة كبيرة جدا فى منطقة التجارة ، وفُجرت بعد بحادث الازبكية بأربع سنوات .. وكثيرا ما حاول صدام تصفية المعارضة العراقية فى دمشق ، لكن الجهات السورية كانت متتبهة ، والقت القبض على كثير من المجرمين الذين كان يرسلهم .

اعــــلان دمشــــق

على الرغم من الآثار السلبية العميقة للكارثة الوطنية والقومية التي تسببت في غزو العراق للكويت ، فقد برزت بعض البوادر الايجابية كرد سريع على الكارثة سواء على المستوى الرسمي ، أو الشعبي العربي ، **فعلى المستوى الرسمي** تابعت سورية حركتها الانقاذية في لبنان الشقيق ، حققت الحكومة الشرعية خطوات هامة على طريق اعادة السلام وبناء الدولة والمجتمع ، **كما تحركت سورية بقيادة الأسد** لاحتواء نتائج الأزمة وكانت أولى ثمار هذه الحركة التوصل الى اعلان دمشق للتنسيق والتعاون بين مصر وسورية ودول مجلس التعاون الخليجي الست .. **ولكن .. كيف ؟ ولماذا ؟**

بداية لابد من الاشارة الى أن الوحدة العربية في فكر الرئيس حافظ الأسد هي قدر هذه الأمة ، وهدفها الكبير ، وهو يرى أن العمل الوحدوي في المرحلة الراهنة من نضالنا يكتسب أهمية متزايدة لأن الوحدة مصدر قوة ، ولأنها السبيل الى حشد الطاقات العربية في المعركة ، وهي الطريق الى احباط كل المشاريع الرامية الى تصفية قضية العرب الكبرى .. قضية فلسطين ، ولقد واصلت سورية السير على طريق العمل الوحدوي بخطوات جدية ، وجديدة بعد أزمة الخليج مستهدفة تكوين جبهة عربية قادرة على التصدي للعدوان في كافة صوره ، وبحيث تكون قادرة على أن تصبح نواة الوحدة العربية الكبرى ، بهذه الروح كان انضمام سورية الى ميثاق طرابلس بعد نجاح الحركة التصحيحية ، وتشكيل القيادة الرباعية لدول الاتحاد مصر ، والسودان ، وليبيا وسورية كان يحدوها العزم ، والتصميم على أن تبذل كل الجهود لنصرة هذا الاتحاد بالتعاون مع الأشقاء على النحو الذي يحقق آمال الجماهير ، وبهذه الروح أيضا تتابعت المحاولات الوحدوية ، واحتضنت دمشق جهود كل الشرفاء السائرة على طريق الوحدة ، وكان طبيعيا أن يقف الشعب السوري بكل قوة خلف قائده ، فهذا الشعب لم يعترف يوما بحدود التجزئة التي أوجدها الاستعمار ، ولا وهنت عزيمته في النضال لهدم الحواجز المصطنعة ، التي جعلت من الوطن الواحد أجزاء متباعدة ، ومن الأمة الواحدة دولا متعددة يحاول الاستعمار أن يستفرد بها ويقتنصها ، ليفرض عليها نفوذه ، وسيطرته ، ويخضعها لمشيئته ، ومصالحه .

وكثيرا .. **ما أوضح الرئيس الأسد في لقاءاته مع كل الزعماء العرب ، وبغير استثناء ان طاقات الأمة العربية قادرة على تحقيق النصر ، وأن مسئولية القادة العرب هي بالدرجة الأولى إنجاز الصيغ التي تضمن وضع هذه الطاقات الضخمة في خدمة الأمة ،** ومن أجل حرية هذه الأمة ، وكرامة هذه الأمة ، كان حافظ الأسد يرى ، ومايزال أن الصيغة التي تحقق كل ما تطمح اليه الأمة العربية هي صيغة الوحدة

العربية ، هذا الهدف الكبير الذى سعت اليه الاجيال المتعاقبة ، والذى ضحى من اجله الكثيرون ، واستشهد من أجله الكثيرون .

دولة الوحدة فى رأى حافظ الأسد هى الطريق الى حل كل مشاكل الأمة العربية . الوحدة هى الطريق الى بناء النظام الذى يحقق العدالة الاجتماعية فى المجتمع والذى يجعل ثروة الوطن ملكا لكل المواطنين ، ملكا لمجموع الشعب ، وأن أى جهد يبذل من اجل اقامة نظام العدل الاجتماعى من واقع التجزئة لن يكون إلا الحل الجزئى لمشاكل الانسان العربى ، ولن يكون متناسبا مع واقع التجزئة .

الوحدة فى رأى حافظ الأسد هى الطريق نحو الحرية لان دولة الوحدة هى القادرة على استرجاع ما احتل من الارض ، وهى القادرة على صيانة كرامة المواطن العربى ، والدفاع عن الوطن العربى الكبير ، والحفاظ على حرية كل المواطنين العرب . **وكثيرا ما أشار الرئيس حافظ الأسد بأن التيار الانفصالى فى الوطن العربى والذى يحاول أن يجعل من الانعزال ومن الانفصال سياسة معاكسة لاتجاه التاريخ ، وضرورات الحياة فى الوطن العربى لا يمكن أن يصمد ،** لأن وحدة الجماهير العربية مسالة حتمية ، كذلك فإن الرئيس حافظ الأسد لم يمل من تكرار حقيقة أن الوحدة العربية هى الهدف الذى يقينا شر كل النكسات ، ويوفر كل الضرورات الأساسية لبناء حياة كريمة حرة مؤكدا أن الحرب التى تشنها الامبريالية ، واسرائيل على وحدة الأمة العربية لا يمكن أن تنجح ..

خلاصة القول : إن الوحدة العربية فى فكر وسياسة الرئيس حافظ الأسد تتقدم على أى هدف آخر ، وهى هدف يناضل من أجله نضالا مستمرا ، ونادرا ، وهو يؤكد دائما أن كوننا لم نستطع تحقيق الكثير فى هذا المجال حتى الآن لا يعنى اليأس ، أو التشاؤم وأن تعثر بعض التجارب الوحدوية لا يدعو الى القلق والقنوط ، بل الى مزيد من النضال ، وتمثل تلك التجارب واستكشاف الحلول ، والأساليب الأكثر نجاعة والأكثر فاعلية والخطأ فى انتكاس تجربة من تجارب الوحدة ليس فى الوحدة موضع التجربة ، وانما فى صيغة العمل ، واسلوبه ، **وكثيرا ما أكد الرئيس حافظ الأسد أيضا على أن الطريق الى الوحدة ليس طريقا محددا ، وأساليب العمل من أجل الوحدة متعددة متنوعة ،** والتحرك نحو الوحدة لا يتم فقط بنوع من الخطى المحددة الجامدة ، وانما للوحدة طرق متعددة يتم السير عليها بخطى متنوعة الأشكال ..

المهم فى رأى الرئيس حافظ الأسد أن يتلاءم الطريق الذى نسلكه مع هدف الوحدة ، وأن تؤدى الخطوة التى نخطوها الى الوحدة ، فالجمود فى الأساليب ، والصيغ ، والخطى عدو الوحدة لأن فى الوحدة حياة الأمة والجمود عدو الحياة .

فى اطار هذا الايمان العميق بالوحدة العربية جاء اعلان دمشق بين مصر وسورية ودول الخليج الست .

الرئيس حافظ الأسد يرى أن دور سورية يجب أن يكون دائما محرضا ، وفاعلا

نحو خلق تضامن عربى حقيقى، ولذلك فإنه يقف دائما بكل قوة مع اى شكل من أشكال الوحدة بين الأقطار العربية أيا كان شكل هذا التضامن أو هذا الاتحاد ، وهو يرى أن التفرقة هى الضعف ، وأن القوى المعادية لسورية وللعرب تستغل دوما ضعف الانسان العربى ، وضعف الأقطار العربية للانقضاض عليها ، وبالتالى لمحاولة الحاق الأخطار بالوطن العربى .

ويتحدث الرئيس عن واقع الانفصال العربى القائم فيقول : ان اسرائيل على سبيل المثال لا تتحدث عنا كمواطنين تربطنا روابط المواطنين ضمن كل قطر بل تتحدث عنا كأقاليم ، وطوائف ، وتفعل وتقول كل ما من شأنه أن يخدم أهدافها فى تقسيم العرب لأصغر تجمعات ، وجماعات ممكنة ، وصياغة هذا الواقع التقسيمى لتصبح الدولة العظمى فى هذه المنطقة ، وتحقق الدولة التوراتية ، ويرى الرئيس حافظ الأسد أن الرد على هذه الحملة الصهيونية الامبريالية يجب أن يكون نضالا أوسع مساحة ، وأكثر قوة ، وأشد عزيمة من أجل الوحدة العربية ، واذا كانت القوى الصهيونية ، والامبريالية تظن اننا سنستلم لطروحاتها فقد اخطأت فى هذا .. اننا نريد أن تكبر سورية لتشمل كل الوطن العربى . ونريد أن تكبر مصر لتشمل كل الوطن العربى ، ونريد أن تكبر ليبيا لتشمل كل الوطن العربى ، وتكبر الأردن ، والجزائر ، وقطر .. وهكذا ، ويكبر كل قطر ليشمل الوطن العربى ..

الرئيس الأسد يرى أن قوة العرب قوة كامنة لم تستغل بعد ، ولم يجرب العرب امكانياتهم ، والمنطلق القومى فى السياسة التى يقودها الأسد واضح ، وهو يغلب دوما المصلحة القومية على المصلحة القطرية ، ولو أن سورية أدارت ظهرها لقضايا العرب الكبرى سواء قضية لبنان ، أو قضية فلسطين ، أو قضية الخليج ، ربما لم تكن قد تعرضت لما تعرضت اليه من خسائر .. السياسة السورية فى عهد الرئيس حافظ الأسد تُنَحِّى دائما المصلحة القطرية الضيقة ، وترى أن مصلحة سورية هى المصلحة القومية ، وهى تكبر بالعرب ، والعرب يكبرون بها ، واستقلالية القرار السياسى فى سورية مبنى على اعتبارات أساسية أهمها الاعتبار الجماهيرى ، وارادة الانسان العربى .

حـــرب الخليــج

ولقد بذل الرئيس حافظ الأسد كما أشرنا ، وبالتعاون مع الرئيس حسنى مبارك جهودا كبيرة من أجل تجنيب العراق الكارثة التى حاقت به من جراء مغامرة صدام حسين لاحتلال الكويت .

اجتياح العراق للكويت قلب كثيرا من المفاهيم ، والأوضاع ، وأحدث شروخا فى البنية العربية ، وسبب زلزالا فى النظام العربى ، ولولا هذا الغزو الآثم لكان يتعين الحديث عن

أمن عربى شامل ، وأن نتحدث عن معاهدة الدفاع العربى المشترك ، ولكن هذا الغزو القبيح أدى الى أن تستشعر دول الخليج العربى قدرا غير قليل من الشك فى اخوة ما كان يجوز الشك بالنسبة لهم ، وفى هذا المناخ ولد اعلان دمشق بين دول الخليج الست ، ومصر ، وسورية باعتبار أن الرئيسين مبارك ، والأسد وقفا بغير تردد ، وبحزم فى مواجهة العدوان العراقى على الكويت .

أهمية اعلان دمشق تكمن فى قيام تنظيم عربى ، وأمنى ، واقتصادى ، ويعكس ارادة مجموعة من الدول تلاقت ارادتها السياسية على التعاون فى هذه المجالات ، وهذا التنظيم كما نص لا يقتصر على الدول الموقعة عليه ، بل هو مفتوح لانضمام دول عربية اخرى تتفق سياستها مع سياسة الدول الموقعة على الاعلان ، ومع ما ورد فيه من مبادىء وأهداف ، كذلك فإن أهمية هذا الاعلان تأتى من كونه. لم يصدر بأسلوب مفتعل ، أو بطريقة عشوائية ، وبدون جذور عميقة كالاعلان الذى صدر عن قيام تجمع رباعى يضم مصر ، والعراق ، والأردن ، واليمن ثم تبين انه تجمع وهمى يقوم على أرض هشة بل على ارض من الخداع ، وبالتالى فى ظل غياب الثقة بين أعضائه وهى اساس نجاح اى عمل .

وهذا الاعلان كما سيلى يحقق صالح دول الخليج ، ولا يؤدى الى أن يفرض عليها هيمنة خارجية ، وبعد أن صفيت القوة العراقية لا يبقى فى الوطن العربى قوة عسكرية حقيقية إلا فى مصر وسورية ، حقيقة ان بعض دول الخليج تضم مخازن ضخمة للسلاح ، وهذا كله يمكن أن يشكل درعا لهذه الدول لا نقول فى مواجهة العراق ، فالعراق قد دمر عسكريا ، وأصبح غير قادر على تهديد أحد تهديدا جديا ، وكل ما يصدر عن نظام صدام حسين هى ألفاظ جوفاء ، ومن المؤكد أن الأمر لن يطول بالنظام الديكتاتورى الموجود الآن فى العراق لأن كل مقومات بقائه قد زالت ، ولابد بالضرورة أن يزول هو ايضا .. أن العلاقة بين دول الخليج ، وسورية ، ومصر لا يمكن أن تؤدى الى أى نوع من المخاطرة تحت اى ظرف من الظروف ، ومن المؤكد أن دول الخليج مهما كان ثراؤها لا يمكن ان يتحقق لها الأمن بهذا الثراء وحده ، بل ان الثراء فى ذاته قد يكون سببا من أسباب العدوان ، والحقيقة الجغرافية التى لا يستطيع أحد نكرانها أن دول الخليج من دول الكثافة السكانية القليلة جدا ، ومن الدول القريبة من المطامع بالنسبة لكثير من الدول ، وهذا كله يفرض على دول الخليج أن تعمق علاقاتها العربية وهناك من يرى أنه أصبح من ضروريات الأمور أن تصبح كل هذه الدول وحدات فى نظام سياسى اشمل وأوثق بمعنى ضرورة تطوير مجلس التعاون الخليجى لكى يصبح لهذا المجلس قوة عسكرية واحدة ، وسياسة خارجية واحدة ، بل ونقد واحد وليس من المعقول فى رأى هؤلاء انه فى أواخر الخمسينات كان التفكير أن تكون دولة الامارات العربية المتحدة مكونة من الامارات السبع الموجودة حاليا ، ومعها البحرين ، والكويت

لتشكل الامارات العشر ، ثم لا يتطور التفكير منذ ذلك الوقت ، ولابد أن تكون هناك وشائج وثيقة بين هذا الكيان ، وبين اقطار شمال الجزيرة العربية ، ثم يتواصل الحبل الى سائر أقطار الوطن العربي .

ونظرا لما أثاره اعلان دمشق من تساؤلات ، وما طرحه من علامات استفهام حائرة فإننا نعرض له بشيء من التفصيل .

عندما وقع اعلان دمشق يوم ٦ مارس ١٩٩١ ، أى بعد أسبوع واحد من تحرير الكويت كان يستهدف مجموعة من الغايات **يمكن الاشارة اليها فى النقاط التالية وبغير ترتيب :**

أولا : الاسراع فى ملء الفراغ الأمنى فى منطقة الخليج ، وهو الفراغ الذى ترتب على نتائج العدوان العراقى السياسية ، والعسكرية من منظور عربى يتوازن مع الطروحات العربية والاقليمية لترتيبات الأمن فى المنطقة بعد هذه الحرب ، ولعدم ترك الساحة خالية لأى طرف يرغب فى ترتيبات أمنية تخل بالمصالح العربية العليا .

كذلك فقد استهدف هذا الميثاق الاجتهاد لوضع أسس ، وملامح جديدة للنظام العربى وللأمن القومى العربى من منطلق استيعاب تجربة العدوان العراقى ، وما نجم عن ذلك من تداعيات عربية ، واقليمية ، ودولية مع محاولة وضع تطورات ، ومبادىء ، وآليات عملية تلبى حاجات أمن الخليج التى انتاب دولها بعد العدوان العراقى ، ومازال احساس مشروع بالخطر ، ويلبى فى الوقت نفسه احتياجات الأمن القومى العربى فى إطاره الشامل باعتبار أن أمن الخليج جزء لا يتجزأ من الأمن القومى العربى .

ولقد كان الرئيس حافظ الأسد ، والرئيس حسنى مبارك ، وقادة دول الخليج هم الأسبق فى التقدم بمبادرة عربية تسبق أى مبادرات دولية ، أو اقليمية يتم فرضها على المنطقة ، المبادرة استهدفت أن تكون نموذجا لأسلوب عمل جديد للعمل العربى المشترك ، ولبناء نظام عربى جديد ينظر للأمن القومى العربى بالمفهوم الشامل الذى يعنى ليس مجرد وضع الترتيبات الأمنية ، والعسكرية المشتركة وإنما يعنى أيضا التنسيق السياسى، والتكامل الاقتصادى، وأن يكون هذا كله من خلال اطار الجامعة العربية، ومواثيقها ، وليس انعزالا عن الجامعة العربية ، أو خروجا عنها ، ومن هنا كان طبيعيا أن نجد التأكيد على أن هذا الاعلان يأتى فى اطار الجامعة العربية وفقا لأهدافها ومبادئها ، وليس محاولة لخلق محور بين مجموعة من الدول ، وإنما خلق نواة جديدة للعمل العربى المشترك ككل يطور عمل الجامعة العربية ، وبحيث يكون مفتوحا لمن يرغب من الدول الأخرى التى تؤمن بمبادئه أن تنضم إليه .

وإذا كان الاعلان حريصا على تأكيد معنى الارتباط بالجامعة العربية ، وعلى تأكيد معنى الشمولية فى مفهوم الأمن القومى ، وعلى تأكيد معنى أن هذا الاعلان مفتوح لكل الدول فإنه من الملاحظ أن هذا الاعلان تجاوز الحديث عن أهمية التضامن العربى لاحلال

عدد من المبادىء التى أفرزتها حرب الخليج ، والتى أصبحت هامة جدا فى ظل المتغيرات الاقليمية ، والدولية ، وهى مبادىء أشار إليها الرئيسان مبارك ، والأسد ، وألحا عليها ، وكذلك حكام الخليج ، من هذه المبادىء التأكيد على علاقات حسن الجوار ، والالتزام باحترام وحدة الأراضى والسلامة الاقليمية والمساواة فى السيادة ، وعدم جواز اكتساب الأراضى بالقوة ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية ، والالتزام بتسوية أى نزاع بالطرق الودية ، واحترام مبدأ سيادة كل دولة عربية على مواردها الاقتصادية ، ثم النص على السعى لضمان أمن وسلامة المنطقة ، ولتكون نموذجا يحقق فاعلية نظام الأمن العربى القومى الشامل.

الكيان الجديد للدول التى اشتركت بالفعل فى عملية تحرير الكويت ، والذى تبلور فى إعلان دمشق دفعها إليه أن اتفاقية الدفاع المشترك التى عُقدت عام ١٩٥٠ بين دول الجامعة العربية ظلت حبرا على ورق ، أو مجرد كلمات حماسية لأن الدفاع المشترك يعنى تخصيص قوات بحرية ، وبرية ، وجوية ، وقوات خاصة للدول أعضاء الدفاع المشترك من كل الدول المكونة لهذا الحلف ، أو لهذه المنظمة ، والمثال هنا هو حلف الأطلنطى ، وهناك قوات مخصصة من دول الحلف ، وهذه القوات يتم بينها تنسيق فعال ، وهناك اتصال بين هذه القوات ، ومناورات مشتركة تجريها فى الخريف ، والربيع لإمكان استخدام هذه القوات فورا بينما ميثاق معاهدة الدفاع المشترك والذى مضى عليه نحو ٤٢ عاما ظل حبرا على ورق فلا مناورات مشتركة سنوية ولا لغة اتصال مشتركة ولا أى صورة من صور التنسيق بين قوات الدول المشتركة .

إعلان دمشق اتخذ خطوة فورية فى هذا الاتفاق بأن القوات المصرية والسورية الموجودة فى السعودية ، ودول الخليج هى نواة لقوة السلام العربية المذكورة ، لكن بعد ان بدأت ايران تعتبر عن قلقها ، ومخاوفها من الاوضاع القائمة فى مرحلة ما بعد حرب الخليج ، وبدأت تتحدث عن دور لها فى أمن المنطقة ، ورغبتها فى مزيد من الاقتراب من الدول العربية أدى إلى موقفين جديدين :

الموقف الأول

الموقف الأول هو التعديل الذى تم ادخاله على اعلان دمشق فيما يتعلق بالأمن القومى العربى ، فقد الغى هذا التعديل فكرة أن تكون القوات المصرية ، والسورية المشتركة فى العمليات العسكرية إبان حرب الخليج نواة لقوات السلام ووضع بدلا عن ذلك نص يشيد بدور هذه القوات فى حرب الكويت ، وإلى حق دول الخليج فى الاستعانة بها فى أى وقت من خلال اتفاقيات ثنائية .

والحقيقة أن التعديل لم يكن فى حاجة إلى هذا النص الوارد فى اتفاقية الدفاع

المشترك ؛ والذى بمقتضاه استعانت السعودية بالقوات المصرية ، والسورية فى حرب تحرير الكويت ، عند تعرض أراضيها للخطر ، ويرى بعض المراقبين هنا أن العرب يعيشون دائما عكس التيار فبينما تتجمع دول أوربا الموحدة ، وبينما تتوحد خمسين ولاية فى الولايات المتحدة وتنشأ مجموعة دول الكمنولث بعد تفسخ الاتحاد السوفيتى ، نجد أن العرب لا يستوعبون طبيعة المتغيرات ، ولا يُجيدون التعامل مع المستجدات ، ومما زاد الطين بلة أن هناك كلمات من محكمة العدل الدولية التى يمكن أن تُنقل إليها المشكلات الناجمة عن الفترة الاستعمارية بمشكلة الحدود بين الدول العربية المختلفة ، الجزائر والمغرب ، السودان ومصر ، الكويت والعراق ... الخ لأن الدول الاستعمارية السالفة وضعت خطوطا بالمسطرة والقلم كخطوط للحدود ، وبعد نهاية المرحلة الاستعمارية بزغت الوطنيات تعبر عن نفسها ويقدم كل طرف أدلته التاريخية .

ومن المؤكد أن محكمة العدل العربية يمكن أن تكون معاونة فى حل هذه المشكلات المتفاقمة بين الدول العربية ، وحتى لا يصل الأمر إلى الحرب ، والدمار ، كما وقع فى حرب الخليج .

الموقف الثانى

أما الموقف الثانى فيتمثل فى التباطؤ فى تنفيذ اعلان دمشق ، وتحويله من مجرد أهداف ومبادىء إلى خطط وبرامج بزعم أن وضع هذه الخطط يحتاج إلى مزيد من التأمل ، والتفكير ، والدراسة .

والحقيقة أن هذا التباطؤ كان نتيجة الضغوط الخارجية من ناحية ، ونتيجة اتجاه قوات التحالف الغربية نحو عقد اتفاقيات أمنية ثنائية مع دول الخليج ، وبالذات مع الكويت ، وهذه الاتفاقيات الثنائية تعطى لهذه الدول الاجنبية نوعا من الاسهام المباشر فى أمن الخليج ، وفى الوجود بصورة ، أو بأخرى فى هذه المنطقة ، وعندما يستعين حكام الخليج بالقوات الاجنبية ، فإن هذا ينمى الغضب الجماهيرى على من يتسبب فى عودة المنطقة الى سياسة الاحلاف ، وتكون ايضا اداة فى يد القوى المعارضة فى الخليج ضد حكامها كما سيلى :

بالطبع هذا الوضع لم يحل دون استمرار تمسك الدول بإعلان دمشق مع محاولة التركيز على الجوانب الاقتصادية أكثر من النواحى الأمنية ، والعسكرية ، الأمر الذى تحقق فى اجتماع الدوحة فى اوائل شهر سبتمبر ايلول عام ١٩٩٢ ، حيث تم الاتفاق على مجموعة من البرامج الاقتصادية ، وخطط التعاون الاقتصادى بين دول الاعلان فى شكل اجراءات محددة ، وبرامج محددة ، وهذا شىء ايجابى تحقق مؤخرا لكنه لا يفى بالغرض

المطلوب لأن النواحي الأمنية بالمعنى الضيق .. اى ترتيبات الامن العسكرى ، والدفاع المشترك قد أرجىء اتخاذ خطوات بشأنها في الوقت الحالي ، وبطبيعة الحال فإن هذا يمثل نكسة في ترتيبات الأمن القومي العربي كما كان مأمولا بعد تحرير الكويت وعما تم الاتفاق عليه يوم توقيع اعلان دمشق في ٦ مارس عام ١٩٩١ ، وهكذا اصبحنا امام إعلان دمشق المصدق عليه من الدول الثماني دون ان يجرى التوجه الفعلي نحو تطبيقه، ووجدنا الكثير من الاتفاقيات الأمنية العسكرية تبرمها دول الخليج مع الدول الغربية التى ساهمت في تحرير الكويت .

التدخل الأجنبي

اعلان دمشق مشروع عربي ممتاز بكل المقاييس لاستتباب الأمن في المنطقة، وخاصة في الخليج ، والحيلولة دون تكرار ما حدث خلال حرب الخليج ، وفي الوقت نفسه حماية للمنطقة من الوجود الأجنبي الذى هو في حقيقته رغم كل ما يقدمه شكل من أشكال السيطرة الخارجية .

المراقبون السياسيون يؤكدون أن حماية المنطقة العربية وخاصة منطقة الخليج ذات القدرات العسكرية المحدودة بوجود عربي لا يمكن أن يشكل أى خطر لأحد ، أو عدوان على أحد ، أو تدخل في شئون أحد لأن الجميع آخر الأمر أخوة أشقاء متضامنون ، سياستهم واحدة ، ومصلحتهم واحدة ، وحاضرهم ومستقبلهم واحد ، وليس لأحد أطماع في أحد ، وما دامت منطقة الخليج محتاجة إلى حماية ، فالصحيح ، والصواب أن تكون حماية عربية لأن البديل لهذه الحماية هو طلب التدخل الأجنبي حين يكون هناك تخوف من أى خطر ، وهذا التخوف قائم وإلى سنوات طويلة نتيجة لتفاوت القوى والأطماع في منطقة الخليج .

إذن فإعلان دمشق ضرورة لا بديل منها إلا بأحد أمرين : إما التعرض للأخطار كما حدث في الغزو العراقي للكويت ، وإما الوجود الأجنبي الذى تخلصنا منه بالتخلص من الاستعمار ، والاستعانة بالقوات الأجنبية في تحرير الكويت كان استثناء لانه لم يكن هناك بديل عربي .. الآن البديل موجود ، عبرما تضمنه اعلان دمشق من مبادىء وافكار لا تتعارض مع ميثاق الجامعة العربية وانما تدعم هذا الميثاق بالخطوات العملية التى اتخذها ولكنها لم تأخذ بعد طريقها الى التحقيق الفعلي .

وفضلا عن ذلك كله فإن الوجود الأجنبي ينتقص من سيادة الدولة ، لأن الدولة الكاملة السيادة هى الدولة التى لا تخضع في ادارة شئونها الداخلية ، أو الخارجية لرقابة أو هيمنة من دولة أخرى أى أنها مستقلة تماما في الداخل والخارج ولا سلطان لدولة

اخرى عليها بل أن تدخل الدول في شئون الدولة المستقلة مهما كان نظام الحكم فيها يعتبر عملا عدائيا وفقا لميثاق الأمم المتحدة ، وتحديدا للفقرة السابعة من المادة الثانية من ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، والدول الناقصة السيادة هي التي لا تتمتع بالاختصاصات السياسية للدولة ، وذلك نتيجة خضوعها لدولة أجنبية . . أو تبعيتها لهيئة دولية تقوم بمشاطرتها بعض الاختصاصات ، وتُوصف الدولة الخاضعة لنفوذ أجنبي بأنها ناقصة الأهلية ، وغالبا ما تكون مقيدة الحرية في شئونها الدستورية ، وشئونها الداخلية بصفة عامة بسبب تدخل دولة اجنبية ، أو اكثر في شئونها المختلفة .

ورغم ذلك كله فلا يعتقد المراقبون أن الفرصة قد ضاعت ، وإذا كان ثمة تردد في خلق هذا الكيان الاقليمي الجديد فإن الأمر يعود إلى قسوة تجربة الأزمة الكويتية العراقية ، ولكن مرور الوقت سيسمح بإعادة التفكير لإحياء هذا الميثاق ليكون بدايةلوضع عربي يهدف أولاواخيرا إلى إقامة سياج من الأمن القومي العربي ، وهناك فرص لا نهائيةلتجمع اقتصادي ضخم بين دول مجلس التعاون الخليجي ، وكل من مصر وسورية ، فهذه الدول جميعا تعاني من مشكلة فائض الانتاج في كثير من صناعاتها ، بل إن أزمة فائض الانتاج تبدو اكثر وضوحا في دول مجلس التعاون الخليجي عنها في بلد كمصر وسورية ، نظرا لاتساع سوقهما نسبيا ، ومن ثَمَّ فإن البداية في التفكير في خطوات متواضعة في إقامة اتحاد جمركي بين دول التجمع المنشود سيعود بالفائدة على كل دول اعلان اتفاق دمشق ، وعلى وجه الخصوص دول مجلس التعاون الخليجي .

ولنضرب مثلا على ذلك في الصناعات البتروكيماوية في المملكة العربية السعودية ذلك أن السوق المصري يسمح بامتصاص فائض انتاجها .

إذا اقمنا سياجا جمركيا موحدا حول هذا التجمع كما فعلت أوربا في بداية تكتلها الاقتصادي والسياسي في أعقاب الحرب الكونية الثانية ستكون النتائج مبهرة ، ولتكن البداية بتكتل محدود في عدد محدود من السلع لأن النجاح في هذا النطاق الضيق سيجسد المصلحة المشتركة في التعاون الاقتصادي العربي لدى كثير من الفعاليات والقوى الاقتصادية ، والسياسية في دول مجلس التعاون وفي كل من مصر وسورية ، ومثل هذا التجسيد سيساعد في اتخاذ خطوات أكثر اتساعا .

وغني عن البيان أن التعاون العسكري لا يمكن أن ينجح إلا بين بلاد ارتبطت مصالحها الاقتصادية بعضها ببعض ، ومن ثُمَّ يصبح من السهل أن تقوم دولة ببذل دماء ابنائها في سبيل حماية دولة أخرى ، ولعلنا نتذكر دروس أزمة الخليج ، فكثير من الجماعات السياسية ، والاقتصادية في الدول العربية كانت ضد المساهمة العسكرية المصرية والسورية في تحرير الكويت ، ويعود ذلك إلى عدم وضوح الرؤية السياسية

القومية التى يساعد على تجسيدها وبروزها التعاون الاقتصادى فيما بين افراد ومؤسسات الدول اطراف الأمن القومى الاقليمى ، ومن المؤكد أن الوجود العسكرى العربى فى دول الخليج سيدعم المركز الاستراتيجى لدول الخليج فى مواجهة اعدائها وفى الوقت نفسه سيكثر من أوراق التفاوض مع أصدقائها .

ويبقى أن نشير إلى أن سورية ومصر يمكن أن تقدم لدول الخليج الكثير والكثير ، يمكن أن تقدم لهم من الناحية الاقتصادية الأسواق المطلوبة سواء للسلع العربية أو للاستثمارات العربية ، ومن الناحية الاقتصادية فمن المؤكد أن توزيع الاستثمارات العربية بين الدول العربية والدول الغربية أمر تفرضه أبرز مقتضيات الحذر الاقتصادى البسيط بحيث لا يضع المرء كل أمواله فى سلة واحدة ، بالاضافة إلى ذلك فإن الاستثمارات العربية داخل مصر وسورية ستكون أكثر ربحية من العالم الغربى لأن هذه الدول فى المراحل الأولى للتنمية ، وبالتالى فإن مجالات الاستثمار مفتوحة أكثر فى الدول العربية وستقدم كل من مصر ، وسورية فى نهاية المطاف الحماية للأمن القومى الخليجى .

وإذا تم الاستقرار للمنطقة العربية فإن إعلان دمشق سيكون قوة هائلة للمنطقة يرد عنها كل الأطماع ، لأن الغرب له مصالحه المرتبطة بأطماعه .. **أما مصر وسورية فلا تختلف مصالحهما عن مصالح دول الخليج** .. ان الاعتماد الكامل على الغرب هو عودة مرة أخرى الى الهيمنة الاجنبية ودول الغرب لها أطماعها المعروفة فى الدول العربية ولها تاريخ مرتبط بهذه الأطماع ، والاتفاقيات المتكافئة تكون بين طرف متماثلين فى القوة ، وفى الاتجاهات السياسية .

ان مسئوليتنا اليوم ألا نفتح الباب من جديد للاستعمار المقنع ليدخل من باب شرعى هو المعاهدات .

وإذا كنا نود إذابة الجليد بين القوى العربية المختلفة فلاننا نريد اقامة كيان عربى يواجه الأطماع المتكالبة على أرض العرب والنوايا التوسعية لدولة اسرائيل ، واقامة كيان اقتصادى يحقق التكامل الاقتصادى . وهذه الأمور باتت أكثر من ضرورية ، ونحن نتأهب لدخول القرن الواحد والعشرين ووسط كيانات عملاقة . وقديما قيل : إن العرق فى السلم يوفر الدماء فى الحرب .

إن دول الخليج لا تستطيع أن تنغلق على نفسها ولا تستطيع أن تكتفى بنفسها ، وهى فى احتياج شديد لعنصر توازن أمنى ولو كان من دول خارج منطقة الجوار ، ويكفى أن نشير إلى أن يوغوسلافيا عندما كانت تواجه الاتحاد السوفيتى وحدث الاختلاف

الايديولوجى، أيام تيتو واتجهت إلى دول البلقان المجاورة ثم تخطت البحر المتوسط وبدأت تعتمد على مصر والهند ، وكان هذا هو السبب الذى دفع بتيتو لتنشيط دور دول عدم الانحياز .

ودول الخليج تملك ثروات ، وفيها أسباب القوة ، وأيضا أسباب الضعف وهذه الثروات تثير المطامع ، وبالتالى فلابد أن يكون لأمن الخليج نظرة أوسع من الحدود الضيقة ، ومن هنا فإن اعلان دمشق يضع أسسا للتوازن الأمنى الذى يضمن لدول الخليج عدم التدخل فى شئونها الداخلية .

ودائما كانت نظرة القاهرة الى أمن الخليج بهذا المنطق ، ومنذ عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر كان المبدأ الأهم .. الحفاظ على عروبة الخليج ، ومنع أى عدوان والحيلولة دون تطور أى خلاف عربى - عربى الى هاوية الحرب ، وهذا ما حدث فى أزمة الستينات خلال حكم عبدالكريم قاسم .

اعلان دمشق الذى وقعه الرئيسان حسنى مبارك ، وحافظ الأسد هو استمرار لهذا المبدأ الجوهرى فى نظرية الأمن ، بمعنى أن أمن الخليج لا يمكن أن يكتفى بذاته ، وإذا كانت هناك ضرورة للاستعانة بالغير، فإنها ستكون فى اطار الحفاظ على العروبة ، ومنع العدوان . وفى العمل السياسى الناجح لابد من الحفاظ على الضمير القومى الذى يعنى الحفاظ على العروبة ، والعلاقات العربية ، والمبادىء العربية .

واذا كانت مصر جغرافيا هى عنصر توازن بالنسبة للعرب فإنه لا أمن قومى لمصر بدون سورية ولا أمن قومى لسورية بدون مصر ، والنيل لا تحميه إلا مرتفعات سورية ، وعندما نتحدث عن مصر أمنيا لابد أن نضع فى الذهن ضرورة الربط بين أمن سورية ، وأمن مصر لأنهما بعيدا عن الحدود الجغرافية كتلة واحدة ، وهذا درس التاريخ القديم والوسيط والحديث . ولا يستطيع نهر النيل أن يدافع عن نفسه بدون البحر الأبيض المتوسط الذى تطل عليه سورية ، وليس ذنب الخليج أن كثافته السكانية بسيطة ، وبالتالى فإنه يصعب تكوين جيش وطنى كبير بسبب قلة عدد السكان ، فإن هذا النقص يمكن أن تعوضه الدول العربية ، ومصر وسورية فيهما الكوادر وقبل الكوادر فيهما دفء العلاقات الأخوية الصحيحة بغير طمع فى بترول ، ولا فى أرض وبغير استعلاء من كل الدول الغربية بالنسبة لكل ما هو عربى .

واذا كنا نقول : انه لا بديل عن الأمن القومى العربى الشامل وان هذا الأمن لابد أن يكون عربيا ، فلابد أن تظل كافة ترتيبات الأمن القومى العربى عربية فقط لا وجود للأجنبى فيها .

وكما يقول الرئيس حافظ الأسد فإن هذه المرحلة من أخطر مراحل التاريخ العربى واما أن يكتب لنا كعرب أننا نجحنا فى تجاوز آثار كارثة حرب الخليج من خلال الاستفادة من تجربتها المرة بخلق نظام أمنى قومى عربى خالص لا سيطرة فيه لقوى أجنبية ، ولا وجود فيه لقوات أجنبية فى أراضينا . وإما أن نقع فريسة تهافت القوى الأجنبية الغربية ، والاقليمية أو غيرها نتيجة غياب وعينا الكامل لحقائق التاريخ فهنا تكون سقطة ما بعدها سقطة فى تاريخ النضال العربى ، تنال من ازدهار هذه الأمة ، ووحدتها ، وسيادتها ، واستقلالها لسنوات لا يعلم مداها إلا الله ، ولن يغفر لنا التاريخ ، ولا الأجيال القادمة اننا قصرنا لسبب أو لآخر فى الدفاع عن العروبة ، وحقنا فى منع الوجود الأجنبى فيها ، أو السيطرة على مواردها .

التاريخ لحركة الأمة

٨

قراءة في فكر الأسد

التآمر على سورية

- □□ القصة من البداية .
- □□ محاولات تعطيل المسيرة التنموية والديمقراطية .
- □□ رفض الارهاب والعنف والتطرف .

□□ الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد، شأن كل الحركات الثورية في التاريخ كان ولايزال لها أعداؤها المتربصون بها.. هؤلاء الأعداء الذين توهموا بالجهل والغباء، والغرور أنه بمقدورهم إعاقة مسيرة هذه الحركة الثورية.

يلفت النظر أن هؤلاء الأعداء كانوا ينشطون دائما كلما قويت سورية، وكلما وضعت أقدامها على أعتاب نقلة حضارية معينة.

ومن يقرأ التاريخ القديم، قبل الاسلام يجد سواء في عهد الامبراطورية الفارسية أو اليونانية أو الرومانية البيزنطية أو الممالك التي كانت قبل ذلك سواء كانت ممالك فينيقية أو أشورية أو صينية أو فرعونية أو ما إلى ذلك.. يجد أن هؤلاء الأعداء في الزمن القديم حاولوا ابقاء حالة الضعف والتأخر سائدة في سورية.. إدراكا منهم أن سورية القوية عنصر خطر داهم عليهم، وأن مَنْ يستطيع أن يسيطر على سورية يكون بمقدوره وبسهولة السيطرة على الشرق الأوسط، وبالتالي يمتلك الشرق الأوسط، ولقد ظل هذا الاقتناع قائما في العصور الاسلامية، ولذلك كانت جميع غزوات الصليبيين والتتر على الأمة العربية تستهدف أولا سورية للاعتقاد نفسه، اعتقاد أن السيطرة على سورية يمكن أن تحقق الغاية المنشودة للطامحين، في العصر الحديث بقي هذا الاقتناع، وإن تغير التكتيك، احتلال الصليبيين لمصر، واخفاق حملتهم بالنسبة لمصر تكرر في العصر الحديث عندما جاء

نابليون واحتل مصر ولكنه وقف عند عكا ، وأخفقت الحملة النابليونية لأنها لم تستطع أن تحتل سورية .. محمد على عندما أراد أن يُقيم دولة عربية كبرى أيقن أن هذا لن يتحقق إلا إذا تحالف مع سورية، وأرسل ابراهيم باشا الذى احتل سورية، وفعلا كانت الامبراطورية العثمانية مهددة لولا تدخل الامبراطوريات آنذاك لمنع امكانية تحقيق قيام دولة عربية واحدة .

التآمر قديما وحديثا كان يهدف إلى خلق فكر معين فى دولة معينة لها موقع استراتيجى مُميز ولها تاريخ حضارى مميز أيضا موقع وتاريخ يمكنها من أن تشغل دور المحرض باعتبارها تقع موقع القلب من الأجزاء العربية ، سواء كان بالنسبة للأجزاء التى تتشكل منها بلاد الشام وهى لبنان وفلسطين والأردن أو بالنسبة للعراق والجزيرة العربية ، أو بالنسبة لمصر الشقيقة الكبرى ، على الرغم من الفاصل الاستعمارى الذى زرعه الاستعمار ممثلا فى اسرائيل لكى يعمق الانفصال بين جزئى الأمة العربية المشرقى والمغربى .

عندما تسلم الرئيس حافظ الأسد مقاليد الحكم فى سورية أراد أن يفجر الطاقات الكامنة فى الشعب السورى ليضعه على طريق الوحدة العربية ، وطريق التضامن العربى ، وطريق تحقيق المصالح العربية ، ولذلك كان التآمر على سورية هدفه الحيلولة دون الاستمرار فى مواصلة هذا الدور ، كان هناك التآمر لاحباط دور سورية فى لبنان لأن هذا الدور يعنى تقسيم لبنان . الأمر الذى يشكل حلقة متقدمة لتقسيم الوطن العربى إلى دويلات ، ولذلك كان لابد أن يتواصل التآمر على سورية لمنعها من القيام بهذا الدور .

يكفى أن نستدل على ذلك بالدور المركزى الكبير الذى تقوم به سورية لدعم الثورة الفلسطينية .. الثورة الفلسطينية انطلقت من الأراضى السورية ، ولذلك كان بعضهم يرى أن التآمر على سورية وتحجيمها يعنى إنهاء دورها الداعم بالنسبة للقضية الفلسطينية ، وكان هناك تآمر ثالث سببه أن سورية تمثل الفكر القومى العربى الذى يعمل على بعث روح الأمة العربية ، واستنهاض حضارتها الجديدة وبناء شخصيتها القومية ، وتحقيق وحدة اقتصادية ، ووحدة سياسية على غرار ما حدث عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية ، ولذلك كان التآمر هدفه التصدى للفكر القومى العربى لكى تبقى العوامل القطرية والأعمال التجزيئية السائدة ، وحتى تبقى مصالح الآخرين ، ولذلك كان من الطبيعى جدا هذا الحجم من المؤامرات المتناسب مع الحجم الكبير من الأهداف التى تقف وراء هذه المؤامرات ، ويبقى مبهرا فى التجربة السورية أن الشعب وحده هو الذى أحبط جميع هذه المؤامرات ، ومن بينها مؤامرة الاخوان المسلمين التى بدأت فى أواخر السبعينات ، واستمرت حوالى خمس سنوات ، من عام ١٩٧٨ وحتى عام ١٩٨٣ هذه المؤامرة التى كان الهدف منها تقويض أى دور فاعل لسورية على الصعيد العربى ، وعلى الصعيد المحلى ، وبالتالى جَعْل امكانية أى دولة

قومية تقوم على فكر يستوحى الشخصية القومية ، وبروحها الاسلامية . جعلها امكانية مشلولة ، لاسيما وأن **حزب البعث يستلهم الشخصية الاسلامية فى الروح العربية لأن الحضارة العربية هى مزيج تفاعل العروبة مع الاسلام** ، ونتاج هذه الحضارة تستلهمها سورية بأسلوب علمى معاصر لكى تأخذ كل ما فى ايجابيات التراث وتجعله متعايشا مع العلم المعاصر دون اخلال بالعقيدة . وفى هذا المجال يمكن ملاحظة ان هناك اصرارا على أن العقيدة يجب أن تكون مُصانة ومحترمة ، وأن يكون روح الدين الاسلامى سائدا ، والرئيس الأسد يُدرك أن الحضارة الاسلامية هى حضارة ساهم فيها المسلم وغير المسلم باعتبارها الحضارة الأشمل ، والحضارة الأسمى ، كما يحترم أى إنسان على عقيدة طالما أن هذه العقيدة تنطلق من وحدانية الله وللايمان به والايمان بالقيم والمثل ، ولذلك كانت بعض القوى الدولية والعربية تحاول أن تأخذ من أعداء التجربة السورية مخلبا لاغتيال النهضة القائمة فى سورية والتى ترمى إلى تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى البلد وإلى تحقيق فاعلية أكبر لدور سورية فى النطاق القويم لكى تستطيع أن تأخذ دورها فى الدفاع عن مصالح الأمة العربية وشرفها وكرامتها .

ولكن كما ذكرنا من قبل فإن حجما كبيرا من الأهداف والمثل العليا فى منطقة مهمة فى الزمان والمكان ، لابد أن يُواجه بهذا الحجم وليس هذا هو نهاية المطاف بل بالعكس ، إنك ترى أن الغرب قام بمؤامرة كبيرة على سورية متهما إياها بالارهاب ، وقد تزامنت هذه المؤامرة عندما كان الفلسطينيون يصعدون انتفاضتهم فى الداخل ، وكانت المقاومة اللبنانية تقوم بما يمليه عليها واجبها الوطنى فى التصدى لتحرير لبنان والعاصمة اللبنانية من الاحتلال الاسرائيلى ، والاحتلال متعدد الجنسيات .

شىء آخر لابد أن نقوله وهو : إنه فى هذه الفترة بالذات قام الاتحاد السوفيتى بغزو أفغانستان ، وقامت الثورة الاسلامية فى ايران ، ولذلك كان لدى الأمريكيين ظن بأن سورية يجب أن لا تتحرر اقتصاديا واجتماعيا بالكامل ، ظنا منهم أن هذا التحرر يصب فى خانة الاتحاد السوفيتى ، وكان بريجنسكى ينشط كثيرا لاقامة الندوات التى زُعم بأنها ندوات اسلامية اعتقادا منه أن تنشيط الجماعات الاسلامية هو السد الذى يقف ضد انتشار الشيوعية فى الشرق الأوسط ، لأن الشرق الأوسط منطقة مصالح ، ولذلك فى عهد كارتر وبريجنسكى نظمت المخابرات المركزية الأمريكية أكثر من (٢٥٠ ندوة) ظنا منهما بأن الاسلام هو الوحيد الذى سيقف فى وجه الشيوعية إذا حاولت الاقتراب من الشرق الأوسط ، وحتى فى بداية ثورة الخمينى كانوا يظنون أن هذه الثورة ستكون معادية للاتحاد السوفيتى ، وستقوم بدعم الثوار فى أفغانستان ، ولذلك لم يتخذوا منها موقفا إلا فى فترة لاحقة ، **ولذلك فإن ما جرى فى سورية وضد سورية كان بإرادة استعمارية لمنع سورية من تحقيق برنامجها فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى** ، وبناء التوازن

الاستراتيجى مع اسرائيل والحيلولة دون إحياء الجبهة الشرقية لاعادة التوازن إلى العرب . **ولكن كيف بدأت مؤامرة الاخوان المسلمين ضد سورية وماذا استهدفت وماذا حققت ؟ وما هى الدروس المستفادة منها ؟**

وقبل هذا كله كيف استطاعت قيادة الرئيس حافظ الأسد أن تحول دون مضى هذه المؤامرة فى طريقها المرسوم ؟

القصة من البداية

فى البداية لابد أن نُشير إلى النشأة الدينية التى شب عليها الرئيس حافظ الأسد ، والتى ساعدت على تكوين فهم عميق لديه لتعاليم الدين الاسلامى ، ومبادىء الشريعة الاسلامية .

كان والده يدرك عن ايمان راسخ أن من أعظم القربات الى الله تبارك وتعالى تعليم أولاده مبادىء الدين الاسلامى وبث الأحكام الدينية فى نفوسهم حتى يكونوا على بينة من أمرهم فى عباداتهم وأعمالهم .. **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

« من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وانما العلم بالتعلم ، وان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

ولقد اعتمد والد الرئيس ووالدته ـ يرحمهما الله ـ على أكثر الأساليب نفعا وأقربها الى العقول والقلوب فى بث تعاليم الدين الاسلامى ، لم يعتمدا كثيرا على المصطلحات الفنية التى قد تفوق قدرة الفتيان فى سنواتهم الأولى ، وكذلك التفريعات الكثيرة الفرضية ، وانما حاولا توصيل ما أمكن من معلومات من خلال أدلة الكتاب والسنة فى سهولة ويسر ، وحتى يشعر الأبناء بأنهم موصولون بالله ورسوله ، وفى ذلك أكبر حافز لهم على الاستفادة من المعرفة والاقبال على العلم .

ولقد كان حافظ الأسد شديد النهم لمعرفة كل ما يتصل بدينه ، ولقد ساعد ثراء الفكر الاسلامى وعطاؤه الغنى المتدفق المتواصل ساعد على تعميق ايمانه بأن الدين الاسلامى هو الدين الخاتم وهو الدين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والشريعة الاسلامية شريعة من عند الله سبحانه وتعالى لا يستطيع بشر أو مجموعة أفراد أو أمم أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، الشريعة الاسلامية جعلت من عدة افراد فى غرب الجزيرة العربية نواة لأمة عظمى امتدت من أندونيسيا والصين شرقا الى جنوب فرنسا ومناطق جنوب أوربا غربا . هذه الأمة عاشت حياة أمان ورخاء وترجمت

أمهات الكتب من الحضارات القديمة ، ولم تنغلق على نفسها ، ثم أضافت الكثير لتخرج بحضارة لا يمكن تكرارها إلا بتطبيق الشريعة من جديد ، وبزخم علمى وتقنى هو نواة التقدم الهائل الذى يستفيد منه العالم المعاصر الآن .

هذه هى الحقيقة التى استوعبها ـ وفى وقت مبكر ـ حافظ الأسد عندما كان يرى من خلال قراءاته انه تحت مظلة التشريع الاسلامى هنأت الشعوب التى كانت تشكل الأمة الاسلامية ، لا فرق بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم وغير مسلم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكانت الأمة الاسلامية ملاذ المعذبين فى الأرض ففروا اليها ينعمون بخيراتها ويسعدون تحت لواء أمنها دونما ارغام على التحول الى الاسلام ، فالمبدأ القرآنى يؤكد « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ولقد استطاع هذا الفهم العميق للدين الاسلامى أن يجعل حافظ الأسد يصمد فى وجه التطرف الماركسى وأيضا التطرف الاسلامى .. عندما حاول بعض المتطرفين الماركسيين أن يقيموا تنظيمات متطرفة لجأوا الى العمل فى الظلام لم يتجرأوا على الظهور لمناقشة أفكارهم مع الآخرين ولو خرجوا وظهروا وناقشوا فى ديمقراطية ربما كان الحال اختلف ، وربما كان يمكن أن يكون لهم موقف آخر .. الفهم العميق للاسلام جعل حافظ الأسد يؤمن ، ويطبق حرية كل الناس فى افكارهم ، ولكن عندما لجأ الفكر الماركسى الى الفكر الفوضوى الذى ينبذ ويرفض فكر الآخرين رفضه الأسد وتصدى له .

بالفهم نفسه رفض حافظ الأسد التطرف الاسلامى أو التطرف باسم الاسلام ، الرئيس حافظ الأسد رعى ومازال يرعى بكل الايمان الاسلام والمسلمين ، وفى عهده خلال العشرين عاما بنى من المساجد ما يعادل مابنى منذ مئات السنين .. لم يبخل على قرية أو على حى فى أن يقدم لها الدعم الكامل لكى تقيم مسجدا أو مدرسة دينية تعلم الاسلام ، انطلاقا من ايمان الرئيس الأسد بأن الرسالة العربية الخالدة التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتى كرم بها الحق سبحانه وتعالى العرب بأن جعل منهم رسولا ، هذه الرسالة الخالدة التى جعلت من العرب أمة واحدة جعلتهم أيضا يصلون الى أقصى درجات الرقى والتقدم ويشيدون حضارة بواسطته ، ولهذا فانهم مطالبون الآن بأن يعيدوا مجد أمتهم ، ومادام عهد الأنبياء قد انتهى فإن المهمة أصبحت مهمة الشعوب المنظمة ، مهمة الفكر الذى لا يتخلى عن روح الأمة ولا يغمض عينيه عن تطور العلم المعاصر والفكر المعاصر ، **ولذلك كان الرئيس حافظ الأسد يقول لمن أراد أن يفيض قلبه بهذا الايمان. أهلا وسهلا ، وعلى الرحب والسعة ، لأن الاسلام هو دين التسامح والنصح والمشورة** ، وأن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم سجل الفضائل والأحكام الخلقية التى دعت اليها المسيحية ، ثم خطا بالانسانية خطوات بعيدة

المدى الى الأمام ، فدعا دعوة صحيحة الى الديمقراطية فى أسمى وأرفع أوضاعها .

وكان الرئيس الأسد يردد دائما ان النظام الذى أتى به الاسلام دعا الى اختيار رئيس الدولة «الخليفة» بواسطة المبايعة «الانتخاب العام» وأن هذا الرئيس يتقيد فى تصريف شئون الدولة بنظام الشورى وهو صورة النظام البرلمانى الحديث الذى أكده القرآن الكريم فى بعض آياته اذ جاء به قوله تعالى : **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**وقوله تعالى ايضا :**﴿وشاورهم فى الأمر، فاذا عزمت فتوكل على الله﴾**كما أن القرآن الكريم قرر مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، ولم يفت الدين الاسلامى الحنيف أن يقرر أيضا مبادىء أخرى تجعل من النظام الديمقراطى حقيقة وفعلا وهذه المبادىء هى حرية القول والرأى والنقد ـ نقد الحكام فى سبيل المصلحة العامة .

وقد وضع الاسلام ايضا مجموعة من المبادىء الاخلاقية لتكون وقاية وحصنا منيعا يحفظ البنيان الديمقراطى الرفيع الذى شيده ، وقد سادت الديمقراطية فى أروع صورها بأصولها الحقة السليمة التى قررها الدين الاسلامى فى صدر الاسلام ، وفى عهد الخلفاء الراشدين الذين طبقوا مبادىء الدين الاسلامى تطبيقا سليما رائعا يحقق للبشر ما تصبو اليه نفوسهم من حرية ومساواة وعزة وكرامة ، وكثيرا ما استشهد الرئيس الأسد بمبادىء الدعوة السليمة الى الحق**﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾. الخ .**

وكثيرا ما أشار الرئيس الأسد الى أن وزر اهمال هذه المبادىء يقع على من أساءوا فهمها سواء لدى الأجيال المتلاحقة أو عند المتطرفين الذين عجزوا عن فهم ضرورة التوفيق بين الأصول العامة واحتياجات كل عصر وكل شعب ، وشوهوا المبادىء الاسلامية ، ولجأوا الى العبث والتزييف فى تفسيرها بحيث أصبحت مطية ذلولا لبغى الطغاة وأداة للقضاء على الحريات .

وما حدث من نكسات فى بعض العواصم الاسلامية ، انما يقع وزره على كاهل طائفة من المتطرفين الذين استهانوا بالمبادىء التى دعا اليها الاسلام واستعانوا بالخداع والتغرير والبطش لتحقيق مآرب مشبوهة فأعملوا القتل وسفك الدماء وخرجوا على قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾كانوا يعملون القتل فى كل من يخالفهم الرأى .. رفضوا الحوار .. حاول الرئيس الأسد أن يؤكد لهم ولغيرهم أن الحوار هو الحل الممكن ، وهو الحل الوحيد ، ومن أراد أن يصلح فعلى الرحب والسعة ومن كان مؤمنا فالحوار يتسع لدينا ، يتسع لكل المؤمنين ، ومن أراد أن يتسلح بعقيدة الاسلام ، فالاسلام هو روح العروبة هذا ما قيل للناس فى كل مكان ، فى المدارس والجامعات فى القرى وفى المصانع ،

ولكن بعض المدفوعين بتيارات خارجية ، ولمصلحة تيارات خارجية امعنوا فى القتل والتدمير ، ولذلك كان لابد لمجلس الشعب أن يضع قانونا لمكافحة الارهاب ، ويقيم عقابا رادعا لهؤلاء الذين يقتلون الأنفس وينتهكون الحرمات ويحرقون المؤسسات ، ويغتالون علماء أجلاء من علماء الدين والطبيعة والرياضيات والطب والقانون ، ولكن وعى الشعب السورى حال بينهم وبين أهدافهم ، واستطاع أن يلفظ هذه الفئة ، وأن يفرق بين المسلم المؤمن ، ومدعى الاسلام والايمان ، **وأكثر ما يعتز به السوريون وجود كوكبة من علماء المسلمين داخل مجلس الشعب** ، وفى المساجد ، ومن عادة الرئيس الأسد أن يقيم حفل افطار كل عام يلتقى فيه بعلماء المسلمين ، ويتبادل معهم الرأى ، ويحرص حرصا كبيرا على أن يصلى فى المسجد الأموى فى مختلف المناسبات الدينية ، وخاصة المولد النبوى الشريف مستلهما فى هذه الذكرى روح الاسلام ، وعظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وروح الجهاد والتضحية والايثار والايمان بالعروبة « **إنا أنزلناه قرآنا عربيا** » وقول سيد الأنام « **اذا عز العرب عز الاسلام** ».

ويحرص الرئيس على الصلاة مع جموع الشعب فى عيد الاضحى وعيد الفطر حرصا على حرمة هذه الأيام ، وكثيرا ما كان يضرب القدوة والمثل كيف يمكن أن يكون الانسان مؤمنا حقا بينه وبين ربه ومع شعبه ، **وكثيرا ما أكد الرئيس الأسد حقيقة الاسلام وفلسفته وطبيعته ، فهو روحانيات وماديات ، دين وسياسة ، والبراهين التاريخية تؤكد هذه الحقيقة التى استقرت عقيدة راسخة لدى المسلمين فى مختلف العصور السالفة كما أدرك هذه الحقيقة وهذا الوضع جمهور كبير من العلماء المستشرقين الباحثين فى الاسلام وفلسفته وأوضاعه.**

الشىء المبهر فى التجربة السورية انها لا تعرف التعصب أو العنف ، ترفض لأى فريق أن يلجأ لغير الحكمة والموعظة الحسنة .. **فى سورية لا توجد انتماءات طائفية** ، المسلمون غير **المنتمين** لأحزاب هم كالمسلمين المنتمين لأحزاب .. **رجال الدين المسيحى مثل رجال الدين الاسلامى ، مثل رجال الطائفة اليهودية** ، فى سورية كلهم يتمكنون من التعبير عن رأيهم ، الصراعات الطائفية لم تعد موجودة ، **ولا يمكن لأى فئة أن تدعى ان الرئيس الأسد مع هذه الفئة ضد هذه الفئة** ، ولا مع هذه الطائفة ضد هذه الطائفة ..

فى عهد الرئيس الأسد لا يمكن الادعاء بأن هناك فئة متسلطة على باقى أفراد الشعب .

رؤية لمفكر ومؤرخ كبير

ويلقى الأستاذ الدكتور سهيل زكار أستاذ التاريخ المعروف ونائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب ، يلقى الضوء على التجربة السورية فى هذا المجال فيقول : نحن فى

سورية من قبل نهاية الحكم العثماني وقبل مجيء الاستعمار الفرنسي سعينا لازالة الفوارق الطائفية وعندما حاول الحكم الفرنسي المستعمر تمزيق سورية الى دويلات اقليمية وطائفية ، وسعى بشكل مثير الى اقناع الدروز والعلويين بقبول فكرته بانشاء دولة درزية ودولة علوية جاء الرفض المباشر من الأماكن التى حاول اقناعها ، ومن جميع مناطق سورية .. يكفى أن نتذكر أن سلطان باشا الأطرش هو زعيم الثورة السورية .

وانتخب بالاجماع من قبل جميع قادة الثورة .. وهو من منطقة جبل الدروز .. وكل الناس تعد . صالح العلى وحسن الخراط وابراهيم هنانو ابطال ثوار قاوموا الاستعمار الفرنسى وسعوا لتحرير البلد .. وهنا نلاحظ أنه كان هناك تعاون بين صالح العلى وبين الحركات التحررية والثورة بحماة ومع المناطق السورية الأخرى .. بمعنى أن العامل الطائفى لم يكن له مكان فى الحياة السورية ، وعندما سعت الادارة الامريكية أيام كيسنجر أو قبل ذلك الى إحياء هذا التوجه رُفض وأميت هذا المسعى وازددنا تماسكا .. الآن القرية التى لم يكن بها مسجد فى الشمال والجنوب وفى الغرب فيها عدة مساجد .. القرية التى لم يكن فيها مؤذن صار فيها عدد كبير من المؤذنين وصار أى إنسان يستطيع أن يكون الامام ، والمشهد الذى شاهدناه فى مسجد المرحومة السيدة ناعسة والدة السيد الرئيس فى شهر أغسطس ١٩٩٢ وثيقة لا تدحض على الاجماع .. **وأن هذه الأمة أمة واحدة لا تعرف التمييز المذهبى ولا الطائفى** .. لا يوجد مسلم مهما كان انتماؤه لأى مذهب أو فرقه إلا ويرى أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وبالنسبة لغير المسلمين فقد تعايشوا مع الحضارة والعقيدة العربية الاسلامية منذ عصـــور مضت وعندما نذهب إلى محل مسيحى وتناقشه فى أى موضوع تجده يقول لك « **صلى على النبى** » .. وهذا مسيحى استخدم الاصطلاح لأنه ابن الحضارة وابن المجتمع .. وبالتالى هذا الانتماء وهذه الوحدة الوطنية كانت السبب المباشر فى كثير من المكاسب والانجازات ويوما تلو الآخر تزداد قوة ، لم أتعامل مع أى انسان فى أى يوم من الأيام وفكرت أن أسأله من أى جهة وما هى عقيدته .. لأن هذا هو معيار المواطنة . وقديما قيل:النساج لا يستغنى عن منتج الصوف أو القطن أو الكتان وأيضا لا يستغنى عن التاجر الذى سيبيع السلعة أو عن الخياط

معنى ذلك أن المجتمع مجتمع متكامل .. وإذا كان كذلك فينبغى أن تسهم جميع فئاته فى العطاء وفى الانتاج .. وطالما حكينا عن الهدف الأساسى والأسمى وهو صنع الانسان وبنائه .. وبناء الانسان يعنى أن تبنى الفلاح والبدوى . وابن المدينة وكل مواطن .. والآن نحن فى عصر التقنية والمكنكة واستخدام الآلات فى العمل الصناعى والزراعى كثير من المواطنين من الريف هم الذين يقودون الحياة فى جميع أوجه نشاطها.

على سبيل المثال انا عضو بقسم التاريخ بجامعة دمشق قبل بضع سنوات ربما كان اعضاء هيئة التدريس يحددون انتماءاتهم لدمشق .

أما الآن لا توجد محافظة أو منطقة بالريف إلا ولها من يمثلها ومن أكفأ الأساتذة .. وربما كبار الأدباء وعباقرة وشعراء ومثقفين سيخرجهم الريف .. فى تاريخنا أبو تمام ولد فى قرية جاسم بمنطقة حوران - جنوب سورية ولم يولد فى مدينة دمشق ، والبحترى من منبج ولم يولد فى المدينة، أبوالعلاء فيلسوف العرب وشاعرهم الكبير ولد فى معرة النعمان فهؤلاء حسب اصطلاحات الوقت الحاضر كانوا فلاحين وأبناء فلاحين لكنهم هم الذين حملوا مشاعل الفكر والثقافة ، وعندما نزيل الفوارق ونعطى الفرص لكل مواطن نكسب أكثر ونفجر ثورة اجتماعية وفكرية وثقافية حقيقية وهذا ما نعيشه الآن - وطبعا هذا أمر له بعض ردات الفعل ، ويكون له بعض الآثار الجانبية ولكن النهر الكبير يسير ولا يأبه بالتفرعات والأقنية والجزر الصغيرة التى يخلفها وراءه .

هل تعطلت المسيرة الديمقراطية

وأذكر أننى فى احدى جلسات الحوار مع لفيف من المثقفين وكان بينهم الدكتور سهيل زكار أن سأله أحد المثقفين العرب عن مدى صحة مايقال بأن المسيرة الديمقراطية فى سورية تعطلت قليلا عندما بدأ قطار الاخوان المسلمين يتحرك ، وعندما استعرض أمامه دلالات اغتيال الاخوان المسلمين لنوعيات معينة ، وماذا تعنى ، فالعميد عبدالكريم مرزوق هو أول من أطلق الصاروخ على اسرائيل سقط برصاص الاخوان المسلمين .

محمد الفاضل رئيس جامعة دمشق وعضو الجمعية الجنائية العالمية .. رجل علم وليس رجل سياسة . يوسف صايغ رئيس قسم فى كلية الطب جامعة دمشق. بدأوا ايضا مؤامراتهم بإحراق مؤسسات الدولة ووضع متفجرات فى الشوارع .. حادثة الأزبكية .. حوادث حمص .. حوادث حلب .. تفجير القطار .. كل هذه الأعمال من ٧٦ حتى ١٩٨٢ هل عطلت كل التوجه الديمقراطى أو رؤوس الأموال لتوظيفها فى البلد .. وهل صحيح أنه بعد التخلص من جماعة الاخوان المسلمين عادت المفاهيم الصحيحة لأن توضع موضع التنفيذ ، وجاءت الخطة الاقتصادية الخمسية .. هل لكم أن تحدثونا عن هذه الأمور التى طرحناها .

قال : الدكتور سهيل زكار:

أولا : لست مع فكرة عطلت أو أوقفت لكن قد نقول انها سببت التباطؤ فى حركة النمو

الديمقراطى .. إنما لم تعطل ولم توقف .. وقد قلت من قبل ان الادارة الأمريكية ومن مع هذه الادارة من أوساط أوربية أو غربية أو غيرها وأوساط عربية عميلة تورطت فى تفجير الاداة الدينية وجعلها وسيلة للتمزيق ، وطرحت ما تم فى قبرص ، وما تم فى لبنان وانظر إلى ما قام به الاخوان المسلمون أو من أطلقوا على أنفسهم اسم الاخوان المسلمين .. انظر إلى ما قاموا به ضمن هذا المنظور .. أولا لو كانوا مسلمين ما اقدموا على ذلك ولو آمنوا بمعنى كلمة أخوة ما أقدموا على ذلك .. هم بصريح العبارة عملاء .. قسم منهم دربه صدام وسلحه صدام ودفع لهم الأموال ، وقسم كبير منهم تدرب فى معسكرات فى الأردن وبتمويل من صدام حسين بموافقة من الملك حسين وباشرف من الـ [CIA] وفيما اعلن الملك حسين اعتذاره عن هذا الموقف.

كل الذين قاموا بالعمليات باستثناء بعض الشباب المغرر بهم أو الجريحين، أقصد كل الذين وقعوا فى موقع القيادة هم عملاء ومنحرفون وأعرف كثيرا منهم وعاصرتهم من الذين مازالوا على قيد الحياة والذين توفوا أو فى مكان آخر .. صدقا أنا لا أثق فى أى منهم ولا آمنهم على كأس ماء .. هم عملاء بكل ما تعنيه الكلمة والاسلام برىء منهم .. ولدينا القاعدة القرآنية فيما قاله الله لنوح : **إنه ليس من اهلك .. إنه عمل غير صالح والقاعدة الأخرى قاعدة مسجد الضرار** .. فى آخر غزوة للرسول صلى الله عليه وسلم نحو بلاد الشام تجمع المنافقون وقاموا بعمليتين أول عملية .. محاولة اغتيال الرسول عليه السلام فأخفقت والعملية الثانية هى أنهم بنوا مسجدا فى أطراف المدينة وأرادوا أن يجمعوا أو أن يكون مقرا للمنافقين فنزلت آية فى القرآن الكريم وحددته انه مسجد ضرار وأمر النبى صلى الله عليه وسلم من وحى ربانى بحرق المسجد على مَنْ فيه للتخلص من هذا الخبث . ونحن بحمد الله نجد قيادة حكيمة لم تفقد توازنها ولا بصيرتها فى الفتنة العمياء لأن كثيرا من الناس ـ دائما ـ يفقدون توازنهم فى الفتن .. أما قيادتنا فاستطاعت أن تحصر الفتنة وبالأخير تطفئها بأقل خسائر ممكنة ، وحمداً لله إجتزنا المحنة وعدنا إلى زيادة وتيرة الاصلاح والعطاء فى كافة الأوجه ، وبعض الناس يقولون إن ظاهرة الحكم وشكل الحكم .. ونحن لا يهمنا العناوين ولكن شكل التطبيق هو الذى يهمنا .

وأنا كباحث للتاريخ أنظر إلى التحول الاجتماعى والتحول الاقتصادى قبل أن أنظر إلى التغير السياسى وأرى أن الحدث السياسى محصلة لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية ويهمنى التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية،وأرى عندما تحدث عملية البناء الاقتصادى والثقافى والصناعى والأمنى،تحدث عملية التغيير السياسى بصورة آلية مثلما يحدث أثناء المرض تناول العلاج فبعد انتهائه ينال الانسان الصحة بشكل طبيعى ، ولا يجب أن تشغلنا بعض الحملات ..

الانسان مثلما قال أحد الكتاب العرب يتغير من عقله ﴿إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

الفرق بين الاخوان المسلمين والأصوليين

هناك من يرى أنه من الأهمية بمكان التفرقة بين تنظيم الاخوان المسلمين والأصوليين، فالأصوليون يعتمدون على الكتاب والسنة ويحافظون على التراث والأخلاق والبيئة، ولكن الدكتور سهيل زكار لا يميل لكل هذه الاصطلاحات ويقول: إنني مسلم فقط إن الدين عند الله الاسلام ولا يوجد في الاسلام لا أصولية ولا غير أصولية والرسول صلى الله عليه وسلم سُئل عن المراتب في الاسلام قال فيه .. اسلام وايمان واحسان ولم يقل هناك أصولية وعدم أصولية فأنا شخصيا لا اقبل كل هذه الاصطلاحات إن الدين عند الله الاسلام، والاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. والاسلام كل.

إنني أقوم بعبادتي لله ليس لكي اكون بين الناس مميزا ولكن هذه علاقة بين العبد وربه، وذلك للجزاء الأخروي وليس لعمل مستهلك في هذه الدنيا .. انني مسلم لانقاذ روحي ولايماني بعقيدة الاسلام، والاسلام نظام فيه حل لكل مشاكل بني البشر .. وليس لكي اكون أصوليا أو محافظا أو غير ذلك .. ولا أقبل هذه الاصطلاحات لأنها كلها مُصَدَّرة إلينا تصديرا، وليست من صنع تاريخنا، وإنني كباحث في تاريخ الاسلام لم أجد أحداً سَمَّى العز بن عبدالسلام أو الإمام الشافعي أو أبا حنيفة أو الإمام مالك بأي تسمية من هذه التسميات ولا هم سَمُّوا أَنْفُسَهُم بذلك. والاسلام يكفينا شرف هذا الانتماء ولا نحتاج معه إلى تسمية أخرى.

الاخوان المسلمون خطأ البداية وخطيئة النهاية

قبل أن نبدأ الحديث عن مؤامرة تنظيم الاخوان المسلمين وكيف خطط لها وكيف سار تنظيمها وكيف تطورت، وكيف انتهت وعلى ضوء الوثائق التي أجابت بوضوح على هذه الأسئلة وغيرها، فإنه من الأهمية بمكان أن نعرف لماذا اختيرت سورية مكانا لهذه المؤامرة التي جمعت بين ائتلاف من نوع مثير؟

وليس سرا ان الولايات المتحدة الأمريكية في اطار سعيها لفرض هيمنتها على المنطقة العربية، والتحكم بمقدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية قد سعت الى ازالة كل العراقيل التي تعرقل تحقيق هذا الهدف، ومن المعروف ان اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالمنطقة العربية ليس حديث عهد، ولا يعود فقط كما يتصور بعضهم

الى اواسط الخمسينات يوم طرحت الادارة الأمريكية نظرية **ايزنهاور** لملء الفراغ الذى تصورت الادارة الأمريكية انه بمقدورها أن تحل محل اتباعها فى حلف **الناتو** بعد أن تقلص النفوذ البريطانى والفرنسى الاستعمارى فى منطقة الشرق الأوسط اثر اندحار وهزيمة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

تتبع مسار الأحداث منذ بدايات القرن الحالى يشير الى أن الاهتمام الأمريكى ترافق مع زرع الكيان الاسرائيلى فى فلسطين المحتلة ، ولقد أخذت مراحل هذا الاهتمام تتصاعد بشكل متصل حتى وصلت الى قمتها بعد حرب تشرين ـ اكتوبر التى احدثت زلزالا داخل اسرائيل وقهرت أسطورة اسرائيل التى لا تهزم ، ووضعت الأمة العربية على بداية طريق جاد وطويل لاسترجاع الحقوق المغتصبة ، ولقد شهدت المنطقة محاولات متصلة للالتفاف على حرب تشرين وفرض حلول لا تنسجم مع الأمانى القومية من جهة وتلبى احتياجات اسرائيل من جهة أخرى ، **وليس من قبيل المبالغة أن سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد ظلت تواجه بوجه خاص تحديات ضد محاولات متصلة للهيمنة على المنطقة العربية** الامر الذى جعلها تستحق وبحق تسميتها بقلعة الصمود والتصدى فى زمن التداعى العربى ، ولقد أدى الصمود السورى إلى احباط محاولات عديدة للاطباق على المنطقة ، **يكفى أن نشير الى اسقاط الرئيس حافظ الأسد لمشروع ريجان وقطع الطريق على اللاهثين وراءه ، يكفى أن نشير أيضا الى النصر التاريخى الذى حققته سورية فى نيسان عام ١٩٨٤ بإسقاطها اتفاق ١٧ ايار.**

اتفاق ١٧ مايو ـ آيار الأمريكى الاسرائيلى الكتائبى الذى أريد فرضه على لبنان ، وسقط قبل أن يجف مداد الحبر الذى كتب به **على حد تعبير الدكتور أسامة الباز وكيل أول وزارة الخارجية المصرية ، ومدير مكتب الرئيس للشئون السياسية** ، هذه المواقف وغيرها جعلت القوى المعادية للأمة العربية تدرك حجم الخطر الذى تشكله سورية **على اطماعها فى احتواء المنطقة** ، وأن استمرار هذا الوضع سيحول دون تنفيذ المخططات الكثيرة التى تستهدف الهيمنة على المنطقة العربية ، ولقد تتابعت المؤامرات الخارجية التى كانت أحداث لبنان مظهرا لها ، إلا ان سورية ، وفى اطار مبادرة تاريخية وأخوية تجاه لبنان قامت بحماية لبنان والحفاظ على وحدته أرضا وشعبا بعد أن كانت مخططات تقسيم لبنان الى كيانات طائفية هزيلة قد أعدت فى اطار توفير المناخ المواتى للكيان الاسرائيلى للبقاء والاستمرار ، وفى نفس الوقت حافظت سورية بقيادة الأسد على وجود المقاومة الفلسطينية ـ على الرغم من اخطاء بعض اطراف قيادتها ـ لان تصفيتها كانت من بين أهداف المخطط التآمرى ، **ولسوف يتوقف التاريخ طويلا للتقدير والعرفان ، وهو يسجل تصدى سورية للمعتدين الصهاينة فى أوائل يونيو حزيران ١٩٨٢** عندما تعرض لبنان للعدوان الاسرائيلى الهمجى ووقفت وحدها تدافع عن لبنان وعن الأمة العربية ،

وضرب رجالها البواسل أروع أمثلة البطولة والتضحية برا وجوا نيفا وسبعين يوما ، وعندما أراد الأعداء استثمار نتائج الحرب بفرض اتفاق الاذعان على لبنان وقفت سورية بقيادة الرئيس الأسد بقوة وحزم ضد هذا الاتفاق الذى كان من شأنه أن يحول لبنان الى محمية اسرائيلية ويقطع أواصرها بمحيطها العربى ، وانتصرت ارادة الحق وسقط اتفاق **١٧ ايار - مايو ، وواصلت سورية جهودها الأخوية تجاه لبنان لتحقيق الوفاق الوطنى على الساحة اللبنانية عبر حوار الأشقاء .**

هنا فكر المتآمرون فى محاولة التأثير على صلابة الموقف السورى من الداخل ، اعتقدوا ان سورية ستكون سهلة المنال ، وكان من الطبيعى أن يفتشوا عن احتياطيهم لتنفيذ مؤامرة قذرة **ترمى إلى اغراق سورية ببحر من الدم** ، ووجدوا فى بعض قيادات حزب الاخوان المسلمين ضالتهم فعمدوا الى تدريب بعض افرادها على أعمال القتل والغدر وتخريب المؤسسات فى معسكرات أقيمت لهم خصيصا فى الأردن وفى العراق ، وأمدوهم بكميات كبيرة من الأسلحة ، مسدسات ، بنادق ، رشاشات ، قاذفات أر بى جى مدافع هاون ، وكل ما يحتاجه النشاط التخريبى على صعيد سورية ، ووضعوا لهم الأموال التى تمكنهم من تجنيد المزيد ، وكما كشفت الوثائق فقد كانت التوجيهات أن يعملوا القتل فى الأطفال والنساء والشيوخ والعمال والفلاحين والطلبة والأساتذة والمهندس والمحامى ورجال الشرطة . والجنود ورجال الدين ، وجميع فئات المجتمع بغير تمييز على النحو الذى وضح فى المجازر التى ارتكبوها ضد فئات المواطنين كمجزرة مدرسة المدفعية بحلب ، ومجزرة الأزبكية فى دمشق ، ومجازرهم الأخرى فى حماة وغيرها ، ولقد امتدت جرائم هذه الطغمة لتتناول المؤسسات الاقتصادية التى بنيت بعرق الجماهير الكادحة ، ولقد احتمى هؤلاء وراء التستر بالدين ، وفاتهم ان الدين الاسلامى هو دين الرحمة والانسانية والاخوة والمحبة والتسامح **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه « **الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله** » ، وأحكام الشريعة الاسلامية تحرم قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق **﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾** ، **﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما﴾** ولقد كانت أعمال هذه الفئة دافعا لصدور القانون رقم ٤٩ لعام ١٩٨٠ الذى حدد جزاء من ينتمى لهذه الفئة بعد أن أعطى المضللين والمغرر بهم الفرصة الكافية ليثوبوا الى رشدهم .

تنظيم الاخوان المسلمين فى سورية

ترجع هذه النشأة الى الفترة الممتدة من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٣٦ وهذه الفترة كانت كافية لامداد جوانب تنظيم الاخوان المسلمين الى خارج مصر وقد ساهم فى ذلك بعض الطلبة الذين وفدوا الى معاهد الأزهر للتخصص فى العلوم الدينية ، فقد كان التجمع الاخوانى الأول فى سورية بين تنظيم طلاب مدرسة الشريعة فى حلب باسم [دار الأرقم] ثم أسسوا فى دمشق جمعية الاخوان المسلمين ، وفى حمص الرابطة ، وفى حماة الاخوان المسلمون ، ثم انتشر التنظيم باسم جمعيات فى كل من دير الزور واللاذقية وانشىء للتنظيم فروع فى بعض الدول الغربية ، وحيث كان يتابع الطلبة السوريون دراستهم العليا ، ولم يستمر وضع الجمعيات المنتشرة فى محافظات سورية طويلا بل انضموا فى تنظيم واحد سمى **تنظيم شباب محمد** وعقد هؤلاء مؤتمرهم الأول والثانى فى حمص ١٩٣٧ والثالث فى دمشق عام ١٩٣٨ ، وتقرر فيه جعل مركز القيادة العامة فى حلب لابتعادها عن مركز السلطة المركزية فى دمشق ، وللاستفادة من قربها للأراضى التركية ، باعتبار أن الاستعمار العثمانى كان امتدادا للخلافة الاسلامية حسب قولهم ، وعقد المؤتمر الرابع فى حلب حيث اتخذ قرارات بانشاء تنظيمات شبه عسكرية عرفت باسم **السرايا** ، **والفتوه** وفى عام ١٩٤٤ عقد المؤتمر الخامس فى حلب واتخذت فيه مقررات لتشكيل لجنة مركزية عليا من ممثلى كافة الفروع للمحافظات ، وتقرر أن يكون مقر اللجنة فى دمشق ، كما تم انتخاب الشيخ مصطفى السباعى مراقبا عاما لتنظيم الاخوان المسلمين فى سورية ، **وتقرر تغيير اسم تنظيم « شباب محمد » باسم حزب الاخوان المسلمين** ، وكان من أبرز زعمائهم مصطفى السباعى ، ومحمد المبارك ، ومعروف الدواليبى ، وكان من ابرز نشاطهم تأسيس المعهد الثانوى العربى فى حلب ، ثم دار للطباعة والنشر العربية فى دمشق ، ثم صحيفة المنار ، وكان واضحا أن التنظيم السورى للاخوان المسلمين يشمل سورية ولبنان ، وفى عام ١٩٤٦ عقد المؤتمر السادس للاخوان المسلمين فى دمشق ، حيث كانت الحكومة آنذاك تبارك أى عمل يناهض الأحزاب الوطنية باسم الدين واتسم النشاط فى هذه الفترة بالسعى نحو التوسع فى التنظيم داخل المدارس والجمعيات العامة والمساجد بواسطة الصحف والمطبوعات بالاضافة الى اقامة المعسكرات التدريبية ، **وفى عام ١٩٤٧ اشترك تنظيم الاخوان المسلمين فى الانتخابات وفاز أحد مرشحيه عن دمشق** ، وفى انتخابات الجمعية التأسيسية استطاع حزب الاخوان المسلمين الوصول الى مقعدين نيابيين وتمكن بواسطتهما من السيطرة على عدد من النواب داخل المجلس ، وكان احد ممثلى هذا الحزب ويدعى محمد مبارك وزيرا فى العديد من الوزارات المتعاقبة ، وفى عام ١٩٥٤ امتنع الاخوان المسلمون عن المشاركة فى المعركة الانتخابية واستغلوا صدور أحكام فى مصر على بعض قادة حزب الاخوان المسلمين بالاعدام **عبدالقادر عودة وجماعته** حيث قاموا بمظاهرات احتجاج فى عدد

من المدن السورية أدى الى سحب الحكومة المصرية لسفيرها من دمشق احتجاجا على تزايد نشاط الاخوان المسلمين لأن المصريين فى حينها كانوا يعانون من حملة يقوم بها الاخوان المسلمون فى مصر ضد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، واستمرت حتى العدوان الثلاثى لمصر ١٩٥٦ **ويقال ان الاخوان المسلمين نجحوا فى احباط اللقاء بين القطرين المصرى والسورى الذى توصلا اليه فى العشرين من تشرين ـ أكتوبر ١٩٥٥** وكذلك تجميد الاتفاقية حول انشاء قيادة عسكرية موحدة لمواجهة حلف بغداد ، وفى عهد الوحدة المصرية السورية بين عامى ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ انتقل حزب الاخوان الى مرحلة العمل السرى حيث ساهم فى ضرب الوحدة عام ١٩٦١ ، ثم شارك فى حكومة الانفصال حتى قيام ثورة آذار ١٩٦٣ .

الاخوان المسلمون فى مواجهة سورية منذ قيام ثورة آذار ١٩٦٣

تشير بعض المصادر السياسية الى أن حزب الاخوان المسلمين عارض ثورة مارس آذار منذ اليوم الأول لقيامها حيث تمكنت عناصر منهم فى عدد من المحافظات فى تحريض البعض ضدها ، واثارة حوادث شغب فى بانياس وحمص فى شهر فبراير ـ شباط ١٩٦٤ وفى حلب فى شهر مارس ـ آذار ١٩٦٤ ، وفى حماة فى شهر ابريل ـ نيسان ١٩٦٤ ، ومن خلال هذه الأحداث بدأ مروان حديد من حماة طرح فكرة العمل المسلح ضد السلطة . وأعقب ذلك اقامة دورات تدريبية فى الأردن لتدريب عناصر الاخوان المسلمين على كيفية استخدام السلاح للاستفادة منهم مستقبلا ، وفى عام ١٩٧٣ ومن خلال الأحداث التى رافقت طرح الدستور الدائم على الاستفتاء الشعبى ظهر **مرة ثانية**: مروان حديد ودعا علنا الى تشكيل تنظيم مسلح من الاخوان المسلمين لمحاربة النظام القائم فى سورية .

ولأن تتبع نشاط الحركة ليس بين أهداف هذا الكتاب فإننا نشير الى أن تنظيم الاخوان المسلمين وجد دعما واهتماما لدى بعض الأنظمة العربية وخاصة فى الأردن والعراق حيث مكنهم هذا الدعم من متابعة نشاطهم منذ عام ١٩٧٩ ، وتشير المصادر المشار إليها إلى أن تنظيم الاخوان المسلمين وجد دعما أيضا مع القوى المعادية ، وأقام علاقة وثيقة مع الحكومتين البريطانية والأمريكية اللتين شجعتا على اقامة تنظيمات طائفية معادية للنضال القومى العربى ضد التحرر .

وكانت المخططات التى طرحتها القـوى الاستعمارية آنذاك تقوم على أساس استغلال المشاعر الدينية عند الجماهير وتملقها وتحريضها وتحويلها الى قوة معادية للمصالح الحقيقية لهذه الجماهير ، ولكى تكون فى خدمة أهداف السياسة الاستعمارية ،

وليس سرا انه كان من السهل نسبيا وقتها اثارة النعرات الطائفية فى سورية ولبنان وفلسطين بحكم تعدد الطوائف والمذاهب فيها .

وعلى الرغم من أن نشاط تنظيم الاخوان المسلمين يرجع الى النصف الثانى من الثلاثينات فإن نشاطهم الفعال لم يبدأ إلا فى أواخر الأربعينات وبعد أن تولى تنظيمهم الشيخ مصطفى السباعى .

وقد برز دور التنظيم فى معارضة السياسة السورية المعادية لحلف بغداد كما عارضوا التقارب المصرى السورى وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة لجأوا الى العمل السرى ، وعادوا الى الظهور بعد الانفصال بين مصر وسورية فى سبتمبر أيلول ١٩٦١ ، وأسهموا فى الحكومات التى تولت الحكم فى تلك الفترة ، وبعد ثورة الثامن من مارس آذار ١٩٦٣ وقفوا موقف العداء منها ، ولكنهم عادوا الى التحرك بعد الردة التشرينية ونكسة حكومة الحزب فى العراق فى ١٨/١١/١٩٦٣ فقد اعتقدوا أن الفرصة قد سنحت لهم فى سورية بسقوط حكم الحزب فى العراق ولكن محاولتهم لاثارة العصيان فى دمشق وحمص اخمدت ، ولكنهم ما لبثوا أن جددوا محاولتهم بعد شهرين فاستغلوا ذكرى قيام الوحدة المصرية السورية فى ٢٢ شباط فبراير ١٩٦٤ لتجديد محاولات اثارة الفتنة فى بانياس وحمص وحلب فى شهر مارس آذار ١٩٦٤ ، وفى حماة فى شهر نيسان ابريل ١٩٦٤ [حوادث جامع السلطان] التى يعتبرونها فى دمشق بداية العنف المسلح الذى طوره الاخوان المسلمون فيما بعد ضد ثورة الثامن من آذار ، وخاصة بعد مغادرة عصام العطار مراقب عام تنظيم الاخوان المسلمين فى سورية الى الخارج وظهور قيادات جديدة للتنظيم .

بعض المراقبين يشيرون بأصابع الاتهام الى تنظيم الاخوان المسلمين فى مساندة مخطط السياسة الأمريكية بعد حرب ١٩٧٣ ، وهو المخطط الذى قاده هنرى كيسنجر بعد حرب تشرين أكتوبر والذى عمل على اجهاض منجزات هذه الحرب والتى تجلت فى بروز أهمية التضامن العربى ، وزج جميع الطاقات العربية فى المعركة ضد العدو ، كانت الأهداف التى يسعى اليها كيسنجر تقوم على تعريب الصراع فى المنطقة واعادة العرب الى جو الهزيمة واليأس ، وعزل الأقطار العربية عن بعضها البعض ، وفرض الصلح مع اسرائيل على العرب ، الى جانب اثارة الصراعات الطائفية فى المنطقة العربية وطرح سياسة الخطوة خطوة وتصفية القضية الفلسطينية .

غير أن التطورات التى جرت بعد ذلك أحبطت المحاولات الأمريكية ، وساعد انعقاد مؤتمر القمة العربى السابع فى الرباط فى ٢٦/١٢/١٩٧٤ على الوصول الى نتائج ايجابية أهمها الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى وحيد للشعب العربى

الفلسطيني ، وطرح القضية الفلسطينية بجميع أبعادها ، وقد أدى اخفاق السياسة الأمريكية في تخريب مؤتمر القمة السابع الى تفجير الأزمة اللبنانية بدءا من مجزرة عين الرمانة في ١٣/٤/١٩٧٥ ضد المقاومة الفلسطينية ثم تتابعت الأحداث بعد ذلك على النحو المعروف .

وتشير المراجع التاريخية الى أن تصعيد الاخوان المسلمين لتآمرهم على سورية يرجع الى هذه الفترة ، ويرتبط بالاستراتيجية الأمريكية الاسرائيلية التي طرحت بعد حرب أكتوبر تشرين التحررية لاثارة الفتن الطائفية واضعاف تماسك الجبهة الداخلية . ويشير ايضا الى أن الاخوان المسلمين بدأوا محاولات اعادة تنظيمهم في سورية منذ بداية عام ١٩٦٨ ومطلع ١٩٦٩ عندما حضر عصام العطار من ألمانيا الغربية الى عمان تم الاتفاق على تأسيس قيادة مؤقتة تضم ممثلين عن محافظات سورية ، وأقيمت أول دورة تدريبية لعناصر الاخوان المسلمين عام ١٩٧٠ .

وظهرت أعمال هذا التنظيم عام ١٩٧٣ في فترة الاستفتاء الدائم على الدستور وفي منتصف عام ١٩٧٥ بدأ الاخوان المسلمون في التنفيذ ضمن الدور المرسوم لهم في المخطط المستهدف نظام الحكم في سورية ، ويضيف المصدر المشار اليه أن **المرحلة الأولى** من المخطط استهدفت اغتيالات فردية للبارزين من المدنيين والعسكريين في سورية بهدف القاء الذعر في نفوس المواطنين واظهار الأوضاع الأمنية بمظهر عدم الاستقرار بالاضافة الى الايحاء بالطائفية وتغذيتها ، ولقد تصاعدت هذه الاغتيالات حتى بلغت ذروتها في مجزرة مدرسة المدفعية في حلب في يونيو/ حزيران ١٩٧٩ ، ثم بدأ **بعد ذلك الانتقال من الاغتيالات الفردية الى الاغتيالات الجماعية** ، وقد تمثلت هذه المرحلة في تخريب المؤسسات الاقتصادية وتدميرها لاضعاف المجهود الاقتصادي للبلاد ، وكذلك الاعتداء على المواقع العسكرية والتخطيط لنسف بواخر وقود الطائرات في البحر ، ثم كانت **المرحلة الثانية** من المخطط تتمثل في اثارة الفتنة والعصيان المسلح في مدينة حماة عام ١٩٨٢ حيث أعملوا القتل والمجازر الدموية ، وكاد هذا المخطط أن يصل الى الفتنة لولا أن تصدت السلطة لتصفية المتآمرين وصادرت جميع الأسلحة التي كانت بحوزتهم فأخفقت هذه الفتنة في تحقيق أهدافها ، وسقطت معها جميع الأهداف التي استهدف المتآمرون التوصل إليها ..

جوهـــر الخـــلاف

يكمن جوهر الخلاف بين السلطة السورية وتنظيم الاخوان المسلمين في اصرار التنظيم على استمرار العلاقة التناقضية بصورة شاملة بين الاسلام والحقائق الأخرى كالعروبة والمعاصرة والعلم والثورة .. السلطة ترى أن تنظيم الاخوان المسلمين يعتقد أنه لكي نتمسك بالاسلام فلابد أن نلغي كل الانتماءات الأخرى حيث يعتقدون أن

الانتماءات الأخرى يمكن أن تخلق بعض أشكال التعثر أمام الاسلام كمادة نظرية وكنص عقائدى وكبناء تنظيمى ، يضيفون أيضا أن القومية العربية ، نقيض للانتماء الاسلامى ، وواقع الحال ان الاسلام والعروبة جزءان عضويان فى مسيرة واحدة ، وأن الله سبحانه وتعالى أعز العروبة بالاسلام ؛ وأعز الاسلام بالعروبة ، وهو أمر معروف تاريخيا ومتداول علميا عند كل السلف الصالح ولدى كل الباحثين المسلمين عربا أكانوا أم غير عرب ، والاساءة للعروبة والاسلام والمعاصرة والعدل انما تشكل فى جوهرها اساءة للاسلام ، وللمسلمين ، وهم فى سعيهم لبناء دولة الاسلام واقامة حدود الله وشرعه كما يقولون يعطون أنفسهم حقوقا يرفضها جوهر الاسلام ، فالاسلام منطلق حضارة وتفاعل أما التكفير والتحقير والعداء فأمر يرفضه القرآن الكريم وترفضه السنة المطهرة ، كذلك فإن العنف والقتل والارهاب تحت مظلة الاسلام مناقض للمبدأ القرآنى الذى يجعل قتل النفس البشرية عملية تعادل قتل الناس جميعا ، الاسلام ليس نقيضا للمعاصرة وللعلم ، ولتفجير الطاقات الكامنة فى الانسان فالمؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، والاسلام وضع مبادىء عامة وأرسى قواعد للاجتهاد والقياس والاجماع والمصالح المرسلة .. الخ .. **الاسلام وضع قواعد عامة، وترك تفصيلات الحياة لاستنباطها، من هذه القواعد العامة . ان القيمة المطلقة والكبرى فى الاسلام هى الانسان من جاءت لأجله الرسالات وأعدت الجنة والنار، ولخدمته موجودات الأرض والسماء**، والانسان تطور وتواصل ، والزمن جوهر التطور والتواصل فكيف يجوز أن يدعى الاخوان المسلمون أنهم مع الاسلام كمبدأ كمعنى وأساس فى الحياة فى الوقت الذى يتجاهلون فيه بل ويتناقضون مع الانسان والعصر غاية الاسلام ومحور حركته ، ان تحدى التخلف والجهل والتراجع ليس إلا جانبا من المعركة الشاملة التى دعا اليها الاسلام لاحداث النهوض المطلوب ، السلطة ترى أن الأهداف التى يسعى اليها تنظيم الاخوان المسلمين من خلال أساليب القتل والتفجير والاغتيال وأن زرع الجو السياسى والاجتماعى والنفسى للجماهير بالاضطراب والقلق من خلال القتل والتفجير .. الخ هدفه اضعاف رؤية الجماهير لحقيقة ما يجرى على الساحة العربية .

أما الهدف الثانى فهو افساح المجال للبدائل المستوردة لتكون الطائفية بدل الوحدة الوطنية والتخلف والجهل والخرافة بدل العلم والتقدم والثورة والمعاصرة ، والتجزئة بدل الوحدة والانغلاق بدل التفتح والانفتاح .

ويقول المؤرخ الدكتور سهيل زكار : ان الاخوان المسلمين فى هذه المرحلة تسللوا فى وقت يحتاج الى عناية خاصة ، ويضرب مثلا لما حدث فى بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة ببضعة أشهر عندما جاء الذين تجمعوا حول النبى صلى الله عليه وسلم بالعقبة بمكة وكان عددهم قرابة المائة مسلح وأهل مكة نائمون والحجاج نائمون ليلا وكذلك قبائل العرب، وقبائل

شبه الجزيرة .. قام واحد من الموجودين وقال : يا رسول الله ماذا لو ملنا على أهل الموسم وأهل مكة ميلة رجل واحد ؟ فتبسم الرسول وقال ما بهذا أمرنا ، ما بهذا أمرنا .. فهو لم يؤمر بالقتل وعندما خاض معركة بدر طلب من المسلمين عدم ملاحقة الفارين من جيش قريش واستخدم الحرب كوسيلة ردع في المعركة ، ومنع مطاردة المهزومين وقتلهم في كل معارك النبي صلى الله عليه وسلم . وجاء النبي رحمة .. وعندما دخل مكة قال:ماذا ترون اني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

يضيف الدكتور زكار عندما جاء أحد المسلمين الى الرسول عليه السلام وقال له انتقمت لقتلى بئر معونة .. شاهدت اثنين تظاهرا بالاسلام فقتلتهما فقال له الرسول : هل كشفت عن قلبيهما ؟ وعاقبه الرسول لما اقترفه بحسن نية ودفع دية القتيلين .

من الذي يسوغ قتل المسلمين وترويع الآمنين ؟! هل الدين يؤيد القتل ، أو تفجير الطائرات وترويع الآمنين ؟!

لماذا تحرك الاخوان المسلمون ضد سورية ؟

ترى الدوائر السورية أن تحرك الاخوان المسلمين بهذه الشراسة ضد سورية في مرحلة ما بعد أكتوبر تشرين هدفه تهيئة الظرف المناسب لتحقيق هدف خارجي ولإرباك الجماهير واشغالها عن التصدي لهذا الهدف في هذه الفترة التي يعاني منها الوطن العربي من حالة التفكك والتناقض ، وواضح تماما أن سورية العربية التي قادت مشوارا دءوبا فيه التضحيات الكبيرة والوعي المتقدم لاجهاض التحرك الاطلسي الاسرائيلي في لبنان ، والتي استطاعت أن تمنع أي احتمال لتشكيل طائفي تشكل عائقا أمام أهداف عديدة في المنطقة يساهم فيها تنظيم الاخوان المسلمين الذي يسعى بدوره لنسف مرتكزات الوجود القومي .

رفض الارهاب والعنف والتطرف

رؤية الرئيس الأسد للاسلام أنه دين واجه كل متطلبات الحياة ، وهو كما يقول : دين الانسانية ، فيه العقيدة ، وفيه الشريعة ، والأحكام التي جاء بها منظمة لحياة الانسان الفرد والأسرة والجماعة .. نجد هذا واضحا ، إما مفصلا تفصيلا جزئيا في السُّنَّة ، وإما مُبيَّناً على وجه الاجمال في القرآن الكريم ، ورؤية الرئيس الأسد للاسلام أنه كان بداية فتح عهد جديد ، وكانت ولا تزال الدعوة الاسلامية وستبقى دعوة عامة لكل البشرية﴿ **وماأرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾ولقد مرت القرون تلو القرون بعد دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقيت صالحة لكل زمان ومكان .. فهي الرسالة

الخاتمة ، ولم يأت رسول بعده على امتداد أربعة عشر قرناً مما يؤكد صلاحية هذه الدعوة لكل العصور ، ومن المعروف أن الرسالات السماوية كانت تتلو بعضها بعضا ، بل كان بعضها يعاصر بعضا ، وبقى القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وبقى كذلك دون تحريف أو شبه تحريف **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.**

ولقد جاء الاسلام فى وقت كانت البشرية فيه تترنح تحت ضربات الشك والحيرة والتردى ، فأوحى الله بالقرآن والاسلام إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليرد الخلق إلى الرب ، وليكشف عن غريزة التدين فى النفس البشرية ، وما تغشاها من ضلال وتحريف وأدى الاسلام هذه المهمة المقدسة بكل نجاح واقتدار ، فأيقظ فى النفس البشرية الفطرة الكامنة التى فطر الله الناس عليها ووجهها نحو الايمان بالله الذى لا يمكن أن يكون هذا الكون الهائل العجيب قد خُلق ونُسق فى غيبة عن وجوده ، ووجه هذه الفطرة إلى الايمان بالغيب ، إيمانا يستطيع به العقل الانسانى أن يستشرف عن طريق هذه الرؤية مصيره فى هذا الكون ، والدين الاسلامى كما يقول الرئيس الأسد دائما وبحق هو أكثر الديانات السماوية وضوحاً وتحديداً فى تحريم القتل والعدوان وترويع الآمنين ، وهى جرائم يعاقب عليها الدين الاسلامى الحنيف أشد العقاب ، ولا يُقبل لمرتكبيها توبة ، ويُضرب فى نار جهنم خالداً فيها أبداً .

الاسلام والاخوان

والسؤال الآن : إلى أى مدى تتفق أعمال وأقوال قيادات تنظيم الاخوان المسلمين فى سورية مع تعاليم الدين الاسلامى ؟ وهل يمكن أن تعكس ممارستهم التى أشرنا إليها فى الصفحات السالفة فهماً صحيحاً للاسلام ؟ وللاجابة على ذلك نطرح الحقائق التالية :

أولا : قال تعالى :﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا ، فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما﴾.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فى النهى عن قتل النفس ـ « **لو اجتمع أهل الأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله فى النار» وقال أيضا : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء** » وهو القائل : « **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم برىء** » .

ولذلك فالدين الاسلامى لا يعرف الغدر ولا يعرف إلا المواجهة الشريفة ، أما محاولة

فرض الراى بالسلاح فذلك أمر منكر شرعاً ، فما بالنا إذا وصل الأمر لحد الاغتيال ، فذلك أشد نكراً ، وهؤلاء الآثمون الذين يقيمون من أنفسهم قضاة على من يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله هم كفار مأواهم النار وبئس المصير .

ولأهمية هذا الموضوع والذى ثار حوله جدل طويل - فى الفترة الأخيرة - نلخص بعض الأمور التى طرحها أمامنا فضيلة الامام الشيخ محمد متولى الشعراوى ، والتى يمكن أن تشكل محاولة للاجابة على موقف الاسلام من الارهاب :

١ - كلمة اغتيال معناها الأخذ غفلة ، والذى يُقدم على الاغتيال تكون له دوافعه ، فقد يكون سبب ذلك الانتقام ، أو الخوف من شر متوقع ، ومن الناحية النفسية فإن الذى يُقْدِم على الاغتيال يكون - باعترافه - غير قادر على مواجهة حركة حياته المواجهة الطبيعية .. أى مواجهة الراى بالراى .. ومقارعة الحجة بالحجة . ليصبح فى النهاية عاجزا عن مسايرة الحياة الانسانية الطبيعية . والشريعة الاسلامية تؤمن بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل اللين الذى يوصل إلى الحقيقة دون إرغام عليها ، لأن الارغام أو الاكراه لا يمكن أن يُنشىء عقيدة قلبية ، ولذلك فأساس الاسلام الثابت (لا إكراه فى الدين) **الارهاب يدخل فى الفكر الاسلامى تحت عنوان (ترويع الأمنين)** ، وترويع المؤمنين حرام بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « **لا تروعوا المؤمنين معاشر المسلمين** » كما أن الرسول الكريم نهى أصحابه أن يدخل أحدهم السوق ونصاله - أى سيوفه - مكشوفة حتى لا تصيب أحداً من غير قصد ، وكان الصحابى أبو سعيد الخدرى يبكى كلما ذكر هذا الحديث قائلا : « **نُهينا أن ندخل فى السوق بنصالنا وها نحن اليوم يرمى بها بعضنا فى صدور بعض** » فإذا كان هذا ما يتصل بترويع الآمنين فما بالنا بالاغتيال ؟ فإن الدين الاسلامى يعتبره نوعاً من الغدر .

٢ - هناك من الوقائع ما يؤكد نهى رسول الله للمسلمين عن القتل غدرا ، فالمسلمون فى مكة عانوا أشد العذاب من كفار قريش ، لقد سُحِبَ بلال على الرمل النارى الملتهب ووضع الصخر فوق صدره ، وهناك صورة أخرى وواقعة صارخة تمثلت فيما كان يلقاه ياسر وامرأته حيث كان يعذبان عذابا لا تقبله إنسانية إنسان لأن ابا جهل أدخل الحربة فى بطن زوج ياسر وفى فرجها واستخرج بالحربة أمعاءها حتى ماتت ، وضربوا ياسر حتى كاد يُغمى عليه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، كان الرسول يأمرهم بالصبر مع أن فى أسرة ياسر شابا قويا هو عمار بن ياسر ، وكان من الممكن أن يأمره الرسول بأن يثأر لأمه أو لأبيه ، ولكن الرسول أمرهم بالصبر .

٣ - يحتج بعض المنحرفين بكلمة للامام مالك تقول « إن الله يزع بالسلطان

ما لا يزع بالقرآن» ومعنى ذلك أن المجتمع يكون أفضل بنظام مستقر تهيمن عليه السكينة ، وإذا وجد في هذا المجتمع متمردون لا يخضعون لحكم القرآن فإن على السلطان (رأس الدولة) ترويعهم ، وعلى ذلك يكون الفرق بين أمرين أولا : أن العقيدة يخلقها السيف وهذا أمر مستحيل لأن القوة لا تخلق عقيدة وأن الذى يخلق العقيدة هو القرآن والسنة ، ومهمة السيف هى تنقية المجتمع الاسلامى من المتمردين على القرآن والقانون .

٤ ـ قال تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها﴾ وقال سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ وقد حدد الله تبارك وتعالى طريق الدعوة إليه وإبداء الرأى بقوله : **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾** وان من صغير الحجة وضعف الدليل وفساد الرأى أن يلجأ الانسان إلى العنف ، والعنف ، ليس من خصائص الانسان ولا يعرفه الاسلام .

٥ ـ ليس في الاسلام أن يتآمر المسلم على قتل أخيه أو أن يخونه ويغدر به لأن ذلك من أخلاق المنافقين والدليل قول رسول الله الكريم: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من نفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا أؤتمن خان ، وإذا خاصم فجر**» وقد عظم الله تعالى قتل المؤمن عمدا حيث قال: **﴿ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾** وكان من رأى ابن عباس أن من قتل مؤمنا ثم تاب لا تُقبل توبته .

٦ ـ الاسلام يحرم القتل غيلة لأنه لا يعرف إلا المواجهة الشريفة وهو يوجب أن يتعامل المختلفون بالحوار المقنع ، وقد أدب القرآن الكريم المسلمين فى الحوار إذ أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يكتفى بتشديد موقفه ، وأن يكف عن الجدل والمراء فيقول الله تعالى : « فاستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » ولذلك كان شعار المسلم الحقيقى : إن الله إليه المرجع ، وإن الإنسان ما عليه إلا البلاغ .

٧ ـ إذا كان الايمان مقره القلب فإنه من الصعوبة بمكان أن يدرك إنسان خفقات قلب إنسان آخر ، وبذلك وضع الاسلام المؤمن بمأمن من أن يرمى بالكفر ، أما حقيقة النوايا فتترك لله المطلع على السرائر ، وقد وضح القرآن الكريم والسنة الشريفة هذه النقطة ايضاحا شافيا . **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾.**

وعن أسامة بن زيد فى غزوة جهينة قال « **لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً من جهينة ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما بلغنا المدينة بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم قال : أسامة ، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ قلت : يارسول الله إنما كان متعوذاً « أى معتصما بها من القتل لا معتقدا لها » قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم حقيقة ما به ؟**

٨ ـ **لا يجوز تكفير الحاكم المسلم أو إحلال دمه** لقوله تعالى **﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾.**

وحكم الرسول فى الاجابة على سؤال : **متى يعد العالم كافراً ؟** روى أبو داود عن أنس قال : **قال الرسول : ثلاث من أصل الايمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله لا تكفره بذنب ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، وهذه واحدة من أصل الايمان .**

وبمقتضى ذلك لا يكون لمسلم أن يكفر مسلما ترك الصلاة إنما يدعوه لذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا يكون مَنْ منع الزكاة خارجا عن الاسلام ، ولكن يُدعى إلى إخراجها ، وليس لدينا حاكم ـ فيما أعلم ـ لا يؤمن بضرورة الحكم بشرع الله ، ولكن هذه العقبات وتلك تؤخر التنفيذ .

٩ـ **حين نعود إلى القرآن الكريم لمعرفة كيفية إقامة الدولة الاسلامية** نجد انه يرفض أن تتم عن طريق العنف وسفك الدماء لأنه أوضح طريق الدعوة **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾** ونجده قد وصف الرسول بأعظم الصفات **﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾** هذا طراز الدعوة وبه وعليه أقيمت الدعوة ، فلم تقم بالسيف والعنف وسفك الدماء بل قامت بالاقناع « أفأنت تكره الناس حتى ، يكونوا مؤمنين » ، **﴿ لا إكراه فى الدين ﴾، ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ﴾، ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾، ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾.**

١٠ـ **لا يجوز فى الاسلام قتل انسان لاختلافه فى الدين مع المسلم أو سلب ماله** .. ألم يكن اليهود يقيمون فى المدينة وعلى أطرافها على عهد الرسول والخلفاء ، فهل سلب المسلمون أموال اليهود ؟ هل قتل المسلمون اليهود.. المسلمون لم يتعرضوا لليهود إلا بعد أن نقضوا عهدهم معهم.. وفى هذا دليل على أن دم الانسان مصون ، وماله محترم ، وأن الاعتداء على الانسان أيا كان دينه والاعتداء على ماله الخاص أيا كان دينه .. أمر محرم ؟!

هذا ما تقتضيه طبيعة المساواة مصداقا لقوله فى سورة النساء﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام .. إن الله كان عليكم رقيبا**﴾.

وقد أوصى الرسول بالقبط خيراً ، ليست الجزية إذلالاً ولكنها فى المقابل مثلما كانت فى مصر دفع مبلغ من النقود مقابل الاعفاء من (الجهادية) اى التجنيد وكان يطلق عليها « البذلية » فهل كانت هذه جزية تفرض على المسلمين ؟!!

١١ـ إن الاسلام نهى عن القتل بغير حق ، ونهى عن الخروج على الحاكم إلا إذا أعلن الكفر الصريح ، « ولم يحصل ذلك من حاكم مسلم » .

١٢ـ الأمن بنوعيه النفسى والمادى ضرورة كفلها الاسلام للفرد والمجتمع ، وهو لا يشمل المسلمين فقط ولكنه يشمل الكتابيين أيضا ما لم ينقضوا عهداً أو يرفعوا سيفا ، وموضوع الأمن فى الاسلام بعد العقيدة مباشرة وذلك لأن الايمان من مادة أمن ، وقد ذكرت المادة فى المصحف الشريف حوالى ٨٥٠ مرة .

١٣ـ الذين يرون أن الاغتيال أقصر الطرق لتحقيق الأهداف بدلا من ضياع حركة الحياة فى مهاترات ـ وقد تطول ـ لا تمكن صاحب الفكر من نشر فكره .. أسلوب مرفوض وهذا يلاحظ ثمة فارق كبير بين الثورة والاغتيال ، فالثورة مجابهة ، والاغتيال غدر وغيلة ، ولا تقوم ثورة إلا إذا كانت الجماهير مشتركة فيها ويكون الرأى لها .

الارهاب الدينى

مما تقدم تبين لنا أن الدين الاسلامى يمقت العنف ولا يقبل العدوان على حرية الانسان ، ولذلك جاءت ايات كثيرة فى النهى عن قتل الانسان . ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذابا عظيما﴾ وأيضا﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها﴾ وإذا كان هذا حكم من قتل مسلما عاديا فكيف يكون الجزاء لمن يقتل قواد المسلمين وحكامهم ؟

روى الامام مسلم بسنده عن عرفجه قال : **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انه ستكون هناك هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جمع ، فاضربوه بالسيف كائنا من كان »** ، والقاتل السياسى يعتقد انه يفعل خيرا لكنه مرتد يجب أن يعامل معاملة المرتدين ، فهو كالخوارج القدماء الذين كانوا يقتلون أصحاب رسول الله وقد وصفهم رسول الله بالوحى قبل أن يراهم فقال لاصحابه :

« سيخرج فى آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام ، يقرأون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجرا » [حديث على بن أبى طالب فى صحيح مسلم ج ١ ص ٢٩٣] ، الأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ومتوافرة .

وقد كان بين الزبير بن العوام ، وبين على بن أبى طالب ما كان من الخصومة السياسية التى انتهت بوقعة الجمل فجاء رجل الى الزبير بن العوام فقال أقتل لك عليا قال : لا وكيف تقتله ومعه الجنود ؟ قال : ألحق به فافتك به ، **قال : لا إن رسول الله قال « ان الايمان قيد القتل ، لا يفتك مؤمن »** أى ان الايمان يقيد المؤمن عن أن يتردى فى هوة الردة ، فإن فعل لم يكن مؤمنا .

وعلى ما تقدم فإن الاسلام يوجب أن يتعامل المختلفون بالحوار المقنع فإذا لم ينتهوا الى نتيجة فليس لأحد أن يحمل السلاح على الآخر ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » والاستقامة فى الدين هى ما أمر الله به عباده : **﴿فاستقم كما أمرت﴾، ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. واذا كانت القاعدة أنه لا اجتهاد فى النص فقد أوضح الله تعالى منهج الدعوة فى قوله :﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾، و﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر﴾.**

وكانت آخر كلمات الرسول للمسلمين فى حجة الوداع يوم الجمع الأكبر هى قوله : **« أيها الناس ان دماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .**

النهضة الدينية فى عهد الرئيس الأسد

النهضة السورية نهضة تشمل جميع النواحى الاقتصادية والثقافية وكافة المجالات الأخرى ، وفيما يخص المجال الدينى ، **فإن الجمهورية العربية السورية تمر** بمراحل خصبة وغنية ولها ابعادها فى مجال نشر الدعوة الاسلامية ذلك لأن الذين يقومون على نشر هذه الدعوة هم من الجيل المثقف ومن طلبة العلم المتعمقين فى العلوم الشرعية ، يضاف الى ذلك تجاوب القيادة السياسية والجهات المسئولة مع التوجه الدينى الذى يقوم على أسس صحيحه وواضحة ومتزنة ويعتمد هذا التوجه الدينى فى سورية بشكل خاص على تجاوز النقاط الصغيرة وبعض العثرات التى مرت سواء على الدعوة الاسلامية فى

سوريا أو على بقية الدعوات ، والشيء الايجابي في هذه النهضة الدينية في سورية انها تجاوزت الرعونات الشخصية ، والتفت حول محاور عريضة وأساسية تتبنى الدعوة الاسلامية في كل مكان وبشكل متزايد ومتحسن .

والأدلة التي تؤيد هذا الكلام كثيرة يمكن أن يراها أي انسان يدخل الى المساجد أو المعاهد الشرعية .. يرى الأعداد الكثيرة التي تتزايد في الانتساب الى المعاهد الشرعية في سورية ، وفي دمشق مركز الثقل بشكل خاص .

الرئيس حافظ الأسد مؤمن بالاسلام ايمانا كاملا ، ودائما وفي كل المناسبات يعلن عن هذا الايمان ويعتز بهذا الانتساب ، وعلى الصعيد الفعلي فإنه دائما جنبا الى جنب مع المؤمنين في صلواتهم في المساجد وفي كل المناسبات التي تدعم النشاط الديني ، **ورؤية الرئيس الأسد للمسجد انه الى جانب كونه مكانا لأداء العبادات والشعائر فإنه في الوقت نفسه يأخذ دوره الكبير في الدعوة والتوعية وتدعيم مسيرة القرآن الكريم** ، والمعاهد الشرعية قبل حكم الرئيس الأسد كان عددها لا يتجاوز العشرة في كل محافظات الجمهورية العربية السورية ، الآن يزيد عددها على الأربعين مدرسة ثانوية الى جانب المعاهد الشرعية .

لقاءات الرئيس الأسد مع العلماء والتي تستغرق ساعات طويلة تقوم على ثلاثة محاور:

● **المحور الأول :** محور المحبة والتقدير الذي يكنه الرئيس الأسد لأهل العلم والعلماء في سوريا بشكل عام .

● **المحور الثاني :** الاقتناع الذاتي والتجاوب الايماني العميق الموجود لدى الرئيس الأسد .

● **أما المحور الثالث :** فهو محور العمل البناء والتعاون الذي يطلب أن يكون مشتركا بين نواحي العلم وبين كافة الجهات المسئولة في القطر العربي السوري ، ولذلك فإن الرئيس يتابع بنفسه تطبيق التوجهات الاسلامية التي تقوم على الوضوح وعلى الاخلاص والصدق ، ويؤكد دوما أن أهل العلم هم القدوة لغيرهم ، ولذلك فهم مطالبون بأن يؤدوا واجبهم نحو وطنهم وأمتهم العربية والاسلامية

مكانة لها دلالتها

قبل ولاية الرئيس الأسد للحكم في سورية كان الجانب الديني يعتمد على المنحى الخاص أكثر من اعتماده على المنحى الاسلامي العام وكان هناك بعض رجال العلم

يسيرون بخطى متزنة وهادئة ، وقد أثمرت جهود هؤلاء اليوم عطاء طيبا لم يكن لهم من قبل وذلك لكثرة الصخب الذى كانت تنحو نحوه الدعوات الدينية فى الماضى

قبل ولاية الرئيس الأسد كانت الدعوات الاسلامية متفرقة حتى أن المساجد كانت تقدم فيها أحيانا بعض الدروس وكل مدرس يدعو الى جانب معين من الاسلام يبطن فيه بعض النواحى الخاصة والأمثلة فى هذا ربما كان ذكرها محرجا ..

على سبيل المثال دعوة الاخوان المسلمين كانت تتجه اتجاهين : اتجاها للتغرير بعامة الناس واتجاها آخر قائم على العنف والتطرف والقتل ، هذه الدعوة لاشك ان العقلاء كانوا يعرفون مراميها ولذلك لم يكونوا يتجاوبون معها ، أما الذين تجاوبوا معها فهم قلة من البسطاء المغرر بهم والذين منوا بأحلام وأمان من وراء ذلك ثم ظهر بعد ذلك انها هباء وانها زبد وانها جوفاء .

مثال آخر بعض الطرق الصوفية اذا استثنينا منها الطرق الصوفية المعقولة الخالصة كان من هذه الطرق من سار سيرا عاطفيا لم يتخذ أصول الاسلام منهجا لحركته ولعمله ، ولذلك فقد تفرق الناس من حولهم ، واتجهوا معهم اتجاهات لم تخدم الاسلام قط ، بل وزعت على الناس كثيرا من الأحلام والأوهام والخرافات ، وتسربت اليها بعض الأفكار التى صارت فيما بعد مثار نقد لهذه الدعوات وبالتالى صارت نقدا للاسلام بشكل عام .

بعد الحركة التصحيحية التى قادها الرئيس حافظ الأسد نشطت الحركة الدينية فى سورية نشاطا ملحوظا وخاصة بالنسبة للمساجد الكثيرة التى توزعت على جميع المحافظات السورية ، ولقد بلغ عدد المساجد التى أنشئت منذ الحركة التصحيحية حوالى ألفين وخمسمائة مسجد ، وبذلك يكون عدد المساجد فى سورية حوالى خمسة آلاف مسجد .

وكما قلنا فلقد أكد الرئيس على اطلاق الحريات الدينية وتنشيط المعاهد الشرعية ، ومعاهد الأسد لتحفيظ القرآن الكريم ، ومنذ بداية الثمانينات قامت وزارة الأوقاف بإحداث أول هذه المعاهد ، واختار القائمون عليها أن تسمى هذه المعاهد باسم معاهد الأسد لتحفيظ القرآن ، والمعاهد الدينية يتم احداثها بناء على اقتراح يتقدم به أهل أى منطقة وتشكل لجنة للاشراف على هذه المعاهد فى وزارة الأوقاف أو مديريات الأوقاف المختصة ويحال الاقتراح بالاشراف على هذه المعاهد الى لجنة متخصصة لدخول امتحان هدفه اثبات صلاحية من يشرفون على هذه المعاهد ثم تستكمل الاجراءات الادارية والقانونية لافتتاح هذه المعاهد ، وقد تخرج فيها العشرات من حفظة القرآن الكريم .

النهضة الاسلامية اتخذت مساراً جديداً بعد ولاية الرئيس الأسد ، وهنا ملاحظة ينبغى أن يراها كل متطلع متبصر فى واقع الاسلام فى سورية .. الشعب السورى لا يمكن أن يمنح ولاءه لزعيم بشكل يسير أو بغير اقتناع ، وفى بداية ولاية الرئيس الأسد توقف هذا الشعب لينظر ويراقب لأنه لم تكن لديه فكرة عن الرئيس بعد أن ظهر هذا التوجه من خلال لقاءات الرئيس والناس وبأهل العلم سواء فى الأحياء الشعبية أو المنتديات أو المؤتمرات أو الاجتماعات المختلفة أو الخطابات ، إذا بهذا الشعب يمنح ولاءه عن اقتناع وكان على رأس هؤلاء أهل العلم والمدرسون ورجال الدين الذين جاء ولاءهم لما رأوه من عمق الايمان لدى الرئيس الأسد ، ومن هذا التناغم الرائع بينها وبينه نحو دفع مسيرة الاسلام بشكل واضح .

الأصولية والأصوليون فى سورية

خلافا للشائع فى بعض البلاد فإن الأصولية بالمعنى الاسلامى الصحيح تعبير متداول فى سورية ومرحب به ، فكل مسلم مثقف عاقل واع متزن ذى أخلاق فاضلة حسنة هو أصولى لكن الأصولية بالمعنى المتطرف تجاوزتها سورية منذ فترة طويلة حيث إنه لا يوجد فى سورية شىء اسمه التطرف ، التطرف بمعنى الاسراف والتفريط ، **والشعب السورى أصبح يرفض الأصولية بهذا المعنى لأنها** لم تولِّد له سوى الآلام لما مر على سورية من تطرف أو أصولية تتكلم باسم الاسلام ، ولذلك فإن الشعب السورى تجاوز هذه الأصولية ، وطواها من ذهنه ومن حياته ، ونجد أن كل مواطن يسمع بأصولى متطرف يدعو إلى فكرة ما ، نَجده ينتدب نفسه ليرد عليه وينذره ، ولذلك فإن سورية ربما تكون البلد الوحيد الذى تجاوز مسألة الأصولية ، ولم تعد الساحة الاسلامية هناك صالحة لأن تنبت على أرضها الخصبة هذه البذورة السيئة .

يقول الشيخ عبدالرزاق المؤنس مدير التوجيه والارشاد بوزارة الأوقاف : سمعت مرة فى إحد اللقاءات مع الرئيس الأسد قوله : إذا نظرنا إلى كلمة الاخوان المسلمين بالمعنى الاسلامى الصحيح والموضوعى بمعنى أن المسلم إيجابى ومعطاء ومضح فمن هذا المنطلق كلنا إخوان مسلمون بمعنى أن كلنا فى الاسلام أسرة واحدة ، لكن عندما يريدون لنا أن نفهم أن الاسلام اغتيال وترويع للآمنين واعتداء على المؤسسات والممتلكات العامة ، ومصالح الأمة ومصالح الأفراد فهذا لا يمكن أن يكون من الاسلام وإن تبرقع بألوان ذهبية .. الاخوان المسلمون بهذا المعنى دعوة مشبوهة ، دعوة ترفضها كل الأمة الاسلامية بشكل عام .. **وفى سورية ترك الاخوان المسلمون بصمات سيئة ، ومؤلمة بسبب تطرفهم:** حاولوا أن يستغلوا الواقع الطيب الذى سارت عليه سورية خلال ولاية الرئيس الأسد .. استغلوا الانفتاح والازدهار الاقتصادى ، والنمو العمرانى والثقافى الذى ترعرع فى ظل

الاسد وتسللوا من خلال هذا الانفتاح ليبثوا سمومهم وليغرروا بالبسطاء وبالتالى يروعون الآمنين .. فما كان من القيادة السياسية ومن الشعب إلا أن رفضهم فى فترة قياسية صغيرة نسبيا ، إذا ما قيس ذلك ببقية بلدان العالم الثالث .. وفى فترة قصيرة جداً طويت صفحة الاخوان المسلمين ، وعاد الاسلام فى سورية بمعنى الأسرة الواحدة المتعاطفة المتكاتفة المتعاونة ، المنفتحة التى تعطى والتى تضحى والتى تدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتى تؤكد أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

التعايش بين الديانات السماوية الثلاث

الرئيس حافظ الأسد فى تأكيده على الوحدة الوطنية انطلق من خلال واقع اجتماعى يتمثل فى تعايش الطوائف المتعددة فى هذا البلد ، كما انطلق من الفهم الكامل للاسلام فى تعامله مع هذه الطوائف ففى ظل الخلافة الاسلامية عاشت الطوائف المختلفة سواء اليهودية أو المسيحية أو غيرها عاشوا فى ظل الخلافة ، وفى ظل الدولة الاسلامية ، وكلهم يتعاونون ، وكلهم يعمل ، وكان من بين أهل هذه الطوائف مَنْ له يد طولى فى المسئولية فى زمن الخلافة الاسلامية وفى الدولة الاسلامية مادام ينتج ويعطى ، فهو فى المسئولية الوطنية كفء مع غيره ، **والآن فى سورية تعيش الطوائف المختلفة فى ظل وحدة اسلامية ينفتح بعضها على بعض ولكل طائفة معتقداتها وطقوسها وشعائرها الخاصة تعمل بها ضمن حدودها وضمن مفهومها وضمن اجتهاداتها وآرائها** ، وهى بالتالى تتعامل مع المسلمين من حيث الجانب الاجتماعى حيث إننا فى الاسلام وتعاليم الاسلام تنظر إلى بقية الطوائف وإلى أهل الكتاب نظرة خير ومحبة ماداموا فى وضع اجتماعى متزن ، وماداموا ينتجون ويعملون ويتعاونون .. الاسلام ينظر إلى هذه الطوائف باعتبار معتنقيها يؤمنون بديانات سماوية يرعاها الاسلام **فلهم ما لنا وعليهم ما علينا** ، والاسلام ينشر ظله على الجميع .. والاسلام كما أكد الرئيس الاسد سيبقى فى سورية علماً خفاقاً متقدماً إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، ولهذا فإننا نجد الطوائف الأخرى فى سورية حتى الطائفة اليهودية تدين بالولاء الكامل وتعترف بالجميل للاسلام وللرعاية التى تلقاها من الرئيس الأسد ، لم نسمع قط أن طائفة يهودية أو مسيحية وضعت أمامها عراقيل أو عقبات ، وبشهادة أبناء الطائفة اليهودية فى سورية وبشهادة النصارى وأهل الكتاب فإنهم يجدون من المعاملة ورحابة الصدر ومن الحياة الاجتماعية ومن حقوق المواطنة ما لا يمكن أن نجد له مثيلاً فى غيرها من البلاد ، وهذا يدل على الحكمة والاتزان التى تقوم بها سياسة سورية بزعامة الأسد ، لذلك فهم جميعاً يوقعون بقلم واحد وفى ورقة واحدة على هذه الوحدة الوطنية وعلى هذا الولاء بعد الفهم العميق تصدى لأعداء الاسلام .

وكما يقول الشيخ عبدالرزاق مؤنس : فإن هذه النعرة غير الاسلامية وإن تزيَّت بزى الاسلام قد أعان الله عز وجل على القضاء عليها سريعاً ، وذلك كما ذكرت من قبل بفضل التجاوب الكامل للشعب السورى مع حكمة الرئيس حافظ الأسد فى طريقة القضاء على هؤلاء ..

النقطة الأخرى فى هذا الأمر.. إن تلك الأحداث التى حصلت من جراء فتنة الاخوان المسلمين أرادت أن تزعزع مسيرة الاستقرار والتقدم والازدهار التى بدت بشائرها فى بدايات الولاية الأولى لولاية الرئيس حافظ الأسد وبخاصة بعد حرب تشرين (أكتوبر) التحريرية .. يذكر ذلك كل المواطنين فى الجمهورية العربية السورية ، ولهذا فقد أرادت قوى استعمارية أن تضع لها أصابع فى بلادنا لتكبح التقدم والازدهار لأن سورية التى اتخذت الآن مساراً صحيحاً متقدماً ومتسارعاً بمعونة الله عز وجل وبصلة من لدنه إذا ظهرت فيها بوادر الازدهار والحضارة والتقدم فإن ذلك سيقضى على الكثير من الأحلام والآمال التى تعقدها اسرائيل ودول كبرى من ورائها على انجاح خططها فى ضعف الأمة العربية ، وضعف دول المواجهة هو الذى يُعين على تنفيذ المخططات الاسرائيلية ، فإذا ما ظهرت بوادر التقدم .. بوادر القوة والحضارة فى سورية وفى غيرها أيضا من البلدان العربية ، فإن ذلك يعنى إضعاف طرق تنفيذ تلك المخططات والتآمر الاستعمارى لاجهاض الدعوة الاسلامية ، وتفكيك كل رابطة من روابط الوحدة العربية .. **هذه النقطة الثانية** ، ولا تزال المسيرة الحضارية تعبأ بها سورية ويتحملها كل أبناء الشعب ..

أما **النقطة الثالثة** فإن رءوس الأموال التى أُريد منها أن تهاجر إلى حيث الاستثمار الخصب فى دول أخرى وبخاصة دول غربية ، هذه رءوس الأموال كان توقفها توقفاً مؤقتاً وإذا بها الآن تعود ، وترجع المياه إلى مجاريها ، وتعود الأموال إلى نصابها بعقلانية أهلها ، وبحكمة القرارات فى هذا البلد وبحكمة السياسة العامة فى سورية لذلك فلا خشية فى سورية من فتنة أبداً، لأن الواقع الشعبى أصبح فوق هذه التصرفات وأصبح يجهض مثل هذه الدعوة فى مهدها بل لا يسمح بها ، وبالتالى فهو لا يفكر بها لأن الانسان الذى يعمل ويبنى ويجد لا يفكر فى السلبيات ولا يسمح أبداً بأن تمر عثرات الاخفاق من أمامه مع أنه يطمح ، والشعب السورى ، وأظن أن هذا أيضا طموح لدى الشعب العربى ، ولدى المسلمين ، وهذا مما يجب أن يكون لدى كل مسلم ، هو شعب دائما يفكر بجدية ، يفكر فى المستقبل .. شعب متحرك فى عقله .. متحرك فى نفسه .. متحرك فى ذاتيته .. يحب دائما أن يطوى السلبيات .. أن يفكر من جديد بالاجتهاد .. أن يفكر بكل شىء هو عطاء ، إضافة إلى ذلك فهو شعب طيب ومضياف .. يمد يده بكل سهولة لكل إنسان يمد إليه يد المحبة ، ويمد إليه خطط اللقاء ،

والذى تحقق بعد التخلص من مؤامرة الاخوان المسلمين هو الذى نراه ، **والذى نراه هو شيئين :**

الشىء الأول : هو الانسجام الكامل بين كل افراد الشعب العربى السورى .

الشىء الثانى : هو الانطلاقة الحرة الجميلة ، والمقصود بكلمة حرة الانطلاقة التى لا تتوقف أمام كوابيس أو عثرات ما ، وهذه الانطلاقة هى انطلاقة الدعوة الاسلامية فى سورية .. الذى تحقق أن الدعوة الاسلامية فى سورية ، وعلى راسها أهل العلم ، والقضاة والمدرسون ، اصبحوا هم أيضا من المتعاونين مع النظام السورى تعاوناً قلبياً .. تعاوناً إيمانياً من أجل جعل الاسلام فى هذا البلد اسلاماً كما كان عليه الحال زمن السلف الصالح مع مراعاة التجديد ، ومع مراعاة اختلاف الأساليب فى ذلك جهد الاستطاعة ، وقدر الامكان ..

الشىء الملاحظ أيضا ان الإسلام بعد القضاء على حركة الاخوان المسلمين قد أخذ منحى يدخل إلى كل القلوب ، وإلى كل الفئات باختلاف السنتها باختلاف الوانها .. باختلاف انتماءاتها .. باختلاف اتجاهاتها .. فقد أصبح الاسلام الضيف اللطيف .. وأصبح الكلمة الحلوة المقبولة من الجميع، ولذلك اصبح لدى الناس اقتناع بأن ما فعله الاخوان المسلمون ليس من الاسلام .. كانوا فى الماضى يستغلون هذه الكلمة ليصبغوها على كل ما هو اسلامى ، لكن الواضح اليوم أن الاسلام شىء ، والاخوان المسلمون شىء آخر ، ولذلك فالشعب السورى يتعاون مع الاسلام ويتجاوب معه ويمد يده للعطاء والانتاج معه ، فى سورية إضافة إلى توحد الأفكار تجاه القضية العربية وهى قضية فلسطين وقضية الأمة فى النهضة وطىٍّ صفحات التخلف الماضية إضافة إلى هذا التوحد الذى تنشده سورية من حيث تعاونها مع كل الدول العربية وبخاصة مصر الشقيقة حيث كان اللقاء بين مصر وسورية دائما لقاءً فطرياً عفوياً لأن الأصول واحدة ومياه المحبة واحدة ، وهناك دائما لغة للتفاهم والتعاون والمحبة .

وفى الجانب الاسلامى كان التعاون بين مصروسورية فى الماضى بطيئاً جداً واليوم يتخذ منحى جديداً آخر وأيضا فى طريقه إلى التقدم وإلى الازدهار ، وتظل الحاجة ماسة إلى مزيد من التعاون والتنسيق الاسلامى بين سورية ومصر ، وذلك للاستفادة من الاساليب التى آتت أكلها واينعت ثمارها فى طريق الدعوة الاسلامية التى قامت فى البلدين ونجحت فى أن يتعاونوا جميعاً .. وكل ذلك يمكن أن تكون له قنوات متصلة أخرى أيضا مع بقية بلدان العالم العربى والاسلامى ، هذا الأمر هام جداً والحاجة ماسة أيضا الى مزيد من التعاون الاسلامى لأن التعاون الاسلامى يُظل تحته التعاون العربى ، ويجمع تحته الشريحة الكبرى والطبقات الاجتماعية من كل أنواعها تحت لواء دولة اسلامية

ووحدة عربية منشودة لابد منها من أجل أن تقف صفاً واحداً منيعاً تجاه الأطماع الاستعمارية والصهيونية التى تتآمر كل ليل على مصير المسلمين وعلى وحدة العرب ، وعلى طريق إجهاض كل ما هو وحدة ، كل ما هو إيجابى كل ما هو التقاء بين المسلمين والعرب بعضهم مع بعض .

ويقول محمد زيادة معاون وزير الأوقاف السورى : من الأشياء التى تعطى وقعاً وإيجابية للعمل الاسلامى أن يحصل هناك تعاون فقهى بين كل بلدان الأمة العربية وذلك التعاون أمر ضرورى سواء من خلال الزيارات المتبادلة ، وتبادل الأفكار والمعلومات والآراء والمقترحات ومن خلال عقد ندوات واجتماعات بين فقهاء الدول العربية ، وذلك من اجل تنشيط العمل الفقهى لتأصيل الحركة العلمية الثقافية الاسلامية ، فالملاحظ أن الاسلام فى البلدان العربية يعتمد على الجوانب العاطفية .. على بعض المظاهر الاسلامية ، والأحكام القليلة .. لكن أن يوجد هناك تأصيل فقهى لدى شرائح أكبر من عامة الشعب العربى والاسلامى فهذا لا يزال ضعيفا لأن هناك الكثير من المسلمين ومن العرب مَنْ يجهلون احكام الصلوات الخمس .. مَنْ يجهلون بعض الأحكام المتعلقة بالمعاملات **وبشكل أخص موضوع الربا** .. حيث هناك من يتعامل بالربا المحرم بنصوص قاطعة فى القرآن الكريم وهو يظن أن الاسلام يسمح به .. مثل هذه النقاط كفيلٌ بأن يناقشها اجتماع الفقهاء فيما بين بعضهم بعضا من أجل نشر المحاضرات والكتب والأفكار ، وأن يعلن عن هذه الندوات عبر أجهزة الاعلام من أجل مزيد من التوعية .. **يضاف إلى ذلك عمل آخر** وهو جانب عملى فى هذا اللقاء الفطرى وأن تنشر دروس الفقه فى المساجد إذ أن دروس الوعظ .. دروس التوجيه العامة دروس الاسلام الثقافى .. دروس الاسلام الحماسى ، **الاسلام الخطابى** التى لا تنبنى على أسس فقهية هذه لا تثمر إسلاماً صحيحاً بالمعنى المطلوب ، لابد أولاً من التأصيل الفقهى فى قلوب الناس بشكل عام . أن توجد دروس فقهية تخرج طلاب علم يفقهون أصول اللغة العربية ، يفقهون أصول الفقه .. يفقهون القرآن الكريم .. أسباب النزول .. ناسخه ومنسوخه .. دلالات ألفاظه ومعانيه ، وما إلى ذلك من علوم القرآن الكريم .

وهذا الأمر قد أخذ ضوءاً أخضر من الرئيس الأسد لأهل العلم .. وهو يرعاه بكامله من جانب تشجيع علوم القرآن الكريم .. وتعاليمه ، ومعاهده وليس المرجو من ذلك فقط قراءة النصوص وحفظ العبارات والآيات ، وإنما أن يُدرس القرآن الكريم من خلاله علوم وفقه واستنباط احكام ، من خلال ناسخه ومنسوخه ويحتاج إلى جهدنا مع كل الجهود لبناء هذا العمل ، والرئيس الأسد جعل الطريق امامهم مُعَبَّداً وفسح المجال لهذا **إضافة إلى أن الرئيس إتجه إتجاهاً آخراً ليتبنى جانب السنة النبوية المطهرة** ، وهو قد راعَى وأشرف على لجنة تتبنى جمع السنة المطهرة من كل مصادرها ودعى موسوعة

السنة النبوية ، وهذه ستظهر إلى الضوء قريباً ، وقد قام عليها لجنة من كبار أهل العلم فى سورية . .

وقد خصص الرئيس الأسد عشرات الملايين من الليرات لما يحتاجه بناء الجامع الأموى وهناك لجنة من كبار العلماء ، ومن كبار المشرفين سواء من المهندسين من علماء الآثار ومن علماء الدين .. علماء التاريخ وما إلى ذلك يشرفون على طريق ترميم وتجديد الجامع الأموى بالشكل الذى يخدم الجانب المقصود ببناء المساجد وهو توفير السعة اللازمة والتكييف اللازم للمصلين ، وللوافدين وللزائرين ولدروس العلم الموجودة فيه ، وكذلك للذين يسمعون عن المسجد الأموى فى جميع انحاء العالم .. إذ الحقيقة أن المسجد الأموى هو فى واقع الأمر من حيث الناحية التاريخية ، ومن حيث الناحية الجمالية من المساجد الرائعة والفريدة إن لم تكن الأولى المتقدمة بين مساجد العالم ، وهذا التجديد لا يزال اليوم يمر بفترات ناهضة ، ويمر أيضا بتجديد واتساع إن شاء الله .

٩

قراءة فى فكر الأسد

الأسـد : التميـيز بين المقاومة الوطنية والارهاب

□ ضرورة عدم طمس الحد الفاصل بين الارهاب والمقاومة الوطنية.

□□ العلاقة الجدلية لدرء الارهاب عن البلدان النامية وحركات التحرر.

□□ ظاهرة سياسة القوة والتدخل العسكرى والعدوان المسلح لتحقيق أهداف سياسية.

□□ صمود سورية بقيادة الأسد فى مواجهة الارهاب الدولى.

□□ **المتتبع المحايد لمسار الحركة التصحيحية ، يلحظ بسهولة ويسر مدى حرص الرئيس حافظ الأسد على تأكيد تمسكه - قولاً وعملاً - بقضايا نضال الشعوب وايمانه الراسخ بضرورة مكافحة الأنظمة الاستعمارية ، وكافة صور الهيمنة والاستغلال بشتى السبل** ، وفى الاشهر القليلة التى تلت الحركة التصحيحية برز الرئيس حافظ الأسد كواحد من أبرز قادة ثورات العالم الثالث ، واصبح له وزنه الكبير فى المجال الدولى لأنه لم يدع مناسبة تمر دون أن يؤكد ويعمل على ضرورة عدم طمس الحد الفاصل بين الارهاب والمقاومة الوطنية ، ونتيجة لهذا الموقف المبدئى تعرضت سورية فى الداخل وفى الخارج لأزمات مفتعلة عديدة ، ومتعاقبة ، بدأت مع انتصار حرب تشرين اكتوبر التحريرية عام ١٩٧٣ حيث ركزت الدوائر الغربية متعاونة مع الصهيونية العالمية هجومها على المكاسب العربية التى تحققت فى سورية وبلغ التآمر ذروته عندما شهدت الأحداث اللبنانية خلال الفترة مابين ١٩٧٦ - ١٩٨٢ اقصى صور التدهور الأمر الذى صعده الغزو الصهيونى - الاسرائيلى للجنوب اللبنانى عام ١٩٨٢ ، واحتلال مدينة بيروت ،وتوقيع عقد الاذعان فى ١٧ مايو - أيار ١٩٨٣ ، والذى سقط بعد اقل من سنة بينما تفاقم الوضع فى لبنان لدرجة أنه استمر منذ عام ١٩٨٣ وحتى مطلع عام ١٩٩٠ يتدهور من سيىء إلى أسوأ رغم التدخل الايجابى الذى قامت به الأطراف العربية والاجنبية المعنية بالمسألة اللبنانية ،

ورغم العمل على وضع اتفاقية الطائف الموقعة فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٩ موضع التطبيق وانتخاب رئيس جمهورية جديد للبلاد وتشكيل حكومة جديدة بدأت العمل فى كانون الثانى من عام ١٩٩٠ فى جو داخلى مشحون على النحو المعروف .

وفى الداخل تعرض القطر العربى السورى إلى أعمال مفتعلة متعاقبة كان على رأسها الأعمال الارهابية الشرسة التى قامت بها زمر من جماعات الاخوان المسلمين فى الفترة مابين ١٩٧٨ـ ١٩٨٢، وأعمال القتل والتفجير التى افتعلتها أدوات القوى الأجنبية ضد المسيرة التقدمية والانجازات الجماهيرية داخل سورية .

ومنذ عام ١٩٧١ ، حدد الرئيس حافظ الأسد فى بساطة ـ هى أقوى من كل فلسفة وحذلقة وتعقيد ـ جوهر وأبعاد طرفى معادلة الصراع ، وشرح كيفية تصعيد الارهاب الدولى على خلفية العدوان ، وفى تربة الاحتلال والاستعمار ، وذلك من خلال الكلمة التاريخية الهامة التى ألقاها فى افتتاح الدورة العاشرة للجنة التنفيذية لمنظمة الشعوب الأفرو ـ أسيوية فى ١٩٧١/٦/١٤ ، حيث عبر عن هذه الحقائق عندما قال :
« إن الرحلة الطويلة التى قطعتها مسيرة تضامن الشعوب الأفرو ـ أسيوية منذ ولادتها فى منتصف الخمسينات وحتى الآن كانت مسيرة حافلة بمعارك النضال التى خاضتها شعوب القارتين دفاعا عن حريتها وعن حقها فى الاستقلال وتقرير المصير والمساواة والتقدم ، ودفاعا عن السلام القائم على العدل ،

ولقد تميزت هذه الفترة باحتدام الصراع بين قوى الخير وقوى الشر ، بين الشعوب المناضلة فى سبيل المثل العليا للبشرية ، وبين قوى الاستعمار والامبريالية التى مافتئت تحاول بكل شراسة أن تتشبث بمواقع السيطرة والتسلط لتستعيد مافقد منها تحت ضربات الشعوب ، وكان احتدام هذا الصراع نتيجة حتمية لطبائع الاستعمار العدوانية » .

التحليل العلمى لكلمات الرئيس الأسد يؤكد على مجموعة من الحقائق أبرزها ؟ أن الاستعمار والامبريالية يسببان الارهاب باعتباره نتيجة حتمية للعدوان ، وأن الشعوب المغلوبة على أمرها تملك حق النضال المشروع ، وهى التى تعانى من الارهاب ، ولا تقوم به أو تمارسه لأنها تدرك عدم جدواه فى تحررها ، وللقضاء على هذه الظاهرة لابد من انتصار الحرية والتحرر السياسى والاجتماعى فى العالم كله ، وهناك حقيقة لم يمل الرئيس حافظ الأسد من التأكيد عليها فى كل مناسبة وهى :

« إن الشعوب بطبيعتها محبة للسلام ، ولكن قوى العدوان بطبيعتها أيضا لاتقبل التسليم طوعا بحقوق الشعوب ولاتقبل التنازل مختارة عن مواقع السيطرة التى تمكنها من مواصلة استغلال الشعوب ونهب خيراتها »

حقيقة أخرى لم يمل الرئيس الأسد أيضا من التنبيه إليها وهى طبيعة الخير المتأصلة فى الشعوب التى هى فى الأصل تهدف الى العيش بسلام، وطبيعة الشر المتأصلة فى قوى العدوان التى ترفض الاعتراف للشعوب بحق تقرير المصير، والتصرف الحر الخلاق فى ثرواتها وخيراتها ، الأمر الذى يفترض حتما الصراع ، **والذى يأخذ تسميتين متعارضتين** ، فهو نضال مشروع من جانب الشعوب ، وهو ارهاب قسرى من جانب قوى الاستعمار والامبريالية .

هكذا حدد الرئيس حافظ الأسد الخطوط الأولى والضرورية لعملية الفصل بين الارهاب الدولى الذى تمارسه الدول والدائر الامبريالية وبين اعمال المقاومة الوطنية المشروعة التى تقوم بها الشعوب ، وحركات التحرر الوطنى من أجل الاستقلال والتحرر التام .

وعلى سبيل المثال : كان الرئيس حافظ الأسد ـ ولايزال ـ فى طليعة المدافعين عن حق المقاومة الوطنية الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلى للأراضى العربية ، وهو الحق الذى كانت تعتبره اسرائيل والدول الاستعمارية ظاهرة ارهابية رغم أن ميثاق الأمم المتحدة وقواعد القانون الدولى يتيحان للشعوب الواقعة تحت الاحتلال بأن تتبع جميع الوسائل لتحرير اراضيها .

الرئيس حافظ الأسد قال ويقول دائما : نحن ضد الإرهاب ولكننا مع مقاومة أى شعب للمحتلين .. هذا السلوك الحضارى كان يقتضى من سورية معاونة شعب فيتنام ضد الاحتلال الأمريكى وتأييد شعب الجزائر فى كفاحه ضد الاحتلال الفرنسى ، وتأييد شعب جنوب افريقيا فى تحديه للعنصرية والتحرر منها ، وكان الرئيس حافظ الأسد يقول دائما لضيوفه من الأجانب : عندما نقف مع شعب فلسطين ، فإن ذلك ليس تشجيعا للارهاب ، وإنما تشجيع ومساندة للمقاومة الفلسطينية الوطنية ، ولأن لنا أرضا محتلة هى الجولان وهناك أراض عربية محتلة فى جنوب لبنان .. وكان يتساءل : كيف يستطيع الإنسان العربى السورى أن يقف مكتوف اليدين ساكنا ومستكينا وأرضه محتلة ، ولا يحرك أى ساكن فى سبيل تحرير هذه الأرض .. كيف يحكم على شعب ، ويحرمه حقا من حقوقه المشروعة فى انتهاج كل الوسائل التى يمكن أن تؤدى إلى تحرير أرضه من المحتل .

كان الرئيس حافظ الأسد ينظر للمفارقة العجيبة عندما كان العالم بأسره يرى أن المقاومة الوطنية للنازية المحتلة فى أوربا وفى الاتحاد السوفيتى بأنها بطولة ويُقلد الناس عليها الأوسمة والنياشين بعد الانتصار، ويُذكر ذلك فى المراجع والكتب والأدبيات ويحاكم الناس الذين قاموا بالاحتلال وقتل السكان المدنيين الآمنين بأنهم مجرمو حرب، فى حين أنه فى المقابل وفى الجانب الآخر يُحكم على الوطنى الذى يحارب أو يكافح أو يناضل، وهو أعزل من السلاح ـ كما هو الحال فى الانتفاضة ـ بأنه ارهابى، والآخرون هم الذين ضد الارهاب.

الرئيس حافظ الأسد يقول : إذا لم نحدد بكل الوضوح الحد الفاصل بين الارهاب والمقاومة فكلنا نصبح ارهابيين ، كل مَنْ دافع أو يدافع عن وطنه يكون ارهابيا ، ومن هنا كان حرص الرئيس حافظ الأسد على اعطاء الاهتمام الكامل لهذا الأمر عندما طلب أن تتقدم سورية رسميا لمجلس الأمن بالدعوة لعقد مؤتمر دولى يدرس ظاهرة الكفاح الوطنى ، والظاهرة الارهابية ، ويضع تقنينا دوليا للتفريق بين الارهاب والمقاومة .

الرئيس حافظ الأسد يقول : نحن ضد الارهاب ومع المقاومة الوطنية **ويقول على سبيل المثال :** « بالأمس خطفوا طائرة مصرية ـ يقصد الطائرة التى نقلت أعضاء فلسطينيين كانوا قد خطفوا سفينة واعترضتهم المقاتلات وأنزلتهم فى ايطاليا ـ وبالأمس جرى غزو جرينادا ، وجاءت الموافقة على غزو لبنان ، كما جرت المشاورات فى عملية خطف الطائرة الليبية التى كانت تقل وفدا سياسيا سوريا على مستوى عال، وقد أهين هذا الوفد، وعومل بكل القسوة . . وعندما قدمت سورية شكوى إلى الأمم المتحدة ، اعترضت عليها الولايات المتحدة ، واستخدمت حق الفيتو فى مجلس الأمن لصالح الجانب الاسرائيلى الذى خطف الطائرة ، وهذا يعنى أن الولايات المتحدة تؤيد خطف الطائرات .

مثال آخر : اسرائيل تمارس ارهابا مستمرا ، وهو ارهاب غير مرتبط بزمن معين أو مكان محدد .

اللافت للنظر أن سورية عندما قدمت الورقة التى طلبت فيها بحث الحد الفاصل بين المقاومة والارهاب حدثت ضغوط لاحصر لها حتى لايُناقش هذا الأمر فى الأمم المتحدة وانما يناقش فى لجان ، وحتى الآن لم تسفر هذه النقاشات عن شيء محدد ، ونذكر فى هذا الصدد خطاب للرئيس الأسد القاه فى ١٩٨٦/٥/٢٦ ، **فى حفل أقامه على شرفه الرئيس اليونانى .. قال فيه :** « نحن فى سورية ندين الارهاب بكل شدة وبكل قوة لاسباب كثيرة اهمها أن الارهاب مرفوض من حيث المبدأ وثانيها : لاننا من أكثر بلدان العالم تعرضا للارهاب ، وبالأمس القريب تعرضنا لعملية ارهابية جديدة منذ شهر فقط كان ضحاياها ١٤٤ شهيدا ، و١٤٩ جريحا ، ـ وكان يقصد بذلك الارهابيين الذين زرعوا فى الأوتوبيسات ووسائل النقل السورية متفجرات ـ ثم تكلم الرئيس الأسد عما عانته سورية من الارهابيين فى الداخل ، **ولذلك يعرف الرئيس الأسد الارهابى بأنه مجرم ، ومرتزق ومرتبط فى كثير من الأحيان بل فى أغلبها بأفراد وقوى خارج شعبه وأمته ، أما المحرر والمقاوم والمناضل فهو مؤمن بقضيته ، مناضل صلب من أجل الشعب ، مستعد** فى كل لحظة لان يموت شهيدا من اجل بلاده ، وكثيرا **ماتساءل الرئيس حافظ الأسد بمرارة : كيف يمكن أن تحاسب شخصا فرداً على عمل ارهابى قام به ، ولاتحاسب دولة على عمل أو أعمال ارهابية قامت بها ؟**

لو تتبع المرء كلام الرئيس حافظ الأسد عن الارهاب لكان بمقدوره وبسهولة كبيرة أن

يؤلف كتابا فى ذلك ، **ولكن ملخص القول أن الاطلالة على فكر الرئيس الأسد تجعل المرء يميز بين مبدأين أساسيين:** المقاومة الوطنية ، وحق الشعوب المحتلة فى مقاومة الاحتلال ، والمطالبة بالاستقلال وهو حق مشروع كَفَلَتْهُ مواثيق الأمم المتحدة ومبادىء القانون الدولى ، أما الارهاب وبكل أشكاله وصوره يُمارس الاجرام ، والقتل والابادة الفردية أو الجماعية والتخريب والتدمير .. وهذا الارهاب أمر مُدان ، وسورية ضده ، **ويعتبره الرئيس الأسد إجراما** ، يتطلب التصدى له ومكافحته واستئصاله .

علاقة جدلية لدرء الارهاب عن البلدان النامية وحركات التحرر

يلفت النظر أيضا أن الرئيس حافظ الأسد أكد أكثر من مرة على العلاقة الجدلية لدرء الإرهاب عن البلدان النامية وحركات التحرر ، يكفى للدلالة على ذلك أن نعود إلى ماقاله :

نحن بدفاعنا عن حرياتنا وعن أرضنا ووجودنا لانمارس حقا طبيعيا فحسب بل نؤدى دورنا فى الدفاع عن المبادىء والمثل التى تؤمن بها البشرية ونسعى أن نستعيد حرياتنا كاملة لكى ننهض بمسئولياتنا وبدورنا الانسانى ، وبالشكل والأسلوب الذى يتفق وتراثنا الحضارى ، وهذا يعنى بصورة واضحة حتمية النضال فى كل بلد ، ولكل حركة أو شعب ضد العدوان من جهة والتحالف المشترك لمجموع حركات التحرر الوطنى فى مواجهة الامبريالية والصهيونية والعنصرية من جهة ثانية أو شرعية هذا النضال أخلاقيا وقانونيا من جهة ثالثة .

يقول الرئيس حافظ الأسد: « فى عالم اليوم الذى تعلو فيه يد القوة الغاشمة على المبادىء والقانون الدولى ، تتلمس البشرية طريقها إلى السلام الحقيقى ، فلاتجد طريقا إليه سوى طريق النضال ضد قوى الشر والعدوان ، وعلى امتداد الفترة من عام ١٩٧١ وحتى عام ١٩٨٥ ، **كان الرئيس حافظ الأسد أمينا لثوريته عندما خاض حرب أكتوبر تشرين ١٩٧٣ دفاعا عن الحق العربى ودرءاً للارهاب الاسرائيلى الذى تدعمه الولايات المتحدة** ، وعلى صخرة الصمود السورى تحطمت الاحلام الاستعمارية والاسرائيلية فى تشتيت الجهد العربى والغاء الدور الفلسطينى ، **ولن ينسى التاريخ العربى المعاصر تصدى الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٨٢ للعدوان على لبنان وعلى الثورة الفلسطينية** ، ولن ينسى تاريخ النضال العربى كيف زج الرئيس حافظ الأسد بطاقات بلاده لصالح القضية القومية فأوقف الغزو الصهيونى المباشر ، ومنع التوغل الأطلسى فى الأرض العربية وفجر بركان المقاومة اللبنانية ضد اسرائيل وأوقف حمامات الدماء الذى سببه التحارب الداخلى فى لبنان ، وحافظ على وحدة لبنان مقدما

الشروط ، والظروف المواتية للحل السلمى للمسألة اللبنانية ، وخلال سنوات هذه المرحلة تبوأ حافظ الأسد عن جدارة مكانه كأحد أعمدة الثورة الرئيسية فى دول العالم الثالث .

ومن موقع القوة والقدرة وليس من موقع الضعف ومنابر الاستجداء سارع الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٨٦ ، لطرح مبادرته عندما دعا الى عقد مؤتمر دولى لبحث ظاهرة الارهاب ، ومناقشة أسبابه ونتائجه بهدف التوصل إلى رؤية عالمية مشتركة من شأنها تحديد الارهاب ، وتعريف مَنْ هو الارهابى فرداً أم منظمة أم مجموعة من الدول ، وماهو الحد الفاصل بين مَنْ يمارسون الارهاب ومَنْ يرغبون فى العيش بسلام وحل كل المنازعات بين الشعوب بالطرق السلمية ، لقد بدأت هذه المبادرة خلال زيارة الرئيس حافظ الأسد لليونان فى مايو أيار ١٩٨٦ وتطورت عبر سلسلة من المواقف والأحداث واللقاءات الدولية ، ووجهت ضربة شديدة وقوية لمخططات الاستعمار الجديد ، وفضحت مواقف هؤلاء الذين تلطخت أيديهم بدماء الشعوب ، ويلصقون تهمة الارهاب بهذه الشعوب.

كشف الرئيس حافظ الأسد بهذه المبادرة العجز الدولى عن تقديم تعريف واضح متماسك للارهاب يقبل به القانون الدولى كما كشف عن ضرورة السعى للحد من انتشار ظاهرة الارهاب وضرورة ربط ظاهرة الارهاب بأسبابها والتفريق الواضح بين الارهاب كعمل مُدان اخلاقيا واجتماعيا وقانونيا ، وبين النضال التحررى والثورى المشروع أخلاقيا واجتماعيا وقانونيا .

وتظل الحاجة ماسة إلى تعريف الارهاب بعيدا عن التأثر بتقاليد القوى الاستعمارية ، وبأية قوانين تكون معبرة عن مصالح هذه القوى ، ولعل عدم رغبة بعض الدول فى ايجاد الحد الفاصل بين ارهاب الأفراد والجماعات المتطرفة والدول من جهة ، وبين أعمال النضال الوطنى المشروع الذى قد تمارسه حركات التحرر الوطنى فى اطار الكفاح المسلح ، ولعل هذا هو السبب فى عدم وضع تعريف قانونى مقبول للارهاب الدولى .

اتهام ظالم وباطل ومرفوض

فى فترة من الفترات حاول بعض المسئولين الأمريكيين أن يربط بين سورية وبين ارهابيين معينين تم اعتقالهم فى برلين ولندن، **وقد تصدى الرئيس حافظ الأسد لهذه الادعاءات وغيرها فى رده على أسئلة بعثة صحيفتى « واشنطن بوست وانترناشيونال هيرالد تريبيون » الأمريكيتين فى ١٩ مايو ١٩٨٦ عندما قال :** « نحن نعتقد أن العملية بكاملها مركبة ومرتبة فى اطار حملة عامة على سورية ، وعلى دول أخرى فى المنطقة ، وبالمحصلة على الأمة العربية ، القصد منها جعل العرب يستسلمون للمخططات الصهيونية ، ولما ترغب فيه اسرائيل ، فنتحول عن نهجنا ولانتمسك بقوة

بحقوقنا ، ولانستمر فى دفاعنا المصمم عن قضايانا العادلة فينفتح بذلك الطريق أمام اسرائيل لتكون اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات .

وهذه هى حقيقة الأمر أولاً : لأن سورية من أكثر البلدان تعرضا للارهاب ، ونشير هنا إلى أن بعض القوى الغربية كانت خلف هذا الارهاب ومحركة له .

ويقول الرئيس حافظ الأسد : لقد تناقشنا مع هذه القوى فى حينه واتفقنا على أن تطوى الصفحة ، ونحن لم نعلن الحرب على هذه القوى بل اكتفينا بالتصدى للارهابيين انفسهم ، وكما هو معروف فقد تعرضت سورية لعمليات ارهابية كانت حصيلة احداها بدقة مائة واربعة واربعين شهيدا ، ومائة وتسعة واربعين جريحا ، **وثانيا :** لأن القوى التى توجه إلى سورية تهمة الارهاب هى آخر من يحق أن يوجه اليها أو إلى غيرها مثل هذا الاتهام بالنظر الى ماضيها ، ولو عدنا إلى ماضى هذه،القوى لما اتسع الوقت لتعداد الأعمال الارهابية الكبيرة التى خططت لها ومارستها ، ولاتوجد منظمة ارهابية فى العالم إلا وذراع المخابرات المركزية الأمريكية موجودة فى داخلها وكما أشرنا فى السابق فقد خطفوا طائرة مصرية ، وبالأمس القريب جرى غزو جرينادا ، وجرت الموافقة على غزو لبنان ، كما جرت المشاركة فى عملية خطف الطائرة الليبية التى كانت تقل وفدا سياسيا سوريا على مستوى عال ، وقد اهين هذا الوفد ، وعومل معاملة قذرة .

نقول جرت المشاركة فى هذه العملية لأنه عندما شكت سورية هذا الأمر إلى الأمم المتحدة فإن الولايات المتحدة لم تكتف بعدم تأييد الشكوى بل اعترضت عليها واستخدمت حق الفيتو فى مجلس الأمن ضد إدانة اسرائيل لخطفها الطائرة ، وهذا يعنى أن الولايات المتحدة تؤيد خطف الطائرات ، وعندما نقول الولايات المتحدة نقصد الادارة الأمريكية والسياسة الأمريكية ، أما الشعب الأمريكى فهو شىء آخر ولانريد أن نعود إلى الخلف بشأن ماموريس ضد زعماء ، ولانريد أن نعود أيضا إلى خطف الطائرات من كوبا إلى الولايات المتحدة ، وتشجيع الخاطفين على التوجه إلى الولايات المتحدة ، وأخيرا ضرب المدن الليبية .

ومن أغرب الأمور أن تلاحق دولة كبرى بأسطول جوى مقاتل رئيس دولة لتقتله ، أى أن تقرر اغتيال رئيس دولة ، ماذا يمكن أن نسمى هذه العملية ؟

يقول الرئيس حافظ الأسد : انا أعرف البيت الذى ضرب لأنه كان قد أُعد مؤخراً بيتا للضيافة ، ولأنى كنت أحد الضيوف الذين ناموا فيه .. هذا البيت هو الآن على الأرض ، لقد هُدم تماما ، هذا البيت كان فى البداية للعقيد القذافى ثم انتقل منه إلى بيت أصغر منه قريب ، وحوله إلى بيت للضيافة ويبدو أن معلومات المخابرات الأمريكية كانت مبنية على اساس انه مايزال بيت العقيد القذافى ولهذا دمر هذا البيت **وإلا لماذا يدمر بيت للضيافة بالاضافة الى قصف أهداف مدنية ؟**

على أية حال فإن تقرير لجنة تشرس التى شكلها الكونجرس الأمريكى تحدثت بما فيه

الكفاية عن أعمال المخابرات الأمريكية والادارة الأمريكية وهذا وضعها لايجوز لها أن توجه الاتهام بالارهاب لسورية على لسان بعض المسئولين بين وقت وآخر ، أما الاسرائيليون فإرهابهم مستمر ودائم وغير مرتبط بزمن معين .. انظروا ماذا فعلوا في لبنان منذ سنوات إنه من الصعب أن يعرف المرء الأرقام بدقة ، ولكن تقديرات الخسائر تتحدث عن أرقام كبيرة من القتلى والجرحى. ولاشك فإنه من الصعب تحديد الرقم تماما. فإن عدد الضحايا كبير جداً .. إنهم ضربوا المدن والقرى والمخيمات بالطائرات ، وبعض هذا القصف جرى في حضور مبعوث الرئيس الأمريكي آنذاك فيليب حبيب ، كان عدد من مراسلي الصحف الأمريكية شهودا على هذا القصف ، ومع ذلك فإن هذا ليس ارهابا من وجهة نظر الادارة الأمريكية وإنما ضرورة أمنية .

واذا تحدثنا عن الأعمال الارهابية الفردية التي قامت بها اسرائيل فهي كثيرة ولاتجد ضرورة لذكرها لأنها معروفة بدءاً بقتل وسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت مروراً بدخولهم إلى القرى العربية في فلسطين وقتل الأطفال والنساء لارغام الفلسطينيين على الهرب ، وهذا أدى فعلاً إلى خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من فلسطين وهؤلاء هم اللاجئون الفلسطينيون ، ومرورا أيضا بقصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ، والمفاعل النووي العراقي الذي أقيم لتوليد الطاقة ، وقصف مواقع مدنية في سورية مرات عديدة خلال السبعينات ، ووصولاً إلى خطف الطائرة الليبية التي كانت تقل الوفد السياسي السوري .

إن أعمالهم الارهابية كلها ليست أعمالا ارهابية من وجهة نظر الادارة الأمريكية ، أما سورية التي تعرضت للارهاب ، فلم تترك فرصة للذين تعرضوا للارهاب إلا واستغلتها في مساعدتهم وقد نجحت أحيانا وفشلت في أحيان أخرى وبين الذين ساعدتهم سورية مواطنون أمريكيون وركاب الطائرة الامريكية T.W.A .

ويقول الرئيس الأسد: ولا أظن أن أحدا غيرنا قد ساعد في تسوية مسألة هؤلاء الركاب ، ولم يكن في مقدور الادارة الأمريكية آنذاك أن تفعل أي شيء من أجل هؤلاء الرهائن ، بالعكس كان يمكن لأي خطأ ترتكبه الادارة الأمريكية أن يودي بحياة هؤلاء الرهائن .

نحن وهذا وضعنا نتعرض للارهاب بما في ذلك احتلال أرضنا من قبل اسرائيل ، ومع اننا نساعد في إنقاذ عدد من المخطوفين في أي وقت نستطيع أن نفعل ذلك نُتهم بالارهاب عبر تلفيق عمليات لاعلاقة لنا بها .

وفيما يتعلق بعملية لندن ، فعلى الرغم من اننا كنا نتمنى أن تنزل كل المصائب باسرائيل لأننا واياها عدوان وفي حالة حرب منذ ثمانية وثلاثين عاما « وقت اجراء الحديث » نحن نرفض أن يقوم غيرنا بأعمال ضد الطيران المدني ، نرفض أن نقوم نحن أو غيرنا بأعمال الخطف أو تفجير ضد الطيران المدني ، ونعتبر هذه الأعمال أعمالا جبانه

ولا انسانية ، وانها ليست أعمالا نضالية تستهدف تحرير أرض محتلة أو استرجاع شعب لحقوقه المغتصبة .

اننا واسرائيل عدوان ، وكل الاحتمالات قائمة بيننا ولكن فى موضوع الطيران المدنى لم نخطط له بالسوء سابقا ولن نخطط له لاحقا ، وعندما خطفت طائرة الوفد السياسى السورى قلنا أننا سنرد على اسرائيل ولكن لن نقترب أبداً من الطائرات المدنية ، وكانت ردودنا من المناطق التى يجرى فيها العمل النضالى الشجاع على الأرض .

وأريد أن أضيف بأن المحققين البريطانيين والبوليس البريطانى يدركون أنه لو كانت لسورية علاقة بحادث لندن لكان باستطاعة سورية أن تخبىء الشخص المتهم وقتا طويلاً ، أعنى لما كان باستطاعة البوليس البريطانى أن يمسك بهذا الشخص بهذه السرعة .

أقول هنا وفى ذاكرتى الآن الأشخاص الثلاثة الذين أخرجهم البريطانيون من لندن وأنا على ثقة بأن البريطانيين يجب أن يكونوا مقتنعين بأن هؤلاء الثلاثة لاعلاقة لهم بالامر .. أنا أقول هذه الأحكام منطلقا من الافتراض أن هناك بعض الناس يتعاملون مع مثل هذه القضايا بتجرد وموضوعية .

فيما يتعلق بحادث ألمانيا أنا لا أعرف عنه أكثر مما تعرفون عنه كصحفيين ، وإذا كنتم أنتم متورطون فى هذا العمل فسورية متورطة به .. نحن لانؤمن بالارهاب ولانقول ذلك خوفا من أحد ، وقد قلنا ذلك سابقا ونقوله الآن وسنقوله فى المستقبل .

ان الارهاب شىء والنضال من أجل تحرير الأرض واستعادة الحقوق المغتصبة شىء آخر .. الارهاب يعمل بدافع الارتزاق ، بدافع القتل ، أما المناضل من أجل الحرية فيضع فى رأسه قضية يؤمن بها بكل طاقته النفسية والمادية ويدافع عنها .. نحن نؤيد النضال والمناضلين من أجل الحرية ، ونعارض الارهاب والارهابيين ، الارهابى غالبا مايكون مرتبطا بقوة خارجية ، بينما المناضل ليس كذلك . اذن لماذا تُوصف سورية من قبل بعض الجهات بالارهاب ؟

فى تقديرى يتراءى لنا : أن الموضوع واضح بالنظر للعلاقة بين هذه التهم وسياسة سورية التحررية .. لنرى مَنْ الذين يتهمون سورية بهذا .. بالدرجة الأولى هى اسرائيل والصهيونية العالمية ، وفى مراحل كثيرة وقفت معها بعض الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية .

قال لى مصدر سورى كبير. نحن دائما نقول بأن سورية هى بلد مستقل وذات سيادة وأن استقلاله هذا من مصلحة شعبه ومن مصلحة الأمة العربية ولذلك فأى خطر يتهدد سورية ، يدفع شعبها الأبي للدفاع عنها بكل الوسائل المشروعة ، وطالما أن الأمة العربية وخاصة الشعب الفلسطينى والبلاد العربية التى تخضع للاحتلال الاسرائيلى تتعرض لعمليات قتل وقمع مستمرة ، ومحاولات لانتزاع الشعب واقتلاعه من

جذوره ، ورميه خارج الأرض ، لذلك فإن سورية معنية بحكم المبادىء ، وبحكم الالتزام القومى ، وبحكم الالتزام الوطنى بقضية الشعب ، وأن تهب لنجدة هؤلاء والدفاع عنهم .

ويضيف المصدر نحن اصطدمنا بهذا الاتهام عندما وقفنا ندافع عن الشعب اللبنانى الشقيق فى وجة الاجتياح الاسرائيلى والقوى متعددة الجنسية التى جاءت لتفرض الاحتلال الاسرائيلى وكأنه واقع مشروع للأراضى اللبنانية وعندما فشلت هذه القوى فى أن تثنى الشعب اللبنانى عن حقه المشروع فى المقاومة ، واستطاعت المقاومة الوطنية أن تتصدى للاحتلال الاسرائيلى ، وأن ترغمه على الانسحاب من بيروت إلى الجنوب ، وتجبر القوات المتعددة الجنسية على الرحيل عن الأرض لأنها لم تأت لتحقيق السلام ، ولو كان السلام هدفها لأجبرت اسرائيل على الانسحاب من كل الأراضى اللبنانية المحتلة .

كان هناك الاتهام لسورية بأنها تشجع الارهاب لدوافع ليست نضالية ، ولكن أثبت الواقع كذب هذه التهمة ، لأن مَنْ تصدى للجيش الاسرائيلى فى احتلاله للبنان والقوات المتعددة الجنسية هو الشعب اللبنانى **بدعم سورى طبيعى . لاتخفى سورية أنها تدعم أى شعب يخوض حربا تحريرية أو كفاحا وطنيا فى سبيل استقلاله الوطنى ، وقد عبرت عن ذلك بالنسبة لثورة الجزائر وحرب فيتنام ، وجميع بلدان العالم الثالث التى ناضلت للتحرر من الاستعمار ..**

● **النقطة الثانية** هناك دول لها مصالح فى الوطن العربى ، وتريد أن تكون اسرائيل هى حامية هذه المصالح ، ولذلك فهى ترى أن أى عمل تحريرى لخدمة المصالح العربية وحمايتها هو عمل ارهابى ، وأكثر من ذلك فإنها تطلب تجنيد العرب لأن يكونوا حراساً لمصالحها كما فعلت عندما كان هناك مسألة الرهائن الغربيين فى لبنان ..

يضيف المصدر السورى نحن ضد الخطف وضد الاختطاف ، ولكن لايمكن أن تطلب من دولة عربية بأن تقوم بحراسة المصالح الغربية إذا كان الشعور لدى الشعب العربى بأن مصالحه هى التى تُهدد وهى التى تُستباح ، ولذلك ثبت أيضا كذب هذا الاتهام ، وقامت سورية بجهد كبير متعاونة مع جميع الأطراف فى سبيل تحرير الرهائن الغربيين فى لبنان ، وقد توصلت سورية بفعل دورها المؤثر ، ونشاطاتها ، وتنسيقها مع جميع الأطراف الراغبة فى أن تكون المنطقة منطقة استقرار إلى تحرير هذه الرهائن .

أضاف محدثى المسئول السورى الكبير : هناك مسألة ثالثة تتعلق بالشعب الفلسطينى .. بالنسبة لنا لانستطيع أن نتخلى عن دعم نضال الشعب الفلسطينى وحقه المشروع فى تحرير أرضه .. كيف يمكن لدولة عظمى كالولايات المتحدة أن تضعنا على لائحة الارهاب لمجرد أن تدعم حقا فلسطينيا مشروعا فى تحرير الأرض الفلسطينية من الاحتلال الاسرائيلى وخاصة أن الولايات المتحدة والجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى كل هؤلاء يقولون بالقرار ٢٤٢ ، وهو القرار الذى يؤكد عدم مشروعية هذا الاحتلال ، وعدم مشروعية الضم والالحاق الذى تم فى الجولان أو فى القدس أو فى الضفة

الغربية أو فى قطاع غزة ولكن وللأسف الشديد فإنه من النتائج السلبية لانتهاء الحرب الباردة محاولة اسرائيل استغلال الوضع الدولى لفرض مخططاتها ، كان هناك دائما ضحية ومبرر لاسرائيل والقوى الداعمه لها بأن تغطى سياستها العدوانية بتوجيه الاتهام لغيرها .

وقد أثبت الواقع أن سورية فى تاريخها لم تتعامل مع قضية ارهابية واحدة .. اتهمت سورية بانها وراء محاولة نسف الطائرة الاسرائيلية فى لندن من قبل شخص يُدعى الهنداوى ثم تبين أن هذا الشخص عميل للموساد الاسرائيلى ، واعتذرت بريطانيا رسميا فى بيان علنى عند عودة العلاقات السورية البريطانية ، وتبرأت ساحة سورية ، ثم جاءت الصهيونية لتتهم سورية بقضية « لوكاربى » ثم جاءت الوثائق لتدل على أن سورية لا علاقة لها اطلاقا بهذه القضية ، ثم جاءت قضية دعم الارهاب ، وتشجيع منظمة أحمد جبريل الفلسطينية وغيرها ، وطلبت سورية أن يُقدم دليل واحد يؤيد هذا ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على الاطلاق .

والآن يحاولون الربط بين حزب الله وسورية ، وسورية تعتبر أن الحركة الوطنية فى لبنان هى حركة مقاومة وطنية ضد الاحتلال الاسرائيلى .. لماذا يقال عن حزب الله أو المقاومة الوطنية اللبنانية إنهم ارهابيون ، ولايقال هذا عن اسرائيل التى قامت بطائرات هليوكوبتر مسلحة بخطف رجال الدين ، ومازالت تحتفظ بهم حتى الآن سواء داخل الأرض المحتلة كالشيخ ياسين أو خارج الأرض المحتلة كالشيخ عبيد ، ثم تقوم كل يوم بابعاد أهل البلد عن بلدهم ، وقتل الناس الأبرياء فى بيوتهم ، وقصف المنشآت والأهداف المدنية ، والاغتيالات الفردية . والجماعية ، ومع ذلك لا أحد يتحرك ، ويضيف المصدر السورى نحن نقول إننا متهمون لأننا انصار حق ولأننا أنصار قضية عادلة ، ونحن شعب ضحية يُمارس عليه العدوان من خلال استمرار اسرائيل فى احتلال الجولان ، وبقية الأراضى العربية المحتلة .

كان الرئيس حافظ الأسد هو الأسبق فى كشف ظاهرة خطيرة بدت فى الأونة الأخيرة على الصعيد الدولى وهى ظاهرة اتباع سياسة القوة والتدخل العسكرى والعدوان المسلح لتحقيق أهداف سياسية ، وهذا مافعلته الولايات المتحدة بهجومها المسلح على الجماهيرية العربية الليبية ومانفعله اسرائيل فى جنوب لبنان وسائر الأراضى العربية المحتلة وما يفعله عنصريو بريتوريا فى جنوب أفريقيا .

ان هذه الظاهرة الخطيرة أصبحت تهدد العلاقات الدولية بخطر شديد وتنذر بجعل العالم ساحة مستباحة لمن يرى فى نفسه القدرة على الاعتداء والتملص من العقاب .

وقد وصف الرئيس حافظ الأسد مَنْ يمارسون هذا النهج باسم مكافحة الارهاب بأنهم يفقدون صوابهم لعجزهم عن كبحه ويفقدون صوابهم أكثر عندما يخلطون بين الارهاب والتحرير ، ويفقدون صوابهم أكثر فأكثر عندما يعتقدون أنهم قادرون على منع العمل من أجل التحرير بالتخويف من تهمة الارهاب .

يقول الرئيس حافظ الأسد : إننا نرفض الارهاب وندينه ونقاومه لأننا لانريده ، بل عانينا من بعض أعماله ولكننا نميز بوضوح بين الارهاب وبين أعمال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال ، والتى نؤيدها لانها حق لكل شعب احتلت أرضه أو اغتصبت حقوقه ، وخاصة عندما يُمارس ذلك على ساحة نضاله الحقيقية .

اتهامات لاتقلق ولاتعبر عن الحقيقة

اتهام سورية بأنها مشتركة فى نشاطات ارهابية أو بأنها تقدم مساعدات لجماعات ارهابية لاتقلق أحدا فى سورية ولايمكن أن تقلق أحدا فى سورية لأنها لا تعبر عن الحقيقة ومن المفيد أن نذكر أن بعض الأشخاص والجهات والولايات المتحدة قادوا حملة التهم الموجهة إلى سورية ، ولكن هذه التهم لاتعبر كما قال الرئيس حافظ الأسد عن ارادة سياسة أمريكية محضة وانما تجسد ارادة اسرائيلية صهيونية .. **فى حديثه إلى مجلة التايم الأمريكية فى ١٤ أكتوبر ١٩٨٩ ، قال الرئيس حافظ الأسد رداً على سؤال :** لوكانت هذه التهم أمراً أمريكيا محضا لما وجهت إلى سورية مثل هذه النهم ، وهى التى عملت أكثر من مرة على تخليص أعداد من الأمريكيين من أخطار موت محتمل .

لو كان الأمر أمريكيا حراً ، لما وُجِّه الاتهام بالارهاب إلى سورية بينما اسرائيل تحتل أراضى سورية وعربية منذ سنوات طويلة ، وهذا الاحتلال عمل ارهابى مستمر أمام بصر العالم كله ، ولو كان الأمر امريكيا حراً لما وجهت تهمة الارهاب إلى سورية ، وسورية هى التى عانت من أعمال ارهابية كثيرة ، والولايات المتحدة على دراية عميقة بالأعمال الارهابية التى مورست ضد سورية .

ولو كان الاتهام ـ ولنقل قرار الاتهام القائم فى بعض الدوائر الأمريكية ـ أمريكيا حراً لكان وجه إلى اسرائيل ولو مرة واحدة على امتداد تاريخها الارهابى الطويل **فاسرائيل هى التى بدأت أولى عمليات خطف الطائرات فى هذه المنطقة عندما خطفت أول طائرة ركاب مدنية سورية فى عام ١٩٥٤ واقتادتها إلى اسرائيل ، واحتجزتها هناك أياما ، وحققت مع ركابها ، وألحقت بهم اهانات مختلفة .**

واسرائيل هى التى أسقطت الطائرة المدنية الليبية من طراز « بوينج ٧٣٧ » فى عام ١٩٧٣ ، وقتلت اكثر من مائة راكب مدنى من بلدان مختلفة من بينهم وزير خارجية ليبيا السابق صالح بويصير كما قتل أفراد طاقم الطائرة وهم من الفرنسيين .

واسرائيل هى التى خطفت عام ١٩٧٣ أيضا طائرة مدنية عراقية بعد اقلاعها من مطار بيروت واقتادتها إلى اسرائيل وحققت مع الركاب بحجة البحث عن فلسطينيين .

واسرائيل هى التى خطفت طائرة مدنية ليبية فى فبراير شباط ١٩٨٦ ، وكانت تحمل وفدا سياسيا سوريا واقتادتها إلى اسرائيل وحققت مع ركابها ووجهت اهانات إلى مختلف ركاب الطائرة بما فى ذلك اعضاء الوفد السياسى السورى .

واسرائيل هى التى أدخلت مجموعات من قواتها فى عام ١٩٧٣ الى شوارع بيروت واغتالت ثلاثة من القادة الفلسطينيين فى غرف نومهم هم (محمد يوسف النجار ، وكمال عدوان والشاعر الفلسطينى المعروف كمال ناصر)

واسرائيل هى التى اغتالت الكونت برنادوت وهو مواطن سويدى كان يترأس لجنة الصليب الأحمر فى بلاده ، واختير من قبل الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى والصين وبريطانيا وفرنسا ، بتفويض من الجمعية العامة للأمم المتحدة ليقوم بمساع حميدة والوصول إلى حل سلمى فى فلسطين .

وقد ذكر كاتب أمريكى اسمه دان جوورتزمان فى حديث نشرته جريدة (جيروزاليم بوست) الاسرائيلية ان اسحق شامير قال له عام ١٩٥٦ ، أنه أعطى الأمر بالاشتراك مع اثنين آخرين من قادة عصابة شتيرن بقتل الكونت برنادوت ، وأحد هذين الشخصين سماه ناتان مور ، ومور هذا قال فى مذكراته وفى حديث نشر فى صحيفة « هيرالد تريبيون » أنه كان واحدا من ثلاثة يقودون الأعمال الارهابية فى عصابة شتيرن وأنهم ـ الثلاثة ـ خططوا لأعمال ارهابية كثيرة وحددوا أهداف هذه العمليات ومن بين هذه الأهداف كان انتونى ايدن رئيس وزراء بريطانيا ، واسرائيل هى التى قتلت اغتيالا فى القاهرة اللورد موين وزير الدولة البريطانى ، وقد أغضب ذلك تشرشل رغم ماهو معروف عن تشرشل من مناصرته للصهيونية ، وقد هاجم تشرشل آنذاك الصهيونية وقال عن الصهاينة : أنهم تنظيم من قطاع الطرق شبيه بالنازيين الألمان .

واسرائيل هى التى قادت عام ١٩٥٤ عمليات تخريب فى القاهرة من أجل توجيه أصابع الاتهام إلى مصر ، وعرفت أعمال التخريب هذه فى حينها بما سمى فضيحة لافون الذى كان آنذاك وزيرا للدفاع فى اسرائيل .

ومن بين وثائق هذه القضية رسالة مشفرة أرسلت من المخابرات العسكرية فى اسرائيل إلى الشبكة الارهابية الاسرائيلية الموجودة فى مصر تقول فيها : « نفذوا الأعمال التى من شأنها أن تمنع الاتفاق الانجليزى ـ المصرى ، ويجب الا تظهر أصابع اسرائيل فى هذه العملية » وحددوا لأفراد الشبكة الأهداف التى يجب أن يضربوها بالمراكز الثقافية والمؤسسات الاقتصادية وسيارات المندوبين البريطانيين والمواطنين البريطانيين عموماً وأى هدف آخر ، يرون انه يساعد فى الاتجاه العام الذى حدد لهم ويسألونهم فى هذه الرسالة عن امكانية التخريب فى قناة السويس التى لم تكن قد أممت بعد ، ويطلبون إليهم الاستماع يوميا فى ساعة معينة إلى إذاعة اسرائيل على موجة محددة وتردد محدد .

وقد شرح الضابط الاسرائيلى الذى ذهب إلى القاهرة ، وكان مشرفا على هذه الشبكة بأن الغاية من هذه العمليات الارهابية هى تحطيم ثقة الغرب بالنظام فى مصر .

طبعا هذه العمليات فشلت ، لان الشبكة اكتشفت وحوكم افرادها وعرف

البريطانيون والرأى العام العالمى حقيقة الموضوع ، وتحدث شاريت فى مذكراته حول هذا الموضوع .

وهناك أيضا رابطة الدفاع اليهودية فى الولايات المتحدة ، التى تشرف عليها اسرائيل ، والتى تقوم بأعمال منها حرق الأبنية ، ووضع العبوات الناسفة وملاحقة الأمريكيين الذين هم من أصل عربى ، وتعرفون أنها قتلت السيد اسكندر عودة فى مقر اللجنة العربية ـ الأمريكية ضد التفرقة فى سانتا آنا ، وكذلك فجرت مكتباً للجنة فى مدينة أمريكية أخرى وتتبنى رابطة الدفاع اليهودية هذه الأعمال علنا .

هذه بعض الأعمال الارهابية الاسرائيلية ، وهناك أعمال اسرائيلية أخرى كثيرة لايتسع المجال لذكرها هنا .. فأين موقف الولايات المتحدة الأمريكية من كل هذه الأعمال الارهابية وغيرها من أعمال ارهابية أخرى ؟

هل قالت السياسة الأمريكية كلمة شجب واحدة حول هذه الأعمال ؟ ، وهل وضعت الولايات المتحدة اسرائيل فى قائمة الدول الارهابية ؟

على العكس من ذلك فالسياسة الأمريكية دافعت عن هذه الأعمال إلى حد أنها استخدمت الفيتو فى مجلس الأمن ضد مشروع قرار بادانة خطف الطائرة المدنية الذى جرى فى شهر شباط عام ١٩٨٦ .

هل يمكن أن نقول أن مواقف السلطات الأمريكية من هذه الأمور بمجملها ، هى تعبير سياسى أمريكى حر ، أم أنها هيمنة اسرائيلية ؟

محاولات فاشلة للارهابيين القدامى

فى كلمته التى القاها فى افتتاح المؤتمر الحادى والعشرين للاتحاد العام لنقابات العمال فى ١٦ نوفمبر ١٩٨٦ ، **كشف الرئيس السورى حافظ الأسد أبعاد التآمر ضد سورية والمحاولات اليائسة بوصمها بالارهاب فقال :**

إن معركة البناء والتحرير هى معركة طويلة ومعقدة ، ونحن مصممون بارادتنا وعملنا وجهدنا وطاقاتنا على الانتصار فيها ، وقرارنا هو الانتصار فى معركة البناء وفى معركة التحرير . وقرارنا لايرضى القوى الامبريالية التى لاتزال رغم هزائمها التاريخية المتلاحقة تحلم باعادة عجلة التطور فى العالم إلى الوراء ، ولذلك يوجهون اليوم ارهابهم الينا ، ويسلطون علينا حربهم النفسية ، ويتعاملون معنا بأحقادهم الاستعمارية التاريخية .

الارهابيون القدامى الملطخة أيديهم بدماء الشعوب يريدون الصاق تهمة الارهاب بالمناضلين من أجل تحرير الشعوب وتقدمها وامنها وسلامها ، نحن ضد الارهاب . قلنا هذا فى الماضى ونقوله اليوم ، ولكن الارهاب شىء والكفاح الوطنى ضد الاحتلال شىء آخر .

نحن ضد الارهاب لانمارسه ولانسمح لأحد بأن يمارسه انطلاقا من بلدنا ، ولكننا

مع الكفاح ضد الاحتلال مع حركات التحرر الوطني للشعوب ، هذا موقف مبدئي لن نحيد عنه أبدا. انهم يريدون ارهابنا بارهابهم. يريدون تصوير كل عمل ضد اسرائيل المعتدية ـ التي تحتل الأرض العربية وتصادر الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني وتحتل جزءاً من أرض لبنان ـ ارهابا .

إن الزيف في موقفهم من الارهاب يبدو واضحا في موقفهم من ارهاب اسرائيل الذي هو سياسة دولة عندها . إنهم يقيمون الدنيا ويستنفرون كامل قواهم لأي موضوع صغير يتعلق باسرائيل ، ويسكتون عن ارهاب اسرائيل ، وإن خرق سيادتهم وانتهك قوانينهم على أرضهم .

لقد اختطفت المخابرات الاسرائيلية الفني النووي ـ كما سموه ـ الاسرائيلي موردخاي فانونو من قلب العاصمة البريطانية لندن ونقلته إلى اسرائيل بعد أن فضح أسرار الانتاج النووي في اسرائيل ، ولكن حكومة تاتشر لم تقم الدنيا .. حتى أنها لم ترفع صوتها بكلمة احتجاج واحدة رفضا للارهاب وانتصاراً لسيادة بريطانيا وقوانينها التي انتهكت .

وفي عام ١٩٨٤ حاولت المخابرات الاسرائيلية اختطاف الوزير النيجيري السابق عمر ديكو في قلب لندن بواسطة ثلاثة من عملائها ، أخرجوا الرجل من منزله في وضح النهار وخدروه ووضعوه في صندوق خشبي كتبوا عليه « حقيبة دبلوماسية » وانكشفت العملية ولكن طويت المسألة ، ولم تصرخ حكومة تاتشر لدى اسرائيل ولم تحتج على الارهاب وانتهاك كرامة الانسان بأبشع الطرق على الأرض البريطانية وفي عاصمتها .

والذين يحملون زوراً اليوم راية مكافحة الارهاب دفاعا عن اسرائيل يتجاهلون عمداً أن اسرائيل هي التي زرعت الارهاب الجماعي والفردي في الشرق الأوسط ، وأكبر عملية ارهابية شهدها التاريخ في هذه المرحلة التاريخية أو شهدتها البشرية في هذه المرحلة التاريخية هي تشريد ملايين الأطفال من أرضهم وبيوتهم طيلة هذه السنين .

ومن أمثلة ارهابها الفردي اغتيال الأديب الفلسطيني غسان كنفاني في بيروت عام ١٩٧٢ بوضع متفجرة في سيارته .

طبعا أنا أذكر هنا بعض الأمثلة لكي تسمعها تاتشر ويسمعها ريجان وغيرهما ، هم لو رجعوا إلى سجلاتهم يقرأون هذه الأمثلة سيكرهون الاستماع اليها ، ولكن يجب أن نسمعهم ما يكرهون .

واغتيال وائل زعيتر في روما باطلاق النار عليه عام ١٩٧٢ واغتيال محمود الهمشري في باريس عام ١٩٧٢ بوضع متفجرة في جهاز الهاتف في منزله ، واغتيال حسين أبو الخير في قبرص عام ١٩٧٣ بوضع متفجرة تحت سريره في الفندق .

واغتيال باسل كسيبي بإطلاق النار عليه في باريس عام ١٩٧٣ واغتيال القادة

الفلسطينيين يوسف النجار وكمال ناصر وكمال عدوان فى غرف نومهم ببيروت عام ١٩٧٣ .

واغتيال محمد بوضيا بوضع متفجرة فى سيارته بالحى اللاتينى فى باريس عام ١٩٧٣ .

واغتيال العامل المغربى بوشيكى فى أوسلو عاصمة النرويج لاشتباههم بأنه مناضل فلسطينى .

واغتيال عالم الذرة المصرى يحيى المشد فى باريس.

هذه الجرائم الارهابية ارتكبتها اسرائيل بواسطة أجهزتها الحكومية الرسمية ولكن فرسان الحملة الكاذبة ضد الارهاب فى لندن وواشنطن لم يحركوا ساكنا عندما قامت اسرائيل بعمليات قرصنة فى الولايات المتحدة بالذات .

لقد سرقت اسرائيل فى عام ١٩٦٨ مائتى رطل من اليورانيوم المخصب من المفاعل النووى الأمريكى فى مدينة أيولو بولاية بنسلفانيا واعترفت المخابرات الأمريكية بأن الكمية وصلت إلى اسرائيل. وسرقت أسرار وزارة الدفاع الامريكية بواسطة الجاسوس جوناثان بولارد.

وسطت على أسرار الكونجرس ووزارة الدفاع بواسطة العميل ستيفن بريان الذى تسلَّم وظيفة هامة فى وزارة الدفاع الأمريكية بعد انكشاف امر تجسسه لحساب اسرائيل .

وسرقت اسرائيل ثمانمائة وعشر قطع من مفاتيح « كرايتون » الالكترونية المستخدمة للتوقيت فى عمليات التفجير النووى ونقلها من الولايات المتحدة إلى اسرائيل .

ويقول جورج كارفر المسئول الكبير السابق فى وكالة المخابرات الأمريكية أن الأسرار الرسمية الأمريكية تتسرب بسرعة الضوء إلى السفارة الاسرائيلية فى واشنطن .

ولم يزعج حكام الولايات المتحدة أن يقترف أنصار اسرائيل الجرائم الارهابية ضد العرب الأمريكيين ومؤسساتهم على الأرض الأمريكية ، لقد قتلوا الكسى عودة ، وفجروا مقر اللجنة العربية الأمريكية ضد التمييز العنصرى ، وحاولوا مرتين قتل الصحفى الأمريكى من أصل سورى مصطفى الدباس صاحب صحيفة الراية الصادرة فى فيلادليفيا بالولايات المتحدة ، كما نهبوا محتويات مكاتبه ومطبعته فى المرة الثالثة .

هذه الجرائم الارهابية كلها لم تدفع الفرسان المزيفين لحملة مكافحة الارهاب إلى اتهام اسرائيل بالارهاب، وإلى الدعوة لقطع العلاقات الدبلوماسية معها.

ولم يثر قلقهم وممارستهم ضد الارهاب ، ان تسطو اسرائيل فى شهر تشرين الثانى عام ١٩٦٩ على مائتى طن من اليورانيوم كانت مرسلة على سفينة المانية غربية من ميناء انتجيرب البلجيكى إلى ميناء جنوا الايطالى لحساب السوق الأوربية المشتركة ولم يثر حماستهم ضد الارهاب أن تكون اسرائيل أول من ادخل اسلوب خطف الطائرات إلى الشرق الأوسط وأول من أسقط الطائرات المدنية وقتل اكثر من مائة من الركاب .

أما جرائم الارهاب الجماعي والابادة الجماعية ، فسجلها الاسرائيلي ضخم جداً في فلسطين ولبنان وسورية ومصر والأردن وتونس وغيرها ، ولايمكن أن يتسع المجال أو تتسع الساعات والايام لتعداد هذه الجرائم .

أردت أن أشير إلى هذا المثال لأدلل أن الغاية لدى الاسرائيليين تبرر الواسطة . وقد ارتكبت كثيرا من المجازر بحق اليهود في الكثير من بلدان العالم ، وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذا الأمر من أجل أن تدفع باليهود لأن يهاجروا إلى فلسطين أو من أجل أن تلصق تهمة قتل اليهود بشخص أو بآخر بدولة أو أخرى بقوة أو أخرى لكي تستنزف ماتريد استنزافه ، ولكي تحقق هدفا سياسيا تكون قد خططت له ، الأمر الذي يجعلنا نستنتج وبثقة أنها هي التي خططت لنسف طائرة العال الاسرائيلية ، وخططت ووضعت سيناريو بحيث تصل العملية إلى ماقبل تفجير الطائرة وهذا ماحصل .

ولم تتورع المخابرات الاسرائيلية عن إلقاء المتفجرات على الكنس اليهودية وأماكن تجمع اليهود ، وهذا مافعلته في عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ في بغداد .

أحد الصحفيين الاسرائيليين يقول في صحيفة اسرائيلية عام ١٩٧٧ ان مردخاي بن ورات السياسي البارز في حزب العمل حاليا كان المنظم المباشر للأعمال الارهابية الاسرائيلية المعادية ليهود العراق عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ كما أكد وقوع هذه الجرائم الارهابية كاتب اسرائيلي آخر في صحيفة الفهود السود عام ١٩٧٢ .

ان المستعمرين حلفاء اسرائيل الطامعين في إعادة أيامهم السوداء الغابرة في منطقتنا يتخذون من مكافحة الارهاب وسيلة للضغط على المناضلين من أجل الحرية والتقدم والسلام .. وهم عندما يخططون ويحلمون بالعودة إلى الماضي ، علينا أن نفتح صفحة ماضيهم الأسود . إن حكومة بريطانيا تنطلق في موقفها المتجني المستفز من حق تاريخي على الأمة العربية . وتاريخ بريطانيا الأسود مع الأمة العربية معروف .

لقد خانت بريطانيا عهودها وحنثت بكلمتها .. بدل أن تساعد العرب على نيل حريتهم بعد الحرب العالمية الأولى وكما نعرف جميعا بدل أن تساعدهم على تحقيق وحدتهم القومية قسمت وطنهم ووضعت الحدود المصطنعة بين أجزاء الوطن الواحد . ولم تكتف بهذا بل قسمت الجزء الواحد من هذا الوطن إلى أجزاء . في ظل الاستبداد العثماني كان هناك شيء من الوحدة العربية جاءوا وقسموا . تاريخيا كانت سورية تعني من طوروس إلى غزة ، فجاء الانجليز والفرنسيون وراء أطماعهم ومصالحهم فعقدوا اتفاقية سايكس بيكو عام١٩١٦وفرضوا احتلالهم بعد تقسيم أرض سورية الطبيعية إلى دويلات .

ومن منا لايذكر رسائل ماكماهون ووعد بلفور ودور بريطانيا في اقامة الكيان الصهيوني العنصري في فلسطين ، ومن منا لم يسمع بقصف الأسطول البريطاني للاسكندرية عام ١٨٨٢ بحجة أن المصريين يرممون أسوار الميناء ؟

لقد مات أحد الضباط البريطانيين بضربة شمس ، فسحقوا أهل القرية بتهمة تسببهم بموت الضابط البريطاني ؟ وكان الأمر الفظيع هو في سحق أهل القرية بين اطلاق النار وأعواد المشانق وجدران السجون ولسنين طويلة فإن أبناء الشعب المصري يحتفلون بمناسبة حادثة دنشواي **ويسجل التاريخ مجزرة بريطانيا في الاسماعيلية عام ١٩٥٢ التي ذهب ضحيتها مئات من المواطنين المصريين.**

ومجازرهم في العراق وبلدان الخليج واليمن والسودان وعدد كبير من بلدان افريقيا والهند وبلدان آسيوية أخرى ، هذه المجازر لاتتسع لذكرها مجلدات عديدة ، وعلينا ألا ننسى قبل هذا وبعده أن بريطانيا قسمت بلادنا إلى دويلات وغدرت بنا وسلمت فلسطين لليهود الصهيونيين .

ومن السخرية أن ترفع حكومة لندن راية مكافحة الارهاب تغطية للدور الذي تقوم به ضد الشعب السوري وغيره من الشعوب، وضد صمود هذا الشعب تنفيذا لأوامر سادتها في واشنطن لأن الجميع يعرفون أن حكومة لندن جعلت من بريطانيا القوية صغيرة ، دمية صغيرة ، تابعاً صغيراً يدور في الفلك الأمريكي وهي لاتستطيع ولاترغب في الفكاك من هذا القيد . ولم تكتف حكومة بريطانيا أنها أعلنت عداءها لنا ، بل عملت على أن تستعدي ضدنا دول أوربا ، مجسدة بذلك أحقر أنواع الحقد وسلوكا استعماريا كان مألوفا في عهود الاستعمار ، يوم كانت تجري الدعوات لتكتلات ، وتحالفات بهدف الاعتداء على آخرين ، وقد اعتادت بريطانيا دائما أن تعمل على توريط الآخرين معها كما حدث في العدوان على مصر عام ١٩٥٦ .

وإذا لم تكن حكومة لندن تعمل بوحي من التراث الاستعماري فلماذا دعوة أوروبا لأن تتبنى موقفها ، وأوربا مجموعة أمم وليست أمة واحدة ، لغات مختلفة ، تاريخ خاص لكل منها ، مصالح مختلفة ، تربط بينها رابطة القارة فقط ، كما تربط بيننا وبين دول أسيا جميعا رابطة القارة الآسيوية .

وعلى كل حال .. كثير من المسئولين الأوربيين يفهمون حقيقة الموقف ولم ينجروا تماما إلى ماتريده حكومة لندن ، ونحن نحمل تقديرا لعدد من المسئولين الأوربيين الذين حضروا أو مثلوا في مؤتمر لندن ونوجه لهم الشكر ، وان كنا نستغرب ولا نستطيع أن نفهم كيف سايروا حكومة تاتشر إلى حد تبني البيان الذي صدر بغض النظر عما ورد فيه على أساس الحرص على التضامن الاوروبي .

لم يدع الرئيس الأسد مناسبة تمر دون أن يطالب بدراسة ظاهرة الارهاب وكان يقصد بذلك الارهاب الرسمي أي الارهاب عندما يصبح جزءا لايتجزأ عن سياسة الدولة الخارجية وعلاقاتها مع الدول الأخرى ، والارهاب على مستوى الدولة هو النشاط الارهابي الذي يتم برغبة الدولة ومشيئتها سواء نفذته هي أو بواسطة دولة أخرى أو منظمة أو مجموعة من العملاء والمرتزقة أو أي طرف آخر ، والارهاب الدولي هو أخطر

أنواع الارهاب لأنه جريمة دولية فى حق الانسانية وتشكل خطرا مباشرا على السلام العالمى ، واسرائيل تمثل فى المنطقة العربية المصدر الأساسى للارهاب على مستوى الدولة والرئيس الأسد يرى أن اسرائيل تمثل البروز العنصرى المتقدم للصهيونية البغيضة التى استغلت منذ ظهورها ومازالت تستغل اليهودية كدين واليهود كأصحاب ديانة ، وتسخرهم فى تنفيذ خططها التى تلتقى مع خطط الامبريالية بهدف استعباد الشعوب ونهب ثرواتها بل إنها لم تتورع عن ممارسة أبشع أساليب التمييز العنصرى ضد اليهود العرب والشرقيين الذين يئنون تحت وطأة الحكم الصهيونى الظالم .

وعبر عشرات الكلمات والأحاديث التى أدلى بها الرئيس حافظ الأسد حول ظاهرة الارهاب الدولى توصل إلى عدة استنتاجات جرى التسليم بها فى مختلف الدوائر العلمية والسياسية العربية وفى مختلف دول العالم الثالث .

●● من هذه الاستنتاجات ما يلى :

١ - أن اتهام حركات التحرر الوطنى بالارهاب يعتبر فى حد ذاته مذهبا استعماريا جديدا من شأنه عدم الاقرار للبلدان النامية بأى موقع ، أو حق فى القانون الدولى وعدم جواز مطالبتها بالمساواة السياسية مع الدول الكبيرة وبالتعاون على أرضية الاحترام المتبادل والحقوق المتساوية ، ورفض الاعتراف بحقها فى ممارسة النضال للتخلص من كافة أشكال الاستعمار وهو أمر لا يمكن قبوله من جهة ويفترض النضال التحررى الوطنى المشروع من جهة أخرى .

٢ - إن الارهاب على مستوى الدولة بطبيعته وخصائصه الحديثة الشرسة هو ظاهرة إجرامية ينظر إليها المجتمع ممثلا فى القانون والمنظمات والشعوب والحكومات التقدمية ، نظرة الشجب والادانة القاطعة ، ولا يمكن أن يكون فى مصلحة الشعوب النامية وحركات التحرر الوطنى القيام بأعمال ارهابية تلحق الضرر بها وتجعل الرأى العام العالمى ينبذها ، بينما الدوائر الأمبريالية هى التى تلجأ إلى أسلوب الارهاب لتسميم جو العلاقات الدولية واغتيال السلام العالمى، ونشر الخوف والذعر من الحروب والجرائم الدولية فى نفوس البشر.

٣ - إن مصطلح الارهاب الدولى هو مفهوم واسع ومطاط بحيث يستغرق قطاعا واسعا من الجرائم الارهابية ، لكن ارهابية الدولة هى أخطر أنواع الارهاب ، وهى فى الوقت نفسه تتجلى فى أشكال عديدة أهمها الأشكال الثلاثة التالية :

● **الشكل الأول :** الارهاب الذى ينفذ بواسطة القوات المسلحة لدولة ما ضد دولة أخرى مستقلة ، ومثاله ارهاب الولايات المتحدة الامريكية خاصة بعد ظهور مبدأ الهيمنة على

العالم حيث احتلت جرينادا عام ١٩٨٣ ، وقصفت ليبيا عام ١٩٨٦ وهددت كلا من نيكاراجوا وسورية بصورة متواصلة ، ومثاله أيضا اسرائيل التى احتلت الجنوب اللبنانى عام ١٩٨٢ متابعة سياسة قضم واحتلال الاراضى العربية دونما احترام للمواثيق الدولية ، ومثاله ايضا جنوب أفريقيا العنصرية التى غالبا ماتشن الاعتداءات السافرة ضد انجولا ، وموزمبيق ، وبتسوانا والتى تمثل عمليا جزءا من أراضى أنجولا المستقلة وترفض الجلاء عن الأراضى الناميبية المحتلة بالقوة .

● **الشكل الثانى :** الارهاب الرسمى الذى ينفذ على شكل عمليات تخريبية سرية تقوم بها وكالات الاستخبارات الأجنبية ضد أشخاص الدولة من السياسيين والاجتماعيين أو ضد حكومات وشعوب هذه أو تلك الدول ، وهذا الشكل يظهر جليا فى برامج أعمال وكالة الاستخبارات الأمريكية التى تستفيد من القوانين الامريكية الخارجية التى تسمح للولايات المتحدة بالتدخل بواسطة العمليات السرية فى تلك المناطق من العالم التى تواجه المصالح القومية الأمريكية فيها أخطار كبيرة وخاصة بالنسبة لبلدان أمريكا اللاتينية ، بحيث يتم اسقاط تلك الأنظمة غير المناسبة لها وضمان استمرار الأنظمة الموالية لها ، وكبح جماح تطور وانتشار حركات التحرر الوطنى ـ كالتدخل الأمريكى السافر فى بنما وضد نيكاراجوا ، ولصالح النظام الرجعى فى شيلى .

● **أما الشكل الثالث الذى يتجلى فيه الارهاب الرسمى ،** فهو عبارة عن تلك الأعمال الاجرامية التى تقوم بها الأنظمة الديكتاتورية ضد مواطنيها أفرادا وجماعات ، ومثاله ما يجرى من قمع وتنكيل وملاحقة للثوار الشرفاء فى شيلى والسلفادور وبنما وغيرها من بلدان أمريكا اللاتينية ودول أفريقية وأسيوية أخرى ، الأمر الذى يدينه بشدة القانون الدولى .

صمود سورية بقيادة الأسد
فى مواجهة الارهاب الدولى

كان صمود سورية بقيادة الرئيس الأسد فى وجه المؤامرات الامبريالية والصهيونية المتكررة التى تعرضت لها سورية منذ مطلع الثمانينات ، كان ظاهرة تستحق عظيم الاحترام والتقدير .

لقد وصلت المؤامرات إلى حد إتهام سورية بالارهاب ، وكان الرئيس الأسد يستند فى مواجهة هذه الحملة الشرسة ، إلى إيمانه بالحق وقناعته بأن ما يمارسه حق ، وما يكون حقا يجد القناعة لدى الآخرين فى الدفاع عنه ، سواء كان هؤلاء هم الشعب الذى أعطى بكل ثقة واختيار قيادته للرئيس حافظ الأسد ، أو الأمة التى ينتمى إليها شعب سورية

بكل مظاهر التأييد فى مراحل الكفاح أوالرأى العام العالمى الحر ، الذى يستند فى تعاطيه مع المعطيات إلى الحق والقانون والضمير دون ضغط او اكراه ، **والشىء المبهر فى تجربة الرئيس حافظ الأسد هو ذلك الايمان الراسخ بحتمية انتصار الحق والعدالة مهما كان الثمن** لأن هذا منطق التاريخ ولن يستمر أى ظالم إلى ما لا نهاية .. هناك شواهد واثباتات على ذلك .. **الرئيس حافظ الأسد عندما يلتحم مع شعب سورية على طريق الايمان بقضيته** ، وهى قضية حق وعدل، فهذا الشعب يبادل قائده الجدارة والامكانات الكبيرة التى تفوق الوصف فى تحمله شتى الضغوط .. فالشعب يُسكن القائد فى وجدانه ولديه إيمان راسخ بحكم التاريخ ، وبحكم الأمل والمستقبل بأن قضيته ستنتصر ..

ولنضرب على ذلك مثالا ، لقد قاطعت الدول الأوربية سورية، وقطعت عنها بعض دول شقيقة أيضا مساعداتها فى عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ومع ذلك استطاع الشعب السورى أن يعتمد على الذات تجاوبا وإيمانا لمبدأ طرحه الرئيس الأسد وهو الاعتماد على الذات ، ومرت سورية من عنق الزجاجة وها هى ذى الآن ينعم اقتصادها بالازدهار ، وشعبها بالراحة والطمأنينة ..

مثال آخر : خرج على شعب سورية الخارجون داخل سورية من الذين ظنوا أن الدين هو التجارة ، وأن التجارة هى اللعب بالدين وأن الدين يمكن أن يُباع ويُشترى لأغراض ظاهرها حق وباطنها الباطل ، ولأن الاسلام هو دين السماحة ، ودين الحق ، ودين التعاضد والتساند خاصة فى مرحلة من مراحل الكفاح ضد الأعداء من أجل تحرير الأرض ، ولكن إيمان القائد بشعبه ، وإيمان الشعب بالقائد استطاع أن يهزم هذه الظاهرة شعبيا .. الشعب السورى هو الذى هزم هذه الظاهرة ومنعها من ان تستشرى أو أن يُستغل أى شعار مقدس والحق بها الهزيمة .

مثال ثالث : عندما تعرضت سورية إلى ضغوط كبيرة من القوات الاسرائيلية والقوات متعددة الجنسية فى لبنان لكى تثنيها عن حقها فى تأييد الشعب الفلسطينى واللبنانى، وعندما تعرض الشعبان الشقيقان للاعتداء الاسرائيلى فى عام ١٩٨٢ ولكن إيمان الأسد بالقضية اللبنانية والقضية الفلسطينية جعله يصر على موقف الكفاح ، وبالتالى فلقد وقف وقفة وطنية جعلت الولايات المتحدة عاجزة عن أن تفرض على الشعب اللبنانى تحت جنازير الدبابات الاسرائيلية اتفاقية ١٧ مايو آيار ، التى حاولت اسرائيل أن تفرضها على لبنان وهو تحت احتلالها ، وكان الرئيس حافظ الأسد يعبر عن ضمير الأمة العربية كلها فى رفض توقيع أى وثيقة استسلام ، وكانت الولايات المتحدة ووزير خارجيتها شولتز يعتبر أن هذا الاتفاق سيمر .. **لكن الرئيس حافظ الأسد بحكم بصيرته وإيمانه بشعبه قال** : إنه لا يمكن لشعب أن يُفرض عليه الذل تحت جنازير الدبابات والاحتلال ، وبالتالى استطاع الشعب اللبنانى أن يمزق الوثيقة العار ، لأنها

لا تحقق أى تكافؤ بين طرفين متفاوضين ، ولا تعطى أى حق للبنان فى استرداد أرضه .. كانت اسرائيل تريد فصل لبنان عن جسمه وتحويله إلى محمية . وعندما جاءت القوات متعددة الجنسية والأساطيل **كان الرئيس الأسد يقول** : انه إذا كانت هذه القوات جاءت لتفرض واقعا على لبنان فنحن لا نستطيع الحماية لها إذا هى عجزت عن أن تقدم الحماية عن نفسها، إذا كانت هذه القوات التى هى قوات الدول العظمى لم تستطع أن تحمى نفسها فكيف يطلب من سورية أن تحمى مصالح هذه القوات التى فشلت فى أن تحمى نفسها ..

ورغم محاولات الحصار الاقتصادى التى تعرضت لها سورية بذريعة مساندتها للارهاب فقد فند الرئيس الأسد هذه المحاولات ومؤكدا فى الوقت نفسه أن شعبه يستطيع أن يتحمل كل ضائقة ، لأنه لا يمكن أن تقهر عزته الوطنية .

الرئيس الأسد فى هذا الموقف كان يعبر عن الكرامة الوطنية للإنسان السورى والإنسان العربى ، ليس فى هذا الموقع فقط وإنما استلهاما للتاريخ ، وإيمانا فى المستقبل بأن الشعوب لابد أن تنتصر إذا كانت تمتلك ارادتها الوطنية وقرارها المستقل ، **ولذلك خرج الرئيس الأسد من جميع الظروف منتصرا لأنه كان يعتمد ليس على موقف شخصى منه ، وإنما على استلهام الارادة الشعبية بكامل فئاتها وقطاعاتها** ، وايضا على دعم كبير جدا من أمته العربية لأنه كان يعرف بأن هذا هو ضمير الإنسان العربى فعلا ، وكان يرى أيضا بأنه لابد أن يكون له نصير وظهير فى الرأى العام الدولى لأن هناك مواقع كثيرة فى الرأى العام الدولى تساند قضايا الحق ، وقضايا الحرية فى كل مكان فى العالم .

وفى ١٩٨٦/٥/٢٧ وضع الرئيس حافظ الأسد النقاط على الحروف فى مسألة الارهاب ، وقدم التحدى الحقيقى للدول الارهابية عندما طرح مبادرته بتشكيل لجنة دولية مختصة سياسية حقوقية لتحديد معنى الارهاب وتفريقه عن النضال الوطنى المشروع ، والدعوة إلى الضرورة الموضوعية لحظر الأعمال الارهابية ونشاطات المرتزقة من جهة ، وتشجيع أعمال المناضلين الثوار من جهة أخرى .

مسوغات هذه المبادرة فلسفها الرئيس حافظ الأسد عندما قال فى مجال شرحها :

« نحن فى سورية ندين الإرهاب بكل شدة ، بكل قوة لأسباب كثيرة ، اهمها أن الإرهاب مرفوض من حيث المبدأ ، وثانيها لأننا بلد من بلدان العالم ، بل بلد من اكثر بلدان العالم تعرضاً للإرهاب .

نحن لم نكن ولن نكون إرهابيين . ولكننا لم نكن ولن نكون مستسلمين ابداً ، ولن نسمح للظلم أن يهيمن علينا وعلى حياتنا ، وسوف نتصدى له ونقهره مهما تكن القوى التى تدعمه لأن تجارب التاريخ وتجارب الحياة أكدت أن لا قوة فوق قوة الشعوب . وإذا

كانوا يظنون ـ وهذا بعض ما هو مطلوب من قبلهم ـ أن الضغط علينا وتخويفنا سيجعل منا سياجاً نحميهم به من الناقمين عليهم ، ومن المناضلين من أجل الحرية ودحر الظلم ، إذا كانوا يظنون أننا فى سورية سنتحول إلى مثل هذا السياج فقد أخطأوا الهدف بكل تأكيد .

ولابد من الإشارة إلى أمر آخر تجدر الإشارة إليه وهو أن المحاسبة على الإرهاب لم يفوض بها أحد . الشعوب كلها ضد الإرهاب وقد ورد فى كلامى حتى الآن ماذا يعنى الإرهاب ، ولكن هل فوضنا جميعاً دولة لتحاسب الإرهابيين ، وتلاحقهم فى كل مكان ؟

هل يحق لدولة منفردة أن تصف الإرهاب كما تشاء ، وأن تقرر الإجراءات التى تتبع وفق مقاييسها ؟ لنتفق على حدود الإرهاب وحدود المقاومة والتحرير ، ولنناقش هذا الأمر فى مؤسسة دولية ، وليمارس بعد ذلك كل منا دوره وفق المقاييس التى تضعها هذه المؤسسة . وبهذا نكتسب الشرعية الدولية والأخلاقية ، عندما نمارس مكافحة الإرهاب وفق المقاييس التى تقرها البشرية عبر هذه المؤسسة الدولية المختصة .

صدى المبادرة

وبسرعة شديدة أصبحت هذه المبادرة محور اهتمام المنظمات الدولية ونوقشت فى الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية ومنظمةالتضامن الأسيوى الأفريقى ، والمؤتمرات الفرعية لمجموعة دول عدم الانحياز والمؤسسات الدولية السياسية ، ومؤسسات البحث العلمى والجامعات والمعاهد المتخصصة فى قضايا السياسة والقانون الدولى وعلم الاجتماع السياسى .

حقائق هامة

ويبقى فى نهاية هذا الفصل أن نشير إلى مجموعة من الحقائق الهامة التى تكشفت من وراء الحملة الأمريكية والأوربية لارهاب سورية ، وهذه الحقائق يمكن أن نبرزها فى عدة أبواب :

أولا : أن منطقتنا العربية هى منطقة أطماع استعمارية منذ زمن طويل ، وأن سورية من البلدان التى عُرفت فى تاريخها بمقاومة النفوذ الاستعمارى بدءاً من استقلالها الوطنى وحتى يومنا هذا فسورية هى التى وقفت ضد الأحلاف الاستعمارية ، وهى التى ساندت مصر فى كفاحها المشروع من أجل تأميم قناة السويس ، وفى كل المعارك المصرية الوطنية المشرفة .. كذلك فقد ساندت سورية استقلال الجزائر واليمن والخليج العربى ولبنان وتحملت الكثير من الضغوط فى مرحلة الحرب الباردة وكان الغرض من

هذه الضغوط هو تطويع القرار السورى الذى يرفض الرضوخ ويزداد صلابة وتمسكا باستقلاليته وببعده القومى كلما تعرض لضغوط أو تحديات .

● **الناحية الثانية :** هى قضية الصهيونية وسيطرتها على وسائل الاعلام الغربية وعلى قوى ومراكز القرار فى الولايات المتحدة وفى الغرب الأوربى وتأجيرها أو تسخيرها لهذه القوى لصالحها مستغلة البرلمانات والصحافة والتجمعات لاثارة الكثير من التهم على سورية وعلى الرئيس حافظ الأسد ، وذلك فى سبيل قطع الدعم ، وقطع المساندة لنظام وطنى يمكن أن يشكل حالة نهوض ليس فى سورية وحدها ، وإنما فى الأمة العربية جمعاء ، ولذلك كانت هذه النظرة تمثل نظرة الغرب إلى الوطن العربى .

● **الناحية الثالثة هى :** أن سورية أخذت بنظام ديمقراطى يعتمد العدالة الاجتماعية ، وقد رأى النظام الغربى فى سياسة سورية القومية خطرا على مصالحه فى المنطقة ولذلك بدأ يشن حملات مكثفة عليها مستغلاً الرجعية الدينية حينا والرجعية العربية أحيانا فى سبيل أن تتحالف معه من أجل مصالحه . هذه الأمور مجتمعة هى التى أدت إلى هذه الظاهرة .. وطبيعى أن يخرج الرئيس حافظ الاسد من هذه المعارك منتصرا ، لانه كان يعرف انه يعبر عن ضمير أمته ، وعن مصلحة شعبه وعن حقه فى الحياة .

١٠

قراءة فى فكر الأسد

العلاقات المصرية السورية
فى فكر الرئيس الأسد

- مبارك والأسد قائدان لشعب واحد.
- شهادة من المشير الجمسى.
- تجربة الوحدة المصرية السورية.
- وتحطمت الأسطورة عند الفجر.

□□ **تحتل مصر وشعبها فى فكر الرئيس حافظ الأسد مساحة كبيرة ، واهتماما واضحا ، وكثيرا ما ردد الرئيس حافظ الأسد أن أجمل سنوات عمره ، هى تلك التى قضاها فى مصر كضابط فى جيش واحد لمصر وسورية وفى ظل قيادة واحدة ، وتحت علم واحد** ، وهذا الشعور بالانتماء لهذه الدولة التى لم يطل عمرها « الجمهورية العربية المتحدة » خلق فى وعى الرئيس حافظ الأسد شعورا بالاعتزاز والعنفوان ليس له مثيل . **الرئيس حافظ الأسد كمناضل وحدوى كان يرى فى هذه الوحدة حلما داعب مخيلته منذ الطفولة** ، ولذلك كان يعيش على هذا الحلم ، ومازال يؤمن به ، وأمنيته أن يرى هذا الحلم وقد تحقق فى وحدة عربية لا تضم مصر وسورية فقط ولكن كل الأقطار العربية .

وإذا كان قيام الجمهورية العربية المتحدة كان ولايزال نقطة التحول الرائعة فى التاريخ العربى الحديث ، والبداية الموفقة لمشرق فجر جديد على الأمة العربية ، فإن الرئيس حافظ الأسد يرى أن التاريخ قديمه وحديثه أثبت أن الأمن القومى العربى لا يكتمل إلا بجناحيه فى مصر وفى سورية ، وأن مصر وسورية هما جناحا الأمة العربية التى تحلق بهما وإذا هوى أحدهما ، لا قدر الله ، وقف هذا الطائر بغير حراك .

الرئيس الأسد ينظر فى التاريخ بعمق ، ويرى أن الأمن القومى لمصر يبقى منقوصا بدون سوريا ، كما أن سورية ترى أن أمنها القومى يظل بدوره منقوصا بعيدا عن مصر ، وكثيرا ما ردد الرئيس حافظ الأسد أن الاتحاد المصرى السورى هو الذى أمن

حدود البلدين ضد الغارات المغولية والتركية والهجرات المختلفة من آسيا وأوربا ، وأن وقوف سورية ومصر معا أمام الخطر عبر مراحل التاريخ المختلفة يناضلان عن كيانهما وعن كيان الأمة العربية هو الذى أبطل مفعول كل السهام التى صوبت ولاتزال تصوب اليها من كل مكان ، وقد تعرضت المنطقة لغزو الصليبيين وذلك فى أواخر القرن الحادى عشر وخلال القرن الثانى عشر ، ولكن صلاح الدين الأيوبى وحد العرب فى معركة حطين ورد الصليبيين على أعقابهم خاسرين مجللين بعار الهزيمة ، ثم جاءت جموع التتار الى الشام تريد احتلاله فتصدى لها الظاهر بيبرس بقوات مصرية وسورية ، واستطاع فى معركة « عين جالوت » أن يهزم جحافل التتار وينتصر عليها انتصارا عظيما ، وعبر التاريخ القديم والوسيط ، والحديث لم تتعرض الأمة العربية ، أو الأمة الاسلامية لخطر من الأخطار إلا وتصدت له مصر وسورية وأجهزت عليه ، وأرجعت الأمور الى وضعها الطبيعى كما سيلى فيما بعد **وفى الزمن الراهن فإنه لولا الوفاق المصرى السورى ، والذى أرسى دعائمه الرئيسان حسنى مبارك وحافظ الأسد لما تحقق الوفاق العربى ولما قامت له قائمة** ، ولقد كان من ثمار الوفاق المصرى الشامى قيام أول وحدة فى التاريخ الحديث عام ١٩٥٨ ، ولقد خاضت مصر والشام أول حرب تحريرية وهى حرب أكتوبر تشرين عام ١٩٧٣ ، **ولولا التنسيق التام الذى قام بين الرئيسين مبارك والأسد خلال حرب الخليج عام ١٩٩٠ لما انتهت هذه الحرب الى النهاية التى نعرفها الآن .**

هكذا فهم الرئيس حافظ الأسد العلاقة المصرية السورية ، وهكذا تعامل معها .

درس التاريخ

ولأن الرئيس حافظ الأسد قارىء ممتاز للتاريخ ، خدم فى سورية وأمضى فترة من خدمته فى مصر بالاضافة الى ما هو مشهود له به من عمق النظرة الاستراتيجية وايمانه المطلق بحتمية الوحدة العربية ، كل هذه الاعتبارات **جعلته يسلم بحقيقة أولية وبديهية وهى انه لا أمة عربية بغير الجسر الأسيوى الأفريقى أى بغير مصر والشام ، بغير مصر والشام لا يمكن أن تقوم الوحدة** ، ولا يمكن أن تتوحد المواقف المشتركة أو يحدث الاتصال العربى أو الحضارى أو الثقافى .

الرئيس حافظ الأسد ، هذا القارىء الممتاز للتاريخ ، يعرف الدور العظيم والعملاق الذى شغلته مصر والذى حافظ على الثقافة العربية لاسيما فى العصر العثمانى وحتى اليوم ويعرف مكانة الأزهر وكافة المؤسسات الثقافية العربية التى منحت نفسها تسمية الأزهر تقليدا أو اقتباسا من تسمية الأزهر فى مصر ، وقبل ذلك كله فإن الرئيس حافظ الأسد كضابط من الضباط القياديين والمؤثرين ومن خلال موقعه القيادى منذ كان طالبا فى

المدرسة الثانوية فى اللاذقية كما يؤكد زملاء دراسته ، شارك فى صنع الوحدة الأولى بين مصر وسورية ، ووقف بكل الشجاعة والبسالة يقتحم جدار مؤامرة الانفصال ويقاومه ودفع عن طيب خاطر ثمن مقاومته ، وسرح من الجيش ووقف وقفة مجيدة ضد القيادة المنحرفة التى أيدت الانفصال ، وكلنا يذكر الحركات التى تمت للقضاء على الانفصال واعادة الوحدة والتى كان حافظ الأسد من أبرز القياديين فيها ، وهو من أبرز القياديين والمنظمين لثورة الثامن من آذار ، وقد عرفنا من قبل كيف ناضل بعد قيام الثورة ، وقبل الحركة التصحيحية ، وبعدها من أجل عودة الوحدة المصرية ـ السورية ، وما هو مشهود للرئيس الأسد ، وموثق ان ايمانه وحبه لمصر جعله يناضل من أجل عودة الوحدة التى كان يرى انها بداية لوحدة عربية شاملة لابد أن تتحقق مهما طال أمد الوصول اليها ومهما غلت التضحيات فى سبيلها .

ايمان الرئيس حافظ الأسد بالعلاقات المصرية السورية يأتى من خلال فهم عميق للتاريخ والجغرافيا ، وكما يقول الدكتور سهيل زكار : « صحيح أن سورية تقع فى البر الأسيوى ، وأرض الكنانة تقع فى القارة الأفريقية إلا ان الصحيح انهما رغم ذلك امتداد جغرافى واحد ، **ويسوق الدكتور سهيل زكار البراهين المؤكدة على** هذه الحقيقة مما لا يتسع له المجال الآن .

ويقول : تأكيدا لكونهما امتداد جغرافى واحد انه حتى المنخفضات والتركيبات وبعض الانهدامات الموجودة فى مصر ، تنتهى جغرافيا وتركيبا على البحر الأحمر الى داخل سوريا ، فالبلدان من حيث الواقع الجغرافى كتلة واحدة ، والمشهود انه لا يوجد بين مصر وسوريا حاجز طبيعى جغرافى ، بل يشعر المرء أنهما امتداد واحد ، ورقعة واحدة ، واذا كانت الجغرافيا توجه التاريخ ، فتاريخ البلدين وجهته الجغرافيا وجعلت منه تاريخ بلد واحد ، ولا يمكن لأى فترة من تاريخ البلدين قديما ووسيطا وحديثا أن تفصل بين ما كان يجرى فى مصر عما جرى فى الشام ، وبالتالى فإن هذه الوحدة أعطت معطيات كثيرة .. أعطت الجسر والجسم أو الهيكل الذى قامت ويمكن أن تقوم عليه أى عملية وحدوية أو وفاق عربى . كما أعطت الحضارة العربية الاسلامية العادات والطبائع والتركيب الاجتماعى والاقتصادى ، بالاضافة الى كل ذلك فإن التنسيق المصرى السورى هو الذى مكن الأمة العربية وحقق لها استقرارها .

شهادة المشير الجمسى

□□ والواقع أن هذا الكلام الذى أشار اليه المؤرخ السورى الدكتور سهيل زكار **أكده لنا فى لقاء خاص المشير محمد عبدالغنى الجمسى نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية**

والقائد العام للقوات المسلحة المصرية السالف عندما أشار الى المقولة التى نقلت عن رمسيس (بأن أمن مصر انما يتوطد بتأمين الحدود الشرقية والبلاد التى وراءها) **وقال** : اننى أوافق على هذه المقولة تماما لأن التاريخ القديم بالاضافة الى التاريخ الحديث علمنا أن الباب الشرقى لمصر وسيناء (اتجاه فلسطين وسوريا ولبنان) هذا الباب الشرقى كان هو الباب الذى دخلت منه القوات التى حاولت أن تهاجم مصر فى جميع العهود ، ومن هنا ندرك أهمية الجبهة الشرقية ، وميدان مسرح العمليات الشرقية بالنسبة لنا يعتبر حيويا وأساسيا وأقصد سيناء بالذات الآن .

وأضاف المشير الجمسى يقول : اننى أؤمن تماما بأن العلاقة بين مصر وسورية يتحتم أن تكون قوية دائما ، وفى عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر عندما اتحدت مصر مع سوريا شكل هذا الاتحاد خطرا بالغا على الاستعمار الغربى فى المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط ، وكانت الخطورة الكبرى على اسرائيل التى لاتزال هى عدو العرب حتى الآن ، ولذلك لم تسمح هذه القوى للرئيس الراحل عبدالناصر أن يستمر فى الوحدة ووقع الانفصال نتيجة مؤامرة شاركت فيها دول أجنبية وقوى داخلية عميلة ومأجورة ، ولقد كان الانفصال نكسة كبرى لكل العرب ، وليس فقط لشعبى مصر وسوريا ، وفى رأيى انه يجب أن يكون هناك دائما تعاون وثيق بين مصر وسورية وأن يكون هناك دائما هدف سياسى واحد وأن تتكامل السياسة والاستراتيجية للبلدين ، وكل الدول فى المنطقة العربية تتأثر بالايجاب والسلب على ضوء قوة أو ضعف العلاقة بين مصر وسورية ، ولذلك فإن العلاقة المصرية السورية لها أهميتها وعمقها وحيويتها الآن ، وفى المستقبل ، لأنه ليس فى مقدورنا أن ننفصل عن تاريخنا وتراثنا وحاضرنا ومستقبلنا ..

وعندما تطرق الحديث مع المشير الجمسى عن ذكريات حرب أكتوبر باعتباره أحد رموز هذه الحرب قال : بعد حرب ١٩٦٧ كنا فى الوطن العربى كله وبصفة خاصة مصر وسورية والأردن نلعق جراحنا لأن اسرائيل استطاعت أن تفرض سياسة الأمر الواقع على الدول العربية التى احتلت أراضيها فى حرب يونيو ١٩٦٧ بالقوة العسكرية وبتأييد من الولايات المتحدة الامريكية وكانت تتوهم انها ستبقى كذلك حتى يستسلم العرب ويقدموا فروض الطاعة والولاء لها كما قال موشى ديان فى ذلك الوقت وكان من الضرورى على مصر أن تحرر سيناء ، وعلى سورية أن تحرر الجولان وعلى الأردن أن تحرر الضفة الغربية وقطاع غزة ، وكان على هذه الدول أن تضع الخطط اللازمة وأن تعتمد على القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية فى مواجهة اسرائيل ، ولقد استطاعت مصر وسورية أن تتحدى نظرية الأمن الاسرائيلى عندما اتصل الرئيس حافظ الأسد بالرئيس السادات وتقاربا وتعاونا ونسقا فيما بينهما من الناحية السياسية أولا ، لكى يكون

التعاون العسكرى مجديا ، ولقد شاءت الظروف أن أخدم لمدة سنتين كرئيس لمجموعة عمليات الجبهة السورية وكان من ضمن اختصاصى أن أعمل على ايجاد نوع من التعاون العسكرى بين مصر وسورية وكنت أسافر الى سورية مرة على الأقل كل شهر مع مجموعة صغيرة من الضباط فى سرية مطلقة ، كما كان يحضر الى مصر القادة السوريون بهدف بحث سبل التعاون وتدعيمه الى أن وصل التعاون والتفاهم بيننا لدرجة اننا اقتنعنا فى مصر وفى سورية بأن التعاون فى العمل العسكرى سيحقق الكثير وهذا ما حدث بالفعل **والفضل فى هذا أرجعه الى الرئيس حافظ الأسد والرئيس السادات لأنهما تعاونا كرئيسين الى أقصى درجات التعاون** ولقد أتيح لى خلال هذه الفترة أن أتعرف على الرئيس حافظ الأسد وعلى عدد من قادة سورية مثل العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع والعماد حكمت الشهابى رئيس الأركان وقادة كثيرين أعتز بصداقتهم منذ أن كنت فى خدمة القوات المسلحة المصرية .

وأضاف المشير الجمسى يقول : فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ كنت رئيسا لهيئة عمليات القوات المسلحة المصرية ، أى الرجل الثالث فى القوات المسلحة بعد رئيس اركان حرب القوات المسلحة والقائد العام للقوات المسلحة، ومن المعروف أن المشير الراحل أحمد اسماعيل كان يتولى قيادة القوات فى الجبهتين المصرية والسورية ، وكان التعاون بين مصر وسورية قائما ومثاليا ، ولقد أعدت خطة الحرب بالاشتراك بين البلدين ، وتحدد يوم الهجوم فى يوم واحد .. **بحكم منصبى لم يكن لى اتصال مباشر بالرئيس حافظ الأسد ، ولكن جاءت لى الفرصة لكى أقابله أكثر من مرة** كعضو فى الوفد العسكرى ، كما التقيت به وأنا رئيس أركان حرب القوات المسلحة بعد حرب أكتوبر ، وسافرت الى سورية من أجل اجراءات فك الاشتباكات على الجبهة السورية كما تم على الجبهة المصرية ، **ولقد كونت رأيا عن الرئيس حافظ الأسد منذ ذلك التاريخ أكدته الأحداث فيما بعد ، وهذا الرأى هو :** أن الرئيس حافظ الأسد زعيم وطنى من طراز فريد ، وقائد عربى يحتل عن جدارة مكانة عالية ومرموقة بين القادة العرب ، ونظرته للأمور تتسم بالعمق والشمول والموضوعية .

ومضى المشير الجمسى يقول : تسألنى عن انطباعاتى عن الجبهة السورية خلال حرب أكتوبر ، وكما تعلم قد كان لهذه الجبهة رئيس هو العماد مصطفى طلاس ، وكان المشير أحمد اسماعيل قائد القوات فى الجبهتين المصرية والسورية ، ولقد قاتلت القوات السورية مع القوات المصرية فى الضربة الجوية الأولى فى التوقيت نفسه وطبقا لما كان مخططا ، ولقد ضربت القوات الجوية الأهداف المخصصة لها فى الجولان بعد أن مهدت المدفعية السورية بالتمهيد النيرانى فى الوقت نفسه الذى مهدت فيه المدفعية المصرية بالتمهيد النيرانى فى مصر وفى الوقت نفسه .. أى أن الهجوم بدأ فى ميعاد صحيح وطبقا

للمعلومات التى كانت تصلنا فى الأيام الأولى للحرب فقد حققت القوات السورية هجمات ناجحة الحقت بالقوات الاسرائيلية هزائم فادحة حتى اليوم الثالث من الحرب ، ورغم الامدادات التى كانت تصل الى اسرائيل ورغم صعوبة الموقف بالنسبة للسوريين فقد قاتلوا بضراوة الأمر الذى جعل اسرائيل توجه ضربات انتقامية للمنشآت الاقتصادية والبترولية ، وفى يوم ١٠/ اكتوبر/ ١٩٧٣ ضربت دمشق ، وفى يوم ١١/ ١٠/ ١٩٧٣ ضربت المنشآت المدنية ، الأمر الذى جعل الميزان ينقلب لصالح اسرائيل مؤقتا ، ودارت الأيام بعد ذلك ، وعندما اضطرت القوات السورية الى التقهقر للخلف **شعر الرئيس الأسد ان الجبهة المصرية يتحتم عليها أن يزداد نشاطها لتخفيف الضغط على الجبهة السورية** ، وبعث بمساعد وزير الدفاع الى الرئيس السادات ، وطلب منه تنشيط الجبهة المصرية لتخفيف الضغط على الجبهة السورية ، وكان ذلك يوم ١١/ ١٠/ ١٩٧٣ وقد وافق الرئيس السادات على هذا الطلب ، وطلب تطويرا للهجوم يوم ١٢/ ١٠/ ١٩٧٣ ، كما أعطى المشير أحمد اسماعيل التعليمات لكى يتم التطوير يوم ١٣/ ١٠/ ١٩٧٣ ثم تأجل ليتم التطوير يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٧٣ ، وذلك لتخفيف الضغط على الجبهة السورية ، وهذا كل ما حدث ، ومشى سير الأحداث حتى يوم ٢٨/ ١٠/ ١٩٧٣ ، حيث نجحت القوات الاسرائيلية فى صنع ثغرة فى اتجاه دمشق ، **وبناء على ذلك أصبح الموقف شديد الحرج** ، وبالنسبة لنا فى مصر كنا أيضا فى حرج على أساس التعاون بين بعضنا البعض .

استطاعت اسرائيل بمساعدة أمريكا ومن خلال الجسر الجوى الضخم الذى بدأ يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٧٣ ، أن تحقق تقدما ، ومن المعروف أن الأسلحة والمعدات الأمريكية وصلت الى اسرائيل مباشرة بطائرات أمريكية الأمر الذى أثر فى الجبهتين ، واتذكر انه خلال الجسر الجوى نقلت طائرات النقل الأمريكية ٢٤ الف طن من السلاح الى اسرائيل ، وكانت هذه الطائرات تحمل العلم الأمريكى ، وتذهب الى اسرائيل بقرار من الرئيس الأسبق نيكسون لكى ينقذ اسرائيل ، **وقد اعترف رئيس الأركان الاسرائيلى فى ذلك الوقت (اليعازر) بأنه اذا لم تكن الأسلحة قد وصلت حتى يوم ١٩٧٣/١٠/١٢ لكانت القوات المصرية والسورية قد وصلت الى أماكن لا يتصورها أى اسرائيلى ولكانت نهايتنا قريبة** ، وذلك حتى يوم ١٢/ ١٠/ ١٩٧٣ .

وتجدر الاشارة الى أن الأسلحة التى أرسلتها أمريكا الى اسرائيل لم تستخدمها أمريكا نفسها حتى ذلك الوقت ، **وردا على سؤال آخر قال المشير الجمسى** : اعتقد ان سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد شغلت دورا رئيسيا فى حماية لبنان من التهديدات الاسرائيلية وفى مرحلة كانت شديدة الخطورة بالنسبة الى لبنان خاصة أن جيش لبنان كما نعرف هو جيش ضعيف والقوات الاسرائيلية وصلت الى بيروت نفسها ، واحتلت الجزء الجنوبى [الخط الحدودى] أو المنطقة الجنوبية من لبنان بالكامل واعتبرتها منطقة أمن

لاسرائيل ووجود القوات السورية هو الذى أجبر الاسرائيليين على التحفظ وعدم العناد أكثر وأكثر مما تم وانسحبوا من بيروت حتى لا يتسع نطاق الحرب ، وتتدخل سورية ، ومن صالح لبنان أن يحتفظ بأقوى العلاقة مع سورية لأن سورية تلعب الدور الرئيسى فى المنطقة حاليا بالنسبة لحل مشكلة لبنان ، وبدون سورية لا يمكن أن تجد مشكلة لبنان حلا ، وبدون سورية أيضا لا يمكن حل الصراع العربى الاسرائيلى فى المرحلة الراهنة ، ولذلك فإن سورية كان لها دورها الرئيسى والحاسم فى الفترة الحالية ، وفى مؤتمر السلام الذى بدأ فى مدريد وتتواصل جلساته فى واشنطون .

الاتفاقيـة الأمنيـة بين سورية ولبنان

حقيقة أخرى أشار اليها المشير الجمسى عندما أكد على الارتباط العضوى بين الأمن القومى اللبنانى ، والأمن القومى السورى مؤكدا ان هذه الاتفاقية هى التى تحفظ أمن البلدين وهى التى يمكن أن تؤدى الى اعادة بناء الجيش اللبنانى ، وهى التى تحمى لبنان بطوائفه المختلفة من الانقسامات المدمرة وأن الوجود السورى هو الأمان والضمان للبنان لكى يستعيد عافيته ، ومن هذا المنطلق قال المشير الجمسى : أن الأمن القومى لا يتجزأ ، **ولهذ السبب فلقد أيدت بكل الاقتناع الخطوة الجريئة والصحيحة التى اتخذها كل من الرئيسين محمد حسنى مبارك وحافظ الأسد** باشراك القوات المسلحة من الدولتين فى حرب الخليج لأن أمن الخليج جزء لا يتجزأ من الأمن القومى العربى ، ومن يهدد منطقة الخليج يهدد مصر وسورية ، ووجودنا نحن الاثنين معا فى هذه الحرب من شأنه المحافظة على الأمن القومى العربى ، والأمل أن يكون اعلان دمشق أكثر ايجابية ، وأن تأخذ الناحية العسكرية فى هذا الاعلان الأسبقية لأن الارتباط بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا للدفاع عن دول الخليج من شأنه أن يعيد سياسة الأحلاف ، وأن يصنع تكتلا جديدا فى المنطقة ويحدث انقسامات فى الدول العربية نحن فى غنى عنها .. المسألة مسألة قوة ، والسياسة تفرضها القوة ، ولعلنا نتذكر بوش عندما أرسل القوات الامريكية الى منطقة الخليج فى الأسبوع الأول من أغسطس عام ١٩٩٠ وحدد أربعة أهداف للسياسة الأمريكية وكان الهدف الثالث منها حماية أمن واستقرار منطقة الخليج وهى السياسة الأمريكية المقررة منذ عهد روزفلت الى عهد بوش ، وانه ـ أى بوش ـ ينفذ سياسة حماية أمن واستقرار منطقة الخليج لمصلحة الولايات المتحدة الأمريكية أولا ، **وأنا أعتقد ان أمن منطقة الخليج يجب أن ينبع من دول الخليج والأمن القومى العربى يجب أن ينبع من الدول العربية ، ولا يمكن أن يترك أمن الخليج أو الأمن القومى العربى للدول الأجنبية** ، ونحن قادرون كدول عربية على الدفاع

عن أنفسنا ، ومصر وسورية لديهما من الامكانيات البشرية وامكانيات التسليح ما يجعلهما قادرتين على الدفاع عن دول الخليج بكفاءة تامة .

وعاد المشير الجمسي يؤكد مرة أخرى على أن تجربة الوحدة بين مصروسورية عام ١٩٥٨ كانت تلبية لشعور وطنى وقومى لدى الشعبين ، كما كان هناك هدف استراتيجى من وراء اقامتها ، والشعبان المصرى والسورى يعشق كل منهما الآخر ، وهذا ما دفع الرئيس الراحل جمال عبدالناصر إلى اقامة الوحدة ولكنها كانت عملية متسرعة ، ولم تكن محسوبة بدقة ، الأمر الذى أدى الى الانفصال ، **ومن المؤكد ان الوحدة آتية لا ريب فيها لأنها واقع موجود فى نفوس الناس.**

وفى نهاية حواره قال المشير الجمسى : ان موقف الرئيس حافظ الأسد وتمسكه بالحل العادل والشامل للقضية العربية موقف جدير بالاحترام والتأييد ، وموقف سورية هو الذى سيحدد مصير المفاوضات القائمة ، وعلى ضوء النتائج ستتحدد سياسة سورية ، وسياسة الدول العربية لسنوات طويلة قادمة .

العلاقة بين الحضارات القديمة

□□ واذا عدنا الى الحديث عن العلاقات المصرية السورية ، وكيف فهمها الرئيس حافظ الأسد ، وكيف تعامل معها فلابد أن نشير الى ان ابرز ما اعتمد عليه الرئيس الأسد فى ايمانه بحتمية اللقاء السورى المصرى هو استيعابه ، كقارىء مدقق للتاريخ ، للدروس المستفادة من تأمل تاريخ حضارات العالم القديم ، وكذلك التاريخ الوسيط والحديث ..

كيف ؟

من المعروف أن سورية القديمة (بلاد الشام) امتازت بموقعها المتوسط بين مصر وبلاد العرب ، وعلى طول الطرق الرئيسية للتجارة بين الشرق والغرب ، ولذا قامت سورية الى جانب انشاء حضارتها بدور الوسيط فى نقل الحضارات بين الشعوب المجاورة ، وفضلا عما تقدم كان جنوب سورية (فلسطين) مهبط ديانتين سماويتين هما اليهودية والمسيحية ، ومن ارضها انتقلت الديانتان الى جهات أخرى ، والى جانب ذلك شغلت هذه البلاد دورا كبيرا فى نشر الدين الاسلامى ، ومن أوائل الشعوب التى سكنت هذه المنطقة الكنعانيون (الفينيقيون) الذين استقروا على الشريط الساحلى لسورية مكان لبنان وساحل فلسطين الشمالى الآن ، وقد أطلق على الكنعانيين هذا الاسم ومعناه الأرض الحمراء اللون ، ثم أطلق عليهم الاغريق اسم (فنكس) أى الشعب الأحمر اللون نسبة

الى الصبغة الحمراء التى أستخرجوها من الحيوانات البحرية التى تعيش قرب سواحلهم ، والتى اشتهروا بمهاراتهم فى استخدامها فى صبغ المنسوجات ومن كلمة (فنكس) اشتق لفظ فينيقيا ، **ولقد قامت الاتصالات بين مصر وفينيقيا منذ فجر التاريخ كما تدل على ذلك قصة أوزوريس وايزيس** ، كما ذكرت هذه القصة كيف أن مياه البحر حملت تابوت أوزوريس من مصر الى فينيقية ، وكيف أعادته زوجته ايزيس الى أرض الوطن ، وقد قويت فى عهد الدولة القديمة العلاقات والمعاملات التجارية بين مصر وفينيقيا فأرسل الملك (سنفرو) والد (خوفو) الأساطيل لاحضار الأخشاب من فينيقيا ، كما ترك المصريون بعض الآثار هناك وازدادت مع الزمن العلاقات التجارية بين البلدين فسارت السفن تشق طريقها فى البحر المتوسط تحمل البضائع الفينيقية الى مصر ، وتحمل البضائع المصرية الى فينيقيا .

أما فى عصر الدولة الحديثة : فلم تعد العلاقات مقصورة على النواحى التجارية والثقافية بل شملت الناحية السياسية وازداد الاختلاط بين المصريين والفينيقيين ، ووجدت حضارة كل من البلدين طريقها الى الأخرى ، وقد تأثر الفينيقيون كثيرا بأفكار المصريين ومعتقداتهم ، فلقد صور الفينيقيون الكفاح بين الخير والشر فى قصة الإله (بعل) إله الخير عدو إله الموت ، وهى قصة تشبه فى مغزاها وبعض أحداثها قصة أوزوريس وست المصرية ، وقد تصور الفينيقيون الأرض والسماء على شكل ذكر وأنثى كما فعل المصريون ، ولكن بينما تصور المصريون رب الأرض على شكل رجل وربة السماء على شكل أنثى تخيل الفينيقيون السماء كالأب والأرض كالأم ، وتدل عادات الدفن عند الفينيقيين ، وما عثر عليه من توابيت وما دفن مع الميت من أوانى الطعام والشراب على وجود فكرة الحياة والبعث بعد الموت ، وقد ظلت علاقة مصر بفينيقيا قوية حتى بعد انتهاء أيام الدولة الحديثة ، فإلى جانب النشاط التجارى اضطلع الفينيقيون مثلا بتكليف من أحد فراعنة مصر [نخاو] برحلة استكشافية سارت حول أفريقية ، كذلك فإنه عندما تعرضت بلاد الشام للغزو الأجنبى من قبل الحثيين فإن الذى أوقف موجة هذا الاجتياح التعاون المصرى الشامى فلقد جاءت جيوش مصر لتقف وتقاتل قرب بحيرة (قطينة) ولتهزم الحثيين سنة ٣٠٠٠ ق.م .

اذن مصر هبت للمحافظة على طابع سورية العربى ، وعلى بقاء هذا البلد بلدا عربيا ، كذلك نجد عمليات التمازج الحضارى فى عمليات التنقيب التى تمت فى الساحل السورى «اوجاريت» وغيرها ، . وأعمال التنقيب التى تمت فى الداخل وعمليات التبادل والأشكال المصرية ـ الشامية ، أو الشامية ـ المصرية بارزة بكل وضوح .

وقد روى لنا الدكتور سهيل زكار انه خلال عمله فى ترميم الجامع الأموى وجد صورة سفنكس (أبو الهول) على أحد أحجار جدار الجامع الأموى مما يدل على وجود صلة

وثيقة وقديمة ولذلك فمن الصعب الحديث عن تاريخ مصرى أو تاريخ شامى ، ولكن من السهل جدا أن نتحدث عن تاريخ شامى مصرى .

وإذا كان الإنسان الذى سكن سورية منذ أقدم العصور قد ترك شواهد وآثارا مادية تدل على نشاطه ووجوده فالهياكل العظمية البشرية التى اكتشفت حتى الآن ترجع الى حوالى مائة الف سنة فى حين أن البقايا البشرية المكتشفة تعود الى ما قبل مائة وخمسين الف سنة ، **ويصف المؤرخون سورية بأنها « خلاصة لتاريخ العالم »** فعلى شاطئها اخترعت أول أبجدية فى العالم .. أبجدية أوجاريت قرب اللاذقية التى اصبحت أما للأبجديات المعروفة كافة ، وكان لها أبلغ الأثر فى نشر العلم والثقافة ولذلك فإنها تعتبر من أعظم المكتسبات للانسان ، وفيها دمشق أقدم مدينة ماتزال موجودة على الأرض .

والواقع أن الحضارة المصرية التى بدأت منذ آلاف السنين تزامنت مع ظهور الحضارة فى سورية والعراق وسواحل لبنان ، وفى جنوب الجزيرة العربية ، ولقد أسهمت كل هذه الحضارات فى نشر تجاربها الى الشعوب التى اتصلت بها وأخذت عنها ، ومنها شعوب فى الركن الجنوبى الشرقى من أوربا وفى الجزر المحيطة به وخاصة فى جزيرة « كريت » ، وتمكنت بفضل هذه الاتصالات من خلق حضارة نشأت فى بادىء الأمر فى جزيرة كريت وجزر « بحر ايجه » القريبة منها ، ثم ما لبثت بلاد الاغريق أن أصبحت مركز الاشعاع الحضارى فى المنطقة وانشأ الاغريق [اليونان] حضارة أخذت عنها أوربا حضارتها الحالية .

ولقد أثر موقع بلاد الاغريق على حضارتها تأثيرا كبيرا ، فهى قريبة من منبع حضارات الشرق القديم مصر ـ سورية ـ العراق ، كما كانت جزيرتا كريت وقبرص بمثابة المعبر الرئيسى للاتصال الحضارى والتجارى بتلك الجهات ، وبآسيا الصغرى وبساحل أفريقية الشمالى ، كذلك كان ساحل بلاد الاغريق الغربى والجزر القريبة منه بمثابة البوابة الغربية لبلاد الاغريق ، ومنها حمل التجار والمهاجرون الحضارة الى شبه الجزيرة الايطالية ، وبذلك نشأت حضارة الرومان ، **وهكذا ساعد الموقع الجغرافى بلاد الاغريق على القيام بدور المستورد لحضارات الشرق والموزع على بقية الدول الأوربية .**

وفى الفترة ما بين القرنين السادس والثانى عشر كان الفينيقيون يرتبطون بالحكم المصرى ارتباطا وثيقا بلغ حد الخضوع الفينيقى للحكم المصرى وبلغ من جراء هذا الاتصال للحضارة الفينيقية والفرعونية أن ارتفع معها التعاون وخاصة فى مجال الصناعة والتجارة ، فقد كان الفينيقيون سادة التجارة فى البحر المتوسط وكان الارتباط بين مدن صور وصيدا والاسكندرية وثيقا بحيث تبادل الطرفان التقدم الثقافى .

ومن الثابت تاريخيا أن الحضارة المصرية ، والحضارة الفينيقية قد أثرتا على

الاغريق ، وعندما غزا الاغريق جزيرة كريت وأخذوا منها الكثير من مظاهر حضارتها المتأثرة الى حد ما بالحضارة المصرية ، كذلك نقل الفينيقيون الحضارة المصرية الى البلاد التى تاجروا معها ومنها بلاد الاغريق ، ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ التجار الاغريق يفدون الى مصر حيث أنشأوا مدنا خاصة بهم سارت على النظام الاغريقى ، كما التحق الكثيرون بجيش مصر كجنود مرتزقة .

وهكذا بدأ الاتصال المباشر بمصر وأذهلتهم حضارتها العظيمة وتوافد الى مصر عشرات من علمائهم وطلابهم وطلاب المعرفة منهم نقلوا الكثير من مظاهر التقدم فى الطب والفلك والرياضة والكيمياء والفنون والعمارة والصناعات المختلفة ، وقد أخذت علاقات الاغريق بمصر تزداد على مر السنين حتى وقت مجيء الاسكندر الى مصر . كما نقل الاغريق عن الفينيقيين الحروف الهجائية وزادوا عليها حروفا متحركة ، وقد ساعدهم ذلك فى تسجيل الكثير من أعمالهم الأدبية التى نظموها شعرا ونثرا والتى تناولت موضوعات تتصل بوجه خاص بأخبار حروبهم وقصص أبطالهم وأساطيرهم الدينية ، وقد فقد جانب كبير من هذه الأعمال الأدبية ولم يبق سوى شذرات منها ، وكان من أشهر شعراء الاغريق واقدمهم هوميروس الذى نظم فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ملحمتين رائعتين هما الالياذة والأوديسا وتدور أشعارهما حول شخصيات أسطورية قامت بأعمال بطولية فى فترة حروب الاغريق .

مصر وسورية فى عهد الاسكندر

عرفت مصر والشام الاغريق واختلطتا بهم منذ القرن السابع قبل الميلاد ، فقد عملوا فى الجيش كجنود مرتزقة وجاءوا كتجار نجحوا فى اقامة مستوطنة لهم فى نقراطيس فى شمال غرب الدلتا ، كما وفدوا الى مصر والشام يبتغون الاستفادة حضاريا وثقافيا وعلميا ، ومن المعروف أن بلاد الاغريق توحدت تحت زعامة اقليم « مقدونيا » وأن ملكهم الاسكندر المقدونى الأكبر أحرز انتصارات باهرة على أعدائه الفرس ، وفى آسيا الصغرى ، وسورية وفلسطين ، وان مصر اصبحت هدفه التالى فى خطته إلى تحطيم الامبراطورية الفارسية تحطيما تاما ، وتمكن من السيطرة على مصر بعد سقوط غزة فى يده واصبحت مصر بعد استيلائه على منف فى قبضته تماما وقد ساعده المصريون الذين كانوا فى ثورة ضد المحتلين الفرس ، **وكان استيلاء الاسكندر على سورية ومصر والعراق وغيرها من بلاد الشرق القديم أكثر من مجرد سيطرة حربية وتوسع عسكرى** ، اذ ان هذه الاقاليم كانت صاحبة حضارة عريقة نمت وازدهرت على مر العصور وافاد منها الاغريق ، وبعد معركة أيسوس عام ٣٣٣ ق . م سقطت سورية فى يد الاسكندر الأكبر المقدونى وأصبحت احدى الولايات التابعة لامبراطوريته ، وبعد موت الاسكندر استطاع

سلوقس الأول أن يبسط سيطرته على القسم الأكبر من سورية ، وهكذا شهدت سورية النزاع الطويل الذى نشب بين السلوقيين والبطالمة حول امتلاك وسط سورية وجنوبها .

وفى عام ٦٤ ق. م جعل الرومان من سورية ولاية رومانية بعد أن أخضعوا المملكة السلوقية بصورة نهائية واستمرت سورية ولاية رومانية حتى انتقال العاصمة الرومانية الى القسطنطينية عام ٣٣٠ ميلادية ، وظلت سورية احدى بلدان الامبراطورية البيزنطية حتى الفتح العربى الاسلامى .

أما بالنسبة لمصر فقد تمكن الاسكندر ـ كما قلنا ـ من الاستيلاء على مصر بسهولة نظرا لترحيب سكان مصر به باعتباره منقذا ومخلصا لهم من الفرس ، وأمر بانشاء مدينة الاسكندرية ، وبدأ الاسكندر ومن بعده البطالمة فى بناء حضارة تجمع مزايا الحضارات الشرقية ، والحضارة الاغريقية عرفت باسم الحضارة الهيلينستية وقد قسمت امبراطورية الاسكندر بعد وفاته وكانت مصر من نصيب القائد بطليموس الذى أسس دولة البطالمة التى استمرت فى حكم مصر قرابة ثلاثمائة عام ، وكان البطالمة اغريقيين فى معيشتهم ولكنهم لم يحاولوا التدخل فى شئون المصريين الدينية أو الاجتماعية فاحتفظ المصريون بمعظم ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، وقد انتهى عهد البطالمة فى مصر أيام كليوباترا السابعة بعد أن دمر القائد الرومانى (أكتافيوس) أسطولها وأسطول حليفها انطؤنيوس فى موقعة أكتيوم سنة ٣٢ قبل الميلاد .

وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت ولاية رومانية . وظلت مصر تحت الحكم الرومانى حتى انقسمت الى قسمين : غربية وشرقية ، وحينئذ أصبحت مصر تابعة للدولة الرومانية الشرقية « البيزنطية » التى اتخذت القسطنطينية عاصمة لها .

وقد اتخذت مقاومة المصريين للرومان صورا مختلفة اما فى شكل ثورات مسلحة أو مقاومة شعبية أو باعتناقهم الديانة المسيحية فى تحد واضح لسيادة الامبراطورية الدينية الرومانية ، وقد أنزل الرومان بمسيحيى مصر ألوانا شديدة من الاضطهاد ، وقد انتهى الصراع الدموى باصدار الامبراطور « ثيودسيوس » قرارا باعتبار المسيحية دين الدولة الرسمى ، وقداستمرالحكم البيزنطى لمصر مدة ثلاثمائة عام ، **وانتهى بدخول العرب مصر ، فرحب المصريون بهم نتيجة للظلم والابتزاز ، وقد رحب أقباط مصر بالفتح العربى عام ٦٤١ باعتبار العرب مخلصين لهم من الحكم البيزنطى** ، ومنذ ذلك الوقت بدأ عهد تاريخ جديد حملت مصر فيه راية الاسلام وأصبحت مركز اشعاع للحضارة العربية الاسلامية .

مصر وسورية بعد الفتح العربى الاسلامى

بالرغم من أن سورية قبل الفتح العربى الاسلامى كانت احدى الولايات التابعة للدولة البيزنطية إلا أن سكانها كانوا عربا، واذا كانت اللغة الرسمية هى اليونانية إلا ان لغة الشعب كانت اللغة العربية بلهجات متعددة ، **وكذلك الحال فى مصر** حيث كانت تابعة للدولة البيزنطية التى اتخذت من القسطنطينية عاصمة لها ، وظلت تحت هذا الحكم حتى الفتح العربى الاسلامى .

والواقع أن تاريخ العرب قبل الاسلام يكتنفه الغموض الأمر الذى دفع المحققين من الكتاب الى عدم ايفاء هذا التاريخ حقه من البحث والدراسة لوعورة مسالكه ، وتناقض الأقوال فيه ، بعكس تاريخ العرب بعد الاسلام ، فإنهم لم يتركوا خبرا من أخباره أو رواية ، أو واقعة إلا ودونها ، وفصلوا القول فيها ، وقد بدأت الفتوحات الاسلامية لسورية **فى مستهل خلافة أبى بكر الصديق** ، ففى سنة ١٣ هـ [٦٣٤ ميلادية] توجهت الجيوش العربية لفتح بلاد الشام ، وتحريرها من السيطرة البيزنطية ، والتقت هذه الجيوش العربية مع نجدات قدمت اليها من العراق بقيادة خالد بن الوليد بالقوات البيزنطية فى معركة اليرموك سنة ١٥ هـ ، ٦٣٦م والتى تعتبر من المعارك الفاصلة فى التاريخ العربى الاسلامى ، حيث انتهت بانتصار عظيم للجيش العربى رغم قلة عدده بالقياس الى جيش الروم وعدته .

استطاع خالد فتح بلاد الشام واخضاعها لسلطان العرب ، وكانت بالشام دولة الغساسنة وهى موالية للرومان وخاضعة لنفوذهم ، وقد توفى الخليفة أبو بكر ومعارك الشام مازالت دائرة الرحى ، وبذلك لم يشهد انتصار العرب وضم الشام الى دولتهم ، وكان أبو بكر قد أوصى بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب حتى يتجنب الخلافات والانقسامات ، وقد نفذت وصيته وخلفه عمر فى الخلافة ، وفى عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر وأصبحت من أهم المراكز السياسية والفكرية فى العالم الاسلامى ، وقد تولى عمر الخلافة [من سنة ٦٣٤ ـ ٦٤٤م] ، وجيوش العرب تحارب الروم فى الشام ، وتم النصر للعرب فى عهده ، ودانت لهم ربوع الشام ورحب اهله بهم ، وتنسب الى أهالى حمص عبارة تصور لنا مشاعر أهل الشام الأصليين حيال الفاتحين العرب وهى [لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والجوع] .

وهنا تجدر الاشارة الى أن العوامل التى ساعدت على الفتح الاسلامى لمصر وسورية أن كلتا البلدين كانت محتلة من الروم البيزنطيين، وكان فى هؤلاء غطرسة عالية ، فوضعوا أنفسهم موضع السادة بالنسبة لأهل البلاد. **وفى الوقت نفسه كان السكان فى مصر وسورية يسمعون عن المسلمين** وحسن سيرتهم ومعاملتهم ، كما أن جنود الروم لم يكونوا مخلصين فى

الحروب ، حيث كانوا يدركون انهم يحاربون عن نظام لا حق لهم فيه ، كما أن بعض المصريين ، وبعض السوريين قدموا مساعدات للجيش الزاحف كانت من أسبابه تيسير الفتح .

وقد وصل العرب مصر عن طريق سيناء ، وسيناء طريق عبره أكثر الذين زحفوا على مصر من الشرق أو زحفوا من مصر الى الشام ، فعن طريق سيناء جاء الهكسوس الى مصر وجاء الفرس والرومان والمسلمون العرب والأتراك ، وعن طريق سيناء تحرك الفراعنة الى الشام كما تحرك الطولونيون ، والأخشيديون ، والفاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، ومحمد على باشا ، لهذا كانت سيناء منطقة مهمة بالنسبة لتاريخ مصر وسورية .

ومن المعروف انه بعد فتح الشام ، ومصر أصبحت مصر والشام ولايتين طيلة ما تبقى من عهد الخلفاء الراشدين ، ولما جاء العصر الأموى أصبحت دمشق عاصمة الخلافة ، وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة ، وجاء العصر العباسى فانتقلت الخلافة الى بغداد وأصبحت سورية ومصر ولايتين تابعتين لعاصمة الخلافة فى بغداد وكان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية الى سورية ومصر قبل الاسلام بآلاف السنين . ولقد رأى المصريون ، والسوريون فى الاسلام متنفسا وسماحة أنقذتهم من الطغيان والاكراه والاستغلال ، وضمن لهم الاسلام حرية الأديان ، وترك المسلمون الأرض لأصحابها ، على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض ، ولرقيق الأرض ، وأمن المسلمون لسكان مصر وسورية أموالهم ونساءهم وأولادهم ، وقد كان لرابطة الدم ورابطة التعاون والمساواة أكبر الأثر فى خلق جو من القربى بين العرب وبين السوريين والمصريين فى أغلب فترات التاريخ الاسلامى . وكان أبرز ولاة الشام فى عهد الخلفاء الراشدين معاوية بن أبى سفيان ، وبعد مقتل الخليفة الراشدى الرابع على بن أبى طالب انتزع معاوية لنفسه منصب الخلافة وأسس الخلافة الأموية فى دمشق ، واتخذ من دمشق عاصمة لهذه الخلافة سنة ٦١ هـ (٦٦٢م) ، وقد حققت الخلافة الأموية والتى كانت مصر بعد الفتح العربى احدى ولاياتها ، **انجازات ضخمة . ففى ظل الأمويين أقيمت دولة العرب الأولى** ووضعت أسس العمارة العربية الاسلامية وأبرز أوابدها جامع بنى أمية فى دمشق وعدد من القصور ، وفى سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩م) سقطت الخلافة الأموية ، وقامت الخلافة العباسية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت بلاد الشام ومصر ولايتين عباسيتين .

وتجدر الاشارة هنا الى أن المؤرخين العرب المسلمين فى العصور الوسطى لم يستخدموا كلمة سورية انما استخدموا بدلا عنها كلمة بلاد الشام ، والشام عندهم هى

المنطقة التى يحدها من الشرق الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ، ومن الشمال الثغور مع بيزنطة . وفى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، الخامس الهجرى تعرضت بلاد الشام للغزو الفرنجى الصليبى ونجح الصليبيون الفرنجة فى حملتهم الأولى [١٠٩٧ ـ ١٠٩٩م] فى اقامة أربع امارات صليبية فى بلاد الشام ، وفى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى [السادس الهجرى] أخذ ميزان القوى فى بلاد الشام يتحول الى صالح العرب ، **ونجح صلاح الدين الأيوبى فى توحيد بلاد الشام مع مصر** وفتح باب الصراع على مصراعيه مع الصليبيين وتمكن عام ١١٨٧م من تحرير بيت المقدس واسترداد معظم الساحل من أيدى الصليبين ، وذلك بعد معركة حطين الشهيرة ، وتعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك فى تاريخ العالم ، وقد وقعت فى الثالث والرابع من يوليو ١١٨٧م ، وحطين سهل جبلى بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس وكان عسكر الفرنج يتكون من عشرين الفا بقيادة ملك بيت المقدس ده لوسينيان ، وروجلاند [أرناط] أمير قلعة الكرك وقد قضى المسلمون على هذا الجيش كله ، فسقط بعض رجاله قتلى ووقع الباقون فى الأسر وكان ملك بيت القدس ، وأمير قلعة الكرك بين الأسرى .

وهكذا يتضح انه بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية وانشطار العالم الاسلامى الى شطرين ، شطر عربى وشطر أعجمى ، وضح أن مركز الشطر العربى [أو ما نسميه الوطن العربى] هو مصر التى شغلت دورها القيادى بعد سقوط بغداد ، **وكانت مصر مع بلاد الشام هى التى حافظت على الهوية العربية** وردت الهجمات ، فالصليبيون بقوا فترة طويلة ، لكن بعد توحيد مصر والشام أمكن فى عام ١١٨٧م خوض معركة حطين وكسب عملية تحرير الأرض ، والجيوش المصرية الشامية بقيادة صلاح الدين هى التى حققت النصر ووجهت الضربة الأولى والحاسمة لعملية دحر الصليبيين .

وهكذا دمرت موقعة حطين قوى الصليبين وتم تحرير بيت المقدس حيث اتجه صلاح الدين الى حصن طبرية فاستسلم له وسار الى عكا فاحتلها وأقام بها قليلا ومنها أرسل الجحافل فاستولت على الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، ثم اتجه الى صيدا فاستولى عليها وواصل سيره الى بيروت فاستسلمت له ، وهكذا سقطت كل المدن الكبرى وكل القلاع فى يد صلاح الدين فاتجه الى بيت المقدس ليتوج بفتحه انتصاراته .

ومما يذكر انه عندما حل رمضان سنة ٥٨٤هـ كان صلاح الدين الأيوبى قد أحرز الانتصارات الكثيرة واستخلص من الصليبين معظم البلاد التى كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يرتاح فى شهر الصوم ، ولكنه تخوف

من انقضاء الأجل قائلا : « ان العمر قصير والأجل غير مأمون وابقاء أعداء الاسلام فى أرض الاسلام لحظة مع القدرة على طردهم منكر لا أرتكبه » .

واصل زحفه حتى استولى على مزيد من الأرض حول بيت المقدس فى منتصف رمضان ، وبتحرير بيت المقدس عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبل الحروب الصليبية فإن بيت المقدس كان الهدف الرئيسى الذى سعى الغرب للسيطرة عليه ، وقد عاد بيت المقدس للمسلمين لتبدأ المعركة من جديد .

الخطـــر المغـــولى

بعد ذلك تصدت مصر والشام لبقية المخاطر ومن جملتها الخطر المغولى.

والمغول هم قبائل رعوية همجية وثنية كانت تعيش فى أواسط آسيا ، وتحت ضغط الظروف الاقتصادية التى كانت تعانى منها هاجرت هذه القبائل فى صورة غزوات هدامة ضخمة تدمر كل ما يقابلها وتحرق المدن والقرى ولا يهمها سوى أن تنجو من خطر الموت ومن آلام الجوع ، وقد استطاع جنكيز خان زعيم المغول أن يوحد صفوفهم ثم نجح فى الاستيلاء على الصين ، ولم يكتف بذلك بل وضع الخطط للتوسع على حساب المسلمين وبدأ يتجه نحو الشرق فى محاولة منه للسيطرة على فارس والشام ، وفى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تمكن المغول من القضاء على الدولة الخوارزمية وسيطروا على فارس ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمامهم الى بغداد حيث لم تستطع الخلافة العباسية وعلى رأسها الخليفة المستعصم أن تصمد فى وجه المغول خاصة أنها كانت تعانى من الضعف . وفى فبراير عام ١٢٥٨ ميلادية اقتحم المغول بغداد ارتكبوا مذابح رهيبة على امتداد ٤٠ يوما ثم أشعلوا النيران فى المدينة ، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم وحاولوا القضاء على جميع العباسيين .

وكان سقوط بغداد على أيدى المغول عام ١٢٥٨م نكبة كبيرة حلت بالعالم الاسلامى، فقد سقطت عاصمة الخلافة بغداد فى يد قبائل همجية قضت على تراث الحضارة الاسلامية ، وكان العالم الاسلامى منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يعيش فى حمى الخلافة سواء كانت قاعدتها المدينة ، ثم دمشق ، ثم بغداد . وبعد سقوط بغداد ومصرع الخليفة العباسى على أيدى المغول اصبح العالم الاسلامى بلا خلافة ولا خليفة . وعندما أصبح خطر المغول على أبواب الشام لم يجد من يواجهه بل ان الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق أرسل ابنه العزيز الى هولاكو زعيم المغول يطلب مساعدته فى الاستيلاء على مصر من أيدى المماليك ويعلن خضوعه للمغول ، وقرر هولاكو ارسال قوة من عشرين ألف فارس الى الشام واستولت هذه القوة على ميافارقين « فى ديار بكر » وذبح

المغول المسلمين الموجودين بها ، وقطعوا رأس حاكمها الكامل محمد الأيوبى وطافوا به فى جميع انحاء الشام ، واعتبر هولاكو أن عدم حضور الناصر يوسف بنفسه والاكتفاء بارسال ابنه العزيز اهانة له واتخذ من ذلك ذريعة للاستيلاء على بلاد الشام فاستولى على حلب فى عام ١٢٦٠م وقتل وأسر أهلها، وتركها الناصر تسقط فى أيدى المغول هى وسائر مدن الشام ، ووصل المغول بعد استيلائهم على بلاد الشام الى غزة ، ولم يعد أمامهم سوى مصر التى كان يتولى سلطنة المماليك فيها شاب صغير هو المنصور على ونيابة عنه الأمير سيف الدين قطز ، وظهر السلطان الطفل بصورة غير لائقة بسلطان مصر فى وقت كانت تحاصرها الأخطار مما أغضب الأمراء وأحس نائب السلطنة بخطورة الموقف ودعا الأمراء للاجتماع فى القلعة للتباحث حول ملاقاة المغول وتولى قطز عرش السلطنة لمواجهة خطر المغول ، ولم يكد قطزيعتلىعرش السلطنة حتى حضر اليه رسل هولاكو يحملون التهديد والوعيد ، ويطلبون منه ومن المماليك الاعتراف بالولاء والطاعة للمغول وبسيادتهم على مصر والشام ، ولم يعبأ قطز بتهديد المغول ، وقتل سفراء هولاكو معلقا رءوسهم على أبواب القاهرة ، وبدأ يعد العدة لملاقاة المغول ، وبدأ قطز يستعد للدخول فى معركة حاسمة ، فجمع المال واستنفر الجند ، كما حرص على استقطاب المماليك البحرية الى جواره لأنهم قادة عسكريون ممتازون **وكان هؤلاء قد فروا الى الشام ، ولكنهم عندما سمعوا بخطر المغول على الشام ومصر تناسوا أحقادهم وعادوا الى مصر** ، وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقدارى ورحب بهم قطز ، وبدأت عوامل الضعف تدب فى صفوف المغول بعد وفاة قائدهم ، وتنازع اخوته على اقتسام الامبراطورية ، واضطر هولاكو الى العودة الى قراقورم عاصمة المغول .

وقسم قطز جيشه الى قسمين .. ألقسم الأول بقيادة بيبرس البندقدارى ، حيث توجه الى غزة ، والتقى بمقدمة جيش المغول وألحق بهم الهزيمة ، واحتل المماليك غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصى ، وكان هذا النصر حافزا لمزيد من القتال ضد المغول ، وخرج قطز على رأس بقية الجيش ، واتجه نحو الشام فى يوليو ١٢٦٠م مارا بمدينة عكا الصليبية لاختصار الطريق ، ولمفاجأة الجيش المغولى ، وفى محاولة من قطز لعدم استثارة الصليبيين للشام حتى لا يقفوا الى جانب المغول أرسل اليهم رسله يستأذنهم فى العبور بجيشه لقتال المغول فوافقوا وعبر الجيش المصرى اقليم الجليل الى الأردن فى الوقت الذى فر فيه المغول من غزة بعد أن علموا بالهزيمة التى حلت بهم ، **وواصل قطز زحفه الى الشمال** ، وعندما علم قطز بأن خصومه يستعدون للزحف وضع خطة عسكرية محكمة تنم عن ذكاء عسكرى وتتلخص فى أن تقوم طلائع الجيش ، وعلى راسها بيبرس بمناوأة جيش المغول بقيادة كتبغا عند اقترابه، بينما يختبىء الجزء الاكبر بين الغابات المحيطة بعين جالوت (قرية بين بيسان ونابلس) مشكلا بذلك كمينا لجيش المغول ، وما أن اقترب

كتبغا المغولى حتى بدأت المناوشات بينه وبين جيش قطز بقيادة بيبرس فى سبتمبر ١٢٦٠م ، وأعتقد كتبغا ان هذه المقدمة هى كل جيش المسلمين وأخذ بيبرس فى التراجع ـ وفق الخطة المرسومة ـ أمام هجوم كتبغا ، وظل يتقهقر فى اتجاه الكمين ، وفجأة خرج الجيش بقيادة قطز من الكمين من ثلاث جهات وحاصر جيش المغول ، غير أن كتبغا تماسك ، وأخذ يقاتل قتالا مستميتا ، وأثناء القتال اضطربت صفوف الجيش المملوكى نتيجة لما يتمتع به المغول من مقدرة حربية مما جعل قطز يلقى بخوذته على الأرض ويصرخ بأعلى صوته [واسلاماه] ثم حمل بنفسه على العدو حتى تم له القضاء على المغول وقتل قائدهم كتبغا ، ووقع بقية الجيش المغولى بين أسير وقتيل ، وبذلك تم النصر على المغول الذين لم يهزموا قط منذ خروجهم من أقاصى الصين ..

عملية النصر الذى تحقق فى عين جالوت لم تنقذ بلاد الشام من الاحتلال المغولى فقط ، ولكنها حمت مصر والمغرب العربى من السقوط فى يد المغول بل حمت أجزاء كبيرة من أوربا الغربية من السقوط فى أيدى المغول بعد أن كانت معظم أجزاء أوربا الشرقية وعلى رأسها روسيا وأجزاء كبيرة من آسيا وعلى رأسها الصين قد سقطت فى يد المغول ، فعملية عين جالوت ذات بعد انسانى وعالمى وتعتبر من أهم معارك العالم الاسلامى والشرق الاسلامى والحضارة الاسلامية .

وفى الوقت نفسه فقد أكدت أن منافع الوحدة بين مصر والشام لا تقتصر على البلدين وانما تمتد لجميع أجزاء الوطن العربى ، وفى سنة ١٢٩١م تجمعت قوات بلاد الشام مع قوات مصرية بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون وحررت عكا وأزالت النفوذ الصليبى من منطقة الشرق وبعد عام ١٢٩٢ م أعادت بناء المجتمع العربى . والعصر المملوكي معروف بانتاجه الثقافى ، وهو عصر الموسوعات انه عصر ابن فضل الله العمرى ، وعصر « النويرى » « ولسان العرب لابن منظور » « والقلقشندى » « وصبح الأعشى » وأعداد أخرى كبيرة من الموسوعات ، وكبار الشخصيات والمثقفين اما ولدوا فى مصر وعاشوا فى الشام ، أو هم من أصل شامى وذهبوا الى مصر ، فمثلا مؤرخ مصر الاسلامية المقريزى أصله من بعلبك ، وقد انتقلت أسرته الى القاهرة ، وقد أمضى المقريزى جزءا كبيرا من حياته فى دمشق ، وفى أجزاء أخرى من بلاد الشام .

واذا تتبعنا المراحل التاريخية المختلفة نجد أن القوات المصرية الشامية هى التى تصدت لتيمور لنك وهى التى حافظت على كيان بلاد الشام ، ومنعت عشائر التركمان من اجتياح المنطقة وأخر معركة خاضها المماليك كانت للدفاع عن بلاد الشام ، وفى المناطق الشمالية فى بلاد الشام دفاعا ضد العثمانين .

وعندما زحف الأتراك على البلاد العربية بقيادة السلطان سليم الأول **كانت كل من**

سورية ومصر تشكلان دولة واحدة سكب الشعب العربى السورى والمصرى دماءهما معا على ربوع مرج دابق فى شمال سورية بقيادة قنصوه الغورى ، ودخلت مصر وسورية تحت الحكم العثمانى، حتى كانت نهضة محمد على فى مصر فأتاحت لمصر ما حرمت منه واستطاع محمد على أن يعطى لمصر قوة ومكانة ونهضة زراعية أرهبت السلطنة العثمانية ، وتطلعت سورية الى مصر ، وكأنها تسألها العون الذى سرعان ما جاء مع ابراهيم باشا ، فكان ترحيب الشعب السورى بقدومه .وعندما بدأت سياسة التتريك العنصرية للقضاء على القومية العربية ، ووقفت سورية لمقاومة هذه السياسة ، كانت مصر بيتا للأحرار السوريين الذين وجدوا فى مصر الأمن والأمان ، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى ، وانهيار السلطنة العثمانية ، مزق الحلفاء عبر معاهدة سايكس ـ بيكو الوطن العربى على النحو الذى أوضحناه .

وفى أواخر العصر العثمانى ، عندما بدأت حركة النهضة ومحاولات التحرر عن العثمانيين كانت هذه الحركة شامية ـ مصرية ، على بك الكبير كان شاميا مصرياً ، محمد أبو الدهب شامى ـ مصرى . محمد على باشا شامى ـ مصرى ، أراد أن ينشىء دولة عظمى من الشام ومصر ، وبعد محمد على والنهضة المعاصرة كانت نشاطات الحركات والأحزاب السياسية شامية ـ مصرية حتى الصحافة فى مصر ، الأهرام والمقطم وهى صحف مصرية أنشئت من قبل الشوام . **وفى التاريخ الحديث ، واجهت مصر وسورية مشكلة الصراع مع الصهيونية وتحملتا الدور الأكبر. ويكفى فخرا أن مصر سورية صنعتا أول وحدة قومية فى التاريخ العربى المعاصر.**

دواعى وبواعث الوحدة المصرية السورية

كان نشوء الجمهورية العربية المتحدة فى شباط فبراير ١٩٥٨ ثمرة من ثمار القومية العربية التى تعتبر روحا لتاريخ طويل بين العرب فى مختلف اقطارهم ، ولحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول لكل فرد من افرادهم ، وقد سبقت هذه الوحدة ليال طويلة حالكة امتدت مئات السنين عاشها العرب فى صراع مستمر مع ظلام الاستعمار .

وعاشت فى هذا الصراع الطويل المدى اجيال قبلنا ، وقاست اهواله وتحملت مصاعبه ، وكافحت الطغاة واستبسلت فى كفاحها لتحمى تراثنا وتدافع عن كياننا وتحفظ مقومات وجودنا واسباب ارتباطنا ببعضنا كأمة واحدة لها ذاتها المستقلة .

ان التاريخ يحكى لنا ان مصر وسورية منذ قديم الأزل وطن واحد ، وانه ما من مرة ، وما من فترة اعتزلت فيها سورية عن مصر أو ابتعدت فيها مصر عن سورية إلا وحاقت بالعرب الكوارث والنكبات وما من مرة اجتمع فيها شمل الوطن الواحد

فى سورية ومصر إلا انتصر العرب وطردوا كل تلك القوى التى جاءت الى أرضهم لتفرض عليهم استعمارا أو سيطرة أو إذلالا .

كذلك فإن التاريخ يحكي لنا ان مصر فى كل عصورها كانت تؤمن حدودها ضد الغارات المغولية والتركية والهجرات المختلفة من آسيا واوربا باتحادها مع الشام ووقوفهما امام الخطر الداهم يناضلان عن كيانهما وكيان الأمة العربية التى اخذت تصوب اليها السهام من كل مكان ، **وقد رأينا عندما تعرضت هذه المنطقة لغزو الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وخلال القرن الثانى عشر وكيف وحد صلاح الدين الايوبى الشام ومصر فى معركة حطين** ، ورد الصليبيين على اعقابهم خاسرين ، يحملون عار الهزيمة ، ثم جاءت جموع التتار الى الشام تريد احتلاله فتصدى لها القائد الظاهر بيبرس بقوات مصرية وشامية واستطاع فى معركة عين جالوت ان يهزم جحافل التتار وانتصر عليها انتصارا عظيما .

إذن كانت وحدة سورية ومصر تستند الى ماض من الكفاح الطويل والى تاريخ مشترك قد يختلف فى بعض تفصيلاته ولكنه متحد فى خطواته العريضة ومعالمه البارزة .

فى ذلك اليوم من فبراير ١٩٥٨ اتحد الشعب العربى فى سورية مع الشعب العربى فى مصر ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة سندا للعرب جميعا ، قوة للعرب جميعا ، تعادى من يعاديها ، وتسالم من يسالمها وتتبع سياسة تنبع من نفسها ومن ضميرها ..

ورغم انتكاسة الانفصال فى اكتوبر تشرين الأول ١٩٦١ والتى تابعها الشعب العربى بقلب جريح ، فقد كان جمال عبدالناصر نموذجا للقائد الشجاع والحكيم حين رفض ان تكون الحرب العسكرية ـ وذلك أمر كان فى مقدوره ـ وسيلة الى إعادة الوحدة .

وفى هذا الصدد يقول عبدالناصر:

اننى لا اقبل مهما كانت الظروف ان أرى الشعب هنا والشعب فى سورية اطراف معركة ، واصحاب خلاف وشقاق ولا استطيع ان اتصور القاهرة ودمشق إلا اخوة كفاح وإلا زملاء معركة وإلا شركاء قدر ومصير ، مع كل عاصمة عربية أخرى ، مع كل مدينة عربية ، مع كل قرية عربية ، ولذلك اتخذت قرارا بألا تتحول الوحدة العربية بين مصر وسورية الى عملية عسكرية ، وبناء على ذلك فلقد اوقفت جميع العمليات العسكرية التى كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية فى سورية ، ولست اتصور ان اقبل بحال من الاحوال ان ارى فتنة تهدد الشعب السورى او خطرا يتربص به ، أو شاغلا يشده ويبعثر طاقته .. من أن تتجه كل امكاناته إلى حراسة المكاسب الشعبية التى حققها فى عهد الوحدة ، التى ستبقى هدفا عربيا مستمرا. وهذه الحقيقة الساطعة التى تحققت على أرض الواقع سوف تحكمها فى نهاية المطاف حتمية التاريخ،

واعنى بها الوحدة ، وان ثقتى بأن هذه التجربة الأولى للوحدة العربية لن تكون الاخيرة ، وإنما هى تجربة عملية رائدة استفدنا منها الكثير وسيكون ما استفدناه ذخيرة للمستقبل العربى وللوحدة العربية التى اشعر ان ايمانى بها يزداد قوة وصلابة » .

حافظ الاسد وتجربة الوحدة

منذ ان خاضت سورية مع الدول العربية المستقلة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، إثر احتلال الصهيونية بدعم من الامبريالية جزءا من فلسطين ، وسورية تتعرض لمؤامرات استعمارية متصلة وكان للقوى الوطنية والتقدمية فى سورية بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى دور أساسى فى النضال ضد المؤامرات الاستعمارية ، ولقد ساهمت هذه القوى فى قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ إلا ان التآمر على الوحدة كان كبيرا من اعداء الأمة العربية فى الداخل والخارج ، والتى نجحت فى فك عرى الوحدة بين سورية ومصر فى ٢٨ سبتمبر / ايلول ١٩٦١ .

ولكن ثورة ٨ مارس آذار ١٩٦٣ ، التى قادها حزب البعث العربى الاشتراكى أعادت الى سورية وجهها الوحدوى العربى الاصيل ، بادئة فى ذلك عهدا جديدا فى تاريخ بسورية المعاصر ، وقد عرضنا من قبل لدور الرئيس حافظ الاسد فى ثورة ٨ آذار ، وفى حركة شباط ١٩٦٦ عندما حاولت القيادة اليمينية فى حزب البعث الانحراف بالثورة ، ثم تتبعنا دوره فى الاحداث التى تلت ذلك ، ومن المعروف انه فى حرب ١٩٦٧ شنت اسرائيل بدعم من الامبريالية العالمية عدوانا على سورية ومصر ، والجزء المتبقى من الارض الفلسطينية ، ونتج عن ذلك احتلال القسم الاكبر من مرتفعات الجولان السورية ، وسيناء ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة ، **ولم تستقر الأمور فى سورية إلا مع قيام الحركة التصحيحية التى قادها الرئيس الاسد** فى ١٦ نوفمبر / تشرين الثانى ١٩٧٠ والتى أعادت لحزب البعث العربى وجهه الجماهيرى الاصيل . وأعادت بناء الجسور المهدمة بين الحزب وجماهيره ، وخلقت الثقة بين الحاكم ، والشعب ، واعادت سورية من جديد الى موقعها القيادى فى حركة التحرر العربى ومكنتها من القيام بدورها القيادى فى الوطن العربى ، واعلنت سياسة الانفتاح على الشعب ، وتوطيد الحياة الديمقراطية .

وكان لحركة السادس عشر من تشرين الثانى الدور الرئيسى فى الاعداد مع مصر لحرب تشرين اكتوبر عام ١٩٧٣ ، هذه الحرب التى كانت معلما للانسانية كلها كنقطة تحول بين باطل ظن انه يملك القوة التى تدعم باطله ، وبين حق استعان بالصبر ثم استعان بالحكمة ، ثم تزود بالبسالة فصبر وانتصر ، لقد كانت حرب اكتوبر المجيدة التى خاضتها مصر وسورية انطلاقة عملية بالأمة العربية من وضع محكوم باستراتيجية عالمية

إلى كيان قادر على ممارسة تأثيره العميق على العالم كله شرقه وغربه ، شماله وجنوبه .

ان الاقتحام الباسل لمرتفعات الجولان ، والعبور العظيم لقناة السويس لم يحققا للأمة العربية فرصة تجاوزت نكسة١٩٦٧ فحسب ، وإنما كانا اداة تفجير لطاقات عربية ، واقتصادية ، وسياسية استطاعت عبر التعامل الواعى معها والاستثمار الحكيم لإمكانياتها ان تضع العالم للمرة الاولى امام اختيار لم يواجهه من قبل ، إما ان يكون مع الحق ومع مصالحه وإما ان يكون مع الباطل وضد مصالحه .

لقد كان العدو الاسرائيلى فيما قبل حرب اكتوبر المجيدة يحاول بالغرور والصلف ، بالحماقة والادعاء ان يجسد وهما كاد ان يستقر فى الاذهان ليستحيل الى حقيقة واقعة من ان الكيان الاسرائيلى المزروع بالغدر والقوة داخل الأمة العربية هو قوة الردع داخلها ، هو المتحكم فى اقدارها ومصائرها ثم هو المسيطر بالتهديد على مصادر الثروة فيها، ثم هو الحامى لمصالح الآخرين داخلها .

ولقد كان العبور العظيم لقناة السويس ، ومعه الاقتحام العنيد والباسل لمرتفعات الجولان موعد سقوط الوهم الى الأبد وإلى غير رجعة .. ولقد واجه العالم بعد حرب اكتوبر تشرين ، كيانا مالكا لأمره مسيطرا على مقدراته ، قادرا على ان ينحاز بما يملك لمن يساند نضاله العادل ان يمنح وان يمنع ، ان يقول كلمته من منابر القدرة وليس من مواقع المناشدة والاستجداء .

ان الأمة العـ بية بعد حرب تشرين اكتوبر المجيدة قد دعمت حقيقة الحقائق ، من ان حقا بغير قوة تساد ه وتدعمه لن يجد سوى مشاعر الاشفاق وحدها ، بينما الظلم المدعوم بالقهر يحوطه التة ير والاعجاب بل والمساندة كذلك .

من هنا فإن ح ـرب اكتوبر / تشرين رغم النصر الذى تحقق لم تكن آخر الجولات ، بل هى خطوة على طريق هدف أمتنا العربية الكبير ، هدف التحرير الكامل للارض العربية المحتلة ، والحقوق الكاملة لشعب فلسطين ، ومن المؤكد ان محاولات التسوية السياسية بكل تحركات القوى العالمية التى تواكبها لن تصل بالعرب الى السلام القائم على العدل إلا من خلال ما نملك من مقومات القوة وهى قوة يحققها التضامن العربى بقدر ما يؤكدها السلاح العربى والمقاتل العربى .

حرب اكتوبر تشرين ثمرة من ثمار التعاون المصرى السورى أنهت الاسطورة الصهيونية عن جيشها الذى لا يهزم ، وكان لاستبسال الجنود المصريين والسوريين قصص تضرب بها الامثال ، خاصة اذا عرفنا طبيعة خط بارليف ، وطبيعة أرض الجولان الصخرية الوعرة ذات المرتفعات والوديان التى تغطيها الحجارة البركانية مما يجعل سير المدرعات والمجنزرات صعبا للغاية ، ولقد قاتل الجيش الاسرائيلى بشراسة على مرتفعات

الجولان التى تعتبر بالنسبة لاسرائيل موقعا عسكريا واستراتيجيا هاما لانها تسيطر على مصادر المياه التى تزود اسرائيل والسيطرة على الجولان ، وخاصة الجهة الشمالية منه ، تجعل دمشق فى مرمى مدفعية العدو البعيدة المدى، كما أن هدف سيطرة العدو على الجولان وخاصة من الخطوط السورية القديمة الحصينة ،وعلى سهل الحوله ، والجليل الأعلى ، وشمال فلسطين هدف قديم لاسرائيل .

ولقد خطط الاسد مع الرئيس الراحل أنور السادات للمعركة ، وبصرف النظر عما جرى بعد ذلك من خلاف حول رؤية كل منهما ، فقد اقتحمت القوات السورية بعد أربع ساعات فقط من بدء المعارك نقاط الدفاع والتحصينات الامامية للعدو ، وقامت قوات الكوماندوز وهى فرق منتقاة من الجيش السورى بتحرير موقع جبل الشيخ « قصر عنتر » الذى يشرف على دمشق والبقاع ، وفلسطين وجنوبى لبنان بعد أن انزلت طائرات مروحية الجنود وقد نشبت بين القوات السورية وقوات العدو معارك ضارية وبالسلاح الابيض ، وتمكنت القوات السورية من تنفيذ خطتها بنجاح ، وتم تحرير عدة مواقع ، وجرى استعادة بعض القرى فى هضبة الجولان بعد ان تم أسر الكثير من قوات العدو ، وبعد بدء المعارك بساعات قليلة وجه الرئيس حافظ الاسد نداء الى الشعب يطلعه فيه على تفاصيل حرب السادس من تشرين / اكتوبر بثقة وهدوء وحزم .

وهذا هو نص الخطاب فى ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ : «أيها الاخوة المواطنون يا جنودنا وصف ضباطنا ، وضباطنا البواسل يا ابناء شعبنا الأبى . مع تحيتى لكل فرد منكم اخاطب فيكم الروح العربية الاصيلة .. روح الشجاعة والبطولة .. روح البذل والتضحية .. روح الفداء والعطاء .

أخاطب فيكم محبة الوطن التى فطرتم عليها والايمان بالقضية ، منذ اسبوع ونيف والعدو يحشد قواته ويعد عدته وفى ظنه انه سينال منا بضربة غادرة ، وكنا يقظين ساهرين نرصد تحركاته وسكناته ونستعد ونتأهب لنرد عدوانه الجديد المحتمل ، فلم نسمح له ان يأخذنا على حين غرة ، واندفعت قواتنا المسلحة ترد عليه الرد المناسب ، ولم يسمح له أخوتنا فى مصر ان يأخذونا على حين غرة ، فاندفع جيش مصر العظيم يدافع عن كرامة مصر وكرامة الأمة العربية .

فتحية لجيشنا وشعبنا وتحية لجيش مصر ، وشعب مصر العظيم وليس لى فى هذه اللحظات الحاسمة إلا ان اوجه تحية من القلب الى هؤلاء العسكريين البواسل الذين جاءوا الى قطرنا من المغرب الشقيق ليشاركوا فى معركة القوة والكرامة وليقدموا الدم سخيا الى جانب اخوانهم فى سورية ومصر ، فجسدوا بذلك وحدة الامة ووحدة المصير وقدسية الهدف .

اننا اليوم نخوض معركة الشرف والعزة دفاعا عن أرضنا الغالية عن تاريخنا المجيد، عن تراث الآباء والاجداد ونخوض المعركة بايماننا بالله وبانفسنا وبعزيمة صلبة وتصميم قاطع على ان يكون النصر حليفنا فى ذلك.

لقد بغت اسرائيل وأصابها الغرور وملأت الغطرسة رءوس المسئولين فيها فأوغلوا فى الجريمة واستمرار اسلوب العدوان يملأ قلوبهم حقدا أسود على شعبنا وعلى البشرية ويستبد بهم تعطش سفك الدماء، ويوجه خطاهم استخفاف بمبادىء البشرية ومثلها العليا وبالقوانين والقرارات الدولية، مثل هؤلاء مثل من سبقهم من دعاة الحرب لا يقفون عند حد ولا يردعون إذا لم تردعهم الشعوب المؤمنة بحقها المدافعة فى سبيل حريتها ووجودها، واذ نؤدى واجبنا فى الدفاع عن أرضنا وشرف أمتنا مستمرون لبذل كل تضحية وتقبل كل شدة فى سبيل ان ينتصر الحق وتنتصر المبادىء وفى سبيل ان يسود السلام العادل.

أيها الاخوة المواطنون.. ان الشدائد هى المحك لمعدن الشعوب وامتحان لاصالتها، وكلما ازدادت الازمة شدة ظهر المعدن الصافى وتأكدت الاصالة الراسخة، انكم ابناء أمة عرفت على مدى التاريخ بمواقف الرجولة والإباء، بمواقف البطولة والفداء، ابناء أمة حملت رسالة النور والايمان الى اصقاع الارض، وشهد العالم قاطبة أسمى الصفات وانبل الاخلاق.

فيا أحفاد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، يا أحفاد خالد بن الوليد وأبى عبيدة وسعد وصلاح الدين إن ضمير أمتنا ينادينا وأرواح شهدائنا تستحثنا ان نتمثل معانى اليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت، ان جماهير أمتنا من المحيط الى الخليج تشخص بعيونها وأفئدتها الى صمودنا العظيم.

يا جنودنا وصف ضباطنا وضباطنا البواسل: نحن أصحاب حق واصحاب قضية والله عادل نصير من كان على حق وكان عن حقه ذائدا مدافعا، انكم اليوم تدافعون عن شرف الامة العربية، وتصونون كرامتها، وتحمون وجودها وتضحون كى تحيا الاجيال القادمة هانئة مطمئنة.

وتشاء إرادة العلى القدير ان يكون جهادكم فى هذا اليوم من ايام الشهر الفضيل شهر رمضان، شهر الجهاد.. شهر غزوة بدر.. شهر يوم الفتح.. شهر النصر.

صفحة ناصعة فى تاريخ قواتنا المسلحة نضيفها الى العديد من صفحات البطولة والفداء.. التى سطرتها دماء الشهداء الابرار فى تاريخ قطرنا ووطننا، لقد انتصر اجدادنا بالايمان والتضحية بالتسابق على الشهادة دفاعا عن دين الله ورسالة الحق،

وانكم اليوم ببطولاتكم وشجاعتكم انما تستلهمون هذه الروح وتحيونها ، وتحيون بها تقاليد أمتنا المجيدة .

سلاحكم بين ايديكم وديعة فاحسنوا استعماله ، وشرف الجندى العربى فى اعناقكم امانة فصونوا الامانة ، ومستقبل شعبنا فى عهدتكم ، فابذلوا المستحيل دفاعا عنه ، وان شعبنا الذى تعمر صدور ابنائه حماسة يقف وراءكم صفا واحدا يحمى خطوطكم الخلفية ويدعم جهادكم بكل ما يملك ومن ورائه جماهير أمتنا العربية التى لا اخالها إلا مرافقة الموقف الذى يمليه الواجب القومى فى هذه المرحلة الحاسمة وخلفها من بعد فى العالم اصدقاء عديدون يؤازرون حقنا ويدعمون قضيتنا ويؤيدون نضالنا ، لسنا هواة قتل وتدمير وإنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير .

لسنا معتدين ولم نكن قط معتدين لكننا ولانزال ندفع العدوان عن انفسنا ، نحن لا نريد الموت لأحد .. إنما ندفع الموت عن شعبنا .

اننا نعشق الحرية ونريدها لنا ولغيرنا وندافع اليوم كى ينعم شعبنا بحريته .. نحن دعاة سلام ، ونعمل من اجل السلام لشعبنا ، ولكل شعوب العالم ، وندافع اليوم من اجل ان نعيش بسلام .

فسيروا على بركة الله ..

ان ينصركم الله فلا غالب لكم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وتحطمت الأسطورة عند الفجر

وهكذا نجح العرب فى تحطيم الاسطورة الاسرائيلية على الجبهتين السورية والمصرية ، وتحطمت اسطورة اسرائيل التى لا تقهر ولم يكن هذا النصر راجعا الى السلاح الحديث الذى أحسنوا استعماله ، **بل كان مرده الى الايمان المطلق بعدالة القضية والثقة الكاملة فى الجندى الأول حافظ الاسد الذى كان معهم فى كل خندق وموقع** والذى جعل من الجيش العربى السورى قوة يرهبها العدو .

واذا كانت القوات السورية استطاعت ان تحرر الكثير من قرى الجولان ، فإنها تواصل استعدادها لتطهير باقى الارض المحتلة فى ظل صمود رائع من الشعب والقوات المسلحة والتفاف واع نحو القيادة ، وعندما حققت سورية هذه الانتصارات سارع العدو الى الاستعانة بالقوى الخارجية يطلب منها العون بالرجال والعتاد والطائرات تعويضا عن خسائره ، ويؤكد الرئيس حافظ الاسد ان للحرية والكرامة ثمنا غاليا ولكننا مستعدون

لدفعه فى سبيل استكمال تحرير الارض وتوفير الحرية والأمن والطمأنينة والسلام للاجيال القادمة .

خندق واحد فى موقع واحد

الرئيس حافظ الاسد بعثى يؤمن بوحدة الأمة العربية وبمصيرها الواحد المشترك ، ونظرة الرئيس الأسد الى العلاقات بين سورية ومصر كما يقول الاستاذ محمود الزعبى رئيس وزراء سورية هى انها علاقة استراتيجية على مر الزمن ، ودائما يشير الرئيس الاسد فى حديثه سواء داخل اجتماعات القيادة أو الاجتماعات الرسمية أو فى احاديثه **الصحفية الى اهمية اللقاء المصرى ـ السورى** ، واهمية ان تبقى سورية ومصر دائما على وئام وعلى وفاق انطلاقا من استيعاب دروس التاريخ وعبره ، وهذه الدروس والعبر تؤكد انه كلما كانت سورية ومصر فى خندق واحد وموقع واحد متضامنتين كان ذلك يشكل خيرا ودفعا وقوة وأمنا للوطن العربى ، وعلى النقيض من ذلك فإنه كلما فترت هذه العلاقة فإن المردود السلبى لم يكن يقتصر على الشعبين المصرى والسورى ، وإنما يمتد ليشمل شعوب الأمة العربية ، ولذلك ينظر الرئيس الاسد الى هذه العلاقة على ان لها اهميتها وعمقها ، وحيويتها الآن وفى المستقبل لانه ليس فى مقدورنا ان ننفصل عن تاريخنا وتراثنا وحاضرنا ومستقبلنا . ويضيف رئيس الوزراء السورى ان العلاقات المصرية السورية شهدت فى الفترة الاخيرة وبعد استئنافها مزيدا من التنسيق والتعاون والتكامل ، **وان توجيهات الرئيس الاسد الدائمة لنا فى الحكومة ان العلاقات المصرية السورية يجب ان تتطور وباستمرار والى الحد الذى يرسخ المصالح المشتركة بين الشعبين السورى والمصرى** وهو الذى يطالب دوما بأن تتطور العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين ، وان تتشكل شركات مشتركة ، وان يحصل تواصل دائم بين القطاعات الحكومية والمنظمات الشعبية فى مصر وسورية ، وواقع الحال ان كل مواطن سورى يشعر تجاه المواطن المصرى بشعور خاص، وتابع رئيس الوزراء السورى قائلا : إننا لا ننسى على الاطلاق اننا أصحاب تجربة وحدوية رائدة فى التاريخ المعاصر ، ولولا تآمر المتآمرين لاستمرت هذه الوحدة وأينعت ، ونحن لانزال نطمح الى ان نصل مع اشقائنا فى مصر الى صيغة وحدوية تتعالى الى خصوصية العلاقة المصرية السورية وتميزها ، **وكما تعلمون فقد تشكلت اللجنة العليا المشتركة المصرية ـ السورية برئاسة رئيسى مجلس الوزراء ، وقد اعطيت هذه اللجنة من قبل الرئيسين حسنى مبارك ، وحافظ الاسد مهمات وصلاحيات واسعة للتنسيق السياسى** وصولا الى توحيد المواقف فى كل المجالات سواء على الصعيد الخارجى أو الصعيد العربى أو غيرهما ، والمحاضر التى تصدر عن اجتماعات هذه اللجنة تشير الى ما أنجز فى مجالات التعاون وتحدد مجالات جديدة .. فى الفترة الماضية وقبل تشكيل هذه اللجنة كان التبادل التجارى

والاقتصادى يتم عن طريق طرف ثالث بشكل غير مبرمج وغير مقنن وايضا بشكل فردى .

الآن ومن خلال اللجنة العليا المشتركة تم وضع اتفاقيات تجارية ، وتم الاتفاق على صفقة متكافئة تسير بشكل لا بأس به . وسورية وفقا لهذه الصفقة تستورد من مصر بعض المواد البتروكيماوية والاتوبيسات وبعض المواد التى تلزم لتنفيذ مشاريع مياه الشرب وغيرها ، ونحن نشجع الشركات المصرية للدخول فى مناقصات تنفيذ مشروعات سورية ، وهناك قائمة سلعية بين البلدين يجرى تنفيذها بشكل معقول ، كما تشكلت لجان متابعة فى كل من البلدين للاشراف على تنفيذ الاتفاقيات بشكل سريع ، وبما يضمن إزالة العقبات التى قد تحدث بسبب الروتين أو الموانع الادارية والقانونية .. **وهناك مشروعات كثيرة فى مجالات النقل البحرى والبرى وصناعات اخرى** ونحن نطمح فى المستقبل ان نرى المشروعات السورية المصرية المشتركة تغزو كل المواقع وتوظف امكانيات البلدين لمصلحة خطط التنمية فى القطرين ، **وهناك دور للقطاع الخاص والمشترك فى البلدين ، ونحن وبتوجيهات من الرئيس حافظ الاسد نبارك استثمار رأس المال السورى فى مصر واستثمار رأس المال المصرى فى سورية** تحقيقا للمصلحة المشتركة ، ولدينا الآن خبراء مصريون فى مجال النفط وغيره ، ونحن نستفيد من التجربة المصرية فى استثمار النفط والغاز وفى اصلاح محطات الكهرباء ، وهناك طلاب سوريون يدرسون فى مصر وطلاب مصريون فى الجامعات السورية ، وهناك منح طلابية مشتركة وهناك تعاون ثقافى وزراعى ، وتوجيهات الرئيسين الأسد ومبارك للدكتور عاطف صدقى ولى الاسراع فى تنمية وتطوير هذه العلاقات فى كافة المجالات لكى ترتاد الآفاق التى ترتقى الى مستوى خصوصيتها وتميزها ، ونحن نلمس الرغبة الاكيدة والصادقة لتعزيز التعاون المصرى والسورى ونحن ماضون فى تحقيق التكامل بين البلدين ، وتحويله الى واقع يومى معاش .

ونحن نعتقد انه كلما قويت مصر قويت سورية ، وكلما قويت سورية قويت مصر ، وكلما قويت مصروسورية كان الوطن العربى قويا ، وهى حقيقة اثبتها التاريخ القديم والأوسط ، والحديث . والازمات التى تعرضت لها الأمة العربية فى الفترة الاخيرة ، وخاصة الغزو العراقى للكويت ، ما كان له ان يندحر لولا التناغم والتنسيق والتفاهم المصرى ـ السورى .

وقد كان التنسيق المشترك بين الرئيس مبارك والرئيس حافظ الاسد هو أساس الموقف العربى الذى سمح بتحرير الكويت وهذه حقيقة معروفة للقاصى والدانى عربيا وعالميا ، ولقد كان اعلان دمشق هو الوثيقة العربية الوحيدة بعد مرحلة تحرير دولة الكويت ، وكان الرد الطبيعى لاعادة صياغة الواقع العربى صياغة تفتح الباب امام

تضامن عربى حقيقى فاعل ، ورؤية عربية مستقبلية للأمن العربى المشترك ولتغليب المصالح العربية المشتركة على أى شىء آخر .

ومن المؤكد ان اعلان دمشق هو الذى يكفل تحقيق الأمن العربى السياسى والأمن الاقتصادى ، ونحن فى سورية مع اى خطوة أو قرار يؤدى الى ضمان الأمن العربى بشكل يساهم فيه الذين يؤمنون بالمصير الواحد للأمة العربية ، ونحن نؤمن بأن اعلان دمشق سيأخذ طريقه الى التنفيذ اليوم أو غدا مادامت الرؤية فى هذا البيان واضحة وطالما ان المصلحة العربية هى محور هذا البيان ، وتثبت الايام ان ما ورد فى اعلان دمشق هو الحد الادنى والامثل لخلق تضامن عربى وأمن عربى واقتصاد عربى ومصلحة عربية عليا مشتركة ، وهذا ما يدركه ايضا الاشقاء فى مصر .

هناك حقيقة أخرى يؤكدها محمود الزعبى رئيس وزراء سورية وهى ان مَنْ يراجع تصريحات الرئيس الاسد وتوجيهاته فى اجتماعات القيادة القطرية ومجلس الوزراء يرى ان ما يهم الرئيس الاسد فى هذه المرحلة الوصول الى تضامن عربى حقيقى وفعال وايجاد قواسم مشتركة وخطوط دفاعية تدافع عن وجودنا كأمة عربية مستهدفة ، إننا فى سورية وبتوجيه من الرئيس الاسد نركز على التضامن العربى وتدعيم العلاقات الثنائية ونقف ضد أى محاولة لتخريب هذه العلاقات ونساند كل خطوة تستهدف إزالة عوامل الشقاق بين العرب .

والذين يراجعون اهداف اللقاءات المستمرة بين الرئيسين الاسد ومبارك يجدان انها تصب دائما فى خانة ايجاد القواسم المشتركة لتصليب الموقف العربى وعقلنته لكى يخدم المصالح العربية ، ولكى يكون دوره ايجابيا ، لاسيما وان النظام العالمى الجديد لا يبقى لنا خيارا بديلا .. لقد وضعتنا هذه الظروف امام قوة واحدة بعد ان كان هناك فى الماضى قوتان تتجاذبان مصالح العالم ، وما لم نكن متضامنين فإن غياب التضامن سيوقعنا فى مهالك لا قبل لنا بها . **وهذا ما يؤكد عليه الرئيس الاسد** ، لابد من التضامن لتحقيق تعاون عربى مشترك ، ولكى يكون امام العمل العربى المشترك آفاق واسعة للتكامل الاقتصادى وتحقيق النمو العربى الحقيقى ، **والتعاون المصرى السورى هو العمود الفقرى للتضامن العربى ، وميثاق دمشق فرصة تاريخية نادرة اذا عرف العرب كيف يستفيدون منه .**

تبقى بعد ذلك **حقيقة ينبغى الاشارة اليها** وهى ان هناك من يسعون الى تجميد وتعطيل وإعاقة تنفيذ إعلان دمشق ومازالت مصر وسورية تعالجان المسألة بكل دقة وبكل توازن وبغير فقدان للاعصاب لانهما الاكثر إدراكا بأن الأمن العربى مسئولية عربية

بالدرجة الأولى والاحداث تؤكد ذلك كل يوم ، وان مصر وسورية يتبعان فى سبيل التضامن والتعاون الآن اساليب غير تقليدية لايمانهما ان ربط مصلحة الانسان العربى بخطط التنمية هو الذى يضمن استمرارها وان التنسيق الاقتصادى أساس الوحدة العربية الشاملة ، وان السياسة يجب ان تكون دوما فى خدمة الاقتصاد ، **وتعمل سورية بقيادة الرئيس الاسد على توظيف علاقاتها مع الشرق والغرب فى خدمة هذه القضايا العربية وفى طليعتها قضية العرب الأولى وهى قضية فلسطين** وتعزيز الجهود الدولية من اجل سلام عادل فى المنطقة يرتكز الى انسحاب اسرائيل الكامل من الاراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ والاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وفى مقدمتها حقه فى العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة .

٢٢

قراءة فى فكر الأسد

سورية ومسيرة السلام

□□ رؤية الأسد لمسعى احلال السلام.
□□ سورية تفتح الباب لمسعى السلام.
□□ السلام الشامل هو الهدف ولن نتخلى عن شبر من الجولان.
□□ الحل الوسط فى موضوع الأرض غير وارد.
□□ الجغرافيا لا تحقق الأمن.
□□ صدام لن يدوم والعراق سيعود لأمته.
□□ الأسد يؤكد: ننظر بثقة الى المستقبل ويجب أن نظل يقظين ولا يجوز أن تنال منا غفلة.

□□ يبقى فى النهاية ان نتعرف على الرؤية السورية لمسعى احلال السلام الراهن فى المنطقة .

فى مجال الاجابة على هذا السؤال لابد ان نشير الى ذلك الخطاب التاريخى الذى القاه الرئيس حافظ الاسد فى افتتاح الدورة العاشرة لالعاب البحر الابيض المتوسط وهى الدورة التى شهدتها مدينة اللاذقية فى شهر سبتمبر ١٩٨٧ لكى نعرف ان مساندة سورية لمسعى إحلال السلام ليست وليدة الظروف الراهنة وإنما تعود الى قبل ذلك بكثير .

قال الرئيس حافظ الاسد فى هذا الخطاب امام المشاركين الذين تجمعوا من دول البحر الابيض المتوسط فى مظاهرة اخوة وصداقة وسلام مثلتها هذه الدورة التى جمعت بين وفود من مشرق البحر المتوسط ومن غربه ومن شماله ومن جنوبه .. من الساحلين العربى والاسلامى قال الرئيس حافظ الاسد :

« نحن جزء من الانسانية .. هذا البحر المتوسط عرف الثقافات وعرف الحضارات ، ومن هنا انتقلت الابجدية ، نحن نريد لشبابنا ان يحمل رسالة انسانية للعالم كله رسالة فى المحبة والسلام وفى التعاون الذى يرفض العدوان والقتل ويرفض التدمير ويرفض احتلال أراضى الغير ، فى بلادنا السورية عاش الانبياء.. المسيح عليه السلام عاش فى سورية وتكلم اللغة السورية ، لانه فى سورية الكبرى لم يكن هناك فلسطين والاردن ولبنان

وسورية إنما كانت هناك سورية الكبرى ، **الى هذه الارض ايضا جاء الرسول صلى الله عليه وسلم الى دمشق** وكيلا عن السيدة خديجة والتقى بالراهب « بحيرا » من هذه البلدة من دمشق انطلقت قواعد النضال الاسلامية لكى تصل الى الاندلس والصين حاملة رسالة الخير والمحبة للجميع ، **ومن دمشق انطلق صلاح الدين الايوبى كى يضع حدا للحملة الصليبية** ، والاحتلال وعامل الفرنجة معاملة انسانية يتكلم التاريخ عنها حتى الآن ، وطالما ان هذه الارض أرض النبوة ، والحضارة والابجديات فإنها يجب ان تظل أرض سلام » .

- **والرئيس الاسد لا يقصد فقط سورية فى كيانها الجغرافى وانما يقصد الارض العربية الممتدة من الحجاز إلى مصر إلى سورية** لأن جميع الانبياء عاشوا فيها ويشرفنا ان تكون بلادنا العربية مهد الأنبياء، ونحن كعرب علينا ان نؤدى هذه الرسالة الانسانية على خير وجه ، ولكن نريد من العالم ان يعترف بدورنا فى الانسانية .

الجامعات فى الاندلس التى تعتبر جسرا لنقل الحضارة بين الاندلس وأوربا نحن الذين قدمنا لها الترجمات الاغريقية القديمة والرومانية واضفنا اليها وقمنا بكثير من الابحاث ، فلماذا يغفل العالم المعاصر دورنا على جميع الصعد ، ولماذا نعاقب بما لم نرتكب ذنبا فيه لا تعصبا ولا استعلاء ولا استعمارا ولا عدوانا .

ويضيف الرئيس الاسد : « نريد الارض .. أرض سلام وصداقة فلا عدوان ولا احتلال ، ولا مظهر من مظاهر العدوان والاحتلال وكذلك نريد ان يكون البحر بحر سلام وصداقة ، تحلق فى اجوائه طيور النورس ، لا طائرات القتل والتدمير ، وتمخر عبابه سفن التواصل بين الشعوب لا حاملات وسائل القتل والتدمير ، نريده بحرا لأهل هذا البحر خاليا من أساطيل الذين يريدون لشعوبنا شرا ، ونريد لحوض المتوسط منطقة سلام ، نواة السلام العالمى منها تنطلق حمائم السلام لتنتشر فى سماء الارض . ان شعوبنا حريصة على ان تكون الحياة مسيرة بناء وتقدم ورقى .. مسيرة يسودها العدل والمساواة .. مسيرة خالية من أسباب وعوامل الخوف والرعب والارهاب .

نحن جميعا نريد لاطفالنا ان يعيشوا طفولة سعيدة ، ونريد لشبابنا ان يحيوا حياة هانئة ، نريد لجميع الاجيال ان تنعم بحياة لا تكدرها حاجة ولا مرض ولا تخلف بل تهنأ كفاية وعافية وعلما ومعرفة .. ايها الرياضيون من مشرق المتوسط ومغربه وجنوبه وشماله انكم من جيل الشباب ، جيل الحياة المتفتحة ، الجيل الذى ستقع على عاتقه مسئوليات المستقبل ، لكم دور كبير فى صياغة المستقبل ، وفى إطار هذا الدور تنهضون بمهمة كبرى عندما توجهون جهودكم وجهة خير البشرية وسعادتها وتقاومون كل الشرور المتمثلة فى العدوان على الغير واستلاب حقوق الآخرين ، واستغلال الكبير للصغير والقوى

للضعيف .. هذه الشرور هي مصدر الحروب وزوالها طريق السلام ، فما من شعب وبغض النظر عن مقاييس الحجم والعدة، إلا ويناضل مكافحا هذه الشرور عندما يتعرض لها ويظل يناضل حتى يقضي عليها » .

في حديثه الى شعبه في سورية ، يقول الرئيس : «عليكم دور كبير هو دور الاجداد الذين حملوا هذا المشعل ، علينا دور لأن هذا العصر عصر الجماعات الكبيرة ، علينا ان نسعى لكي نخلق وحدة وطنية متناسبة متناسقة في قطرنا ، تكون نموذجا يحتذى به في جميع اقطارنا العربية وعلينا ان نخلق وحدة عربية تكون نموذجا لكيفية التفاعل والتعاون والمصالح المتبادلة حتى نستطيع ان نحتل مكاننا على وجة الأرض » .

رسالة الاسد مقرونة بالعلم والموضوعية وبالقضايا المشحونة بالروح والتراث وبتفاعل خلاق مع المستقبل **مؤكدا ان المستقبل لا يبنيه إلا الشباب وابناء الأمة بنفحات من تاريخنا العظيم** سواء كان تاريخ الأمة العربية في قديمه، أو تاريخ الحضارة الإسلامية، أو التاريخ الحديث الذي أعطينا فيه من ثرواتنا ومن جهدنا ومن مكاننا الاستراتيجي المميز للانسانية كل شيء ، بهذه القيم والمعاني يوصي الاسد الشباب سواء في وطنه أو في أي بقعة من العالم .

السلام العادل

الرئيس حافظ الاسد منذ تسلمه السلطة وهو يطرح السلام العادل القائم على العدل والسلام الشامل والدائم،ويؤكد أن رغبة العرب الحقيقية هي السلام .. كان يرى ان جميع القرارات التي صدرت عن الأمم المتحدة منذ التقسيم عام ١٩٤٧ وحتى يومنا هذا لم يصدر منها قرار يعطي صيغه التنفيذ الالزامي سواء كان بقوة الشرعية الدولية أو بإحالته الى مجلس الأمن ليتخذ قرارا وفق الفصل السابع من الميثاق .. رغبة الرئيس الاسد في السلام مبنية على أنه اذاكان هناك عدوان بالقوة ، واحتلال أرض الآخرين بالقوة ، فإن السبيل لتحقيق السلام هو انسحاب القوى المعتدية لانه من حيث المبدأ إذا أخذنا بوجهة نظر الحق الطبيعي ، لا يمكن لأي شعب ان يتنازل عن حقوقه ولا يمكن لبلد معتد أن يتمتع بثمار عدوانه، واذا أخذنا المسألة من الناحية القانونية فإن هناك قرارات دولية كثيرة واجبة التنفيذ ، لاسيما وان الولايات المتحدة الامريكية أعلنت على لسان الرئيس بوش في خطاب ألقاه في السادس من مارس ١٩٩٠ « بأن عهدا جديدا يطل الآن على العالم بعد ان ائتلفت الدول تحت راية الأمم المتحدة لاخراج العراق من الكويت ، وقد أعلن بوش بأنه قد آن الاوان لكي تحل الولايات المتحدة الامريكية مشكلة الشرق الاوسط بنفس الروحية والموضوعية التي انهت بها الاحتلال العراقي للكويت ، وبعد الزيارات العديدة التي قام بها جيمس بيكر للمنطقة **وبعد لقاء الرئيس حافظ**

الاسد مع الرئيس بوش فى جنيف حدث اقتناع لدى الرئيس الاسد بأن الادارة الامريكية جادة فى هذه المرحلة وانها ترغب فى تحقيق سلام عادل ودائم فى هذه المنطقة . وانطلاقا من هذا استطاع الرئيس حافظ الاسد ان يدخل تعديلات كثيرة وكبيرة على المبادرة الأمريكية لأن اسرائيل كانت لا تريد حتى للأمم المتحدة أن تلعب أى دور، حتى دور المراقب . وكانت تعترض على وجود المجموعة الاوربية فى مؤتمر السلام ، **وقد أصرت سورية على وجود السوق الأوربية المشتركة** وكانت اسرائيل تناور وتعمل على عزل كل دولة على حدة بتبادل الزيارات بين كل بلد واسرائيل ، أى انها كانت تطلب الاعتراف المسبق قبل الدخول فى عملية السلام التى ترتكز الى قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و٣٣٨ وعلى مبدأ عدم جواز اكتساب أراضى الغير بالقوة وفق ما نصت عليه مبادرة بوش والضمانات الأمريكية التى اعطيت قبل انعقاد مؤتمر السلام فى مدريد ..

الرئيس حافظ الاسد رجل مؤمن بالسلام ، السلام المبنى على العدل والذى يحقق الانسحاب الكامل من الاراضى العربية المحتلة، ويعطى للشعب الفلسطينى حقوقه المشروعة ويرفض الاستسلام ، ويرفض ان يستفيد العدو من أى مكسب يجنيه من خلال العدوان ، **وهذا الموضوع ذكره الرئيس حافظ الاسد فى العديد من خطبه منذ سنوات عديدة** ومن يعود الى خطاباته الأولى للقوات المسلحة قبل بدء العمليات القتالية عام ١٩٧٣ يتأكد من ذلك ، **ومن يرجع الى هذه الفترة سيجد ان الرئيس حافظ الاسد يؤكد ان سورية ليست هاوية حروب ولكنها تقاتل من أجل تحرير الأراضى العربية المحتلة . انها تدفع العدوان عنها ، وأن سورية طالبت وتطالب بالسلام ، ولكن اسرائيل لا تريد السلام .**

وفى خلال حرب ١٩٧٣ ، وبعد الحرب حاولت سورية بكل الامكانيات المتاحة ان تحقق أو تسعى لتحقيق مؤتمر دولى للسلام يشارك فيه القطبان الكبيران آنذاك وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى سابقا ، ولكن بكل أسف فإن سياسة كيسنجر التى كانت ترمى الى الانفراد بكل دولة على حدة والجهود التى بذلها كيسنجر وإدارة كارتر فيما بعد استطاعت أن تحقق حلاً منفرداً ، ولذلك ضاعت فرصة السلام فى المنطقة والتى كان يمكن للولايات المتحدة لو أخلصت النوايا ولم تنحز لاسرائيل ان توجد فرصاً ملائمة للسلام الشامل ، ورغم كل ذلك فإن سورية ظلت تدعو الى السلام سواء فى زيارة الرئيس الاسد لأوربا واجتماعه بالقادة الاوربيين فى المانيا وفرنسا أو فى استقباله للكثير من الشخصيات الاوربية الدولية ثم فى اجتماعه مع كارتر فى جنيف واستقباله لجميع الموفدين الامريكيين وبزياراته المتكررة للاتحاد السوفيتى وفى استقباله لرئيس وزراء الصين ورئيس وزراء الهند الراحل راجيف غاندى وجميع المسئولين من الشرق والغرب .

كان الأسد يردد دائما بأنه يجب علينا أن نبحث عن سلام دائم وعادل من خلال مؤتمر دولى يعقد للسلام فى منطقة الشرق الاوسط وتطبق فيه قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية ، ولذلك وكما أسلفنا فإن ايمان الرئيس الاسد بالسلام مبنى على اقتناع راسخ ، وقد أشرنا فيما سبق الى خطاب الرئيس الاسد فى دورة البحر الابيض المتوسط التى عقدت فى اللاذقية عام ١٩٨٨ وإلحاحه على ضرورة اقامة سلام يشمل دول البحر المتوسط لأن هذا البحر عاشت على جوانبه الحضارات المتعددة وكان هناك تبادل لهذه الحضارات واختلاط لهذه الشعوب لكى تتساعد وتتعاون جميعا فى ظل السلام لبناء الحضارة المعاصرة .

سورية فتحت الطريق للسلام

وفى خطابه الذى ألقاه بمناسبة أداء القسم للولاية الدستورية الرابعة فى مجلس الشعب فى ٢ مارس / آذار ١٩٩٢ قال الرئيس حافظ الاسد : « ان سورية هى التى فتحت طريق السلام عندما وافقت على المبادرة الأمريكية التى تقوم على تنفيذ قرارى مجلس الامن رقمى ٢٤٢ ، و٣٣٨ ومبادلة الارض بالسلام وهو ما تعنيه هذه القرارات بعد أن كانت حكومة اسرائيل قد رفضت المبادرة بموجب رسالة وجهتها الى الادارة الامريكية ردا على مبادرتها ، وقد فعلت سورية ذلك رغبة منها فى تحقيق السلام ولأنها التزمت بالقرار ٣٣٨ وضمنه القرار ٢٤٢ الذى هو جزء منه بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ وعندما اقول رغبة منها فى السلام تؤكد ذلك كل الاحاديث والخطب والنقاشات التى قامت بيننا وبين كل الآخرين الذين ناقشونا من خارج بلادنا حول عملية السلام منذ أن وقفت حرب تشرين على أساس قرار مجلس الامن ٣٣٨ المؤلف من ثلاث فقرات .

ان الفقرة الثانية والاساسية فى القرار هى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ فعندما وافقنا على القرار ٣٣٨ وافقنا ضمنا وفعلا على القرار ٢٤٢ ومنذ ذلك الوقت كنانقول دوما إننا نريد السلام على أساس القرارين ٣٣٨ و٢٤٢ وعبر صيغ كذا وكذا وعبر صيغة مؤتمر دولى .

إن شروطنا ومطالبنا هى هى لم تتغير ولن تتغير لا اليوم ولا غدا ولا إلى الابد .

اسرائيل لاتريد السلام

وقد قلت كثيرا للأجانب الذين جاءوا الى بلادنا مهتمين بعملية السلام ان اسرائيل لا تريد السلام . خاصة ان حكامها يعتقدون ان الظرف الدولى مناسب لتحقيق

المزيد من الاطماع واحتلالات جديدة وليس للتخلى عما احتلوه من أراض فى أوقات ماضية ، ولكنهم ما كانوا يصدقون ذلك،ان حكام اسرائيل وعبر زمن طويل غسلوا أدمغة اناس كثيرين وأوهموهم ان فى اسرائيل اناسا (دراويش) يبحثون عن السلام والأمن والحرية أما العرب فلا يبحثون إلا عن الحرب والقتل والذبح والارهاب .

كشف الزيف الاسرائيلى

ومن حسنات عملية السلام أو من حسنات الاشهر الاربعة التى مرت والمحادثات التى جرت بين العرب والاسرائيليين انها كشفت هذا الزيف كشفاواضحا لكل الناس إلا من عمى فى بصره وبصيرته ولا أحد الآن إلا ويعرف ان اسرائيل هى المعادية للسلام والمعرقلة للسلام .

لقد اجابت سورية على المبادرة الامريكية بالايجاب رغبة منها فى تحقيق السلام ولانها التزمت منذ عام ١٩٧٣ بالقرار ٣٣٨ ومنذ ذلك الوقت وسورية تتحدث عن السلام على أساس هذا القرار وعندما وجدت حكومة اسرائيل ان سورية والعرب جميعا وافقوا على المبادرة والمشاركة فى عملية السلام قررت ان تشارك رغم انها اغلقت ابواب السلام فى بداية إعلان المبادرة الامريكية لانه ليس من مصلحتها ان تقاطع مبادرة السلام امام العالم أجمع خاصة والعالم يطالب بالسلام وبتنفيذ القرارات الدولية فى أى مكان وبدلا من أن تعطل عملية السلام بالمقاطعة والتى لن ترضى المجتمع الدولى قررت كما هو واضح من السلوك فى المباحثات ان تعطل عملية السلام بالمشاركة فيها ومنعها من النجاح .

وتمر الآن الشهور وكل شىء فى مكانه إلا الصورة التى كان حكام اسرائيل يثبتونها فى اذهان الآخرين وهى صورة الناس الذين يسعون ليلا ونهارا لتحقيق السلام بينهم وبين العرب ، ولكن العرب دائما يتحدثون عن الحرب ولا يتحدثون عن السلام ، وكان العالم بأكثريته الساحقة وخاصة فى الغرب يصدق هذه الصورة ويأخذ بهذه الصورة ويصدقها وهى الراسخة فى الاذهان هناك ، أما الآن فقد انعكست الصورة تماما فالكل مقتنع الآن ان العرب يريدون السلام واسرائيل ترفضه .

العرب لن يتنازلوا عن أرضهم .

بالنسبة لنا لم نفاجأ لأن لدينا اقتناعا أن حكام اسرائيل لايريدون السلام وقد عبرنا عن ذلك مراراً كثيرة قبل أن تبدأ عملية السلام الحالية وهاهم الذين كانوا يقولون دائما إننا لانريد السلام ومنذ زمن بعيد تغيرت اقتناعاتهم بأنه لم يكن فى اذهانهم عندما كانوا

يحدثوننا عن السلام أن اسرائيل تريد السلام والأرض بالرغم من أننا كنا نقول لهم دائما إن السلام الذى يريده حكام اسرائيل هو أن يأتى العرب ويوقعوا صكوك تسليم اراضيهم المحتلة وتسمى هذه الصكوك صكوك السلام . لقد تغيرت اقتناعات الآخرين فى كل مكان ونأمل أن يتحدث الجميع علنا باقتناعاتهم الجديدة . إن الكثيرين منهم يتحدثون الآن علنا وبطبيعة الحال العالم كله يعرف أن العرب لن يتنازلوا عن ارضهم لا اليوم ولا فى أى يوم فى المستقبل القريب أو البعيد . ورئيس حكومة اسرائيل يصرح بشكل متكرر أنه متمسك بالسلام وأرض اسرائيل . وأرض اسرائيل التى يعنيها فى هذه المرحلة تشمل الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس والجولان فأى سلام هذا الذى يتمسكون به ؟ ! .

وقد أكد ذلك بنفسه عندما خطب فى مؤتمر مدريد وخاطب الآخرين بأن ٢٨ الف كم² من الاراضى هى مساحة صغيرة بالنسبة لاسرائيل ولو بحثنا من أين جاءت هذه المساحة لوجدنا أن الـ ٢٨ الف كم² هى مساحة فلسطين كلها بما فيها غزة والضفة والقدس وكذلك الجولان. على كل حال ليكشفوا أنفسهم ومطامعهم التوسعية أكثر أمام العالم وهذا بحد ذاته فى مصلحة العرب أما نحن العرب فنريد السلام عن طريق تنفيذ القرارات الدولية التى بدأت عملية السلام على أساسها فإن كان الأمر كذلك أردناه وإلا فلنترك وليتركوا الأمر للمستقبل فلسنا فى عجلة من الأمر . **اسرائيل هذه هى التى تعرقل السلام وتعطله تطالب الولايات المتحدة الأمريكية بأن تقوم بدور قرصانى فى البحار وأن تعترض السفن القادمة إلى سورية والى بلدان أخرى** لانها تحمل أسلحة وصواريخ تهدد الأمن فى الشرق الأسط . اسرائيل هذه هى التى تتصرف كدولة عظمى توجه الأوامر للدول العظمى الأخرى وليس العكس . اسرائيل تريد أن تأخذ بالقوة عشرة آلاف مليار دولار من الولايات المتحدة وتريد منها أن تفرض حصاراً على العرب بالنسبة لمواضيع تحددها وفى الوقت نفسه تبحث مع الولايات المتحدة عن تطوير وتمويل صناعة صواريخ جديدة مضادة للصواريخ دون أن تهتم بالكيفية التى ستنفذ فيها الولايات المتحدة هذا الأمر الذى وجهته اسرائيل اليها دون أن تهتم بواقع أن الولايات المتحدة هى صاحبة مبادرة السلام فكيف يستقيم الأمر فى أن ترعى الولايات المتحدة محادثات السلام المستندة إلى مبادرتها المستندة بدورها إلى قرارات الأمم المتحدة وأن تضرب حصاراً حول سورية والدول العربية الأخرى . كيف يمكن أن توازن الولايات المتحدة بين ماترفعه شعاراً كبيراً من أن هناك عالماً جديداً هو عالم العدل وعالم الشرعية الدولية وعالم حرية الشعوب ومساواتها وبين أن تمنع صواريخ قادمة إلى سورية ، وانا اقول لكم إن كل ماتسمعونه حتى الآن ليس صحيحا وهذه البواخر التى يتحدثون عنها لاتحمل صواريخ إلى سورية نحن لدينا صواريخ وسنجلب صواريخ حسب حاجتنا .

تجريد العرب من السلاح

كيف ستوازن الولايات المتحدة إذا افترضنا أنها ستنفذ الأمر الاسرائيلى بين أن تقوم بمصادرة أو منع سفن قادمة إلى سورية لانها تحمل السلاح سواء أكان صواريخ أو غير ذلك بينما مصانع اسرائيل تصنع بشكل يومى كل أنواع السلاح، وبينما تصنع اسرائيل السلاح بأموال الولايات المتحدة،وبينما تستفيد اسرائيل من صناعة هذا السلاح والصواريخ فى المقدمة وخاصة الصاروخ الذى سموه/ ارو/ أى السهم بالتعاون والاستفادة من تكنولوجيا وأموال الولايات المتحدة ، **كيف يمكن أن يفتح الباب للاسرائيليين كى يصنعوا السلاح بأنواعه وبدون أية حدود وتحاصر سورية ويمنع عنها الاستيراد**، انظروا إلى هذا التضليل ، إلى هذا التزييف .. الحد من السلاح عنوان منع الصواريخ من القدوم إلى سورية ، الحد من السلاح، فى هذه الحالة يعنى تجريد العرب من السلاح إذا كان هذا مايعنيه الحد من السلاح أى أن تمنع هذه الاجراءات السلاح عن العرب استيراداً والسماح للاسرائيليين تصنيعا فهذا فى نهايته تجريد للعرب من السلاح فكيف يستقيم هذا مع العالم الجديد الذى قيل إنه عالم الشرعية الدولية وأية شرعية هذه ، أنها شرعية الغاب ، شرعية الوحوش !

واذا فرض هذا الامر فهم يعملون على فرض الاستسلام وليس من أجل السلام ويعملون لفرض استسلام علينا وليس من أجل أن نحقق معا وجميعا سلاماً عادلاً وشاملاً كما جرى الاتفاق عليه فى حينه .

إذا كانوا يريدون الحد من السلاح فأول مايجب أن يفعلوه هو اغلاق المصانع الاسرائيلية التى تصنع القنبلة الذرية والصاروخ والالكترون والدبابة والمدافع والبارودة والمسدس وكل أنواع السلاح من صغيرها إلى كبيرها . إذا كانت كثرة السلاح تؤدى إلى الحرب والعالم لايريد هذا وكان الانسان بطبيعته ليس من هواة الحروب فإنه بطبيعته أيضا وبغريزته هاو ومحترف أن يعيد حقه واذا كانت كثرة السلاح ضمن عملية السلام فيجب أن يبحثوها فى موضوعية وعلمية ومنطقية، فليمنعوا التصنيع وليمنعوا الاستيراد ، عند ذلك قد يكون لنا ولغيرنا موقف آخر مختلف وقد تحترم هذه الشعارات التى نسمعها من أن العالم الجديد عالم عدل وإنصاف يتساوى فيه الناس فى كل مكان، ونتعاون مع هذا العالم،ولكن يخطىء من يعتقد أننا سنفرط بذرة من ارادتنا وقرارنا ، إننا نرفض أن تقسم الارادة والقرار إلى ذرات .

وأريد أن أذكر أننا تناولنا بحث السلاح فى لقاء مع مسئولين أمريكيين فى بداية الحركة التى قاموا بها وسميت آنذاك حركة سلمية من أجل تحقيق السلام ، وقلت للمسئول الأمريكى: نحن لانصنع مانحتاجه من السلاح واسرائيل تصنع ماتحتاجه

وفوق ماتحتاجه من السلاح ، فعندما يطرح الأمر يجب أن يطرح بشمولية وسترى رأينا آنذاك .

فقال : هذا يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أنا لا أستطيع أن أقول حتى الآن إن الولايات المتحدة تتفق مع اسرائيل فى مفاهيمها حول هذا الموضوع لأنه لاشىء ملموس لدينا ولكننا نرى وواضح أن اسرائيل تريد أن تدفع الولايات المتحدة والغرب عموما إلى الموقع الذى سيعيد المنطقة زمنا طويلا إلى الوراء فى كل زاوية فى زوايا الحياة والتاريخ المتعددة .

تحقيق السلام يحد من السلاح

نحن نريد الحد من السلاح وان كنت أعتقد أن الظرف الموضوعى المناسب للحد من السلاح هو تحقيق السلام ، وإذا أرادوه قبل تحقيق السلام فلنناقش على أساس شموليته وعدالته أما أن نمنع ، ولكى نمنع يجب أن لانعطى المصانع إلى الآخرين وقد يبدو هذا نظريا تماما ، إما أن يتاح لنا العرب واسرائيل التصنيع كاملاً وإما أن يمنع التصنيع كاملاً عن الجميع .

الأمر الآخر تسمعون كم تحدثوا عن سورية والسلاح الذى يأتيها ومن يسمع اذاعاتهم يتصور أننا استوردنا فى هذه الفترة أكثر من كل ماستوردناه فى تاريخنا من السلاح والأمر ليس كذلك بطبيعة الحال .. إن أضعاف أضعاف ماستوردناه لايساوى ماتعطيه الولايات المتحدة عسكريا لاسرائيل فى سنة واحدة لأن أمريكا تعطى اسرائيل كل عام مساعدة عسكرية كانت قبل العام الماضى ١٨٠٠ مليون دولار فكيف يمكن أن يمنعوا استيراد الصاروخ ولايمنعوا ثمن هذا الصاروخ الذى يأتى إلى اسرائيل هذه الـ/ ١٨٠٠/ مليون دولار سنويا هل هى استيراد أم تصدير من قبل الموازنة الأمريكية .. إن امكاناتنا لاتسمح بصرف هذه الأرقام الكبيرة . مهما صرفنا فقد نستطيع صرف مئات الملايين من جهدنا وعرقنا ، ومن جهد شعبنا وعرقه . أما هم فيصرفون من جهد المواطن الامريكى وعرقه **فى الوقت الذى سمعتم فيه تصريحات علنية لمسئولين أمريكيين زاروا المنطقة بما فى ذلك اسرائيل يقولون فيها :** إن فى الولايات المتحدة ملايين الناس لايحتاجون إلى الملايين بل يحتاجون إلى عدد قليل من الدولارات حتى أن روبرت دول ، وهو عضو فى الكونجرس الأمريكى ، صرح فى اسرائيل وكانت تطالب فى ذلك الوقت بـ ٤٠٠ مليون دولار بأنه فى الوقت الذى لدينا ملايين الأمريكيين ليس لهم بيوت . انهم يعطونهم من أجل أن يقيموا بيوتا لمهاجرين فى أوطانهم إلى المنطقة ويريدون اعطاءهم ثمن سلاح يستوردونه ويصنعونه فى اسرائيل من جهد وعرق المواطنين الأمريكيين ، هل هذه

ديمقراطية ؟! فى كل عام كانت المساعدة ثلاثة مليارات دولار . فى العام الماضى صرح الرئيس بوش انهم أعطوهم اربعة مليارات ، ولا أذكر تماما كم هو الرقم العسكرى لكننى أتصور أنه بحدود المليارين ونصف المليار مساعدة سنوية للمواد العسكرية ومع ذلك يقولون أن سورية استوردت وفعلت الكثير . إن موقف الاكثرية فى الغرب يبدو أكثر تفهما وفهما من الماضى للواقع العربى وواقع سورية وأكثر فهما أيضا للواقع الاسرائيلى ولنوايا اسرائيل ، نحن أعلنا مرات كثيرة ونعلن الآن أننا نريد السلام .

السلام الذى يعيد الأرض ويعيد الحقوق وينشر الأمن فى المنطقة وأقل من ذلك هو استسلام ولن تستطيع قوة فى الدنيا أن تفرض علينا الاستسلام أبداً .

السلام ليس قضية بيع وشراء ولن يكون على حساب الأرض

لم يترك الرئيس حافظ الأسد مناسبة تمر دون أن يحدد رؤيته لمفهوم السلام المقبول ، فالسلام فى رأيه ليس قضية بيع وشراء ولن يكون أبداً على حساب الأرض .

الرئيس الأسد يرى أن عملية السلام التى بدأت مازالت تتعثر فى الطريق ، وهذا لم يكن غير متوقع، وعندما طرحت مبادرة السلام الامريكية وافق عليها لانها تنسجم مع قرارات الامم المتحدة ، وعلى اساس تنفيذها وهذا ماكان يؤكده ، وخاصة منذ عام ١٩٧٣ حيث كان يطالب باستمرار بتحقيق السلام العادل على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ وقراره رقم ٢٤٢ ، والذى هو بند من بنود القرار ٣٣٨ ، وكثيرة هى الدول والجهات الاجنبية التى اظهرت اهتماما بالسلام خاصة فى هذه المنطقة فى السنين الماضية وكانت تتحدث بالأمر ، وكان الرئيس الاسد يؤكد أننا نريد السلام ونسعى إليه ، « ولكن اقتناعنا أن قادة اسرائيل لايريدونه ، ولايرغبون فيه بل يريدون احتلال الأرض العربية لتنفيذ مخططهم التوراتى ، كما أننا فى أحاديثنا وتصريحاتنا مع مسئولى الدول الذين زارونا أو زرناهم كنا نؤكد هذه المعانى ، وعندما طرحت الولايات المتحدة مبادرتها ، ونصت على أن الحل سيقوم على أساس القرارين الدوليين المعنيين ، ومبدأ الأرض مقابل السلام ، وعقد مؤتمر دولى ، برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى آنذاك ، وهو الذى عُقد فى مدريد ، وأكدت الادارة الامريكية على جديتها فى جميع المناقشات التى أجريت بيننا وبينها .. على أساس كل هذا قلنا نعم لهذه المبادرة ، وبدأت لقاءات الوفود العربية والاسرائيلية ، ومازالت قائمة ، ولكن حتى هذه اللحظة لم تقدم اسرائيل شيئا جديدا يفتح طريق السلام ..

وما يقولونه اليوم ويسمونه جديداً سمعناه منذ زمن بعيد ، فهم يقولون إنهم يوافقون

الآن على القرار ٢٤٢ ويعتبرون ذلك جديدا فى موقفهم ، وحقيقة الأمر أن هذا ليس جديدا ، فقد وافقوا عليه بعد صدوره فى عام ١٩٦٧ وتعاملت اسرائيل مع مبادرات دولية ، ومع جهود دولية قامت على أساسه ، وعلى سبيل الذكر لا الحصر كان الوسيط الدولى « جونار يارنج » قد قام بعدة جولات واتصالات بتكليف من مجلس الأمن بين اسرائيل وعدد من دول المواجهة العربية لتنفيذ هذا القرار ، كما كانت هناك مبادرة « روجرز » ومبادرة « شولتز » وزيرى خارجية الولايات المتحدة فى أوقات متباعدة ، كل هذه المبادرات والمساعى وغيرها كانت على أساس القرار ٢٤٢ ، فأين هو الجديد عندما يقولون نوافق الآن على القرار ٢٤٢ ؟ ثم **قالوا: انهم يمكن أن ينسحبوا جزئيا من الجولان، وأن هذا جديد كما قالوا**، وكما تقول معهم ، وتردد بعض الدول ، ولكن هذا الجديد سمعناه قولاً ، وطبقناه على الأرض منذ عام ١٩٧٤ فى اطار اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية بعد حرب الاستنزاف والتى كانت امتدادا لحرب تشرين وبنى هذا الاتفاق كما ورد فى نصه على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ والذى يشكل القرار ٢٤٢ جزءا منه ، وبناء على هذا الاتفاق انسحبت القوات الاسرائيلية جزئيا من الأرض السورية المحتلة فى الجولان مع العلم أن اتفاق فصل القوات ليس اتفاقية سلام حيث ورد بند خاص فى الاتفاقية يقول : « هذه الاتفاقية ليست اتفاقية سلام بل هى خطوة نحو سلام عادل ودائم .. استنادا إلى قرار مجلس الأمن ذى الرقم ٣٣٨ المؤرخ فى ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٧٣ » ، مع العلم أن هذه الاتفاقية وقعت فى ٣١ أيار ١٩٧٤ فى جنيف تحت رعاية الأمم المتحدة وباشتراك ممثلين للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وهذا يوضح أن الانسحاب الجزئى ليس جديدا وأن الانسحاب الجزئى لايحقق السلام وإنما هو خطوة نحو السلام كما نصت الاتفاقية . **فهل تجرى المباحثات الآن حول تحقيق السلام أم حول خطوة أخرى نحو السلام؟**

الانسحاب الجزئى لايحقق السلام

ويوضح نص اتفاقية الفصل ان السلام يتحقق على أساس القرار ٣٣٨ وضمنه القرار ٢٤٢ وهو لايقضى بانسحاب جزئى يشكل خطوة نحو تحقيق السلام ، وإنما بانسحاب من جميع الأجزاء التى تشكل جميع الخطوات التى تحقق السلام ، وأن الانسحاب الجزئى يشكل خطوة نحو السلام ، ولا يحقق السلام .

بعد هذا أين هو الجديد فيما يطرحونه؟ ويسأل الرئيس الأسد:

أين هو الجديد الذى يشير الى جديتهم فى السلام؟ إننى لا اريد أن استطرد فى مناقشة ماطرحوه وإن كنت قد اشرت إلى اهم نقطتين وردتا فى طرحهم لكننى أقول إننا نريد السلام ، وكنا نقول ذلك ونردد منذ حوالى عشرين عاما ، ولكن السلام ليس قضية

بيع وشراء ، بل هو حقوق والتزامات ، حقوق يجب أن تعود إلى أصحابها كاملة دون أى تفريط ، والتزامات فى الأمن والسلام يجب أن يقوم بها جميع الأطراف على الا يكون أمن أى طرف على حساب الطرف الآخر .

وعلى أية حال نحن سنتابع عملية السلام مادمنا قد بدأناها ، ولكن ليس بدون نهاية ، واذا كانت اسرائيل جادة فى السلام فلابد أن تستجيب لقرارات الشرعية الدولية وميثاق الأمم المتحدة ، ورغم رغبتنا الاكيدة فى السلام فلن يكون أبداً على حساب الأرض لأن العرب ـ وشعب سورية فى الطليعة ـ ليسوا ممن يفرطون بأرضهم مهما طالت السنون ، وتعاقبت العقود والأجيال ، لأن الأرض هى الأغلى ، هى الكرامة ، هى الوطن» .

التضامن العربى ضرورة حيوية لاستمرارية الأمة

يرى الرئيس حافظ الأسد أن الظروف التى تمر بها الأمة العربية فى الوقت الراهن والتحديات الكبيرة التى تبرز أمامها تجعل من التضامن العربى الذى ينطلق من وحدة المصير ويستند على التعاون والتساند والتعاضد، ضرورة حيوية لاستمرارية الأمة ، ومقارعة التحديات التى تهدد كيانها ووجودها ، وتهدف اخضاعها واستنزاف خيراتها وثرواتها ، وفى اعتقاد الرئيس حافظ الاسد أن من أكبر التحديات التى تهدد الكيان القومى هى مظاهر التبعثر والتشتت والسعى الحثيث لتحقيق مصالح قربية وضيقة لا تتماشى والمصلحة القومية الواحدة ، وتأتى محاولات السيطرة والهيمنة على الثروات القومية العربية من قبل الآخرين لتضيف إلى مصادر التهديد مصادر جديدة لاشكال وأساليب جديدة قلّما عرفت فى السابق . ويرى الرئيس الأسد انه اذا أردنا أن نكون فى مستوى المسئولية ، وفى مستوى الظرف فإن فى التضامن العربى مسلكا وطريقا صحيحا نجنى ثماره جميعا .

الذى أشار إليه الرئيس حافظ الأسد يؤكده التاريخ ، حيث كانت انجازات العرب الكبرى فى تاريخهم مقرونة بمظاهر وفاعلية التضامن والتعاون والتماسك عبر المراحل التاريخية الطويلة ، بينما كانت ملامح التراجع والتقهقر جلية وواضحة كلما برزت مظاهر التشتت والتبعثر ، وكل هذا يدعونا إلى التأكيد على أنه بالتضامن العربى يتم تجاوز الأزمة ويتم تجاوز الظروف الصعبة التى تجابه الأمة خاصة والعالم يسير اليوم فى طريق يختلف عما كان يسيره فى الماضى ، لقد أصبحت القضايا الدولية اليوم على غير ماكانت عليه فى السابق وإذا كان التضامن العربى ضرورة ملحة للعرب وضرورة حيوية للمصلحة القومية فإن هذه الضرورة تصبح أكثر إلحاحاً وأكثر حيوية عندما نعلم أن هذه التحديات تهدد فعلا كياننا القومى ، ووجودنا بكليته ، وعلى جميع العرب أن يدركوا انهم جميعا فى خطر ولا استثناء فى ذلك قطعا .

المصير الواحد للأمة

يشير الرئيس حافظ الأسد إلى أنه عندما تتكلم سورية عن التضامن العربى فإنها تنطلق من رؤية متكاملة الأبعاد تعتمد بالدرجة الأولى على المصير الواحد للأمة العربية وتستند الى تراث أصيل حقق فيه العرب عندما اتحدوا انتصارات ساهمت فى تقدم الحضارة الانسانية ، وتلك العلاقة بين الماضى وماهو منشود فى المستقبل يجب الا تشوهها أزمات تعتبر فى سياق التاريخ الانسانى أزمات عارضة .

التضامن العربى كما يراه الرئيس الأسد .. فعل إيجابى دوره فى السلم يماثل دوره فى مرحلة التصدى للعدوان وهو فى الحالتين ضرورة قومية وانسانية وحضارية ، فالأمة العربية ساهمت فى الماضى فى بناء صرح الحضارة الانسانية ، بل وضعت الأساس الذى قامت عليه حضارة اليوم ، وليس هناك مايمنع لابحكم المنطق ، ولابحكم الواقع أن تنهض من جديد ، وتعزز اسهامها الخلاق ، بل يجب أن تفعل ذلك . لأن طاقة الأمة العربية كبيرة ومتنوعة فهى تملك طاقات روحية وطاقات مادية ، طاقات تستند إلى التاريخ والجغرافيا ، تستند إلى الأرض ماعليها ومافيها ، تستند إلى الانسان العربى بجماهيره الواسعة والقادرة على العطاء والتضحية عندما يقتضى الأمر والايمان يتأكد يوما بعد يوم يتأكد ويتعمق بأن الامة العربية ستعود ثانية لتبعث عزتها وتبنى حضارتها ، وتساهم بقوة فى اغناء الحياة البشرية .

السلام الشامل هو الهدف

□□ فى حديثه إلى بعثة مجلة « تايم » الامريكية والذى نُشر بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٩٢ ، أوضح الرئيس الاسد عدة **حقائق تتصل برؤيته للسلام مؤكداً أن السلام الشامل هو الهدف ، وأن سورية لن تتخلى عن شبر من الجولان** ، وأن الحل الوسط فى موضوع الأرض غير وارد ، وأن الصواريخ السورية ليست جديدة ، ولدى اسرائيل كل يوم سلاح جديد ، كما أكد الرئيس الأسد أن اسرائيل تعرف أن **الجغرافيا لاتحقق الأمن** ، وأشار إلى أن الترتيبات الامنية يجب أن توفر الأمن لكلا الجانبين . **وأن السلام لايقوم على حساب أراضى الآخرين** ، وأن الاتفاقيات المنفردة لا تحقق السلام ، وأنه لايوجد سورى واحد يقبل بسلام يترك جزءاً من الجولان بيد اسرائيل ، وأن اسرائيل سباقة فى التسلح ، وقال : اننا مستعدون للسلام شرط التوازن ، مقدراً جهود الرئيس بوش والوزير بيكر ومتوقعا من الرئيس كلينتون دعم عملية السلام . **ونظراً لأهمية هذا الحديث فإننا نورد تلخيصا وافيا لما جاء فيه .**

● **أولا** : عندما قيل للرئيس حافظ الأسد بأن هناك فرصة فى الأفق لمصالحة أو عقد اتفاق

بين العرب واسرائيل أو بين سورية واسرائيل على وجه الخصوص وماهو رأيه فى اقتراح اسحاق رابين باللقاء معه على مستوى القمة قال الرئيس الأسد : المطلوب هو السلام ، والهدف هو السلام والسلام يحتاج إلى مناقشات طويلة ومضنية وهذه لايمكن أن تقوم بها لقاءات القمة فى بلدان العالم .

ولذا يمكن القول بأن مثل هذه الاقتراحات والأمور ، إذا وقعت فتقع نتيجة للسلام ، فالسلام يأتى بها وليست هى التى تاتى بالسلام .

إن لقاء رؤساء الدول لمناقشة موضوع كالصراع العربى الاسرائيلى يحتمل أن يقود إلى حروب ، فاحتمال أن يقود إلى حروب هو احتمال يتساوى مع احتمال أن يقود إلى السلام بل ويزيد عليه » .

وعندما قيل للرئيس الأسد ألا تشعر بالفضول للاجتماع برابين وأن تتقابلا عينا لعين ورجلا لرجل ؟

أجاب الرئيس الأسد ضاحكا : « هل هناك صلات انسانية غير مرئية ؟ هل هناك شيء من الاشعاع مثلا يمكن أن يكون بين الأعداء ؟ نحن أعداء نتحارب منذ أكثر من أربعين عاما ولدينا ركام من الشهداء والأموال والدماء والممتلكات المدمرة ، وهناك أراض محتلة وملايين المهجرين من بيوتهم ، فى ظل هذه الصورة **هل يمكن أن يتصور أن تكون هناك جاذبية لمثل هذا اللقاء ، أنا لا تساورنى الرغبة أو عدم الرغبة فى اللقاء بل يحدد سلوكى أو قرارى الهدف ، والهدف هو السلام »**.

وعندما سئل الرئيس الأسد : كيف يمكن للقاء مبكر سابق لأوانه مع رابين أن يؤدى إلى حرب .

قال الرئيس الأسد : « عندما نختلف على مستوى القمة فيمكن عندها أن نزد كل الاحتمالات السلبية . عندما يختلف المتفاوضون على مستويات أخرى ، فهناك قيادات وحكومات توجه ، ولكن عندما يكون الخلاف على مستوى الرئاسات فلايوجد مَنْ يُصلح هذا الأمر » .

فرص السلام أفضل

عبر حديثه لمجلة « تايم » **أكد الرئيس الأسد أيضا أن فرص السلام الآن أفضل مما كانت عليه قبل بضع سنوات بسبب المناخ الدولى ، ونمو وازدياد عدد الراغبين فى السلام داخل اسرائيل.**

حقيقة أخرى : أوضحها الرئيس الأسد وهى « أن الأعمال الفردية والاتفاقات المنفردة لاتحقق السلام ، بل قد تحقق عكس السلام الذى نريده ، ويجب ألا ننسى أن جهودا

كبيرة ومضنية قد سبقت البدء فى عملية السلام كما سبقتها أيضا مبادرة على أساسها حدثت كل المناقشات .

إن المبادرة وأسس العملية السلمية التى أتفق عليها هى التى يجب أن تكون مرشدة الأطراف المشتركة فى عملية السلام كافة . أما إذا تركنا الأسس التى أُتفق عليها ، وسرنا بمعزل عنها فإن الأخطاء ستكون كبيرة ولن نصل إلى السلام .

ومن أهم أسس عملية السلام أن نسعى جميعا إلى سلام شامل .. نحن نريد أن ننتهى من الحروب ، وأنا أستغرب ، وما أستغربه واقع ، أستغرب أن يكون أحد الأطراف يريد أن نقطع السلام قطعا قطعا ، قطعة الآن ، وقطعة بعد عشر سنين .

ثانيا : لقد حدثت لاحقا بعد العملية المنفردة حروب فى المنطقة ومنها غزو اسرائيل للبنان . **ما الفائدة من أن نحل مشكلة يخلق حلها مشكلة قد تكون أكبر وأخطر منها ؟**

عندما تقول سلاما شاملاً ، فذلك لايعنى أن يضع كل واحد كتفه على كتف الآخر ، وأن يسيرا معا كما يسير الجنود فى العرض العسكرى . ولذلك هناك لجان ثنائية ، فعلى كل جبهة توجد بعض الخصوصيات اقتضت تشكيل هذه اللجان ، ويمكن أن يتقدم الواحد قليلاً وأن يتأخر عنه الآخر قليلاً ، ولكن يجب الا يكون هذا مقصودا بمعنى الا يُقال للآخر انتظر لأن يأتى دورك » .

وعندما سئل الرئيس الأسد عن الخلاف بين فصائل المقاومة وبالتالى **كيف يمكن الوصول إلى نقطة يكون فيها الجميع راضين ؟** .

قال الرئيس الأسد : « الحل الشامل هو الحل والعلاج لهذه المشكلة لأننا عندما نسير فى الحل الشامل نقدر أن مجموعة الذين يريدون السلام ضمن هذه الشمولية من العرب هم أكثر من الآخرين ، وهذا فى حد ذاته يفرض مرة أخرى أن يكون السلام شاملاً .

وهناك شىء آخر بديهى تعرفونه فنحن العرب من أصول واحدة ولسنا أمما متفرقة ، ولغتنا واحدة ، وتاريخنا واحد ، وآمالنا واحدة . وعندما يقع حادث فى الجزائر وعلى الرغم من البعد الجغرافى يكون له صدى مباشر فى دمشق ، وكذلك فى البلدان العربية الأخرى وبالتالى فعندما يُخطىء رئيس سورية مثلاً يتخذ المواطن العربى فى الجزائر أو فى المغرب وفق قناعاته موقفا من رئيس سورية ويتصرف وكأن له الحق فى أن يحاسب رئيس سورية وكأى مواطن سورى ، إن التأثير المتبادل بيننا نحن العرب كبير جداً » .

وعندما وجه إلى الرئيس الأسد سؤال يقول : إذا لم تقدموا إلى الاسرائيليين شيئا فكيف تتوقعون منهم الموافقة على سلام شامل .

قال الرئيس الأسد : « الاسرائيليون منذ عام ١٩٤٨ يصرخون قائلين : انهم يريدون السلام ، ونحن نعطيهم السلام لذا فإنهم يأخذون الكثير إذ طالما كرروا ويكررون أنهم طلاب سلام **ثم ماذا يمكن أن نعطيهم ؟**

اذا اختلفت الولايات المتحدة مع دولة ما وتحاربت معها ثم جاءت هذه الدولة تطلب السلام مع قطعة من أرض الولايات المتحدة . فهل تقبلون ذلك ؟

السلام لايقوم ويجب الا يقوم على حساب الغير ، وماالذى يحفز العرب للعمل من أجل السلام إذا كان السلام سيقدم اراضيهم لاسرائيل ، هناك نصف مليون مهجر من الجولان كيف يمكن ان تقنعهم بأنه يجب أن نعطى جزءاً من الجولان لاسرائيل .

العالم كله ، والولايات المتحدة فى المقدمة،يتحدث عن الشرعية الدولية ، ويقولون إن العالم الجديد هو عالم الشرعية .

إن القانون الدولى الأساسى ، أعنى ميثاق الامم المتحدة يمنع إحتلال أراضى الغير ولايوجد أى مبرر اخلاقى او قانونى أو سياسى ولا أى مبرر آخر لأنه يقدم العرب أرضهم إلى اسرائيل كى توافق على السلام وإلا فكل دولة يكون عندها شيء من القوة فى مرحلة من المراحل تأخذ أجزاء من دولة أخرى أو تأخذ الدولة كلها وإذا أريد إجراء مفاوضات فعلى أساس حل وسط عندها كل دولة تأخذ جارتها ويتحول العالم إلى غابة .

وعندما قيل للرئيس الأسد : هل معنى ذلك أن استعادة الجولان لا تكفى لإعطاء اسرائيل السلام . قال الرئيس الأسد : « لم ندخل فى التفاصيل سابقا ، ولا نريد الدخول فيها الآن .. المهم هو أن يكون هناك اقرار من الجميع بما ورد فى الأساسيات التى تقرر قبل بدء عملية السلام ، أن تقوم على أساسها عملية السلام ، ونعنى شمولية الحل .

يجب أن يكون لدى كل الأطراف اطمئنان إلى أننا سائرون إلى الحل الشامل ، بعد هذا كل لجنة من اللجان لها خصوصية عملها .

وجميع الأطراف العربية يهمها أن تطمئن إلى أن السلام الشامل هو الآتى .

وهذه الأطراف تدرك أن هناك بعض الخصوصيات لكل مسألة من المسائل .

إذا كان الاطمئنان موجودا فيمكن لطرف أن يتقدم بسرعة اكبر ، وآخر بسرعة أقل » .

موضوع القدس خطير

ورداً على سؤال حول القدس قال الرئيس الأسد:« على الجميع أن يعلموا أن موضوع القدس بالذات هو موضوع خطير . إن القدس موضع اهتمام الف مليون مسلم فى العالم .. الايرانى والباكستانى يعتقد ولأسباب دينية أن له فى القدس كما للفلسطينيين والعرب . إن المشكلة معقدة ، والوضع البشرى معقد أيضا .

ولو أراد بعض العرب التخلى عن موضوع القدس ـ وهو أمر لم يبحثه أحد معنا ـ فسيكون هناك مَنْ يقف ضده بكل الوسائل المتوافرة ، وليس من العرب فقط بل كذلك من المسلمين فى العالم ، ومن المسيحيين وخاصة من المسيحيين العرب ، وموقف المسيحيين فى مصر معروف . لقد امتنعوا عن زيارة الأماكن المسيحية المقدسة أى امتنعوا عن الحج إلى القدس فى ظل الاحتلال .

إن المشكلة معقدة ، والمفاوضون لم يصلوا بعد إلى هذه المرحلة إلا أن هذا لايعنى أن هناك شيئا يستعصى على الحل ، هناك محادثات ، وقد تخلق ظروف تساعد على الوصول إلى حل » ..

لاحل وسطا فى موضوع الأرض

وردا على سؤال حول امكانية حصول تسوية أو حل وسط أثناء السير نحو الحل الشامل قال الرئيس الأسد: «ليس هناك امكانية لحل وسط فى موضوع الأرض ، هذا أمر تعرفه الادارة الأمريكية ومدون على الورق ، ويعرفه الاسرائيليون أيضا .

وفى سورية لايستطيع أحد أن يتنازل عن شبر واحد من الأرض . إن من يتنازل عن جزء من أرضه أو يفرط فى جزء من وطنه هو خائن للشعب ، وهذه بديهية يؤمن بها كل مواطن سورى ، وحينما يحكم الشعب على واحد بأنه خائن فمصيره معروف . وأنا عندى هذه القناعة ، ولذلك أقول : إن الحل الوسط فى موضوع الأرض غير قابل للنقاش ، وغير وارد عندنا .

ولو تجولتم فى سورية من أقصاها إلى أدناها لما وجدتم سورياً واحداً يقبل بسلام يترك جزئية واحدة من الأرض فى يد اسرائيل ، وفى أسس السلام إن الحل يجب أن يؤمن الأمن لجميع الأطراف ، وهذه النقطة من النقاط غير الكثيرة التى أتفق عليها فى المحادثات أى أن الترتيبات الأمنية يجب أن تؤمن الأمن لكلا الجانبين .

وفيما يتعلق بالوسائل والطرق لتحقيق الأمن لاتوجد صعوبات كبرى لايمكن تذليلها .

ومن ناحية الأمن .. الاسرائيليون أنفسهم يعرفون وعندهم قناعة بأن الجغرافيا لاتحقق الأمن ، وهذا ماجرى الحديث حوله بين الوفدين ، ولايوجد أحد لايعرف أن عمق عشرين كيلومترا من الأرض لايحقق الأمن .

الاسرائيليون مقتنعون منذ زمن طويل بأن الجغرافيا لاتحقق الأمن لهم منذ أن احتلوا الجولان ووفدنا فى المباحثات يسمع منهم كلاما بهذا المعنى .

لقد قالوا سابقا بعد عام ١٩٦٧ أنهم أخذوا الجولان ليبعدوا السوريين عن المستوطنات الاسرائيلية فهل حققوا ذلك ؟ لقد تقدموا عشرين كيلومترا ولكن مدى المدافع ، ومنذ سنين طويلة هو أبعد من ذلك بكثير أى أنهم لم يحققوا الهدف الذى قالوا أنهم يسعون إليه . إن احتلال الجولان لم يحقق الأمن لهم .

لقد احتلوا الجولان لابعادنا عن المستوطنات كما قالوا إلا أنهم جاءوا بمستوطنات جديدة ، وأقاموها على بعد كيلو متر واحد أو كيلو مترين عن القوات السورية ، وهذا يعنى أنهم لم يحتلوا لابعادنا عن المستوطنات ، ولو قُبل منطقهم لكان لهم الحق

الآن فى أن يبعدونا عن هذه المستوطنات الجديدة ليبنوا مستوطنات جديدة أخرى وهكذا إلى مالانهاية ، وهذا المنطق مرفوض .

حرص الرئيس حافظ وهو يجيب على أحد الاسئلة عما إذا كان يساوره شيء من القلق بالنسبة لموقف الرئيس الأمريكى الجديد كلينتون من محادثات السلام فى المنطقة،حرص على أن يؤكد على أنه لايشعر بالقلق لاعتقاده «بأن أى رئيس أمريكى عندما يطلع بموضوعية على الوضع فى الشرق الأوسط ، ويدرك مصالح الولايات المتحدة ، ويكون نصيراً للسلام ، ويحس بمسئولية الولايات المتحدة،لابد أن يعمل من أجل السلام ، وبقدر ماتتنامى هذه العوامل ، تكون حماسة الرئيس الامريكى للعملية السلمية ويقول الرئيس الأسد : لذلك أفترض أنه عندما يأتى رئيس للولايات المتحدة فيجب أن يكون مع السلام إلا أن درجة الحماسة تختلف أحيانا ، وأشار الرئيس الأسد إلى تقديره لكل الجهود التى بذلتها ادارة الرئيس بوش بالرغم من أنها لم تصل إلى نهايتها بسبب إنتخابات الرئاسة الامريكية مؤكدا أننا سنحتفظ فى المنطقة بتقدير للرئيس بوش والوزير بيكر .

ونحن نفهم الظروف التى تمكن من دفع عملية السلام بوتيرة أسرع . إنهم فيما عملوه كانوا يخدمون بالدرجة الأولى الولايات المتحدة الأمريكية وعملية السلام فى نفس الوقت تخدم الجميع ، وإذا كان الرئيس المنتخب بيل كلينتون فى مثل حماستهم لعملية السلام فسوف يلقى تقدير شعوب المنطقة ، أما إذا لم يكن مع عملية السلام ، وهذا مانستبعده نظراً لتصريحاته التى يؤكد فيها الحرص على متابعة ودفع عملية السلام فسوف يقف كل شيء فى مكانه والمنطق يدفعنا للقول بأن عملية السلام يجب أن تلاقى الدعم وهذا ما نتوقعه » .

وبعد

إن الرئيس حافظ الأسد بطبعه ، وبطبيعته يميل نحو التفاؤل، والسلام الشامل هدف سعى إليه منذ زمن طويل ، ولتأكيد هذه الحقيقة يمكن العودة إلى أحاديث الرئيس الأسد وخطاباته فى الزيارات المتبادلة مع رؤساء الدول .

كل خطاب كان فيه حديث عن الشرق الأوسط ولم يكن هناك خطاب لم يقل فيه أن سورية تريد السلام على أساس قرارى الامم لمتحدة ٣٣٨ و٢٤٢ ومؤتمر سلام .

منذ عام ١٩٧٣ وافقت سورية على قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ وعلى أساس هذا القرار وقفت الحرب ، ومادامت قد وافقت على هذا القرار منذ ذلك الوقت فقد وافقت على السلام أيضا لان هذا القرار ، وفى صلبه القرار ٢٤٢ يتحدث عن السلام .

إذن الموقف السورى من السلام ليس جديداً .. قد تختلف اللهجة أحيانا ، ولكن المبدأ هو نفسه دائما ، ولذلك عندما جاءت مبادرة الرئيس الامريكى جورج بوش مستندة

الى هذين القرارين ، ومبدأ الأرض مقابل السلام وافق الرئيس الأسد عليها ، بينما رفضت اسرائيل هذه المبادرة ..

لقد بعث شامير برسالة إلى الرئيس بوش قبل أن تجيب سورية على المبادرة ، يرفض فيها المبادرة بينما بعثت سورية برسالة اعلنت فيها قبول المبادرة .

واسرائيل لاتقول حتى الآن انها وافقت على المبادرة الأمريكية . ورغم الجهد الأمريكى الذى بذل لاقناع شامير فإنه لم يعط للامريكيين كلمة واحدة ، عدا أنه وافق على الذهاب إلى مدريد ، وهذا ماصرح به هو نفسه بعد الانتخابات .. إنه لم يكن يريد السلام ، بل كان يريد أن يسالمه العرب وأن يبقى كل شىء على حاله ، اى أنه كان يريد من العرب أن يتركوا له أرضهم وأن يوقعوا على سلام مع اسرائيل .

ومن المؤكد أن الشهور القليلة القادمة سوف تكشف مدى جدية اسرائيل .. إن اسحاق رابين يتحدث عن السلام ، وعن انسحاب جزئى ، وبمنطق مختلف وبلهجة مختلفة عن لهجة شامير ، ولكن إذا بقى عند هذا المنطق فالنتيجة لن تكون السلام لأن سورية لايمكن أن تتنازل عن أرضها ، وكل الشواهد تؤكد أن رابين سيخسر ناخبيه إذا لم يوافق على الانسحاب الكامل من الجولان . وهناك أحزاب وحاخامات فى اسرائيل وبينهم الحاخام الأكبر يدعون إلى الانسحاب من الجولان ويقولون إن الجولان ليس من أرض اسرائيل والحكومة الاسرائيلية اجتمعت عام ١٩٦٧ ، وقررت الانسحاب من سيناء والجولان وبقية الأراضى المحتلة إذا تحقق السلام .

ثوابت الشعب والقائد السورى

وأخيرا :

فإن سورية لم تكف فى يوم من الأيام عن توضيح وتأكيد موقفها تجاه السلام الذى التزمت به بعملية السلام القائمة على القبول بالمبادرة الأمريكية المستندة الى القرارين ٣٣٨ و٢٤٢ ، بما يضمنانه من عدل وشمول فى الحل المنشود ، ولم يدع الرئيس حافظ الأسد مناسبة تمر إلا وتحدث فيها بكل الوضوح والثقة عن الموقف الذى يعبر عن ارادة شعبه السورى وأمته العربية ، والثوابت الوطنية والقومية التى لايمكن المحيد عنها ، وكما أكد من قبل أن الاستسلام بعيد عن مبادئه ، وأن السوريين طلاب سلام عادل وشامل يعيد الأرض والحقوق ، وأنه واهم أو متواهم كل من يظن أن سورية يمكن أن تتخلى عن شبر واحد من أرضها ، كما جدد ذلك الرئيس الأسد فى حديثه الشامل لمجلة تايم الأمريكية ثوابت الموقف السورى الذى يجسد إرادة الشعب السورى وتطلعات الأمة العربية .

السلام هو الهدف، ولكنه السلام العادل والشامل وهو ـ كما سبق القول ـ موقف ليس جديدا بل يعود إلى تاريخ قبول سورية بالقرار ٣٣٨ الذى توقفت على أساسه الأعمال القتالية فى حرب أكتوبر/ تشرين ١٩٧٣ ، وهو المتضمن القرار ٢٤٢ ، وهما القراران اللذان انطلقت منهما مبادرة الرئيس الامريكى جورج بوش ووافقت سورية عليها ودخلت على أساسها عملية السلام .

وكما سبق القول ايضا فإن شمولية الحل كانت ولاتزال وستبقى أساس عملية السلام ، وجميع الأطراف العربية يهمها ، بنفس درجة اهتمام الرئيس الأسد أن تطمئن إلى أن السلام الشامل هو الآتى ، كذلك فإن عدالة الحل كانت ولاتزال وستبقى أساس عملية السلام لأنه لاسلام مع استمرار احتلال الاراضى العربية ، والسلام ـ كما قال الرئيس الأسد ـ يجب الا يقوم على حساب أراضى الأخرين ، فضلاً عن انه لا يوجد مبرر أخلاقى أو قانونى أو سياسى ولا أى مسوغ آخر لأن يقدم العرب أرضهم إلى اسرائيل كى توافق على السلام .

والعدل والشمول هما أساس الحل لأن المواقف العربية الجماعية هى التى تحقق السلام عبر طريق يشعر المواطن أنه طريق يحفظ الكرامة .

وأما ما تناور اسرائيل من خلاله وتدعيه حول امنها فهو لايصح فى أى حل يستند إلى جوهرى العدل والشمول فأولاً « **الترتيبات الأمنية يجب أن تؤمن الأمن لكلا الجانبين** » لأن احتلال اسرائيل للأرض العربية هو عدوان ، ولاسلام مع استمرار العدوان ، فضلاً عن المغالطة التى تستند إليها الدعاية الإسرائيلية لتبرير الاستمرار فى احتلال الجولان فاسرائيل ادعت الدفاع عن المستوطنات الصهيونية لتسويغ احتلال الجولان ، ولكنها ـ كما قال الرئيس الأسد ـ شيدت مستوطنات جديدة على أرض الجولان ، وعلى بعد عدة كيلو مترات من القوات السورية .

وفضلاً أيضا عن الحقيقة التى بات الجميع يعرفها وهى أن الجغرافيا لاتحقق الأمن ، فإنه ليس هناك امكانية لحل وسط فى موضوع الأرض « فلايستطيع أحد فى سورية أن يتنازل عن شبر واحد من الأرض » ، و« الحل الوسط فى موضوع الأرض غير وارد » .

تلك هى سورية ، وتلك هى مواقفها الثابتة من عملية السلام ، لاتفريط فى ذرة تراب واحدة من أرض الوطن ولا مساومة على حق من حقوق الوطن والأمة والشعب السورى الأبى هو شعب يثق فى قائده ، ويقف وراءه فى معارك الحرب والسلام لأنه القائد الذى يدرك هموم شعبه وأهدافه وتطلعاته وكل رهاناته نابعة من ارادة الشعب الصامد ، والتى

صاغها الرئيس الأسد فى حديثه إلى بعثة مجلة تايم الأمريكية عندما قال لهم :

لن تجدوا سوريا واحداً يقبل بسلام يترك جزءاً من الأرض فى يد اسرائيل.

ولعل اسرائيل التى ماطلت وتعنتت ورقصت على الحبال خلال عام كامل لعلها تسمع جيدا ما أعاد الرئيس حافظ الأسد تأكيده عن سلام المنطقة ، ولعلها تقتنع وتسارع لاعادة حساباتها ، قبل أن تقف عارية أمام العالم وحيدة بعصيانها الشرعية الدولية.

أهم المراجع

١ ـ الشام فى صدر الإسلام .... دكتورة نجده خماش
٢ ـ تاريخ سورية .... دكتور على سلطان
٣ ـ سورية ١٩١٦ ـ ١٩٤٦ .... وليد المعلم
٤ ـ حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس .... د. سهيل زكار
٥ ـ تطور الحركة الوطنية فى سورية .... ذوقان قرقوط
٦ ـ النظم السياسية .... د. كامل ليلة
٧ ـ الطريق إلى رمضان .... محمد حسنين هيكل
٨ ـ ملفات السويس .... محمد حسنين هيكل
٩ ـ يوم ميسلون .... ساطع الحصرى
١٠ ـ ثورات العرب فى القرن العشرين .... امين سعيد
١١ ـ لبنان وسورية .... جوزيف ابو خليل
١٢ ـ الأسد الصراع على الشرق الاسط .... باتريك سيل
١٣ ـ حافظ الأسد مسيرة مناضل .... لوسيان بيترلان
١٤ ـ السلام المفقود .... كريم بقرادونى
١٥ ـ يوميات حرب اكتوبر .... المشير محمد عبدالغنى الجمسى
١٦ ـ حافظ الأسد وعالمه الرحيب .... صفوان قدسى
١٧ ـ العراق دولة المنظمة السرية .... حسن العلوى
١٨ ـ البطل والتاريخ .... صفوان قدسى
١٩ ـ التكامل بين مرحلتين .... احمد الأسعد
٢٠ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين .... د. فيليب حتى
٢١ ـ تاريخ سورية ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ .... د. على سلطان
٢٢ ـ صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الايوبية) .... د. احمد الشامى
٢٣ ـ الطريق إلى الوحدة العربية .... د. عصمت سيف الدولة
٢٤ ـ مسيرة الثورة فى ربع قرن .... من منشورات دار النقب
٢٥ ـ الثورات السورية الكبرى فى ربع القرن ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ .... عبدالله يوركى حلاق
٢٦ ـ الانهيار الكبير.. اسباب قيام وسقوط وحدة مصر وسورية .... محمد عبدالمولى
٢٧ ـ وثائق وكالة الانباء السورية .... اشراف د. فايز صايغ
٢٨ ـ ناصـــر .... انتونى ناتنج
٢٩ ـ خطب وتصريحات الرئيس الأسد .... احمد قرنه
٣٠ ـ حافظ الأسد وتجربة الجبهة الوطنية التقدمية فى سورية ... د. رياض سليمان عواد

٣١ ـ حافظ الأسد قيم فكرية انسانية .... د. اسكندر لوقا
٣٢ ـ حزب البعث فى سبعة وثلاثين عاما .... منشورات دار النقب
٣٣ ـ المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس .... د. احمد عبدالكريم سليمان
٣٤ ـ حافظ الأسد.. الادانة التاريخية الثورية للارهاب الدولى .... هانى خليل
٣٥ ـ شعب وقائد .... الدكتور اسكندر لوقا
٣٦ ـ تاريخ الشرق العربى الحديث .... د. محمود حسنى صالح منسى
٣٧ ـ الندوة الفكرية الثانية حول الحرية .... حزب البعث العربى الاشتراكى
٣٨ ـ دراسات فكرية ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠ .... حزب البعث العربى الاشتراكى
٣٩ ـ السلام العالمى ونزع السلاح .... حزب البعث العربى الاشتراكى
٤٠ ـ حافظ الأسد قائد ورسالة .... فؤاد العشا
٤١ ـ النسيج الثورى بين آذار وتشرين .... د. نجاح العطار
٤٢ ـ السياسة الخارجية السورية .... بشار الجعفرى
٤٣ ـ حافظ الأسد الادانة التاريخية الثورية للارهاب الدولى .... هانىء خليل
٤٤ ـ المسئولية الدولية .... د. محمد حافظ غانم
٤٥ ـ المشكلة الفلسطينية على ضوء احكام القانون الدولى .... د. محمد حافظ غانم
٤٦ ـ المنظمات الدولية والاقليمية المتخصصة .... د. محمد حافظ غانم
٤٧ ـ محاكمات نورنبرج للزعماء والقادة النازيين ....
٤٨ ـ الغزو الاسرائيلى للبنان .... تاليف : مجموعة من الباحثين السوريين
٤٩ ـ المذهب العسكرى الاسرائيلى .... د. هيثم كيلانى
٥٠ ـ الأحزاب الاسرائيلية والحركات السياسية
مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية اشراف/ حبيب قهوجى
٥١ ـ الحركة الوطنية اللبنانية .... سامى دبيان
٥٢ ـ العرب فى اسرائيل .... تاليف : صبرى جريس

□□ كتب للمؤلف □□

أولا : باللغة العربية

(١) عمان والخليج .. قضايا ومناقشات .
الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر عام ١٩٦٩ (نفد) .
(٢) ثورة الجنوب ـ تجربة النضال وقضايا المستقبل .
الناشر : دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ (نفد) .
(٣) تطور ومسار الحركة الوطنية فى اليمن الديمقراطية .
الناشر : دار النصر بمصر عام ١٩٧١ (طبعتان نفدتا) .
(٤) وصفى التل القاتل والقتيل .
الناشر : دار هيردوت بلبنان عام ١٩٧٢ (٣ طبعات نفدت) .
(٥) الاغتيال فى الفكر السياسى والقانونى .
الناشر : دار هيردوت بلبنان عام ١٩٧٢(نفد) .
(٦) محاولة لفهم الثورة اليمنية .
الناشر : المكتب المصرى الحديث بمصر عام ١٩٧٤ (نفد) .
(٧) الرهان الاسرائيلى على جنوب السودان .
الناشر : المكتب المصرى الحديث بمصر عام ١٩٧٥ (نفد) .
(٨) الرجل والتحدى .
الناشر : المكتب المصرى الحديث عام ١٩٦٩ (طبعتان نفدتا) .
(٩) مع الاعتذار للامام موسى الصدر
الناشر : مكتبة مدبولى ـ القاهرة
(١٠) التاريخ لا تحركه الصدفه (قراءة فى فكر الأسد) .
الناشر : مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة .

ثانيا : باللغة الانجليزية

THE MAN AND THE CHALLENGE
Publisher : The modern Egyptian Bureau

ثالثا : كتب تصدر قريبا

١ ـ مصر في قلب ثائر .
٢ ـ ذكريات صحفية .
٣ ـ حكاية الجزائر .
٤ ـ مازق اليمن .
٥ ـ مهددات الأمن القومي في التسعينات .
٦ ـ اسرائيل وحرب المياه .
٧ ـ لبنان .. الجمهورية الثانية .
٨ ـ التنظيمات السياسية في الوطن العربي .

الفهـــرس

صفحة

رقم الايداع ٣٨٣٥ / ٩٣
I. S. B. N
977 - 08 - 0430 - 4

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم.

□□ هذا الكتاب :

□□ موضوع الكتاب هو « **التاريخ لا تحركه الصدفة .. قراءة فى فكر الأسد** » .. وهو محاولة عربية علمية جادة لدراسة التجربة السورية فى ظل قيادة الرئيس حافظ الأسد ، **فيه فهم ونفاذ إلى فكر الرئيس الأسد** ، وعقيدته الوحدوية ، وجهوده لبناء دولة المؤسسات .

وقد نجح المؤلف من خلال مجموعة هائلة من الوثائق والمعلومات والحقائق التى قدمها فى شرح وتحليل تجربة الجبهة الوطنية التقدمية فى سورية ، وهى تجربة رائدة ، كما نجح فى إيضاح المنحى القومى للسياسة السورية بعد حركة التصحيح .

وقد أجاد المؤلف فى عرض مواقف الرئيس الأسد من قضايا الأمة العربية والشعوب الاسلامية خاصة فى لبنان ، وفلسطين ، والخليج ، والحرب العراقية الايرانية .

كما يستعرض الكتاب **محصلة التعاون المصرى السورى عبر التاريخ وفى ظل قيادة الرئيسين حسنى مبارك وحافظ الأسد** ، هذا وسيتعرف القارىء بشكل مفصل من خلال صفحات الكتاب على مختلف ما شغل العرب فى الربع الأخير من هذا القرن .

الكتاب يعد من أعمق الدراسلت العربية التى تناولت شخصية الرئيس الأسد وأكثرها توفيقاً ، وعلمية ، ووثائقية . وهو كتاب جدير بالمطالعة والاقتناء ، وطابعه الاسناد الكامل بالوثائق .

الناشر :
دار أخبار اليوم